

المقدمة

[مقدمة المؤلف]

[خطبة الكتاب]

يقول العبد الفقير ، الذليل المضطرّ الحقيق ، مَنْ هو من صالح الأعمال^١ عَرِيّ : أحمدُ بن محمد الشهير بالمقَرِّي ، المغربي المالكي الأشعرِيّ ، أصلح الله تعالى حاله ، وجعل في مَرْضَاتِهِ حِلَّهُ وتَرَحُّلَهُ ، ومحا بغِيْثِ الطاعة والرضوان أمحاله ، وأنجَحَ ببلوغ آماله انتحاه وانتحاله^٢ :

أحمدُ من عَرَفَ من حُلَى الأمصار وعلى الأعيان ، على تداول الأعصار وتناول الأحيان ، ما فيه ذكرى لأولي الأبصار وإرشادٌ إلى معرفة الديان ، واعتبارٌ بأخبار راعٍ وصفها أو راقٍ . وشرفَ مَنْ صَرَفَ المطامع والمطامع ، إلى تفصيل ما أفاد لسانُ الدين من كلمٍ جوامع ، وتحصيل ما أجاد من حكيمٍ بوالغ سَحْبُ بلاغتها هوامع ، واقتناء ذخائر المهتدين التي تشنقتْ بدُرِّها اللوامعِ الآذانُ والمسامع ، من كل منحطٍ عن رتبة البراعة أو راقٍ . حتى توج

١ ط : المل .

٢ لم ترد هذه الفاتحة في ج ك .

الخطيبُ المجيد رؤوس المنابر بفرائد الكلام ، وحلّى الكاتبُ الأديبُ المجيد صدورَ المزابر من فوائد الأعلام ، وكحلّ الحكيمُ الطبيبُ الأريبُ المفيدُ من إتمد المحابر بمراود الأقلام عيونَ أوراق .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له الذي ابتدأ الخلقَ من غير مثال وبرّاً ، وقسّمَ العباد إلى حاضر وبادٍ وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه بالأنامل أيدي الكُبرّاء ، وأبدى في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتباين أدواتهم وأعراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومتناسبهم غيراً ، وجعل الدُّنيا لمن أتيج صغراً أو كبراً ، ولبس منهم مُسوحاً أو حَبيراً ، وأخلد إلى الأرض أو صَعِدَ منبراً ، جسراً إلى الآخرة ومَعْبَراً ، وحكم - وهو الفاعل المختارُ - على الجميع بالموت فكان لمبتداهم خَبَراً ، فيما له من داء أعبا كلّ معالج أو راقٍ .

فسبحانه من إله انفرّد بوجوب القدم والبقا ، واختص بفضله من شاء فارتنى ، وعَمَّ تعالى ذوي السعادة والشقا ، بالخلووث والفنا ، وأذاق من فراق الدُّنيا كلّ من فيها بلائنا^١ ، ممّن وفّق فنفي عن جفّنه وسنا ، أو خُدّل فجرّ في مَبْدَانِ الاغترار رَسْنَا ، وزُنّ له عياداً بالله سوء عمله فرآه حسناً، طَعَمَ شعُوب^٢ المرّ الجحّي ، فلم يغن منه عن ذوي الغنى والغنا ، وأهل السناء والسنا ، من استظهروا به من أرباب الصّوارم والقنا ، وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا ، فأولئك ألقوا السلاح مُدْعِين ، مستبصرين موقنين ، إذ جاء الحقُّ وزهقَ الباطل وولّى الامترآ ، وهؤلاء تركوا الاصطلاح مُعلنين^٣ ، عالمين أنهم لم يكونوا في التمويه مُحسنين ، وكيف لا وقد اضمحلّ

١ الثنا - بكسر التاء وضمها - إعادة الشيء مرتين ، أو الرجوع فيه . وفي ق ك ج : ثنيا .

٢ طعم : مفعول به للفعل « أذاق » . وشعوب : اسم للمنية .

٣ ط : معلّين .

الغرور والاجترأ ، وذهب والله الجور^١ والافتراء ، وبَدَّلَ مَذْقُ الإطراء
بصدق الإطراق^٢ .

وأشكره جلّ وعلا على أن علّم بالقلم ما لم نعلم ، ونبّه بآثاره الدالّة على
اقتداره إلى سلوك الطريقِ الأقوم ، الواضحِ المعْلَم ، وأرشد من أشرق فكره
وأضأ ، إلى التفويض لأحكام القضا ، ومن ذا يردُّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم ،
والتسليمُ على كل حال أسْلَم ، وأمرَ جلّ اسمُه بالتدبر في أنباء من مضى ،
والنظر في عواقب أحوال^٣ الذين زال أمرهم وانقضى ، من صنوف الأمم ،
ووبّخ من دجا قلبه بالإعراض عن ذلك وأظلم ، وشتان ما بين اللاهي والمتذكر ،
والساهي والمتفكر ، والناجي والهالك والمتحير ، والداجي الخالك والمشرق
النير ، وما يستوي الظلُّ والحرُّور ، والحزنُ والسرور ، والظلماتُ والنور ،
ذو البهجة والإشراق .

وأصلّي أزكى الصلاة والسلام ، هَدِيَّةً لحضرة سيد الأنام ، ولَبِيَّةً التمام ،
مَنْ زُوِيَتْ^٤ له من الأرضِ المِغَارِبُ والمِشَارِقُ ، وتم به نظام أنبياء الله ورسله
العظام ، وأزاح نورهُ الضلالَ والظلام ، حتى أضاءت بوسمه المساجد وازدانت
باسمه المِهَارِقُ^٥ . وألقى الموفقُ الموافقُ لدعوته بيد الاستسلام ، وذلك شأنُ
ذوي العقول الراجحة والأحلام ، غيرَ خائفٍ من عَتَبٍ ولا مترقبٍ لِمَلَامٍ ،
فأمن من الطوارئ والطوارق ، وتمت كلمة الإسلام الذي اتضح بُرهانه لذي
بصر وبصيرة لا يُحتاج إلى زيادة الإعلام ، وعلت سيوفُ توحيد الملك العلام ،

١ ط ق ج : الزور .

٢ مذك الإطراء : الشاء الكاذب . الإطراق : السكوت .

٣ أحوال : سقطت من ق .

٤ زويت الأرض : جمعت وطويت ، وفي الحديث « إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها
ومغارها » .

٥ المِهَارِق : الصحف .

من المعاندِ المُفارقِ المُفَارِقِ^١ ، وخضبتُها بَحْنَاءِ النجيعِ الرقراقِ . النبيّ الأميّ الأمين ، الداعي جميعَ العالمين ، إلى سلوكِ منهاجٍ ما له مِنْ هَاجٍ ، ذي أضواءِ شوارق ، سيد الرسلِ الغرِّ الميامين ، ملجأ الأمة جعلنا الله ممّنْ نجا باللّجاءِ إليه آمين ، الذي أنزل عليه القرآن ، هُدًى للناسِ وبيّناتٍ من الهدى والفرقان ، وانشقَّ له الزبرقان^٢ ، ونبع الماء من بين أصابعه زيادة في الإيقان ، وسلّمت عليه الأحجار ، وانقادت لأمره الأشجار ، متفتّحة ظلاله الشريفة وخطّت في الأرض أسطراً مُبدّعة الإتيان ، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق ، فهو صاحب الدعوة الجامعة ، والبراهين اللامعة ، والأدلة التي سقت الشجرة الطيبة غيوثها النافعة ، الصيّبة الهامية الهامعة ، الصادقة البوارق ، فأثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن إبراق . أسنى رسولٍ بُعث إلى الأرض ، وأعظمهم جلالته ، وأكثرهم تابعا في الطول منها والعرض ، ولم لا وقد ظهر به الحقُّ لمن أمّةٌ مُسترشداً وجلا له ، وأسمى ممّنْ جاء بتبيين السنّة والقرض ، وأعمّهم دلالة ، منقذ البرايا في الدُّنيا ويوم العرض ، الآخذ بِحُجَزِهِم عن النار والضلالة ، الداعي إلى تقديم الخير وحسن القرض ، الحريص على هداية الخلق المبلّغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولا ملالة ، ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان ، والمجد الصميم الثابت الأصول الباسق الأفنان ، المنتقى من محدّد معدّ بن عدنان ، المنتخب من خير عُنْصُرٍ وأطهر سُلالة ، شفيعنا ومَلَاذِنا وعصمتنا ومَعَاذِنا وثَمَالنا ، الذي نجحت به آمالنا ، وزكت به أقوالنا وأعمالنا ، ووسيلتنا الكبرى ، وعمدتنا العظمى في الأولى والأخرى ، وكثرنا الذي أعدّدناه لإزاحة الغيوم ذُخْراً ، وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبيّنا ومولانا محمّد الطيب المنابت والأعراق .

١ المفارق : جمع مفرق وهو الرأس ، وهو مفعول به للفعل « علت » .

٢ الزبرقان : القمر .

صلى الله وسلم عليه ، ووجه وفود التعظيم إليه ، من مُفَرَّدٍ في جماله صار لجمع الأنبياء تماماً ، وقدَّ في كماله تقدّم في حضرة التقديس التي أسست على التشريف أعظم تأسيس فصلتى ' بالمرسلين إماماً ، وصدرٍ تحلى بجميل الأوصاف ، كالوفاء والعفاف ، والصدق والإنصاف ، فزكا في أعماله ، وبلغت الراجي منتهى آماله ، ولم يُخْلِفْ وَعْداً ولم يَخْفِرْ ذمّاماً ، وسيدٌ كُسيَّ حُلل العِصْمة ، من كل مخالفة وذنب ووِصْمة ، فلم يصرف لغير طاعة مولاه ، الذي أولاه من التفضيل ما أولاه ، اهتبالاً واهتماماً .

وعلى آله وعترته ، الفائزين بأثرته ، أنصار الدين ، والمهاجرين المهتدين ، وأشياعه وذريته ، الطالعين نجوماً في سماء شهرته ، وأتباعهم القائمين بحقوق نُصْرته ، أرباب العقل الرصين ، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقِل الحصين ، حتى بلغت أحكام ملته ، وأعلامُ بعثته ، مَنْ بالأندلس والصين ، فضلاً عن الشام والعراق .

ورضي الله تعالى عن علماء أمته المصنفين في جميع العلوم والفنون ، وعظماء سنته الموفين للطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون ، وحكماء شُرْعته المتبصرين بملوث من مرّت عليه الأيام والشهور وكرّت عليه الآناء والدهور والأعوام والسنون ، المتدبرين في عواقب مَنْ كان بهذه البسيطة من السكان المتذكّرين على قدر الإمكان بمن طَحَّتْه رِحا المنون ، من أملاكِ العصور الخالية ومُلّاكِ القصور العالية وذوي الأحوال التي هي بسلوك الاختلاف حَالِيَة ، من بصير وأعمى وفقير وذو نَعْمى ومُخْتال تَرَدَّى بكبريائه ، ومُخْتال على ما بأيدي الناس بِسُمْنَعته وريائه ، وعاقِل أحسن العمل ، وغافل افتتن بالأمل ، وكارعٍ في حياض الشريعة ، وراتع برياض الآداب المريعة ، وذو وَرَعٍ سَدَّ عما رابه الذريعة ، وأخي طمع في أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة

الزوال السريعة ، ومقتبس من نبراس الرواية ، وملتبس بأدناس الغواية ،
 وشاعر هام في كل واد ، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد ، وجاهل
 عمَرَ الخراب ، وخُدع بالشراب ، عن أعذب الشراب ، ومحقق علم أنه
 إذا جاء القَدَر عَمِيَ البصر ممّن كان أَحذَرَ من غُرَاب ، وموفق تيقن أنّ
 غيرَ الله فان وكل الذي فوق التراب تُرَاب^١ ، ومن متخلق متجرد
 تَصَوَّف^٢ ، ومتعلق متفرد تشوّق إلى ما فيه رضا الرب وتشوّف ، ونَاهِ
 ذكّر بأيام الله وَوَعَظَ وخوَّف ، ولاه اغتر بالباطل ، فهو بالحق
 ماطل ، وطالما أَخْرَهُ وَسَوَّف ، وأبعد الانتجاع ، ثم أوى من باطنه
 إلى بيت قَعِيدَتُهُ لِكَعَاعِ^٣ ، نفسٍ أَمَّارَة بعدما طَوَّف ، ومن مادح
 نظم الآلاء نظم الآل ، وكادح طَمَسَ لآلاء العزّ بظلمة ذُلّ السؤال ،
 فجعل القصائد مصايد ، والرسائل وسائل ، والمقطّعات مُرَقَّعات^٤ ، قال أمره
 إلى ما آل ، ومن مُخْبِرٍ بما سمع ورأى ، حين اغترّب عن مكانه ونأى ، أو أقام
 في أوطانه فبلغ ما قدّر ووَأَى^٥ ، ومن مُجَازِف لا يفرّق بين الغثّ والسمين
 والإمرار والإحلاء ، وعارفٍ ثقة أمين نَظَّمَ دُرّ الصدف الثمين في أسلاك
 الكتابة والإملاء ، وعاشقٍ خنساء فكره ذات الصّدّار ، من الشجون والشعار ،
 تبكي على صَخْرِ قلبِ المحبوب ، وتذكره كلّما طلعت شمس أو كان للصّبَا

١ يشير إلى قول المتنبي :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

٢ متخلق : لايس أخلاق الثياب ، وهو ذو خلق . ومتجرد : عريان ، أو قد جرد نفسه للعبادة .

٣ من قول الخطيئة :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكعاع

والقعيدة اللكعاع هنا : نفسه الأمارّة بالسوء .

٤ المرقعات : ملابس المتصوفة ، والمعنى أنه جعل مقطعاته الشعرية وسيلة للتصيد كمرقعات المتصوفة .

٥ وأى : وعد وضمن بعزم .

هُبُوب^١ ، فتأتي بما يُطفي وَقودَ الجوى المشبوب من بحار الأشعار ، وليلى شوقه العفيفة عن العار ، تَرَفُّل في ثوب من التصبّر مُعار ، وقيس تَوَقُّه من ثوب السلو^٢ عار ، قد تولَّه واشتاق خصوصاً عند انتشاق البشام والعرار^٣ ، وقلقَ لما أرقَ فلم يقرَّ به قرار ، فاعتراه ما براه وألف البكاء بحكم الاضطرار ، ولَبِيسَ ثياب النحول والاصفرار ، وأسيرَ لما هُزِمَتْ جيوشُ صبره وأزمنتِ الفِرار ، فتحير ممّا شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق .

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الخطو ظَ فلا عتابَ ولا ملامَةَ
أَعْمَى وأَعشى ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وزرقاءَ اليمامة^٣
وَمُسَدَّدٌ أو جَائِرٌ أو حائِرٌ يَشْكُو ظِلَامَةَ^٤
لَوْلا استقامةُ مَنْ هَذَا ه لَمَّا تَبَيَّنَتِ العلامَةَ
ومجاورُ الغررِ المخي فِ لَهُ الْيَشَارَةُ بالسلامة
وأخو الحجى في سائرِ الأَنْفَاسِ مُرْتَقِبٌ حِمَامَةَ
وكَمَا مَضَى مَنْ قَبْلَهُ يَمْضِي ولم يقصِرِ التَّزَامَةَ
والجاهلُ المغترُّ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ التقوى اغْتِنَامَةَ
فليرفضِ العصيانَ مَنْ يَخْشَى مِنَ اللَّهِ انتقامَةَ

١ ألم هنا بإشارات إلى الخنساء التي لبست صداراً على أخيها صخر فلم تنزعه حتى ماتت ، وكانت تقول في شعرها :

« يذكرني طلوع الشمس صخرأ »

٢ فيه إشارات إلى قيس وليلى ، واشتداد الشوق عندما يهب التسيم حاملاً معه رائحة البشام والعرار وهما نباتان طيبا الرائحة من نبات نجد .

٣ أي أن الناس متفاوتون في حظوظهم فمنهم - من حيث الإبصار - الأعمى والأعشى والحاد البصر الذي يشبه زرقاء اليمامة ، وهي مضرب المثل في ذلك ، وقصة رؤية الجيش الذي غزا اليمامة من مسيرة أيام مشهورة . وفي ق ط ج : أعشى وأعمى .

٤ مسدد : حسن التوجه . الجائر : الحائد عن القصد . الحائر : الذي لا هو مسدد ولا جائر .

وليعتبرُ بسواهُ مَنْ لصلاحه صَرَفَ اهتمامه
 فالعيشُ في الدنيا الدنية غيرُ مرجوْ الإدامة
 مَنْ أَرْضَعَتْهُ ثُدْيَها في سُرْعَةٍ تبدأ فِطامه
 مَنْ عَزَّ جانبُهُ بها تنوي على الفور اهتمامه
 وإذا نظرتِ فأينَ مَنْ مَنَعَتْهُ أو مَنَحَتْ مَرَامه
 وَمَنْ الذي وَهَبَتْهُ وَصَه لَمْ يَخْشَ انصرامه
 وَمَنْ الذي مَدَّتْ لَهُ حَبْلًا فَلَمْ يَخَفِ انفِصامه
 كم واحدٍ غَرَّتْهُ إِذْ سَرَّتْهُ مخفية الدَّاماه
 قَعَدَتْ بهِ من حيثُ لم يَعْلَمْ فلم يملكِ قيامه
 أين الذين قلوبُهُمْ كَانَتْ بها ذاتِ استهامه
 أين الذين تَفَيَّأُوا ظلَّ السيادة والزَّعامه
 أينَ الملوكِ ذوو الرياسة والسياسة والصَّرامه
 وبنو أُمَيَّةَ حينَ جَمَعَهُمْ عَصْرُهُمْ لَمْ فِثَامه
 وَتَمَكَّنُوا مِمَّنْ يحَاوُلُ نَقْضَ ما شاعوا انبرامه
 وَتَعَشَّقُوا لما بَدَأَ لَهُمْ مُحِبًّا الأرضَ شامه
 وَتَأَمَّلُوا وَجْهَ البَسِيطة فانتنوا يهوون شامه
 حتَّى تَقَلَّصَ ظِلُّهُمْ وَأَرَاهُمْ الدهرُ اخترامه
 أينَ الخلائفُ مِنْ بَنِي العباسِ والبرِّ والقسامه

١ ق : مخفرة ذمامه .

٢ الاستهام : مصدر « استهام » بمعنى هام ، أي شغف .

٣ أي أنهم عشقوا وجه الأرض لما تبدي لهم شامة جذابة .

٤ شامة : ديار الشام . والبيت سقط من ق ط .

٥ للقسامة معان : فمها اليمين ، ورجل بر اليمين : لا يحنث بها ، والقسامة أيضاً : الهدنة بين

المسلمين وأعدائهم ، والبر القسامة : يشير إلى العباس عم الرسول وله مواقف في الوفاء مذكورة

في كتب السيرة ؛ وبه استقى عمر بن الخطاب لما قعط الناس ، ويمكن أن يكون معنى =

أَيْنَ الرَشِيدُ وَأَهْلُهُ وَبَنُوهُ أَصْحَابُ الشَّهَامَةِ
ووزِيرُهُ يَحْيَى وَجَعَهُ فَمَرَّ ابْنَهُ الرَّاوِي احْتِشَامَةً
وَالْفَضْلُ مُدَنِّي مَنْ يَقُو لُ مَنْ يَلُومُ عَلَى النَّدَى مَهْ
أَمْ أَيْنَ عَنَتَرَةُ الشَّجَا عُوذُو الْجِلْدَا كَعَبُ بْنُ مَامَهْ^١
وَالزَّاعِمُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنْ الْقُبُورَ صَدَّى وَهَامَهْ^٢
وَالْمَكْثُورُونَ مِنَ الْمَجُورِ نَ إِذَا شَكَا الْفَكْرُ اغْتِمَامَهْ
أَيْنَ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدُ أَوْ أَشْعَبُ وَأَبُو دُلَامَهْ
أَيْنَ الْأُتَى هَامُوا بِسَعْدِ دَى أَوْ بَثِينَهْ أَوْ أُمَامَهْ
وَبَكَّوْا لِفَرْطِ جَوَاهِمُ وَاللَّيْلُ قَدْ أَرْخَى ظَلَامَهْ
وَتَتَبَعُوا آثَارَ مَنْ عَشِقُوا بِنَجْدٍ أَوْ تِهَامَهْ
وَتَعَلَّلُوا ، وَالشَّوْقُ يَغْلَى بَ ، بِالْأَرَاكَةِ وَالْبِشَامَهْ
أَضَى النَّوَى قِيسًا فَقَا سَى لَاعِجًا أَغْرَى غَرَامَهْ
وَعَوَى هَوَى غَيْلَانَ مُذْ أَبْدَى بِمَيْتِهِ هَيَْامَهْ^٣
أَيْنَ الْأَكَاسِيرُ وَالْقِيَا صِرَّةُ الْمُجَلِّتُونَ الْغَمَامَهْ^٤
أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ الْحَاكِي اعْتَرَامَهْ^٥

= « برالقاسمة » هو هذا نفسه ، أي استخلف به مستقيماً فبر .

١ كعب بن مائة الإيادي : مضرب المثل في الإيثار ، لأنه آثر صاحبه النمري بالماء ومات هو ظمأً

(انظر السمت : ٨٤٠ وفصل المقال : ٢٧٨) .

٢ يشير إلى قول بعض الجاهليين :

يخبرنا ابن كبة أن سنجيا وكيف حياة أصداء وهام

٣ غيلان بن عقبة المري ، هو ذو الرمة الشاعر ، صاحب مية .

٤ المجلون الغمامة : الكاشفون الغمام أي الكربات .

٥ ضمن في هذا البيت قول المتنبي :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما يومه ما قومه ما المصرع

أَمْ أَيْنَ غُمْدَانُ وَسِي
 أَيْنَ الْخَوَزَنَقُ وَالسَّيْ
 وَمَدَائِنُ الْإِسْكَنْدَرِ
 أَيْنَ الْحُصُونُ وَمَنْ يَصُو
 أَيْنَ الْمَرَائِبُ وَالْمَوَا
 أَيْنَ الْعَاكِرُ وَالِدَسَا
 وَسَقَاتُهَا الْمُتَلَاعِبُو
 مِنْ كُلِّ أَهِيَّةٍ يَزْدَرِي
 ذِي غُرَّةٍ لِأَلَاؤِهَا
 فَالشَّمْسُ فِي أَزْرَارِهِ
 يُضْمِي الْقُلُوبَ إِذَا رَمَى
 وَيُرْوَقُ حُسْنًا إِنْ رَنَّا
 أَنْتَى لَهَا ثَغْرٌ حَلَا
 أَنْتَى لَهَا وَجْهٌ يَشُبُّ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِلْغَى
 بَلْ أَيْنَ أَرْبَابُ الْعُلُو
 وَذُؤُ الْوَزَارَةِ وَالْحِجَا
 كَالْمَمَةِ سَكَنُوا بِأَنْ
 هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الَّتِي
 لَا سِيَّمَا غُرْنَابَةُ الْ
 وَهِيَ الَّتِي دُعِيَتْ دِمَشَقُ

فُ وَالْوَفُودُ بِهِ أَمَامَةٌ ١
 رُ وَمَنْ شَقَى بِهِمَا أَوَامَةٌ ٢
 لَاتِي لَهَا أَعْلَى دِعَامَةٌ
 نُ بِهَا مِنَ الْأَعْدَا حُطَامَةٌ
 كُبُ وَالْعَصَائِبُ وَالْعِمَامَةُ
 كِرُ وَالنَّدَامَى فِي الْمُدَامَةِ
 نَ بَلْبٌ مَنْ أَعْطَوْهُ جَامَةٌ
 بِالْغُصْنِ إِنْ يَهْزُزُ قَوَامَةٌ
 تَمْحُو عَنْ النَّادِي ظَلَامَةٌ
 وَالبَدْرُ فِي يَدِهِ قَلَامَةٌ
 عَنْ قَوْسٍ حَاجِبِهِ سِيَّامَةٌ
 وَيَفُوقُ آرَامًا بِيرَامَةٌ
 ذَوْقًا لِمَنْ رَامَ التَّشَامَةَ
 بِقَلْبٍ مُبْصَرِهِ ضِرَامَةٌ
 وَلَا يَرَى الشَّرْعُ اعْتِيَامَةَ
 مِ أُولُو التَّصَدُّرِ وَالْإِمَامَةِ
 بَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعَلَامَةِ
 لِدَسٍ فَلَمْ يَشْكُوا سَامَةَ
 قَدْ أَذْكَرَتْ دَارَ الْمُقَامَةِ
 غُرَاءَ رَائِقَةِ الْوَسَامَةِ
 قَ وَحَسَبُهَا هَذَا فَخَامَةٌ

١ غمدان : قصر باليمن . وسيف : هو ابن ذي يزن ، ولما اعتلى العرش وفدت عليه الوفود لتهنئته
وكان فيها وفد قريش .

٢ الأوام : العطش .

لنزولِ أهليها بها
وأنتَ جيوشُ الشامِ من
فَسَلُّوا بِهَا عَن جَلْقٍ
وَبَدَأَ لَهُمْ وَجْهُ الْمُنَى
وَتَبَوَّأُوهَا حَضْرَةً
بِرُؤَاثِهَا وَبِمَاثِهَا
وَرِيَاضِهَا الْمُهْتَزَّةِ الـ
وَبِمَرْجِهَا النَّضْرِ الَّذِي
وَقُصُورِهَا الزُّهْرِ الَّتِي
يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ مَنْ
وَأَتَيْحَ فِي حَمَائِهَا
أَيْنَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْخَطِي
فَلَكُمْ أَبَانَ الْعَدْلَ فِي
وَلَكُمْ أَجَارَ عِدَاكُمْ
رَاعَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ دَوَّ
حَتَّى ثَوَى لِثَرِ الثَّوَى
مَنْ زَارَهَا فِي أَرْضٍ فَا
إِذْ نَبَّهَتْهُ لِكُلِّ شَمِ
هَذَا لِسَانُ الدِّينِ أَسْ
وَحَا عِبَارَتَهُ فَمَنْ
فَكَأَنَّهُ مَا أَمْسَكَ الـ

إِذْ أَظْهَرَ الْكَفْرَ انْهَامَةً
بَابِ نَقَى الْفَتْحُ انْبِهَامَةً
إِذْ أَشْبَهَتْهَا فِي الضَّخَامَةِ
وَأَرَاهُمُ الثَّغْرُ ابْتِسَامَةً
تُبْرِي مِنَ الْمَضَى سَقَامَةً
وَهَوَائِهَا النَّافِي الْوَحَامَةً
أَعْطَافٍ مِنْ شَدْوِ الْحَمَامَةِ
قَدْ زَيْنَ اللَّهُ ارْتِسَامَةً
يَأْبَى بِهَا الْحَسَنُ انْقِسَامَةً
أَمْضَى بِهَا الْمَلِكُ احْتِكَامَةً
عِزًّا بِهِ زَانَ اتِّسَامَةً
بِهَا فَمَا أَحْلَى كَلَامَةً
أَرْجَائِهَا وَبِهَا أَقَامَةً
أَجْرَى نَدَى وَآلَى انْسِجَامَةً
لَتَهُ وَمَا رَاعَتْ ذِمَامَةً
فِي حُقُورَةٍ نَشَرَتْ نِظَامَةً^١
سِ أَذْهَبَتْ شَجَوًّا مَنَامَةً^٢
لِ شَتَّتَ الْمَوْتَ الثَّامَةً
كَتَهُ وَأَسْكَنَهُ رِجَامَةً
حَيَّاهُ لَمْ يَرْدُدْ سَلَامَةً
قَلَّمَ الْمَطَاعَ وَلَا حُسَامَةً

١ التوى : الهلاك .

٢ قبر لسان الدين بمدينة فاس عند باب المحروق منها .

وكأنه لم يعل مت ن مطهم باري النعمة
وكأنه لم يرق غا رب الاعتزاز ولا ستامة
وكأنه لم يجل وجهاً حاز من بشر تمامة
وكأنه ما جال في أمر ولا نهى وسامة
وكأنه ما نال من ملك حياه ولا احترامه^١
وكأنه لم يلتقي في يده لتدبير زمامة
مذ فارق الدنيا وقد وض عن منازلها خيامة
أمنى بقبر مفرداً والترب قد جمعت عظامه
من بعد ثنية الوزا رة جاده صوب الغمامة^٢
لم يبق إلا ذكره كالزهر مفتر الكمامة
والعمر مثل الضيف أو كالطيف ليس له إقامة
والموت حتم ثم به يد الموت أهوال القيامة
والناس مجزون عن أعمال ميل واستقامة
فذوو السعادة يضحكو ن وغيرهم يبكي ندامة
والله يفعل فيهم ما شاء ذلاً أو كرامة
ويشقق المختار في هم حين يبعثه مقامة
وعليه خير صلاته مع صحبه تلو سلامة
والتابعين ومن بدا برق الرشاد له فشامة
ما فاز بالرضوان عبداً كانت الحسنى ختامة

والله سبحانه المسؤول في الفوز والنجاة كرمًا منه وحلمًا ، فبيده الخير لا إله
إلا هو العلي الكبير ، العليم الخبير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فلا يعزب
عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق .

١ حياه : أي حياه وهو العطاء .

٢ ثنية الوزارة : أي ذو الوزارتين وهو لقب لسان الدين .

[حنين إلى الوطن]

أَمَّا بَعْدَ حمد الله مالك الملك ، والصلاة على رسوله المنجي من الهلك ،
والرضا عن آله وصحبه الذين تجلّت بأنوارهم الظلم الحُلك ، وعن العلماء
الأعلام ، الخائفين بحار الكلام ، المستوين من البلاغة على القُلُك - فيقول
العبد الحقير ، المذنب الذي هو إلى رحمة ربّه الغنيّ فقير^١ ، المقصّر المتبرّيء
من الحَوْل والقوّة ، المتمسكُ بأذيال الخدمة للسُنّة والنبوّة ، وذلك بفضل الله
أمانٌ وبراءة ، الضعيفُ الفاني ، الخطّاء^٢ الجاني ، مَنْ هو من لباس التقوى عَرِيّ ،
أحمد بن محمّد بن أحمد الشهير بالمقَرِّيّ ، المغربي المالكي الأشعري^٣ ، التلمسانيّ
المولِد والمنشئ والقراءة ، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة ، أصلح الله أحواله
الباطنة والظاهرة ، وجعله من ذوي الأوصاف الزكيّة ، والخلال الطاهرة ، وسدّد
في كل قصد أنحاهُ وآراءه ، ووفّقهُ بمنّه وكرمه للأعمال الصالحة ، والطاعات
الناجحة الراجعة ، والمتاجر المغبوضة الراجعة ، والمساعي الغادية بالخير الرائحة ،
ووقاه ما بين يده ووراءه ، وكفاه مكر الكائد واقتراءه ، وجيدّال الحاسد
المستأسد وميرآه ، وجعل فيما يرضيه سَوْمَه وشراءه ، آمين :

إنّه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقّب أو ردّ ، ولا محيد
عما شاءه سواء كرهه ذلك المرء أو ردّ ، برحلي من بلادي ، ونُقِلْتِي عن
محلّ طارفي وتِلادي ، بقُطُر المغرب الأقصى ، الذي تمت محاسنه لَوَلا أنّ
سماسيرة الفتن سامت بضائع أمنه نَقَصا ، وطما به بحرُ الأهوال فاستعملت
شعراء العَيْثِ في كامل رَوْنقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقَصا :

١ في ج ق ط : رحمة الغني فقير .

٢ ق : المخطئ .

٣ في ط ق : المالكي المغربي .

٤ في ج ق ط : الزاكية .

قُطِرُ كَانَ نَسِيمَهُ نَفَحَاتُ كَافُورٍ وَمِسْكِ
وَكَانَ زَهْرَ رِيَاذِهِ دُرٌّ هَوَى مِنْ نَظْمِ سِلْكِ

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف ، تاركاً المنصب
والأهل والوطن والإلف :

بَلَدٌ طَابَ لِي بِهِ الْأَنْسُ حِيناً وَصفا الْعَوْدُ فِيهِ وَالْإِبْدَاءُ
فَسَقَتْ عَهْدَهُ الْعِهَادُ وَرَوَتْ مِنْهُ تِلْكَ النَوَادِي الْأَنْدَاءُ

وما عسى أن أذكر في إقليم ، تعينَ لحجّةِ فضلهِ التسليم :
أَضَوَاؤُهُ طَبَقُ الْمَنَى ، وَهَوَاؤُهُ يَشْتَاقُهُ الْوَهَّانُ فِي الْأَسْحَارِ
وَالطَّبِيعُ مَعْتَدٌ فَقُلْ مَا شِئْتَهُ فِي الظِّلِّ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَنْهَارِ

محل فتح الكمائم ، ومسقط الرأس وقطع التمام :

بِهِ كَانَ الشَّبَابُ اللَّدُنُ غَضّاً وَدَهْرِي كُلَّهُ زَمَنَ الرَّبِيعِ
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَوْنٌ لَهُ شَغَفٌ بِتَفْرِيقِ الْجَمِيعِ

لم أنس تلك النّواعم ، التي أيامها للعمر مَوَاسِمٌ ، وثغورها بالسُرور بوَاسِمٌ ،
فصرت أشير إليها وقد زُمْتُ للرحيل القُلُوصُ الرَوَاسِمُ :

وَلَنَا بِهَاتِيكَ الدِّيارِ مَوَاسِمٌ كَانَتْ تُقَامُ لَطِيبِهَا الْأَسْوَاقُ
فَأَبَانَتَا عَنْهَا الزَّمَانُ بِسُرْعَةٍ وَغَدَتْ تُعَلِّلُنَا بِهَا الْأَشْوَاقُ

وأنشد قولَ غِيْلَانٍ^١ :

أَمْنَزِلَتِي مَيِّ سَلَامٌ عَلَيْكُمَا هَلْ الْأَزْمُنُ الْأَلَامِي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

١ هو ذو الرمة الذي تقدمت إليه الإشارة ، والبيت في ديوانه : ٣٣٢ .

وأتمثل في تلك الحداثات التي حمانها سواجم ، بقول مَنْ جفونهُ من
الهوى غير هواجم :

تَشْدُو بِعِيدَانِ الرِّياضِ حِمَامٌ شَدَوَ الْقِيَانِ عَزَقْنَ بِالْأَعْوَادِ
مَادَ النِّسِيمُ بِقُضْبِهَا فَمَا يَلَتْ مُهْتَزَّةَ الْأَعْطَافِ وَالْأَجْيَادِ
هَـذِي تَوَدِّعُ تِلْكَ تَوَدِّعَ الَّتِي قَدْ آذَنْتَ مِنْهَا بَوْشَكَ بِعَادِ
وَأَسْتَعْبَرْتَ لِفِرَاقِهَا عَيْنُ النَّدى فَايْتَلَّ مِثْرُ عِطْفِهَا الْمِيَادِ

وأحدق النظر إلى رَوْضٍ ، لإنسان العين من فراقه في بحر الدموع سَبَحَ
وَحَوْضَ :

رَوْضٌ بِهِ أَشْيَاءٌ لِي سَتَ فِي سِوَاهِ تَوَلَّفَ
فَمَنْ الْهَزَارِ تَرْتُمُ وَمِنْ الْقَمْضِيبِ تَقَطَّفَ
وَمِنْ النِّسِيمِ تَلْطُفُ وَمِنْ اللَّحْدِيرِ تَعَطَّفَ

وألتفت كالمستريب ، والحيُّ إذ ذاك قريب ، وحديثُ العهد ليس بمنكر
ولا غريب :

أهذا ولما تَمَضَى لِلْبَيْنِ سَاعَةٌ فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ
والآثار لائحة ، والشمال غادية بأذكي رائحة ١ :

أَرَى آثَارَهُمْ فَأَذُوبُ شَوْقًا وَأَسْكُبُ مِنْ تَذَكُّرِهِمْ دُمُوعِي
وَأَسْأَلُ مَنْ قَضَى بِفِرَاقِ حَبِي يَمُنُّ عَلَيَّ مِنْهُمْ بِالرَّجُوعِ

والنفس متعللة ببعض الأنس ، والمشاهدُ الجميلة لم تُنس :

تِلْكَ الْعُهُودُ بِشَدِّهَا مَخْتومةٌ عِنْدِي كَمَا هِيَ عَقْدُهَا لَمْ يُحْلَلْ

١ ك : غادية ورائحة .

غير أن الرّحيل ، عن الرّبع المُحِيل ، فُصِّلَ به بينَ الشائق والمشوق وحيل :

وقَفْنَا بِرَبْعِ الحَبِّ والحَبِّ راحِل	نحاولُ رُجْعَاهُ لَنَا ويُحاولُ
وألَقَّتْ دموعُ العينِ فيه مَسَائِلًا	لها عن عِباراتِ الغَرامِ دلائلُ
وبالسَّفْحِ منها كم سَقَيْتُ لِبَانِهَا	فمِيلَتْهُ والسَّفْحُ لِلْبَانِ مائلُ
إذا نَسَمَةُ الأَحْبابِ منها تَنَسَّمَتْ	تطيبُ بها أَسْحَارُنَا والأَصَائِلُ
تُثِيرُ شَجُونِي ساجعاتُ غصونها	فَمِنْهَا على الحَالَتَيْنِ هاجَتْ بِلَابِلُ
مرابعُ الأَفي ^١ مراتعٍ لذَّتي	مطالعُ أَقماري بها والمنازلُ

فحيّاها الله من منازلِ ذاتِ أَقمارٍ سائِرةٍ فيها ، ومَنازِرِهِ لا يُحْصِي
الواصفُ محاسنها وأمداحَ أهلها ولا يستوفيها :

حَلَّوْا عَقودَ اصْطِباري عندما رَحَلُوا وفي الحَمَائِلِ حَلَّوْا مِثْلَ أَمْطارِ
إنَّ المَنازِلَ قَدْ كَانَتْ مَنازِرَهُ إِذْ باتُوا بها وَهِيَ أوطاني وأوطاري

ورعى الله مَنْ بَانَ ، وشاقَ حَتَّى الرَّندِ والبَانَ :

باتُوا لِعَيْنِي أَقماراً ثَقُلَهُمْ لُذُنُ الغُصُونِ فَلَمَّا آنَسُوا بانُوا
عُهودهم لَسْتُ أَنسَاهَا ، وكيفَ وقد رَئَى لِبْنِي عنها الرَّندُ والبَانَ

وفي مِثْلَ هذا الموطنِ تَذُوبُ القُلُوبِ الرِّقاقِ ، كما قالَ حائِزُ قَصَبِ السَّبْقِ
بالاستحقاقِ ، الأديبُ الأندلسي الشهير بَابنِ الزَّقاقِ^٢ :

وقَفْتُ على الرُّبوعِ ولي حَنِينٌ لساكنهنَّ لَيْسَ إلى الرُّبوعِ

١ ك : مراتع ليل في .

٢ ابن الزقاق علي بن عطية (حدود ٥٣٠) ابن أخت الشاعر الأندلسي أبي إسحاق ابن خفاجة ،
وترجمته في التكملة : ١٨٤٤ والذيل والتكملة ٥ : ٢٦٥ والمطرب : ١٠١ والفوات ٢ :
١٢٥ والمغرب ٢ : ٣٢٣ ، والبيتان في ديوانه : ١٩٨ .

وَلَوْ أَنِّي حَنَنْتُ إِلَى مَعَانِي أَحِبَّائِي حَنَنْتُ عَلَى ضُلُوعِي

وكما قال بعض مَنْ له في هذه الفِجَاجِ مسير :

دخولك من باب الهوى إن أردتهُ سيرٌ ، ولكنَّ الخروجَ عسيرُ

وأين مَنْ له صَفَاةٌ لا يطمع الدهر القوي في نَحْتِهَا ، وجَنَاتٌ دنيوِيَّةٌ
لا تجري أنهارُ الفراق من نَحْتِهَا :

فَسَقَى رَضِيعَ النبت من ذاك الحمى بحباً تلور على الرُّبَى كاساته
سَفَحٌ سَفَحَتْ عليه دَمْعِي في ثرى كالمسكِ ضاعَ من الفتاة فتاتهُ

ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق ، واتصافي^١ في أثر ذلك
الجمع بالفرق :

أَحِينَ إِذَا خَلَوْتُ إِلَى زَمَانٍ تَقَضَّى لِي بِأَفْنِيَةِ الرَّبُوعِ
وَأَذْكُرُ طَيْبَ أَيَّامٍ تَوَلَّتْ لَنَا فَتْفِيزٌ مِنْ أَسْفٍ دَمُوعِي

وأَتَوْقُ وَقَدْ اتَّسَعَ مِنَ الْبُعْدِ الْخَرَقُ ، وَخُصُوصاً إِذَا شَدَا صَادِحٌ أَوْ أَوْمَضَ
بَرْقٌ ، إِلَى دِيَارٍ لَا يَعْلَمُهَا اخْتِيَارُ :

وَأَرْبِعُ أَحِبَّابٍ إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا	بَكَيْتُ ، وَقَدْ يُبْكِيكَ مَا أَنْتَ ذَاكِرُ
بِطَاحٍ وَأَدْوَاخٍ يَرُوقُكَ حُسْنُهَا	بِكُلِّ خَلِيجٍ نَمْنَمَتِهِ الْأَزَاهِرُ
فَمَا هُوَ إِلَّا فِضَّةٌ فِي زَبَرْجَدٍ	تَسَاقَطَ فِيهِ الْوُلُؤُ الْمُتَنَائِرُ
بَحِثُ الصَّبَا وَالتُّرْبُ وَالْمَاءُ وَالْهَوَى	عَبِيرٌ وَكَافُورٌ وَرَاحٌ وَعَاطِرُ
وَمَا جَنَّةُ الدُّنْيَا سِوَى مَا وَصَفْتُهُ	وَمَا ضَمَّ مِنْهُ الْحَسَنُ نَجْدٌ وَحَاجِرُ
بِيلَادِي الَّتِي أَهْلِي بِهَا وَأَحْبَبِي	وَقَلْبِي وَرُوحِي ^٢ وَالْمَنَى وَالْخَوَاطِرُ

١ ك : واتصالي .

٢ ك : وروحي وقلبي .

تذكرني أنجادها وهادها
إذ العيش صاف والزمان مساعد
بحيث ليالينا كغض شبابنا
ليالي كانت للشبيبة دولة
سلام على تلك العهود فإنها
موارد أفراح تلتها مصادر
عهوداً مضت لي وهي خضر نواضر
فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
وأيامنا سلك ونحن جواهر
بها ملك اللذات ناه وأمر
موارد أفراح تلتها مصادر

وأتذكر تلك الأيام ، التي مرت كالأحلام ، فأتمثل بقول بعض الأكابر
الأعلام :

يا ديار السرور لا زال يبكي
رب عيش صحبته فيك غص
في ليل كآتهن أمان
وكان الأوقات فيك كؤوس
زمن مسعد وإلف وصول
فيك إذ تضحك الرياض غمام
وعيون الفراق عنا نيام
في زمان كآته أحلام
دائرات وأنسهن مدام
ومنى تستلذها الأوهام

ويقول الحائك الأمي ، عندما يكثر شجنوي وغمي :

لم أنس أياماً مضت ولياليا
إذ نحن لا نخشى الرقيب ولم نخف
والعيش غص والحواسد نوم
في روضة أبدت ثغور زهورها
مد الربيع على الخمائل نوره
تبدو الأفاجي مثل ثغر أشنب
وعيون نرجسها كأعين غادة
وكذلك المنثور منشور بها
والطير تصدح في فروع فنونها
سلفت وعيشاً بالصريم نصرماً
صرف الزمان ولا نطيع اللوما
عنا وعين البين قد كحلت عى
لما بكى فيها الغمام تبسماً
فيها فأصبح كالخيام مخيماً
أضحى المحب به كثيراً مغرماً
ترنو فرمي بالتواظ أسهما
لما رأى ورد الحدود منظماً
سحراً فتوقظ بالهديل النوما

وأُميل ، إلى بلاد مُحَيَّاهَا جميل ^١ :

كساها الحيا بُرْدَ الشباب فإنَّها بلادُ بها عَقَّ الشبابُ تَمائمي
ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنَّما قد حَتَّ بنارِ الشوقِ بَيْنَ الحيازِمِ
لياليَ لا أُلوي على رُشدٍ ناصحٍ عِناني ، ولا أثنيه عن غَيِّ لائِمِ
أنالُ سُهادي من عيونِ نواعسٍ وأجني مرادي من غصونِ نواعِمِ
وليلٍ لنا بالسَّدِّ بينَ معاطِفِ من النهرِ ينسابُ انسيابَ الأرقامِ
تَمَرُّ إلينا ثم عَنَّا ^٢ كأنَّها حواسِدُ تمشي بَيْنَنا بالنِّمائِمِ
وبِيتنا ولا واشٍ نخافُ كأنَّما حلَّلنا مكانَ السرِّ من صدرِ كاتمِ

وأهفو إلى قصور ذاتِ بَهْجَةٍ ، وصُروحِ توضحِ معالمها للرائدِ نَهْجَه :

ورِياضٍ تَحْتالُ منها غِصونُ ^٣ في بُرودٍ من زهرها وعُقودِ
فكأنَّ الأدواحَ فيها غَوَّانُ تتبارى زَهْواً بحسنِ القُدودِ
وكانَّ الأطيَّارَ فيها قِيانُ ^٤ تتغنَّى في كلِّ عودِ بعودِ
وكانَّ الأزهارَ في حَوْمَةِ الرو ضِـرِ سيوفٍ تُسَلُّ تحتِ بُنودِ

وأصبو إلى بِطاحٍ وأدواحٍ ، تروِّحِ النفوسِ والأرواحِ ^٥ :

سَقِيًّا لها من بِطاحٍ خَزَرٍ ودَوَّحِ زهري بها مُطِيلٍ
إذ لا ترى غيرَ وَجْهِ شمسٍ أَطْلَ فيه عِذارُ ظِلٍ

وأَنهارٍ جارِيَةٍ ، وأزهارٍ نَوَّاسِمُها سارية ، وأربُعٍ ومَلْعَبٍ ، تُزْجِحِ

١ هذه الأبيات للشاعر الأندلسي محمد بن عمار (انظر أشعاره : ٢١٠ ملحقة بدراسة الدكتور

صلاح خالص ، وراجع أيضاً الوافي ٤ : ٢٣٢ ووفيات الأعيان ٤ : ٥٤) .

٢ الديوان : تسر إلينا ثم عنا .

٣ البيتان لابن خفاجة (ديوانه : ١٤٠) وفيه : بطاح أنس .

عن مبصرها المتاعب^١ :

تلك المنازلُ والملا عبُ لا أراها الله محلاً
أوطنتُها زمنَ الصبا وجعلتُ فيها لي محلاً
حيثُ التفتُ رأيتُ ما ء سائحاً ورأيتُ ظلاً
والنهرُ يفصلُ بينَ زهـ رِ الروض في الشَّطَينِ فصلاً
كبساطٍ وشي جردتُ أيدي القيونِ عليه نصلاً

ولمنا منازل ، يستفزُّ حسنُها الرائقُ الجادَّ والمهازل ، ويشفي منظرها عليلاً ،
ويكفي مخبرُها للمستفهم دليلاً :

وجنانِ ألفتُها حينَ غنتُ حولها الورقُ بُكرةً وأصيلاً
نهرها مسرعاً جرى وتمشتُ في رُبَاها الصبا قليلاً قليلاً

وأتمثل إن ذكرتُ حال وداعي ، بقول الشاعر الأديب الوداعي^٢ :

الغربُ خيرٌ وعند ساكنه أمانةٌ أوجبَتْ تقدُّمهُ
فالشرقُ من نيتِريتهِ عندهمُ يودِعُ دينارَهُ ودرهمَهُ

وبقول غيره ، إشارةً لفضل الغرب وخيره :

أشتاق للغربِ وأصبو إلى معاهدٍ فيه وعَصْرِ الصبا
يا صاحبي نجواي والليلُ قد أرخى جلابيبَ الدُّجَى واختبا
لا تعجبا من ناظرٍ ساهي باتَ يُراعي أنجماً غيباً
القلبُ في آثارها طائرٌ لما رآها تقصدُ المغرباً

١ الأبيات لأبي فراس الحمداني (ديوانه ٢ : ٣٢٧) .

٢ هو علي بن المظفر ، علاء الدين الوداعي (- ٧١٦) من أهل الإسكندرية ، أقام بدمشق . (انظر

الدرر الكامنة ٣ : ١٣٠ والفوات ٢ : ١٧٣) .

وأهيم كلما حَلَكْتُ من غير أن أرضي بمكان ، وقد صير السائق جَدَّ
السير معمولاً لـ « ما انفكَّ » كما جعله خيراً لـ « كان » ، بقول قاضي
القضاة العالم الكبير الشمس ابن خَلَّكان^١ :

أيُّ ليلٍ على المحبِّ أطالَهْ	سائقُ الظَّعنِ يومَ زَمَّ جِمالَهْ
يزجرُ العيسَ طاوياً يقطعُ المَهْ	مهَّ عَسْفاً سهولَه ورمالَه
أيها السائقُ المجدُّ ترفقْ	بالمطايا فقد سئمنَ الرِّحالَه
وأنخها هنيهةً وأرحها	إذ برَّأها السُّرى وفرطَ الكلالَه
لا تَطِلْ سيرها العنيفَ فقد برَّ	حَ بالصبِّ في سُرَّأها الإطالَه
وارثٌ للنازحِ الذي إن رأى ربَّه	مأ ثوى فيه نادباً أطلالَه
يسألُ الرِّبعَ عن ظباءِ المصلَّى	ما على الرِّبعِ لو أجاب سؤالَه
ومُحالٌ من المُحيلِ جوابٌ	غيرَ أنَّ الوقوفَ فيه عُلالَه
هذه سنَّةُ المحبِّين يَكُو	نَ على كلِّ منزلٍ لا مَحالَه
يا ديارَ الأحبابِ لا زالتِ الأء	ينُ ^٢ في تُربِ ساحتيك مُذالَه
وتمشى النسيمُ وهوَ عليلٌ	في مغانيكِ ساحباً أذبالَه
أين عيش مضي لنا فيك ؟ ما أم	رع عنا ذهابه وزوالَه
حيث وجهُ الزمان طلقَ نضيرٌ	والتداني غصونه مِيالَه
ولنا فيك طيبُ أوقاتِ أنسٍ	ليتنا في المنام نلقى مثالَه

وأردد قولَ الذي سحر الألباب ، منادياً مَنْ له من الأحباب :

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم	من الصباية ما لاقيتُ في الظَّعنِ
لأصبحَ البحرُ من أنفاسكم يَبَساً	والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسُّفنِ

١ هو أحمد بن محمد بن خلكان الإربلي الشافعي (- ٦٨١) صاحب كتاب وفيات الأعيان، والأبيات

من قصيدة أوردتها ابن شاعر في القوات ١ : ١٠٤ .

٢ القوات : الأدمع ، وهو أصوب .

وقوله :

وما تغيرتُ عن ذاك الودادِ ، ولا
درسي غرامي بكم دهري أكرره^١
حالتُ بي الحالُ في عهدي وميثاقِي
وقد تَفَقَّهْتُ في وجدي وأشواقِي

وقول المجد بن شمس الخلافة^٢ ، معلماً أنه لا يريد بَدَلَ معهده وخلافه :

يا زَمانَ اِهْوَى عَلَيكَ السَّلامُ
أَيُّ عيش قطعته فيك لو دا
وعلَيَّ السُّلُوْ عَنكَ حَرَامُ
م وهل يُرْتَجَى لظلِّ دَوامُ
كنتَ حُلماً والعيشُ فيك خيالاً^٣
وسريعاً ما تنقضي الأحلامُ
لهفَ نفسي على ليالٍ تَقَضَّتْ
سلبتني بُرودَها الأَيَّامُ
فَطَمَمَتْنِي الأَقْدارُ عَنْهَا وليداً^٤
وشديدٌ على الوليدِ الفِطامُ
لا تلمني على البكاءِ عَلَيْها
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ فليس يَلامُ

وقول أبي طاهر الخطيب الموصلي :

حَتَّى نَجْدَا عَنِّي وَمَنْ حَلَّ نَجْدَا
واقِر عني السَّلامَ آرامَ ذاكِ^١
أرْبُعاً هِجَنَ لي غراماً ووَجْدَا
وابنك عَنِّي حَتَّى تُرْتَحَ بالوج
شُعْبَ والأَجْرَعِ الخَصِيبَ الفَرْدَا^٢
فلَكم وقفةٌ أَطَلْتُ^٣ على الضَّ
لَ أَرَاكَ بِهِ وباناً ورَتْدَا^٤
وعلى البانِ كَم مِـنَ البينِ أَذْرِي^٥
لَ بدمعٍ أَذاعَ سَري وأَبْدَى
آه والهَفْيَ عَلى طيبِ عيشٍ
تُ لآلِي للدمعِ مِثْنِي ووَحْدَا^٦
كنتُ قَطَعْتُهُ وصالاً ووَدَا^٧

١ مجد الملك جعفر بن محمد (شمس الخلافة) (٦٢٢ -) ، شاعر مصري ؛ انظر ترجمته في وفيات

الأعيان (١ : ٣١٣) .

٢ ك : المفدى .

٣ ق ط ج : ظلت .

حيثُ عودُ الشبابِ غَضُّ نَضِيرٍ ويدُ المكرماتِ بالجودِ تَنَدَى
والخليلُ الودودُ يُنْعِمُ إِسْعَا فأَ وصَرَفُ الزمانِ يزدادُ بُعْدَا
والليالي مَسَاعِدَاتٌ عَلَى الوَصِّ لِي وعينُ الرقيبِ إِذْ ذاكَ رَمْدَا
كَمْ بِهَا مِنْ لُبَانَةٍ لِي وَأَوْطَا رِي تَقَضَّتْ وَجازتِ الحَدَّ حَدَا
فاستعادَ الزمانُ ما كَانَ أُعْطِيَ خِلْسَةً لِي بِيخْلِهِ واسْتَرَدَا

وقول بعضهم :

سلامٌ على تلكِ المعاهدِ ، إِنَّهَا شريعةٌ وِرْدِي أو مَهَبٌ شَمَالِي
لِيَالِي لَمْ نَحْذَرْ حَزُونِ قَطِيعَةٍ ولم نَمَشْ إِلَّا فِي سُهولِ وَصَالِ
فقد صرَّتْ أَرْضِي مِنْ نَوَاحِي جَنَابِهَا بِخُلْبِ بَرَقٍ أو بِطِيفِ خِيَالِ
وقول الجرجاني ^١ :

لِلْمُحِبِّينَ مِنْ حِذَارِ الْفِرَاقِ عِبْرَاتٌ تَجُولُ بَيْنَ الْمَآقِي ٤
فَإِذَا مَا اسْتَقَلَّتِ الْعَيْسُ لِلِّي نِ وَسَارَتْ حُدَاتُهَا بِالرِّفَاقِ
اسْتَهَلَّتْ عَلَى الْخُدُودِ انْحِدَاراً كَانْحِدَارِ الْجُمَانِ فِي الْإِتْسَاقِ
كَمْ مَحَبٍّ يَرَى التَّجَلُّدَ دِيناً فَهُوَ يُخْفِي مِنَ الْهَوَى مَا يَلَاقِي
ازدهاهُ النوى فَأَعْرَبَ بِالْوَجِّ لِي لِسَانٌ عَنْ دَمْعِهِ الْمُهْرَاقِ
وَانْحِدَارُ الدَّمْعِ فِي مَوْقِفِ الْبِي نِ عَلَى الْحَدِّ آيَةُ الْعُشَاقِ
هَوْنٌ الْخُطْبَ لَسْتُ أَوَّلَ صَبٍّ فَضَحَّتْهُ الدَّمْعُ يَوْمَ الْفِرَاقِ

وقول الخطيب الحصكفي الشافعي ^٢ :

١ لعله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه (انظر ترجمته في اليتيمة ٤ : ٣ ووفيات الأعيان ٢ : ٤٤٠) .
٢ الخطيب الحصكفي هو يحيى بن سلامة بن الحسين ، معين الدين (- ٥٥٣) أحد شعراء الخريدة (ج ٢ : ٤٧١ من قسم الشام ووفيات الأعيان ٥ : ٢٥١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ١٨ والمنتظم ١٠ : ١٨٣ وطبقات السبكي ٤ : ٣٢٢) .

سارُوا وأكبادُنَا جَرَحَى وأَعِينُنَا قَرَحَى وأنفُسُنَا سَكَّرَى من القَلَقِ
تَشْكُو بواطِنُنَا من بَعْدِهِمْ حَرَقًا لَكِنْ ظواهرُنَا تَشْكُو من الغَرَقِ
كَأَنَّهُمْ فوق أَكْوَارِ المَطيِّ وَقَدْ سَارَتْ مَقْطَرَةٌ في حَالِكِ العَسَقِ
دَرَارِيءُ الزَّهَرِ في الأَبْرَاجِ زَاهِرَةٌ تَسِيرُ في الفَلَكِ الجَارِي على نَسَقِ
يَا موحِشِي الدَّارِ مَذَبَانُوا كَمَا أُنْسَتْ بِقَرَبِهِمْ لَا خَلَّتْ من صَيِّبِ غَدَقِ
إِنْ غَبْتُمْ لَمْ تَغْيِبُوا عن ضِمَائِرِنَا وَإِنْ حَضَرْتُمْ حَمَلْنَا كَمِ على الحَدَقِ

وما أحسن قول بعضهم في هذا المعنى ، الذي كررنا ذكره وبه اللمعنا :

سلامٌ على أهلِ الودادِ وعهدهم إذ الأُنسُ رَوْضٌ والسُرورُ فنونٌ
رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا ففاضتْ لِرَوَاعِي الفراقِ عيونٌ

وكم أنشدتُ وليالي النوى عاتمةً ، قولَ الأندلسي ابن خاتمة ١ :

أَيَّامُنَا بِالْحَمَى مَا كَانَ أَحْلَاكَ كَمْ بَتُّ أَرْعَاهُ إِجْلَالًا وَأَرْعَاكَ
لَا تُنْكَرِي وَقَفِّي ذَلَالًا بِمَغْنَاكَ يَا دَارُ لَوْلَا أَحْبَابِي وَلَوْلَاكَ
لَمَّا وَقَفْتُ وَقُوفَ الهائمِ الباكي

فَهَلْ لَهُمْ عَطْفَةٌ مِنْ بَعْدِ دَلَّتْهُمْ تَاللهِ مَا تَسْمَحُ الدُّنْيَا بِمِثْلِهِمْ
أَهَا لِقَلْبِي عَلَى تَبْدِيدِ شَمْلِهِمْ مَا كَانَ أَحْلَاكَ يَا أَيَّامَ وَصْلِهِمْ
وَيَا لِيَالِي الرضا مَا كَانَ أَضْوَاكَ

يَا بَدْرَ تِمِّ تَنَاءَتْ عَنْهُ أَرْبُعُنَا وَلَمْ تَنْزَلْ تَحْتَوِيهِ الدَّهْرُ أَضْلَعُنَا
مَا لِلنَّوَى بِضُرُوبِ البَيْنِ تُوجِعُنَا إِذَا تَذَكَّرْتُ دَهْرًا كَانَ يَجْمَعُنَا
تَفْطَرَتْ كِبْدِي شَوْقًا لِمَرَاكَ

١ ابن خاتمة : أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي (- ٧٧٠ هـ) شاعر من أهل المرية ، ومن معاصري لسان الدين (انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ١١٤ والكتيبة الكامنة ٢٣٩ ونيل الابتهاج : ٥١ ومسالك الأبصار ١١ : ٥٠٢) .

أحباب أنفسنا كم ذا النوى وكم - ويا معاهد نجونا بذي سلم
 تالله ما شئت دمعاً للأسي بدم - ولا لثمت تراب الأرض من كرم
 إلا مراعاة خيل ظل يركك
 علّ التعلل يذني منهم وعسى - فيعمر القرب ما بالين قد درسا
 كم ذا أنادي بربع بالنوى طميسا - يا قلب صبراً فإن الصبر عاد أسي
 ويا منازل سلمى أين سلكك

وقول بعض من اشتد به الهيام ، فخطب جبرته مادحاً ليالي القرب وذاماً
 تقلب الأيام :

أيام أنسي قد كانت بقرىكم - بيضاً ، فحين تأيت أصبحت سودا
 ذمت عيشي مذ فارقت أرضكم - من بعد ما كان مغبوطاً ومحسودا
 وقول صاحب مصارع العشاق^١ ، وقد شاقه من الهوى ما شاق :

بانوا فادمع مقلتي^٢ وجدأ عليهم تستهل
 وحداً بهم حادي الفرا - ق عن المنازل فاستقلوا
 قل للذين ترحلوا عن ناظري والقلب حلكوا
 ما ضرهم لو أهلوا من ماء وصلهم وعلوا

وقوله حين زحزحته يد الفراق ، عن أوطان العراق^٣ :

قد قلت والعبرات تس - فتحها على الخلد المآقي

١ صاحب كتاب مصارع العشاق هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج (- ٥٥٠ هـ)

(ابن خلكان ١ : ٣٠٩) والأبيات التالية مثبتة في كتابه ١ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٣٠٩ .

٢ مصارع العشاق : بان الخليط فادمي .

٣ هذا موهوم أن الأبيات لصاحب مصارع العشاق ، ولكنها وردت في كتابه (١ : ٢٣٧) يرويهما

القالي عن ابن الأنباري عن ثعلب ، وهي بهذا السند في أمالي القالي ١ : ١٦٤ .

حينَ انحدرتُ إلى الجزيِّ رةٍ وانقطعتُ عن العراقِ
وتخبَّطتُ أيدي الرفا قٍ مَهَامِهَ البيدِ الرقاقِ
يا بؤسَ مَنْ سَلَّ الزما نُ عَليهِ سِيفاً للفراقِ

وقوله أيضاً^١ :

يا منزلَ الحميِّ بذاتِ النِّقا سَقَاكَ دمعٌ مذ نأوا مَا رَقَا
هل سَكَنُوهُ؟ هيهاتِ! لاسلوةٌ قد بَلَغَ السيلُ الرُّبى وارتقى
وأنت يا يومَ النَّوَى عاجلاً أَدَالَ منكَ اللهُ يومَ اللِّقا

وقولي موثقاً للثالث^٢ ، وقد تغير لي فيمن تغير حارث^٣ :

لم أنسَ مَعَهْدَنَا والشملُ مجتمِعٌ والعيشُ غُضٌّ وروضُ الأنسِ معطَّارُ
فَها أنا بَعْدَ بَعْدٍ عَنْهُ في قلقٍ وقد نَبَتْ بِي أرجاءُ وأقطارُ
تمضي الليالي وأشواقِي مُجَدِّدَةٌ وما انقضَّتْ لي من الأحبابِ أوطارُ

وكلما مررتُ بمَرَأَى يروق ، لمعت لي مِن نَاحِيَةِ المَغْنَى بالْمُنَى بِرُوق ،
فتذكرتُ قول بعضِ مَنْ له على غير من يهوى طروق :

ما نظرتُ غِني سِوَاكَ منظرًا مُسْتَحْسَنًا إِلَّا عَرَضَتْ دُونَهُ
وما تَمَنَّيْتُ لِقَاءَ غَائِبٍ إِلَّا سَأَلْتُ اللهَ أَنْ تَكُونَهُ

وربما رُمْتُ انتحائي مذهب السلوِّ وانتحالي، خلال أحوال إقامتي وارتحالي،
فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي، وأنَّى وجييدي بقلائد البتات حالي :

١ هذه الأبيات للسراج صاحب مصارع العشاق (١ : ٢١٥) ولم يذكر الثاني والثالث منها .

٢ يعني للبيت الثالث ، وهو دليل على أن البيت مضمن وليس للمقري .

٣ يشير إلى قول إبراهيم بن العباس الصولي (وليس في ديوانه ، وربما نسب لغيره) :

تغير لي فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث

والشوقُ أعظمُ أن يحيطَ بوصفه قلمٌ وأن يُطوَى عليه كتابُ
والله ما أنا منصفٌ إن كان لي عيشٌ يطيبٌ وجيرتي غيَّابُ

وكيف ولآماتي صبّ ، ولأتواقي زيادة إذا سرى نسيم أو هبّ :

شربتُ حميّا البين صِرْفاً ، وطالما جلوتُ مُحَيّا الوصلِ وهو وسيمٌ
فميعادُ دَمْعِي أن تنوحَ حمامةٌ وميقاتُ شوقي أن يهبَّ نسيمٌ

فلن لآح سنّا بارق شافني ، أو ترنم شادٍ حدا بي إلى الهيام وساقني ، أو رنا
ظبي فلاةٍ راغني وراقني :

ولأتي ليضئني سنّا كلّ بارقٍ وكلّ حمامٍ في الأراكِ ينوحُ
وأرتاعُ من ظبي الفلاة إذا رنا وأرتاحُ للتذكّارِ وهو ستّوحُ
ولم يكُ ذاك الأمرُ من حيثُ ذاته ولكنّ لمعنى في الحبيب يلوّحُ

ولا أستطيع الإعراب عن أمري العجيب ، لما بي من النوى المذهلِ
والجوى المدهش والوجيب :

ولا تسألوا عما أُجِنُ فليس لي لسانٌ يؤدّي ما الغرامُ يقولُ
يُطارحني البرقُ الأحاديثَ كلّما أضاء كأنّ البرقَ منه رسولُ
وما بالُ خفّاقِ النسيمِ يُميلني هل الريحُ راحٌ والشّمالُ شَمُولُ

إذ دموع شؤوني عند الذكري لا ترّقا ، وجفوني ليس لها عن الأرق مرّقي ،
وشجوني تنمو إذا صدحت بفننها ورّقا :

رُبَّ ورّقاء في الدياجي تُنادي إلّفها في غصونها الميَّادة
فتثيرُ الهوى بلحنٍ عجيبٍ يشهدُ السمعُ أنها عوَّادة
كلّما رجعتُ توجّعتُ حزناً فكأنّا في وجدنا نتّبادَة

فيا لها من ذات طَوَّقٍ ، مثيرة لكامن شوق ، جالبة له من يمين وشمال -
وفوق :

ذَكَرْتَنِي الْوَرَقَاءُ أَيَّامَ أَنْسِ سَالَفَاتٍ فَبْتُ أَذْرِي الدَّمُوعَا
وَوَصَلْتُ السَّهَادَ شَوْقًا لِحَبِيي وَغَرَامًا وَقَدْ هَجَرْتُ الْهَجُوعَا
كَيْفَ يَخْلُو قَلْبِي مِنَ الذِّكْرِ يَوْمًا وَعَلَى حُبِّهِمْ حَنِيتُ الضَّلُوعَا
كَلَّمَا أَوْلَعَ الْعَذُولُ بَعْتِي فِي هَوَاهُمْ يَزْدَادُ قَلْبِي وَلُوعَا

وربما أتخيل قول من قال إنها بالحزن بائحة ، وعلى فقد الإلف نائحة ،
فأنشد قول خليل ، وهو بالحب مُدْنَفٌ وعليل :

وَرُبَّ حَمَامَةٍ فِي الدَّوْحِ بَاتَتْ تُجِيدُ النَّوْحَ فَنَّا بَعْدَ فَنٍّ
أَقَاسِمُهَا الْهَوَى مَهْمَا اجْتَمَعْنَا فَمِنْهَا النَّوْحُ وَالْعِبْرَاتُ مِثْنِي

ولا غرو إن ظهر سر بائح ، فباكٍ مثلي من الشجو نائح :

فَرَجَعْتُ بَعْدَ فِرَاقٍ أَيَّامَ الْهَوَى أَصْفُ الصَّبَابَةِ لِلْمَحَبِّ الْمَوْلَعِ
دَامِي الْجَفُونَ إِذَا الْحَمَامَةُ غَرَّدَتْ مِنْ فَوْقِ خُوطِ الْبَانَةِ الْمُرَعْرِعِ
أَسْقِي الدِّيَارَ - وَقَدْ تَبَاعَدَ أَهْلُهَا عَنْهَا - عَزَّالِي الدَّمُوعِ الْهُمِّعِ
وَنَوَاعِبُ الْأَطْلَالِ لَيْسَ يُجِيبُنِي مَا بَيْنَهُنَّ سِوَى الصَّدَى بِتَوَجُّعِ
وَهَوَاتِفُ فَوْقَ الْغُصُونِ يُجِيبُنِي مِنْهُنَّ تَغْرِيدُ الْحَمَامِ السَّجَّعِ
نَاحَتْ عَلَى عَذَابِ الْفُرُوعِ وَالْفُهَا مِنْهَا بِمَرَأَى فَوْقَهَا وَبِمَسْمَعِ
مَا فَارَقْتُ إِلْفًا كَمَا فَارَقْتُهُ كَلَّا وَلَا أَجَرْتُ سِوَاكَبِ أَدْمُعِي

على أوانٍ عيونُ سعوده رَوَّانٍ ، وزمان معمر بأمانٍ وأمان ،
وآمال دَوَّانٍ ، وتهانٍ ما بين بَكْرٍ وَعَوَّانٍ ، وفي عذر من طال ليلُهُ فاضطرب
فيه لولوعه ، وسكن جَوَّاهُ بجوانحه وضلوعه :

إن طال ليلى بعدهم فلطوله عذُرٌ ، وذلك لما أقاسي منهم
لَمْ تَسْرِ فِيهِ نَجْمُهُ لَكِنَّهَا وقفت لتسمع ما أحدث عنهم

فأرقي ، الزائد في جُرقي ، أظهر المكنون وأبان ، ووَجَدِي بمن نأى وبان ،
لم يُجَدِ فيه تعلُّلٌ برنْدٍ وبان^١ :

تَنَبَّهِي يَا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ كم ذا الكرى ؟ هَبْ نَسِيمُ نَجْدِ
فَلَسْتُ مِثْلِي فِي جَوَى أَوْ أَرْقِ وحرقة من فرقة أو صد
عَوِفِيَتْ مِمَّا حَلَّ بِي مِنْ جِيرَةٍ في الغرب لم يَرْتُوا لفرط وجدي
أَعْلَلُ الْقَلْبَ بِيَانِ رَامَةٍ^٢ وهل ينوبُ غُصْنٌ عَنْ قَدِّ
بانوا فلا مَغْنَى السرور بعدهم مَغْنَى ، ولا عهدُ الرضا بعهدِ
أَهَا مِنْ الْبَعْدِ وَمَنْ لَمْ يَدْرِهِ لَمْ يَشْجُهُ تَأْوِهِي للبعدِ

وفي شغل من أبكته الربوع والطلول ، وذهبت برهمة^٣ من زمانه بين الترحل
والحلول ، فَرَكِبَ من الأخطار الصَّعْبَ والذَّلُولَ ، وحافظَ على العهود ولم
يسلك سبيل الغادر الملول :

سَقَاها الْحَيَا مِنْ أَرْبُعٍ وَطُلُولٍ حَكَتْ دَنْقِي مِنْ بَعْدِهِمْ وَنُحُولِي
ضَمَنْتُ لَهَا أَجْفَانَ عَيْنٍ قَرِيحَةٍ مِنْ الدَّمْعِ مِدْرَارِ الشُّوْنِ هَمُولِ

ومن الغريب ، الذي ينكره غير الأريب ، أن الحادي إن سرَّ القلب بكشف
رَيْنَ ، فقد تسبب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين :

تَرَنَّمَ حَادٍ بِالصَّرِيمِ فَشَاقِي إِلَى ذَكَرٍ مَنْ بَاتَتْ ضُلُوعِي تَضْمُهُ^٤

١ من قصيدة لأبي الفنائم ابن المعلم الواسطي (- ٥٩٢) وكان شاعراً رقيق الشعر وبينه وبين سبط
ابن التعاويذي مهاجرة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤ : ٩٨ والوافي ٤ : ١٦٥ وفي الثاني
بعض أبيات القصيدة) .

٢ ك : بيا ن عنهم .

فَسَرَّ وساء النفسَ شجواً فربما كلفتُ به من حيثُ صِرتُ أذُمَّ
وارتجلتُ حينَ مللتُ من طولِ السَّرى ، مضمناً ذكر ما أروم له تيسراً ،
وقد أكثر الرفاق عند رؤية ما لم يالفوه من الآفاق تلهُفاً وتحسراً :

قلتُ لما طال النوى عن بلادي ولأهلِ النوى جَوَى وعَوِيلُ
هَلْ أرى للفراقِ آخِرَ عهدٍ إنَّ عُمَرَ الفراقِ عمرٌ طويلُ
ثمَّ قلتُ مضمناً :

لاثمي في ذكرِ أحبابٍ نأوا لا تَلُمَنَّ مَنْ أضعَفَ الشوقُ قُوَاهُ
إنَّ يوماً جامعاً شَمَلِي بهم ذاكِ عِيدِي ، ليس لي عيدٌ سِوَاهُ
ثمَّ قلتُ مضمناً أيضاً :

لك اللهُ مِنْ صَبٍّ أَضَرَّ به النَّوى وليس له غَيْرَ اللِّقاءِ طيبُ
وإنَّ صباحاً نلتقي بمسائه صباحٌ إلى قلبي المَشُوقِ حبيبُ
ثمَّ عدتُ إلى التَّصَبُّرِ ، بعد إمعانِ النظرِ والتدبُّرِ :

ولمَّني لأدري أنَّ في الصبرِ راحةً ولكنَّ إنفاقي على الصبرِ من عمري
فلا تُطْفِئِ نارَ الشوقِ بالشوقِ طالباً سلواً ، فإنَّ الجمرَ يُسَعِّرُ بالجرِ

ثمَّ سلكتُ مَنهَجَ التفويضِ والتسليمِ ، منشداً قولَ ابنِ قطرال^١ المغربي
في مقامِ النصيحِ والتعليمِ ، ووجهتُ القصدَ إلى سكانِ الضميرِ بذلكِ التكليمِ :
إنَّ أَيَّامَ الرضا معدودةٌ والرضا أجملُ شيءٍ بالعبيدِ

١ ابن قطرال المغربي : عد ابن عبد الملك من اسمه أبو الحسن بن قطرال في شيوخ الرعيني (٥ : ٣٢٤)
ولكن الرعيني لم يذكره في معجم شيوخته ، وإنما ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : ١٣٨ وابن
الأبار في التكملة (رقم : ١٩١١) وهذا المترجم به أندلسي لا مغربي إلا أنه ولي القضاء بسبته
وفاس وتوفي بمراكش عام ٥٦١ .

لا تَظَنُّوا لِيْ عَنْكُمْ سُلُوءٌ ما على شوقي إليكم من مزيدٍ
راجعوا أَنْفُسَكُمْ أَنْتُمْ فِي الْوَقْتِ أَقْصَى مَا أُرِيدُ
إِنَّ يَوْمًا يَجْمَعُ اللَّهُ بِكُمْ فِيهِ شَمَلِي ذَاكَ عِنْدِي يَوْمُ عِيدٍ

وقول بعض مَنْ ندم على البعد عن المعاهد ، وأمل العودَ - والعودُ
أحمد - إلى المشاهد ، وغفر للدهر ذنبه إن عاد ، وتلهف أن لم يعامله بغير الإبعاد :

لئن عادَ جَمْعُ الشَّمَلِ فِي ذَلِكَ الْحَمَى غَفَرْتُ لدهري كلَّ ذنبٍ تقدّما
وإن لَمْ يَعُدْ مَنِيَّتُ نَفْسِي بَعُودَةً وماذا عسى تجدي الأمانِي وقلّما
يحقُّ لقلبي أن يذوبَ صَبَابَةً وللعين أن تُجْري مدامعها دَمًا
على زمنٍ ماضٍ بِهِمْ قَدْ قَطَعْتُهُ لبستُ به ثوبَ المسرةِ مُعَلِّمًا

وقول آخر يخاطب أحبابه ، ويذكر فَوَاصِلَ بحر النوى الطويلِ وأسبابه :

أَعِذْكُمْ مِنْ لَوْعَتِي وَشُجُونِي ونارِ جَوَى تُذَكِّي بِماءِ شَوْوَنِي
وَبَرَحِ أَسَى لَمْ يُبْقِ فِيَّ بَقِيَّةً سوى حَرَكَاتٍ تَارَةً وَسُكُونِ
أَرَى الْقَلْبَ أَضْحَى بَعْدَ طَارِقَةِ الْأَسَى أُسِيرَ صَبَابَاتٍ رَهينَ شُجُونِ
وَكَيْفَ سَبِيلَ الْقُرْبِ مِنْكُمْ وَدُونَكُمْ رَمَالُ زُرُودٍ وَالْأَجَارِعُ دُونِي ؟
سَلُّوا مَضْجَعِي هَلْ قَرَّ مِنْ بَعْدِ بَعْدِكُمْ وهل عَرَفْتُ طَعْمَ الرُّقَادِ جُفُونِي
سَهَرْنَا بِنِعْمَانٍ ، وَنَمْتُمْ بِبَابِلٍ ، فَيَا لَعْيُونِ مَا وَفَتْ لَعْيُونِ

وفي بعض الأحيان ، أتسلى بقول بعض الأندلسيين الأعيان :

لا تَكَثِرْ بِفِرَاقِ أَوْطَانِ الصَّبَا فَعَسَى تَنَالُ بِغَيْرِهِنَّ سَعُودًا
فَالدَّرُ يُنْظَمُ عِنْدَ فَقْدِ بَحَارِهِ بِجَمِيلِ أَجْيَادِ الْحَسَانِ عَقُودًا
وقول غيره :

فَعَسَى اللَّيَالِي أَنْ تَمَنَّاهُ بِنَظْمِنَا عَقْدًا كَمَا كُنَّا عَلَيْهِ وَأَكْمَلَا

فلربما نُثِرَ الجُمانُ تعمُّداً ليعادُ أحسنَ في النظامِ وأجملًا
وأرغبَ لمن أطال ذبولُ الغربة أن يخلصَها ، وأطلبَ ممَّن أجال النفوسَ في
سيول الكربة أن يخلصَها :

ففلتقي وعَوَّادي الدهرِ غافلةً عَمَّا نرومُ وعِقدُ البينِ محلُولُ
والدارُ آتيةٌ ، والشملُ مجتمِعٌ ، والطيرُ صادحةٌ ، والروضُ مظلُولُ

وأضرعَ إليه - سبحانه - في تيسيرِ العَوْدِ إلى أوطاني ، ومعهدِي الذي
مطايَا العزِ أوطاني ، وأن يُلحِقني بذلك الأفقَ الذي خيره مَوْفُورٌ ، وحقُّ مَنْ
فيه معروفٌ لا منكرٌ ولا مَكْفُورٌ :

إذا ظفِرتُ من الدنيا بقرَبِهِمْ فكلُّ ذنبِ جناهُ الدهرُ مغفورُ

وكأنِّي بعاتبٍ يقولُ : ما هذا التطويلُ ؟ فأقولُ له : جوابي قولُ ابنِ أبي
الإصبعِ الذي عليه التعويلُ :

أكثرُتَ عَدْلِي كأنِّي كنتُ أولَ من بكى على مَسْكَنٍ أو حنَّ للسكَنِ
لا تَلَحَّ إنَّ منَ الإيمانِ عندَ ذوي الـ إيمانِ منّا حَنِينٌ النفسِ للوَطَنِ

على أنِّي أقولُ : اللهم يَسِّرْ لي ما فيه الخيرةُ لي بالمشاركِ أو بالمغاربِ ،
وجُدْ لي من فضلك حيثُ حللتَ بجميعِ ما فيه رضاك من المآربِ ، بِجَاهِ نبيِّنا
وشفيِعنا المبعوثِ رحمةً للأحمرِ والأسودِ والأعاجمِ والأعاربِ ، عليه أفضلُ
صلاةٍ وأزكى سلامٍ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الأعلامِ ، والتابعينَ لهم بإحسانٍ ما ذَرَّ
شارقٌ وتعاقَبَ طالعٌ وغاربُ .

* * *

[ركوب البحر وبلوغ مصر]

ثمَّ جدَّ بنا السير في البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التي أطيننا في الحديث حباً لها وهياماً ، وكنتا عن تفاعيل وصلها^١ نياماً ، إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السَّحَرِ والنَّحَرِ ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافي أحواله ، ما لا يعبر عنه ، ولا يُبلَّغ له كُنْه^٢ :

البحرُ صَعْبُ المَرامِ جدّاً لا جُعِلَتْ حاجتي إِلَيْهِ
أليسَ ماءً ونحن طينٌ فما عسى صَبْرُنَا عَلَيْهِ

فكم استقبلتنا أمواجه بوجوهٍ بَوَّاسِرٍ ، وطارت إلينا من شِرَاعِهِ عِقْبَانٌ كواسر ، قد أزعجتنا أكفُّ الرِّيحِ من وَكْرِهَا ، كما نهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجمال صغيراً ، وللرياح دَوِيّاً عظيماً وزفيراً ، وتيقنَّا أننا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مُجِيراً وخفيراً ، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهَ ﴾ (الإسراء : ٦٧) وأيسنا من الحياه ، لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيّاً الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ، والموج يصفقُ لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنّه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجوّ يأخذ بنوآصيهما ، وتجذبها أيديه من قواصيهما ، حتى كاد سطح الأرض يُكشَف من خلالها ، وعنان السَّحْبِ يَخطف في استقلالها ، وقد أشرفت النفوسُ على التلف من خوْفِها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت في صورها المَنُون ، والشَّرَاع في قراع مع جيوش الأمواج ،

١ ك : فضلها .

٢ البيتان من شعر ابن رشيقي (ديوانه : ٢١٢) وهما في معاهد التنصيص ٢ : ٢٥ ونهاية الأرب

١ : ٢٥٥ وطرّاز المجالس : ٢٢٠ وديوان ابن حمديس : ٥٣٣ ورحلة ابن جبير : ٣١٩ .

التي أمدت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قُعود ، كدُودٍ على عود ، ما بين
فُرَادَى وأزواج ، وقد نَبَتَ بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرقِ
ألسنتنا ، وتوَّهنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء
وذلك السفين ، ومن في قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، في الرواح
والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها وأذهب
بفتحها عن المسلمين الكرب ، لا سيما مالطة الملعونة ، التي يتحقق من خلص
من معرفتها أنه أمدٌ بتأييدٍ إلهي ومعونة ، فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي
شجاً ، وقل من ركه فأفلت من كيدها ونجا ، فزادنا ذلك الحذر ، الذي لم
يُبْقِ ولم يَدَرْ ، على ما وصفناه من هَوَلِ البحر قلقاً ، وأجرينا إذ ذاك في مَيِّدانِ
الإلقاء باليد إلى التهلكة طلقاً ، وتشتت أفكارنا فرقاً ، وذبت أسمى وندماً
وفرَقاً ، إذ البحر وحده لا كمي يقارعه ، ولا قوي يصارعه ، ولا شكل
يصارعه ، ولا يؤمن على حال^١ ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل
وشاك ، ومتباكٍ وباكٍ :

ثلاثةٌ ليس لها أمانُ البحرُ والسَّلاطِنُ والزَّمانُ

فكيف وقد انضم إليه خوف العدو الغادر الخائن ، والكافر الخائن ، إلى أن
قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن ، وإن نهي عنه وأخطأ المائن ،
فأرأينا البر وكأننا قبل لم نره^٢ ، وشفيت به أعيننا من المره^٢ ، وحصل بعد الشدة
الفرج ، وشممنا من السلامة أطيب الأراج ، فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها
النقاب ، يقل شكراً لها صوم الأحقاب وعشق الرقاب ، جعلنا الله بآياته
معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين ؛ ولم نخل في البر من معاناة خطوب ، ومدارة
وجوه للمتاعب ذات تجهّم وقطوب ، فكم جُبنا منه مهامه فيجاً ، ومسحنا

١ ك : كل حال .

٢ المره : فساد العين لترك التكمل .

بالخطأ منها أثيراً وصفيحاً ، وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطاً ذات
استقامة واعوجاج ، وقلوبُ الرفقة من الفرقة في اضطراب وارتجاج ، وربما
عميت على المجتهد الأدلة التي يحصل بها على المذهب الاحتجاج ، فترى
الأنفاس تعثر في زفرة الأشواق ، والأجسام قد زُرَّت عليها من التعب الأطواق ،
هذا والليل بصفحة البدر مُرتاب ، وقد شُدَّت رِحال وأقتاب ، وزُمَّت
ركاب وزُفِعت أحداج ، وقُريت من الدعة بمدية النَّصب أوداج ، وتساوى
في السير نهار مشرق وليل مقمر أو داج ، وأديم التأويب والإسَاد ، وحِمْلُ
الغربة قد أثقل وآد ، ثم وصلنا بعد خَوْض بحار ، يدesh فيها الفكر ويَحَار ،
وجوب فياف مجاهل ، يضلُّ فيها القطا عن المناهل ، إلى مصر المحروسة
فَشَفِينَا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن
وصفها القوافي والأسجاع ، وتمثلنا في بدائعها التي لا نستوفيها ، بقول ابن
ناهض فيها ^١ :

شاطئ مِصرَ جَنَّة	ما مثلها في بلد
لا سيما مذ زُخِرَتْ	بنيْلِها المطرد
وللرياح فوقه	سَوَابِغٌ من زرد
مسرودة ما مسَّها	داودُها بمِبرَد
سائلة وهو بها	يُرْعَدُ عاري الجسد
والفلَكُ كالأفلاكِ بيَّ	ن حادِرٍ ومُصْعِدِ

١ ابن ناهض : تنصَّرف هذه التسمية إلى اثنين أحدهما هو بدر الدين محمد بن ناهض الحلبي (- ٧٣١)
والثاني محمد بن ناهض شمس الدين الحلبي (- ٨٤١) وهذا الثاني سكن القاهرة ومات فيها
ولعله صاحب الشعر ، (انظر الدرر الكامنة ٤ : ٢٧٢ في ترجمة الأول والضوء اللامع ١٠ :
٦٧ في ترجمة الثاني) . وقد وردت هذه الأبيات في رحلة ابن بطوطة (١ : ٣٦) وهي منسوبة
هناك لمن لقيه « ناصر الدين » ابن ناهض .

وبقول آخر :

انظر إلى النيل الذي ظهرت به آياتُ ربّي
فَكَانَتْهُ فِي فَيْضِهِ دَمْعِي وَفِي الْخَفْقَانِ قَلْبِي

وبقول أبي المكارم ابن الخطير المعروف بابن ممّاتي في جزيرتها^١ :

جزيرة مصر، لا عدتكَ مَسْرَةً ولا زالتِ اللذاتُ فيكَ اتصالتها
فكم فيكَ من شمسٍ على غُصْنٍ قامة يميت ويحيي هَجْرُهَا وَوِصَالُهَا
مغانيكِ فوق النيل أضحتْ هَوادجاً ومختلفاتُ الموج فيكَ حِبَالُهَا
ومن أعجبِ الأشياءِ أنكَ جَنَّةٌ تُمدّ على أهل الضلال ظلالُهَا

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين إذ ذاك على الدولة .
وتذكرت في مصر قولَ القاضي الفاضل^٢ :

بالله قلْ للنَّيلِ عني إنّي لم أشفِ من ماء الفُراتِ غليلاً
وسلِ الفؤاد فإنّه لي شاهدٌ إن كان طرفي بالبكاء بغيلاً
يا قلبُ كم خلّفتَ ثمَّ بثينةً وأظنُّ صبرك أن يكون جَميلاً

-
- ١ أبو المكارم الخطير الأسعد بن الخطير المعروف بابن ممّاتي (٦٠٦-) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، حظياً عند القاضي الفاضل (راجع ترجمته في الخريدة ١ : ١٠٠ قسم مصر ، ومعجم الأدباء ٦ : ١٠٠ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٧) .
- ٢ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (٥٩٦-) كاتب صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء (راجع ترجمته في الخريدة ١ : ٣٥ قسم مصر ووفيات الأعيان ٢ : ٣٣٣ وطبقات السبكي ٤ : ٢٥٣ وأخباره في الكتب التاريخية المتصلة بالفترة الصلاحية ، مثل مفرج الكروب والروضتين وغيرهما) . والأبيات في ديوانه : ٩١ وهي في مطالع البدر ٢ : ٢٩٢ ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٥ وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١١٦ وابن بطوطة : ٨٦ .

وقول أحمد بن فضل الله العمري^١ :

لمصرَ فضلٌ باهرٌ
في سَفْحِ رَوْضٍ يلتقي
بِعَيْشِهَا الرَّغْدِ النَّضِيرُ
ماء الحياةِ والخضر^٢

وقول آخر :

كَأَنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ
فِيَاتِي حِينَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ
لَمَّا يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ
وَيَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ

وقول آخر :

وَلِلَّهِ مَجْرَى النِّيلِ مِنْهُ إِذَا الصَّبَا
بَشَطَ يَهْزُ السَّمْهَرِيَّةَ ذُبْلًا
أَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَرَّهَا عَسْكَرًا مَجْرًا
وَمَوْجُ يَهْزُ الْبَيْضَ هِنْدِيَّةً بَثْرًا
حَكَى مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَحْكِهِ مَرًّا

وقول آخر :

وَأَمَّا هَذَا النِّيلُ ؛ أَيُّ عَجِيْبَةٍ
يَلْقَى الثَّرَى فِي الْمَاءِ وَهُوَ مُسَلِّمٌ
بِكُرٍّ يَمْثُلُ حَدِيثُهَا لَا يُسْمَعُ
حَتَّى إِذَا مَا مَالَ عَادَ يُوَدِّعُ
أَبْدَأُ يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ وَيَرْجِعُ
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْهَلَالِ فَدَهْرُهُ

وقول ابن النقيب^٣ :

١ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري شهاب الدين (٧٤٩ -) صاحب مسالك الأبصار (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١ : ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٤) والبيتان في حلبة الكميت : ٢٦٢ .

٢ رواية البيت في حلبة الكميت :

في كل يوم يلتقي ماء الحياة والخضر

٣ هو الحسن بن شاور ناصر الدين ابن النقيب (٦٨٧ -) أحد شعراء مصر المشهورين بالتورية وأكثر شعره مقطعات (الفوات ١ : ٢٣٢) ؛ والبيتان في الفوات ١ : ٢٣٤ .

الصَّبُّ من بعدهم مُفْرَدٌ ودَمَعُهُ النِّيلُ وتعليقُهُ
وخَدُّهُ لَمَّا بَكَاهُمْ دَمًا مِقْيَاسُهُ ، والدَمْعُ تَخْلِيقُهُ

وقول الصَّفْدِي ١ :

سَقِيًّا لِمَصْرٍ وَمَا حَوَتْ مِنْ أَنْسِهَا وَأُنَاسِهَا
وَمَحَاسِنٍ فِي مَقْصِهَا تَبْدُو فِي مِقْيَاسِهَا
وَمَسَرَّةَ كَاسَاتِهَا تُجَلِّي عَلَى أَكْيَاسِهَا
وَسُطُورَ قُرْطِ خَطِّهَا بَارِي عَلَى قُرْطَاسِهَا
وَدُمَى كَنَائِسِهَا ، وَلَا تَنْسَى ظِبَاءَ كِنَاسِهَا
وَلَطَافَةَ يَجَلَالَةٍ تَبْدُو عَلَى جَلَّاسِهَا
وَنَوَاسِمٍ كُلُّ الْمُنَى لِلنَّفْسِ فِي أَنْفَاسِهَا
وَمَرَاجِبَ لَعِبَتْ بِهَا أُمُوجُ فِي وَسْوَاسِهَا

وقول ابن جابر الأندلسي ٢ :

مَا زِلْتُ أَسْنِدُ مِنْ مَحَاسِنِ أَرْضِهَا خَيْرًا صَحِيحًا لَيْسَ بِالْمَقْطُوعِ
كَمْ مُرْسَلٍ مِنْ نَيْلِهَا وَمُسْتَنْسَلٍ وَمُنْدَبِّحٍ مِنْ هَضْبِهَا الْمَرْفُوعِ ٣

١ خليل بن أبيك الصفدي (٧٦٤ -) صاحب الوافي بالوفيات وأعيان العصر ونكت الحميان والتذكرة الصفدية والفيث المسجم وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢ : ٨٧ وطبقات الشافعية ٦ : ٩٤) وشعره منشور في مؤلفاته .

٢ ابن جابر : محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى (- ٧٨٠) صاحب بديعية العميان هاجر مع صاحبه الرعيني إلى بلاد الشام ، وله شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطي . (انظر الدرر الكامنة ٣ : ٣٣٩ ونكت الحميان : ٢٤٤ والوافي ٢ : ١٥٧ وبغية الوعاة : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٦٠) وسيورد المقرئ له ترجمة في النفع .

٣ جمع في هذا البيت ألفاظاً من مصطلح الحديث .

وقول إبراهيم بن عبدون :

والنيلُ بينَ الجانينِ كأنما صدَّتْ بصفحتهِ صفيحةُ صَيْقِلِ
يأتِيكَ من كَدْرِ الزواجرِ مدَّةُ بمَسِّكَ مَنْ مائهِ ومُصْنَدَلِ
فكأنَّ ضوءَ البدرِ في تمويجه برقٌ تموجٌ في سحابِ مُسْبَلِ
وكانَ نورَ السُّرُجِ من جَنَباته زُهرُ الكواكبِ تحتَ ليلِ أَلِيلِ
مثلُ الرياضِ مُفتقاً أنوارهُ تَبْدُو لَعِينِ مُشَبَّهٍ ومُمَثِّلِ

وقول ابن الصَّاحِبِ :

فَرِحَ الْأَنَامُ بِنَيْلِهِم إِذْ صَارَ أَحْمَرُ كَالشَّقِيقِ
وَتَبَرَّكُوا بِشُرُوقِهِ فَكَأَنَّهُ وادي العَقِيقِ

وقول آخر :

أحمرٌ للنَّيلِ خَدٌّ حَتَّى غَدَا كَالشَّقِيقِ
وَقَدْ تَرَنَّمْتُ فِيهِ إِذْ صَارَ وادي العَقِيقِ

* * *

[زيارة مكة والمدينة]

ثمَّ شمرتُ عن ساعدِ العزمِ بعدَ الإقامةِ بمصرَ مدَّةَ قليلةٍ ، إلى المهمِّ الأعظمِ
والمقصدِ الأكبرِ الذي هو سرُّ المطالبِ الجليَّةِ ، وهو رؤيةَ الحرمينِ الشريفينِ ،
والعَلَمَينِ المنيفينِ ، زادهما اللهُ تنويهاً ، وبلغَ النفوسَ ببركةٍ من شرفاً به مآربِ
لم تزلَ تنويهاً ، فسافرتُ في البحرِ إلى الحجازِ ، راجياً من الله سبحانه في الأجرِ
الانتجازِ ، إلى أن بلغتُ جدةَ ، بعدَ مكابدةِ خطوبِ اتخذتُ لها من الصبرِ عُدَّةَ ،
فحينَ حصلَ القُربُ ، واكتحلتِ العينُ بإئِمدِ تلكِ التَّربِّ ، ترنمتُ بقولِ من

قال ، محرّضاً على الوخْذ والإِرْقَال :

بَدَا لَكَ الْحَقُّ فَاقْطَعْ ظَهْرَ بَيْدَاءِ وَاهْجُرْ مَقَالَةَ أَحْبَابِ وَأَعْدَاءِ
وَاقْصِدْ عَلَى عِزْمَةِ أَرْضِ الْحِجَازِ تَجِدْ بَعْدَآ عَنْ السَّخَطِ فِي نَزْلِ الْأَوْدَاءِ
وَقُلْ إِذَا نَلْتِ مِنْ أُمِّ الْقُرَى أَرْبَا وَهَوِّ الْوَصُولِ بِإِسْرَارٍ وَإِبْدَاءِ
يَا مَكَّةَ اللَّهُ قَدْ مَكَّنْتَ لِي حَرَمًا مُؤْمِنًا لَسْتُ أَشْكُو فِيهِ مِنْ دَاءِ
فَمَنْ رَأَى النَّازِحَ الْمُسْكِينَ مَسْكَنَهُ فِي قَطْرِكَ الرَّحْبِ لَمْ يَنْكَبْ بِأَرْزَاءِ
شَوْقُ الْفُؤَادِ إِلَى مَغْنَاكَ مُتَّصِلٌ شَوْقُ الرِّيَاضِ إِلَى طَلٍّ وَأَنْدَاءِ

ثمَّ أنشدت ، عندما بدت أعلام البيت الحرام ، قولَ بعض من غلب عليه الشوق والغرام ، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام :

وَإِنِّي الْحَجِيجُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَقَدْ سَجَا الدُّجَى فَرَأُوا نُورَآهُ بَزَغَا
عَجَبُوا عَجِيجًا وَقَالُوا : اللَّهُ أَكْبَرُ مَا لِلْجَوِّ مُؤْتَلِفًا بِالنُّورِ قَدْ صُبِغَا
قَالَ الدَّلِيلُ : أَلَا هَاتُوا بَشَارَتَكُمْ فَمَنْ نَوَى كَعْبَةَ الرَّحْمَنِ قَدْ بَلِغَا
نَادَاوْا عَلَى الْعِيسَى بِالْأَشْوَاقِ وَانْتَحَبُوا وَحَنَّ كُلُّ فُؤَادٍ نَحْوَهَا وَصَغَا
وَكُلُّ مَنْ ذَمَّ فِعْلًا نَالَ مَحْمَدَةً فِي مَكَّةَ وَمَحَا مَا قَدْ جَنَى وَبَغَى

ولمَّا وَقَعَ بَصَرِي عَلَى الْبَيْتِ الشَّرِيفِ كَدْتُ أَغْيِبُ عَنِ الْوُجُودِ ، وَاسْتَشْعَرْتُ
قَوْلَ الْعَارِفِ بِاللَّهِ الشُّبْلِيِّ^١ لَمَّا وَقَفَ إِلَى حُضْرَةِ الْجُودِ :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ إِذْ تَرَأَى لِعَيْنِي رَسْمُ دَارٍ لَمْ فَهَاجَ اشْتِيَاقِي
هَذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ مَا احْتَبَسُ الدَّمُوعَ فِي الْآمَاقِ

١ الشبلي : أبو بكر دلف بن جحدر صاحب الجنيذ (- ٣٣٤) ناسك عمل للعباسيين ثم تزهد
وسلك طريق المتصوفة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٣٩ وحلية الأولياء ١٠ : ٣٦٦).
وقد أورد البلوي في تاج المفرق (٩٣ ظ) ثلاثة من أبيات الشبلي دون نسبة .

والمَغَانِي لِلصَّبِّ فِيهَا مَعَانِي فَهَنِي تَدْعَى مِصَارِعَ الْعُشَاقِ
حُلَّ عَقْدَ الدُمُوعِ وَأَحْلُلْ رُبَاهَا وَاهْجُرِ الصَّبْرَ وَارْغَ حَقَّ الْفِرَاقِ

ثمَّ أَكْمَلْتُ الْعُمْرَةَ ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ عَمَرَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ عَمْرَهُ ،
وَذَلِكَ أَوَائِلُ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ وَأَلْفٍ مِنَ الْهَجْرَةِ السَّنِيَّةِ ، وَأَقَمْتُ
هَنَالِكَ مُنْتَظِرًا وَقْتَ الْحَجِّ الشَّرِيفِ ، وَمُنْفِيَةً ذَلِكَ الظِّلَّ الْوَرِيفَ ، وَمُقْتِطِفًا ثَمَارَ
الْقُرْبِ الْجَنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ جَاءَ الْأَوَانُ ، فَأَحْرَمْتُ بِالْحَجِّ مِنْ غَيْرِ تَوَّانٍ ، وَحِينَ
حَلَلْتُ مِمَّا بِهِ أَحْرَمْتُ ، نَوَيْتُ الْإِقَامَةَ هَنَالِكَ وَأَبْرَمْتُ ، فَحَالَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
حَائِلٌ ، وَكُنْتُ حَرِيًّا بِأَنْ أَنْشُدَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

هَذَا أَبَاطُحُ مَكَّةَ حَوْلِي وَمَا جَمَعْتُ مَشَاعِرُهَا مِنَ الْحُرْمَاتِ
أَدْعُو بِهَا لِبَيْتِكَ تَلِيَّةَ أَمْرِي يَرْجُو الْخِلَاصَ بِهَا مِنَ الْأَزْمَاتِ
نِلْتُ الْمُنَى بِمِثْنَى لِأَنِّي لَمْ أَخَفْ بِالْخَيْفِ مِنْ ذَنْبِ أَحَالِ سِمَاتِي
وَعَرَفْتُ فِي عَرَافَاتِ أُنِي نَاشِقٌ لِلْعَقْوِ عَرَفًا عَاطِرَ النَّسَمَاتِ

وَأَنْ أَتَمَثَّلَ فِي الْمَطَافِ ، إِذْ حَفَّتْنِي الْأَطَافُ ، بِقَوْلِ مَنْ رَبَّعَهُ بِالتَّقْوَى
مَشِيدٌ ، الْبَغْدَادِيُّ الشَّهِيرُ بَابِنِ رَشِيدٍ :

عَلَى رَبْعِهِمْ اللَّهُ بَيْتٌ مُبَارَكٌ إِلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ تَهْوِي وَتَهْوَاهُ
يَطُوفُ بِهِ الْجَانِي فَيُغْفَرُ ذَنْبُهُ وَيَسْقُطُ عَنْهُ جُرْمُهُ وَخَطَايَاهُ
وَكَمْ لَذَّةٍ أَوْ فَرَحَةٍ لَطَوَافِهِ فَلِلَّهِ مَا أَحْلَى الطَّوَافَ وَأَهْنَاهُ

ثمَّ قَصَدْنَا بَعْدَ قِضَاءِ تِلْكَ الْأَوْطَارِ ، لَطِيبَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ عَلَى
الْأَقْطَارِ ، وَاسْتَشَعَرْتُ قَوْلَ مَنْ أَنْشَدَ وَطِئْرُ عَزْمِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ قَدْ طَارَ :

حَمِدْتُ مَرَّادِي إِذْ بَلَغْتُ مَرَّادِي بِأَمِّ الْقُرَى مُسْتَمْسِكًا بِعِمَادِي
وَمَذْ رَوَيْتُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ غُلَّتِي فَلَسْتُ بِمَحْتَاجٍ لِمَاءِ ثِمَادٍ

فله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت ، ومنته التي نزلت بها النفوس مواطن
التشريف وحلت :

من يَهْدِهِ الرحمنُ خَيْرَ هدايةٍ يَحُلُّ بِمَكَّةَ كَيْ يُتَاحَ المقصدا
وإذا قضى من حَجَّه الفرضَ اثْنِي يشفي برؤية طيبة داءَ الصَّدَى
وكان حظِّي في هذه الحال تذكُّر قول بعض الوشَّاحين من الأندلسيين الذين
كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة ، التي تُشدُّ إليها
الرحال :

يا مَنْ لَعِبَ به افتقارُ	إلى أيادٍ له جِسَامُ
فضلُكَ مُدْنٍ لخير مُدْنٍ	حلَّ بها سَيِّدُ الأَنَامِ
لَمْ يَهْفُ قَلْبِي لِحَبِّ لَيْلَى	ولا سَعَادٍ ولا الرِّبابِ
لاقَى شُجُونًا ونالَ وَيْلًا	مَنْ هَامَ في ذلك الجَنَابِ
بَلْ مالَ مِنِّي الفؤادُ مَيْلًا	لَمْ لَهُ الحُبُّ لا يعابُ
قَلْبِي والله مستطارُ	مذ حلَّ في بيته الحرامُ
ذا الحجر والركنُ خير ركن	وزَمَزَمَ الخير والمقامُ
ذابتُ قلوبُ المطيِّ عِشْقًا	ورَكِبَها واستَوَى المرادُ
إلى حبيبِ القلوبِ حقًّا	الحَيِّ والمَيِّتِ والحمدادُ
إلى الذي لَيْسَ فيه بِشَقَى	مَنْ حُبُّه داخلُ الفؤادُ
شَكَوْا وقد طالتِ السفارُ	همُ ومَطَايَاهُمُ السَّقَامُ
فَهَيَّ قِيسِي من الثَّني	والقومُ من فوقها سهامُ
وَلَسْتُ من سَكَّرَتِي مَفيقا	حتى أرى حجرةَ الرِّسولِ
فإن يُسَهِّلَ لي الطريقًا	فذاك أَقصى مُنَى وَسُؤلِ

متى ترى عيني العقيقا ويقرح القلب بالوصول
 كم قلت والصبر مستعار للركب إذ غادروا المنام
 ونسمة الشوق حركتني وزاد بي الوجد والغرام
 قوموا فقد طال ذا الجلوس وبادروا زورة الحبيب
 تاقّت إلى طيبة النفوس لا عيش من دونها يطيب
 لا حبدا دونها الغروس والماء والشادن الرّيب
 وحبدا الرمل والقفار والعرب في تلکم الخيام
 وأم غيلان^١ ظلّلتني والأيك والأثل والثمام
 يا طيبة حزت كل طيب بسيد فيك ذي حلول
 نداء مستضعف غريب في غرّ أمداحه يقول
 وهو من السامع المجيب لمدحه يسأل القبول
 أنت الغنى لي فلا افتقار وأنت عزّي فلا أضام
 مستمسك منك حسن ظني بعروة ما لها انقيصام
 بسيد العالمين أجمع بأحمد المجتبي الرسول
 ومن هو الشافع المشفع في موقف المحشر المهول
 إذ لا كلام هناك يُسمع للغير والناس في ذهول
 إذ السماء لها انقطاع والشهب مثورة النظام
 كذا الجبال اثنت كمهن سريعة المر كالغمام
 يا أول الرسل في الفضيلة وإن تأخرت في الزّمن

١ أم غيلان : شجر السر .

شفاعةً نلتَ معَ وسيلةٍ فمن يُضاهي عَلاكَ مَنْ
علتَ بكَ الرُّتبةُ الجَليلةُ وَطِبتَ في السِّرِّ والعلَنُ

فأنتَ من خيرهم خيار فمن يُضاهيكَ في المقامِ
والرَّسلُ نالتَ بكَ التَّمَنِّي وأنتَ بدرُ لهُمُ تمامُ

الوَجْدُ قد قَرَّ في فؤادي فَمَا لِيصْبِرَ بِهِ قَرَارُ
ولاعِجِي صاعدُ اتِّقادِ ودمعُ عيني له انهمازُ
وها أنا جئتُ من بلادِي لطيفةً أبتغي الجَوارُ

فجَبدًا تَلَكُمُ الدِيارُ والمصطفى مسكَةُ الختامِ
عَلَيْهِ أَزْكي الصَّلَاةِ مِنِّي وصحبِهِ الغُرِّ، والسَّلَامُ

وقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي^١ - رحمه الله تعالى - وهو من التشريع^٢
أحد أنواع البديع :

يا راحلاً يبغي زيارةً طيبةً نلتَ المني : بزيارة الأخيَّارِ
حتيَّ العقيق إذا وصلتَ وصِفْ لنا وادي مِنِّي : يا طيبَ الأخبارِ
وإذا وقفتَ لدى المعرِّفِ داعياً زال العنا : وظفرت بالأوطارِ

ولما منَّ الله تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر ، والمعاهد
التي بان الحقُّ فيها واشتهر ، والمواطن التي هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها

١ أبو جعفر الرعيني الغرناطي ، أحمد بن يوسف بن مالك (- ٧٧٩) صاحب ابن جابر ورفيقه
في الرحلة إلى المشرق ، وقد شرح بديعية رفيقه ابن جابر (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٤٠ وبغية
الوعاء : ١٧٦ وغاية النهاية ١ : ١٥١ وسيترجم له المقرئ في النفع) .

٢ التشريع : بناء القصيدة على قافيتين .

وقهر ، ونُصرت النبوة وعُضدت ، وقُطعت غصون الكفر وحُصِدت ، ورُصِّت
قواعد التوحيد ونُضدت ، وقرت العيون ، وقُضيت الديون ، أنشد لسان الحال ،
قول بعض مَنْ جِدهُ بمحاسن طيبةٍ حال :

يا مَنْ به طيبةٌ طابت حلَّى وعُلَّى ومَنْ بتشريفه قد شُرفَ العَرَبُ
يا أحمدُ المصطفى قد جثتُ من بلد قاصٍ ولي خلدٌ قاسٍ ولي أربُ
وقد دهشتني ذنوبٌ قلتُ إذ عظمتُ لله منها وطه المرتجي الهربُ

ونسينا بمشاهدة ذلك الجنب ما كنا فيه ، وسبقَ الدمعُ الذي لا يعارضُ
الفرحَ ولا ينافيه :

أيها المغمُ المشوقُ هنيئاً ما أنا لوكَ منْ للذيدِ التلاقي
قلْ لعينيك تَهْمِلان سروراً طالما أسعداك يومَ الفراقِ
واجمعِ الوجدَ والسرورَ ابتهاجاً وجميعَ الأشجانِ والأشواقِ
وأمرِ العينَ أن تفيضَ انهمالاً وتوَالي بدمعها المَهْرَاقِ
هذه دارهمْ وأنتَ محبٌ ما بقاء الدموعِ في الآماقِ

ومِلنا عن الأكوار ، وتملنا من عَرَف تلك الأنجاد والأغوار ، وتملينا من
هاتيك الأنوار ، وتخلينا عن الأغيار ، وتخلينا بحُلَى الأخيار ، وكيف لا وطيبة
مركز للزوار :

إذا لم تطب في طيبة عند طيب به طيبة طابت فأين تطيبُ
وإن لم يُجِبْ في أرضها ربُّنا الدُّعَا ففي أيِّ أرضٍ للدُّعَاءِ يجيبُ
أيا ساكني أكتاف طيبة كلِّكم إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

١ انظر البيت الثاني من أبيات الشبلي التي تقدمت ص : ٤٠ .

وما أحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب ، عبد الملك السلّمي المشهور
بابن حبيب^١ :

لله دَرُّ عصابة صاحبُها نحو المدينة تقطعُ الفلواتِ
ومهامه قد جُبَّتْها ومفاوزِ ما زلتُ أذكرُها بطول حياتي
حتى أتينا القبرَ قبرَ محمدٍ خصَّ الإلهُ محمدًا بصلاةٍ^٢
خيرُ البريةِ والنبيِّ المصطفى هادي الوري لطرائقِ الجناتِ^٣
لما وقفتُ بقربه لسلامه جادتُ دموعي واكِفَ العبراتِ
ورأيتُ حُجْرَتَهُ وموضِعَهُ الذي قد كان يدعو فيه في الخَلواتِ
مع روضةٍ قد قال فيها : إنها مُشْتَقَّةٌ من رَوْضَةِ الجناتِ
وبمَنزِلِ الأنصارِ وَسَطِ قبائِهِمُ بيتُ الهدايةِ كاشفُ الغمَراتِ
وبطيةٍ طابوا ونالوا رحمةً مغنى الكتابِ ومحكم الآياتِ
وبقبرِ حَمَزَةٍ والصحابَةِ حوله فاضتُ دموعُ العينِ مُنْهَمَراتِ
سَقِيًّا لتلك معاهدًا شاهدتُها وشهدتُها بالخطوِ واللحظاتِ
لا زلتُ زوارًا لقَبْرِ نبيِّنا ومدينةِ زهراءِ بالبركاتِ
صلَّى الإلهُ على النبيِّ المصطفى هادي البريةِ كاشفُ الكُرْبَاتِ
وعلى ضجيعيه السلامُ مُردِّدًا ما لاح نورُ الحقِّ في الظُّلُماتِ

١ عبد الملك بن حبيب السلمي (- ٢٣٨ أو ٢٣٩) فقيه الأندلس ومؤلف « الواضحة » في الحديث
والمسائل على أبواب الفقه (انظر ترجمته في الجَنوة : ٢٦٣ والمطبع : ٣٦ والمغرب ٢ : ٩٦
وابن الفرعي ١ : ٣١٢ وابن عذاري ٢ : ١٦٤ والديباج المذهب : ١٥٤ وتذكرة الحفاظ :
٥٣٧ ، وإنباء الرواة ٢ : ٢٠٦ وشذرات الذهب ٢ : ٩٠ ولسان الميزان ٤ : ٥٩ وبغية
الوعاة : ٣١٢) وسيترجم له المغربي في الراحلين من الأندلس رقم (١) .

٢ ك : بصلات .

٣ ك : لطرائق لنجاة .

وقول كمال الدين ناظر قوص^١ :

أَنْيَحُ ، هذه والحمد لله يثربُ
فَغَفَّرَ بهذا التُّرْبِ وَجَنَهِكَ ، إنه
وَقَبَّلَ ربوعاً حولها قد تَشَرَّقَتْ
وَسَكَنَ فَوَاداً لم يزلْ بِاشْتِيَاقِهِ
وَكَفَكَفَ دموعاً طالما قد سَفَحَتْهَا
فَبُشْرَاكَ قد نلتَ الذي كُنْتَ تَطْلُبُ
أَحَقُّ به من كلِّ طَيْبٍ وَأَطْيَبُ
بِمَنْ جاورَتْ ، والشَّيْءُ بالشَّيْءِ يَجِبُ
إِلَيْهَا على جَمَرِ الغَضَا يَتَقَلَّبُ
وَبَرْدَ جَوَى نِيرَانِهِ تَتَلَهَّبُ

وقول الرُّعَيْنِي الغَرْنَاطِي :

هذه روضةُ الرُّسُولِ فدعني
لا تَلُمَّنِي على انْكَابِ دموعي
أَبْذُلُ الدَّمْعَ في الصَّعِيدِ السَّعِيدِ
لَأَنَّمَا صُنَّتْهَا لهذا الصَّعِيدِ

ولما سَلِمْتُ على سيد الأَنَامِ ، عليه من الله أفضلُ الصَّلَاةِ وأزكى السَّلَامِ ،
ذُبْتُ حياءَ وخجلاً ، لما أنا عليه من ارتكاب ما يَقْتَضِي وَجْلاً ، غير أنني تَوَسَّلْتُ
بِجَاهِهِ صلى الله عليه وسلم في أن أكون مَمَّنْ وَضَحَ له وجه الصَّفْحِ وَجْلاً :

إِلَيْكَ أَفِرُّ من زَلَّتِي فِرَارَ الخَائِفِ الحَجَلِ^٢
وكان مزارُ قَبْرِكَ بالـ
فوقِي الله ما طَمَحَتْ
فَخُذْ بِيَدَيَّ غَرِيقٍ في
مَدِينَةِ مُنْتَهَى أَمَلِي
له نَفْسِي بلا خَلَلٍ
بِحَارِ القَوْلِ والعملِ

١ اسمه أحمد بن عبد القوي بن عبدالله بن شداد الربيعي ، كمال الدين (- ٦٨٦) ، ناظر قوص ورئيسها في زمنه ، بنى قبة على الضريح النبوي ، وكان له مشاركة في الأدب ؛ والأبيات مع ترجمته في الطالع السعيد : ٤١ - ٤٤ والمهل الصافي ١ : ٣١٨ والدرر الكامنة ١ : ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٩ : ٢١٤ والفوات ١ : ٨٨ وشذرات الذهب ٦ : ٢١ ومخطوطة الوافي (الورقة ٧٢ من الجزء السابع) .

٢ ك : الوجمل .

وَهَبْ لِي مِنْكَ عَارِفَةً
وتَهْدِينِي إِلَى رَشْدِي
وَتَحْمِلْنِي عَلَى سَنَنِ
فَأَنْتِ دَلِيلُ مَنْ عَمِيَتْ
وَلِإِنَّكَ شَافِعٌ بَرٌّ
وَلِإِنَّكَ خَيْرُ مُبْتَغَتْ
فِيَا أَزْكَى الْوَرَى شَرْفًا
وَيَا أُنْدَى الْأَنَامِ يَدَا
نِدَاءٍ مَقْصُرٍ وَجِلٍ
عَلَى جَدِّكَ مَعْتَمِدِي
وَالْحَقْنِي بِجَنَاتِ
بَصْدِيقِي وَفَارُوقِي
فَأَنْتِ مَلَاذُ مَعْتَصِمٍ
عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ جَدِّ
تُعَرِّفُ مَا تَنْكَرُ لِي
وَتَمْنَعُنِي مِنَ الزَّلَلِ
يُؤَمِّنُنِي مِنَ الْوَجَلِ
عَلَيْهِ مَسَالِكُ السُّبُلِ
وَمَوْثِقُنَا مِنَ الْوَهْلِ
وَلِإِنَّكَ خَاتَمُ الرُّسُلِ
وَشَافِيهِمْ مِنْ الْعِلَلِ
وَأَكْرَمَ نَاصِرِي وَوَلِي
بَثْوِ الْفَقْرِ مُشْتَمِلِ
فَأَنْقِذْنِي مِنَ الدَّخْلِ
لَدَى دَرَجَاتِهَا الْأَوَّلِ
وَعِثْمَانَ الرَّضَى وَعَلِي
وَأَنْتِ عِمَادُ مُتَكَلِّ
لِي فِي الْغَدَوَاتِ وَالْأُصُلِ

ومذ شممنا^٢ من أَرْجِ تلك الأرجاء الذاكية ، واستضأنا بسرُج تلك
الأضواء الزاكية ، ظهر من الشوق ما سَكَنَ بَقَطْن ، ولم يخطر ببالنا مَسْكَن ولا
وَقَطْن ، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقَطْن :

مَرَّ النَّسِيمُ بِرَبْعِهِمْ فَتَلَذَّذَا^٣ حَتَّى كَأَنَّ النَّشْرَ صَارَ لَهُ غِذَا
فَصَحَّاحًا وَصَحَّ وَصَاحَ لَا أَشْكُو أَذَى قَلٍّ لِلصَّبَا مَاذَا حَمَلَتْ مِنَ الشَّدَا
أَمْسِسَتْ طَيْبًا أَمْ عَلَكَ عَيْرُ

١ ق : الوجل .

٢ ومذ شممنا : سقط من ج .

٣ ج : متلذذا .

يا أيها الهادي الذي من وسمه قصد الحبيب وأن يلم برسمه
هذي منازلُه فرزم باسمه بأبي الذي لم تذو زهرة جسمه
لكنه غض الجمال نصير

لله شوق قد تجاوز حده أوفى على الصبر المشيد فهده
يا ناشق الكافور لا تتعده طوبى لشتاق يعفر خده
في روضة الهادي إليه يشير

فهناك يبذل في التوسل وسعه ويصيخ نحو خطيب طيبة سعه
ويريق فوق حصي المصلى دمه ويرى معالم من يحب وربعه
ومحمد للعالمين بشير

صلى عليه الله خير صلاته وحبا معاليه جليل صلاته
ماحن ذو الأشواق في حالاته وأتى مغانيه على علاته
فأنبح حسن الختم وهو قرير

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسلنا إلى الله بذلك المقام العلي خاضعين،
وغبطننا قوماً سكنوا هنالك فكانوا لخلودهم متى شاءوا على تلك الأعتاب
واضعين :

أكرم بعد نحو طيبة مسندا متوسل مستشفع مرشد
يقل الفلاة لها بعزم أيد وافى إلى قبر النبي محمد
ولربعه الأسمى يروح ويغتدي

أزجَاهُ صادقُ حَبِّهِ الْمُتَمَكِّنُ وحدهُ سائقُ عزمِهِ المتعَبِّ
فحكى لَدَى شَجْوِ حَمَامِ الْأَغْصَنِ هَزْجاً يردُّدُ فِيهِ صوتُ ملْحَنِ
ويُمَدُّ لِلإِطْرَابِ صوتُ المُنشَدِ

ويقولُ جثُّ بعْزَمَةٍ نِزَاعَةٍ ونَهَضَتْ والدُنْيَا تمرُّ كسَاعَةٍ
لمحلِّ أَحْمَدَ قَائِلًا بِإِذَاعَةٍ هَذَا النَبِيُّ المُرْتَجَى لشفَاعَةٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ ذَاكَ المَشْهَدِ

هَذَا الرُّؤُوفُ بِجَارِهِ وَتَزِيلُهُ هَذَا سِرَاجُ اللَّهِ فِي تَزِيلِهِ
هَذَا الَّذِي لَا رَيْبَ فِي تَفْضِيلِهِ هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ وَابْنُ خَلِيلِهِ
هَذَا ابْنُ بَانِي الْبَيْتِ أَوَّلُ مَسْجِدِ

هَذَا الَّذِي اصْطَفَتْ النُّبُوَّةُ خِيَمَهُ هَذَا الَّذِي اعْتَمَدَ المَهْدَى تَقْدِيمَهُ
هَذَا الَّذِي نُسِقَتْ غَدَاً تَسْنِيمَهُ هَذَا الَّذِي جَبُرِلُ كَانَ خَلِيمَهُ
فِي حَضْرَةِ التَّشْرِيفِ أَزْكَى مَصْعَدِ

هَذَا الَّذِي شَهِدَ الوجودُ بِخَصِّهِ بِمِزْيَةِ التَّفْضِيلِ مِنْ مَخْتَصِهِ
وَأَبَانِهِ مِنْ وَحْيِهِ فِي نَصِّهِ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ الْبَرَقُ بِشَخْصِهِ
فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ أَشْرَفَ مَشْهَدِ

هَذَا الَّذِي غَدَتْ الطُّلُولُ حَدِيقَةً بِجِوَارِهِ وَغَدَتْ تَرَوْقُ أَنْبَقَةً
هَذَا المَكْمَلُ خَلِيقَةً وَخَلِيقَةً هَذَا الَّذِي سَمِعَ النَّدَاءَ حَقِيقَةً
وَدَنَا وَلَمْ يَكْ قَبْلَ ذَاكَ بِمُبْعَدِ

فَهَنَّاكَ كَمْ رُسُلٍ بِهِ تَتَوَسَّلُ وَعَلَى حِمَاهُ لَدَى المَعَادِ يُعَوَّلُ
يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ أَنْتَ المَوْئِلُ يَا خَاتَمَ الْإِسْرَالِ أَنْتَ الْأَوَّلُ
فَتَرَقَّ فِي أَعْلَى المَكَارِمِ وَاصْعَدِ

الله رَفَعَ فِي سُرَاهُ مَنَارَهُ وَأَبَانَ فِي السَّبْعِ الْعَلَا أَنْوَارَهُ
فَقَقَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ آثَارَهُ وَأَرَاهُ جَنَّتَهُ هُنَاكَ وَنَارَهُ
فَمُؤَبَّدٌ وَغُلَّدٌ لِمُحَلَّدٍ

كَمْ ذَادَ مِنْ وَجَلٍ وَجَلَّى ظُلْمَةً وَامْتَنَ بِالرَّحْمَى وَمَتَنَ حُرْمَةً
لَمَّا دَجَا أَفَقُ الضَّلَالَةِ دُهْنَةً بَعَثَ إِلَاهَهُ بِهِ لِيَرْحَمَ أُمَّةً
لَوْلَاهُ كَانَتْ بِالضَّلَالَةِ تَرْتَدِي

حَازَ الشُّفُوفَ فَكُلُّ خَلْقٍ دُونَهُ فَالغَيْثُ يَسْأَلُ إِذْ يَسِيلُ يَمِينَهُ
وَالشَّمْسُ تُسْتَهْدِي الشُّرُوقَ جَبِينَهُ وَاللَّهُ فَضَّلَهُ وَأَظْهَرَ دِينَهُ
وَوَفَى لَنَا فِيهِ بِصَدَقِ الْمَوْعِدِ

نُطْقِي بِغَادِي ذِكْرَهُ وَيُرَاوِجُ وَبِهِ يَنَافِجُ مِسْكَةً وَيَنَافِجُ
تُعْيِي اللِّسَانَ مَحَامِدُ وَمَمَادِحُ طُوبَى لِمَنْ قَدْ عَاشَ وَهَوَى يُكَافِحُ
عَنْهُ يَنَاضِلُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

هُوَ صَفْوَةُ الْعَرَبِ الْأَوَّلَى أَحْسَابُهُمْ أَسْيَافُهُمْ قُرْنَتْ بِهَا أَسْبَابُهُمْ
فَهُمْ لُبَابُ الْمَجْدِ وَهُوَ لُبَابُهُمْ مِنْ آلِ بَيْتٍ لَمْ تَزَلْ أُنْسَابُهُمْ
تُنَبِّئُهُمْ عَنْ طَيْبِ عُنْصُرِ مَوْلَدِ

شَرَفَ النَّبُوءَةَ قَدْ رَسَا فِي أَهْلِهَا وَسَمَا عَلَى الزُّهْرِ الْعَلَا بِمَحَلِّهَا
سَاقِ السَّوَابِقِ لِلْفَخَارِ بِرُسُلِهَا نَطَقَ الْكِتَابُ كَمَا عَلِمْتَ بِفَضْلِهَا
وَقَضَى بِهِ نَصُّ الْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ

فَوْقَ السَّمَاءِ تَوَطَّطَتْ وَتَوَطَّدَتْ وَتَفَرَّدَتْ بِالمُصْطَفَى وَتَوَحَّدَتْ
فِيهِ الْخُلَاصَةُ صَفِيَّتْ فَتَجَرَّدَتْ مِنْ مَعْدِنٍ فِيهِ الرِّسَالَةُ قَدْ بَدَتْ
مِنْ عَصْرِ آدَمَ لَعَصْرِ مُحَمَّدٍ

طالوا^١ فلم يُبقوا لمجد مَصْعَدَا - صالوا ففي أيمانهم حَتَفُ العِدا
سالوا^٢ فَهَمُّ لَعْنَتِهِمْ غَيْثُ الجِدا - أهلُ السقايةِ والرفادةِ والندى
والكعبةِ البيتِ الحرامِ المقصدِ

المطعمونَ وقد طوى المري^٣ الطوى - الناهضون إذا الصرِيخُ لهم نوى
العاطفونَ إذا الطريقُ بهم ثوى - أهلُ السدانةِ والحجابهِ واللوا
أهلُ المقامِ وزمزمِ والمسجدِ

المصلحونَ إذا الجموعُ تخاذعتْ^٤ - المنجحونَ إذا المساعي دافعت
الدافعونَ إذا الأعادي قارعتْ - المؤثرونَ إذا السُّنُونُ تتابعت
وفدَ الحجيجِ بنيلِ كلِّ تَفَقُّدِ

لا يقربُ الخطبُ الملمُ منيعهم^٥ - لا يطرقُ الكربُ المخيفُ قريعهم^٥
واللهُ شَرَفَ بالنبيِّ جميعهم^٥ - مَنْ نالَ رتبتهُم وحازَ صنيعهم^٥
نالَ الشُّفُوفَ وحازَ معنى السُّودِ

حلُّوا من الطَّودِ الأثَمَ بمنعةٍ في خيرٍ مُعْتَصَمٍ وأسمى رِفْعَةٍ
فهمُ بمنَّةٍ أَمْنِهِ في هَجْعَةٍ - اللهُ خَصَّصَهُمْ بأشرفِ بَقْعَةٍ
محجوبةٍ^٥ محفوفةٍ - بالأسعدِ

لَمَّا أُتِيَتْ لِرَامَةِ أَصِلُ السُّرَى - من بعدِ قصدي مكةَ أمَّ القُرَى
أُنشِدْتُ جَهْرًا فِيهِ أَنْثَرُ جَوْهَرًا - وإليكما يا خيرَ مَنْ وطىءَ الثرى
عذراءُ تُزْري بالعذارى الحُرْدَ

١ ق : طابوا .

٢ ك : سئلوا .

٣ ك : ألم ؛ ج : الحما ؛ ط : المهني .

٤ ق ج ط : تخادعت . وتخاذعت : تفرقت .

٥ ق : محبوبة .

كلُّ الحسانِ لحسنها قد أدهشا ما مثلُها في تربُّها شادٍ نشأ
سَفَرَتْ بعزمٍ ما أجدَ وأطيشا نشأتْ بطيِّ القلبِ وارتوتِ الحشا
زهراءَ مَنْ يَرها يَهيلُ ويسجدُ

أَمَّتْكَ تَشَأى في مَدَها الألسنا وتُري إجادَتها المجيدَ المحسنا
تغدو ولا تثنى العنانَ عن الثنا وأنتك تمرحُ كالقُضيبِ إذا انثنى
مَرْنَحاً بين الغُصون الميِّدِ

قد أَعْمَلْتَ في المدحِ ثاقبَ ذهنِها ترجو الحلولَ لدى قَرارةِ أَمْنِها
وعسى إذا غُدِيَتْ بِرَبِّه عَدْنِها يجلو لك الإحسانُ بارِعَ حُسْنِها
والحسنُ يجلوها وإن لم تُنشدِ

مدحي لخيرِ العالمين عقيدي ومطيِّ بل طيبي ونشيدني
ونبيجي وهدي اليقين مفيدني ولئن مدحتُ محمدًا بقصيدني
فلقد مدحتُ قصيدتي بمحمدِ

يا خيرَ خلقِ الله دعوةَ حائِرٍ يشكو إليك صُروفَ دهرٍ جائِرٍ
واللهُ يعلمُ في هواك سرائري وهو الذي أرجو لعَفْوِ جرائمري
متوسلاً بجنابك المتأطدِ

لولا حقوقُ عِيْنَتِ بمغاربِ لمكثتُ عندك كي تُتَاحَ مآربي
ويكونَ في الزرقاءِ عَدْبُ مشاربي حتى أُحَلِّيَ من ثراكِ ترائبي
وأنالَ دَقْنًا في بقيعِ الغَرْقدِ

وعليكَ من ربِّ حَبَاكَ صَلَاتُهُ وسلامُهُ وهَيَاتُهُ وَصَلَاتُهُ
ما أَمَّ بِابْنِكَ مَنْ هَدَتْهُ فَلَاتُهُ لعلاكِ حتى زُحْزِحَتْ عِلَاتُهُ
فَأُتِيحَ حُسْنُ الخَمِّ دونَ تَرَدُّدِ

ثم ودَّعته صلى الله عليه وسلم والقلبُ من فراقه سقيم ، ووقعت من البعد عن
تلك المعاهد في المُقْعِدِ المُقِيم ، وأنا أرجو أن يكون شكل منطقي غير عقيم ،
وأن أحشَرَ في زُمْرَةِ مَنْ سَلَكَ الصراطَ المستقيم^١ :

يا شفيعَ العصاةِ أنتَ رجائي كيف يَخْشَى الرجاءَ عندك خَيْبَةً
وإذا كنتَ حاضراً بفؤادي غيبةُ الجسمِ عنك ليستْ بغيبةَ
ليس بالعيشِ في البلادِ انتفاعٌ أطيبُ العيشِ ما يكون بطيِّبَةً

* * *

[زيارة بيت المقدس]

ثم عدتُ إلى مصر ، وقد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم الإضر ، وذلك
في محرم سنة ١٠٢٩ ، ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام ،
وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام ، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك
الصعبة ، قولَ حافظ الحفَاط ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - وهو ممّا
زادني في هذه الزيارة رغبة :

إلى البيتِ المقدّسِ جئتُ أرجو جَنَّاتِ الخُلدِ نَزْلاً مِنْ كَرِيمٍ
قَطَعْنَا فِي مَسَافَتِهِ عِقَاباً وما بعدَ العِقَابِ سِوَى النَعِيمِ

فلما دخلتُ المسجد الأقصى ، وأبصرتُ بدائعهُ التي لا تُستَقْصَى ، بهرَني
جماله الذي تجلّى الله به عليه ، وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت إليه ،
وشاهدت محلاً آمَ فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة ، وكان حقّي أن
أنشد هنالك ما قاله بعضُ الموفّقين وهو ممّا ينبغي أن ترمزم به الحُدَاة :

١ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ أَيْنَ قَدْ
 فَاصْبِحْ إِلَى آيَاتِهِ
 أَكْرَمَ بَعْدَ سَلَمَتِ
 فِي حَضْرَةِ الْقُدُسِ وَ
 صَفَوْا وَصَلُّوا خَلْفَهُ
 لِلشَّهْبِ نَوْرٌ بَيْنُ
 سِلْكُ النُّبُوَّةِ بَاهِرُ
 هَذَا الْكِتَابُ دَلَالَةُ
 شَهِدَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِ عَجْ
 خَيْرُ الْوَرَى وَأَجْلُ آ
 فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْوَرَى
 رُ مُحَمَّدٍ بَيْنَ الْأَنَامِ
 تَنْظَرُ بِرَيْتِكَ فِي الْأَوَامِ
 تَقْدِيمُهُ الرُّسُلُ الْكَرَامِ
 فَأَهَا بَعِزِّ وَاحْتِرَامِ
 إِنْ الْجَمَاعَةُ بِالْإِمَامِ
 وَالْفَضْلُ الْقَمَرُ التَّمَامِ
 وَبِأَحْمَدٍ خْتِمَ النِّظَامِ
 تَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ
 زِيَّ أَلْسِنُ اللَّذِّ الْخِصَامِ
 يَاتِ لَهُ خَيْرُ الْكَلَامِ
 أَزَكَّى صَلَاةٍ مَعَ سَلَامِ

وَرَبِّمَا يَقُولُ مَنْ يَقِفُ عَلَى سَرْدِ هَذِهِ الْأَمْدَاحِ النَّبَوِيَّةِ : إِلَى مَتَى وَهَذَا
 الْمِيدَانُ تَكَلُّ فِيهِ فَرَسَانِ الْبَدِيعَةِ وَالرَّوِيَّةِ ؟ فَأَنْشُدْهُ فِي الْجَوَابِ ، قَوْلَ بَعْضٍ مِنْ
 أُمَّ نَهْجِ الصَّوَابِ :

لِأَدِيمِنَّ مَدِيحَ الْمُصْطَفَى فِعْلَ مَنْ فِي اللَّهِ قُوَى طَمَعَهُ
 فَعَسَى أَنْعَمُ فِي الدُّنْيَا بِهِ وَعَسَى يَحْشُرُنِي اللَّهُ مَعَهُ

وَإِذَا كَانَ الْقَرِيضُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَذِبًا صُرَاحًا ، وَالْمَوْفَقُ مَنْ تَرَكَهُ
 وَالْحَالَةَ هَذِهِ رَغْبَةً عَنْهُ وَلَهُ اطِّرَاحًا ، فَخِيَرَهُ مَا كَانَ حَقًّا وَهُوَ مَدْحُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
 وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مُنْتَهَى سُؤْلِهِ :

لَيْسَ كُلُّ الْقَرِيضِ يَقْبَلُهُ السَّمْعُ وَتُصْنَعِي لَذْكَرَهُ الْأَفْهَامُ
 إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَرَاءٌ لَيْسَ شَيْئًا ، وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ

١ ق : إِنْ بَعْضُ الْقَرِيضِ تَلْقَاهُ هَزْمًا ؛ ك : مَا كَانَ هَزْمًا ؛ ط : يَنْشَأُ هَرَاءٌ .

وأجلُ الكلامِ ما كان في مد
طَيِّبَ العَرَفِ دائمَ الذِكرِ لا تَأْ
مثل زَهْرٍ قد شَقَّ عنه كمامُ
ليس تَحْصِي صفاتُ أحمدَ بالعد
ولَوْ أَنَّ البَحَارَ حَبْرٌ وما في ال
فطويلُ المديحِ فِيهِ قصيرُ
ولسانُ البليغِ للعِيّ يُنمى
كيف يُحْصى مديحُ مولَى عليه ال
وله المعجزاتُ والآيُ تبدو
فمن المعجزاتِ أنْ سارَ ليلًا
راكبًا للبراقِ حتى أتى القُد
فاستَوَوْا خلقَه صفوفًا وقالوا
فعليه من ربِّه صَلَوَاتُ

ح شَفِيعِ الوری عَلَیْهِ السَّلَامُ
قِي اللَّیَالِی عَلَیْهِ وَالْأَیَّامُ
أَوْ كَسَكْ قَدْ فُضَّ عَنْهُ خِتَامُ
كَمَا لَمْ تُحِطْ بِهَا الْأَوْهَامُ
أَرْضٍ مِنْ كُلِّ نَابِتِ أَقْلَامُ
وَحُسَامُ مَاضٍ لَدَيْهِ كَهَامُ
وَكَذَا صَيَّبُ الْفَصِيحِ جَهَامُ
لَهُ أَثْنَى وَذِكْرُهُ مُسْتَدَامُ
لَا يَغْطِي وَجُوهَهُنَّ لِشَامُ
وَجَمِيعُ الْأَنَامِ فِيهِ نِیَامُ
سَ وَفِيهِ رُسُلُ الْإِلَهِ الْكَرَامُ
صَلِّ يَا أَحْمَدُ فَأَنْتَ الْإِمَامُ
زَاكِيَاتُ مَعَ صَاحِبِهِ وَسَلَامُ

• • •

[عود إلى مصر ثم إلى القدس]

ثم رجعت إلى القاهرة ، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة ، فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين^٢ وألف مكة خمس مرات ، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات ، وأملت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة ، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة ، ووفدت على طيِّبَةِ المعظِّمةِ مُيَمَّمًا مناهجها السديدة ، سبع مرار ، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار ، واستضأت

١ ق ك ط : به .

٢ هامش ط : كذا في الأصل والصواب عشرين ليوافق ما تقدم له .

بتلك الأنوار ، وألّفتُ بحضرته صلى الله عليه وسلم بعضَ ما منَ الله به عليّ في ذلك الجوار ، وأملتُ الحديثَ النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع ، ونلت بذلك وغيره - والله المنة - ما لم يكن لي فيه مطمئح ولا مطمع ، ثم أُنْتُ إلى مصر مفوضاً لله جميعَ الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وكان عَوْدِي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة^١ ، فتحرّكتُ همّي أوائلَ رجب هذه السنة للعود للبيت المقدس ، وتجديد العهد بالمحلّ الذي هو على التقوى مؤسس ، فوصلتُ أواسط رجب ، وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجهُ الرشد وما احتجب ، وألقيت عدةَ دروسٍ بالأقصى والصخرة المنيفة ، وزُرْتُ مقامَ الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة ، وكنتُ حقيقاً بأن أنشد قول ابن مطروح^٢ ، في ذلك المقام الذي فضّلته معروف وأمره مشروح :

خليلَ الله قد جثناكَ نرجو	شفاعتك التي ليست تُردُّ
أنلنا دعوةً واشفعُ تشفعُ	إلى من لا يخيبُ لديه قصدُ
وقلْ يا ربّ أضيافُ ووقدُ	لهمُ بمحمدٍ صلةً وعهدُ
أتوا يستغفرونك من ذنوبِ	عِظامٍ لا تُعدُّ ولا تُحدُّ
إذا وزنتَ بيدُ بُلّ أو شمامِ	رجحن ودونها رضى وأحدُ
ولكن لا يضيقُ العفو عنهم	وكيف يضيقُ وهو لهم مُعدُّ
وقد سألوا رضاكَ على لساني	إلهي ما أجيبُ ^٣ وما أرُدُّ
فيا مولا همُ عطفاً عليهمُ	فهمُ جمعُ أتوك وأنت فردُّ

* * *

١ هامش ق : فيه ما فيه من المغايرة بين التاريخين ، فانظر .

٢ هو جمال الدين يحيى بن عيسى (- ٦٤٩) شاعر مصري خدم الصالح أيوب وديوانه مطبوع

(انظر وفیات الأعيان ٥ : ٣٠٢ والتجوم انزاخرة ٧ : ٢٧) .

٣ ق ج : أجيب .

[الرحلة إلى دمشق]

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كَمَزَار موسى الكليم ، على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أجمعين أَفْضَلُ الصلاة والتسليم ، ثم حَدَّثَ لي منتصفَ شعبان ، عزمٌ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان ، دِمَشْقُ الشام ، ذاتِ الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح المتنوعة ، والأرواح المتضوعة ، حيث المشاهدُ المكرَّمة ، والمعاهدُ المحترمة ، والغُوطَةُ الغنَّاء والحديقة ، والمكارمُ التي يُبَارِي فيها المرءُ شأته وصديقه ، والأظلالُ الوريقة والأفنان الوريقة ، والزهر الذي تخاله مَبْسِمًا والندى ريقه ، والقضبانُ المُلْدُ ، التي تشوق رائيتها لجنة الخلد :

بحيثُ الروضُ وَضَّاحُ الثنايا أنيقُ الحسنِ مَصْقُولُ الأديمِ

وهي المدينة المستولية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تَزِيدُ على مرِّ الزمانِ طُلُوءَ دِمَشْقُ التي راقت بِحُلُو المشاربِ
لها في أقاليم البلادِ مشارقُ مُنْزَهَةٌ أقمارُها عن مغاربِ

ودخلتها أواخرَ شعبان المذكور ، وَحُمِدَتِ الرحلةُ إليها وجعلها الله من السعي المشكور :

وجدتُ بها ما يملأ العينَ قُرَّةً وَيُسْلِي عن الأوطانِ كلَّ غريبِ

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ، ومبانيها المستحسنة :

نزلنا بها نَنُوي المقامِ ثلاثةَ فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنقٍ في الخطاب ، وأطال في الوصف

وأطاب ، وإن ملأ من البلاغة الوطاب ، كما قلت ١ :

محاسنُ الشام أجلى من أن تسام ٢ بحد
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد :
كأنهـا معجزات مقرونة بالتحدي

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر ، والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الأبواب
لا سيما إذا حيّاها النسيم وابتكر :

أحب الحمى من أجل من سكن الحمى حديث حديث في الهوى وقديم
فله مرآها الجميل الجليل ، وبيوتها التي لم تخرج عن عروض الخليل ،
ومغيرها الذي هو على فضلها وفضل أهلها أدل دليل ، ومنظرها الذي يتقلب
البصر عن بهجته وهو كليل :

والروض قد راق العيون بحلة قد حاكها بسحابه آذار
وعلى غصون الدّوح خضّر غلاثل والزهر في أكمامه أزار

فكم لها من حسن ظاهر وكامن ، كما قلت موطئاً للبيت الثامن :

أما دِمشق فخر ٣ لعبت بألباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحية فاخترت بذوي الحقائق
والغوطة الغناء حية ت بالورود وبالشقائق
والنهر صاف والنسي م اللدن للأشواق سائق

١ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٦ .

٢ خلاصة الأثر : تقاس ؛ ك : تحاط .

٣ ك : فجنة .

والطيرُ بالعيدانِ أبَ دتْ في الغنا أحلى الطرائقُ
ولآلئِ الأزهارِ حَلَدَتْ جِيدَ غُصْنٍ فهو رائقُ
ومرآودُ الأمطارِ قد كُحِلَتْ بها حديقُ الحدائقِ
لا زال مغناها مصو نأَ آمناً كلَّ البوائقِ

وكما قلت مرتجلاً أيضاً مضمناً الرابع والخامس :

دمشقُ راقَتْ رُوءَاءَ وبهجةً وغَضَارَةً
فيها نسيمٌ عليلٌ صَحَّ فوافَتْ بشارَةً
وغُوطَةٌ كعروسٍ تزهى بأعجبِ شَارَةٍ
يا حُسْنَهَا من رياضٍ مثلَ النَّضَارِ نَضَارَةٍ
كالزهرِ زهراً وعنْهَا عَرَفُ العَبِيرِ عِبَارَةً
والجامعُ الفردُ مِنْهَا أَعْلَى الإِلَهِ مَنَارَةً
وحاصلُ القولِ فِيهَا لَمَنْ أَرَادَ اخْتِصَارَةً
تذكيرُهَا من رَأَاهَا عَدْنَا وَحَسَنِي إِشَارَةً
دامَتْ تَفُوقُ سَوَاهَا إِنَّا لَنَالُهُ وَإِنَارَةً

وكما ارتجلت فيها أيضاً ١ :

قال لي ما تقولُ في الشامِ حَبْرٌ كُلَّمَا لَاحَ بَارِقُ الحَسَنِ شَامَةٌ
قلتُ ماذا أقولُ في وَصْفِ قُطْرِ هُوَ في وَجْنَةِ المحاسِنِ شَامَةٌ
وقلت أيضاً :

قال لي صِفْ دِمَشْقَ مَوْلَى رَئِيسٍ جَمَلَ اللهُ خَلْقَهُ واحْتِشَامَةً
قلتُ كُلَّ اللِّسَانِ في وَصْفِ قُطْرِ هُوَ في وَجْنَةِ البَسِيطَةِ شَامَةٌ

١ أبيات المقرئ هذه في خلاصة الأثر (١ : ٣٠٦) .

وقلت أيضاً :

وإذا وصفت محاسن الدنيا فلا تبدأ بغير دمشق فيها أولاً
بلد إذا أرسلت طرفك نحوه لم تلق إلا جنة أو جنة ولا
ذا وصف بعض صفاته^١ وهي التي تعي البلغ^٢ وإن أجاد وطولا
والغاية^٣ في هذا الباب ، من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الألباب ، قول أبي
الوَحْشِ سَبْع^٤ بن خلف الأسدي يصف أرضها المشرقة ، ورياضها المورقة ،
ونسيمها العليل ، وزهرها الندي^٥ البليل^٦ :

سقى دمشق الشام غيثاً مُمرعاً من مُستهلّ ديمة دقاقها
مدينة ليس يَضَاهي حُسْنُهَا في سائر الدنيا ولا آفاقها
تودُّ زوراء العراق أنها تُعزّي إليها لا إلى عِراقها
فأرضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر في إشراقها
نسيم رِيّاً روضها متى سرى فكأخا الهموم من وثاقها^٧
قد رُبّع الربيع في ربوعها وسيقت الدنيا إلى أسواقها
لا تسأمُ العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا انتشاقها

١ ك : صفاتها .

٢ ك : بيا البلغ .

٣ ق : والغاية القصوى .

٤ في جميع النسخ : سبع .

٥ الندي : سقطت من ك .

٦ هذه الأبيات من قصيدة في الحريرة (قسم الشام ١ : ٢٤٨) منسوبة لفتيان بن علي الشاغوري

ووردت في رحلة ابن بطوطة ١ : ٨٦ لسج بن خلف وهو الأديب أبو الوحش أحد شعراء

الحريرة (قسم الشام ١ : ٢٤٢) .

٧ سقط البيت من ق .

وقول شمس الدين الأسدي الطيبي :

إذا ذُكِرَتْ بَقَاعُ الْأَرْضِ يَوْمًا فَقُلْ سَقِيًّا لِيَجِلَّقَ ثُمَّ رَعِيَا
وَقُلْ فِي وَصْفِهَا لَا فِي سِوَاهَا : بِهَا مَا شَتَّ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا

وكان لسان الدين ذا الوزارتين بن الخطيب ، عَنَّاها بقوله المصيب :

بَلَدٌ تَحْفُ بِهِ الرِّيَاضُ كَأَنَّهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَالرِّيَاضُ عِذَارُهُ
وَكَأَنَّمَا وَادِيهِ مِعْصَمٌ غَادَةٌ وَمِنْ الْجُسُورِ الْمُحْكَمَاتِ سِوَارُهُ

وكنْتُ قبل رحلتي إليها ، والوفادة^١ عليها ، كثيراً ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم ، ما يشوقني إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُنشِقي على البعد أريج الأدب الفائق من تلقائهم ، حتى لقيتُ بمكة المعظَّمة ، أوحَدَ كبرائِها الذين فرائدهم بِلَبَّةِ الدهر منظَّمة ؛ عينُ الأعيان ، وصدرُ أرباب التفسير بها والبيان ؛ صاحبُ القلم الذي طبَّقَ الكلي والمفاصل ، والفتاوى التي حكمها بين الحق والباطل فاصل ، والتأليف التي وَصَفُها بالإجادة من باب تحصيل الحاصل ؛ وارثُ العلم عن غير كلاله ؛ ذو الحسب المشرق بدُرِّه في سماء الجلالة ؛ صاحبُ المعارف التي زانت خلاله ، وساجبُ أذبال العِوَارِفِ التي أبانت على^٢ فضله دلالة ، مفتي السلطان في تلك الأوطان ، على مذهب الإمام النُّعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين^٣ ، لا زالَ سالِكاً سبيل المهتدين ؛ فكانَ جَمَلَ الله به عصرًا وأوانًا ، لقضية هذا القياس عنوانًا ، فلمَّا حَلَلْتُ بدارهم ، ورأيت ما أذهلني من سَبَقِهِم للفضل وبِدَارِهِم ، صَدَّقَ الخُبْرُ الخَبَرَ^٤ ، وتمثلت

١ ك : ووفادتي .

٢ ك : عن .

٣ هو عبد الرحمن العمادي الدمشقي (- ١٠٥١) . (انظر خلاصة الأثر ٢ : ٣٨٠ - ٣٨٩)

٤ الخبر : سقطت من ك .

فيهم بقول بعض من غَبَرَ :

أَلَمْتُ بِنَا أَوْصَافَهُمْ فَاثْمَلَا الْفَضَا عَبِيرًا وَأَضْحَى نُورُهُ مِثْلَ الْقَا
وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ سَمَاعِ حَدِيثِهِمْ بَلَاغًا فَصَحَّ النُّقْلُ إِذْ حَصَلَ اللَّقَا
وَقَابِلُونِي أَسْمَاهُمْ اللَّهُ بِالْإِحْتِفَالِ وَالْإِحْتِفَاءِ ، وَعَرَفَنِي بِدِيْعٍ بِرَّهْمٍ فَنَّ
الْإِكْتِفَاءِ :

غَمَرْتَنِي الْمَكَارِمُ الْغُرَّ مِنْهُمْ وَتَوَالَّتْ عَلَيَّ مِنْهَا فَنُونُ
شَرَطُ إِحْسَانِهِمْ تَحَقَّقَ عِنْدِي لَيْتَ شِعْرِي الْجِزَاءُ كَيْفَ يَكُونُ
وَقَابِلُونِي بِالْقَبُولِ مُغْضِينَ عَنْ جَهْلِي ^١ :

وَمَا زَالَ بِي إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ وَبِرَّهْمُ حَتَّى حَسَبْتَهُمْ أَهْلِي
بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ أَتَمَثَّلَ فِيهِمْ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا الْمَقُولِ فِي آلِ الْمَهْلَبِ ، وَهُوَ قَوْلُ
بَعْضِ مَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ بَرَّقَ قَصْدُهُمْ غَيْرَ خُلْبٍ ، فِي زَمَنِ بِهِ تَقَلَّبَ ^٢ :

وَلَمَّا نَزَلْنَا فِي ظِلَالِ بُيُوتِهِمْ أَمِنَّا وَنَلْنَا الْخِصْبَ فِي زَمَنِ حُلِّ ^٣
وَلَوْ لَمْ يَزِدْ إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ عَلَى الْبَرِّ مِنْ أَهْلِي حَسَبْتَهُمْ أَهْلِي
لَا سَيِّمًا الْمَوْلَى الَّذِي أَمْدَاحُهُ تُحَلِّي أَجْيَادَ الطَّرُوسِ الْعَاطِلَةَ ، وَسَمَاحُهُ
يُخَجِّلُ أَنْوَاءَ الْغَيْوِثِ الْهَاطِلَةَ ، صَدْرُ الْأَكَابِرِ الْأَعَاطِمِ ، الْحَائِزُ قَصَبِ السَّبْقِ
فِي مَيْدَانِ الْإِجَادَةِ بِشَهَادَةِ كُلِّ نَائِثٍ وَنَازِمٍ ، الصَّدِيقُ الَّذِي بُوْدَهُ أَغْتَبَطُ ،

١ أحد بيتين حساسين ، والأول منهما (المرزوقي ١ : ٣٠٣) :

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن محل

٢ البيتان للقاضي الرشيد أحمد بن علي الأسواني (انظر الوافي ٧ الورقة ١٠٧) .

٣ ك : المحل .

والصَّدُوقُ الذي بأسباب عَهْدِهِ أرتبط ، الأُوحدُ الذي ضربتِ البراعةُ رِوَاقَهَا
 بناديه ، والماجدُ الذي لم يزل بديعُ البلاغةِ من كَشَبِ بناديه ، السريُّ الحائرُ من
 الخلال ما أبان تفضيله ، التَّوَدُّعِيُّ الذي لم تزل أوصافُهُ تحكم له بالسُّودد وتقضي
 له ، والحقُّ أبلغ لا يحتاج إلى زيادة بَرَاهين ، الأجلُّ المولى أحمد أفندي بن
 شاهين^١ ، لا زالت العزةُ مُقيمةً بِوَادِيهِ ، ولا برحتْ حضرتهُ جامعةً لبواطن
 الفخر وبِوَادِيهِ ، والسَّعْدُ يراوحُ مقامه وَيُعَادِيهِ ، والمجدُ يترنمُ بذكره خاديه ،
 فكم له أسماءُ الله ولغيره من أعيان دمشق لديٍّ من أياد ، يعجز عن الإبانة عنها
 لو أراد وصفها قُسَّ إِيَاد ، ولو تعرضتْ لأسمائهم وحُلاهم ، أدام الله تعالى
 سعودهم^٢ وعُلاهم ، لضاق عن ذلك هذا النطاق ، وكان من شِبهِ التكليف
 بما لا يطاق ، فليت شعري بأيِّ أسلوب ، أؤدي بعضَ حقهم المطلوب ؟ أم بأيِّ
 لسان ، أثني على مَزَاياهم الحسان ؟ وما عسى أن أقول في قوم نَسَقُوا الفضائلَ
 وِلَاء ، وتعاطَوْا أَكوابَ المحامدِ وِلَاء^٣ ؟ وسحبوا من المجدِ مَطَارِفَ ومُلاء ،
 وحازوا المكارمَ ، وبَدَّوْا المَوَادِدَ والمُصَارِمَ ، سُوْدَدًا وعلاء :

فَمَّا رِياضُ زَهَرِ الرَّبِيعِ إِذَا بَدَتْ فِي وَشْيِهَا الْبَدِيعِ
 ضاحِكَةٌ عَنْ شَتَبِ الْأَقَاخِ عِنْدَ سُفُورِ طَلْعَةِ الصَّبَاحِ
 غَنَى بِهَا مُطَوَّقُ الْحَمَامِ وَصَافِحَتُهَا رَاحَةُ الْغَمَامِ
 وَبَاكَرَتُهَا نَسْمَةٌ مِنَ الصَّبَا فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا عَهْدُ الصَّبَا
 نَضَارَةٌ وَرَوْنَقٌ وَبَهْجَةٌ تَفْدَى بِكُلِّ نَازِلٍ وَمُهْجَةٌ

١ أصل والده من جزيرة قبرس وتلمذ أحمد على عبد الرحمن العمادي وغيره وهو إلى شهرته بالشعر
 كاتب مترسل وكان يدرس بالحقمية ولما ورد المقرئ دمشق أنزله فيها ، وبينهما مطارحات
 ومراسلات ستأتي في الباب الخامس ؛ توفي سنة ١٠٥٣ (انظر خلاصة الأثر ١ : ٢٠) .

٢ ك : سؤودهم .

٣ ك : ملاء .

أَطِيبُ مِنْ ثَنَائِهِمْ عَبِيرًا بَيْنَ الْوَرَى ، وَاسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا
 دَامَتْ مَعَالِيهِمْ عَلَى طَوْلِ الزَّمَنِ يُرَوَّى حَدِيثُ الْفَضْلِ عَنْهَا عَنْ حَسَنٍ
 وَثَابِتٍ وَقُرَّةٍ وَسَعْدٍ وَأَسْعَفُوا بِنِيلِ كُلِّ وَعْدٍ
 فَهَمُ الَّذِينَ نَوَّهُوا بِقُدْرِي الْخَامِلِ ، وَظَنُّوا مَعَ نَقْصِي أَنْ بَحَرَ مَعْرِفِي وَافِرٌ
 كَامِلٌ ، حَسْبَمَا اقْتَضَاهُ طَبْعُهُمُ الْعَالِي :

فَلَوْ شَرَيْتُ بِعُمْرِي سَاعَةً ذَهَبَتْ مِنْ عَيْشِي مَعَهُمْ مَا كَانَ بِالْغَالِي
 فَمَتِّعْنِي حَقَّهُمْ لَا يُتْرَكَ ، وَحُبُّهُمْ لَا يَخَالُطُ بَغْيَهُ وَلَا يُشْرَكَ ، وَإِنْ
 أَطَلْتُ الْوَصْفَ فَالْغَايَةُ فِي ذَلِكَ لَا تُدْرَكَ :

يَزْدَادُ فِي مَسْمَعِي تَرْدَادُ ذِكْرِهِمْ طَيِّبًا وَيَحْسُنُ فِي عَيْنِي مُكْرَرُهُ
 وَإِذَا كَانَ الْمَدِيحُ الصَّادِقُ لَا يَزِيدُهُمْ رَفْعَةً قَدْرَ ، فَهَمُ كَمَا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي
 ضَلَّتْ نَاقَتُهُ فِي مَدْحِ الْبَدْرِ ، وَالْبَلِيغُ وَذُو الْحَصْرِ فِي ذَلِكَ سَيِّئَانِ ، وَالْحَقُّ
 أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ لَجَلَجُ ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَّانِ :

هَبِ الرِّوْضَ لَا يُثْنِي عَلَى الْغَيْثِ نَشْرُهُ أَتَحْسِبُهُ تُخْفِي مَآثِرُهُ الْحُسْنَى
 وَقَدْ تَذَكَّرْتُ بِلَادِي النَّائِيَةِ ، بِذَلِكَ الْمَرَأَى الشَّامِي الَّذِي يَبْهَرُ رَائِيهِ ، فَمَا شِئْتُ
 مِنْ أَنْهَارٍ ذَاتِ انْسِجَامٍ ، أُتْرِخَ بِهَا مِنْ جِرْيَالِ الْأَنْسِ جَامٍ ، وَأَزْهَارٍ مُتَوَجِّةٍ
 لِلْأُدْوَاحِ ، مُرَوَّحَةٍ لِلنَّفُوسِ بِعَاطِرِ الْأُرُوحِ ، وَحَدَاقٍ تَعُشِّي أَنْوَارُهَا الْأَحْدَاقِ ،
 وَعِيَانَهَا لِلْخَبَرِ عَنْهَا مِصْدَاقٌ وَأَيُّ مِصْدَاقٍ :

١ يشير إلى قول الأعرابي للقمي :

ماذا أقول وقولي فيك ذو حصر وقد كفيته التفصيل والجملا
 إن قلت لا زلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

فَهِىَ الَّتِى ضَحِكَ الْبَهَارُ صَبَاحُهَا وَبَكَتْ عَشِيَّتُهَا عَيُونُ الرَّجَسِ
وَاخْضَرَّ جَانِبُ نَهْرِهَا فَكَأَنَّهُ سَيْفٌ يُسَلُّ وَغَمْدُهُ مِنْ سُنْدُسٍ

وجنان ، أفنانها في الحسن ذوات افتنان :

صَافَحَتْهَا الرِّيحُ فَاعْتَنَقَ السَّرُّ وَوَمَلَتْ طِيَالُهُ لِلْقِصَارِ
لَاثِدٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ كَقَوْمٍ فِي عَتَابٍ مُكْرَّرٍ وَاعْتِدَارِ

وَبِطَاحٍ رَاقٍ سَنَاها ، وَكَمَلَ حُسْنُهَا وَتَنَاهَى ، كَمَا قَلْتَ مَضْمَنًا فِي ذَلِكَ
الْمُنْحَى ، لِقَوْلِ بَعْضٍ مِنْ نَالٍ فِي الْبَلَاغَةِ مَنَّا وَمِنْهَا :

دَمَشَقٌ لَا يُقَاسُ بِهَا سِوَاهَا وَيَمْتَنِعُ الْقِيَاسُ مَعَ التَّصْوُوصِ
حَلَاها رَاقَتِ الْأَبْصَارُ حُسْنًا عَلَى حُكْمِ الْعُمُومِ أَوِ الْخُصُوصِ
بِإِسَاطٍ زَمَرْدٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْيَاقُوتِ أَلْوَانُ الْفُصُوصِ

ولله درُّ القائل ، في وصف تلك الفضائل ^١ :

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الْخُلُودِ بِأَرْضٍ فِدَمَشَقٌ ، وَلَا يَكُونُ سِوَاهَا
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَمَدَّتْ هَوَاهَا وَهَوَاهَا
بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَاعْتَنِمْنَهَا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

وعند رؤيتي لتلك الأقطار ، الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار ، تفاءلت
بالعود إلى أوطان لي بها أوطار ، إذ التشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار ،
ذات العرف المعطار ، وزادت هذه بالتقديس الذي همعت عليها منه الأمطار ،
وتمثلت بقول الأصفهاني ، وإن غيرت يسيراً منه لما أسفرت وجوه التهانى ^٢ :

١ انظر رحلة ابن بطوطة : ٨٤ .

٢ بعض هذا الشعر ورد في قصة رواها الحسيني في الجذوة : ٦٨ .

لَمَّا وَرَدْتُ الصَّالِحِيَّةَ هَـيْثُ مُجْتَمَعَ الرِّفَاقِ ١
وَشِمْتُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ م نَسِيمَ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ
أَبْقَنْتُ لِي وَلَمَنْ أَحَدُ بُ يَجْمَعُ شَمْلَ وَاتِّفَاقِ
وَضَحَكْتُ مِنْ فَرَحِ اللَّقَا وَكَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ
لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا نَجْ شَمُّ أَزْمَنِ السَّفَرِ الْبَوَاقِ
حَتَّى يَطُولَ حَدِيثُنَا بِصِفَاتِ مَا كُنَّا نَلَاقِ

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعاً بالوطن لا سواه ، فصار القلب
بعد ذلك مقسماً بهواه :

وَلِي بِالْحِمَى أَهْلٌ وَبِالشَّعْبِ جِيرَةٌ وَفِي حَاجِرِ خَيْلٍ وَفِي الْمُنْحَى صَحْبٌ
تَقْسَمُ ذَا الْقَلْبِ الْمَتِيمُ بَيْنَهُمْ سَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ يُقْسَمُ الْقَلْبُ
فِيَا لَكَ مِنْ صَبِّ مُرَاعٍ لِلذَّمَامِ ، مِنْقَادٍ لَشَوْقِهِ بِزَمَامِ ، يَخِيلُ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ
صَوْتَ قِيَانٍ ، بِقَوْلِ الْأَوَّلِ :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
وَفَرْدٍ تَعَدَّدَتْ جَمُوعُهُ ، وَوَشَّتْ ، بِمَا أَكُنْتُ ضُلُوعُهُ ، دَمُوعُهُ ،
فَأَنْشُدْ وَقَدْ تَحِيرُ ، مَا بَدَّلَ فِيهِ مِنْ عَظَمٍ مَا بِهِ وَغَيْرُ :

كُنْتُ شَأْنَ الْهَوَى يَوْمَ النُّوَى فَوَشَّتِي بِسَرِّهِ مِنْ جُفُونِي أَيُّ نَمَامِ
كَانَتْ لِيَالِيَّ بَيْضاً فِي دَنُوتِهِمْ فَلَا تَسَلْ بَعْدَهُمْ عَنْ حَالِ أَيْتَامِي
ضَنْبَيْتُ وَجِداً بِهِمُ وَالنَّاسُ تُحَسِّبُنِي سَقَمًا فَأَبْنِهِمْ حَالِي عِنْدَ لُؤَامِي
وَلَيْسَ أَصْلُ ضَنْبِي جَسْمِي النَّحِيلِ سِوَى فَرَطِ اشْتِيَاقِي لِأَهْلِ الْغَرْبِ وَالشَّامِ

١ الأصل : لما وردنا القادسية ، وغيره المؤلف ليوافق ما أراد من مدح دمشق . وكذلك غير في البيت
التالي « وشمت من أرض الحجاز » .

وحصل التحير ، حيث لم يمكن الجمع ولا الخلو عند التخير ، كما قال ابن
دقيق العيد^١ ، في مثل هذا الغرض البعيد^٢ :

إذا كنتُ في نَجْدٍ وطيبَ نعيمه تذكّرتُ أهلي باللّوى فمُحسّرٍ
وإن كنتُ فيهم زِدْتُ شوقاً ولوعةً إلى ساكني نَجْدٍ وعيلَ تصبّري
فقد طال ما بين الفريقين موقفي فمن لي بنَجْدٍ بين أهلي ومعشري
وبالجملة فلا عِتراف بالحق فريضة ، ومحاسنُ الشام وأهله طويلةٌ عريضة ،
ورِياضُه بالمفاخر والكمالات أريضة ، وهو مقرّ الأولياء والأنبياء ، ولا يجهل
فضله إلاّ الأغمار الأغبياء ، الذين قلوبهم مريضة :

أتى يرى الشمسَ خُفّاشٌ يلاحظُها والشمسُ تبهرُ أبصارَ الخفافيشِ
ولله درُّ من قال في مثل هذا من الأرضياء :

وهبّني قلتُ إنَّ^٣ الصبحَ ليلٌ أبعَمَي العالمون عن الضياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر :

إذا لم يكنْ للمرء عَيْنٌ بصيرةٌ فلا غرو أن يرتابَ والصبحُ مسفرٌ

وحسبَ الفاضل اللبيب ، أن يروي قول البدر بن حبيب^٤ :

١ هو محمد بن علي بن مطيع القشيري المشهور بابن دقيق العيد (٧٠٢ -) كان عالماً فقيهاً (راجع
ترجمته في الطالع السعيد : ٢٢٩ وممالك الأبصار : ٣ : ٤٣٣ وطبقات السبكي : ٦ : ٢ وتذكرة
الحفاظ : ١٤٨١) .

٢ لم ترد الأبيات في مجموعة شعره الملحقمة بدراسة الأستاذ علي صافي حسين عنه .

٣ ك : هذا .

٤ هو بدر الدين الحسن بن حبيب الحلبي (٧٧٩ -) ولد في دمشق وانتقل إلى حلب ثم إلى مصر ،
ثم عاد ينتقل في بلاد الشام وله عدة مؤلفات (الدرر الكامنة : ٢ : ٢٩) .

عَرَجَ إِذَا مَا شِئْتَ بَرَقَ الشَّامُ وَحَيَّ أَهْلَ الْحَيِّ وَأَقْرَبَ السَّلَامِ
وَانْزَلْ بِإِقْلِيمِ جَزِيلِ الْحَيَا بَارِكْ فِيهِ اللَّهُ رَبُّ الْأَنَامِ
الْعَزُّ وَالنَّصْرُ لَدَيْهِ ، وَمَا لِعُرْوَةِ الْإِسْلَامِ عَنْهُ انْقِصَامُ
مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَمْ قَدْ حَوَى رُكْنًا بِمِرَاةٍ يَطِيبُ الْمَقَامُ
وَهُوَ مَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ الْأُولَى وَالْأَصْفِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ الْكَرَامِ
كَمْ مِنْ شَهِيدٍ فِي حِمَاهُ وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ فَرَدٍ وَكَمْ مِنْ إِمَامِ

ولذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره في الدواوين ، وابنتت الأساتذة بيوت
افتخاره المنيفة الأواوين ، وتناقلت أنباءه البديعة ألسنُ الراوين ، وهامت
بأماكنه المريعة هُدأةُ الشريعة فضلاً عن الشعراء الغاوين ، ومع ذلك فهم في
التعبير عن عجائبه غير متساوين ، أولاً يرى أنهم يأتون من مَقُولِهِمْ ، على قدر
رأيهم وعقولهم ، ولم يبلغ جمعٌ منهم ما كانوا له ناوين :

على قدرِكَ الصَّهْبَاءِ تَوَلِيكَ نَشْوَةً بِهَا سَيَّءُ أَعْدَاءِ وَسُرَّ صِيَابُ
وَلَوْ أَنَّهَا تُعْطِيكَ مِنْهَا بِقَدْرِهَا لَضَاقَتْ بِكَ الْأَكْوَانُ وَهِيَ رَحَابُ

* * *

[ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين]

وكنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة ، وأثناء التأمل في محاسن الجامع
والمنازل والقصور والغوطة ، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار
الملقوطة ، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة ،
نتجاذبُ فيها أهداب الآداب ، ونشربُ من سَكَسَالِ الاسترسال ونتهادى
لُبَابِ الألباب ، ونمدّ بساط الانسباط ونسدلُ أطناب الإطناب ، ونقضي
أوطار الأقطار ، ونستدعي أعلام الأعلام ، فينجرُّ بنا الكلام والحديث شجون ،
وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون ، إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصفِ

رياضها السندسية ، التي هي بالحسن منوطة ، وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيهما المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة ، والفِطْرُ السليمة ، والأفهام المستقيمة ، بتسليم براهينها قاضية لا سيما إن كانت بالإنصاف مربوطة ، فصيرتُ أورد من بدائع بُلْغائِها ما يجري على لساني ، من الفيض الرحماني ، وأسرُدُ من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السِّلْماني ، صبَّ الله عليه شَأْبِيبَ رحماه وبلَّغَهُ من رضوانه الأمانِي ، ما تُثِيرُهُ المناسبة وتقتضيه ، وتُمِلُ إليه الطباعُ السليمة وترتضيه ، من النظم الجَزَلُ ، في الجدلِّ والهزل ، والإنشاء ، الذي يُدْهِشُ به ذاكِرُهُ الألبابَ إن شاء ، وتصرفُهُ في فنونِ البلاغة حاليّ الولاية والعزل ، إذ هو - أعني لسان الدين - فارسُ النظم والنثر في ذلك العصر ، والمنفردُ بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر ، وكيف لا ونظمه لم تستولِ على مثله أيدي المَحْصِرِ ، ونثره تزري صورته بالخريدة ودُمِيَّة القصر .

فلَمَّا تكرر ذلك غيَّرَ مرَّةً على أسماعهم ، لهجُوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمةُ إجماعهم ، وعَلِقَ بقلوبهم ، وأضحى منتهى مطلوبهم ، ومُنِيَّةُ آمالهم وأطماعهم ، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ، ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ، ويستنشقون من أزهاره كلَّ ذاك ، فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعي المشكور ، أن أتصدَّى للتعريف بلسان الدين في مُصَنَّفٍ يُعَرِّبُ عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ومفاخره التي قُلِّدَ بها جيدُ الزمان ولَبَّيْتُهُ ، ومآثره التي أَرَجَ بها مَسْرَى الشَّمالِ وهَبَّيْتُهُ ، وبعض ما له من النثر والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائقة للأبصار ، الفاتقة على كلام كثير من أهل الأمصار ، السائرة مسير القمر والشمس ، المعقودة

عليها الخناصر^١ بل الخمس ، كيما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشيعا ، ويخلع على مطالعه بهذه البلاد الشرقية من أغراضه البديعة ومنازعه وشيعا .

• • •

[اعتذار المؤلف عن تليته للمطلب]

فأجبتهُ أسْمى الله قدره الكبير ، وأدام عرّف فضائله المُزري بالعبر والعبر ، بأن هذا الغرض غير سهل ، ولست عليم الله له بأهل ، من جهات عديدة ، أولها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفي بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لأنّي خلقتها بالمغرب ، وأكثرها في المشرق كعنتقاء مغرب ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغرب ، ألبالة للفكر غالب^٢ الكربة ، وتقسم البال ، بين شغل عائق ولبال ، وأنّي يطيق ، سلوك هذا المضيق ، من اكتحلت جفونه بالسهاد ، ونبتت جنوبه عن المهاد ، وسدد نحوه الأسف سهنه ، وشغل باله ووهمه ، وبث في قلبه تبريحا ، وعناء لم يجد منه إلا أن يَلْطُفَ الله تسريحا ، فما شام بارقة أمل إلا في النادر ، ولا وردَ منهل صفاء إلا وكدّره مكر غادر ، وقد كثر الخفاء ، وبرح بلا شك الخفاء ، واستوختت الموارد والمصادر ، والقلب مكلوم ، واللب^٣ غير مكلوم ، إذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر ، ولا مؤنس إلا شاكي دهر بلسان صريح ، أو باكي قاصمة ظهر يجفن قريح ، أو مناضل في معترك العجز طريح ، أو فاضل دفن من الحمول في ضريح ، إذ رمت سهام الأوهام الصوائب ، وعصت منه إبهام

١ ك : المعقود ... بالخناصر .

٢ ك : غاية .

٣ ك : وذو لب .

الإبهام بنابِها النوى والنواب ، فقلوبه من تقلُّباتِ أحواله ذواب ، وكم شابت
من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذواب :

على أنها الأيام قد صِرْنَ كُلُّهَا عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ^١
وأدْمَعَ أحجارها ، تسلَّطُ فُجَّارُها ، فكم من عدوٍّ منهم في ثياب صديق ،
وحَسُودٌ لنظره إلى نعم الله على عباده تحديق ، لا تخدعه المَدَاراة ، ولا تَرُدُّعُهُ
المماراة ، يتبع العثرات ، ويقنع بألم البثرات ، ويتبسم ، وقلبه من الغل يتقسم ،
ويتودد ، ومكايدُهُ تتجدد فتتعدَّد :

لا تَرُمُ من مَذاقِ الودِّ خَيْراً فبعيدٌ من السَّرابِ الشَّرابُ
رونتُ كالْحَبَابِ يعلو على الما ولكن تحتَ الحَبَابِ الحُبَابُ
عظُمَت في النفاق ألسنةُ القَوِّ م وفي الألسنِ العذابِ العذابُ
والصديقُ الصديقُ في هذا الزمن قليل ، وقد أَلَفَ بعضُ العلماء « شفاء
الغليل » ، في ذمِّ الصاحب والخليل^٢ . وهو غيرُ محمولٍ على الإطلاق ، وإن
قال به بعضُ من رَهْنُهُ من أبناء عصره ذو إغلاق :

أبناء دَهْرِكَ فآلَقَهُمْ مثلَ العِدَا بِسِلَاحِكَا
لا تَغْتَرِرْ بِتَبَسُّمٍ فَالسَّيْفُ يَقْتُلُ ضَاحِكَا

وداء الحسد أعياء الأول والآخر ، وقد عظم الأمرُ في هذا الأوانِ وكثر
المزري^٣ والساخر ، مع أن أسواقَ الدفاتر كاسدة ، وأمزجة المحابر فاسدة :

١ البيت لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي .

٢ هذا الكتاب من تأليف علي بن ظافر الأزدي مؤلف كتاب « بدائع البدائع » وغيره من الكتب ،
وقد ساء في كشف الظنون « شفاء الغليل » بالعين المهملة ، وقال إن السيوطي اختصره وساء
« الشهاب الثاقب في ذمِّ الخليل والصاحب » ؛ وقد نشر المختصر بدشق (١٣٦٨) .

٣ ك : المزدرى .

والدهرُ دهرُ الجاهلي نَ وأمرُ أهلِ العلمِ فاترُ
لا سوقُ أكسدُ فيه من سوقِ المحابرِ والدفاترِ

فالمنسوبُ للعلمِ في هذا الزمنِ زَمين ، وهو بأن ينشد قول الأول قَمين :

لأَيِّ وَمِيضٍ بَارِقَةٍ أَشِيمُ^١ وَمَرَعَى الْفَضْلِ عِنْدَهُمْ هَشِيمُ^٢

وليت شعري علامَ يُحَسَدُ من أبدلَ الاغترابُ شارته ، وأضعف
الاضطرابُ إشارته ، وأهلُ^٢ بالدموع أنواءه ، وقتل أضواءه ، وكثرَ علله
وأدواءه ، وغيرَ عند التأمّل رُوءاه ، وثنى عن المأمولِ عِنايته ، وأرهفَ
بالحمولِ سِنانته ، حتى قدح الذكرُ حَنانته ، وملا الفكرُ جأشه وجَنانته ، فهو
في ميدانِ التزوح مستبق ، ومن راحةِ التعبِ مصطبِح ومغتَبِق :

له أَنَّةُ المشتاقِ في كلِّ ساعةٍ تمرُّ وما للثاكلاتِ من الحُزنِ
ومن مُرسَلاتِ الدمعِ واقعةُ الأُمى ومن عاديَاتِ البينِ قارعةُ السنِ^١

تثير الذكري منه كوامنَ الشُّجُونِ ، وتدير عليه جامَ الهَيَامِ ولو كان بين
الصِّفا والحَجُونِ :

وتحتَ ضُلُوعِ المُستَهامِ كآبةٌ يخافُ على الأحشاءِ منها التفطراً
ولو أن أحشاءَ تبُوحُ بما حَوّتْ لتمتلئنَ الأرضُ كُتُباً وأسطُراً

وشتانَ ما بين الاقترابِ والاغترابِ ، والسكونِ في الركونِ والنبوّ عنها
والاضطرابِ ، فذاك تسهلُ غالباً فيه الأغراضُ والمآربُ ، وهذا تتعقّرُ فيه
المقاصدُ وتتكدّرُ المشاربُ :

١ ك ط : ورعي .

٢ ك : واهل .

وما أنا عن تحصيل دنيا بما جزى ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتني رقة الحال مرةً أبث فعلها أخلاق نفس أبيّة

وكما قلت ، عندما صرت إلى الاغتراب وألت :

تركت رسوم عزّي في بلادي وصيرت بمصر منسيّ الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهداً وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص من يكون زمانه أحد الحصوم

وكما قال بعض الأكابر ، من أهل الزمان الغابر :

لا عارَ إن عطلت يدي من الغنى صان اللثيم ، وصنت وجهي ، ماله
أبكي لهم ضافني متأوباً لا تُنْكروا شيئاً أَلَمْ بِمُغْرَقِي
فلقد دُفِعتُ إلى الموم تنويني أسف على ماضي الزمان ، وحيرة
ما إن وصلتُ إلى زمان آخرٍ لله عهد بالحمى لم أنسه
كم سابق في الخيل غير مُحَجَّلٍ دوني ، فلم يبذل ولم أبتذل
إن الدموع قيرى الموم النزل عجلًا كأن سناه سلة مُنْصَلٍ
منها ثلاثُ شدائد جُمعن لي في الحال منه ، ووحشة المستقبل
إلا بكيّ على الزمان الأول أيام أعصي في الصبابة عُدلي

ويرحم الله ابن قلاقس الإسكندري ، إذ قال في معنى التمني المصدري :

١ ابن قلاقس الإسكندري : هو نصر الله بن عبد الله بن علي الأزهرى (- ٥٦٧) كان كثير الرحلة ، دخل صقلية في حكم النورمانيين ثم توجه إلى اليمن وتوفي في عيذاب ، وكان مختصاً بالسلفي كثير المدائح فيه (انظر ترجمته في الخريدة ١ : ١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩ : ٢٢٦ ووفيات الأعيان ٥ : ٢١ ومسالك الأبحار ١٢ : ٢٣) وقد نشر خليل مطران ديوانه وهذا المنشور لا يمثل إلا جانباً يسيراً من شعره . والأبيات التالية غير موجودة في هذا الديوان .

لعلّ زماني بالعُدَيْبِ يَعُودُ فيقربُ قربٌ أو يصدّ صدودُ
وأبصر كُثباناً وهزّ رَوَافِ عليهنّ أغصانٌ وهنّ قدودُ
وأقطف ورْدَ الخدّ وهو مُضَرَّجٌ وأجني أفاقَ الثغرِ وهو برودُ
وأدني ذراعي للعِناقِ ذريعةً فتسهي عن الإفراط فيه هودُ
ويتسري إليّ البدرُ وهو مُمنَعٌ ويغدو إليّ الطّبيّ وهو شرودُ
ونكرع في شكوى الفراقِ كأننا فوارطُ هيمٍ راقهنّ ورودُ
وأكبر مقدارَ الهوى عن كبيرةٍ وأحمي عفاي دونهُ وأذودُ

وفرق ما بين الجوهرِ والعَرَضِ ، والصحةِ البيّنةِ والمرضِ ، والدّرّ
والخصى ، والحسامِ والعصا . والرجوعُ إلى التفويضِ للأقدارِ ، في أمورِ هذه
الدارِ ، الكثيرةِ الأكدارِ ، هو المطلوبُ ، والرجوُّ من الله سبحانه جَبَرُ
القلوبِ :

يا ربّ نفْسُ هُمومي واكشِفْ كُرُوبِي جميعاً
فقدَ رَجَوْتُ كَرِيماً وقدَ دَعَوْتُ سَمِيعاً

. . .

[إصرار ابن شاهين على رأيه]

ولم يجعل لي المذكور - حفظه الله - فسحةً ولا منلوحةً ، بعد هذه الأعذار
المحمودة في الصديق الممدوحة ، ولسانُ حالي وقالي ، يشتان عجزِي عن أداء
هذا الحقّ بشهادة من هو وادّ وقالي ، إذ مَنْ كان بصفةٍ ، غير متمكنة ممّا
تكون به متصفةً ، واتسم بنعوتٍ مختلفةٍ ، وارتسم في غير ذوي الأحوالِ
المؤتلفةٍ ، كيف يحير في التصنيفِ جواباً ، أو ينتحي من التأليفِ صواباً ؟ ومَنْ
جفّنه هامٍ هاملٍ ، وقصوره عامٌ شاملٍ ، كيف يقبضُ بالأناملِ ، على ماء
البحر الوافر الكامل ؟ ومَنْ لبس من العيِّ ملاءه ، لا يعبرُ عمن طَبَّقَ مفاصل

الكلام وكُلاه ، وقصرت ألسن البلغاء عن عُلَاه ، وزانتْ صدور الدواوين
حُلَاه ، وجمع خللاً حِسَاناً ، وكان للدين لساناً ، وزاحمتْ مفاخرُهُ بالمناكبِ
الكواكب ، وازدانتْ بمرآة النوادي والمواكب ، ونفحاتُ الأزهارِ من آدابه ،
وتَسَمَاتُ الأسحارِ عِطْرُ أذْياله وأهدابه ، والسَّحَرُ من كتابته ، والسَّحَرِ
من كُنَايته ، ورووحُ النسيمِ من تعريضه ، والنثرةُ من نثره ، والشَّعْرَى من
شعره وقريضه ، وحُلُّ المجدِ لباسُهُ ، وأنوار العلمِ اقتباسُهُ :

له ذِهْنٌ يَغُوصُ بِسَحْرِ عِلْمٍ فَيَأْتِي مِنْهُ بِالذَّرِّ النَظِيمِ
مَعَانِيهِ الرِیَاضُ ، لِأَجْلِ هَذَا سَرَتْ أَلْفَاظُهُ مِثْلَ النَسِيمِ

ومباهية النجوم ، ومُضَاهِيهِ الْغَيْثِ السَّجُومِ ، إلى آباءِ يحسدهم البدر^١
والشمس ، وإباء لو كان للمشرقي لما تحيَّفه لَمَس ، وشرف لا مُدَّعَى ولا
مُنْتَحَل ، وهمة لو نالها البدر لاستخذى له زُحَل ، وبراعة أَرَهَقَتْ سَنَانَ قَلَمِهِ ،
وبراعة سارت أمراؤها تحت عِلْمِهِ ، فكم فَتَحَ بِفِكْرِهِ أَقْفَالَهَا ، وَوَسَمَ بِذَهْنِهِ
الثَّاقِبِ أَغْفَالَهَا ، وَسَبَّكَ مَعَانِيَهَا فِي قَالِبِ قَلْبِهِ لِابْرِيزَا ، وَرَقَمَ بَيَانَ لِسَانِهِ بِرُودِ
إِحْسَانِهِ بِلَفْظِهِ الْبَدِيعِ تَطْرِيزَا ، فَرَفَعَ فِي مَبْدَانِ الْإِجَادَةِ لَوَاؤَهُ ، وَأَتَيْحَ مِنْ
أَنَارِ الْبَرَاعَةِ الْعَذْبَةِ لِرَوَاؤِهِ ، وَنَالَ سَبْقاً وَتَبْرِيزَا :

وما زَمَ الشَّبَابَ وَأَنْتَ تَجْرِي مَعَ الْأَحْبَابِ فِي لَهْوٍ وَطِيبِ
وَوَصَلَ مِنْ حَبِيبٍ بَعْدَ هَجْرٍ بِأَحْلَى مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ

فقصائده أَرُخِصَتْ جَوَاهِرَ الْبُحُورِ ، الْمُنْظُومَةُ قَلَائِدَ اللَّبَّاتِ^٢ وَالنَّحُورِ ،
من حسان العقائل الحور :

١ ك : القمر .

٢ ك : في قلائد اللبات .

مَعَانِ وَأَلْفَاظُ تَنْظَمُ مِنْهُمَا عَقُودُ لَآلٍ فِي نُحُورِ الشَّمَائِلِ
وَزَهْرُ كَلَامٍ كَالْحَدَائِقِ تَسْجُهُ غَنِينَا بِهِ عَنْ حُسْنِ زَهْرِ الْحَمَائِلِ
وَكَلِمَاتِهِ غَدَتْ لِلْإِبْدَاعِ إِقْلِيداً ، وَجَمَعَتْ طَرِيقاً مِنَ الْبَلَاغَةِ وَتَلِيداً :

كسُونِ عَبِيداً ثِيَابَ الْعَبِيدِ وَأُضْحَى لَبِيداً لَدَيْهَا بَلِيداً
وَمُقْطَعَاتِهِ أَلْدُ فِي الْأَسْمَاعِ ، مِنْ مُطْرَبِ السَّمَاعِ ، وَأَبْهَى فِي الْأَحْدَاقِ
وَالنَّوَاطِرِ ، مِنَ الْحَدَائِقِ ذَوَاتِ الْأَغْصَانِ الْمُلْدِ التَّوَاضِعِ ، يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهَا مِنْ
اِتِّحَالِ الْإِنْصَافِ دِيناً ، وَاتِّخَالِ الْأَوْصَافِ فَاخْتَارَ الْعَدْلَ مِنْهَا خَدِيناً :

رَقِيقَاتِ الْمَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٍ لَوْ أَنَّ الشَّعْرَ يُلْبَسُ لَارْتَدَيْنَا
وَرَسَائِلَهُ كَنَقْطِ الْعُرُوسِ اللَّائِحَةِ فِي الْبَيَاضِ ، أَوْ كَوَشْيِ الرِّبْعِ أَوْ قِطْعِ
الرِّيَاضِ ، بَرَزَتْ أَغْصَانُهَا الْحَالِيَةَ وَتَبَرَّجَتْ ، وَتَضَوَّعَتْ أَفْنَانُهَا الْعَالِيَةَ وَتَأَرَّجَتْ ،
وَقَدْ أَلْبَسَهَا الْقَطَرُ زَهْرًا ، وَفَجَّرَ خِلَالَهَا نَهْرًا ، فَأَخَذَتْ زَخْرَفَهَا وَازْيَنْتَ ،
وَلَا حَتَّ مُحَاسِنُهَا غَيْرَ مُحْتَجِبَةٍ وَتَبَيَّنَتْ ، فَبَهَرَتْ مِنْ لَهَا قَابِلٌ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَا بِل :

هِيَ الْحَدِيقَةُ إِلَّا أَنْ صَيَّبَهَا صَوْبُ النَّهْيِ وَجَنَانُهَا زَهْرَةُ الْكَلِمِ
وَقَوَافِيهِ ، رِيشتُ بِهَا قَوَادِمُ الْإِتْقَانِ وَخَوَافِيهِ ، نَبَالَ مُجَارِيهَا تَسْتَدَثِّرُ
الْحَصَرَ ، وَبَاعُ مُبَارِيهَا يَسْتَشْعِرُ الْقِصَرَ :

خَطَّهَا رَوْضَةً ، وَأَلْفَاظُهَا الْأَزْ هَارُ يَضْحَكُنَّ ، وَالْمَعَانِي ثِمَارُ
تُبْدِي لِمَبْصَرِهَا وَتُثْرِي ، مَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الْبُحْتَرِيِّ ١ :

وَكَلَامٌ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ النَّا ضِرُّ فِي رَوْثِ الرِّبْعِ الْجَدِيدِ

مُشْرِقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخُ^١ لَمَقَهُ عَوْدُهُ عَلَى الْمُسْتَعِيدِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي هَجَنْتَ مَا لَجَرُولُ مِنْ نَشِيدٍ^٢
حُزْنَ مُسْتَعْمِلَ الْكَلَامِ اخْتِيَاراً وَتَجَنَّبَنَ ظَلَمَةَ التَّعْقِيدِ

بل هي أجلُّ ممَّا وصف عند التحقيق ، وإمعان النظر الصحيح والتدقيق :

أَيْنَ زَهْرُ الرِّيَاضِ وَهُوَ إِذَا مَا طَالَ عَهْدُ الْغَيْثِ عَادَ هَشِيمًا
مِنْ قَوَافٍ كَانَتْهَا الْأَنْجُمُ الزُّهُدُ رُ سَنَاها زَانَ الظَّلَامِ الْبَهِيمَا

وفاهيك بمن أطلعت العلوم على جلائلها ودقائقها ، وأرنته الفنون ما شاء من
يانعات حدائقها ، وحيثه^٣ الحكيم الرياضية بأزاهرها وشقائقها ، وأرضعته
الوزارة من ثديتها ، وحلت به الإمارة صدر نديتها ، وجعلته المرجوع
إليه في تمييز جيد الأمور ورديتها ، فغرس في أرض الرياسة من نخل السياسة
ووديتها^٤ ، وأعلى علكم العدل وأغمد سيف الانتقام ، ودفع تنين الفتنة
الذي فغرفاه^٥ للانتقام ، والعهد إذ ذاك قريب ، في وطن الأندلس الغريب ،
باختلال الحال ، وتوالي الإحمال ، والتجرتي على قتل الملوك ، والتجرتي لقطع
الطرق ومنع السلوك ، حيث أهواء المارقين ذات افتراق ، وضلوع الصادقين
في قلق واحترق ، وأيدي الإحن باطشة ، وسيوف المحن إلى الدماء عاطشة ،
وعرش الحماية مثلول ، وصارم الكفاية مقلول ، ونطاق الرعاية محلول ،
ودم الوقاية مقلول^٤ ، وجيب النصيحة مملول ، والتشور السلطاني بنار اختلاف
الكلمة ملتهب ، والعدو ينتهز الفرصة ويسلب^٥ الأنفس والأموال ويتهب ،

١ ديوانه : هجنت شعر جرول وليد .

٢ ك ج : وحبته .

٣ الودي : فسيل النخل وصغاره .

٤ ك : ونطاق الرعاية مقلول .

٥ ك : ويستلب .

وليس له في غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء ، وإن عَقَدَ المهادنة في بعض الأحيان فهو يُسِيرُ حَسَوًا في ارتغاء ، وكلابُ الباطل في دماء أهل الحق والغلة ، والله سبحانه وتعالى في خلقه إرادة نافذة وحكمة بالغة ، فرقع لسان الدين ثوب الأندلس ورفاهه ، وأرغَمَ - رحمه الله - الكفر الذي فغر فاه ، وشَمَّرَ عن ساعد اجتهاده ، وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده ، حتى لاحت للنصر بَوَارِقُ ، وأمنت بالحزم الطواريء والطوارق ، ثم ضرب الدهرُ ضَرْبَانَهُ ، وأحرق الحاسِدُ بنار أحقادِه أنْضَرَ بَانَهُ ، وأظهر ما في قلبه على لسان الدين وأَبَانَهُ ، وتقرب الوشاة ، وهم مَمَّنْ كان يخدمه وَيَغْشَاهُ ، إلى سلطانه الذي كان عِزَّةَ أوطانه الذي كان يأمنه ولا يخشاه ، حتى فَسَدَ عليه ضميرُهُ ، وتكدر - وَمَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ - نَمِيرُهُ ، فأحسَّ بظاهر التغير ، وصار في الباطن من أهل التحير ، وأجال قِداح آرائه ، والتفت إلى جهة العدو من ورائه ، ففرّ مشمرًا عن ذَيْلِهِ ، في لُئْمَةٍ من خيله ، إلى أسد العرين ، سلطان بني مَرِّين ، وكان إذ ذاك بَيْتِلِمِيسَانَ ، وهو من أهل العلم والعدل والإحسان ، فاهتز لمَقْدَمِهِ ، ولقيه بخاصته وخدمه ، وأكرم مَثْوَاهُ ، وجعله صاحب تَجْوَاهُ ، ثم أدرك السلطان الحِمَامَ ، وكُسِفَ بديره وقت التمام ، فرجع لسان الدين إلى فاس ، واستنشق بها أَطْيَبَ الأنفاس ، وكثرت بعد ذلك الأهوال ، وتغيرت بسببه بين رؤساء العدو والأندلس الأحوال ، فما نجا من مكر العدا ولا سلم ، وآل أمره من الاغتيال وما نَقَعَ الاحتيالُ إلى ما علم ، على يَدِ بعض أعدائه ، الذين كانوا يتربصون الدوائر لإردائه ، فأصبح كَأَمْسِ الزهاب ، وصارت أمواله وضياعه عُرْضَةً للنهاب ، وغصَّ بذلك من كان من أُوْدَائِهِ ، وأخذ الله ثاره ، من بعض من حرك عليه المكر وأثاره ، وتسبب في هلاكه ، حتى انتثرت جواهر أسلاكه ، ومات بدائه . فالعيون إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية ، ونفوسُ

الأكابر وغيرهم مما فعل به شاكية ، والألسنة والأقلام لمقاماته في الإسلام حاكية .

فَمَنْ كان بهذه السمات وأكثرَ منها موصوفاً ، لا يَقْدِر مثلي على تحبير التعبير عنه وَيَخْشَى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قُطْناً أو صوفاً .

• • •

[اعتزام المقرئ إجابة ابن شاهين إلى مطلبه]

ثم إنني لما تكرر عليّ في هذا الغرض الإلحاح ، ولم تُقْبَلْ أعذارِي التي زَنَدُها شَحَاح ، عَزِمْتُ على الإجابة لما للمذكور عليّ من الحقوق ، وكيف أقابل بَرّه حفظه الله بالعقوق ، وهو الذي يَرْوِي من أحاديث الفضل الحسان والصحاح ، فَوَعَدْتُهُ بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزّية ، وأزمنت السيّر عن دمشق المعروفة المزّية ، وألبسني السفر منها من الخلع زيّه ، وراحَلْنَا عن تلك الأرجاء المتألّفة ، والقلوبُ بها وبمن فيها متعلقة :

حللنا دياراً للغرام سَرَتْ بِهَا	إلَيْنا صَبَا نَجْدٍ بطيبِ نَسِيمِ
وبان رَدَى الأشجان لما تجاذَبَتْ	أَكْفُ المني فيها رِداءِ نَعِيمِ
فما أنشبتنا العيسُ أن قد قَتَ بنا	إلى فُرْقَةٍ والعهدُ غَيْرُ قديمِ
فإن نَكُ ودَّعْنَا الديارَ وأهلَها	فما عهدُ نَجْدٍ عندنا بدَمِيمِ

• • •

[وداع الشام]

فخرج معنا - أسماء الله - مع جملة من الأعيان إلى دَارِيَا ، المضاهية
لدارينَ في رِيَاها وحبَّذا رِيَا ، فآلفيناها ^١ :

رِيَا من الأنداء طَيِّبَةً لها القَدَرُ الجَلِيلُ
تُهْدِي لَنَا أَرْجَاؤَهَا أَرْجَاً من الزَّهَرِ البَلِيلُ
وبها الغُصُونُ تَمَايَلَتْ مَيَّلَ الخليلِ على الخليلِ

ووصلنا عند الظهيرة ، وسَرَّحْنَا العُيُونَ في بدائعها ^٢ الشهيرة :

مَبْنُورٌ كالرَّبِيعِ حَلَّتْ عليه حَالِيَاتُ السَّحَابِ عِقْدُ النِّطَاقِ
يُمْتَسِعُ الْعَيْنَ مِنْ طَرَائِقِ حُسْنٍ تَتَجَافَى بِهَا عَنِ الْإِطْرَاقِ
وَقَلْنَا بِهَا ، لَمَّا نَزَلْنَا بِجَنَابِهَا ^٣ :

وَبَيْتُنَا وَالسَّرُورُ لَنَا نَدِيمٌ وَمَاءُ عُيُونِهِ الصَّافِي مُدَامٌ
يُسَايِرُهُ التَّسِيمُ إِذَا تَغَنَّتْ حَمَائِمُهُ وَيَسْقِيهِ الْغَمَامُ

فيا لك من ليلة أَرَبَّتْ في طيب النفع ، على ليلة الشريف الرضي بالسَّفْحِ ^٤ :

وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مَفُوقَةٍ قَدْ وَشِيَتْ بِالْغَمَائِمِ الْوُكُفِ
نُغْفِي عَلَى زَهْرَهَا فَيُوقِظُنَا وَهْنًا هَدِيرُ الْحَمَائِمِ الْهَتُفِ

١ ق : فآلفيتها .

٢ ك : محاسنها .

٣ ق ك : بجانبها .

٤ : يشير إلى قول الشريف الرضي :

يا ليلة السفح ألا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

ودَوَّحُهَا من نَدَاهُ في وُشْحٍ ومن لآلِي الأزْهَارِ في شُنْفٍ
والغُصْنُ من فَوْقه حَمَامَتِهِ كَأَنَّتْهَا هَمَزَةٌ على أَلِفٍ

وما أقرب قول الوزير ابن عمار ، من وصف ذلك المضممار ، الجامع للأقمار^١ :

يَا لَيْلَةً بَيْتَنَا بِهَا في ظِلِّ أَكْنَافِ النَّعِيمِ
من فَوْقِ أَكْمامِ الرِّبَا ضِ وتَحْتَ أَذْيَالِ النَّسِيمِ

ونَاهِيكَ بِمَحَلِّ قَرُبٍ من دَمَشْقِ الغَرَاءِ ، فخلعت عليه حلل الحُبُورِ
والسَّرَاءِ ، وأمدته بضياؤها ، وأودعته بَرَقَ حَيَاها وماء حيائها ، فصار ناضراً
الدَّوَّحاتِ ، عاطر الغَدَّواتِ والرَّوَّحاتِ ، مونيَّ الأنفاسِ والنفحاتِ ، مُشْرِقِ
الأسيرةِ والصفحاتِ ، هذا والقلوب من الفراق في قَلَقٍ ، ولسانُ الحال ينشد :

وبي عَلاقةٌ وَجْدٍ لَيْسَ يَعْلَمُهَا إلاّ الذي خَلَقَ الإنسانَ من غَلَقٍ
ويبحث على انتهاء فرصة اللقاء إذ هي غنيمة ، ويذكر بقول من قال وأكفُّ
الدهر موقظة ومُنِيمة^٢ :

تَمَتَّعَ بِالرُّقَادِ على شِمَالٍ فسَوَّفَ يطول نَوْمُكَ باليَمِينِ
ومَتَّعَ من يُحِبُّكَ باجتماعٍ فأنتَ من الفراقِ على يَقِينِ

ثمَّ حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع ، والكل ما بين واجم وباك وداع ،
فتمثلتُ بقول مَنْ قَلْبُهُ لفراق الأحباب في انصداع :

ودَعَتْهُمْ ودُموعي على الحدود غِزَارُ
فاستكثروا دَمْعَ عَيْنِي لما استقلُّوا وساروا

١ لم يرد البيتان في ديوانه الملحق بدراسة الدكتور خالص .
٢ البيتان من شعر ابن الخياط شاعر صقلية قبل الفتح النورماني (انظر : الشعر الصقلي في المغرب
لابن سميذ) .

وقول آخر :

يا وَحْشَةً من جيرةٍ مُذْ نَاوَا
حكّت دموعي البحرَ من بُعدِهِم
علُّوْ قدرِي في الهوى انْحَطَا
لما رأتُ مترلُهمْ شَطَا^١

وحتى^٢ لي أن أتمثل في ذلك بقول الغزالي :

لا تَسَلِّني عما جَنَاهُ الفراقُ
أين صَبْرِي أم كيف أملكُ دَمْعِي
قَفْ معي نَنْدُبُ الطلُولِ فهذي
وأَعِدْ لي ذَكَرَ الغَوَيْرِ فكم ما
في سبيل الغَرَامِ ما فَعَلْتُ بالـ
يَوْمَ وَلَتْ طلائعُ الصَّبْرِ مِنَّا
حَمَلْتَنِي يَدَاهُ ما لا يُطَاقُ
والمَطَايا بالظاعنينَ تُسَاقُ
سُنَّةٌ قَبْلُ سَنَتِهَا العُشَاقُ
لَـ بَعِطْنِي نَسِيمُهُ الخَفَاقُ
مَاشِقِينَ القُدُودُ والأَحْدَاقُ
ثُمَّ شَنَّتْ غاراتِهَا الأَشْوَاقُ

وبقول غيره :

كُنَّا جميعاً والدارُ تَجْمَعُنَا
واليومَ صارَ الوداعُ يَجْعَلُنَا
مِثْلَ حُرُوفِ الجَمِيعِ مُلتَصِقَةً
مِثْلَ حُرُوفِ الوداعِ مُفَرِّقَةً

وقول آخر :

حينَ هَمَّ الحبيبُ بالتَّوَدِّيعِ
لَمْ يَذوقُوا طَعْمَ الفراقِ ولا ما
عَيَّرُونِي أَنِّي سَفَحْتُ دُمُوعِي
أَحْرَقْتُ لَوْعَةَ الأَمْسِ من ضلوعي

١ في كلمة « شط » تورية فهي تعني الشاطئ لمائلة البحر ، وهي بمعنى « بعد » .
٢ الغزالي : شهاب الدين أحمد بن عبد الملك أبو العباس (- ٧١٠) كان تاجراً بالقاهرة أديباً
ظريفاً يجمع بين القصيد والموشح ، وله ديوان مخطوط (دار الكتب رقم ٤٧٩ ، ٥٥٩ أدب)
انظر ترجمته في المنهل الصافي ١ : ٣٤٠ وقد اضطرب الاسم في النسخ ففي ق : الاعزالي ، وفي
ط : الفزاري ، وفي ج : أن أتمثل في ذلك المزمار .

كيف لا أَسْفَحُ الدموعَ على رَبِّهِ عِ حَوَى خَيْرَ ساكنٍ وِجْمُوعِ
هَبْنِكَ أَنِّي كَتَمْتُ حَالِي أَتَخْفَى زَفَرَاتُ المَيْمِ المَصْدُوعِ
لِنَّمَا يُعْرِفُ الغَرَامُ بَمَنْ لَا حَ عَلَيْهِ الغَرَامُ بَيْنَ الرُّبُوعِ

وقول من قال :

أَقُولُ لَهُ عِنْدَ تَوَدِّيهِ وَكُلُّ بَعْبَرَتِهِ مُبْلِسُ
لَنْ قَعَدَتْ عَنْكَ أَجْسَادُنَا لَقَدْ سَافَرَتْ مَعَكَ الْأَنْفُسُ

وقول الصابي^١ :

وَلَمَّا حَضَرْتُ لَتَوَدِّيهِ وَطَرَفُ النَّوَى نَحُونَا أَشْنُوسُ
عَكَسْتُ لَهُ بَيْتَ شَعْرِ مَضَى يَلِيقُ بِهِ الْحَالُ إِذْ يُعْكَسُ
لَنْ سَافَرَتْ عَنْكَ أَجْسَادُنَا لَقَدْ قَعَدَتْ مَعَكَ الْأَنْفُسُ

وقول المهدب بن أسعد الموصلي^٢ :

دَعَنِي وَمَا شَاءَ التَّفَرُّقُ وَالْأَمْسَى وَاقْصِدْ بِلَوْمِكَ مِنْ يَطْبَعُكَ أَوْ يَبِي
لَا قَلْبَ لِي فَأَعْيِ الْمَلَامَ فَإِنِّي أَوْدَعْتُهُ بِالْأَمْسِ عِنْدَ مُودَّعِي
هَلْ يَعْلَمُ الْمُتَحَمِّلُونَ لِنُجْعَةٍ أَنَّ الْمَنَازِلَ أَخْصَبَتْ مِنْ أَدْمُعِي
كَمْ غَادَرُوا حَرَضًا وَكَمْ لَوْدَاعِهِمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنْ غَرَامٍ مُودَّعِ
وَالسَّقْمُ آيَةٌ مَا أَجِنُ مِنَ الْجَوَى وَالْدَمْعُ بَيِّنَةٌ عَلَى مَا أَدَّعِي

١ الصابي هو إبراهيم بن هلال بن هارون الكاتب المرسَل المشهور في القرن الرابع . راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ٣٤ ومعجم الأدباء ٢ : ٩٤ واليتمة ٢ : ٢٤٢ .

٢ المهدب بن أسعد الموصلي : أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى ، ابن الدهان الموصلي ، قصد مصر ومدح الصالح بن رزيك ، ثم تولى التدريس بمصر . انظر ترجمته في الخريدة - القسم الشامي - ٢ : ٢٧٩ ومصادر أخرى في الحاشية ؛ والأيات من قصيدة له أوردها أبو شامة في الروضتين ٢ : ١٦ ، ٢٩ .

وقول الكمال التَّنُوخي :

كم ليلة قد بثها أرعى السُّها
قَضَيْتُهَا ما بين نومٍ نافرٍ
لم أنسَ أيامَ السَّروِرِ وطيبها
والروضُ قد أبدى بدائع نوره
والماءُ يَبْدُو كالصَّوارمِ سارياً
والطيرُ بين مُسَجِّعٍ ومُرَجِّعٍ
جزعاً لفرقتِهِمُ بمُقلَّةِ أرمَدِ
وزفيرِ مَهْجُورٍ وقلبٍ مُكَمَدِ
بين السَّديرِ وبين بُرْقَةٍ تَهْمَدِ
مِنْ أَزْرَقٍ ومُفَضِّضٍ ومورَدِ
فيعيدُه مرَّ الصَّبَا كالمبردِ
ومُغَرَّدٍ ومُعَدَّدٍ ومُرَدَّدِ

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري^٢ :

أحبابنا ما لي على بُعدِ المدى
لله أوقاتُ الوصالِ ومنظَرُ
أنِّي يطيقُ أخو الهوى كتمانهُ
ما بعدَ مفترقِ الركابِ نصبرُ
يا سَعْدُ ساعدٍ بالبكاءِ أنا هوى
جلدٌ ومنْ بعدَ النوى يتجلدُ
نَصِرُ وغُصْنُ الوصلِ غُصْنُ أَمَلدُ
والخدُّ بالدمعِ المصونِ مُخَدَّدُ
عَمَّنْ أحبُّ فهل خليلٌ يُسْعِدُ ؟
يومَ الوداعِ بكى عليه الحسدُ

وقول ابن الأثير :

لم أنسَ ليلةً ودَّعوا صَبّاً وساروا بالحُمُولِ
والدمعُ من فرطِ الأسى يحري فيعثرُ بالذيولِ

وقول الأَرَجاني^٣ :

١ ق ج : بين الصرير ؛ ط : بين الصريم .

٢ بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري (- ٦٢٢) فقيه غلب عليه الشعر . (انظر ترجمته

في وفيات الأعيان ١ : ١٩٣) .

٣ الأَرَجاني : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الملقب ناصح الدين (- ٥٤٤) ، من شعراء

الحريّة ، كان قاضياً بتستر وعسكر مكرم ، وقال ابن خلكان : له شعر رائق في نهاية الحسن . =

ولمّا وَقَفْنَا للوداع عَشِيَّةً وطَرَفِي وقلبي هَامِعٌ وَخَفُوقُ
بَكَيْتُ فَأُضْحَكْتُ الوُشَاةُ شِمَاتَةً كَأَنِّي سَحَابٌ والوشاةُ بُرُوقُ

وقول ابن نباتة السعدي^١ :

ولمّا وَقَفْنَا للوداع عَشِيَّةً ولمْ يبقَ إِلَّا شامتٌ وَغَيُورُ
وقفنا فمِنْ بَاكِ يُكْفِكِفُ دَمْعَهُ وملْتَزِمٌ قَلْباً يَكَادُ يَطِيرُ

وقول بعضهم :

لَمَّا حَدَا الحَادِي بِتَرْحَالِهِمْ هَبَّجَ أَشْوَاقِي وَأَشْجَانِي
وَرَّاحَ يَثْنِي القَلْبَ عَنْ غَيْرِهِمْ فَهَوَّ لَهُمْ حَادٍ وَلِي ثَانِي

وقول الصفدي :

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لوداع النوى وكَدْتُ مِنْ حَرِّ الجوى أَجْرَقُ
رَأَيْتُ قَلْبِي سَارَ قُدَّامَهُمْ وَأَدْمَعِي تَجْرِي وَلَا تَلْحَقُ

وقوله أيضاً :

تَذَكَّرْتُ عَيْشاً مَرَّ حُلُوءاً بِكُمْ فَهَلْ لَأَيَامِنَا تِلْكَ الذَّوَاهِبِ وَاهِبُ ؟
وَمَا انْصَرَفَتْ آمَالُ نَفْسِي لغيركم وَلَا أَنَا عَنْ هَذَا الرِّغَابِ غَائِبُ
سَأَصْبِرُ كَرَهًا فِي الهوى غَيْرَ طَائِعِ لَعَلَّ زَمَانِي بِالْحَبَابِ آيِبُ

= (راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ١٣٤ وطبقات السبكي ٤ : ٥١ وشذرات الذهب ٤ : ١٣٧).

١ هو أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة (٤٠٥ -) من شعراء اليتيمة (٢ : ٣٨٠) وانظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢) ؛ وهذان البيتان سقطا من ق ط ج .

وقول ابن نباتة المصري^١ :

في كَتَفِ الله وفي حِفْظِهِ مَسْرَاكَ وَالْعَوْدُ بِعِزِّ صَرِيحٍ
لو جازَ أَنْ تَسْلُكَ أَجْفَانَنَا كُنَّا فَرَشْنَا كُلَّ جَفْنٍ قَرِيحٍ
لكنها بِالْبُعْدِ مُعْتَلَّةٌ وَأَنْتَ لَا تَسْلُكُ إِلَّا الصَّحِيحُ

وقول الحافظ أبي الحسن علي بن الفضل^٢ :

عَجِبْتُ لِنَفْسِي بَعْدَهُمْ مَا بَقَاؤُهَا وَلَمْ أَحْظَ مِنْ لُفْيَاهُمْ بِمُرَادِي
لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتُهُمْ مُنْذُ دَعَا وَلَكِنَّمَا فَارَقْتُ طَيْبَ رِقَادِي
وَقَدْ مَنَعُوا مِنِّي زِيَارَةَ طَيْفِهِمْ وَكَيْفَ يَزُورُ الطَّيْفُ حَلْفَ سُهَادِي؟
وَأَعْجَبَ مَا فِي الْأَمْرِ شَوْقِي إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي سَوَادِي^٣ نَاطِرِي وَفَوَادِي

وقوله رحمه الله تعالى :

رعى الله أيامَ المَقَامِ بَرَوْضَةَ تَرُوحُ عَلَيْنَا بِالسُّرُورِ وَتَغْتَدِي
كَأَنَّ الشَّقِيقَ الْغَضَّ بَيْنَ بَطَاحِهَا نَجُومُ عَقِيقٍ فِي سَمَاءِ زَبَرْجَدِ

وقول القاضي الرشيد الأسواني^٤ :

١ ابن نباتة المصري : محمد بن محمد بن محمد ، أبو بكر جمال الدين (- ٧٦٨) شاعر مَرسَل ، وله شرح مفيد على رسالة ابن زيدون الهزلية (ترجمته في الدور ٤ : ٢١٦ والنجوم الزاهرة ١١ : ٩٥ وطبقات الشافعية ٦ : ٣١) ، وديوانه مطبوع . ولقطة « المصري » لم ترد إلا في ك .
٢ أبو الحسن علي بن الفضل (- ٦٢٧) فقيه شاعر أندلسي من معاصري ابن سعيد ، وكان أهله أعيان أوريولة ، وهو من أصحاب التوشيح . (انظر اختصار القدح : ١٠٨ والمغرب ٢ : ٢٨٦) . وفي ط ج : ابن المفضل .

٣ ق : سويدا .

٤ القاضي الرشيد الأسواني : أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، كان عالماً شاعراً حاول أن يدعو =

رَحَلُوا فَلَا خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ وَنَآوَا فَلَا سَلَّتِ الْجَوَانِحُ عَنْهُمْ
وَسَرَّوْا وَقَدَّ كَتَمُوا الْغَدَاةَ مَسِيرَهُمْ وَضِيَاءُ نَوْرِ الشَّمْسِ مَا لَا يُكْتَمُ
وَتَبَدَّلُوا أَرْضَ الْعَقِيقِ عَنِ الْحُمَى رَوَتْ جَفَوْنِي أَيَّ أَرْضٍ يَمْتَمُوا
نَزَلُوا الْعَذِيبَ وَإِنَّمَا هُوَ مَهْجَتِي رَحَلُوا وَفِي قَلْبِ الْمُتِمِّ خَيْمُوا
مَا ضَرَّهُمْ لَوْ دَعَّوْا مَنْ أَوْدَعُوا نَارَ الْغَرَامِ وَسَلَّمُوا مِنْ أَسَلَمُوا
هُمْ فِي الْحَشَا إِنْ أَعْرَقُوا أَوْ أَيْمَنُوا أَوْ أَشَامُوا أَوْ أَنْجَدُوا أَوْ أَتْهَمُوا

وقول الشاعر أبي طاهر الأصفهاني ، المعروف بالوثابي ^١ :

أَشَاعُوا فَقَالُوا وَقْفَةٌ وَوَدَاعٌ وَزُيْمَتُ مَطَايَا لِلرَّحِيلِ سِرَاعٌ
فَقُلْتُ وَدَاعٌ لَا أَطِيقُ عِيَانَهُ كَفَانِي مِنَ الْبَيْنِ الْمُشْتِ سَمَاعٌ
وَلَمْ يَمْلِكِ الْكُتْمَانُ قَلْبُ مَلِكْتَهُ وَعِنْدَ النَّوَى سِرُّ الْكُتُومِ مُدَاعٌ

وقول أبي المجد قاضي ماردین :

رَعَى اللَّهُ رَبْعًا أَنْتُمْ فِيهِ أَهْلُهُ وَجَادَ عَلَيْهِ هَاطِلٌ وَهَتُونٌ
وَلَا زَالَ مَخْضَرُ الْجَوَانِبِ مُتَرَعًا حِيَاضٌ وَفِيهِ لِلنَّعِيمِ فَنُونٌ
لَنْ قَدَّرَ اللَّهُ اللَّقَاءَ وَأَيْنَعَتْ غَصُونُ التَّدَانِي فَالْبِعَادُ يَهُونُ
وَإِنْ حَكَمْتُ أَبْدِي الزَّمَانَ بَعْسَرَةً فَكَمْ قُضِيَتْ لِلْمَعْسَرِينَ دِيُونُ

وقول آخر :

= لنفسه باليمن ثم قتل سنة ٥٦٣ . (ترجمته في الخريدة - قنم مصر - ١ : ٢٠٠ ووفيات الأعيان
رقم ٦٤ والطالع السعيد : ٥٢ ومعجم الأدباء ٤ : ٥١ و ترجم له الصفدي في الوافي) والأبيات
من قصيدة وردت في معجم الأدباء ٤ : ٦٢ - ٦٣ .

١ هو إسماعيل بن محمد بن أحمد الوثابي الأصفهاني الأديب ، له شعر حسن ونظم رائع ، روى عن
أبي عمرو بن منده وغيره وتوفي سنة ٥٣٢ (الباب ٣ : ٢٦٢) وفي ج : المعروف بالوشاء ،
وفي ك : بالوثابي .

غبتُ فما لي في التَّصَبَّرِ مَطْمَعٌ
لا الدَّارُ بعدكمُ كما كانتُ ولا
أشتاقُكم ، وكذا المحبُّ إذا نأى
عَظُمَ الجوى واشتدَّتِ الأشتاقُ
ذاك البَهَاءُ بها ولا الإِشراقُ
عندُ أحبةٍ قلبه يشناقُ

وقول أبي الحسن الهمداني ^١ :

وَيَوْمَ تَوَلَّيْتُ الْأَطْعَانُ عَنَّا
مَدَدْتُ إِلَى الْوَدَاعِ يَدًا وَأُخْرَى
وَقَوْضَ حَاضِرٌ وَأَرَنَ بَادِي
حَبَسْتُ بِهَا الْحَيَاةَ عَلَى فُؤَادِي

وقول ابن الصائغ ^٢ :

قَدْ أودَعُوا الْقَلْبَ لَمَّا وَدَّعُوا حُرْقًا
رَأَوْدَتُهُ يَسْتَعِيرُ الصَّبْرَ بَعْدَهُمْ
فَظُلٌّ فِي اللَّيْلِ مِثْلَ النَّجْمِ حَبْرَانَا
فَقَالَ : إِنِّي اسْتَعَرْتُ الْيَوْمَ نِيرَانَا
وَقَوْلُ الصَّبْرِ بْنِ الْأَدَمِيِّ مَكْتَفِيًا ^٣ :

يَوْمَ تَوَدَّعِي لِأَحْبَابِي غَدًا
فَرَنْتُ نَحْوِي وَقَالَتِ : يَا تَرَى
ذَكَرْتُ مِيَّ شَاغِلِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
أَنْتَ حَيٌّ فِي هَوَانَا ؟ قُلْتَ : مَيَّ

وقول غيره :

وَلِي فُؤَادٌ مَذْنَى شَخْصُهُمْ
وَمُقَلَّةٌ مَهْمَا تَذَكَّرْتُهُمْ
ظِلٌّ كَثِيرٌ مُدْنَقًا مَوْجَعًا
تَذْرِفُ دَمْعًا أَرْبَعًا أَرْبَعًا

١ ك : الهمداني .

٢ ينصرف الاسم إلى غير واحد ، وأظن المعنى هنا هو محمد بن حسن الجذامي (حوالي ٧٢٢) وهو شاعر مؤلف توفي بدمشق . (انظر الدرر الكامنة ٣ : ٤١٩ والفوات ٢ : ٣٨٠ والوافي ٢ : ٣٦١)

٣ صدر الدين علي بن محمد بن محمد أبو الحسن الأدمي (- ٨١٦) شاعر مَرسل ، كان قاضيًا بدمشق (الضوء اللامع ٥ : ٣٢٨) .

٤ مي : ميت ، وهذا هو الاكتفاء ببعض الكلمة ؛ وفي ج : فندت .

وليس لي من حيلةٍ كلِّما لَحَّتْ بِي الْأَشْوَاقُ إِلَّا الدُّعَا
أَسْأَلُ مِنْ أَلْفَ مَا بَيَّنَّنَا وَقَدَّرَ الْفُرْقَةَ أَنْ يَجْمَعَا

وقول الرُّعَيْنِيِّ الغرناطي :

محاسنُ رُبْعٍ قد مَحَاهَنٌ ما جرى من الدَّمْعِ لَمَّا قِيلَ قَدْ رَحَلَ الرَّكْبُ
تَنَاقَضَ حَالِي مَذْ شَجَانِي فِرَاقُهُمْ فَمِنْ أَضْلَعِي نَارٌ وَمِنْ أَدْمَعِي سَكْبُ
وفي معناه قوله أيضاً ^١ :

- وقائلة : ما هذه الدُّرُورُ الَّتِي تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمَاطَيْنِ سَمَطَيْنِ
فَقُلْتُ لَهَا : هَذَا الَّذِي قَدْ حَسَا بِهِ أَبُو مُضَرٍّ أَذْنِي تُسَاقِطُ مِنْ عَيْنِي

وقول الزُّمَخْشَرِيِّ :

لَمْ يُبْكِنِي إِلَّا حَدِيثُ فِرَاقِهِمْ لَمَّا أَسْرَّ بِهِ إِلَيَّ مُودَّعِي
هُوَ ذَلِكَ الدُّرُّ الَّذِي أَوْدَعْتُمْ فِي مَسْمَعِي أَجْرِيئُهُ مِنْ مَدَمَعِي

وقول الزُّغَارِيِّ :

قَدْ بَعَثْتُهُمْ قَلْبِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ بِنَظَرَةِ التَّوْدِيْعِ وَهُوَ يَحْتَرِقُ
وَلَمْ أَجِدْ مِنْ بَعْدِهَا لِرَدِّهِ وَجْهًا وَكَانَ الرَّدُّ لَوْ لَمْ تَفْتَرِقْ

وقول بعض الأندلسيين :

سَارُوا فَوَدَّعَهُمْ طَرَفِي وَأَوْدَعَهُمْ قَلْبِي فَمَا بَعَّدُوا عَنِي وَلَا قَرَّبُوا
هُمْ الشَّمْسُ فِي عَيْنِي إِذَا طَلَعُوا فِي الْقَادِمِينَ وَفِي قَلْبِي إِذَا غَرَبُوا

١ هذا عكس ما أورده ابن خلكان (٤ : ٢٥٨) ، فهذان البيتان نسبهما للزُّمَخْشَرِيِّ ، ونسب البيتين بعدهما للقاضي الأرجاني . وقد سقط البيتان الأولان من ط ج ق .

وقلت أنا مضمناً بديهية :

لا كان يومُ فراقٍ
فكمْ أذلَّ نفوساً
ساق الشجونَ إلينا
يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا^١

وقلت أيضاً مضمناً :

سلا أَحِبَّتْهُ مَنْ لَمْ يَذُبْ كِذَا
يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ
وإنْ نَأَى الْجِسْمُ كَرَهَا عَنْ مَنَازِلِكُمْ
وما نسينا عهوداً للهوى كَرُمَتْ
وأظلمتْ بِالنَّوَى أَرْجَاءُ مَقْصِدِنَا
يومِ الوداعِ وإنْ أَجْرَى الدَّمْعُ دَمًا
منْ بَعْدِكُمْ هُدًى رُكْنُ الصَّبْرِ وَانْهَدَمَا
فَالْقَلْبُ ثَاوِيًا لَمْ يَصْحَبِ الْقَدَمَا
نَعَمْ قَرَعْنَا عَلَيْهَا سِنِنًا نَدَمًا
وصارَ وَجْدَانُ الْفِ غَيْرِكُمْ عَدَمًا^١

وقلت أيضاً مضمناً :

لم أنسَ بِالشَّامِ أَنْسَا شِمْتُ بَارِقَهُ
لهفي لَعِيشٍ قَضَيْنَا فِي مَشَاهِدِهَا
جادتْ مَعَاهِدُهُ أَنْوَاءُ نِيسَانٍ
ما بَيْنَ حُسْنٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِحْسَانٍ

وقلت كذلك :

يا جيرةً بَانُوا وَأَبْقُوا حَسْرَةً
كمْ قَلْتُ إِذْ وَدَّعْتُهُمْ وَالْأَنْسُ لَا
تَجْرِي دَمْعِي بَعْدَهُمْ وَفَقَّ الْقَضَا
يَا مَوْقِفَ التَّوْدِيعِ إِنَّ مَدَامَعِي
يُنْسَى وَعَهْدُ وَدَادِهِمْ لَنْ يَرْفُضَا
فُضِّتْ وَفَاضَتْ فِي ثَرَى ذَاكَ الْقَضَا

وكمْ تَفَاءَلْتُ بِقَوْلِ الْأَوَّلِ ، مع علمي بأن على الله المعول :

١ ضمن قول المتنبي :

يا من يمز علينا أن تفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم

٢ ج : وقد ؛ وتكررت «وكم» في ط .

إذا رأيتَ الوداعَ فاصْبِرْ ولا يَهْمَنَّكَ البعادُ
وانتظرِ العودَ عن قريبٍ فإنَّ قلبَ الوداعِ عادُوا

وضاقت بي الرَّحَابُ ، حين^١ مفارقة أعيان الصَّحَابِ^٢ ، وكاثرت دموعي
من بينهم السحاب ، وزنَّد التذكَر يقدح الأسف فيهبج الانتحاب ، وقد
تمثلنا إذ ذاك والجوانح من الجوى في التهاب ، وذخائر الصبر ذات انتهاب ،
يقول بعض من مَزَّق البعدُ منه الإهاب^٣ :

ولمَّا نزلنا منزلاً طَلَّهُ الندى أنيقاً وبُسْتَاناً من النورِ حالياً
أجدُّ لنا طيبُ المكانِ وحُسْنُهُ مَنَى فتمنَّينا فكانوا الأمانياً
وقد طُفْتُ في شرقِ البلادِ وغربِها وسَيَّرْتُ خيلي بينها وركابياً
فلم أرَ مِنْهَا مثلَ بغدادٍ منزلاً ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلَةٍ وادياً
ولا مثلَ أهلِها أرقَّ شَمائلاً وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانياً

وبقول من تأسَّف على مغاني النداني ، وهو أبو الحجاج الأندلسي الداني^٤ :

أبى الله إلا أن أفارق منزلاً يطالِعُنِي وَجْهُهُ المُنَى فيه سافِراً
كَأَنَّ عَلَى الأيامِ حينَ غَشِيَتْهُ يَمِيناً فَلَمْ أَحْلُلْهُ إلا مسافراً

١ ك : عند .

٢ ك : أعيان الأحباب والصحاب .

٣ البيتان الأولان من هذه المقطوعة في حماسة أبي تمام لأبي بكر بن عبد الرحمن الزهري (أو عبد الرحمن الزهري كما عند المرزوقي : ١٣٢٢) ويبدو أن المقري قد خلطهما بأبيات لشاعر آخر .
وقد سقط الأول منهما من ق ج ط .

٤ أبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن أيوب الفهري من أهل دانية ، سكن بلنسية وولي بها الأحكام
وتوفي سنة (٥٩٢) ؛ وترجمته والبيتان في المقتضب من تحفة القادم : ٧٨ .

٥ المقتضب : فما أغشاه .

وتخيلنا أن إقامتنا بدمشق وقاها الله كل صَرْف ، ما كانت إلا خَطْرة
طيف مُلَمٍّ أو لمحة طَرْف :

وَقَفْنَا سَاعَةً ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وما يُغْنِي المشوقَ وقوفُ ساعه ؟
كَأَنَّ الشَّمْلَ لم يَكُ في اجتماعٍ إذا ما شَتَّتَ البينُ اجتماعه

وطالما عللت النفس بالعود إليها ثم إلى بقاعي ، منشداً قول الأديب الشهير بـابن
الفقاعي^١ :

مَنْ عَايَنْتَ عَيْنَايَ أَعْلَامَ حَاجِرٍ	جَعَلْتُ مَوَاطِي الْعَيْسِ فَوْقَ مُحَاجِرِي
وإن لَاحَ من أرضِ العَوَاصِمِ بَارِقٌ	رَجَعْتُ بِأَحْشَاءِ صَوَادٍ صَوَادِرِ
سَقَى اللَّهُ هَاتِيكَ المَوَاطِينَ والرُّبَى	مَوَاطِيرَ أَجْفَانٍ هَوَامٍ هَوَامِرِ
وحيّاً الحيا من ساكني الحيّ أَوْجُهًا	سَقَرْنَ بِأَنْوَارٍ زَوَاهٍ زَوَاهِرِ
بِحَيْثُ زَمَانُ الوَصْلِ غَضٌّ وَرَوْضُهُ	أَرِيضُ بِأَزْهَارٍ بَوَاهٍ بَوَاهِرِ
وحيثُ جَفُونُ الحَاسِدِينَ غَضِيضَةٌ	رَمَقْنِ بِأَمَاقٍ سَوَاهٍ سَوَاهِرِ

ثمَّ حاولت خاطري الكليل ، فيما يشفي بعض الغليل ، فقال على طريق
التضمين ، وقد غلب عليه الشوق والتخمين :

بِأَبِي مَنْ أَوْدَعُوا مَذَّ وَدَّعُوا	قَلْبِي الشَّوْقَ وَلِلْعَيْسِ ذَمِيلُ
جِيرَةٌ غُرٌّ كِرَامٌ خَيْرَةٌ	كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُمْ يُبْدُو جَمِيلُ
وَعَلَى الْجُمْلَةِ مَا لِي غَيْرُهُمْ	لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَمْلُوا أَوْ يَمِيلُوا

ثمَّ قلت وقد سدد التناهي إليَّ نَبْلَهُ ، موطناً للبيت الثالث كما في الأبيات قبله :

١ هو محمد بن غازي الموصل (- ٦٢٩) شاعر دمشقي ينسب إلى الفقاع وهو نوع من الشراب
(انظر الدارس ٢ : ٨٥ والوافي ٤ : ٣٠٦) .

يا دَمَشْقاً حَيَّاكَ غَيْثُ غَزِيرُ ووقاكِ الإلهُ ممّا يَضِيرُ
حُسْنُكَ الْفَرْدُ وَالْبِدَائِعُ جَمْعُ متناهٍ فِيهِ فَعَزَّ النُّظِيرُ
أَيْنَ أَيَّامُنَا بَظْلُكَ وَالشَّمْسُ لُ جَمِيعُ ، وَالْعَيْشُ غَضُّ نَضِيرُ

ثم أكَثَرَتِ الْإِلْتِفَاتُ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ ، وَقَدْ شَبِهَتْ الْبَيْدَاءُ وَالشُّوقُ
بِبَدْلِ الْكُلِّ وَالْإِشْتِمَالِ ، وَتَنَسَّمتُ مِنْ نَوَاحِي تِلْكَ الْأَرْجَاءِ أَرْبِيعَ الشَّمَالِ ،
وَضَمَمْتُ فِي الْمَعْنَى قَوْلَ بَعْضٍ مِنْ ثَنَى الْحُبِّ عِطْفَهُ وَأَمَالَ :

تَنَسَّمتُ أَرْوَاحاً سَرَّتْ مِنْ دِيَارِ مَنْ بِهِمْ كَانَ جَمْعُ الشَّمَلِ لِمَحَةِ حَالِمٍ
وَجَاوَبْتُ مَنْ يُلْحِي عَلَى ذَاكَ جَاهِلًا يَقُولُ لِيَبِّ بِالْعَوَاقِبِ عَالِمٍ
وَمَا أَنَشَقُّ الْأَرْوَاحَ إِلَّا لِأَنَّهَا تَمُرُّ عَلَى تِلْكَ الرُّبَى وَالْمَعَالِمِ
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْآخِرِ :

سَرَّتْ مِنْ نَوَاحِي الشَّامِ لِي نَسْمَةُ الصَّبَا وَقَدْ أَصْبَحْتُ حَسْرَى مِنَ السَّيْرِ ظَالِمَةً^١
وَمِنْ عَرَقٍ مَبْلُوءَةٍ الْجَيْبِ بِالنَّدَى وَمِنْ تَعَبٍ أَنْفَاسُهَا مُتَابِعَةً
وَقُلْتُ أَنَا :

حَمِدْتُ وَحَقَّ اللَّهُ لِلشَّامِ رَحْلَةً أَنَا حَتَّ لِعَيْنِي اجْتِلَاءَ مُحَيَّاهُ^٢
وَبَعْدَ التَّنَائِي صَرْتُ أَرْتَاخَ لِلصَّبَا لِأَنَّ الصَّبَا تَسْرِي بِعَاطِرِ رِيَّاهُ
فَلِلَّهِ عَهْدٌ قَدْ أَتَاكَ بِجِلْقٍ سُرُوراً فَحَيَّاهَا^٢ الْإِلَهَ وَحَيَّاهُ

وَاسْتَحْضَرْتُ عِنْدَ جَدِّ السَّيْرِ ، قَوْلَ صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ الْمُرْسِيِّ ذَكَرَهُ اللَّهُ

تَعَالَى بِالْخَيْرِ :

١ ق ط : هالمة

٢ ك : فعياه

أَيْنَ أَيْامُنَا اللّوَانِي تَقَضَّتْ إِذْ زَجَرْنَا لِلْوَصْلِ أَيْمَنَ طَيْرٍ
ثُمَّ قَوْلَ غَيْرِهِ مِمَّنْ حَنَّ وَأَنَّ ، وَقَلْبِي قَلْبُهُ وَمَا أَطْمَأَنَّ :

أَحْنُ إِلَى مَشَاهِدِ أَنْسٍ لَأَفِي وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهِ قَرِيبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قَرَبَ الْعَهْدِ يُطْفِئُ لَهَيْبَ الشَّوْقِ فَازْدَادَ اللَّهَيْبُ

وَرَبَّمَا تَجَلَّدْتَ مَغَالِطًا ، مُتَعَلِّلًا يَقُولُ مَنْ كَانَ لِإِلَافِهِ مَخَالِطًا :
حَضَرْتَ فَكُنْتُ فِي بَصَرِي مُقْبِمًا وَغَبَيْتَ فَكُنْتُ فِي وَسْطِ الْفَوَادِ
وَمَا شَطَطَتْ بِنَا دَارٌ وَلَكِنْ نَقَلْتُ مِنَ السَّوَادِ إِلَى السَّوَادِ

وَقَوْلَ غَيْرِهِ :

وَكُنْ كَمَا شَفْتِ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعْدٍ فَالْقَلْبُ يَرَاكَ إِنْ لَمْ يَرَعْكَ الْبَصَرُ

وَيَقُولُ الْوَدَاعِي :

يَا عَاذِلِي فِي وَحْدَتِي بَعْدَهُمْ وَأَنْ رَبَّنِي مَا بِهِ مِنْ جَلِيسٍ
وَكَيْفَ يَشْكُو وَحْدَةً مَنْ لَهُ دَمْعٌ حَمِيمٌ وَأَيْنُ أَنْيسٍ

ثُمَّ رَدَدْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ ، يَقُولُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يُبْلِعْهُ السُّلُوكُ رِيقَهُ :

لَا رَعَى اللَّهُ عَزَمَةً ضَمَنْتُ لِي سَكُونَةَ الْقَلْبِ وَالتَّصَبُّرَ عَنْهُمْ
مَا وَقْتُ غَيْرِ سَاعَةٍ ثُمَّ عَادَتْ مِثْلَ قَلْبِي تَقُولُ لَا بُدَّ مِنْهُمْ

وَيَقُولُ ابْنُ آجَرُومٌ^١ ، فِي مِثْلِ هَذَا الْغَرَضِ الْمَرْوَمِ :

يَا غَائِبًا كَانَ أَنْسِي رَهْنًا طَلَعَتْهُ كَيْفَ اصْطَبَارِي وَقَدْ كَابَدْتُ بَيْنَهُمَا

١ المشهور بهذا الاسم هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (٧٢٣ -) وهو نحوي وله في النحو مؤلف سمي «الاجرومية» . (بنية الوعاة : ١٠٢) .

دعواي أنك في قلبي يُعارضها شوقي إليك ، فكيف الجمعُ بينهما
ثم جدّ بي السير إلى مصر واستمرّ ، فتذكرت قول الصفدي وقد اشتدّ
بالرمل الحرّ :

أقولُ وَحَرُّ الرملِ قد زادَ وَقْدُهُ وما لي إلى شَمِّ النسيمِ سَبِيلُ
أظُنُّ نسيمَ الجوّ قد ماتَ وانقَضَى فعَهْدِي به في الشام وهو عَلِيلُ

وقول ابن الخياط^١ :

قَصَدْتُ مصرًا من رَبِّي جِلَقٍ بهمةٍ تَجْرِي بِتَجْرِي
فلم أَرِ الطَّرَّةَ حَتَّى جَرَّتْ دموعُ عيني بِالْمُرَيْزِبِ^٢

وحين وصلت مصر لم أنس عهدَ الشام المرعي ، وأنشدت قولَ الشهاب
الحنبلي الزرعي^٣ :

أَحْبَبْنَا وَاللهَ مَذْغِبُ عَنْكُمُ سُهَادِي سَمِيرِي والمَدَامُ مِدْرَارُ
ووالله ما اخْتَرْتُ الفراقَ ، وإنه برَغَمِي ، ولي في ذلك الأمرُ أَعْدَارُ
إذا شامَ بَرَقَ الشَّامُ طَرَفِي تَابَعْتُ سَحَابُ جَفَتِي والفؤادُ به نارُ
ألا ليت شعري هل يَعُودُنَّ شَمْلُنَا جميعاً ونَحْوِنَا رُبُوعُ وَأَقْطَارُ ؟

١ سيورد المؤلف هذين البيتين في الباب الخامس عند الحديث عن دمشق وما قيل فيها من شعر ، وقد
بين هناك أنهما لمحمد بن يوسف بن عبد الله الخياط معاصر الصفدي (توفي سنة ٧٥٦) ، وهو
الملقب بالصفدع ، ووصفه الصفدي بأنه كان طويل النفس في الشعر ، وكان أميل إلى الهجاء .
(انظر الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٠ والبدر الطالع ٢ : ٢٨٦) .

٢ ط ق : بالمزريب .

٣ لعل المعنى هنا شهاب الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٩ (ذيل ابن رجب
٢ : ٤٧١) .

وقول ابن عَنِين ١ :

دمشقُ بنا شوقٌ إليك مُبرِّحُ
بلادُ بها الحَصْبَاءُ دُرٌّ ، وتُرْبُهَا
تَسْلَسِلُ منها ماؤُها وهو مطلقُ
وإن لِحَ واشٍ أو ألحَّ عَذُولُ
عَبِيرٌ ، وأنفاسُ الرياحِ شمولُ
وصحَّ نسيمُ الروضِ وهو عليلُ

وقول آخر :

نَفْسِي الفِداءُ لَأُنْسٍ كُنتُ أعْهَدُهُ
وجيرةٌ كان لي إلفٌ بوَصْلِهِمْ
بِالشَّامِ خَلَقْتُهُمْ ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى
كَانُوا نَعِيمَ فَوَادِي والحياةَ لَهُ
وطيبِ عيشٍ تَقْضَى كُلُّهُ كَرَمُ
والأنسُ أَفْضَلُ ما بِالْوَصْلِ يُغْنِمُ
سِوَاهُمْ فَأَعْتَرَانِي بَعْدَهُمْ أَلَمُ
وَالآنَ كُلُّ وجودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ

فإن أنشد لسان الحال ، فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال :

يا غائِباً قَدْ كُنتُ أَحْسَبُ قَلْبَهُ
إِنْ كَانَ صَدَّكَ نَيْلُ مَصْرِ عَنْهُمْ
يَسِوَى دِمَشْقَ وَأَهْلِهَا لَا يَعْلَقُ
لَا غَرَوُ فَهُوَ لَنَا الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ

أتيتُ في جَوَابِهِ ، بقول بعض من بَرَّحَ الجوى به :

لله دهرٌ جَمَعَنَا شَمْلَ لَذَّتِهِ
مَرَّتْ لِيَالِيهِ وَالْأَيَّامُ فِي خُلُسِ
مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لَوْلَا تَنَقُّلُهَا
رَقَّ الْعَذُولُ لِحَالِي بَعْدَهَا وَرَثَى
بِالشَّامِ أَعَذَّبَ مِنْ أَمْنٍ عَلَى فَرَقِ
كَأَنَّمَا سَلَبْتَهُ كَفَّ مَسْتَرِقِ
مِنْ النَّعِيمِ إِلَى ذَاكَ مِنَ الْحُرْقِ
لِي فِي الْجَوَى وَالنَّوَى وَالشَّجْوِ وَالْأَرْقِ

١ ابن عَنِين : أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الأنصاري الملقب شرف الدين (- ٦٣٠) كوفي الأصل ، دمشقي المولد ، شاعر مجيد هجاء نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في الناس فتتقل في البلاد وبلغ الهند ؛ نشر ديوانه بتحقيق الأستاذ خليل مردم (دمشق : ١٩٤٦) .

وبالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة ، والسعود إلى طوالها منسوبة :

وكانت في دِمَشْقَ لَنَا لَيَالٍ سَرَقْنَاهُنَّ مِنْ رَبِّبِ الزَّمانِ
جعلنَاهُنَّ تَارِيخَ اللَّيالي وَعُنْوانَ الْمَسْرَةِ وَالْأَماني

وهي مغاني التهاني التي ما نسيناها ، وأماني زماني التي نعمتُ بطور سيناها ،
عليها وعلى وطني مقصورة ، والقلبُ في المعنى مقيمٌ بهما وإن كان في غيرهما
بالصورة ، والأشواقُ إليهما قضايها مُوجَّهة وإن كانت غيرَ محصورة :

ولله عهدٌ قد تقضى فإن يعدُّ فلأني عن الأيام أعفُو وأصفحُ
بقلي من ذكره ما ليس ينقضي ومن بُرْحاءِ الشوق ما ليس يبرحُ
إذا مسحَتْ كَفِّي الدُموعَ تسترأُ بدتْ زفرةٌ بين الجوانحِ تقدحُ
فإن جمعتْ شَمْلِي اللَّيالي بقرهم تجمع غيلانٌ وميٌّ وصيدحُ
على أنها الأيامُ جِدُّ مَزَاحِها ورُبُّ مجدٍ في الأذى وهو يمزحُ

وكثيراً ما يلهجُ اللسانُ بقول من قال :

وما تَفْضِلُ الأوقاتُ أخرى لذاتها ولكنَّ أوقاتَ الحِسانِ حِسانُ
ويردد قول من شوقه متجدد :

سقى مَعَهْدَ الأحبابِ نافعٌ صَيِّبُ من المزنِ عن مَغْنَاهُ ليس يَرِيمُ
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه يحلُّ به خِلٌ عليَّ كريمُ

وينشد من يلوم ، قولَ مَنْ في حِشاهُ وَلَهُ وفي قلبه كلُّوم :

قد أصبحَ آخرُ الهوى أوْلَهُ فالعاذلُ في هواك ما لي ولَهُ
بالله عليك خلُّ ما أوْلَهُ وارحم دَنِفاً لدى حِشاهُ وَلَهُ

• • •

[شروع في التصنيف بمصر]

وقد امتدّ بنا الكلام ، وربما يجعله اللاحق ذريعة لزيادة الملام ، فلنرجع إلى ما كنا بصددّه ، من إجابة المولى الشاهيني ، أمدّه الله سبحانه بمدده ، فأقول ، مستمداً من واهب العقول :

لأنّني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب ، وكتبْتُ منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت في سؤقه كلّ نفيس غريب من الغرب إلى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار أنّه غير مُجتوى ، ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى ، فأخّرتّه تأخير الغريم ، لدين الكريم ، وصدّقتي أعراض ، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض ، وأضربتُ برهة عمّاً له من منّحي ، لاختلاف أحوال الدهر نفعاً ودفعاً ومنعاً ومنعاً ، ومرقتُ عن هدف الإصابة نبال ، وطرقت في سدّف ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال .

• • •

[رسالة من ابن شاهين تحثه على المضي في التأليف]

فجاءتني من المولى المذكور آنفاً ، رسالة دلت على أنّه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً ، فعُدّت لقضاء الوطر مستقبلاً . وللجملة مستأنفاً ، وحداني خطابه الجسيم للإتمام وساقني ، وراقني كتابه الكريم لهاتيك الأيام وشاقني ، وذكرني تلك الليالي التي لم أنسها ، وحركني لهاتيك المعاهد التي لم أزل أذكر أنسها :

الإلف لا يصبر عن إلفه إلا كما يطرف بالعين
وقد صبرنا عنهم مدةً ما هكذا شأن المحبّين

فيا له من كتاب^١ أعرب عن ودّ صميم ، وذكر بعهد غير ذميم ،
وود طيب العرف والشميم ، ينجل ابن المعتر لبلاغته وابن المعز نعيم :

ولم ترَ عَيْنَايَ منْ قبله كتاباً حَوَى بعضَ ما قد حَوَى
كَأَنَّ المَبَاسِمَ مِمَاتِهِ ولاماته الصُّدُغُ لَمَّا التَوَى
وَأَعْيُنُهُ بَعْيُونِ^٢ الحِسانِ تُغَاوِرُنَا عندَ ذِكرِ الهَوَى
كتابٌ ذَكَرْنَا بِالْفَاظِهِ عهوداً زَكَتْ بِالْحَمَى واللَّوَى

فكأنه الروض المطرد الأنهار ، والدوّح المدبج الأزهار :

رَأَيْنَا بِهِ رَوْضاً تَدْبِجُ وَشْيَهُ إِذَا جَادَ مِنْ تِلْكَ الْأَيَادِي غَمَائِمُ^٣
بِهِ أَلِفَاتٌ كَالْفَصُوفِ وَقَدْ عَلَا عَلَيْهَا مِنَ الْهَمَزِ الْمَطْلِ حَمَائِمُ

وقد سقيت بأنهار البراعة السلسلة ، حداثق حلت بها غانية تلك الرسالة ،
لتشفي صبها بالزيارة ، وتشرف بدنوها دياره :

زَارَتِ الصَّبَّ فِي لَيَالٍ مِنَ الْبُعْدِ لَمَّا دَنَتْ رَأَى الصَّبْحَ يَلْمَحُ^٤
قَلَدَتْ بِالْعِقْيَانِ جِدَّ بَيَانٍ لَيْسَ فِيهِ لِلْفَتْحِ مِنْ بَعْدِ مُطْمَحٍ^٣

فشفت النفس من آلامها ، وأحييت ميت الهوى مذحيث^٤ ، بعذب كلامها :

كَلَامٌ كَالْجَوَاهِرِ حِينَ يَبْدُو وَكَالنَّدِّ الْمَعْنَبِ إِذْ يَقُوعُ^٤
لَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَلْفَاظِ جِسْمٌ وَلَكِنْ الْمَعَانِي فِيهِ رُوحٌ

١ ك : كتاب كريم .

٢ ك : كميون .

٣ يشير إلى الفتح بن خاقان وكتابه : قلائد العقيان ومطمح الأنفس .

٤ مذحيث : سقطت من ط .

فصيرت لي ذلك الكتاب سميراً ، ووردت من السرور مَشْرَعاً نيراً ،
وتمثلت بقول بعض من أخلص في الود ضميراً :

يا مفرداً أهدي إليّ كتابهُ جُملاً يحارُّ الذهنُ في أثنائها
كالدرّ أشرق في سُموط عقوده والزهر والأنوار غبَّ سمائها
فأفادني جدلاً وبالي كاسدٌ وأجار نفسي من جوى بُرحائها
وحسبت أيام الشباب رجعنَ لي فلبستُ حلّيَ جمالها وبهائها
لا يعدمُ الإخوانُ منك محاسناً كلُّ المفاخر قطرةٌ من مائها

فأكرم به من كتاب جاء من السَّريِّ العليِّ ، والماجد الأخ الوليِّ^١ :

فضضتُ ختامهُ فتبيَّنتُ لي معانيه عن الخير الجليِّ^٢
وكان ألدَّ في عيني وأنذى على كيدي من الزهر الجنيِّ
وضمنَ صدره ما لم تُضمنْ صدورُ الغانياتِ من الحليِّ

وأعرب عن اعتمادٍ متماد ، وودادٍ مزداد ، وأطاب حين أطال ، وأدَّى
دينَ الفصاحة دون مطال ، واشتمل من فُصول العبارة على أحسن من الحدق
المراض^٣ ، وأتى من أصول البراعة ببراhein ابن شاهين التي لا خُلْفُ فيها ولا
افتراض^٤ ، وروينا من غيث أنامله الهتُون ، وروينا عنه مسند أحمد حسنَ
الأسانيد والمتون ، وحثنا على العود والرجوع ، وكان أجدى من الماء الزلال
لذي ظمأ والمشتهى من الطعام لذي سَغَب وجوع :

١ الأبيات لأبي تمام من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب (ديوانه : ٣٠٧ ط . بيروت ١٨٨٧) .

٢ الديوان : فتبلجت لي .

٣ ج : واشتمل من أحسن العبارة على أفضل . . . المراض .

٤ ج : لا اختلاف .

٥ ك : اعتراض .

وأشهى في القلوب من الأمانى ، وأحلى في العيون من الهُجوعِ

وجلا بنوره ظلام استيحاشي ، وحشر إليَّ أشتات المسرات دون أن
يحاشي ، ووجدني في مكابدة شغوب ، وأشغال أشرت القلب الكسل والغوب ،
وحيرت الخواطر ، وصيرت سُحْبَ الأقلام غير مَوَاطِر ، فزحزح عني الغموم
وسلاتي ، وأولاني - شكر الله صنيعه - من المسرات ما أولاني :

حديثه أو حديثٌ عنه يُطْرِبني هذا إذا غاب أو هذا إذا حَضَرَ
كلاهما حَسَنٌ عندي أَسْرُّ به لكنَّ أحلاهما ما وافق التَّظَرُّ

وقال آخر ١ :

لستُ مُسْتَأْنَساً بشيء إذا غب تَ سوى ذكرك الذي لا يَغِيبُ
أنتَ دون الجلاء من عندي وإن كذ تَ بعيداً فالأنسُ منك قريبُ

وَضَمَنْتُ فيه لما ورد مع جملة كعب من تلك الناحية ، وأنوار أهلها ذوي

الفضائل الشهيرة أظهرُ من شمس الظهيرة في السماء الصاحية ٢ :

قلتُ لما أتت من الشام كُتُبُ من أجلاء نورهم يتألقُ
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بعيونٍ رأت محاسنَ جِلَقُ

وقلت أيضاً :

قلتُ لما وافت من الشام كُتُبُ والليالي تَتَّيحُ قرباً وبُعداً
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بعيونٍ رأت محاسنَ سَعْدَى

• • •

١ سقط البيتان من ق ط ج .

٢ سقط البيتان من ج .

وكان من فصول الكتاب الوارد ، من المولى^١ الشاهيني الذي اقتنص بفضله كلَّ شارد ، ما نصّه : « ومما استخلص قلبي من يَدَيَّ تَرَحِّي ، وجدِّ سُروري ونَبَّه فرحي ، حديثُ الكتاب وما حديثُ الكتاب ، حديثُ نسخ بحلاوته مَرَّارة العتاب ، وأنساني حرارة المصائب ، في الأنسال والأعقاب ، وقضى به من حق لسان الدين ، دينه الذي تبرع به غريم مَلِيٍّ من البلاغة وهو غير مدين ، حتى كَأَنِّي يا سيدي بهذه البشري ، أحرزت سوارِي كسرى ، وكان في مسمعي كل حرف إليها منسوب ، قميص يوسف في أجفان يعقوب ، وحتى كدت أهجر أهلي وبيتي ، وأُسْرِجُ لاستقبال هذه البشري أشهبي وكُمَيْتِي ، وحتى إنَّني حاربت نومي وقومي ، وعزمت على أن أرحل ناقي في وقفي ويومي ، وإن ذلك التغليس والتهجير ، في جنب ما بُشِّرْتُ به لحقير ، وإن موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير . وقد كنت سألت شَيْخِي حين ورد دمشق الشام ، واشتَمَّ منها العَرَّار والبشام ، وشَرَفَنِي فعرَفَنِي ، وشاهدني فعاهدني ، على أن يجري ما دار بيننا لدى المجاورة ، من المسامرة والمحاورة ، في دِياجَة ذلك الكتاب ، الذي فتن العقول خبره وسحر الألباب ، وما قَصَدْتُ إلا أن يجري اسمي على قلمه ، ويرقم رسمي في مطاوي تحريره ورقمه ، ويكون ذكري مخطئاً بذكره ، كما أن سِرِّي مرتبطٌ في المحبة بسره ، فرأيت شَيْخِي لم يتصدَّ في أثناء هذه البشري ، لما يُفْهَمُنِي بالذكري ، لانتظر النجاح في الأخرى ، ولم يساعدني على ذلك الملتَمَس ، وحبَسَ عِنانَ القلم فاحتبس ، فانكسرت سَوْرَة سُروري بفتوري ، وتبين لنفسي عن بلوغ ذلك الأمل تخلُّفي وقصوري » انتهى .

ثم قال بعد كلام^٢ لم نذكره لعدم تعلُّقه بهذا الغرض ، ما صورته :

١ المولى : سقطت من ق .

٢ ك : كلام طويل .

« وحسبت أن سيدي وحاشاه ، نسيَ مَنْ ليس ينسَاهُ ، وظننت به الظنون ،
 لأمر تكون أو لا تكون ، وهل يكره شيخي ^١ أن يهدي الدنيا في طبق ؟
 ثم الأخرى على ذلك النسق ، ولا شك أن خطّه هو الروضة الغنّاء ، لا بِلْ
 جنة المأوى ، فطوبى لنفسي إن جنيت ثمرته طوبى ، ولعمْرُ شيخي إنّي بذلك
 بلخير ، وإنّي كنت أملك به الخورنق والسدير » انتهى ما يتعلق بالمطلوب ^٢ من
 ذلك الرقيم ، الذي شكل منطقته غير عقيم ، سلك الله تعالى بي وبمن وجهه
 الصراط المستقيم .

وأتى في المكتوب بأنواع من البلاغة ، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلّقه
 بهذا الأمر الخاص الذي ييسر لكارع ^٣ الأدب مسأغته ، وختمه بقصيدة نفيسة من
 نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد ، وأشهد أنه قد حاز فيها قصبَ السبق والمجد ،
 وما قلت إلا بالذي علمتُ سعدُ ، وهذه صورتها :

يا سيّداً أفديهِ بالأكثرِ	من أصغِرِ العالم والأكبرِ
ويا وحيداً قلّ قولي له	عطارد أنت مع المشتري
ويا مجيداً ليس عندي له	إلاّ مقالُ المادحِ المُكثِرِ
أقسمتُ بالبيت العتيق الذي	حبّتُ إليه الناسُ والمُشعِرِ
ما للعلا والعلم إلا أبو الـ	عبّاس شيخي أحمدُ المقرّي
ذاك الذي آثرني منه بالـ	علم الذي للغير لم يؤثرِ
وخصّني منه بأشياء لم	يفز بها غيري ولم يعثرِ
فرحتُ عبداً ذا وفاء له	معرفاً بالرق لا أمتري

١ ك : سيدي وشيخي .

٢ ك : بالغرض .

٣ ق : لكاره ؛ ج ط : لكاره .

٤ عجز بيت الحطّية ، وصدّره : وتعلّني أبناء سعد عليهم .

فيا أبا العباس يا مَنْ غدا
 ومَنْ إذا ما غاب عن ناظري
 هات أفدني سيدي عن علا
 ذاك الوحيد الفد في عصره
 ذاك الذي أخبرني سيدي
 ذاك الذي العيوق لا يعتلي
 ما قد وعدت العبد في جمعه
 بخطك الوضاح وهو الذي
 والشيء لا يرجى إذا ما غدا
 نقش على طرس بياض كما
 وأسطر قد سلسلت مثلما
 ونزهة الأنفس معني غدا
 عذب رقيق مثل ظبي غدا
 آثار أعلامك وهي التي
 يرأعك الجامع راو غدا
 ينثر مسكاً تارة ناظماً
 هذا ابن شاهين الفتى أحمد
 فاجعل له ذكراً كريماً به
 واذكر بيوتاني وكل الذي
 أنت جدير بمديحي فكن
 وهاكها سيارة أعنت

أعظم في نفسي من معشري
 كان سمير القلب للمحضر
 مولى لسان الدين ذاك السري
 بل أوحده الأدهر والأعصر
 عنه مزايأ بعد لم تحصر
 إلى معاليه ولا يجتري
 من خبر عن فضله مسفير
 مخبره يرني على المنظر
 منظره يرني على المخبر
 لاحت عيون الرش الأخور
 لاح عذار الشادن القمر
 ما بينها ينساب كالكوثر
 يلوح طاوي الكشح أو جودر
 أغنت عن الأبيض والأسمر
 يروي اللغي عن لفظك الجوهري
 وينظم الجوهراً بالعنبر
 عن ذكرك المأنوس لم يفتر
 يزدان مغبوطاً إلى المحشر
 كتبته نحوك في دفري
 ذاكر عبد بالوفا أجدر
 على جواد كان للبحري

١ ك : الأخفر .

٢ ك : بيوتاني .

طِرْفِ كَرِيمٍ سَابِقِ صَافِنِ مُطَهَّمِ ذِي أَدَبٍ أَوْفَرِ
 وَرِثَتِهِ مِنْهُ وَلَكِنَّمَا مِنْ شَاعِرٍ وَافِيٍّ إِلَى أَشْعَرِ
 مَا لِلْفَتَى الطَّائِي شَوَّطُ امْرِئٍ يَصْطَادُ نَسْرَ الْجَوِّ بِالْمِنْسَرِ
 وَاسْلَمَ لِعَبْدٍ لَا يَرَى سَيِّدًا سَوَى الَّذِي فِي ثَوْبِكَ الْأَطْهَرِ
 فِي كَرَمِ الْعَنْصَرِ فَرْدًا غَدَا طَبَعُكَ فَاشْكُرْ كَرَمَ الْعُنْصَرِ
 مَا حَنَّ مَشْتَاقٌ أَخُو صَبْوَةٍ إِلَى خَلِيلٍ فِي الْهَوَى مُفَكِّرِ
 انتهت .

[تهم المؤلف لاستئناف التصنيف]

فلما وصلني هذا الخطاب ، الذي ملأ من الفصاحة الوطاب ، وحلا في عيني
 وقلبي وطاب^١ ، تحركت دواعي الوجد ، لذلك المجد ، الذي ولعت به ولوع
 ابن المدينة بصبا نجد ، وأثار من الهيام والأوار ، ما يزيد على ما حصل للفرزدق
 لما فارق النوار ، وتضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد والأغوار ، مُنْشِداً قول
 الأول : « لعل أبي المغوار »^٢ ، وتذكرت والذكرى شجون وأطوار ، تلك
 الأضواء والأنوار ، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن ، وجرى نهره غير آسن ،
 فلم يذم فيه الجوار :

وإنَّ اصْطِبَارِي عَنْ مَعَاهِدِ جَلَّتِي غَرِيبٌ فَمَا أَجْفَى الْفِرَاقِ وَأَجْفَانِي
 سَقَى اللَّهَ أَرْضاً لَوْ ظَفَرْتُ بِتَرْبِهَا كَحَلَّتْ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ أَجْفَانِي
 وحصل التضميم ، على التكميل للتأليف والتتميم ، رَعِيَا لهذا الوليِّ الحميم ،

١ وحلا . . . وطاب : سقطت من ق ط ج .

٢ من قول كعب بن سعد الغنوي :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبي المغوار منك قريب

أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم ، وأبقى ظل غزه ممدودا ، وخلّى^١ سؤدده مودودا ، وأناله من الخيرات ما ليس محصوراً ولا معدودا ، وجمعني وإيّاه ، وأطلع لي بشر مُحَيّاه ، وأنشقي عَرَف اجتماعه ورِيّاه ، وكيف لا أستديم أمدَ بُقَيّاه ، وأعتقد البشائر في لقياه ، وأسقي غروس الود بسُقَيّاه ، وهو الصدر الذي أصفى لي الوداد ، والركن الذي لي بشوته اعتداد^٢ :

فَعَلَيْهِ مِنْ مُصْنَفِي هَوَاهُ نَحِيَّةٌ كَالْمِسْكِ لَمَّا فُضَّ عَنْهُ خَتَامُ
تَتَرَى بِسَاحَتِهِ السَّنِيَّةَ مَا دَعَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ هَدِيلَهُنَّ حِمَامُ

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس ، محروسة بالسبع المثاني معوّدة بالخمس :

وَلَا انْفَكَّ مَا يَرْجُوهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدٍ وَلَا زَالَ مَا يَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسٍ

وبقي من العناية في حرم أمين ، آمين .

ولما حصل لي كمال الاعتبار ، بما دل على صحة حال الارتباط ، نشرت^٣ بساط الانبساط ، وحدثت لي قوّة النشاط ، وانقضت عني سحائب الكسل وانجاب ، وناديتُ فكري قلبتُ مع ضعفها وأجاب ، فاقتدحتُ من القريحة رَنَدًا كان شَحاحا ، وجمعت من مُقَيّداتي حساناً وصحاحا ، وكنت كتبت شَطْره ، وملأت بما تيسر هامشه وسَطْره ، ورقمتُ من أنباء لسان الدين ابن الخطيب حللاً لا تُخْلِقُ جَدَّتْهَا الْأَعْصُرُ ، وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه تكلُّ فيها واسعات الخطا وتقصر . فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومن كان يعضد بها الإسلام وينصر ، وبعض مفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها المتناسقة ، لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر ، وجث

١ ك : وحل .

٢ ك : اعتماد واعتداد .

٣ ك : نشر .

من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله ، وتُظهر علمه ونبله ، وتُترعُ محاسنه من راح المذاكرة وإناءه ، حتى يرى إثثار هذا المصنّف وإدناءه^١ ، وكنت في المغرب وظلالُ الشباب ضافية ، وسماء الأفكار من قَزَعِ الأكدار صافية ، معتنياً بالفحص عن أنباء^٢ الأندلس ، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس ، وما لهم من السبق في ميدان العلوم ، والتقدّم في جهاد العدو الظلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جلالهم وجلادهم ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخير ، وانتقيت جواهر ، فرائدُها للعقول بَوَاهِر ، واقتطفت أزاهر ، أنجمُها في أفق المحاضرة زواهر ، وحصّلت فوائد بواطن وظواهر ، طالما كانت أعين الألباء لنيلها سواهر ، وجمعت من ذلك كَلِمًا عالية ، لو خاطب بها الداعي صُمّ الجلامد لانبجس حجرها ، وحكّمًا غالية ، لو عامل بها الأيام ربيع متجرها ، وأسجاعاً تهتز لها الأعطاف ، ومواعظ يعمل بمقتضاها من حَفّت به الألفاف ، وقوافي موفورة القوادم والخوافي ، يُثني عليها مَنْ سلم من الغباوة والصمم ، ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللّم ، وطالما أعرض الجاهل الغمّر بوجهه عن مثلها وأشاح ، وأنصت لها الحسْبُ لأنصات السّوار لحرس الحلي ونغم الوشاح ، وفرح إن ظفر بشيء منها فرح الصائد بالقنيص ، والساري العاري ذي البطن الخميص ، بالزاد والقميص ، وتركتُ الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويُعرب ، إلا نَزَرًا يسيراً علق بحفظي ، وحلّيت بجواهره جيدُ لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حضرني الآن ما خلّفته ، ممّا جمعت في ذلك الغرض وألّفته ، لقَرّت به عيون وسُرّت ألباب ، إذ هو والله الغاية في هذا الباب ، ولكن المرء ابنُ وقته وساعته ، وكلُّ ينفق على قدر وسعهِ

١ ك : وترع كأس محاسنه . . . حتى يرى حسن هذا التأليف أبناء هذا التصنيف وأدباؤه .

٢ ك : أنباء أبناء .

واستطاعته ، وعذر مثلي باد ، للمنصفين من العباد ، إن قصّرت فيما تبصّرت ، أو تخلفت في الذي تكلفت ، أو أضعت تحرير ما وضعت ، والتقيمتُ نديّ التقصير ورَضَعْتُ ، أو أطعتُ داعي التواني فتأخّرتُ عن سبق وانقطعتُ ، ﴿إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت﴾^١ ، ومنّ كانت بضاعته مُزجاةً ، فهو عن الإنصاف بمنجاة ، إذ أتى بالمقدور ، وتبرأ من الدعوى في الورود والصدور ، وعينُ الرضا عن كل عيب ككيلة ، والسلامة من الملامة متعذرة أو قليلة ، وقد قال إمامنا مالكٌ صاحبُ المناقب الجليّة : « كل كلام يؤخذ منه ويردّ إلاّ كلام صاحب هذا القبر » صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشفى بجاهه من الآلام قلوبنا العليّة ، وجعلنا ممن كان اتّباعُ سنته رائدَه ودليله ، آمين .

والحمد لله الذي يَسّر لي هذا القدر ، مع ضيق الصدر ، وقلة بضاعتي ، وكثرة إضاعتي ، فإن حمّده جل جلاله تتضوّع به المطالب طيباً ، وتقضى ببركته^٢ المآرب فيرقى صاحبها على منبر القبول خطيباً ، وتعذّب به المشارب فتُنبِتُ في أرض القرطاس ، من زاكي الغراس ، ما يروق منظرأً نضيراً ويورق غُصْناً رطيباً ، وقد أتيت من المقال ، بما يُقِرُّ إن شاء الله تعالى عينَ وامق ويرغم أنفَ قال ، وإن كنتُ ممن هو في ثوب العيِّ رافل ، وعن نسبته للقصور غير غافل ، وممن جعل النفس هدفاً^٣ ، وصير مكان الدُرّ صدفاً ، إذ لسانُ الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون ، المحقّق لذوي الآمال الظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درّها المكنون ، وله اليدُ الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائقة التي تزيع وحشة الأتقس بليناسها :

١ سورة هود : ٨٨ .

٢ ج : به .

٣ يريد قولهم : « من ألف فقد استهدف » .

نَاهِيكَ مِنْ فَرْدٍ أَغْرَ مَمْدَحٍ
 بَهَرَ الْأَنَامَ رِيَاةً وَسِيَاةً
 وَأَتَى بِكُلِّ بَدِيعَةٍ فِي نَوْعِهَا
 مَا شِئْتَ مِنْ شَعْرِ أَرْقٍ مِنَ الصَّبَا
 وَبَدِيعِ قِرطَاسٍ تَوْشِيحٍ مَتْنُهُ
 بِهِجٍ كَأَنَّ الْحَسَنَ حَلَّ أَدِيمَهُ
 وَكَأَنَّمَا سَالَ الْعَذَارُ عَلَيْهِ أَوْ
 يَخْتَالُ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمُفَصَّلٍ
 كَالْبُرْدِ فِي تَوْشِيعِهِ ، وَالسَّلَكِ فِي
 قَدِّ قَيْدِ الْأَبْصَارِ وَالْأَفْكَارِ مِنْ
 مَا فِيهِ مَغْرُزُ إصْبَعٍ إِلَّا وَفِيهِ
 وَلِكُلِّ جُزْءٍ حِكْمَةٌ أَوْ مُلْحَنَةٌ
 أَوْ لَيْسَ مِثْلِي قَاصِرًا عَنْ وَصْفِهِ
 رَحْبِ الدَّرَا حُرِّ الْكَلَامِ مُحَسَّدِ
 وَجَلَالَةٍ فِي الْمُنْتَمَى وَالْقَعْدُودِ
 لَمْ تُخْتَرَعْ وَغَرِيبَةٍ لَمْ تُعْهَدِ
 وَكِتَابَةٍ أَزْهَى مِنَ الزَّهْرِ النَّدِيِّ
 بِمُنْمَنَمٍ مِنْ رَقْمِهِ وَمَنْجَدِ
 فَكْسَاهُ رِيْعَانُ الشَّبَابِ الْأَغْيَدِ
 خَطَطَتُهُ أَيْدِي الْغَايَاتِ بِإِعْمَدِ
 وَمُطَرِّزٍ وَمُنْظَمٍ وَمُنْضَدِ
 تَرْصِيعِهِ ، وَالْوَشْيِ نُمُقٍ بِالْيَدِ
 أَلْفَاظِهِ بِمُتَقَفٍّ وَمُقَيَّدِ
 نَتِيجَةٍ لِمَفْرَعٍ وَمَوْلَدِ
 أَوْ بَدْعَةٍ لِمَرْسَلٍ وَمُقَصَّدِ
 وَالْحَقُّ نَوْرٌ وَاضِعٌ لِّلْمَهْتَدِي

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المسنون ، وفضل الله
 سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون :

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ الْعِبَارَاتِ تُوفِي
 وَأَنَا عاجزٌ عَنِ الْبَعْضِ مِنْهَا
 وَهُوَ يُدْعَى لِسَانِ دِينٍ وَنَاهِي
 فَبِأَيِّ الْحَلِيِّ أَحْلَتِي عَلَا مِنْ
 وَعَلَى الْفَرَضِ مَا الَّذِي أَنْتَحِي مِنْهُ
 الْحِفْظِ قَدْ ارْتَوَى مِنْ مَعِينِ
 وَاجِبَ ابْنِ الْخَطِيبِ مِمَّا أُرُومُ
 لِقْصُورِي وَمَا الْعَيْيُ مَكُومُ
 لَكَ افْتِخَارًا بِهِ تَتِمُّ الرُّسُومُ
 نَالَ فَضْلًا رَوْتَهُ عُرْبٌ وَرُومُ
 هُ لَدَى الْوَصْفِ أَنْ يَخْصُ الْعُمُومُ
 لَصَوَابٍ عَلَيْهِ كُلُّ يَحُومُ

١ ك : والمحتد .

٢ وقع قبل البيتين السابقين ، في ك .

أم لفهم يستخرج الدرّ غوصاً
 أم لفكر مؤلف في فنون
 أم لنظم كأنه جوهر السد
 تتباهى به الصدور حلياً
 أم لنثر وافى بسحر بيان
 وأظلت له للبديع سماء
 فاستزادت منه النفوس رشاداً
 أم لخط منمنم فاق حسناً
 أو كزهر في بهجة ورواء
 والغصون الأقلام، والطرس روض
 تلك ست أعجزن وصفي فإنني
 من بحار يخشى بها من يعوم
 عدة ما به تداوى الكلوم
 لك غلا قدره على من يسوم
 وتروق العيون منه نجوم
 فهو كالروح والمعاني جسوم
 تتللا في جانبينها العلوم
 واسترانت منه النهى والحلوم
 مثل وشي تلوح منه الرقوم
 وأريج به تزاح الغيوم
 ناضر، والمداد غيث سجوم
 بسواها مما يحل أقوم

ولم يكن جمعي - علم الله - هذا التأليف لرغد أستهديه ، أو عرّض نائل
 أستجديه ، بل لحق ودّ أؤديه ، ودين وعد أقدمه وأبديه ، ووقوف عند حد
 لا يجوز تعديّه ، وتلبية داعٍ أحبيه وأفديه :

إن من يرجو نوالاً وندي
 فلقد كان على غير الهدى
 ويرجى منهم الرزق فهل
 أنخلي قصد رب مالك
 ما لنا من مخلص تأتي به
 سيد الخلق العماد المرتجى
 فعليه صلوات تنحي
 من بني الدنيا لنو حظ غين
 من يسوهم رب العالمين
 خالق الكل فقير أو ضنين
 ونرى للخلق جهلاً قاصدين
 غير جاه المصطفى الهادي الأمين
 للملمات شفيع المذنبين
 حضرة حل بها في كل حين

والرضى من بعدُ عن أربعة هم بحق أمراء المؤمنين
 فيمينا إن من يهنواهم ليكون من أصحاب اليمين
 وسط جنات تحببها أنسات قاصرات الطرف عين
 بقوارير لجين شربته وأباريق وكأس من معين
 والذي شرفهم بمنحنا حبهم والكون معهم أجمعين .

فدونك أيها الناظر في هذا الكتاب ، المتجاني عن مذهب النقد والعتاب ، كلمات
 سوانح ، اختلست مع اشتعال الجوانح ، وتضاد الأمور الموانع والموانح ،
 وألفاظاً بوارح اقتنصت بين أشغال الجوارح ، وطرفاً أسمت الطرف في
 مرعاهها وكانت هملاً غير سوارح ، وتحفاً يحصل بها لناظره الإمتاع ،
 ولا يبعدها من سقط المتاع المتاع ، ويلهج بها المرتاح ويستأنس المستوحش
 المرتاح .

• • •

[منهج الكتاب]

وبعد أن خمنت تمام^١ هذا التصنيف ، وأمعنت النظر فيما يحصل به التقريط
 لسامعه والتشنيف ، قسمته قسمين ، وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح أن
 يسميا باسمين :

القسم الأول - فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب ، والأنباء
 المتحبة صوب الصواب ، الرافلة من الإفادة في سوانح الأثواب ، وفيه بحسب
 القصد والاقتصار ، وتحري التوسط في بعض المواضع دون الاختصار ، ثمانية
 من الأبواب :

١ ق : خمت تمام ؛ ج : خفت تمام .

الباب الأول : في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزارعها
ووفور خيرها وكماها واستوائها ، واشتمالها على كثير من
المحاسن^١ واحتوائها ، وكرم نباتها الذي سقته سماء البركات من
جنباتها بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصُور ،
وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُور ، المستمدة من أضوائها .

الباب الثاني : في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد
مُوسَى بن نُصَيْر ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً
لسبق الجياد ، ومحط رحال الأرياء والارتياح ، وما يتبع ذلك
من خبر حصل بازديانه ازدياد^٢ ، ونيل وصل إليه اعتياد^٣
وتقرر بمثله اعتياد .

الباب الثالث : في سرّد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العناد ،
والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرك للهدوّ البالغ غاية الآماد ،
وإعمال أهلها للجهد ، بالجدّ والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ،
بالأسنة المُشرّعة والسيوف المستلّة من الأغماد .

الباب الرابع : في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ،
وجامعها الأمويّ ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإلماع بحضرتي
الملك : الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من
متنزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ،
وما يجرّ إليه شجون الحديث من أمور تقضي بحسن إيرادها
القرائحُ الوقادة والأفكار الماهرة .

الباب الخامس : في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق

١ ك : المنافع والمحاسن .

٢ ك : زياد .

الذاكرة العرّار والبشام ، ومدّح جماعة من أولئك الأعلام ،
ذوي الألباب الراجحة والأحلام ، لشامة وجنّة الأرض
دمشق الشام ، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب
بيانها ذوي السؤدد والاحتشام ، ومُخاطباتهم للمؤلف الفقير
حين حلّها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد برّق فضلها المبين
وشام .

الباب السادس : في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ،
المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق ، والأكابر
الذين حلّوا منها بحلوهم فيها الجيد والمفريق ، وافتخروا برؤية
قطرها المونق على المشتم والمُعرق .

الباب السابع : في نبذة ممّا منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّد
الأذهان ، وبدّثهم في اكتساب المعارف والمعالى ما عزّأوهان ،
وحوزهم في ميدان البراعة من قصب السبق خصل الرهان ،
وجملة من أجوبتهم الدالة على لودعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة
بالمعيتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح
برهان .

الباب الثامن : في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه
الكيد إليها ، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله
في أمرها حيل فكره ، حتى استولى - دمره الله - عليها ،
ومحا منها التوحيد واسمّه ، وكتب على مشاهدتها ومعاهدها
وسمّه ، وقرر مذهب التثليث والرأي الجبيث لديها ، واستغاثه
من بها بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ، من سائر الأقطار ،
حين تعذرت بمحصارها ، مع قلة حُماتها وأنصارها ، المأرب
والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد

الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيد الأنام ،
عليه أفضل الصلاة والسلام ، ورفع يد الكفر عنها وعمّا
حواليها ، آمين .

ولم أخلّ باباً في هذا القسم من كلام لسان الدين بن الخطيب وإن قلّ ،
مع أن القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ ، وهذا آخر ما تعلق بالقسم
الأول ، وعلى الله سبحانه المتكّل والمعول .

القسم الثاني - في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذكر أنبائه التي
يرُوق سماعها ويتأرج نقحها ويَطيب ، وما يُناسِبُها من أحوال العلماء
الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجونُ الكلام والاستطراد ، وفيه أيضاً
من الأبواب ثمانية ، موصلة إلى جَنّات أدبٍ قُطُوفُها دانية ، وكل غصن منها
رطيب :

الباب الأول : في أولية^١ لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين ورث عنهم
المجدَ وارْتَضَع دَرَ أخلافه ، وما يناسب ذلك مما لا يذهب
المنصف إلى خلافه .

الباب الثاني : في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ، ومُساعَدة الدهر له ثم
قلّبه له ظهرَ المِجَنّ على عادته ، في مُصافاته ، ومنافاته ،
وارتباكاه ، في شباكاه ، وما لقي من إحْسن الحاسد ، ذي المذهب
الفاسد ، ومحن الكايد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ،
وغير ذلك من أحواله ، في تقلباته عندما قابله الزمان بأحواله ،
في بدّته وإعادته إلى وفاته .

الباب الثالث : في ذكر مشايخه الجِلّة ، هُدَاة الناس ونجوم المِلّة ، وما يتصل

١ ك : في ذكر أولية .

بذلك من الأخبار الشافية لليلة ، والمواظب المنجية من الأهواء
المُضلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

الباب الرابع : في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء
غير واحد من أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه
التأويل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة^١ .

الباب الخامس : في إيراد جملة من نشره الذي عبق أريج البلاغة من نفعاته ،
ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل
به^٢ من بعض أزجاله وموشحاته ، ومناسبات رائقة من
فنون الأدب ومُصطلحاته .

الباب السادس : في مُصنّفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها
الآمال والظنون ، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المتون .
الباب السابع : في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، المستدلين به على المنهاج ،
المتلقين أنواع العلوم منه ، والمقتبسين أنوار الفهوم من سراج
الوهاج .

الباب الثامن : في ذكر أولاده الرافلين في حُلل الجلالة ، المقتضين^٣ أوصافه
الحميدة وخيالاته ، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد
عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ،
المشتملة على النصائح الكافية ، والحكم الشافية ، من كل مَرَض
بلائيّ ، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يتبع ذلك من المناسبات
القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر
دلالة .

١ ق ج ط : الليلة .

٢ ك : بذلك .

٣ ج : الموافقين .

وقد كنت أولاً سمّيته بـ « عَزُوف الطَّيِّب » ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ، ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ « نفح الطيب » ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب .
وله بالشام تعلّق من وجوه عديدة ، هادية متأملها^١ إلى الطرق السديدة :
أولها : أن الداعي لتأليفه أهل الشام — أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الزمان مديدة .

ثانيها : أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو الشوكة^٢ الحديدية .
ثالثها : أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة .
ورابعها : أن غرناطة نزل بها أهل دمشق ، وسمّوها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر ، والدّوّح والزهر ، والغوطة الفيحاء ، وهذه مناسبة قوية العرّى شديدة .

• • •

[خاتمة المقدمة]

هذا ، وإنّي أسأل ممن^٣ وقف عليه ، أن ينظر بعين الإغضاء إليه ، كما أطلب ممن كان السبب في تصنيفه ، والداعي إلى تأليفه وترصيفه ، استناداً لركن الثقة ، واعتماداً على الود والميعة ، أن يصفح عمّا فيه من قصور ويسمح ، ويلاحظه بعين الرضى الكليّة ويسلمح ، إذ ركبتُ شكل منطقته والأشجان غالبية ، وقضية الغربة ، موجبة للكربة ، ولبعض الآمال سالبة ، وهو — وإن لم يُوفِّ

١ ك : لتأمله ؛ ق ط : متأله .

٢ ك : ذوو النجدة والشوكة .

٣ ط : من .

بكل الغرض - فلا يخلو من فائدة ، وقد يُستدلُّ على الجوهر بالعرض ، فإن أدبتُ المفترض وذلك المرام الذي أرتضيه ، ويوجب الود ويقتضيه :

ولا فحسي أن بذلتُ به جهدي وأنفقتُ من وجدي على قدر ما عندي وقد توهّمتُ أنني لم أسبق إلى مثله في بابي ، إذ لم أقف له على نظيرٍ أتعلق بأسبابه ، ورجوتُ أن يكون هديّة مستلحة مستعذبة ، وطُرقة مقبولة مستغربة :

هَدِيَّتِي تَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِي وَهِمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ مَالِي
وَخَالِصُ الْوَدِّ وَمَحْضُ الْإِخَاءِ أَكْثَرُ مَا يَهْدِيهِ أَمْثَالِي

وأوردت فيه من نظم وإنشاء ، ما يكفي المقتصرَ عليه إن شاء ، ومن أخبار ملوك ورؤساء ، وطبقات من أحسن أو أساء ، ما فيه اعتبار للمتأمل ، وادّكار للراحل المتحمّل ، وزينة للذاكر المتجمل ، وتنكيّت على أهل البطر ، وتبكيّت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوطر :

أَرَى أَوْلَادَ آدَمَ أَبْطَرَتْهُمْ حَظُوظُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا الدَّيْنِيَّةِ
فَلَيْمَ بَطَرُوا وَأَوَّلَهُمْ مَنِيٌّ إِذَا نُسِبُوا وَآخِرُهُمْ مَنِيَّةٌ

وفيه إيقاظ لمثلي من سِنَةِ الْفَقْلَةِ ، وَحَثٌّ عَلَى عَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالْمَهْلَةِ ، وَتَنْبِيهُ لِلْإِبْسِ بِرُدِّ الشَّبَابِ الْقَشِيبِ ، أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ حَادِثِ الْمَوْتِ قَبْلَ أَوْ بَعْدَ الْمَشِيبِ :

لِلَّهِ دُرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ وَنَاصِحٍ مِنْهَاجُهُ وَاضِحٌ
كُلُّ أَمْرٍ يَعْجِبُهُ شَأْنُهُ وَحَادِثُ الدَّهْرِ لَهُ فَاضِحٌ

١ جمع فيه بيتي أبي نواس :

لِلَّهِ دُرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ وَنَاصِحٍ لِرُخْطَى النَّاصِحِ
يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى وَنَهْجَ الْحَقِّ لَهُ فَاضِحٌ

فَكَمْ بِأَكْ عَلَى عَصْرِ الشَّيَابِ ، وَشَاكَ لِفِرَاقِ عَهْدِ الصَّبَا وَالْأَحْبَابِ ،
أَنَسَاهُ طَارِقُ الزَّمَانِ سُلَيْمَى وَالرَّبَابِ :

مَضَى عَصْرُ الشَّيَابِ كُلَّمَا بَرَقَ وَعَصْرُ الشَّيْبِ بِالْأَكْدَارِ شَيَا
وَمَا أَعْدَدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ زَادًا لِيَوْمٍ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شَيَا

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَعْلَامِ :

مَضَى مَا مَضَى مِنْ حُلُوِّ عَيْشٍ وَمُرَّةٍ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَأَصْغَاثِ أَحْلَامٍ
وَقَوْلٍ مِنْ أَرْشَدِ سَفِيهَا :

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ فَالْجَهْلُ الْجَهْلُ مِنْ يَصْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتٍ وَالْمُؤَمِّلُ غَيْبٌ وَلَكِ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وَفِي مَعْنَاهُ لَغَيْرُهُ :

دُنْيَاكَ شَيْثَانٌ فَانْظُرْ مَا ذَانِكَ الشَّيْثَانِ
مَا فَاتَ مِنْهَا فَحُلْمٌ وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِي

وَمَا أَحْكَمَ قَوْلَ ابْنِ حِطَّانٍ ، مَعَ وَقُوعِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ فِي أَشْطَانٍ ١ :

يَأْسَفُ الْمَرْءُ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ لُبَانَاتٍ إِذَا لَمْ يَقْضِهَا
وَتَرَاهُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا بِأَلَّا يَمُضِيَ كَأَنْ لَمْ يَمُضِهَا
لَهَا عِنْدِي كَأَحْلَامِ الْكَرَى لِقَرِيبٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا

وَلِغَيْرِهِ :

وَاللَّهُ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا تَبْقَى عَلَيْنَا وَيَأْتِي رِزْقُهَا رَغَدًا
مَا كَانَ مِنْ حَقٍّ حَرًّا أَنْ يَذِلَّ لَهَا فَكَيْفَ وَهِيَ مَتَاعٌ يَضْحَلُ غَدًا

١ انظر مجموعة شعر الخواارج : ١٩ (القطعة : ٣٣) .

ولآخر :

لا حَظَّ في الدُّنْيَا لِمُسْتَبْصِرٍ يَلْمَحُهَا بِالْفِكْرَةِ الْبَاصِرَةِ
إِنْ كَدَّرَتْ مَشْرَبَهُ مَلَّتْهَا وَإِنْ صَفَتْ كَدَّرَتْ الْآخِرَةَ
ويعجبني قولُ الوزير ابن المغربي^١ :

إِنِّي أَبْثُكُ مِنْ حَدِيٍّ فِي وَالْحَدِيثُ لَهُ شُجُونُ
فَارَقْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي لَيْلًا ففَارَقَنِي السَّكُونُ
قُلْ لِي فَأُولُ لَيْلَةٍ لِلْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى أَكُونُ

وقول ماميه^٢ :

تأمل في الوجودِ بعَيْنِ فِكْرٍ تَرَ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ كَالْخَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعًا سَوْفَ يَفْتِي وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

وقول بعض العارفين :

اسْتَعِدِّي يَا نَفْسُ لِلْمَوْتِ وَاسْعِي لِنَجَاةٍ فَالْحَازِمُ الْمُسْتَعِدُّ
قَدْ تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيِّ خُلُودٌ وَمَا مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ
إِنَّمَا أَنْتِ مُسْتَعِيرَةٌ مَا مَوْ ف تَرُدِّينَ وَالْعَوَارِي تَرُدُّ
أَنْتِ تَسْهَيْنَ وَالْحَوَادِثُ لَا تَسْهِي هُوَ وَتَلْهَيْنَ وَالْمَنَايَا تَجِدُّ

١ هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي (٤١٨ -) ، شارك في الفتن السياسية في عصره ، وبينه وبين المرعي مراسلة وإليه وجه المرعي رسالة المنبح (وفيات الأعيان ١ : ٤٢٨ والشذرات ٣ : ٣٠١) والأبيات في ابن خلكان : ٤٣٠ .

٢ هو المعروف بماميه الرومي واسمه محمد بن أحمد بن عبد الله (٩٨٨ -) ولد في الاسفانة ونشأ بدمشق ، وكان من اليتيمية ، وله ديوان شعر (شذرات الذهب ٨ : ٤١٣) . وفي ج : وقول أمية .

أَيُّ مُلْكٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَيُّ حَظٍّ لِمَرِيءٍ حَظُّهُ مِنَ الْأَرْضِ لِحَدِّ
لَا تَرْجِي الْبَقَاءَ فِي مَعْدِنِ الْمَوْتِ وَدَارِ حَتُوفِهَا لَكَ وَرَدُّ
كَيْفَ يَرْجُو أَمْرُو لَدَاذَةِ أَبَا مِ عَلَيْهِ الْأَنْفَاسُ فِيهَا تُعَدُّ

وَأَسْأَلُ مِنْ مُبْلِغِ السَّائِلِينَ مَا يَرْجُونَ : أَنْ يَصْفَحَ عَنْ زَلَّاتِي وَيَسَاعِنِي
فِيمَا أُرِدْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْهَزْلِ وَالْمَجُونِ ، الَّذِي جَرَّتْ الْمُنَاسِبَةُ إِلَيْهِ
وَالْحَدِيثُ شَجُونِ ، وَمَا الْقَصْدُ مِنْهُ إِلَّا تَرْوِيحُ قُلُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُونَ عَيْسَ الْأَسْمَارِ
وَيُزْجُونَ ، وَفِيمَا أُرِدْتُ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ ، وَحِكَايَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ
طِيبُ زَهْرٍ مَنَاقِبُهُمْ فَائِحٌ ، وَالتَّوَسُّلِ بِمَحَاسِنِ الْأَمْدَاحِ النَّبَوِيَّةِ أَنْ يَسْتَرَّ بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ
الْقَبَائِحِ ، وَيُرِينَا وَجْهَ الْقَبُولِ بِلَا اكْتِتَامٍ ، وَيَمْنَحُنَا الزُّلْفَى وَحُسْنَ الْخِتَامِ :

وَمَنْ يَتَوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ شَفِيعِ الْبَرَايَا السَّيِّدِ السَّبْدِ الْأَسْنَى
فَذَاكَ جَدِيرٌ أَنْ يُكَفِّرَ ذَنْبَهُ وَيَمْنَحَ نَيْلَ الْقَصْدِ وَالْخَمَّ بِالْحُسْنَى

وَهَذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ ، فِي الْأَصُولِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالْفُرُوعِ ، وَعَلَى اللَّهِ
سُبْحَانَهُ اعْتِمَادٌ ، وَمِنْ مَعُونَتِهِ أَسْتَعِذُّ .

القِسْمُ الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب ،
والأنباء المنتحية صَوْبَ الصواب ، الرافلة من
الإفادة في سَوَائِغِ الأثواب ، وفيه
— بحسب القَصْدِ والاختصار ، وتحري
التوسط في بعض المواضع دون
الاختصار — ثمانية
من الأبواب

الباب الاول

في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بفقعتها التي سقتها سماء البركات بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُور ، المستمدة من أضوائها

فأقول :

محاسن الأندلس لا تُستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غُبارها ، وأنتى تجارتي وهي الحاضرة قصب السبق ، في أقطار الغرب والشرق .

° ° °

[مقدمات عامة في مزايا الأندلس]

قال ابن سعيد : إنما سميت بأندلس بن طوبال^١ بن يافث بن نوح ، لأنه نزلها ، كما أن أخاه سببت بن يافث نزل العدو المقاتلة لها ، وإليه تُنسب سببته . قال : وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي ، لأنهم إما عرب أو متعربون ، انتهى .

وقال ابن غالب^٢ : إنه أندلس بن يافث ، والله تعالى أعلم . وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب — رحمه الله تعالى — في بعض كلام له

١ ط : بالأندلس ؛ ج : بن طوفان .

٢ هو محمد بن أيوب بن غالب صاحب كتاب « فرحة الأنفس » الذي ينقل عنه المقرئ في مواضع ، وقد بقيت من الكتاب قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات ١ : ٢٧٢ - ٣١٠ ؛ وعبارته المنقولة تقع على الصفحة ٢٨١ .

أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للإسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ما نصّه : خَصَّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرِّيعِ وغَدَقَ السَّقْيَا ، ولذاذة الأقوات ، وفرّامة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العُمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآتية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونُبُل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطبايع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتماد ، بما حُرِمَهُ الكثيرُ من الأقطار ممّا سواها ، انتهى .

قال أبو عامر السالمي^٢ ، في كتابه المسمى بـ « درر القلائد و غرر الفوائد » : الأندلس من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعلها هواء وترباً ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيواناً ونباتاً ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوسطها ، انتهى .

قال أبو عبيد البكري^٣ : الأندلس شامية في طبيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عِطْرِها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عَدَنِيَّة في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة ، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جِلْيَقِيَّة ، والأثر في مدينة طَرَكُونَة^٤ الذي لا نظير له .

• • •

١ ك : وفنون .

٢ أبو عامر السالمي (ق ل ط ج : السلمي) محمد بن أحمد بن عامر : كان أديباً تاريخياً حافظاً ، صنف في الحديث والآداب والتواريخ مصنفات كثيرة مفيدة وكتابه « درر القلائد و غرر الفوائد » في أخبار الأندلس وأمراتها وطبقات علمائها وشمراتها ، وقف منه ابن عبد الملك على السقرين الأول والثاني . (انظر ترجمته في التكملة : ٩٥ ؛ والذيل والتكملة ، الورقة ٣ من مخطوطة المتحف البريطاني) .

٣ انظر هذا النص في الروض المعمار : ٣ ، والمستقى من فرحة الأنفس : ٢٨١ مع بعض اختلاف .
٤ طركونة (Tarragona) : مدينة على ساحل البحر الشامي بينها وبين لاردة خمسون ميلا .

[مساحتها وأبعادها]

قال المسعودي^١ : بلاد الأندلس تكون مسيرة^٢ عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، انتهى باختصار .
ونحوه لابن اليسع^٣ إذ قال : طولها من أربونة إلى أشبونة^٤ وهو قطع ستين يوماً للفراس المجد^٥ ، وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضي أن أربونة داخلية في جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثاني أن قوله : « ستين يوماً للفراس المجد » إعياء وإفراط ، وقد قال جماعة : إنها شهر ونصف .

قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفراس المجد^٥ ، والصحيح ما نص عليه الشريف^٤ من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري^٥ ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيتف قليل .
قال الحجاري في موضع من كتابه : إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل ونيتف ؛ انتهى .

وبالحملة فالمراد التقريب من غير مشاححة ، كما قاله ابن سعيد ، وأطال في ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلته سميت

-
- ١ راجع مروج الذهب ١ : ١٦٢ .
٢ ابن اليسع : اليسع بن عيسى بن اليسع أبو يحيى صاحب كتاب المغرب في آداب المغرب كتبه بمصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي (راجع المغرب ٢ : ٨٨ والهاشية) .
٣ أربونة (Narbonne) آخر ما استولى عليه العرب من جهة الساحل الأندلسي الشرقي ، وأشبونة هي التي تسمى اليوم لشبونة (Lisbon) أو ليسبوا عاصمة البرتغال .
٤ يعني الشريف الإدريسي مؤلف كتاب « نزهة المشتاق » لرجار ، ملك صقلية .
٥ صاحب كتاب « المسهب في فضائل المغرب » ألفه لبني سعيد ، وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم وعمل أساس كتابه ألف المغرب . (انظر ترجمته في المغرب ٢ : ٣٥) .

جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرضُ جزيرة الأندلس في مَوَسَطَتِها^١ عند طَلَبِطَلَّة ستة عشر يوماً . واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أَرَبُونَةَ^٢ ، فممن قال إنّه في أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة بُرْذِيل^٣ التي في الركن الشرقي الشمالي أحمدُ بن محمد الرازي وابنُ حَيَّان ، وفي كلام غيرهما أنّه في جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده في الأسفار برّاً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة وِبَرَشِلُونَةَ^٤ غير داخلتين في أرض الأندلس ، وأن الركن الموفي على بحر الزقاق بالمشرق بين بَرَشِلُونَةَ وطَرَكُونَةَ في موضع يُعرف بوادي رنلقاطو^٥ ، وهناك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن^٦ الكثيرة ، وفي هذا المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فتّحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر . وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحرُ الذي بين جزيرتي مَيُورْقَةَ^٧ ومَنُورْقَةَ^٨ ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا

١ ك : موسطها ؛ ج : متوسطها .

٢ برذيل : مدينة في بلاد جليقية وتقع على نهر جرونة ، (الروض المعطار : ٤١) .

٣ برشلونة (Barcelona) : مدينة بينها وبين طركونة خمسون ميلا وهي إلى الشمال منها .

٤ ق ط : زنلقطو ، ك : زنلقطو ؛ ويرى محقق الجزء الأول من الطبعة الأوروبية أن الصواب ريلقاطو

(Rubricatus) .

٥ ج : أرض الأندلس .

٦ ج : الأنساب .

٧ ميورقة (Majorca) ومنورقة (وربما كتبت دون واو « منركة ») (Minorca) أكبر

جزيرتين في مجموعة جزائر البليار في البحر المتوسط ، وكانتا في عصر ملوك الطوائف تحت

حكم مجاهد المامري .

الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة بُرْذِيلَ ، وهي من مدن الإفرنجية مطلة على البحر المحيط في شماليّ الأندلس ، قال : ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة . وذكر أن ^١ الركن الشمالي ^٢ عند شنت ياقوه ^٣ من ساحل الجلالة في شمال الأندلس الغربي ^٤ ، حيث تبتدىء جزيرة برطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة بُرْذِيلَ .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه ^٥ في هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنماً مطلاً مشبهاً بصنم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغر ^٦ حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحرُ الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور ، انتهى ؛ والكلام في مثل هذا طويل الذيل . قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي ^٧ : بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصبُ

١ ك : ودوكرا من .

٢ ج : الباقي .

٣ شنت ياقوه ، ويقال فيها شنت ياقوب (Santiago de Compostela) في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبيرية بمنطقة جليقية ، وفيها كنيسة مقدسة يحجّون إليها .

٤ الغربي : زيادة من ق ط .

٥ ق : بابت ياقوة ؛ ج ط : بليانت ياقوه (ياقوه) .

٦ ق ك ط ج : الأغن ؛ وهذا هو ما لا يزال يسمى « الطرف الأغر » (Trafalgar) ، وقد ذكره ابن حوقل باسم الجبل الأغر .

٧ أحمد بن محمد بن موسى الرازي : من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في الفترة الأموية وهو جد عيسى الرازي الذي يعتنقه ابن حيان في المقتبس ؛ (انظر الجلالة : ٩٧ ومجلة المعهد : : ٢٥٢ - ٢٥٥ من المجلد ٧ - ٨) .

الجناب ، مُنبجس بالأنهار^١ الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السُوم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيعته وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسيطة من الحال ، لا يتولد في أحدها فضل^٢ يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ، أمّا الساحل منه ونواحيه فيادر بباكوره ، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان ، وفواكه على الحملة غير معدومة في كل أوان ؛ وله خواص في كرم النبات يوافق في بعضها أرض الهند المخصوصة بجواهر الانبات^٣ : منها أن المحلب - وهو المقدم في الأفاويه والفضل في أنواع الأشنان - لا ينبت بشيء من الأرض إلا بالهند والأندلس ؛ وللأندلس المدن الحصينة ، والمعقل المنيع ، والقلاع الحريزة ، والمصانع الجليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوعر ، وشكلها مثلث ، وهي معتمدة على ثلاثة أركان : الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبلي الأندلس ، والركن الثاني هو بشري الأندلس بين مدينة نربونة^٤ ومدينة برذيل^٥ مما بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي ميسورة ومسورة بمجاورة من البحرين : البحر المحيط والبحر المتوسط ، وبينهما البر الذي يُعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلد^٦ الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد لفرنجة ، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ، ومدينة نربونة^٦ تقابل البحر المحيط ، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف^٧ والغرب من حيز جليقية ، حيث الجبل الموفي على البحر ، وفيها الصنم

١ ك : الأنهار .

٢ ق ك ج : فصل .

٣ ك : بكرم النبات وجواهره .

٤ نربونة : أربونة (Narbonne) . وفي ق ط ك : بريونة .

٥ ك : بلاد .

٦ ق ك ط ج : بريونة .

٧ ق : الجنوب .

العالي المشبه بصنم قادس ، وهو الطالع على بلد برطانية .

قال : والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي ، وأندلس شرقي ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، ويُسَطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ^١ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شَنْتَمَرِيَّة^٢ طالماً إلى حَوْز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومُجاوراً للبحر المتوسط الموازي لِقَرطاجنَّة الخلفاء التي من بلد لُورْقَة^٣ ، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري^٤ أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنس^٥ ، هابطاً مع وادي إبره^٦ إلى بلد شنت مرية^٧ ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمّى ببحر تيران^٨ ، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام^٩ : بلد الأندلس

١ ج : ومنتهى .

٢ شنتمرية (وتكتب أيضاً : شنت مرية) : يعرف بهذا الاسم مدينتان شنتمرية الغرب (Santa Maria de Algarve) وتسمى اليوم (Faro) وهي بالبرتغال والثانية شنتمرية الشرق وهي السهلة (Albarracin) الأولى وهي المقصودة هنا .

٣ قرطاجنة الخلفاء (Carthagenna) (وكتبها في الروض المطار وطبعة ليدن : الخلفاء) وهي فرضة مدينة مرسية . أما لورقة (Lorca) فهي من منطقة تدمير ، وقد تفتح راؤها .

٤ ق ط : ويجري . ه ك : البشكنش .

٦ إبره (Ebro) نهر ينبع من جبال كتنبورية ويشرق فيصب في البحر المتوسط ، ومن أشهر المدن عليه سرقطة وطرطوشة .

٧ المراد هنا شنتمرية الشرق .

٨ تيران (Terran) = اختصار لكلمة (Medi — Terran) أو (Mare Terrhenum) أي يتوسط الأرض .

٩ ابن النظام : ترجم له ابن الأبار في التكملة : ٧٨٨ ولم يزد على قوله : « كان أديباً إخبارياً تاريخياً يحكي عنه ابن حيان في كتابه ، وهو من أهل قرطبة » .

عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقي منه ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تَدْمِير^١ إلى سَرَقِسطة ، والأندلس الغربي ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل ذلك^٢ الحد إلى ساحل المغرب ، فالشرقي منهما يُمَطَّرُ بالرياح الشرقية ، ويصلح عليها ، والغربي يُمَطَّرُ بالرياح الغربية وبها صلاحه ، وجباله هابطة إلى الغرب جَبَلًا بعد جبل . وإنما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال أمطارهما ، وذلك أنه مهما استحكمت الرياح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقَحِطَ الأندلس الشرقي ، ومتى استحكمت الرياح الشرقية مُطِرَ^٣ الأندلس الشرقي وقَحِطَ الغربي ؛ وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال . وجبال الأندلس الغربي تمتد إلى الشرق جبلاً بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبله ، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبله وبعضها إلى الشرق ، وتنصبُّ كلها إلى البحر المتوسط للأندلس^٤ القاطع إلى الشام ، وهو البحر الرومي ، وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلاد جَلِيقِيَّة وما يليها فإن أوديته تنصبُّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف . وصفة الأندلس^٥ شكل مركن على مثال الشكل المثلث : ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادم ، وركنها الثاني في بلد جَلِيقِيَّة حيث الصنم المشبه صنم قادم مقابل جزيرة برطانية ، وركنها الثالث بين مدينة نُربُونَة ومدينة بُرْذِيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البَحْرُ المحيط من البحر الشامي المتوسط ، فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع ،

١ ط ق : جزيرة تدمير .

٢ ك : أسفل من ذلك .

٣ ك : كثر مطر .

٤ ك : المحيط بالأندلس .

٥ راجع هذا النص عند ابن عذاري ٢ : ١ (ط . بيروت) . والبكري : الورقة ٢١٩ .

فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب ، منه المدخل إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب ، ومن قبله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة .

* * *

[الأمم التي استوطنت الأندلس]

قال ^١ : وأول مَنْ سكن الأندلس ^٢ على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون^٣ من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يُعرفون بالأندلش^٤ — معجمة الشين — بهم سُمِّي المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عَمَرُوا وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرًا ، على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحط عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، وبيست أنهارها ، وبادت أشجارها ، فهلك أكثرهم ، وفرَّ مَنْ قدر على الفرار منهم ، فأقفرَت الأندلس منهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة^٥ ، وذلك من حدِّ بلد الفرنجة إلى حدِّ بحر الغرب الأخضر ، وكان عدَّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة . ثمَّ ابتعث الله لعماريتها الأفارقة ، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدة الطويلة قومٌ منهم أجلاهم ملك إفريقية

١ هذا يدل على أن النقل متصل عن ابن النظام ، ولكن ما جاء في هذه الفقرة لا يخرج في مجمله عما نقله الحميري عن الرازي (الروض : ٤ - ٥) إلا أن النص فيه مختصر . وانظر أيضاً ابن عذاري ٢ : ١ .

٢ ك : بالأندلس .

٣ ط : نقلته الأخبار .

٤ عند البكري « الأندليش » و « الأندالش » أي (Vandali) .

٥ ويضع ... سنة : سقطت من ق ط ج .

تخففاً منهم لإحمال توالى على أهل مملكته ، وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم ، فحمل منهم خلقاً في السفن مع قائد من قبيلة يدعى أبطريقس فأرسلوا بريف الأندلس الغربي ، واحتلوا بجزيرة قادس ، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت ، فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحييت أشجارها ، فترلوا الأندلس مغتبتين ، وسكنوها معتمرين ، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ما بين الساحل الذي أرسلوا فيه بغربها إلى بلد الإفرنجية من شريقها ، ونصبوا من أنفسهم ملوكاً عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم ، وهم — مع ذلك — على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها ، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً إلى أن أهلكهم الله تعالى ، ونسخهم بعجم رومة ، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدتهم تلك أحد عشر ملكاً . ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان^١ بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية ، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم ، وقيل : بل كان مولده بأصبهان فقلب اسمها عليه ، وهو الذي بنى إشبيلية ، وكان إشبانية اسماً خالصاً لبلد إشبيلية الذي كان يتزله إشبان^٢ هذا ، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم إلى الآن يسمونه إشبانية لأنار إشبان هذا فيه ، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ، وكان غزاً الأفارقة عندما سلطه الله عليهم في جموعه ، ففض عساكرهم ، وأثنخ فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم ، واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها

١ ق : إل اشبان .

٢ لفظة إسبانيا (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبعضهم يردده إلى أصل فينيقي معناه « ساحل الأرانب البرية » ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان (Sphan) وتعرفت الكلمة إلى أصبهان ، ومن صيغ الاسم أيضاً (Hispalia) وعرب إلى إشبيلية .

الله عليه ، وغلبيهم^١ ، واستوت له مملكة الأندلس بأمرها ، ودان له من^٢ فيها ، فهدم مدينة طالقة ، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية ، فاستم بناءها ، واتخذها دار مملكته ، واستغلظ سلطانه في الأرض ، وكثرت جموعه ، فعلا وعظم عتوه ، ثم غزا إيليا - وهي القدس الشريف^٣ - من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، وانتقل^٤ رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس ، وقهر الأعداء ، واشتد سلطانه . انتهى .

وذكر بعض المؤرخين^٥ أن الغرائب التي أصيبت في مغام الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقلييلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس ، إذ حضر فتحها مع بختنصر ، وكان اسم ذلك الملك بريان ، وفي سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتي به نبي الله سليمان ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء^٥ الصلاة والسلام . انتهى .

وقال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، ويلتقون منهم الجهد الجهد في كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر ، فشكوا حالهم إليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر

١ وغلبيهم : سقطت من ق ج ط .

٢ وهي ... الشريف : سقطت من ق ج .

٣ ك : ونقل .

٤ انظر تمة النص عن الرازي في الروض المطار : ٥ وابن عذاري ٢ : ٢ - ٢ .

٥ ق : الأنبياء والمرسلين .

الشامي ، ونَقَلْهَا من الحضيض إلى الأعلى ، ثمَّ أمر بحفَر ما بين طَنْجَة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحَفَرَتْ حتَّى ظهرت الجبال السفلية ، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناءً محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً ، وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طَنْجَة ، وجعل بين الرصيفين سَعَة ستة أميال ، فلمَّا كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فَمَ الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدُنًا كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين ، وطفأ الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيّناً مستقيماً على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي ^١ من جهة العُدوة فإن الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسَبْتَة وطَنْجَة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء ، وبين سَبْتَة والجزيرة الخضراء عرض البحر . انتهى ملخصاً ، وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بين لارتباط الكلام ببعضه ببعض .

* * *

[موقع الأندلس من الأقاليم]

وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أن لا حظاً لأرض الأندلس في الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس من الأقاليم الرابع ^٢ على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قُرْطُبَة وإشبيلية ومُرْسِيَة وبَلَنَنْسِيَة ، ثم يمر على جزيرة صِقْلِيَة وعلى ما في سَمَتِهَا من الجزائر ، والشمس مُدْبِرَة له .

١ الذي : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : الإقليم الرابع .

والإقليم الخامس يمر على طَلَيْطَلَّة وسَرْقُسْطَة وما في سَمْتِهما إلى بلاد
أَرْغُون التي في جنوبِها بَرْشْلُونَة.، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر
البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومُدَبَّرته الزُّهْرَة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربه
وبعض البلاد الداخلة في قَسْتَالَة وبَرْتُقَال وما في سَمْتِها ، وعلى بلاد بَرْجَان
والصقالبة والروس ، ومُدَبَّره عَطَارِد .

ويعر الإقليم السابع في البحر المحيط الذي في شماليّ الأندلس إلى جزيرة
انقظرة^١ وغيرها من الجزائر وما في سَمْتِها من بلاد الصقالبة وبَرْجَان . قال
البیهقي : وفيه تقع جزيرة تُولى وجزيرتا أجيال والنساء وبعض بلاد الروس
الداخلة^٢ في الشمال والبلغار ، ومُدَبَّره القمر ، انتهى .

وقال بعض العلماء : إنَّ النصارى حُرِّموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة
الدُّنْيَا بستاناً متصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية ، وعندهم
عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفسق وغير ذلك ممّا يكون أكثر وأمكن في
الأقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما
يكون شيء من ذلك في الساحل ، لأنَّ هواء البحر يدفئ ، انتهى .

* * *

[رجع إلى الأمم التي استوطنتها]

قال ابن حيّان في المقتبس^٣ : ذكر رواية العجم أن الخضر عليه السلام وقف
بإشبان^٤ المذكور وهو يحرق الأرض بقُدُن له أيام حرّائه ، فقال له :

١ ك ق ط : انقظرة ؛ ج : القنطرة ، ويبدو أن « انقظرة » هي الصورة الشائعة للاسم .

٢ الداخلة : سقطت من ك .

٣ انظر الروض المطّار : هـ .

٤ ك : على اشبان .

يا إشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يحطيك زمان ، ويعليك سلطان ، فإذا أنت غلبت على إيليا فارقت^١ بذرية الأنبياء ، فقال له إشبان : أساخر^٢ رحمتك الله ؟ أننى يكون هذا مني وأنا ضعيف ممتَهَن حقيِر فقير ليس مثلي ينال السلطان ؟ فقال له : قد قدر ذلك فيك من قدر في عصاك اليابسة ما تراه ، فنظر إشبان إلى عصاه ، فإذا بها قد أورقت ، فريح لما رأى من الآية ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام بخلفه ، ووقرت في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتحان من وقته ، وداخل الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسما به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً ، وكان منه ما كان . ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله ، وكان ملكه كَلَّة عشرين سنة ، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين^٣ من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات^٤ ، وملكهم طلويش^٥ بن بيطه ، وذلك زمن بعث المسيح بن مريم عليه السلام ، أتوا الأندلس من قبيل رومة ، وكانوا يملكون إفرنجة معها ، ويبعثون عمالهم إليها ، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة^٥ ، واستولوا على مملكة الأندلس ، واتصل ملكهم بها مدة إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة القوط مع ملك لهم ، فغلبوا على الأندلس ، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة ، وتفرّدوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم ، وأقروا بها سرير ملكهم ، فبقي بإشبيلية علكم الإشبانيين ورياسة أوليتهم .

وقد كان عيسى المسيح^٥ عليه السلام ، بعث الحواريين في الأرض يدعون

١ ك : أساخر بي .

٢ ط ق ج : الإشبان .

٣ في الروض : البشتولقات ، وفي ابن عذاري : البشتولقات ؛ وفي ط : البشتولقات .

٤ ج : طلويش .

٥ ق : عيسى بن مريم ؛ ج : المسيح عيسى .

الخلق إلى ديانتهم ، فاختلف الناس عليهم ، وقتلوا بعضهم ، واستجاب لهم كثير منهم ، وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء^١ الحواريين خشنش^٢ ملك القوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان من صميم أعاضهم وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكماً ، ولا أرشد رأياً ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصل النصرانية في مملكته ، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والإنجيلات في المصاحف^٣ الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه وجمعه وتثقيفه ، فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العرب عليها ، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان .

فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس من عهد أتناوينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضي أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُدَرِيْن آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكاً ، وأن مدة أيام ملكهم^٤ بالأندلس ثلاثمائة واثنان وأربعون سنة ، انتهى .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، وإن البشتولقات من عجم رومة ، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طَلَبِيْطَلَة دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشنش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكاً .

١ هؤلاء : سقطت من ق .

٢ الروض المطار : دخشوش ، وفي بعض أصوله « خنشوش » ؛ وفي ابن عذاري : وخشنش .

٣ الروض : والمصاحف .

٤ ق : مدة ملكهم .

وذكر الرازي أن القوط من ولد ياجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك ، انتهى .

• • •

[مناخها وخيراتها]

وقال^١ الرازي في موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ، ونصّه : أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة^٢ التي هي رُبُع معمر الدنيا فهي موسطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاعة ، منبجسة العيون الثرار ، منفجرة بالأنهار^٣ الغزار ، قليلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قسّطها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم ، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره ، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك ، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كل^٤ أوان . ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار ، وبها شجر المحلب المعلوم في الأفاويه المقدم في أنواع الأشنان كثير واسع ، وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط ، ولها خواص نباتية يكثر تعدادها ، انتهى .

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال^٤ : يوجد في ناحية دلالية من إقليم

١ ك : وذكر .

٢ زاد بعد لفظة السبعة في ك : التي تقدم ذكرها .

٣ ك : الأنهار .

٤ ورد كثير من هذا النص في كتاب عنوانه « ذكر بلاد الأندلس » لمؤلف مجهول ، وهو بالجزالة العامة بالرباط رقم (ج : ٨٥) وسنعارض به النص الذي جاء في النسخ متخذين رمزه (مخطوط الرباط) والنص يشغل الصفحات ٧ - ١٠ ؛ وانظر أيضاً الإحاطة ١ : ١٠٤ - ١٠٥ فهناك تشابه بين النصين .

البشرة^١ عود الألسنجوج ، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطر رائحة ، وقد سبق منه إلى خيران الصقلي صاحب المرية^٢ ، وأن أصل منبته كان بين أحجار هنالك ، وبأكشونة^٣ جبل^٤ كثيراً ما يتضوع ، ريحه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار ، ويبحر شدونة^٥ يوجد العنبر الطيب الغربي ، وفي جبل مننت ليون^٦ المحلب ، ويوجد بالأندلس القسط الطيب ، والسنبل الطيب ، والجنطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق ، وهو عقار رفيع^٧ ، والمر الطيب بقلعة أيوب^٨ ، وأطيب كهرباء الأرض^٩ بشذونة ، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة ، وأطيب القرمز قرمز الأندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلّة وشذونة وبلكنسية ، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق ، وبناحية

- ١ دلالة (Dalias) : من عمل المرية ؛ والبشرة أو البشرات أو البشارات (Alpujarras) هي منطقة جبال سيرانفادا ، وفي مخطوط الرباط « من كورة تدمير » والتحديد واحد وإن اختلفت التسمية ، فتدمير هو الاسم القديم لكورة مرسية (Murcia) .
- ٢ خيران الصقلي من أوائل الفتيان الذين أعلنوا استقلالهم بعد انهيار الدولة الأموية بالأندلس على أثر الفتنة البربرية (٣٩٩) واتخذ المرية مركزاً له . راجع أعمال الأعلام : ٢١٠ - ٢١٥ .
- ٣ أكشونة - بالباء الموحدة بعد النون - (Ocsonoba) (كتبت في لك ق ط أكشونة حيثما وقعت) : مدينة وكورة تتصل بأحوال الإشبونة وتحتل الركن الغربي الجنوبي من شبه الجزيرة ، ولها عدة حصون وأقاليم وأشهر مدنها شلب .
- ٤ مخطوط الرباط : يعرف بجبل الخفة (أو الخنة) .
- ٥ شذونة (Medina Sidonia) : كورة متصلة بكورة مورور ، نزلها جند فلسطين من العرب ، وهي في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء .
- ٦ مخطوط الرباط : منتلون (Mentileon) وتمة النص : المحلب الذي لا يعدل به غيره .
- ٧ القسط (أو القسطس) عود هندي وعربي يتداوى به ، والهندي غليظ أسود مر المذاق والعربي أبيض خفيف قوي الرائحة ؛ والسنبل هو سنبل الطيب ويسمى أيضاً : المصافير ، وقال ابن الخشاء : والرومي منه غير محقق بالغرب . والجنطيانة - ويكتب بالألف بدل الهاء - نبات لا يوجد بالغرب إلا بجبال غرناطة . وفي مخطوط الرباط : وهو عقار رفيع يوجد بلبلّة ؛ وزاد فيه : « والبرباريس العجيب يوجد بنواحي المنتلون » .
- ٨ قلعة أيوب (Caltayud) وهي بقرب مدينة سالم وبينها وبين دروكة ثمانية عشر ميلاً .
- ٩ كهرباء الأرض : مادة صمغية توجد عند سواحل البحر بالأندلس ، وخاصة عند أصول الدوم ، والنوع الأندلسي منها أصفر وأصلب من المشرقي ، وتدخل في تحضير بعض أنواع الأدوية .

لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد ، وقد يوجد في غيرها ، وعلى مقربة من حصن لورقة^١ من عمل قرطبة معدن البلور ، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي يبره ، والحجر البجادي^٢ يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبل هنالك يتلأ فيه ليلاً كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور^٣ من كورة مالقة إلا أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره ، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجانة^٤ في خندق يعرف بقرية ناشرة^٥ أشكالاً مختلفة كأنه مصبوغ ، حسن اللون ، صبور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير ، وحجر الشاذنة بجبال قرطبة كثير ، ويستعمل في ذلك التذهيب^٦ ، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت^٧ ، وهو أنفع شيء للحصاة ، وحجر المرقشيثا^٨ الذهبية في جبال أبدة^٩ لا نظير لها في الدنيا ، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها ، والمغنيسيا بالأندلس كثير ، وكذلك حجر الطلق^{١٠} ، ويوجد حجر اللؤلؤ بمسبنة برشلونة إلا أنه جامد اللون ، ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية^{١١} ،

١ ك : حفرة لورقة .

٢ ك : حجر النجادي ، ط : النجاد ، وفي دوزي : البيجاني . وفي الجماهر : البيجاني .

٣ مخطوط الرباط : متيور .

٤ بجانة : مدينة كانت من أهم قرى أرض اليمن أي الإقليم الذي نزل عليه بنو سراج القضاة وكانوا يأخذون أرضه ، وهي قرية من المرية بينهما ستة أميال ، وقال ابن سعيد : محدثة بنيت في عهد بني أمية .

٥ مخطوط الرباط : في خندق بقرية ناشر ، وأظنه أصوب .

٦ الشاذنة : حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان ، أما التذهيب فلم يلح لي معناها .

٧ حصن البونت (Alpuente) : شمال غربي بلنسية .

٨ المرقشيثا من المعادن الكبريتية (وتصحفت الكلمة في الأصول) .

٩ أبدة (Ubeda) : إلى الشمال الشرقي من بياسة ، بينهما سبعة أميال .

١٠ حجر الطلق : حجر يراق يتحلل إذا دق إلى طاقات صفار دقاق ويشبه الشب اليماني ، وإذا ألقى في النار لم يحترق ، ولذلك كانوا يطلون به المواضع التي قد تصيبها النار لكي لا تحترق .

١١ المرية (Almería) : مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر وازدهرت في أيام المرابطين واشتهر فيها الرخاء ، وتقع على الساحل الشرقي إلى الجنوب الشرقي من بجانة .

أقل^١ ما لُقِّط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربيعاً ، ومعدن الذهب بنهر لاردة يُجمع منه كثير ، ويجمع أيضاً في ساحل الأشبونة ، ومعدن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تَدْمِير وجبال حَمَّة بَجَّانَة^٢ ، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل ، وبأكشونة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة ، وله معدن بناحية إفرنجة وليون ، ومعدن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق ، ومعدن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ، ومعدن التوتيا الطبية بساحل البيرة بقرية تسمى بِطِرْنَة^٣ ، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس ، وبجبال قرطبة توتيا ، وليست كالبطرنية ، ومعدن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طُرْطُوشَة^٤ يحمل منها إلى جميع البلاد ، ومعدن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى ، وما ذكرت هنا وإن تكرر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر ، وما لم نذكره أكثر ، والله تعالى أعلم .

ومن خواص طليطلة : أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين ، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصبغ السماوي ، انتهى .

وقال المسعودي في « مروج الذهب » بعد كلام ما نصّه : والعنبر كثير ببحر الأندلس ، يجهز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال

١ أقل : سقطت من ج ط ك .

٢ جاء في الروض المطار : وبشرقي بجانة على ثلاثة أميال جبل شامخ فيه معدن غريبة وفيه الحمة العجيبة الشأن . . . الخ .

٣ البيرة (Elvira) كورة نزلها جند دمشق ، وكانت مدينة البيرة قرية من غرناطة ، بينهما ستة أميال ؛ أما بطرنة فقد عدها ابن سعيد من قرى بلنسية (المغرب ٢ : ٣٥٥) .

٤ طرطوشة (Tortosa) من مدن الثغر الأعلى ينسب إليها أبو الوليد الطرطوشي زيل الإسكندرية وصاحب « سراج الملوك » .

له شترين^١ وشذونة ، تبلغ الأوقية منه بالآندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والأوقية بالبغدادي وتباع بمصر أوقيته بعشرة دنانير^٢ ، وهو عنبر جيد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الآندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء . وبالآندلس معدن عظيم للفضة ، ومعدن للزئبق ليس بالحيثد يجهز إلى سائر بلاد^٣ الإسلام والكفر ، وكذلك يحمل من بلاد الآندلس الزعفران وعروق الزنجبيل . وأصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها تُحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر ، انتهى ، وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة ، والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن في بعض بلاد الآندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي : الرصاص من زحل ، والقصدير الأبيض من المشتري ، والحديد من قسم المريخ ، والذهب من قسم الشمس ، والنحاس من الزهرة ، والزئبق من عطارد ، والفضة من القمر .

* * *

[الآندلسيون والأمم المجاورة]

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق* بـلَدَ

١ شترين (Santarem) مدينة معدودة في كورة باجة من منطقة الغرب أي البرتغال وتبعد ٦٧ كيلومتراً عن لشبونة شمالاً .

٢ ك : بعشرين ديناراً .

٣ بلاد : سقطت من ط ق .

٤ بعض : سقطت من ك .

٥ الرقيق ، إبراهيم بن القاسم القروي : نسبة إلى القيروان ؛ مؤرخ أديب تولى الكتابة في الدولة الصنهاجية ، ثم رحل إلى مصر ٣٨٨ هـ من زيري بن باديس إلى الحاكم ، وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد » (انظر الأعلام للزركلي ١ : ٥١ والمصادر في الحاشية) .

الأندلس ، فقال : أهله أصحاب جهاد متصل يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمة يُدعون الجلالة يُتأخمون حَوَزهم ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدة ولهم جمال وحُسن وجوه ، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراة منهم ليس بينهم وبينهم دَرَب ، فالحرب متصلة بينهم ، ما لم تقع هدنة ؛ ويحاربون بالأفق الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوهم ، إذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة أهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشدّ بأساً وأحدّ شوكة وأعظم أمداداً^١ ، وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيَسْبُونَهُمْ ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك^٢ كثرة ، وتخصّصهم للفرنجة يهودُ ذمتهم الذين بأرضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خِصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلّم الخِصاء قومٌ من المسلمين هناك ، فصاروا يَخْصُون ويستحلّون المثلثة .

* * *

[بحر المجاز]

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طَنْجَة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما^٣ زعموا ثمانية عشر ميلاً ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سَبْتَة ، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العدوّة ،

١ قارن هذا بقول ابن حوقل في الفرنجة : « غير أن الذي يلي المسلمين منهم ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم وعدتهم . . . والجلالة أحسن وأصدق محاسن وأقل طاعة وأشدّ بأساً وقوة وبسالة » .

(صورة الأرض : ١٠٦) .

٢ ط : بذلك ؛ ج : لذلك .

٣ كما : زيادة من ك .

ويُعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المَجاز لأنّه يجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاوَل فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلاً مضاعف ذلك إلى ميناء سَبْتَة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومُنْتَهَاهُ مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر . قال بعضهم : إنها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة^١ وغيرهما ، انتهى ، وبعضه بالمعنى . وقال بعضهم^٢ عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سَبْتَة ، ما صورته : ثم يتسع كلما امتد حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية .

• • •

[نبذة عن خراجها]

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الأندلس الذي كان يؤدي إلى ملوك بني أمية قديماً ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين ، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم ، فكانوا يُعْطُونَ جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤون أهلهم مائة ألف دينار ، ويدّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار ، انتهى .

وذكر غيره أن الجلباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألف ألف دينار في السنة ، وكانت قبل ذلك^٣ لا تزيد على ستمائة ألف ، حكاه ابن سعيد ، وقال : إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر .

• • •

١ ق ط ج : وجزيرة مالطة .

٢ ق ط : وقال غيره .

٣ ذلك : زيادة في ك .

[خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها]

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ، ما صورته ^١ :
كان هذا القطر الأندلسي من العدوّة الشمالية من عدوّتي البحر الرومي
وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من إفرنجة
المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة ، وكان القُوطُ قد تملّكوه وغلّبوا على أهله
لمثين من السنين قبل الإسلام ، بعد جروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها
رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا إليها
وملكوها . ولما أخذ الروم والبطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب
من أمم الفرنجة والقُوطِ عليها فدانوا بها ، وكان ملوك ^٢ القوط يتزلون طُلَيْطَلَة ،
وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة وإشبيلية ومازدة ، وأقاموا
كذلك نحواً من أربعمئة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك
العهد يسمى لُذْرِيْقَ ، وهو سِمَة للملوكةم ، كما هو جرجير ^٣ سِمَة للملوك صقلية ،
انتهى .

* * *

[شيء عن غرناطة وأعمالها]

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة ، وقيل : إن الصواب أغرناطة
— بالهمز — ومعناه بلغتهم الرُمّانة ، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها .
وقال الشقندي ^٤ : أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومشرح

١ انظر العبر ٤ : ١١٦ - ١١٧ .

٢ ملوك : سقطت من ق .

٣ جرجير : (Gregorius) ؛ وفي ك : كما أن جرجير .

٤ الشقندي أبو الوليد اسماعيل بن محمد (- ٦٢٩) صاحب كتاب الطرف ورسالة مشهورة في
تفضيل الأندلس على بر العدوّة ، عارض بها أبا يحيى زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن ، وقد
احتفظ بها المقرئ في الفتح في الباب السابع من القسم الأول ، وهذا النص منها مأخوذ على سبيل =

الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخلُ من أشرف أمثال ، وعلماء أكابر ،
وشعراء أفاضل ، انتهى ؛ ولو لم يكن لها إلا ما خصَّها الله تعالى به من المرج
الطويل العريض ونهر شَنِيل لكفاها .

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيها وألف منه
في شَنِيلها^١ ؟ يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف ، فقولنا شَنِيل إذا
اعتبرنا عدد شينه كان ألف فيل ، انتهى ؛ وفيها قيل :

غَرْنَاطَة ما لها نَظيرُ ما مصرُ ما الشام ما العراق ؟
ما هي إلا العروسُ تُجلى وتلك من جُملة الصّدّاق

وتسمى كورة إلبيرة التي منها غَرْنَاطَة ، دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها
عند الفتح ، وقيل : إنما سُميت بذلك لشبهها بدمشق في غَزارة الأنهار ، وكثرة
الأشجار ، حكاه صاحب مناهج الفكر^٢ ، قال : ولما استولى الفرنج على معظم
بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصّر المقصود ، والمقل الذي تَنصُوي
إليه العساكر والجنود . وبَشَقَها نهر عليه قناطر يُجَازُ عليها ، وفي قبليها
جبل شَلير^٣ ، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفاً وشتاء ، وفيه سائر النبات
الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه ، انتهى .

ومن أعمال غرناطة قطر لَوْشَة^٤ ، وبها معدن للفضة جيد ، ومنها ، أعني
لوشة ، أصل لسان الدين بن الخطيب . وهذا القطر ضخّم ينضاف إليه من الحصون

= الاختصار . (انظر ترجمة الشقندي في المغرب ١ : ٢١٣) .

١ شَنِيل (أو سنجيل) هو نهر غرناطة ، كما سيأتي بعد سطور ، وهو يصب في نهر الوادي الكبير .

٢ سنصرف به فيما يلي ص : ١٥٩ .

٣ شَلير أو جبل الثلج هو ما يسمى سير أنقادا ، وشَلير من اللاتينية (Solaris) أي الشمس ، لانعكاس
أشعة الشمس على ثلوجه ، أما سير أنقادا فتعني الجبال الثلجية .

٤ لوشة (Loja) على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الغرب من غرناطة .

والقرى كثير ، وقاعدته لَوْشَة ، بينها وبين غرناطة مرحلة ، وهي ذات أنهار^١ وأشجار ، وهي على نهر غرناطة الشهير بشِشِيل .

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغُه^٢ ، والعامّة يقولون بيغُه ، وإذا نسبوا إليه قالوا ببغي ، وقاعدته باغه طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، غزيرة المياه ، ويجود فيها الزعفران .

ومن أعمال غرناطة وادي آش^٣ ، ويقال : وادي الأشات . وهي مدينة جليّة قد أحدثت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ، وفيها يقول أبو الحسن بن نزار^٤ :

وادي الأشات يهيجُ وجدي كلّما أذكرتُ ما قضتُ بك النعماء
لله ظلكَ والمهجيرُ مُسلطٌ قد برّدتُ لفحاته الأنداء
والشمسُ ترغبُ أن تفوزَ بلحظة منه فطرفُ طرفها الأفياء
والنهرُ يَبْسِمُ بالحباب كأنه سلخُ نصته حية رَقْشاء
فلذلك تحذره الغصونُ فمسلها أبداً على جنباته إيماء

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة ، وهو كبير يُضاهي المدن ، وبه التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع^٥ ، يتجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء ، وبين الحصن المذكور ووادي

١ أنهار : سقطت من ج .

٢ باغُه (Priego) بلدة تقع إلى الشمال من لوشة في ولاية جيان .

٣ وادي آش (أو وادي الأشات Guadix) تقع على نهر ينحدر من جبل شلير عند السفح الشمالي لجبل التلج (سيرانفادا) ، قريباً من غرناطة على بعد ٥٣ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها .

٤ سترجم له المقرئ ، وله موشحة في المغرب ٢ : ١٤٧ ، ويقول فيه ابن سعيد : حبيب وادي آش (٢ : ٢٦٤) .

٥ ك : أفضت .

٦ المغرب ٢ : ١٤٨ خصه (أي حصن جليانة Juliana) الله بالتفاح الذي يضرب به المثل في الأندلس ؛ وذكر ابن سعيد أن بني البراق كانوا أعيان هذا الحصن .

آش اثنا عشر ميلاً .

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيमतان
جداً أحدهما بستند وادي آش^١ والأخرى ببشرة غرناطة ، في جوف كل واحدة
منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جزي وغيره .
وكانت إليرة هي المدينة قبل غرناطة ، فلما بنى الصنهاجي^٢ مدينة غرناطة
وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده .

• • •

[شهرة سرقسطة وبرجة ومالقة وأشبونة]

وذكر غير واحد^٣ أن في كورة سرقسطة الملح الأندلاني الأبيض الصافي
الأملس الخالص ، وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح .
قال : وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذي توارخ من مدته مدة الصفر
قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء^٤ الصلاة والسلام ، وتفسير
اسمها قصر السيد ، لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس .
وقيل : إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جليق بسرقسطة فاستعذبه ،
وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسمه ، فقيل : جليق ،
ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبها بغوطة جليق الشام ، وقيل : لأنها من بناء
الإسكندر ، والله أعلم .

وبمدينة برجة^٥ - وهي من أعمال المرية - معدن الرصاص ، وهي
على واد مبهج يُعرف بوادي عذراء ، وهو محرق بالأزهار والأشجار ، وتسمى

١ هذا السند يسمى اليوم (Marquizado del Zenete) .

٢ يعني حبوس بن ماكسن الصنهاجي ، عندما استقل بالأمر بعيد سقوط الدولة الأموية .

٣ انظر مثلاً المتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٨ ، والروض : ٩٧ .

٤ وعلى ... الأنبياء : سقطت من ق ط ج .

٥ برجة : (Berja) تقع غربي المرية على مقربة من ساحل البحر .

برجة : « بهجة » لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني ،
رحمه الله تعالى ^١ :

رياضٌ تعشقها سندس توشّت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خديّ ربّي لها نَضْرَةٌ فتنت مَنْ نظرت
وكلُّ مكان بها جنّةٌ وكلُّ طريق إليها سقرٌ

وفيها أيضاً قوله :

حطّ الرجال ببرجةٍ وارْتَدَ لنفسك بهجةٌ
في قلعةٍ كسلاحٍ ودوحةٍ مثل لُجّةٍ
فحصنُها لك أمنٌ وروضُها لك فرجةٌ
كلُّ البلادِ سواها كعمرةٍ وهي حجةٌ

وبالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه ، ويُجلب حتى للهند والصين ،
وقيل : إنّه ليس في الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي
المالقي حسبما أنشده غير واحد منهم ابن سعيد ^٢ :

مالقة حَيَّتْ يا تينها الفلّكُ من أجلك ياتينها
نمى طيبي عنه في عِلّتي ما لطيبي عن حياتي نمى

وذيل عليه الإمام الخطيبُ أبو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله :

وحِمْصٌ لا تنسَ لها تينها واذكر مع التين زياتينها

١ أبو الفضل جعفر بن شرف هو ابن الشاعر القيرواني أبي عبد الله ابن شرف المهاجر إلى الأندلس ،
وقد ولد في برجة وقيل بل دخل به أبوه الأندلس صغيراً ، (ترجمته في الذخيرة ٣ : ٢٧٦
والقلائد : ٢٥٢ والصلة : ١٣١ والمغرب ٢ : ٢٣٠) .
٢ في الروض : ١٧٩ أن الطلبة خرجوا للقاء أبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري لما
ولي القضاء بمالقة ، فأنشدهم هذين البيتين ، وانظر رحلة ابن بطوطة : ٦٦٩ حيث نسبهما
للخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ، أما ابن عبد الملك فهو مؤلف الذيل والتكملة .

وفي بعض النسخ :

لَا تَنْسَ لِأَشْيِيلَةَ تِينَهَا^١ واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هي إشييلية ، لتزول أهل حمص من المشرق بها ، حسبما سذكروه .

ونسب ابن جُزَيٍّ في ترتيبه لرحلة ابن بطّوطة البيتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب المالقي ، والتذييل لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد الملك ، فإله أعلم .

وقال ابن بطوطة^٢ : وبمالقة يُصنع الفَخَّار المذهب العجيب ، ويُجَلَّب منها إلى أقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة ، شهر البركة^٣ ، وصَحْنُه لا نظير له في الحسن ، وفيه أشجار النارج البديعة ، انتهى .

وقال قبله^٤ : إن مالقة إحدى قواعد الأندلس ، وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير ، ورُمَانُها المرسِيّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأما التين واللوز فيُجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب ، انتهى .

وبكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ، ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشجري .

* * *

١ ق ج ط : ولا تنس تين إشييلية .

٢ الرحلة : ٦٧٠ .

٣ ك : كثير البركة شهيرها .

٤ الرحلة : ٦٦٩ .

[نبذة عن قرطبة وشهرتها]

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة - أعادها الله تعالى للإسلام -
وبها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر .
وقد ذكر ابن حيّان أنّه بني على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ،
ونصه ، وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي
ما يُعرف في الدنيا مثله ، انتهى .
وفيه يقول بعض علماء الأندلس :

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قرطُبةٌ منهنّ قنطرةُ الوادي ، وجامعُها
هاتان ثنتان ، والزهراءُ ثالثة ، والعلمُ أعظمُ شيء ، وهُو رابعُها

وقال الحجاري في « المسهب » : كانت قرطبة في الدولة الروانية قبة
الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة الروانية ، وفيها تمحضت
خلاصة القبائل المديّة واليمانيّة ، وإليها كانت الرّحلة في الرواية إذ كانت
مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ،
ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتشفٌ بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تصدّح
في جنباتها الأطيّار ، وتنعم النواعير ويّبسم النّوّار ، وقرطابها الزاهرة والزهراء ،
حاضِرَتا الملك وأفقا النعماء والسراء . وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير
بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته وسلّ الخوّرتيّ والسّدِيرَ وغُمْدان ،
وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بصُرُوفه : لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر :

وما زلتُ أسمعُ أنَ الملو لك تبني على قدر أخطارها
انتهى .

وقال السلطان يعقوب المنصور^١ ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول في قرطبة ؟ فخطبه على ما يقتضيه كلامُ عامة الأندلس بقوله : جوفُها شِمام ، وغربُها قُمام ، وقبلتها مُدام ، والجنة هي والسلام .

يعني بالشِّمام جبال الورد ، ويعني بالقمام ما يؤكل إشارة إلى محرث الكنباينة^٢ ، ويعني بالمدام النهر .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي^٣ : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلّ بصيرة ، الديار المنفسحة الكثيرة^٤ ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث العظيم ، والشّعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول .

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سِمة العلم والملك متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدّهم تشغيلاً ، ويضرب

١ السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) من أعظم خلفاء الموحدين ، كان جواداً شجاعاً كريماً عالماً . (انظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٦ : ٤ وروض القرطاس : ١٦٠ ط . فاس) وأخباره في المعجب والبيان المغرب وغيرهما من المصادر التاريخية) .

٢ الكنباينة : قال فيها ياقوت : ناحية بالأندلس قرب قرطبة ، وهذا تعريف قاصر ، فإن الكنباينة هي الأراضي السهلة الزراعية أينما كانت ، وقد ذكر ابن الخطيب الكنباينة في الحديث عن غرناطة (١ : ١٠٢) وأصلها من الكلمة اللاتينية (Campania) أي الحقل أو المحرث كما يسميها الأندلسيون ، وتكتب أحياناً بالقاف . (انظر ملحق دوزي : قنباينة) .

٣ السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠) ثاني خلفاء الموحدين ؛ أما موسى بن سعيد فهو والد علي صاحب المغرب ، كان شغوفاً بالتاريخ وولي للموحدين بعض الأعمال وتوفي بالإسكندرية (٥٧٣) . راجع المغرب ٢ : ١٧٠ .

٤ ك : الكبيرة .

بهم المثل ما بين أهل^١ الأندلس في القيام على الملوك ، والتشجيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الحمل ، إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلت صاح ، ما ندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرّاً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإنّي إن كلّفت العود إليها لقاتل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، انتهى .

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية ، قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً ، انتهى . وحكى الإمام ابن بشكّو^٢ عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المعزومي ، قال : فسألنا : من أين ؟ فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : اقربا إليّ أشمّ نسيم قرطبة ، فقرّبنا منه ، فشمّ رأسي وقبله ، وقال لي : اكتب :

أقرطبةُ الغراء هل لي أوبةٌ إليك ؟ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربيّ منك غمامةٌ وقَعَقَع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارٌ ، وأرضك روضةٌ ، وتربك في استشاقها عنبرٌ ورْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله^٣ :

١ أهل : زيادة من ك .

٢ أبو بكر بن القبطرنة (ويكتب أيضاً القبطورنة) أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطورنة ، والاسم من (Cap-torno) (أي الرأس المستدير) وأبو بكر منهم هو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز =

يا سَيْدِي وَأَبِي هُوَيَّ وَجَلَّالَةَ وَرَسُولُ وَدِّيْ إِنْ طَلَبْتُ رَسُولَا
عَرَجَ بِقَرْطَبَةٍ إِذَا بُلِّغَتْهَا بِأَبِي الْحُسَيْنِ وَنَادَاهُ تَمْوِيلًا
وَإِذَا سَعِدَتْ بِنَظَرَةٍ مِنْ وَجْهِهِ أَهْدِ السَّلَامَ لِكَفِّهِ تَقْصِيلًا
وَإِذَا ذَكَرَ لَهُ شَوْقِي وَشُكْرِي مَجْمَلًا وَلَوْ اسْتَطَعْتُ شَرْحَتُهُ تَفْصِيلًا
بِتَحِيَّةٍ تُهْدَى إِلَيْهِ كَأَنَّمَا جَرَّتْ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ ذُيُولًا

وفي باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد ٢ :

لَقَدْ أَطْلَعُوا عِنْدَ بَابِ الْيَهُودِ دَبْرًا أَبَى الْحُسَيْنُ أَنْ يُكْسِفَا
تَرَاهُ الْيَهُودُ عَلَى بَابِهَا أَمِيرًا فَتَحْسِبُهُ يُوسُفَا

واستقبحوا قولهم « باب اليهود » فقالوا « باب الهدى » ، وسند ذكر قرطبة
والزهراء والزاهرة ومسجدها في الباب المنفرد بها إن شاء الله تعالى ، وكذلك
القنطرة .

• • •

[إشبيلية وإقليمها]

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية — قال الشقندي : من محاسنها اعتدال

= البطليوسي كان كاتباً للمتوكل ابن الأفلح صاحب بطليوس (وتوفي سنة ٥٢٠ هـ) وقد ترجم
له ولأخويه ابن بسم (الذخيرة القمم الثاني : ٢٨٩) والمغرب ١ : ٣٦٧ والقلائد : ١٤٨
والمطرب : ١٨٦ والإحاطة ١ : ٥٢٨ ، وسرد له ذكر في النفح ؛ وهذه الأبيات الواردة هنا
في الذخيرة : ٢٩٣ والقلائد ١٥٢ . أما أبو الحسين بن سراج فهو سراج بن عبد الملك
ابن سراج كان والده من علماء اللغة في عصره ، ونشأ ابنه كذلك بقرطبة . (انظر ترجمته في
الذخيرة ١ - ٢ : ٣١٩ والقلائد : ١١٦ والمغرب ١ : ١١٦ والديباج المذهب : ١٢٦ وبغية
الرواة : ٢٥١) .

١ ناده تمويلا : قل له « يا مولاي » .

٢ أبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك (- ٤٢٦) من أكابر الشعراء بعيد الفتنة القرطبية وصاحب
التوابع والزوايع ، انظر دراسة عنه في تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة قرطبة : ٢١٥
والمصادر مذكورة هناك ؛ وقد جمع ديوانه الأستاذ شارل بلا ؛ والبيتان في ديوانه : ١٠٠ .

الهواء ، وحُسن المباني ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً
ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سَفر^١ :

شَقَّ النَّسِيمُ عَلَيْهِ جَيْبَ قَمِيصِهِ فأنسابَ من شَطِئِهِ يطلب ثارَهُ
فتضاحَكَتْ وَرُقُ الحَمَامِ بدَوَحِهَا هُزْأً فضمَّ من الحياءِ لآزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهدان أم لإشبيلية ؟
فقال بعد تفضيل لإشبيلية : شَرَفُهَا غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، انتهى .
ويقال : إن الذي بنى لإشبيلية اسمه يوليش^٢ ، وإنّه أول من سُمِّي قيصر ،
وإنّه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالشَرَفِ^٣
فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحْدق عليها بأسوار من صخر
صلْد ، وبنى في وسط المدينة قصبتيْن بديعتي الشأن تُعرفان بالأخوين ، وجعلها
أمّ قواعد الأندلس ، واشتق لها اسماً من رومية ، ومن اسمه ، فسمّاها رومية
يوليش ، انتهى .

وقد تقدّم شيء من هذا .

وكان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسُكُنَاهُم أربعة^٤ من بلاد
الأندلس : لإشبيلية ، وقُرْطُبَة ، وقَرْمُونَة^٥ ، وطَلَيْطَلَة ، ويقسمون
أزمانهم على الكَيْنُونَة بها .

١ ابن سفر : أبو عبد الله محمد بن سفر الأديب (ويكتب اسمه أيضاً بالصاد) وهو من ناحية
المرية وسكن لإشبيلية ، وسيترجم له المقرئ . (انظر تحفة القادم : ١٠١ والوافي ٣ : ١١٤
والغرب ٢ : ٢١٢) . وبيتاه في التحفة . وفي ج : ابن سعيد .

٢ ق ك ط : توليس ، ج : يولوس ؛ وهو يوليس قيصر (Julius Caesar) .

٣ سيأتي وصف « شرف لإشبيلية » في النصوص التالية ، وانظر أيضاً الروض المطار : ١٩ .

٤ ك : أربعة بلاد .

٥ قرمونة (Carmona) مدينة إلى الشمال الشرقي من لإشبيلية على بعد ٣٥ كيلومتراً وكانت كورة
واسعة تضم عدة مدن وحصون . (راجع الروض المطار : ١٥٨) .

وأما شَرْفُ إشبيلية فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة ، فرسخ في فرسخ طولاً وعرضاً ، لا تكاد تُشْمِسُ فيه بقعة لالتفاف زيتونه . واعلم أن إشبيلية لها كُورٌ جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهي من الكُورِ المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق . وانتهت جباية إشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألف دينارٍ ومائة دينار .

وفي إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وُجدت صورة جارية من مرمر معها صبي ، وكأن حية تريده ، لم يُسمع في الأخبار ولا رُئي في الآثار صورة أبدع منها ، جُعِلت في بعض الحمامات وتعشّقها جماعة من العوام^٢ . وفي كورة ماردة^٣ حصنٌ شنتُ أفرج في غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره .

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش^٤ ، فإن طول كل جائزة^٥ منه مائة شبر وأحد عشر شبراً ، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف .

وقال بعض من وصف إشبيلية^٦ : إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر متاجرهم الزيت ، وهو

١ إلى : سقطت من ق ط ج ، وكتب فيها « خمسة وثلاثون » .

٢ انظر الروض المطار : ١٢٢ في وصف طالقة ، ونصاً تفصيلياً عن الصورة المذكورة : ١٢٣ .

٣ ماردة : مدينة كبيرة بينها وبين بطليوس عشرون ميلاً ، قال الرازي : كانت قاعدة الأندلس وقرارة الملك ، بنيت في زمن قيصر اكتيبيان (Octavian) وهي على نهر آنة ، وفي عملها كثير من المدن ، وكان لها من القرى والحصون ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية كلها متصلة بعضها ببعض بالبروسات والأشجار والزيتون والنب (مخطوط الرباط : ٤٨) .

٤ اقليش : (Ucles) قاعدة كورة شنتبرية .

٥ الجائزة : الحشة التي تحمل خشب البيت ، أي الدعامة ، وفي اللسان « الجائز » دون تاء التأنيث .

٦ انظر الروض المطار : ١٩ ومخطوطة الرباط : ٥٣ .

يشتمل على كثير من إقليم الشَّرَف ، وإقليم الشرف على تل عالٍ من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها ، يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين ، ولها - فيما ذكر بعض الناس - قُرَى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب مناهج الفكر^٢ ، عند ذكر إشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يُضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك وادياها الفرج ، ونادياها البهج ، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ، ويجزر في كل يوم ، ولها جبل الشَّرَف ، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً ، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، انتهى .

• • •

[شهرة باجة وجبل طارق]

ولكورة باجة^٣ من الكُور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عباد خاصية في دباغة الأديم وصناعة الكتان ، وفيها معدن فضة ، وبها وُلد المعتمد بن عباد ، وهي متصلة بكورة ماردة .

ولجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير ،

١ ك : به .

٢ هنالك كتاب باسم « مناهج الفكر ومناهج العبر » لمحمد بن عبد الله الأنصاري ، عاد فذكره حاجي خليفة باسم « مناهج الفكر » وقال إن الاسم الصحيح بالنون ، ومؤلفه جمال الدين محمد ابن إبراهيم الوطواط (-٧١٨) ويقول الأستاذ خير الدين الزركلي إنه في الكيمياء والطبيعة وهو في ستة مجلدات ، قلت : وقد اطلعت على المجلدين الثالث والرابع منه بالخزانة العامة بالرباط وهما يشلان النبات والحيوان (وفي ك : مناهج الفكر) .

٣ باجة (Beja) في البرتغال وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقي الإشبونة وكانت تضم كورة واسعة .

إذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شهير
بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجوّن^١ البحر هنالك مستديراً
حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مطرف
شاعر غرناطة^٢ :

وأقودَ قد ألقى على البحر مَنَنَهُ فأصبحَ عن قُودِ الجبالِ بمعزِلِ^٣
يُعَرِّضُ نحو الأفقِ وجْهًا كَأَتَمَّا تراقِبُ عَيْنَاهُ كَوَاكِبَ مَنَزِلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سَبْتَةِ في البحر بان كأنه سرج ، قال
أبو الحسن علي^٤ بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه
على تلك الصفة ، فقال والدي^٥ : أجز :

انظر إلى جَبَلِ الفَتْحِ ح رَاكِبًا مَنَنَ لُجٍّ

فقلت :

وقد تَفَتَّحَ مثل الـ أَفْنَانِ في شكلِ سَرَجٍ

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي
أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء ، وطريف المنسوبة إليه بَرَبْرِيٍّ من موالي
موسى بن نُصَيْرٍ ، ويقال : إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمئة رجل ، فنزل
بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين ، وبعده دخل طارق ، والله أعلم .

* * *

- ١ ك : تجوف ؛ ق : تجوز ؛ ج : تجور .
٢ هو أبو الحسن مطرف بن مطرف (- ٦٠٩) من أهل غرناطة ، قتل في وقعة « العقاب » . (انظر
المغرب ٢ : ١٢٠ وتحفة القادِم : ٩٨ والرايات : ٥٩) .
٣ الأقود : الطويل على الأرض ، وجمعه : قود ، وقد عني به الجبل .
٤ علي : سقطت من ق .
٥ والدي : سقطت من ق .

[كورة طليطلة وما تشتهر به]

ومن أعظم كور الأندلس كورة طُلَيْطَلَة^١ ، وهي من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النّون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدرَ المائة الخامسة ، وسمّاها قيصر بلسانه بزليطة^٢ ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعربتُها العرب وقالت : طليطلة ، وكانوا يسمّونها وجهاتها في دولة بني أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سَرَقُسْطَة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى طليطلة مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون إنساناً ، ودخلها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذي بنى لإشبيلية ، أخذها من بيت المقدس كما مر ، وقوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : إنها كانت من زمرّد أخضر ، ويقال : إنها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة^٣ ، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وإيوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه ، وقد قيل : إن أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع ، وذكروا فيها غير هذا ممّا لا يكاد يصدّقه الناظر فيه .

وبطليطلة بسايتين محدّقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ،

١ طليطلة : (Toledo) كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق ، وهي مشرقة على ما يليها من الأندلس إلى الجنوب ، وكانت من أولى المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفونش السادس عام ٤٧٨ هـ وجر ذلك إلى معركة الزلاقة .

٢ تصحفت الكلمة هنا ؛ وصورتها الصحيحة «توليطة» وفي الروض الممطر «تولاظو» قال : ومعناه : فرح ساكنوها ، وفي هذا إشارة إلى الأصل اللاتيني : (Tu ledto) بمعنى «أنت فارح» ، وفي ك ط وردت : بزليطة - برليطلة .

٣ قارن بما ورد في الروض الممطر : ١٣٦ .

وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلِمُ ببعض
متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .
وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مُطَلَّة على نهر تاجه ، وعليه كانت
القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قَوْس واحد تكنفه
فرجتان^١ من كل جانب ، وطولُ القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً ،
وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال في هدمها ،
وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس^٢ :

أَضَحَّتْ طُلَيْطَلَةُ مُعْطَلَةً من أهلها في قبضة الصقر
تُرَكَّتْ بلا أهلٍ تَوَهَّلَهَا مَهْجُورَةً الأكنافِ كالقبر
ما كان يُبْقِي الله قنطرةً نُصِبَتْ لحمل كئاب الكفر

وسياتي بعض أخبار طليطلة .

* * *

[مدينة المرية وما تشتهر به]

ومن مشهور مدن الأندلس المَريَّة ، وهي على ساحل البحر ، ولها القلعة
المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة
المنصور بن أبي عامر ، وولى عليها مولاه خيران ، فنُسبت القلعة إليه ، وبها
من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد ، وفيها دار الصناعة ، وتشتمل
كُورَتُها على معدن الحديد والرخام ، ومن أبوابها باب العُقَاب عليه صورة

١ ك : فرجتان .

٢ عباس بن فرناس التاكرني حكيم الأندلس ، بربري الأصل من موالي بني أمية ، كان صاحب
اختراعات وتوليدات (توفي ٢٧٤) ، انظر ترجمته في الجذوة ٣٠٠ وبغية الملتبس (رقم :
١٢٤٧) والمغرب ١ : ٣٣٣ . وله أخبار في المقتبس (تحقيق مكِّي) ؛ والأبيات فيه ص

عُقَاب من حجر قديم عجيب المنظر .

وقال بعضهم ^١ : كان بالمريّة نسج طُرُرُ الخزير ثمانمائة نَوَل ، وللحُللِ النفيسة والديباج الفاخر ألف نَوَل ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك ، وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكلفة . ويُصنَع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف . وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حُسْنًا ، وساحلها أفضلُ السواحل ، وبها قصور الملوك القديمة الغربية العجيبة ، وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً حافلاً سَمَّاه « مزية المرية » ، على غيرها من البلاد الأندلسية ^٢ في مجلد ضخّم تركته من جملة كُتُبِي بالمغرب ، والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل ، فله الأمر من بعدُ ومن قَبْل .

ووادي المرية طوله أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة ، وأنهار مطردة ، وطيور مغردة .

قال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والقنادق نحو الألف ، وهي بين الجبلين بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الآخر رَبَضُها ، والصور محيط بالمدينة والربض ، وغربيها رَبَضٌ لها آخر يسمى ربض الخوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أولية ، وكأنما غُربلت أرضها من التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار ، انتهى .

• • •

١ انظر جانباً من هذه المعلومات في الروض المطّار : ١٨٤ والمتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٣ .

٢ ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ١ : ٩١ وصاحب نيل الأبتهاج : ٥١ والسخاوي ، ويبدو أنه من الكتب التي لا تزال مفقودة .

[شترة وخواصها]

وقال ابن اليسع ، عند ذكره مدينة شترة^١ : إن من خواصها أن القمح والشعير يُزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر ، قال لي أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلاً من أهل شترة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقلُّ الحاملُ على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل^٢ أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم^٣ قطعوا أصلها وأبقوا منه عشرًا أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب ، انتهى .

* * *

[شنش وسهيل وتدمير]

وبحصن شنش^٤ على مرحلة من المرية التوت الكثير ، وفيها الحرير والقرمز ، ويُعرف واديه بوادي طبرنش . وبغربي مالقة عملُ سهيل^٥ ، وهو عمل عظيم كثير الضياع ، وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه . ومن كُور الأندلس الشرقية تدمير ، وتسمى مصر أيضاً^٥ لكثرة شبهها بها ، لأن لها أرضاً يسبح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبة بعد تدمير مُرسية^٦ ، وتسمى البستان ، لكثرة جنانها المحيطة بها ، ولها نهر يصب في قبليها .

* * *

١ شترة (Centra) في البرتغال من مدائن الأشبونة (لشبونة) إلى الشمال الشرقي منها ، على نهر قاجه ، وقد ردد السلفي الحديث عن تفاحها (تراجم وأخبار أندلسية : ٤٠) .
٢ زاد بعده في ك : بحضرة ابن عباد .
٣ زاد في ك : وهذا القدر .
٤ المغرب ٢ : ٢٢٥ .
٥ أيضاً : زيادة من ك .

[أقاليم الأندلس وكور كل إقليم]

واعلم أن جزيرة الأندلس - أعادها الله للإسلام - مشتملة على موسطة وشرق ، وغرب :

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليلة ، وجيان ، وغرناطة ، والمرية ، ومالقة ؛ فمن أعمال قرطبة إستجة^١ وبلكونة وقبرة وزندة وغافق والمدور وأسطبة وبيانة واليسانة والقصير^٢ وغيرها ، ومن أعمال طليلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها^٣ ، ومن أعمال جيان أبدة وبياسة وقسطلة وغيرها^٤ ، ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكب^٥ ولوشة وغيرها ،

١ هذه التقسيمات هي التي أوردها ابن سعيد أيضاً في المغرب ولم يسقط المقرئ منها سوى « كزنة ومراد » وسيمود إلى ذكرها في الباب الرابع ، وإلى تبيان المسافات بينها وبين قرطبة ؛ وللتعريف بها أقول : استجة (Ucija) على بعد ٥٦ ميلا جنوب قرطبة ؛ وبلكونة (Balcuna) مركز كورة باسمها وكانت في زمن ابن سعيد أهلة بالسكان ؛ وقبرة (Cabra) مركز كورة وتقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب شرقي قرطبة ؛ وزندة (Ronda) من مدن تاكلنا على نهر ينسب إليها يصب في نهر لكة ؛ وغافق (Gafic) بغرب حصن بطروش ؛ والمدور (Almodavar) بينه وبين قرطبة ستة عشر ميلا ؛ واسطبة (أو استبة) (Estepa) بينها وبين قرطبة ستة وثلاثون ميلا ؛ وبيانة (Baena) إلى الشمال من قبرة ؛ واليسانة (Lucana) بينها وبين قرطبة أربعون ميلا وكانت تسمى مدينة اليهود لكثرتهم بها ؛ والقصير (Al-Kosair) وهي كورة بينها وبين قرطبة ثمانية عشر ميلا ، وكان أهم أعمالها في زمن ابن سعيد هو حصن القصير في شرقي قرطبة على النهر .

٢ طلمنكة : (Salamanca) مدينة بشغر الأندلس بينها وبين وادي الحجارة عشرون ميلا بنيت زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (الروض المطار) .

٣ جيان : (Jaen) على بعد ٩٧ كيلومتراً شمالي غرناطة ؛ وبياسة (Beaza) بينها وبين جيان عشرون ميلا ، وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٢٣ هـ ؛ وقسطلة (Calzalilla) تبعد نحو عشرين ميلا إلى الشمال من جيان .

٤ المنكب : (Al-Munecar) كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فريضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

ومن أعمال المرية أندَرَش^١ وغيرها ، ومن أعمال مالقة بلش^٢ والحامة^٣ وغيرهما ، وبلش من الفواكه ما بمالقة ، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديا . وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد : مُرسية ، وبلنسية ، ودانية ، والسهلة ، والثغر الأعلى ؛ فمن أعمال مُرسية أوريولة والقنت ولوزقة وغير ذلك^٤ ، ومن أعمال بلنسية شاطبة ويُضرب بحسنها المثل ويُعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شَقَر وغير ذلك^٥ ، وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال ، وأما السهلة^٦ فإنها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا عداها بعضهم من كُور الثغر الأعلى ولها مدن وحصون ، ومن أعمال الثغر الأعلى : سرقسطة وهي أم ذلك الثغر ، وكورة لاردة ، وقلعة رباح^٧ ، وتسمى بالبيضاء ، وكورة تُطيلة ، ومدينتها طرسونة ، وكورة وشقة^٨ ، ومدينتها تمرط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها مكيانة^٩ ، وكورة بربطانية^{١٠} ، وكورة باروشة .

١ أندرش : (Andarax) من أعمال المرية على نهر باسمها .

٢ بلش : (Velez Malaga) ؛ والحامة (Alahama) .

٣ مرسية : (Murcia) اختطت سنة ٢١٦ هـ ، فخلفت تدمير وأصبحت الكورة تسمى كلها باسمها وكانت القاعدة قبلها أوريولة (Orihuela) ؛ أما القنت (أو لقنت) فكانت مدينة من كورة تدمير وقيل في وصفها : مدينة صغيرة وهي اليوم عاصمة مديرية بحرية تسمى باسمها تقع جنوبي مديرية بلنسية وشرقي مديرتي البسيط ومرسية ، وتمتد من أكبر موانئ الساحل الشرقي .
٤ بلنسية : (Valencia) من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهاراً في العصور الإسلامية ، إلى الشمال من دانية على شاطئ البحر ؛ وكانت تسمى مدينة التراب ؛ وحصن شاطبة (Sativa) إلى الشمال من لقنت ؛ وأما جزيرة شقر (Jucar) فهي مدينة على جزيرة في مصب نهر شقر (وادي شقر) وتسمى اليوم Al-cira وهي في مديرية بلنسية .

٥ السهلة تسمى أيضاً شنترية الشرق (سهلة بني رزين - Santa Maria de Albarracin) وهي من كبار معازل كورة شنترية (Santaver) وتمتد من كورة سرقسطة الجنوبية حتى كورتي وادي الحجارة وطليطلة .

٦ قلعة رباح : مدينة تابعة لطليطلة وموضعها يسمى اليوم (Castillo de Caltarava la Vieja)
٧ وشقة : (Huesca) من كور الثغر الأعلى ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً وتقع إلى الشمال الشرقي منها .

٨ ق ك : بليانة .

٩ ق ك ج : برطانية ؛ ط : برطيانة .

وأما غرب الأندلس ففيه : إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشلب ، فمن أعمال إشبيلية شريش والخضراء ولبلّة وغيرها ، ومن أعمال ماردة بطليوس ويابرة وغيرها ، ومن أعمال أشبونة شنترين وغيرها ، ومن أعمال شلب شنت مرية^١ وغيرها .

* * *

[الجزر البحرية]

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس ، وهي من أعمال إشبيلية ، وقال ابن سعيد : لأنها من كورة شريش ، ولا منافاة لأن شريشاً من أعمال إشبيلية كما مر ، قال : وبید صنم قادس مفتاح ، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون - وهو علي بن عيسى قائد البحر بها - ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيئاً^٢ ، انتهى .

وهي - أعني جزيرة قادس - في البحر المحيط ، وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع ، وهي غربي مدينة سلا تلوح للنظر في اليوم الصاحي الخالي الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات ، وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى ، ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى : أولها جزيرة برطانية ، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس ، ولا جبال فيها ، ولا عيون ، وإنما يشربون من ماء المطر ، ويزرعون عليه .

قال ابن سعيد : وفيه جزيرة شلطي^٣ ، وهي آهلة وفيها مدينة ، وبحرها

١ ق ك ط : شنت مرية ؛ ج : شنتونية .

٢ انظر الروض المطار : ١٤٧ .

٣ شلطي : (Saltes) جزيرة تقع على مقربة من شلب ، وكانت في عصر ملوك الطوائف من أملاك البكرين أسرة العالم اللغوي الجغرافي أبي عبيد البكري ؛ وهي اليوم من مديرية ولبة . (وفي النسخ : شلطي) .

كثير السمك ، ومنها يُحمل مُملَّحاً إلى إشبيلية ، وهي من كورة لَبْلَة^١ مضافة إلى عمل أُونْبَة^٢ ، انتهى .

• • •

[قرطاجنة وخواصها]

وقال بعضهم ، لما أجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس : إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطررة واحدة ، وبها أقواس من الحجارة المقربصة^٣ ، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ، ومن أعجب بنائها الدواميس^٤ ، وهي أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة ، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة ، وارتفاع كل واحد أكثر^٥ من مائتي ذراع ، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلو الشاقق بهندسة عجيبة وإحكام بديع ، انتهى .

قلت : أظن هذا غلطاً ، فإن قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية^٥ ، لا قرطاجنة الأندلس ، والله أعلم .

وقال صاحب مناهج الفكر ، عندما ذكر قرطاجنة : وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثار ، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان

١ لبلة : (Niebla) كانت قاعدة كورة تسمى باسمها وهي على بعد خمسين كيلومتراً غربي إشبيلية وتتبع مديرية ولبة (Huelva) .

٢ مقربصة أو مقربصة بمعنى محكمة الأساس ؛ يقال قريص البيت : قاس طوله وعرضه ليساوي بين كل حائط وما يقابله .

٣ الدواميس هنا : بمعنى الأحواض أو ما يشبه « الهواويس » ، جمع داموس ، وقد تستعمل بمعنى « السجن » ومنه الديماس .

٤ ج ط ق : أطول .

٥ انظر جغرافية البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية : ٤٤ ففيه وصف لقرطاجنة إفريقية يؤكد أن المقرري على صواب .

معمور بالقري ، انتهى .

وذكر قبل ذلك في لورقة أن بناحيها يوجد حجر اللازورد .
وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا مَيُورقة ومنُورقة ،
وبينهما خمسون ميلاً ، وجزيرة مَيُورقة مسافة يوم ، بها مدينة حسنة ، وتدخلها
ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللبّانة ^١ :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ حُلَّةُ رِيَشِ الطَّائِفِ
فَكَانَتْهُمُ الْأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةً وَكَانَ سَاحَاتِ الدِّيارِ كُؤُوسُ

وقال يخاطب ملكها ^٢ ذلك الوقت :

وَعَمَرْتُ^٣ بِالْإِحْسَانِ أَرْضَ مَيُورِقَةٍ وَبَنَيْتُ مَا لَمْ يَبْنِهِ الْإِسْكَندَرُ

وجزيرة يابسة .

واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتَّبِعَ لكان تأليفاً مستقلاً ،
وما أحسن قول ابن خفاجة ^٥ :

١ ابن اللبّانة : أبو بكر محمد بن عيسى شاعر دولة الممّتك وصاحب المراثي فيه ومؤلف كتاب
سقيط الدرر ولقيط الزهر في شعر ابن عباد ، توفي سنة ٥٠٧ بميورقة وسرد ذكره في النفع
كثيراً . (راجع ترجمته في المغرب ٢ : ٤٠٩ والممّك : ٢٠٨ والقلائد : ٢٤٥ والوافي :
٤ : ٢٩٧ والذخيرة (القسم الثالث ٢٠٩) والمطرب : ١٧٨ وفوات الوفيات ٢ : ٥١٤
والتكملة : ٤١٠ وله موشحات في دار الطراز .

٢ البيتان في « المقتطفات » : ٤٠ وينسب البيتان لابن قلاص الإسكندري ، قالهما في مدينة مسينة
بصقلية حين زارها ، وهما في ديوانه : ٥٦ وكذلك ينسب لابن حمديس (ديوانه : ٥٥٣)
حسبما ورد في مسالك الأبيصار ، ونسبهما صاحب المغرب (٢ : ٤٦٦) لابن اللبّانة .

٣ كان صاحب ميورقة في زمن ابن اللبّانة هو مبشر بن سليمان الملقب ناصر الدولة .

٤ ق ج : وعمرت .

٥ أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر ، توفي سنة ٥٣٣ ؛ نشر ديوانه بتحقيق
الدكتور السيد مصطفى غازي (الإسكندرية ١٩٦٠) وفي ص : ٤٣٧ ثبت جامع للمصادر التي
ترجمت لابن خفاجة أو أوردت ذكره وشعره ؛ وهذه الأبيات في الديوان : ١٣٦ .

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَقَسٍ
فَسْنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ
وَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبًّا صَحْتُ وَاشْتَوَيْتُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ

وقال بعضهم في طَلَيْطَلَة :

زَادَتْ طَلَيْطَلَةٌ عَلَى مَا حَدَّثُوا بَلَدٌ عَلَيْهِ نَضْرَةٌ وَنَعِيمٌ
اللَّهُ زَيْنُهُ فَوْشَحَ خَصْرَهُ نَهْرُ الْمَجْرَةِ وَالْغُصُونُ نَجْمٌ

* * *

[رسالة أبي البحر في تغاير مدن الأندلس]

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديبُ الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فإنه مناسب ، ونصه^١ : مولاي ، أمتع الله ببقائك الزمانَ وأبناءه ، كما ضمَّ على حبِّك أحناءهم وأحناءه ، ووصل لك ما شئت من اليُمن والأمان ، كما نظم فلان فخره على لَبَّةِ الدهر نَظْمَ الْجُمَانِ ، فإنك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أَيَّامُكَ غُرُرٌ وَحُجُوجٌ ، وَفِرْنَدُ بَهَائِهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّهْرِ يَجُولُ ، أَلَيْسَتْ الرِّعْيَةُ بِرُودِ التَّأْمِينِ ، فَتَنَافَسَتْ فِيكَ مِنْ نَفِيسٍ ثَمِينِ ، وَتَلَقَّتْ دَعَوَاتِ خُلْدِكَ لَهَا بِالْيَمِينِ ، فَكَمْ لِلنَّاسِ ، مِنْ أَمْنٍ بِكَ وَلِإِنْسَانٍ ، مِنَ اللَّأْيَامِ ، مِنْ لَوْعَةٍ فِيكَ وَهَيَامٍ ، وَلِلْأَقْطَارِ ، مِنْ لُبَّانَاتٍ لَدَيْكَ وَأَوْطَارِ ، وَلِلْبِلَادِ ، مِنْ قِرَاعٍ لَهَا عَلَى تَمَلُّكِهَا وَجِلَادِ ، يَتَمَنَّوْنَ شَخْصَكَ الْكَرِيمَ عَلَى اللَّهِ وَيَقْرَحُونَ ، وَيَغْتَبِقُونَ فِي رِيَاضِ ذِكْرِكَ الْعَاطِرِ بِمَدَامِ حَبِّكَ وَيَصْطَبِحُونَ ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ ﴿ (الروم : ٢٢) حبة من الله ألقاها لك حتى على الجماد ، ونصراً

١ وردت هذه الرسالة في أوراق مخطوطة رقم ٤٢١ بالاسكوريال ، وهي مقتطفات لعلها من نفع الطيب ويحال عليها بلفظة « المقتطفات » .

مؤزراً تنطق^١ به ألسنة السيوف على أفواه الأعماذ ، ومن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها وإيداءها ، ومن قدم صالحاً فلا بد أن يوازيه ، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه^٢ . ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار ، كلها يُفصح قولاً ، ويقول : أنا أحق وأولى ، ويُصيخ إلى إجابة دعوته ويُصني ، ويتلو إذا بُشِّر بك ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ (الكهف : ٦٤) ، تنمَّرت حمص غيظاً ، وكادت تفيض فيظاً ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (يونس : ٦٦) . لي^٣ السهم الأسد ، والساعد الأشد ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد ، أنا مصر الأندلس والنيل نهري ، وسما^٤ التانس والنجوم زهري ، إن تجاريتم في ذلك^٥ الشرف ، فحسبي أن أفيض في ذكر الشرف^٦ ، وإن تبجحتم^٧ بأشرف اللبوس ، فأني إزار اشتملتموه كشتبوس^٨ ، لي ما شئت من أبنية رِحاب ، وروض يستغني بنضرته عن السحاب ، قد ملأت زهراتي وهاداً ونجاداً ، وتوشَّح سيف نهري بمجدائقي نجاداً ، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق^٩ ، ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ (يوسف : ٥١) .

فنظرتها قرطبة شزراً ، وقالت : لقد كثرت نزرًا ، وبذرت في الصخر

١ ج : أنطق .

٢ من قول الخطبة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

٣ ك : ألم .

٤ ك : وساني .

٥ ق ج : ذكر .

٦ يعني ما يسمى « شرف إشبيلية » ؛ راجع ص : ١٥٨ - ١٥٩

٧ ك : تبجحتم .

٨ ط : كشتبوس . ج : كشوش .

الأصم بزرا ، كلام العدى ضرب من الهذيان ^١ ، وأنتى للإيضاح والبيان ، متى استحال المستقيح مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وسناً ﴿ أَمْسَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر : ٨) . يا عجباً للمراكز تُقدّم على الأسنة ، وللأنفار تُفضّل على الأعنة ، إن ادّعيت سبها ، فما عند الله خبيرٌ وأبقي : لي البيت المطهر الشريف ، والاسم الذي ضرب عليه رِواقه التعريف ، في بقيعي محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر ، فحسبي من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر عليّ بهذا السيد الأعلى ، ولا أرتضي ^٢ له أن يوطىء غير ترابي نعلا ، فأقروا لي بالأبوة ، وانقادوا على حكم البنوة ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ (النحل : ٩٢) وكفّوا عن تباريكم ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ (البقرة : ٥٤) .

فقلت غرناطة : لي المعقل الذي يمتنع ساكنه ^٣ من النجوم ، ولا تجري إلا تحت جباد الغيم ، السّجوم ، فلا يلحقني من مُعاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدي إليّ خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلًا ، فقد أفلح اليوم مَنْ استعلى ، لي بطاح تقلدت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً ، ومياه تسيل على أعطاني كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يردّ دماءً المستجير بالانتشاق ، فحُستني لا بطمع فيه ولا بحتال ، فدعوني فكل ذات ذيل تحتال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما لي به من عِوض ولا بدل ، ولم لا يعطف عليّ عِنان مجده ويثني ، وإن أنشد يوماً فلإياي يعني ^٤ :

١ من قول المتنبي يمدح كافوراً :

الله سر في علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان

٢ ك : أرضي .

٣ المقتطفات : يمنع صاحبه .

٤ ط : دماء .

٥ ك : الغيث .

٦ من شعر بعض الأعراب ، وقبله :

أحب بلاد الله ما بين منعج إلي وسلمي أن يصوب سحابها

بلاد بِهَا عَقَّ الشَّابُّ نَمَاسِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جُلْدِي تَرَابُهَا

فَمَا لَكُمْ تَعْتَرُونَ لِفَخْرِي وَتَنْتُمُونَ ، وَتَتَأَخَّرُونَ فِي مِيدَانِي وَتَتَقَدِّمُونَ ، تَبْرَأُوا إِلَيَّ مِمَّا تَزْعُمُونَ ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ٤١) .
فَقَالَتْ مَالِقَةُ : أَتُرَكُونِي بَيْنَكُمْ هَمَلًا ، وَلَمْ تَعْطُونِي فِي سَيِّدِنَا أَمَلًا ، وَلِمَ وَلِي الْبَحْرُ الْعَجَاجَ ، وَالسَّبِيلُ الْفِجَاجُ^١ ، وَالْجَنَّاتُ الْإِثِيرَةُ ، وَالْفَاكِهَةُ الْكَثِيرَةُ ، لَدَيَّ مِنَ الْبَهْجَةِ مَا تَسْتَغْنِي بِهِ الْحَمَامُ عَنْ الْهَدْيِيلِ ، وَلَا تَجْنَحُ الْأَنْفُسُ الرِّقَاقَ الْحَوَاشِي إِلَى تَعْوِضٍ عَنْهُ وَلَا تَبْدِيلِ ، فَمَا لِي لَا أُعْطَى فِي نَادِيكُمْ كَلَامًا ، وَلَا أَنْشُرَ فِي جَيْشٍ فَخَارِكُمْ أَعْلَامًا ؟

فَكَانَ الْأَمْصَارُ نَظَرَتَهَا أَزْدَرَاءَ ، فَلَمْ تَرَ لِحَدِيثِهَا فِي مِيدَانِ الذِّكْرِ لِإِجْرَاءَ ، لِأَنَّهَا مَوْطِنٌ لَا يَحِلُّ مِنْهُ بَطَائِلُ ، وَنَظَنَ الْبِلَادُ تَأَوَّلَتْ فِيهَا قَوْلَ الْقَائِلِ :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِبْجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَقَالَتْ مُرْسِيَّةُ : أَمَامِي تَتَعَاطَوْنَ الْفَخْرَ ، وَبِحَضْرَةِ الدَّرِّ تُنْفَقُونَ الصَّخْرَ ؟
إِنْ عُدَّتِ الْمَفَاخِرُ ، فَلِي مِنْهَا الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، أَيْنَ أَوْشَالُكُمْ مِنْ بَحْرِي ، وَخَرَزُكُمْ مِنْ لَوْلُو نَحْرِي ، وَجَعَجَعَتُكُمْ مِنْ نَفَثَاتِ سِحْرِي ؟ فَلِي الرُّوضُ النَّضِيرُ ، وَالْمَرَأَى الَّذِي مَالَهُ مِنْ نَظِيرِ ، وَزَنْقَاتِي^٢ الَّتِي سَارَ مَثَلُهَا فِي الْآفَاقِ ، وَتَبَرَّقَ وَجْهُ جَمَاهَا بِغُرَّةِ الْإِصْفَاقِ ، فَمِنْ دَوَّحَاتِ ، كَمْ لَهَا مِنْ بَكُورِ وَرَوَّحَاتِ ، وَمِنْ أَرْجَاءَ ، إِلَيْهَا تُمَدُّ أَيْدِي الرِّجَاءِ ، فَأُبْنَائِي فِيهَا^٣ فِي الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ مُودَعُونَ ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَخْذُونَ وَيَدَّعُونَ ، وَلَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ وَلَهُمْ فِيهَا مَا يَدَّعُونَ . فَانْقَادُوا لِأَمْرِي ، وَحَازِرُوا اصْطِلَاءَ جَمْرِي ، وَخَلُّوا

١ في نسخة بهامش ك : والسييل الثجاج .

٢ الزنقات من متفرجات مرسية . (انظر المغرب ٢ : ٢٤٦) .

٣ ط ك : فيه .

بني وبين سيدنا أبي زيد ، وإلا ضربتكم ضرب زيد^١ ، فأنا أولاكم بهذا الملك
المستأثر بالتعظيم ﴿وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (نصت : ٣٥) .
فقلت بِلَنَسِيَّة : فيمَ الجدال والقيراع ؟ وعلامَ الاستهام والاقتراع ؟
واللامَ التعريض والتصريح ؟ وتحت الرغوة اللبنُ الصريح^٢ ، أنا أحوزه من
دونكم ، فأحمدوا ناريَ تحرككم وهدونكم ، فلي المحاسن الشائخة الأعلام ،
والجنات التي تُلقي إليها الآفاق يَدَ الاستسلام ، وبرُصافي وجِسري أعارض
مدينة السلام^٣ ، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام ، وإلاَّ فَعَضُّوا بنانا ، واقْرَعُوا
أسنانا ، فأنا حيث لا تدركون وأنتي ، ومولانا لا يَهْلِكُنَا بما فعل السفهاء منا .
فعند ذلك ارتمت جَمْرَةٌ قُدُمِيَّو بالشرار ، واستدَّتْ^٤ أسبهمها لنحور
الشرار ، وقالت : عِشْ رَجَبًا ، تَرَّ عَجَبًا ، أَبْعَدَ العصيان والعقوق ، تتهيئين
لرُتَبِ ذوي الحقوق ؟ هذه سماء الفخر فمن ضحك أن تعرجي ، ليس بعُشْك
فادرجي^٥ ، لك الوَصْبُ والحبْلُ ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ (يونس : ٩١) ،
أيتها الصانعة الفاعلة ، من أدأك أن تُطِرِّي وما أنت ناعلة^٦ ؟ ما الذي
يُجْدِيكَ الروضُ والزهرُ ؟ أم ما يفيدكِ الجدول والنهر ؟ وهل يُصْلِحُ
العطارُ ما أفسد الدهرُ^٧ ؟ هل أنتِ إِلَّا مَحَطُّ رحل النفاق ، ومترل^٨ ما

١ إشارة إلى قول النحويين : « ضرب زيد عمرًا » .

٢ هذا من أمثالهم ؛ أي أن الظاهر لا يحجب الحقيقة .

٣ تشتهر بلنسية برصافتها وجسرها ، وكذلك بغداد كما في قول علي بن الجهم : « عيون المها بين الرصافة
والجسر » .

٤ ط ق ج : واشتدت .

٥ من أمثالهم ؛ أي ليس هذا من الأمر الذي لك فيه حق فدعيه . (انظر فصل المقال : ٣١٩) .

٦ ك : أدراك أن تضربي وما أنت فاعلة ؛ ق ك ط ج دوزي : أن تضربي ؛ ج : فاعلة . وكله
خطأ في الجميع ، وصوابه من المثل « أطري فإنك ناعلة » أي غني طرر الوادي وهي نواحيه .
(فصل المقال : ١٤٧ وفهرسته) .

٧ من قول الشاعر في عجوز :

تروح إلى العطار تبني صلاحها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

لِسُوقِ الْحِصْبِ فِيهِ مِنْ نَفَاقٍ ؟ ذَرَاكَ لَا يَكْتَحِلُ الطَّرْفُ فِيهِ بِهَجْوٍ ، وَقِرَاكَ لَا يُسْنَمُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جَوْعٍ ، فَلَا مَ تَبْرُزُ الْإِمَاءَ فِي مَنْصَةِ الْعَقَائِلِ ؟ وَلَكِنْ اذْكُرِي قَوْلَ الْقَائِلِ ¹ :

بَلْ كُنْ سِيَةً بَيْنِي عَنِ الْقَلْبِ سَلْوَةً ² فَإِنَّكَ رَوْضٌ لَا أَحِينَ لَزَهْرِكَ
وَكَيْفَ يَحِبُّ الْمَرْءُ دَاراً تَقَسَّسَتْ ³ عَلَى صَارِمِي جَوْعٍ وَفَتْنَةٍ مُشْرِكٍ
بَيْدَ أَنْتِي أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوقِدَ مِنْ تَوْفِيقِكَ مَا خَمَدَ ، وَيُسِيلَ مِنْ
تَسْدِيدِكَ مَا جَمَدَ ، وَلَا يُطِيلَ عَلَيْكَ فِي الْجَهَالَةِ الْأَمْدَ ، وَإِيَّاهُ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُ
أَنْ يَرُدَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا إِلَى أَفْضَلِ عَوَائِدِهِ ، وَيَجْعَلَ مَصَائِبَ أَعْدَائِهِ مِنْ فَوَائِدِهِ ،
وَيُمْكِّنْ حُسَامَهُ مِنْ رِقَابِ الْمَشْغِيِّينَ ، وَيُبْقِيَهِ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ،
وَيَصِلَ لَهُ تَأْيِيداً وَتَأْيِيداً ، وَيُمَهِّدَ لَهُ الْأَيَّامَ حَتَّى تَكُونَ الْأَحْرَارُ لِعَبِيدِهِ ⁴
عَبِيداً ، وَتَعْمِدَ عَلَى الدُّنْيَا بِسَاطِ سَعْدِهِ ، وَيَهْبَهُ مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ :

أَمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أَضِيفَ إِلَيْهَا أَلْفَ آمِينَا

ثم السلام الذي يتأتى عباقراً ونشراً ، ويتألق روثقاً وبشراً ، على
حضرته العلية ، ومطالع أنوارهم الجليلة ⁵ ، ورحمة الله تعالى وبركاته ،
انتهى :

[عود إلى ذكر غرناطة]

ولما أَلَمَّ الرَّحَالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي رَحْلَتِهِ بِدُخُولِهِ لِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ — أَعَادَهَا

١ سِنْسِيهِمَا الْمُقَرَّبِيُّ ص : ١٨٠ لابن عياش (وهما له في زاد المسافر : ٩٤) وفي ياقوت (بلنسية) :

أنهما لابن حريق .

٢ ط ق والمقتطفات : لعمبيده عبداً .

٣ ك : السنية الجليلة .

٤ ك : بدخوله بلاد .

الله تعالى للإسلام - قال ^١ : فوصلتُ إلى بلاد الأندلس - حرسها الله تعالى - حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب منخور للمقيم والظاعن ، إلى أن قال عند ذكره ^٢ غرناطة ما نصّه : قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها ، وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلاً ، يخترقه نهر شينيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة ، والبساتين ^٣ والجنّات والرياضات والقصور ، والكُرُوم مُحَدِّقة بها من كل جهة ، ومن عجيب مواضعها عينُ الدمع ، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين ، لا مثل له بسواها ، انتهى .

وقال الشقندي : غرناطة دمشقُ بلاد الأندلس ، ومَسْرَحُ الأبصار ، ومَطْمَحُ الأنفس ، ولم تخلُ من أشرافِ أمّاتٍ ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن بها إلا ما خصّها الله تعالى به من كونها قد نَبَغَ فيها النساء الشواعر كَتَرَهُنَّ القلعية ^٤ والرَّكُونِيَّة ^٥ وغيرهما ، وناهيك بهما في الظَرْف والأدب ، انتهى .

ولبعضهم يتشوّق إلى غرناطة فيما ذكر بعض المؤرخين ، والصواب أن الأبيات قيلت في قرطبة كما مرّ ^٥ ، والله أعلم :

أَغْرِنَاطَةُ الْغَرَاءِ هَلْ لِي أَوْبَةٌ إِيَّاكَ ؟ وَهَلْ يَدْتُوْ لَنَا ذَلِكَ الْعَهْدُ ؟
سَقَى الْجَانِبَ الْغَرْبِيَّ مِنْكَ غَمَائِمٌ ^٦ وَقَعَقَعَ فِي سَاحَاتِ رَوْضَتِكَ الرَّعْدُ
لِيَا لِيكَ أَسْحَارٌ ، وَأَرْضُكَ جَنَّةٌ ، وَتُرْبُكَ فِي اسْتِنشَاقِهَا عَنَبٌ وَرَدٌ

وقال ابن مالك الرُّعَيْنِي :

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٦٥ ، ٦٧٠ .

٢ ق : عند ذكر .

٣ لك : والبساتين الجليلة ؛ وسقطت اللفظتان من ج .

٤ سيجي التعريف بهما وبكثير من شواعر الأندلس في النفع .

٥ انظر ص : ١٥٥ فيما تقدم .

٦ لك : غمامة .

رَعَى اللهُ بِالْحَمَاءِ عَيْشًا قَطَعَتْهُ ذَهَبْتُ بِهِ لِلْأَنْسِ ، وَاللَّيْلُ قَدْ ذَهَبَ
تَرَى الْأَرْضَ مِنْهَا فِضَّةً فَإِذَا اكْتَسَتْ بِشَمْسِ الضُّحَى عَادَتْ سَيِّكَتْهَا ذَهَبُ
وهو القائل :

لَا تَظُنُّوا أَنَّ شَوْقِي خَمْدًا بَعْدَ كُمْ أَوْ أَنَّ دَمْعِي جَمْدًا
كَيْفَ أَسْلُو عَنْ أَنْاسٍ مِثْلُهُمْ قُلْ أَنْ تُبْصِرَ عَيْنِي أَحَدًا

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه
شيء بها ، ويشقُّها نهر حدره ، ويُطِيلُ عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا
يَزُولُ الثلج عنه شتاءً وصيفاً ، ويمجد عليه حتى يصير كالحجر الصلد ، وفي
أعلاه الأزهار الكثيرة ، وأجناسُ الأفوايه الرفيعة ، ونزل بها أهلُ دمشق لما
جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور ، وقرى غرناطة - فيما ذكر بعض
المؤرخين - مائتان وسبعون قرية .

وقال ابن جُزَيٍّ مرتباً رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكره كلامه ، ما نصّه :
قال ابن جزي^١ : لولا خشية أن أنسبَ إلى العصبية لأطلت القول في وصف
غرناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكنّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول
فيه ، والله درُ شيوخنا أبي بكر ابن محمد بن شبرين السبتي^٢ نزيل غرناطة حيث
يقول :

رَعَى اللهُ مِنْ غَرْنَاطَةِ مُتَبَوِّأً يَسْرُ حَزِينًا أَوْ يُجِيرُ طَرِيدًا
تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِبِي عِنْدَمَا رَأَى مَسَارِحَهَا بِالْثَلَجِ عُدُنَ جَلِيدًا

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٧٠ .

٢ ابن شبرين (وورد خطأ : شبرين وفي ج : بشرين) هو محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين
(٧٤٧ -) ولد بسبته وأهله من إشبيلية أصلاً ، كان تاريخياً شاعراً كاتباً ، وهو من شيوخ
لسان الدين . (انظر الإحاطة ٢ : ١٧٤ - ١٨٢) . وأبياته في الإحاطة (١ : ١٠٤ تحقيق
عنان) .

هي الثغر صان الله من أهلت به وما خيّر ثغراً لا يكون بروداً ١٩

وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة - وهي قرية كبيرة تضاهي المدن ، قد أهدت بها البساتين ، ولها نهر يفن الناظرين ، وهي من أعمال مالقة - : إنه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى ، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم ، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيماً ، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب ، وسألوا : بم يعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا : الطراز ، فقال والدي : اسم طابق مسماه ، ولفظ وافق معناه ،

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قاتلاً فقل

ثم قال أجز : بنارجة حيث الطراز المنم
فقلت : أقيم فوق نهر ثغره يتبسم

فقال : وسمنك نحو الهاتفات فأنها
فقلت : لما أبصرت من بهجة تترتم

فقال : أيا جنة الفردوس لست بآدم
فقلت : فلا بك حظي من جناك التندم

فقال : يعز علينا أن نزورك مثل ما
فقلت : يزور خيال من سلمي مسلم

فقال : فلو أنني أعطى الخيار لما عدت
فقلت : محلك لي عين بمرآك تنعم

فقال : بحيث الصبا والطل من نفثاتها

فقلت : وَقَتَ لَسَعِ رَوْضٍ فِيهِ لِلنَّهْرِ أَرْقَمُ

فقال : فَوَا أَسْقِي إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي عَوْدَةً

فقلت : فَكُنْ مَالِكًا لِمَتِي عَلَيْكَ مُتَمِّمُ

فقال : فَأَحْسَبُ هَذَا آخِرَ الْعَهْدِ بَيْنَنَا

فقلت : وَقَدْ يَلْحَظُ الرَّحْمَنُ شَوْقِي فَيَرْحَمُ

فقال : سَلَامٌ سَلَامٌ لَا يَزَالُ مُرَدِّدًا

فقلت : عَلَيْكَ وَلَا زَالَتْ بِكَ السُّحْبُ تُسَجِّمُ

* * *

[بلنسية وبعض قراها]

وقال ابن سعيد^١ : إن كورة بلنسية من شرق الأندلس تبت الزعفران^٢ ، وتُعرف بمدينة التراب ، وبها كثرى تسمى الأزرة^٣ في قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة المطعم^٤ ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عُرف بريحه ، ويقال : إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد بالأندلس ، وبها منازة^٥ ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومُنية ابن أبي عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطي من أبيات فيها :

هِيَ الْفِرْدَوْسُ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لَسَاكِينِهَا وَكَارِهِيَا^٦ الْبَعُوضُ

وقال بعضهم فيها^٧ :

١ انظر جانباً من هذا الوصف في المغرب ٢ : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

٢ ك : يبت بها الزعفران .

٣ دوزي : الأزرة . وفي التعليلات محاولة للربط بينها وبين لفظة (azeroia) المشتقة من الزمرور .

٤ ك : الطعم . ه : ك : منارة .

٦ دوزي : مكارهها ، ولعل فيه إشارة إلى الحديث « حفت الحنة بالمكاره » .

٧ سيرد البيتان في الباب السابع من هذا الكتاب .

ضَاقَتْ بِلَنْسِيَةِ بِي وَذَادَ عَنِّي غَمُوزِي
رَقَصُ الْبِرَاغِيثِ فِيهَا عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ

وفيهما لابن الزقاق البَلَنْسِي :^١

بَلَنْسِيَّةٌ - إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا وَفِي آيَاتِهَا - أَسْنَى الْبِلَادِ
وَأَعْظَمَ شَاهِدِي مِنْهَا عَلَيْهَا وَأَنَّ جَمَالَهَا لِلْعَيْنِ بَادِي
كَسَاهَا رَبُّهَا دِيْبَاجَ حُسْنٍ لَهُ عِلْمَانِ مِنْ بَحْرِ وَوَادِي

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدني والذي قال : أنشدني مَرْوَانُ بن عبد الله
ابن عبد العزيز ملك بلنسية^٢ لنفسه بمراكش قوله^٣ :

كَانَ بَلَنْسِيَّةٌ كَاعِبٌ وَمَلَبَسُهَا سُنْدُسٌ أَخْضَرُ
إِذَا جِثَّتْهَا سَرَتْ نَفْسُهَا بِأَكَامِهَا فَهِيَ لَا تَنْظَرُ

وأما قول أبي عبد الله بن عياش « بلنسية بيني - البيتين » وقد سبقا^٤ ، فقال
ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغراً يُصَابِحُهَا الْعَدُوّ وَيَمَاسِيهَا ، انتهى .
وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش^٥ :

بَلَنْسِيَّةٌ قَرَارَةٌ كُلِّ حُسْنٍ حَدِيثٌ صَحَّ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ

١ ديوان ابن الزقاق : ١٣٩ وانظر التخریجات للمقطوعة : ٣١ .

٢ ولي بلنسية في آخر عهد المرابطين حتى قام عليه جند بلنسية سنة ٥٣٩ وبايعوا لابن عياض ملك
مرسية ، فانتقل إلى ميورقة ومنها إلى مراكش ، وقد أطنب والد ابن سعيد في مدحه (المغرب
٢ : ٣٠٠ - ٣٠١) .

٣ البيتان في ياقوت : (بلنسية) .

٤ انظر ما تقدم ص : ١٧٥

٥ أبو الحسن علي بن حريق (- ٦٢٢) من شعراء زاد المسافر ؛ ترجمته في التكملة ٢ : ٦٧٩
(كوديرة) وزاد المسافر : ٢٢ وسرد له ذكر كثير في النفع ، وانظر مقصورة حازم
١ : ١٤٢ وقد وردت أبياته في زاد المسافر : ٩٤ وياقوت : (بلنسية) .

فإن قالوا محلّ غلاء سَعِيرٍ وَمَسْقَطُ دِمَئِي طَعْنٍ وَضَرْبٍ
فَقُلْ هِيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ رُبَاهَا بِمَكْرٍ وَهَيْنٍ مِنْ جَوْعٍ وَحَرْبٍ
وقال الرّصافي في رُصافتها ١ :

ولا كالرُصافة مِنْ مَنَزِلٍ سَقَتْهُ السَّحَابُ صَوْبَ الْوَلِيِّ
أَحْنٌ إِلَيْهَا وَمَنْ لِي بِهَا وَأَيْنَ السَّرِيِّ مِنَ الْمُوصِلِيِّ

وقال ابن سعيد : وبرُصافة بِلَنَسِيَّةَ مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم في الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورُصافة قُرْطُبَة ، انتهى .
ومن أعمال بِلَنَسِيَّةَ قرية المَنَصَفِ التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسبْطَة يزَار ، رحمه الله تعالى ، ومن نظمه ٢ :

قَالَتْ لِي النَّفْسُ أَنَاكَ الرَّدَى وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا مُقِيمٌ
فَمَا ادَّخَرْتَ الزَّادَ، قُلْتَ: اقْصِرِي هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لِدَارِ الْكَرِيمِ

ومن عمل بِلَنَسِيَّةَ قرية بَطْرَنَة ، وهي التي كانت فيها الواقعة المشهورة للنصارى على المسلمين ، وفيها يقول أبو إسحاق بن مُعَلَّى الطرسوني ٣ :

لَبِسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَعَى وَلَبِسْتُمْ حُلَلَ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ أَلْوَانَا
مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطْرَنَةِ مَا كَانَ

ومن عمل بِلَنَسِيَّةَ مَنِيْطَة التي نُسب إليها جماعة من العلماء والأدباء .

١ ديوان الرصافي : ١٢٤ نقلا عن النفع .

٢ انظر المغرب ٢ : ٣٥٤ وسيرجم في النفع لأبي الحجاج المنصفي .

٣ إبراهيم بن معل (ق ك: يعل؛ ط : علي الطرسوني) الطرسوني شاعر اشتهر بمدح المقتدر بن هود، وطرسونة بلدة من مدن الثغر (ترجم له في الذخيرة ، القسم الثالث : ٢٦٤ والمغرب ٢ : ٤٥٧) وبيته في الذخيرة : ٢٦٩ قالهما يصف خروج أهل بلنسية للقاء العدو في غير ثياب الحرب، وتدعى هذه بوقمة بطرنة عام ٤٥٥ وقد فصل ابن عذارى فيها القول ٣ : ٢٥٢ .

ومن عمل بِلَنْسِيَّةَ مدينة أُنْدَة التي في جَبَلها معدنُ الحديد ، وأما
رُنْدَة - بالراء - فهي في متوسط الأندلس ، ولها حصن يُعرف بأُنْدَة أيضاً .

• • •

[متفرجات إشبيلية]

وفي إشبيلية - أعادها الله - من المتفرجات والمتزهات كثير ، ومن ذلك
مدينة طَرِيَّانَة ، فإنَّها من مدن إشبيلية ومتزهاتها ، وكذلك تَيْطَل^١ ، فقد ذكر
ابن سعيد جزيرة تَيْطَل^١ في المتفرجات .

• • •

[موسى بن سعيد يأبى فراق الأندلس]

وقال أبو عمران موسى بن سعيد في جوابه لأبي يحيى صاحب سَبْتَة لما
استوزره مستنصر بني عبد المؤمن ، وكتب إلى المذكور يرغبه في النقلة عن الأندلس
إلى مَرَّاكش^٢ ، ما نصَّه محلّ الحاجة منه : وأما ما ذكر سيدي من التخيير بين
ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراکش ، فكفى الفهم العالي من الإشارة
قولُ القائل :

والعزَّ محمودٌ ومَلْتَمَسٌ^٣ وألذُّه ما نيل^٤ في الوَطَن

فلماذا نلت بك السماء في تلك الحضرة ، فعلى مَنْ أسودَّ فيها ؟ ومن ذا
أضاهي بها ؟

لا رَقَتُ بي هِمَّةٌ إن لم أكن فيك قد أملتُ فوق^٥ الأمل

وبعد هذا ، فكيف أفارق الأندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما

١ ط ق ج : قبل - في المومنين -

٢ ك : ما كان .

٣ ك : كل .

حَبَّاهَا اللهُ بِهِ مِنْ اعْتِدَالِ الْهَوَاءِ ، وَعَذُوبَةِ الْمَاءِ ، وَكَثَافَةِ الْأَفْيَاءِ ، وَأَنْ الْإِنْسَانَ لَا يَبْرَحُ فِيهَا بَيْنَ قُرَّةٍ عَيْنٍ وَقَرَّارٍ نَفْسٍ :

هِيَ الْأَرْضُ لَا وَرْدٌ لَدَيْهَا مُكَدَّرٌ^١ وَلَا ظِلٌّ مَقْصُورٌ وَلَا رَوْضٌ مَجْدُبٌ أَفَقٌ صَقِيلٌ ، وَبَسَاطٌ مُدَبَّجٌ ، وَمَاءٌ سَائِحٌ ، وَطَائِرٌ مَتْرَمٌ بَلِيلٌ ، وَكَيْفَ يَعْدِلُ الْأَدِيبُ عَنْ أَرْضٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ؟ فَيَا سَمَوَّالَ الْوَفَاءِ ، وَيَا حَاتِمَ السَّمَاحِ ، وَيَا جَذِيْمَةَ الصِّفَاءِ ، كَمَلْ^٢ لِمَنْ أَمْلَكَ النِّعْمَةَ بِتَرْكِهِ فِي مَوْطِنِهِ ، غَيْرَ مُكَدَّرٍ لِحَاطِرِهِ بِالتَّحْرُكِ مِنْ مَعْدِنِهِ ، مُلْتَفِتًا إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ^١ :

وَسَوَّلْتُ لِي نَفْسِي أَنْ أَفَارِقَهَا وَالْمَاءُ فِي الْمَزْنِ أَصْفَى مِنْهُ فِي الْغَدْرِ
فَإِنْ أَغْنَاهُ اهْتِمَامُ مَوْطِنِهِ عَنْ ارْتِيَادِ الْمَرَادِ ، وَبَلَغَهُ دُونَ أَنْ يَشْدَ قَتَبًا وَلَا أَنْ يُنْضِي عَيْسًا غَايَةَ الْمُرَادِ ، أَنْشُدْ نَاجِحَ الْمَرْغُوبِ ، بِالْغِ الْمَطْلُوبِ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ
وَرَبَّ قَائِلٍ إِذَا سَمِعَ هَذَا التَّبَسُّطَ عَلَى الْأَمَانِي : مَا لَهُ تَشْطُّطٌ ، وَعَدْلٌ عَنْ سَبِيلِ التَّأْدَبِ وَتَبَسُّطٌ ؟ وَلَا جَوَابَ عِنْدِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

فَهَذِهِ خُطَّةٌ مَا زِلْتُ أَرْقُبُهَا فَالْيَوْمَ أَبْسُطُ آمَالِي وَأَحْتَكُمُ
وَمَا لِي لَا أَنْشُدُ مَا قَالَهُ الْمُتَنَبِّي فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ^٢ :

وَمَنْ كُنْتُ بِخَيْرِ آلِهِ يَا عَلِيَّ لَمْ يَقْبَلِ الدَّرَّ إِلَّا كِبَارًا

انتهى المقصود منه .

• • •

١ هذا البيت من شعر الأعمى الطليل يقول في إزماعه مفارقة لإشبيلية . (انظر ديوانه : ٤٩) .

٢ شرح الواحدي : ٥١٣ .

[شريش ومجبناتها]

وقال الحجاري : إن مدينة شريش^١ بنت إشبيلية ، وواديها ابن واديها ، ما أشبه سعدى بسعيد ، وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها همم ، وظرف في اللباس ، وإظهار الرفاهية ، وتخلق بالآداب ، ولا تكاد ترى بها إلا عاشقاً ومعشوقاً ، ولها من الفواكه ما يعم ويفضل ، ومما اقتصت به إحسان الصنعة في المجبنات ، وطيبُ جنبها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم ، انتهى .
(والمجبنات : نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجبتها ، وتقلي بالزيت الطيب)^٢ .

[شلب وكورة أكشونة]

وفي شلب^٣ يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو^٤ بن مالك بن سيدمير :

أشجالك النسيمُ حين يهُبُّ أم ستنى البرقِ إذ يحُبُّ ويخبُو
أم هتوفُ على الأراكة تشدُو أم هتونُ من الغمامة سكبُ
كلُّ هذالك للصبا داعٍ أيُّ صبٍّ دموعه لا تصبُّ
أنا لولا النسيمُ والبرقُ والورُ في وصوب الغمام ما كنتُ أصبو
ذكرتني شلباً وهيات مني بعدما استحکم التباعدُ شلبُ

وتسمى أعمال شلب كورة أكشونة ، وهي متصلة بكورة أشبونة ، وهي - أعني أكشونة - قاعدة جليلة ، لها مدن ومعازل ، ودار ملكها قاعدة شلب ،

١ شريش (Jerez) إلى الجنوب الشرقي من بطليوس ، وتشتهر اليوم بنبيذها .

٢ والمجبنات ... الطيب : سقطت من ق ط ج .

٣ شلب (Silves) قاعدة كورة أكشونة ، وهي في البرتغال الحالية .

٤ في ج : أبو عمر ؛ والأبيات في « المقتطفات » : ٤٣ .

وبينها وبين قرطبة سبعة أيام ، ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراکش أضافوها إلى كورة إشبيلية ، وتفتخر شلب بكون ذي الوزارتين ابن عمّار منها^١ ،
سأحه الله .

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران ، وربما قيل « ابن بدرون »^٢
الأديب المشهور ، شارح قصيدة ابن عبّادون التي أولها^٣ :

الدَّهْرُ يَنْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد الشرقية ، ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله :

الْعِشْقُ لَدَتْهُ التَّعْنِيقُ وَالْقَبْلُ كَمَا مُنْعَصُهُ التَّرِيبُ وَالْمَذَلُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَقْضَى وَصَالِكُمْ لَوْلَا الْمُنَى لَمْ يَكُنْ ذَا الْعَمْرِ يُتَصِلُ

ومنها نحوي زمانه وعلامته أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي^٤ ،
فإن شلباً بيّضته ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما في الذخيرة ، وهو القائل :

إِذَا سَأَلُونِي عَنْ حَالِي وَحَاوَلْتَ عُدْرَ أَفْلَمَ يُمْكِنُ
أَقُولُ : بِخَيْرٍ ، وَلَكِنَّهُ كَلَامٌ يَدُورُ عَلَى الْأَلْسِنِ
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ

• • •

١ ابن عسار من شقبوس وهي قرية صغيرة من قرى شلب . راجع ترجمة ابن عسار في المغرب ٢ : ٣٨٩ والهاشية .

٢ ق : ابن زيهون - في الموضعين - وهو خطأ واضح .

٣ أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي ، كان كاتباً بليغاً من أهل البناية النامة بالأدب تاريخياً ، توفي ببلده بعد سنة ٦٠٨ (ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٢١ والتكملة رقم : ١٧٢٧ والتحفة : ١٠٨ وشرحه لقصيدة ابن بدرون هو « كمأة الزهر وصدقة العور » نشره دوزي بليدن عام ١٨٦٠ ثم نشر بمصر سنة ١٣٤٠ ، أما ابن عبدون فهو شاعر بني الأظف الذي رثاهم هذه القصيدة وهو من يابرة . (انظر المغرب ١ : ٣٧٤ والهاشية في مصادر ترجمته) .

٤ ابن السيد البطليوسي (- ٥٢١) نسب إلى بطليوس لأنه لازمها كثيراً . انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٨٥ والهاشية ؛ وأبياته التالية في المغرب ١ : ٣٨٦ .

[أشعار في بطليوس وشاطبة وبرجة]

وقال الوزير أبو عمرو بن الفلاس^١ يمدح بَطْلَيْوَسَ بقوله :

بطليوسُ لا أنساكَ ما اتَّصلَ البعدُ فله غَوْرٌ في جنابك أو نجدُ
ولله دوحاتٌ تحفُّكِ بينها تفجَّرَ واديا كما شَقَّقَ البردُ

وبنو الفلاس من أعيان حضرة بَطْلَيْوَسَ ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ،
وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى .
وفي شاطبة يقول بعضهم^٢ :

نِعْمَ مَلَقَى الرَّحْلِ شَاطِبَةَ لِفَتَى طالت به الرَّحْلُ
بَلْدَةَ أوقاتها سَحَرٌ وَصَبًا في ذيلِهِ بَلَلُ
وَنَسِيمٌ عَرَفَهُ أَرَجٌ ورياضٌ غصنها ثَمِلُ
وَوُجُوهُ كُلُّهَا غُرُرٌ وكلامٌ كلُّه مثلُ

وفي بَرَجَةِ يقول بعضهم :

إذا جئتَ بَرَجَةَ مُسْتَوْفِزاً فخذُ في المُقامِ وخَلِّ السَّفَرُ
فكلُّ مكانٍ بها جَنَّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرُ

وقد تقدّم هذان البيتان^٣ .

* * *

[رسالة للسان الدين في تفضيل الجهاد على الحج]

واعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد

١ المغرب ١ : ٣٦٣ وانظر ترجمة ابن الفلاس في الذخيرة (القسم الثالث : ١٣٩) وفي ك : الفلاس ،

٢ بعض هذه الأبيات في « المقتطفات » : ٤٣ .

٣ انظر ص : ١٥١ فيما تقدم ، والبيت الأول لم يرد هناك .

لكان كافياً ، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه
 إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك ، ما نصّه : من أمير المسلمين
 فلان ، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا ، وصَلَّ الله له سعادةً تَجْدِبُهُ ، وعنايةً
 إليه تَقْرِبُهُ ، وقبولاً منه يدعوه إلى خير ما عند الله ويندبه ، سلام كريم عليكم
 ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله المرشد المثيب ، السميع المجيب ، معوّد
 اللطف الخفي والصنع العجيب ، المتكفل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ،
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ذي القدر الرفيع والعز المنيع
 والجناب الرحيب ، الذي به نرجو ظهور عبدة الله على عبدة الصليب ،
 ونستظهر منه على العدو بالحبيب ، ونَعُدُّهُ عُدَّتَنَا لليوم العَصِيب ، والرضا عن
 آله وصحبه الذين فازوا من مُشاهدته بأوفى النصيب ، ورمّوا إلى هَدَفِ مرضاته
 بالسَّهْمِ الْمُصِيب ، فإنّا كتبناه إليكم - كَتَبَ الله تعالى لكم عملاً صالحاً
 يحتمُّ الجهادُ صحائفَ بره ، وتمحّضُ لأن تكون كلمة الله هي العليا جوامعُ
 أمره ، وجعلكم ممن تمّنى في الأرض التي فتح فيها أبواب الجنة حصّةً عمره -
 من حمراء غرناطة - حرسها الله تعالى - ولطفُ الله هامي السحاب ، وصنعه
 رائق الجناب ، والله يُصِلُّ لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه عند انبثات الأسباب ،
 وإلى هذا أيها المولى^٢ الذي هو بركة المغرب المشار إليه بالبتان ، وواحد في رفعة
 الشأن ، المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان ، المتقلل من المتاع القان ،
 المستشرف إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والإيمان والإحسان ، فإنّنا لما
 نؤثره من بركم الذي نَعُدُّهُ من الأمر الأكيد ، ونضمّره من ودكم الذي نخلّه^٣
 محل الكثر العتيد ، ونلتسمه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لا نزال نسأل

١ ك : مدة .

٢ ق ج : الولي .

٣ ق ج : محله .

عن أحوالكم التي ترقّت في أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحقّ بهجر العادة ،
والقّت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة ، ففسّر بما هيا الله تعالى لكم من
القبول ، وبلغكم من المأمول ، وأهملكم من الكلّف بالقرب إليه والوصول ،
والفوز بما لديه والحصول . وعندما رد الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل ، وأنالنا
فضله الجزيل ، وكان لثارتنا المُقيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ،
ومحلّكم من حسن اعتقادنا ، ووجّهنا إلى وجهة دعائكم وجّه اعتدادنا ، والله
ينفعا بجميل الظن في دينكم المتين ، وفَضْلُكم المبين ، ويجمع الشّمل بكم في
الجهاد عن الدين . وتعرّفنا الآن ممّن له بأنابناكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمد^١
وثناء ، ولجناب ودّكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول عزمكم بين حجّ مبرور ترغّبون
من أجره في ازدياد ، وتجددون العهد منه بأليف اعتياد ، وبين رباط في سبيل
الله وجهاد ، وتوثير مهادين ربّي أثره عند الله ووهاد ، يُحشّرُ يوم القيامة
شهاداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ، فَرَحِينِ بما آتاهمُ
الله من فَضْلِهِ ، والله أصدقُ القائلين^٢ الصادقين ، حيث لا غارة لغير عدوِّ
الإسلام تُنقّي ، إلّا لا ابتغاء ما لدى الله تُرتقي ، حيث رحمة الله قد فتحت
أبوابها ، وحورُ الجنان قد زينت أترابها ، دار العرب الذين قرّعوا باب الفتح ،
وفازوا بجزيل المنّح ، وخلدوا الآثار ، وأرغموا الكفار ، وأقالوا العِثار ،
وأخذوا الثار ، وأمنوا من لَفَح جهنم بما علا على وجوههم من ذلك الغبار ،
فكُتِبنا إليكم هذا نقوي بصيرتكم على جهة الجهاد من العزميين ، ونهيب بكم إلى
إحدى الحُسنيين ، والصبحُ غير خافٍ على ذي عَيْنَيْن ، والفضلُ ظاهر لإحدى
المتزلّتين ، فإنكم إذا حَجَجْتُم أعدتُم فرضاً أديتموه ، وفضلاً ارتدّ يَتُمّوه ،
فائدتهُ عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة ، وإذا أقمتُم الجهاد جلبتم إلى

١ القائلين : سقطت من ط ج ق .

٢ ك : فإنكم إن .

حسناتكم عملاً غريباً ، واستأنقتمُ سعياً من الله قريباً ، وتعدتُ المنفعة إلى
 ألوف من النفوس ، المستشعرة لباس البؤس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى
 عليكم فضله لأطنّبنا ، وأعينة الاستدلال أرسلنا ، هذا لو قدمتم على هذا الوطن
 وفضلكم غفل من الاشتهار ، ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ، فكيف
 وفضلكم أشهر من محبّ النّهار ، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ، فإن
 قوّي عزمكم والله يقوّيه ، ويعيننا من برّكم على ما ننشّويه ، فالبلاد بلادكم ،
 وما فيها طريفكم وتلادكم ، وكهولها إخوانكم ، وأحداها أولادكم ، ونرجو
 أن تجلدوا لذكركم الله في ربّاه حلاوة زائدة ، ولا تعدموا من رّوح الله فيها
 فائدة ، وتكيّف نفسك فيها تكيّفات تقصر عنها خلوات السلوك ، إلى ملك
 الملوك ، حتى تغتبطوا بفضل الله الذي يوليكم ، وتروا أثر رحمته فيكم ،
 وتخلّفوا فخر هذا الانقطاع إلى الله في قبيلكم وبنيتكم ، وتختّموا العمر الطيب
 بالجهاد الذي يُعليكم ، ومن الله تعالى يُدنيكم ، فنيبكم الغربيّ صلوات الله عليه
 وسلامه نبيّ الرحمة والملاحم ، ومُعَمِّل الصّوارم ، وبيّهاد القرنج ختم
 عمل جهاده والأعمال بالحواتم ، هذا على بعد بلادهم من بلاده ، وأنتم أحقّ
 الناس باقتضاء جهاده ، والاستباق إلى آماده ، هذا ما عندنا حشّناكم عليه ، وندبناكم
 إليه ، وأنتم في إثّار هذا الجوار ، ومُقارضة ما عندنا بقدمكم على بلادنا من
 الاستبشار ، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار ، وتصريف الليل
 والنهار ، وتقلب القلوب وإجالة الأفكار ، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند
 الله خير للأبرار ، والدار الآخرة دار القرار ، وخير الأعمال عمل أوصل إلى
 الجنة وباعد من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطّلاع ، بهذه
 الأرجاء والأصقاع ، قد اتفقت أخبارها ، واتحدت أسرارها ، على البشارة
 بفتح قُرب أوانه ، وأظللّ زمانه ، فنرجو الله أن تكونوا ممّن يحضر مدعاه ،

ويكرم فيه مَسْنَاه ، ويسلف فيه العمل الذي يشكره الله ويرعاه ، والسلام
الكريم يَخَصِّكم ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

* * *

[تشبيه الأندلس بالعقاب]

ولما دخل الأندلس أميرُ المسلمين عليّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين
اللمتُوني ملك المغرب والأندلس ، وأمعن النظر فيها ، وتأمل وصفها وحالها ،
قال : إنها تُشبه عقاباً مَخَالِبُهُ طُلَيْطَلَةٌ ، وصَدْرُهُ قلعة رَبَاح ، ورأسه جَيَّان ،
ومنقاره غَرْنَاطَةٌ ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط
إلى المشرق ، في خبر طويل لم يحضرني الآن ، إذ تركته مع كُتُبِي بالمغرب ، جمعي
الله بها على أحسن الأحوال .

* * *

[المخزومي الأعمى ونزهون الغرناطية]

ومع كون أهل الأندلس سُبَّاقَ حَلْبَةِ الجهاد ، مُهْطِعِينَ إلى داعيه من
الجبال والوهاد ، فكان لهم في التَّرفِ والنَّعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف
الهجاء محلٌّ وَثِيرُ المهاد ، وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره
ما يشفي ويكفي ، ولكن سنَح لي أن أذكر هنا حكاية أبي بكر المخزومي الهَجَّاء
المشهور الذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة^١ : إنّه كان أعمى شديد
الشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكي الذهن ،
فطناً للمعارض ، سابقاً في ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره . والحكاية هي
ما حكاه أبو الحسن ابن سعيد في الطالع السعيد ، إذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن :
قدم المذكورُ - يعني المخزومي - على غَرْنَاطَةِ أيامَ ولاية أبي بكر ابن سعيد ،

١ الإحاطة ١ : ٤٣٢ - ٤٣٥ .

ونزل قريباً مني ، وكنت أسمع به بنار صاعقة يرسلها الله على مَنْ يشاء من عباده ،
ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانياً للمعرّي	في حُسْنِ نَظْمٍ وَثَرٍ
وَفَرَطِ ظَرْفٍ وَثُبُلٍ	وَعَوُصِ فَهْمٍ وَفِكْرِ
صِلْ ثُمَّ وَأَصِلْ حَفِيّاً	بِكُلِّ بَرٍّ وَشُكْرِ
وَلَيْسَ إِلَّا حَدِيثٌ	كَمَا وَهِيَ عَقْدُ دُرٍّ
وَشَادِنٌ يَتَغَنَّى	عَلَى رَبَابٍ وَزَمَرٍ
وَمَا يُسَامِحُ فِيهِ إِلَّا	غَفُورٌ مِنْ كَأْسِ خَمَرٍ
وَبَيْنَنَا عَهْدٌ خَلْفٍ	لِيَأْسِرَ حَلْفَ كَفَرٍ
نَعَمْ فَجَدَّدَهُ عَهْداً	بَطِيبِ سُكَّرٍ وَيُسْرِ
وَالكَأْسُ مِثْلُ رِضَاغٍ	وَمَنْ كَثَلِكَ يَدْرِي

ووجه له الوزير أبو بكر^٣ ابن سعيد عبداً صغيراً قاده ، فلما استقر
به المجلس ، وأفعمته روائح الندّ والعود والأزهار ، وهزت عطفه الأوتار ، قال :

دارُ السَّعِيدِيّ ذِي أُمِّ دَارٍ رِضْوَانٍ	مَا تَشْتَهِي النَفْسُ فِيهَا حَاضِرٌ دَانِي
سَقَتْ أَبَارِيقَهَا لِلنَّدِّ سَحْبُ نَدَى	تُحْدِي بِرَعْدٍ لَأُوتَارٍ وَعِيدَانٍ
وَالْبَرْقُ مِنْ كُلِّ دَنٍّ سَاكِبٌ مَطَرًا	يَحْيَا بِهِ مَيِّتُ أَفْكَارٍ وَأَشْجَانٍ
هَذَا النِّعِيمُ الَّذِي كُنَّا نُحَدِّثُهُ	وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَّا بِأَذَانٍ

فقال له أبو بكر ابن سعيد : وإلى الآن لا سبيل له إلا بأذان ؟ فقال : حتى

١ ق والإحاطة : بكل شكر وبر .

٢ في النسخ : شكر . دوزي : فقم نجدده .

٣ أبو بكر : سقطت من ق .

٤ ق ط ج : وألحان .

يبعث الله ولد زني كلما أنشدت هذه الأبيات قال : إنَّ قائلها أعمى ، فقال : أمّا أنا فما أنطق بحرف ، فقال : مَنْ صمت نجا . وكانت نزهون بنت القيلاعي حاضرة فقالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ندّ وغناء وشراب ، فتعجب من تأتبه وتشبهه بنعيم الجنة ، وتقول : ما كان يعلم إلاّ بالسماع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ؟ ولكن مَنْ يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى^١ ، فقالت له : ذبحة ، فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت : عجوز مقام أمك ، فقال : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هذه نعمة قحبة محترقة تشم روائح منها على فرسخ ، فقال له أبو بكر : يا أستاذ ، هذه نزهون بنت القيلاعي الشاعرة الأدبية ، فقال : سمعت بها ، لا أسمعها الله خيراً ، ولا أراها إلاّ أيراً . فقالت له : يا شيع سوء تناقضت ، وأي خير للمرأة مثل ما ذكرت ؟ ففكر ساعة ثم قال :

على وجه نزهون من الحسن مسنحة^٢ وإن كان قدّ أمني من الضوء عاريا
قواصيد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأملت فكرها ثم قالت :

قل للوضيع مقالا	بثلى إلى حين يحشر
من المدور أنشد	ت والجرأ منه أعطر
حيث الهداة أمنت	في مشيها تتبختر
لذلك أمنت صبا	بكل شيء مدور
خلفت أعمى ولكن	تهيم في كل أعور
جازيت شعرا بشعر	قل لعمرى من أشعر

١ الأعمى : سقطت من ك .

إن كنتُ في الخلق أنثى فإنَّ شعري مُذكرٌ

فقال لها اسمعي :

ألا قلْ لنزهونة ما لها تجرُّ من التيه أذيالها
ولو أبصرت فيشة شمرت — كما عودتني — سيربها

فحلف أبو بكر ابن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجوه كلمة ،
فقال المخزومي : أكون هجاء الأندلس وأكف عنها دون شيء ؟ فقال : أنا
أشتري منك عرضها فاطلب ، فقال : بالعبد الذي أرسلته فقادني إلى منزلك ،
فإنه لين اليد رقيق المشي ، فقال أبو بكر : لولا كونه صغيراً كنت أبلغك به
مرادك ، وأمه لك ، ففهم قصده وقال : أصبر عليه حتى يكبر ، ولو كان كبيراً
ما آثرني به على نفسك ! فضحك أبو بكر ، وقال : إن لم تهجُ نظماً هجوت نثراً ،
فقال : أيها الوزير لا تبديل لخلق الله . وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح
الوزير بينه وبين نزهون ، انتهى .

وفي كتاب « الدر المنضد » في وفيات أعيان أمة محمد « تأليف الأمير صارم
الدين إبراهيم بن دقماق ^١ ، قال أبو القاسم بن خلف : كان — يعني المخزومي
المذكور — حياً بعد الأربعين وخمسمائة ، انتهى .

• • •

[قصة استطراذية]

ونقلت من كتاب « قطب السرور » ^٢ لابن الرقيق المغربي ، ما ملخصه ^٣ :

١ إبراهيم بن محمد بن أيمن بن دقماق القاهري صارم الدين (- ٨٠٩) مؤرخ مصر ، كان
مكثراً من التأليف في التاريخ ، وهو صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » في تاريخ
مصر (الضوء اللامع ١ : ١٤٥) ؛ وفي ك : الإمام صارم الدين .

٢ قطب السرور في وصف الأئمة والخمور . (انظر تكملة بروكلمان ١ : ٢٥٢ ومنه جزء بخزانة
الرباط) .

٣ ورد النص في « المقتطفات » : ٤٣ وما بعدها .

وممن أدركته وعاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، وذكرته هنا لأنه ملحق بالأمرء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم ، بل كان واحد عصره في الغناء الرائع ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، وإصابة النادر ، والتشبيه المصيب ، والبديهة التي لا يُلْحَقُ فيها ؛ مع شرف النفس ، وعلوَّ الهمة ، وكان قد قطع عمره ، وأفتى دهره ، في اللهو واللعب ، والفكاهة والطرب ، وكان أعلم الناس بضرب العود ، واختلاف طرائقه ، وصناعة اللحون ، وكثيراً ما يقول المعاني اللطيفة في الأبيات الحسنة ، ويَصُوغُ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة ، اختراعاً منه وحيداً ، وكانت له في ذلك قريحة وطبع ، وكان إذا لم يَزُرْهُ أحد من إخوانه أحضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وبعض غلمانه ، وكلهم يُغَنِّي فيجيد ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم ، وكان بشارة الزامر الذي يزمر عليه من حُذَّاق زمرة المشرق ؛ وكان بعيداً الهمة سَمَحاً بما يجد ، تُغِلُّ عليه ضياعه كل عام أموالاً جليلة ، فلا تحولُ السنةُ حتى ينفدَ جميعُ ذلك ويستسلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنٍّ إلا سأل من يقصد بهذا الشأن ، فيدل عليه ، فمن وصلته منهم استقبله بصنوف البر والإكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ولم يدعه إلى أحد من الناس ، فلا يزال معه في صَبُوح وغَبُوق ، وهو مُجَدِّد له كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع ما معه من صَوْتٍ مُطْرِبٍ أو حكاية نادرة .

وجلس يوماً وقد زاره رجلان من إخوانه ، وحضر أقرباؤه ، فَطَعِمُوا وشربوا وأخذوا في الغناء ، فارتجَّ المجلس ، إذ دخل عليه بعض غِلْمَانِه فقال : بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ، ذكر أنه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل أسمر سِنَاط^١ ، رث الهيئة ، فسَلَّمَ عليه ، قال : أين بلد الرجل ؟

١ سِنَاط : ليس في عارضيه شعر .

قال : البصرة ، فرحب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان في صُفَّة ،
وأُتي بطعام فأكل وسقي أقداحاً ، ودار الغناء في المجلس ، حتى انتهى إلى
آخرهم ، فلما سكتوا اندفع يغني بصوت ندي وطبع حسن :

ألا يا دارُ ما الهجرُ لِسُكَّانِكَ مِنْ شَانِي
سَقَيْتِ الْغَيْثَ مِنْ دَارٍ وَإِنْ هَيَّجَتْ أَشْجَانِي
وَلَوْ شِئْتُ لَمَا اسْتَسْقَيْتُ غَيْثًا غَيْرَ أَجْفَانِي
بِنَفْسِي حَلَّ أَهْلُوكِ وَإِنْ بَانُوا بِيَسْلُوانِي
وَمَا الدَّهْرُ بِمَأْمُونٍ عَلَى تَشْتِيتِ خِلَائِي

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الخدق في إشارته ، والطيب في طبعه ،
وقال : يا غلام ، خذ بيده إلى الحمام ، وعجل عليَّ به ، فأدخل الحمام ، ونظف ،
ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ورفعها فأجلسه عن يساره ،
وأقبل عليه وبسطه ، فغنى له :

قومي امزجي التبر باللَّجَيْنِ واحتملي الرطل باليَدَيْنِ
واغتنمي غفلةً اللَّيَالِي فربُّمَا أَيْقَظَتْ لِحَيْنِ
فَقَدْ لَعَمَرِي أَقْرَ مِنَّا هِلَالُ شَوَّالٍ كُلِّ عَيْنِ
ذاتُ الْخِلَاحِيلِ أَبْصَرَتْهُ كَنِصْفِ خَلْخَالِهَا اللَّجَيْنِ

فطرب وشرب ، واستزاده ، فغنَّاه :

مَنْ لِي عَلَى رَغَمِ الْحُسُودِ بِقَهْوَةٍ بِكِرٍ رَبِيبَةٍ حَانَةِ عَذْرَاءِ
مَوْجٍ مِنَ الذَّهَبِ الْمَذَابِ تَضُمُهُ كَأْسُ كَفْشَرِ الدَّرَّةِ الْبَيْضَاءِ
وَالنَّجْمُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ عَيْنٌ تَخَالَسُ غَفْلَةَ الرُّقْبَاءِ

فشرب عبد الوهاب ثم قال : زدني ، فغنَّاه :

وَأَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ عَيْنِي بِمَائِهَا وَعَلَّمْتَهَا بِالْهَجْرِ أَنْ تَهْجُرَ الْغُمُضَا
وَأَغْرَقْتَهَا بِالْدمْعِ حَتَّى جَفُونُهَا لَيْسُنْكِ مِنْ فَقْدِ الْكُرَى بَعْضُهَا بَعْضَا

فمرَّ يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله وأحسن إليه ، ولم يزل عنده
مُقَرَّبًا مكرَّمًا ، وكان خليعًا ماجنًا مشتهرًا بالنيبذ ، فخلَّاهُ وما أحبَّ ، ثمَّ
وصف له الأندلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها ، وعلى
نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ بطرأ من المشرق ، ولو ذكرتهم ل طال بهم
الكتاب ، انتهى .

وغرضي من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقي الأندلس وطيبها ،
وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، والله المستول في حسن المتاب .

• • •

[قصر باديس بغرناطة]

ورأيت في بعض كتب تاريخ الأندلس في ترجمة السلطان باديس الصنهاجيّ
صاحب غرناطة ، ما نصّه : وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالقة ، وكان أفرس
الناس وأنبأهم ، ذا مروءة ونجدة ، وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام
والكفر مثله ، فيما قيل ، انتهى .

وهذا القصر هو الذي عناه لسان الدين بن الخطيب في قصيدته السينية المذكورة
في الباب الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب ، فلترجع ثمة .

• • •

[سرقسطة وخواصها]

وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سَرَقُسْطَة لا يدخلها
الثعبان من قبل نفسه ، وإذا أدخله أحد لم يتحرك ، ونظيرُ هذا المعنى في بعض
الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير ، وذلك برصد أو طليسم ، وقد استطرد
بعض علماء أصول الدين ذلك عندما تكلموا على السحر حسبما قرّر في محله ،

والله أعلم .

هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشاركة ، والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب في سرقسطة^١ أنها لا تدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيات والعقارب إليها حية فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت ، قال : ولا يتسوس فيها شيء من الطعام ولا يعفن ، ويوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والإجاص اليابسة من أربعة أعوام ، والفول والحمص من عشرين سنة ، ولا يسوس فيها خشب ولا ثوب صوفاً كان أو حريراً أو كتّاناً ، وليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعاماً ، ولا أكبر جرماً ، والبساتين مُحَدِّقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة : مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلاً ، وهي تضاهي مدن العراق في كثرة الأشجار والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم ، وقد أسلفنا ذكرها .

* * *

[السمور بالأندلس]

واعلم أن بأرض الأندلس من الخِصْب والنَّضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد مجموعُه غالباً في غيرها ، فمن ذلك ما ذكره الحجاري في المسهب : أن السمور الذي يُعمل من وبره الفراء الرفيعة يُوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويُجلب إلى سرقسطة ويُصنع بها . ولما ذكر ابنُ غالب وبر السمور الذي يُصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتُحقق ما هو ، ولا ما غني به ، إن كان هو نباتاً عندهم أو وبر الدابة المعروفة ، فإن كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون في البحر ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوة مَيِّز . وقال حامد بن سمجون الطبيب صاحب كتاب الأدوية

١ انظر مخطوطة الرباط : ٦٢ .

المفردة^١ : هو حيوان يكون في بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا إلى خُصّاه ، فيخرج الحيوان من البحر في البر ، فيؤخذ وتقطع خُصّاه ، ويطلق ، فربّما عرض للقنّاصين مرّة أخرى^٢ ، فإذا أحسّ بهم وخشي أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفرّج بين فخذه ليُرى موضع خُصّيه خالياً ، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه ، قال ابن غالب : ويسمى هذا الحيوان أيضاً الجندبادستر^٣ ، والدواء الذي يُصنّع من خُصّيه من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته في العلل الباردة ، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة .

* * *

[فراء القنلية]

والقنلية^٤ حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعم وأحسن وبراً ، وكثيراً ما تُلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد في برّ البربر إلا ما جُلب منها إلى سبّنة فنشأ في جوانبها ، قال ابن سعيد : وقد جُلبت في هذه المدّة إلى تونس حضرة إفريقية .

* * *

[سائر حيواناتها وطورها]

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك ممّا يوجد في غيرها كثير^٥ ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة

١ أبو بكر حامد بن سمجون (- ٣٩٢) طبيب أندلسي ، متميز في قوى الأدوية المفردة وكتابه فيها كان مشهوراً بالجودة وقد بالغ فيه وأجهد نفسه في تأليفه ، وقد كتبه المنصور بن أبي عامر . (انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥١ - ٥٢) .

٢ ق : ثانية .

٣ الجندبادستر : حيوان كهية الكلب ويسمى القنذر ، ويسمى السمور أيضاً ، وهو على هيئة الثعلب أحمر اللون وذنبه طويل (الدميري ١ : ٢٤٣ ونخبة الدهر : ١٤٧) .

٤ شبيه بالأرنب ويسمى بالإيطالية (Coniglio) . وفي ط : القنلية .

٥ ك : مما لا يوجد . . . كثيراً .

وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة ، ولها سَبْعُ يُعرف باللب^١ أكبر بقليل من الذهب في نهاية من القِحة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً .
وبغال^٢ الأندلس فارمة ، وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البر^٣ الجنوبي .
ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر ، ودواب^٤ بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض .
قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب ، والمسافرون في البحر يخافون منها لثلاث ثقلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط .

. . .

[أنواع الأفاويه فيها]

وقال ابن سعيد : قال المسعودي في « مروج الذهب » : في الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفاً : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل ، والقرفة ، وقصب الذريرة ، وغير ذلك .
وذكر ابن غالب أن المسعودي قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها من أرض الهند ، إلا الزعفران والعنبر ، فإنهما موجودان في أرض الأندلس ، ويوجد العنبر في أرض الشحر .
قال ابن سعيد : وقد تكلموا في أصل العنبر^٢ ، فذكر بعضهم أنه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجاري : ومنهم من قال : إنه نبات في قعر البحر .
وقد تقدم قول الرازي إن المحلب — وهو المقدم في الأفاويه ، والمفضل في

١ هو ما يسمى بالإسبانية (Lobo) وباللاتينية (Lupus) ، وقد أطلق الاسم علماً على كثير من الرجال المترجم بهم في كتب التراجم الأندلسية .

٢ انظر مختلف الأقاويل في أصل العنبر في ابن البيطار ٣ : ١٣٤ .

أنواع الأشنان — لا يوجد في شيء من الأرض إلا بالهند والأندلس .
قال ابن سعيد : وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت
بروائح العود وما أشبهه ، وفي جبل شلير أفاويه هندية .

* * *

[ثمارها وفواكهها]

قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ،
ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ، المعلومان^١ في الأقاليم الباردة ، ولا
يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل^٢ ، كالتين
القططي والثين الشعري^٣ بإشبيلية .

قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من
الأندلس ما يفضلهما ، وكذلك التين المالتقي والزبيب المنكبي^٤ والزبيب العسلي^٥
والرمان السفري^٦ والحوخ والحوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

* * *

[معادنها وأحجارها وقرمزها]

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ،
وأنتها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس
في جهة شنت ياقوه قاعدة الجلالة على البحر المحيط ، وفي جهة قرطبة الفضة
والزئبق ، والنحاس في شمال الأندلس كثير ، والصفر الذي يكاد يشبه الذهب ،
وغیر ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها .

١ ك : ويوجدان .

٢ ك : السفري .

٣ الرمان السفري : حدث الحفني (قضاة قرطبة) : ٣٢ كيف دخل الأندلس ، وقال إن الذي
زرعه رجل اسمه «سفر» ، وهذا الرمان يعرف بالإسبانية باسم (Zafari) وسيحدث عنه
المقري بتفصيل في الباب الرابع .

والعينُ التي يخرج منها الزجاج في لبلة مشهورة ، وهو كثير مفضل في البلاد منسوب ، ويجبل طليطلة جبل الطَّفْل الذي يجهز إلى البلاد ، ويفضل على كل طقل بالشرق والمغرب .

وبالأندلس عدة مقاطع للرخام ، وذكر الرازي أن يجبل قُرْطُبَة مقاطع الرخام الأبيض الناصع^١ والحمري ، وفي ناشرة^٢ مقطع عجيب للعمود ، وبياعه من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة مؤشاة في حمرة وصفرة ، وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك والمجزع . وحصى المريّة يحمل إلى البلاد فإنه كالدر في رونقه ، وله ألوان عجيبة ، ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء .

وفي الأندلس من الأمان التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر البَلُوط فيجمعه الناس من الشّعرا ويصبغون به ، فيخرج منه اللون الأحمر الذي لا تفوقه حمرة .



[مصنوعات]

قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المريّة ومالقة^١ ومُرْسِيَة بالوشى^٢ المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفي تنثالة^٣ من عمل مُرْسِيَة تُعمل البُسْط التي يُغالى في ثمنها بالشرق ، ويُصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يُعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة ، ويُصنع في مُرْسِيَة من الأسيرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصّفَر والحديد من السكاكين والأقماص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس

١ ك : الناصع اللون .

٢ ك : بالموشى .

والجنديّ ما يَبْهَرُ العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها .
ويُصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويُصنع
بالأندلس نوع من المِفْصَص^١ المعروف في المشرق بالفُسَيْفَسَاء ونوع يبسط به
قاعات ديارهم يُعرف بالزُلْجِي^٢ يشبه المِفْصَص ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه
مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان ،
وما يجري مجراه .

. . .

[الأسلحة]

وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسرّوج والألجم^٣ والدروع
والمغافر فأكثر هم أهل الأندلس - فيما حكى ابنُ سعيد - كانت مصروفة
إلى هذا الشأن ، ويُصنع منها في بلاد الكفر ما يبهز العقول ، قال : والسيوف
البرذليات مشهورة بالجوذة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس^٤ من جهة الشمال
والمشرق ، والفولاذ الذي بإشبيلية إليه النهاية ، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع
ما يطول ذكره .

. . .

[الآثار الأولية بالأندلس]

وقد أفرد ابنُ غالب في « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التي بالأندلس من
كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحي
التي بِطَرَكُونَة على وزن لطيف وتديير محكم حتى طحنت به ، وذلك من
أعجب ما صنع . ومن ذلك ما صنعه الأول أيضاً من جلب الماء في البحر المحيط

١ ك : المِفْصَص .

٢ هو ما يسمى بالإسبانية : (Azulejo) ؛ وفي ق : بالزُلْجِي ، وهو خطأ .

٣ ج : واللجم .

٤ ق ط ج : آخر الأندلس .

إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام ، جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوّف ذكراً في أنثى وشقّوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنّوا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجّعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بني له رصيف وأجري عليه ، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر ، ثمّ دخل به في البحر ، وأخرج في جزيرة قادس ، والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهر بيّن ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس^١ ، قال في بعض أخبار رومية : إنّه لما ولي يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتدريج الأرض وتكسيها ، كان ابتدأه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثمّ بدأ بفرش المبلّطة^٢ ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثمّ ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة إلى شقنّدة إلى إستيجّة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنّه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثمّ توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض وتغييراً للطرق^٣ عند انتشار اللصوص وأهل الشرّ فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه . وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مربيطر .

قال ابن سعيد : وفي الأندلس عجائب ، منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها ، فإن خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من

١ ومنها . . . بالأندلس : سقطت من ق .

٢ ك : المبلّطة .

٣ ق : للطريق .

يَشْهَدُ بِخبرها ورؤيتها ، وهم جمٌ غفير ، وهي شجرة زيتون تصنع الورق والنُّور والثمر في يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية .

ومن العجائب السارية التي بغرب الأندلس ، ما يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المطر أقاموها فيمطر الله جهنم .

ومنها صنم قادس ، طول ما كان قائماً كان يمنع الريح أن تهبَّ في البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على البحري فيه ، فلما هُدم في أول دولة بني عبد المؤمن صارت السفن تجري فيه .

وبكورة قَبْرَة مَغارة ذكرها الرازي وحكى أنه يقال : إنها باب من أبواب الريح لا يدرك لها قعر .

وذكر الرازي أن في جهة قلعة ورد جبلاً فيه شق في صخرة داخل كهف فيه فأسٌ حديد متعلق من الشق الذي في الصخرة ، تراه العيون وتلمسه اليد ، ومن رام إخراجها لم يطق ذلك ، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب في شق الصخرة ثم يعود إلى حالته .

وأما ما أورده ابن بَشْكُوَال^٢ من الأحاديث والآثار في شأن فضل الأندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد في كتابه المغرب ، ولم أذكرها أنا ، والله أعلم بحقيقة أمرها ، وكذلك ما ذكره ابن بَشْكُوَال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس ، قال : وذكره سيف^٣ عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه — والله أعلم بصحة ذلك — ولعل المراد بالقسطنطينية رومية ، والله أعلم .

قال سيف : وذلك أن عثمان ندَّب جيشاً من القيروان إلى الأندلس ، وكتب لهم : أما بعد ، فإن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس ، فإنكم إن

١ سقطت « ما » من ك .

٢ ما ينقله المقرئ عن ابن بَشْكُوَال إنما هو من كتاب له في تاريخ الأندلس لم يصلنا ، وقد وردت

هذه الأحاديث في مخطوطة الرباط : ١٠ .

٣ يعني الاخباري « سيف بن عمر » أحد الرواة الذين اعتمدهم الطبري .

فتحتموها كنتم الشركاء في الأجر ، والسلام ، انتهى .
قلت : عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا بريء من عهدها ، وإن ذكرها
ابن بَشْكُوَال وصاحب المغرب وغير واحد فلأنها عندي لا أصل لها ، وأي
وقت بعث عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد ،
ولأنما ذكرت هذا للتنبيه عليه ، لا غير ، والله أعلم .

* * *

[وصف ابن سعيد للأندلس]

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ،
فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة
لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة .
ومما اختصت به أن قرأها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها ،
لثلاثي العيون عنها ، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها :

لأحت قراها بين خُضرة أيكها كالدّر بين زبرجد مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين
بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها ، وفي الأندلس جهات تقرب فيها
المدينة العظيمة المصّرة من مثلها ، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية
فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش ، وهي في نهاية من الحضارة
والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير
في الأندلس ، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو ،
فحصل لها بذلك التشييد والترتين ، وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما يتيف

١ محمد بن الحمارة القرناطي أبو عامر ، تلميذ ابن باجة ، كان بارعاً في علم الألحان وصناعة الأعواد
(ترجمته في بنية الملتصص ص : ٥١٧ والمغرب ٢ : ١٢٠) وسيدكره المقرئ باسم « أبو الحسين
علي بن الحمارة » ، فلعله شخص آخر .

على عشرين سنة لامتناع معاقليها ، ودُرْبَة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة . قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدو قد نقَصَها من أطرافها ، وشارك في أواسطها ففي البقية منعة عظيمة ، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة المصّرة الرجاء فيها قويّ بحول الله وقوته ، انتهى .

قلت : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر معرجاً ، ونسأل الله تعالى الذي جعل للهمّ فرجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يَسْتَنْشِقَ أهلُه منه فيها أرجاً ، آمين .

* * *

[بلتا طليطة]

ومن غرائب الأندلس : البيلتان^١ اللتان بطُليطة ، صَنَعهما عبدُ الرحمن^٢ لما سمع بخبر الطَّلَسَم الذي بمدينة أرين من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وأنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطة في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أوّل انهلال الهلال يخرج فيهما يسيرُ ماء ، فإذا أصبح كان فيهما [ربع]^٣ سبعهما من الماء ، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون

١ البيلة : حوض النافورة ، وترادفها في الاستعمال أحياناً لفظة « غصة » وهي بالإسبانية والإيطالية

(Pila) ، وخبر البيلتين ووصفهما مذكور بتفصيل في مخطوطة الرباط : ٢٨ .

٢ يعني أبا القاسم عبد الرحمن الزرقال ، كما جاء في مخطوطة الرباط .

٣ زيادة لازمة عن مخطوطة الرباط سقطت من النسخ .

فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نَقَصَتْما بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحداً وعشرين يوماً فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع]^١ فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء ، وإذا تكلف أحدٌ حين تنقصان أن يملأهما وجكَبَ لهما الماء ابتلعنا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما في تلك الساعة ، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يُبقَ فيهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين . وهما أعجب من طَلَسَمَ الهند ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأمّا هاتان فليستا في مكان الاعتدال ، ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصرارى - دَمَرَهُم الله - طَلِيْطَلَة ، فأراد الفُنْشُ أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تُقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : إن سبب فسادهما حَتْنِ اليهودي^٢ الذي جكَبَ حَمَامَ الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذي أعلم الفُنْشَ أن ولده^٣ سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيئتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردُّهما أحسن ممّا كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِران في الليل ، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : إنّه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزال الأخرى تعطي حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

* * *

١ سقطت من ك و ط وهي مثبتة في دوزي ومخطوطة الرباط وق و ج .

٢ سماه في مخطوطة الرباط : حَتْنِ بن ربوة اليهودي المنجم .

٣ مخطوطة الرباط : أن حفيده .

[عود إلى ذكر إشبيلية]

وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ، ومدينة الأدب واللو والطرب ، وهي على ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادي العظيم ، وهي قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف إلا موضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ في فراسخ لكفى^١ ، وبها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناء منها . وعسل الشرف يبقى حيناً لا يرمّل ولا يتبدّل ، وكذلك الزيت والتين .

وقال ابن مفلح^٢ : إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس ، لأن تاجها الشرف ، وفي عنقها سمط النهر الأعظم ، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر ، يضيأها دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للترهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الأطيار ، أربعة وعشرين ميلاً ، ويتعاطى الناس السرج من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى . وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع ، وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذي هو أجل من اللك^٣ الهندي ، وزيتونها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يُعْتَصَر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو ظري ، انتهى ملخصاً .

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال : لا يتروّد فيها أحد ماء حيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن

١ لكفى : سقطت من ط ج ق ، اكتفاء ، وفي دوزي : لكفاها .

٢ لعله المؤرخ إبراهيم بن محمد بن مفلح (- ٨٨٤) قاضي دمشق (الضوء اللامع ١ : ١٥٢) .

٣ قد تقدم ذكر القرمز وأنه نوع من المن الذي يجمع عن الشجر ، أما اللك فإنه مادة شبيهة به تدخل

في تركيب الأدوية (ابن البيطار ٤ : ١١٠) .

المعاقل والقُرَى ما لا يحصى ، وهي بطاح خُضر ، وقصور بيض . انتهى .

* * *

[مقارنة ابن سعيد بين الأندلس ومواها]

قال ابن سعيد : وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة
الأندلس وطُفْتُ في بر العُدوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمرakash وفاس وسلا
وسبته ، ثم طُفْتُ في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية
وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم
دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما - لم أر ما يُشبه رَوْنَق الأندلس
في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ،
وفي حماة مَسْجِد أندلسية ، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع ،
إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض أماكن في تونس ، وإن
كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسحُ
شوارع وأبسط وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يُستحسن ، لأنها من حجارة
صلبة ، وفي وضعها وترتيبها إتقان ، انتهى .

* * *

[أشعار في وصف الأندلس]

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قولُ ابن سفر المريني ، والإحسانُ
له عادة :

في أرض أندلس تَلْتَدُ نَعْمَاء	ولا يفارقُ فيها القلبَ سراء
وليس في غيرها بالعيش مُتَفَع	ولا تقومُ بحق الأُنس صُهباء
وَأين يُعْدَلُ عن أرض تحضُّ بها	على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا يبهجُ الأبصارَ رؤيتُها	وكلُّ روضٍ بها في الوشي صُتَاء
أنهارها فضة ، والمسكُ تُرْبَتُها	والخزُّ رَوْضَتُها ، والدرُّ حصْبَاء

وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به
 ليس النسيمُ الذي يَهْفُو بها سَحَرًا
 وإنما أَرَجُ النَّدَى اسْتِنَارَ بها
 وأين يَبْلُغُ مِنْهَا ما أَصَنَّفُهُ
 قد مُيِّزَتْ من جهات الأرض حين بدت
 دارَتْ عليها نِطاقًا أبحرُ خَفَقَتْ
 لذلك يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ من طَرَبٍ
 فيها خَلَعَتْ عِذارِي ما بها عِوَضُ

ولله دَرٌّ ابن خفاجة حيث يقول :

إن للجنة بالأندلسِ
 فسنا صُبْحَتها من شَنَبٍ
 فإذا ما هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَاً
 مُجْتَلَى مرأى ورَيتا نَفَسِ
 ودُجى ظلمتها من لَعَسِ
 صَحَتْ واشوقى إلى الأندلسِ

وقد تقدمت هذه الأبيات ١ .

قال ابن سعيد : قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى في برّ
 العُدْوَةِ ، ومترله في شرق الأندلس بجزيرة شقر .

* * *

[رِخاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل]

وقال ابن سعيد في المغرب ما نصّه : قواعد من كتاب « الشهب الثاقبة » ، في
 الإنصاف بين المشاركة والمغاربة ٢ أولُ ما نقدم الكلام على قاعدة السلطنة

١ انظر ص : ١٧٠ من هذا الكتاب .

٢ لم يصلنا هذا الجزء من المغرب ، ولكن العمري أورد منه فقرات كثيرة في مسالك الأبصار الجزء
 الثالث ، القسم الأول ، قال : والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتل كتاباً وقد صنفته بالشام
 لضرورة دعت إل ذلك من شدة إغناء المشاركة على المغاربة من كل جهة . . . وسميت الكتاب =

بالأندلس ، فنقول : إنها مع ما بأيدي عبّاد الصليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها ، وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، وندعُ كلامنا في هذا الشأن ، وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي في كتابه لما دخلها في مدة خلافة بني مروان بها في المائة الرابعة ، وذلك أنه لما وصفها قال ^١ : وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر في عرض نيّف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رَغَد العيش وسَعَتِهِ وكَثْرَتِهِ ، يملك ذلك منهم مَهِينُهُمْ وأرباب صنائعهم لقلّة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم . ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرآفته ، وقال في أثناء ذلك : ومما يُدَلُّ بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضَرَبِهِ على الدراهم والدنانير دَخَلُهَا في كل سنة مائتا ألف دينار ، وصَرَفُ الدينار سبعة عشر درهماً ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته ، وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك . وذكر ابن بَشْكُوَال أن جباية الأندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً ، ثم ^٢ من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار .

ثم قال ابن حوقل : ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضَعَة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبُعْدَهُمْ من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومِرَاسِ الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها .

* * *

= « الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشاركة والمناربة » (الورقة : ١٠٤) .

١ صورة الأرض : ١٠٤ ، وفي النص بعض اختلاف عما أثبتّه ابن سبيد .

٢ ثم : سقطت من ك .

[ردّ ابن سعيد على بعض كلام ابن حوقل]

قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدءاً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بأرائهم وعقولهم مع مُراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حمّوها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب ؟ ولأني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دكّفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث في بلاد الإسلام ، حيث الجمهور والقبّة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ، وفعلوا فيها ما فعلوا ، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك ممّا هو مسطور في كتب التواريخ ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيَسْبُون ويأسِرُونَ ، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حَسَم الداء في ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يُطَبُّ ، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره ، وذلك موجود في تاريخ ابن حيّان وغيره ، وإنّما كانت الفتنة بعد ذلك : الأعلامُ بيّنة ، والطريق واضح .

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله :

• • •

[ابن سعيد يقدم سرداً لتطوّر التاريخ الأندلسي]

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها

١ كتب : سقطت من ق ط ج .

من سلاطين إفريقية ، واختلافُ الولاة داعٍ إلى الاضطراب ، وعدم تأثر الأحوال وتربية الضخامة في الدولة ، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبي فيها وأطاعهم كل عصي عظمى الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمة وترتبت^١ الأحوال ، وترتبت القواعد ، وكانوا صَدْرًا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من برّ العدو ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيّان : منها ما هو مذكور من توجه الحُكْم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين ، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق^٢ لهم أو عليهم ، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة . ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم ، ثم اضمحل ، وكانت ألقابُ الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحسدٍ بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه ، فاستبدت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمُّوا بملوك الطوائف واستبدوا^٣ ، وكان فيهم من خطب للخلفاء المرؤانيين وإن لم يبق لهم خلافة ، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم ، وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك ، حتى في الألقاب ، قال أمرهم إلى أن تلقبوا بنُعوّ الخلفاء ، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة . ولأجل توثبهم على النُعوّ العباسية ، قال ابن رشيّق القيرواني^٤ :

١ ج : وترتيب .

٢ ك : إلى الحق . ٣ واستبدوا : سقطت من ك .

٤ ديوان ابن رشيّق : ٥٩ ، وهما في وفيات الأعيان ٤ : ٥٢ لابن عمار الأندلسي .

مَمَّا يَزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ تَلْقِبُ مُعْتَصِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صَوْلَةَ الْأَسَدِ

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتصد ، واقتفى سيرة المعتصد العباسي . أمير المؤمنين ، وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد ، وكانت لبني عباد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها .

وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة ، وقانون لهم في ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة ، فازدرت العيون ذلك التاموس ، واستخفت به .

وقد كان بنو حمود من ولد إدريس الملقب بالملكوي الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة مروانية بالأندلس يتعاضمون ، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمُدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ، ولما حضر ابن مقان الأشبوني أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي الذي خطب له بالخلافة في مالقة ، وأنشده قصيدته المشهورة التونية التي منها قوله ^١ :

وَكأنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ فَانْتَشَتْ عَنْهَا عَيونُ النَّاطِرِينَ
وَجَهْ إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ لِأنَّهُ مِنْ نور رَبِّ العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه ، وقال : انظر كيف شئت ، وانبسط مع الشاعر ، وأحسن إليه .

١ عبد الرحمن بن مقان الأشبوني القبادي أبو زيد من شعراء الذخيرة (القسم الثاني : ٣٠١ ، وانظر المغرب ١ : ٤١٣ والحاشية في مصادر ترجمته) .

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسّطون للخاصّة وكثير من العامة ، ويُظهرون
مدارة^١ الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويجب
أن يشهر عنه ذلك عند مُباريه في الرياسة .

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام
الجماعة ، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث
ملوكها الملك ، ومزّرتوا على ذلك ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن
العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ، إلى أن انقادوا
إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنّة ، والثوار في المعازل تثور^٢ ،
وتروم الكثرة ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقّب بالمتوكل ، ووجد قلوباً^٣ منحرفة
عن دولة بر العدوّة ، مهياة للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل
المفرط وضعف الرأي ، وكان مع العامة كأنّه صاحب شعوذة ، يمشي في
الأسواق ويضحك في وجوههم وينادهم بالسؤال . وجاء للناس منه ما لم
يعتادوه من سلطان ، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان
كما قيل :

أمرٌ يضحكُ السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحليمُ

قال ذلك إلى تَلَف القواعد العظيمة ، وتملّك الأمصار الجلييلة ، وخروجها
من يد الإسلام .

والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً
يبرّع الفرسان أو جواداً يبرّع الأجواد تهافتوا في نُصْرته ، ونصبوه ملكاً من غير
تدبير في عاقبة ، آل الأمر إلى ما يؤول إليه ، وبعد أن يكون الملك في مملكة

١ ق ج ط : لمدارة .

٢ ط ق : تنزو .

٣ ك : القلوب .

قد تُورث وتداولت ، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة ، قدّموه ملكاً في حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم — إن كان لهم ذلك — بكرسي الملك ، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطليبتِه . وأهلُ المشرق أصوبُ رأياً منهم في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وخلّ الأوضاع .

ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه : لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخّضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ، ويعرف الرجل بابن الأحمر ، كان يكثر مغاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة ، إلى أن سار اسمه في الأندلس ، وآل ذلك إلى أن قدّمه أهلُ حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى ، وملك إشبيلية ، وقتل ملكها الباجي ، وملك جيتان أحصن بلد بالأندلس وأجلّه قدرأ في الامتناع ، وملك غرناطة ومالقة ، وسمّوه بأمر المسلمين ، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه .

* * *

[ابن سعيد يصف الخطط الأندلسية : ١ — الوزارة]

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنّها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يُعيّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصّهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسمّيه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالتوارث في البيوت المعلومه لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف ، فكان الملكُ منهم — لعظم اسم الحاجب في الدولة المرّوانية ، وأنه كان نائباً عن خليفته — يسمّى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنفوس فيه وظفر به ، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم . وصار

اسم الوزارة عامّاً لكل من يُجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرف بذِي الوزارتين ، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالماً بأمور الملك خاصة .

[٢ - الكتابة]

وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السّمة يخطّطه^١ من يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثير و الانتقاد على صاحب هذه السّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر كاتب الزّمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون بالأندلس وبرّ العُدوة لا نصرانياً ولا يهودياً البتّة ، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم .

[٣ - الخراج]

وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجندى منفعة^٢ ، فالإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأثّلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِب وصُودر ، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان .

[٤ - القضاء]

وأما خُطّة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلّقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حَضَرَ بين يدي القاضي ، هذا

١ ك : يخصه .

وضعها في زمان بني أمية ، ومن سلك مسلّكهم ، ولا سبيلَ أن يتسمّى بهذه السّمة إلاّ مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يُطلق على حاكمها إلاّ مسدّد ، خاصة ، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة ، وقاضي الجماعة .

[٥ - خطة الشرطة]

وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السّمة ، ويُعرف صاحبها في السن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب^١ عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي ، وكانت^٢ خطة القاضي أوفر وأتقى عندهم من ذلك .

[٦ - الحسبة]

وأما خطة الاحتساب فإنّها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطن ، وكان صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتياه به من السوق مع الخاذق في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسمعه ، ولا يحسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون^٣ ما حدّ له المحتسب في

١ ك : وجب .

٢ ق : وكان .

٣ ق ودوزي : أن يبيع بدون .

الورقة ، ولا يكاد تخفى خيائته ، فإن المحتسب يدسّ عليه صبيّاً أو جارية يتناع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقي ، وإن كثر ذلك منه ولم يتّجب بعد الضرب والتجريس^١ في الأسواق نفى من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها^٢ ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع المتاعات وتنفّر إلى ما يطول ذكره .

[٧ - خطة الطواف بالليل]

وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق فإنهم يعرفون في الأندلس بالدرّابين ، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائث فيه ، له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معدّ ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرّهم ، وإغياهم^٣ في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع « دار فلان دخلت البارحة » و « فلان ذبحه اللصوص على فراشه » وهذا يرجع الكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي وليه ، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دماً فإن ذلك لا يعدم ، وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقة شخص من كرم وما أشبه ذلك ، فلم يته اللصوص .

[الأندلسيون والتشريع]

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر

١ التجريس : الفضح والتشهير .

٢ يتداولونها : سقطت من ق ط ج .

٣ ك : وإغياهم .

إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ،
وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطان
في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعأون بخيله ورجله
حتى يخرجوه من بلدهم ، وهنا كثير في أخبارهم . وأما الرجم بالحجر للقضاة
والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم .

* * *

[الأندلسيون والتصوف]

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة^١ التي تُكسِلُ
عن الكد وتخرج^٢ الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية^٣ ، وإذا
رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه ، فضلاً عن
أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر .

* * *

[الأندلسيون والعلوم والآداب]

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم ، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا
الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن
يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالّةً على الناس ، لأن هذا عندهم
في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ،
ويستبّه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة ، وما أشبه
ذلك . ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدّ آرس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرعون
جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرعون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريًا ،

١ ك : الدورة ؛ والدروزة من الفارسية « درويزم » أي الكدية والشحد .

٢ ك : وتخرج .

٣ ك : النهاية .

٤ ق : العلم .

فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجّموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري ، والله أعلم .

وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رقيقة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المثلثين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمرتلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هَرَم الزمان إلا جِدَّةً ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو — بحيث لا تخفى عليه الدقائق — فليس عندهم بمستحق للتميز ، ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه

وشرقت وهو يُقرىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ؛
والخاصُّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يَجْري على قوانين النحو استقلوه
واستبدوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل .
وعلمُ الأدب المنتور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبلُ
علم عندهم ، وبه يُتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن لا يكون فيه
أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ مستقل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم
وظائف ، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ،
ويوقع لهم بالصلوات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين
مّا ، ولكن هذا الغالب . وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه
يُعْظَم في نفسه لا بحالة ويسخف ويُظهر العُجب ، عادةً قد جُبِلوا عليها .

• • •

[الزي الأندلسي في السلم والحرب]

وأما زيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمامات ، لا سيما في شرق
الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو
بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر
عالم بمُرُسية ، حضرة السلطان في ذلك الأوان ، وإليه الإشارة ، وقد خُطب
له بالملك في تلك الجهة ، وهو حاسِرُ الرأس ، وشيْبُهُ قد غلب على سواد شعره .
وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب ،
وابنُ هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيتُه في جميع أحواله ببلاد الأندلس
وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده ، وكثيراً

١ عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيبي ، أبو بكر مرسي سرقسطي الأصل ، كان زاهداً
عابداً ناشراً للعلم حتى امتحن برياسة بلده فلم تحمد سيرته ، قتل سنة ٦٣٦ . (ترجمته في الذيل
والتكلمة ٥ : ١٤٤ وفي الحاشية ثبت بالمصادر) .

• ما يترياً سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم ، فسلّاحهم كسلّاحهم ، وأقبيتهم من الإشكرلاط^١ وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسُرُوجهم .
وعاربتهم بالتراس والرمّاح الطويلة للطنن ، ولا يعرفون الدبابيس ، ولا قِسيّ العرب ، بل يعدّون قِسيّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد ، أو تكون للرجّالة عند المصافقة للحرب ، وقليلاً^٢ ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يُوتِرُوها ، ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلّسان ، إلاّ أنّه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظّمون ، وغفائر الصوف كثير ما يلبسونها حُمراً وخُضراً ، والصُفّر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل إلى يهودي^٣ أن يتعمّم البتّة ، والدّوّابة لا يرخيها إلاّ العالم ، ولا يصرفونها بين الأكثاف ، وإنّما يُسندِلونها من تحت الأذن اليسرى . وهذه الأوضاع التي بالشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا في رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك في تفصيل الثياب .

• • •

[تدبير الأندلسيين ومروءتهم]

وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال ، فلذلك قد يُنسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم

١ الاشكرلاط ، ويقال أيضاً الاشكيلاط (écarlate) نوع من الجوخ ، قرمزي أحمر .

٢ ك : وكثيراً .

٣ ك : ليهودي .

لفضّل دقائقتها على عظامه ، ولقد اجترت مع والدي على قرية من قرأها ،
وقد نال منا البرد والمطر أشدّ النّيل ، فأوينا إليها ، وكنا على حالٍ ترقّب من
السلطان وخلوّ من الرفاهية ، فترلنا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة
مقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فلاني أمضي
في حوائجكم ، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحماً ،
فأضرم ناراً ، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي ، فضربه ، فقال له والدي : لم ضربته ؟
فقال : يتعلّم استغنام مال الناس والضجّر للبرد من الصغير ، ثم لما جاء النوم
قال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدّها على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ ،
ولما قمنا عند الصباح وجدتُ الصبيّ منتبهاً ويدّه في الكساء ، فقلت ذلك
لوالدي ، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء
وفضلك على نفسه ، ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ،
فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا
الشيء الحقيق فقصّ الشيء الجليل ، انتهى كلام ابن سعيد في « المغرب »
باختصار يسير .

• • •

[منهج كتاب المغرب لابن سعيد]

ولله درّه ، فإنّه أبدع في هذا الكتاب ما شاء ، وقسمه إلى أقسام ، منها :
كتاب « وشي الطرس » ، في حلى جزيرة الأندلس ، وهو ينقسم إلى أربعة
كتب :

الكتاب الأول : كتاب « حلي العرس » ، في حلى غرب الأندلس .
الكتاب الثاني : كتاب « الشفاء اللّعنس » ، في حلى موسطة الأندلس .

١ ك : أموال .

٢ ق : قس .

الكتاب الثالث : كتاب « الأنس في حلّ شرق الأندلس » .
الكتاب الرابع : كتاب « لحظات المريب ، في ذكر ما حمّاه من الأندلس عبّاد الصليب » .
والقسم الثاني كتاب « الألحان المسلية ، في حلّ جزيرة صقلية » وهو أيضاً ذو أنواع .

والقسم الثالث كتاب « الغاية الأخيرة ، في حلّ الأرض الكبيرة » وهو أيضاً ذو أقسام ، وصوّر - رحمه الله تعالى - أجزاء الأندلس في كتاب « وشي الطرس » وقال أيضاً : إن كلاً من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث في القسمة ، وهذا دون ما بقي بأيدي النصارى .

وقدم - رحمه الله - كتاب « حلّي العرس ، في حلّ غرب الأندلس » ليكون قرطبة قطب الخلاف المروانية وإشبيلية التي ما في الأندلس أجمل منها فيه ، وقسمه إلى سبعة كتب^١ ، كل كتاب منها يحتوي على مملكة منحازة عن الأخرى :

- الكتاب الأول : كتاب « الحلة المذهبة ، في حلّ مملكة قرطبة » .
- الكتاب الثاني : كتاب « الذهبية الأصلية ، في حلّ المملكة الإشبيلية » .
- الكتاب الثالث : كتاب « خدع الممالقة ، في حلّ مملكة مالقة »^٢ .
- الكتاب الرابع : كتاب « الفردوس ، في حلّ مملكة بطليوس » .
- الكتاب الخامس : كتاب « الحلب ، في حلّ مملكة شلب » .
- الكتاب السادس : كتاب « الديباجة ، في حلّ مملكة باجة » .
- الكتاب السابع : كتاب « الرياض المصونة ، في حلّ مملكة أشبونة » وقد

١ راجع المغرب ١ : ٣٤ .

٢ جاء هذا الكتاب « ساباً » حسب ترتيب المغرب المطبوع .

ذكر - رحمه الله تعالى - في كل قسم ما يليق به ، وصوّر أجزاءه على ما ينبغي ،
فالله يجازيه خيراً ؛ والكلام في الأندلس طويل عريض .

* * *

[خاتمة في نبذة جغرافية]

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة
أيام ، ويشقها أربعون نهراً كباراً^١ ، وبها من العيون والحمامات والمعادن
ما لا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلثمائة
من المتوسطة ، وفيها من الحصون والقُرى والبروج ما لا يحصى كثرة ، حتى
قيل : إن عدد القُرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية ، وليس في
معمور الأرض صُقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا بالأندلس ،
ومن برّكتها أن المسافر لا يسير^٢ فيها فرسخين دون ماء أصلاً ، وحيثما سار
من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري^٣ والأودية ورؤوس الجبال
لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .
وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوماً طولاً في
ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالف لما سبق .

وقال ابن سيده : أخذت الأندلسُ في عرض الإقليمين الخامس والسادس
من البحر الشامي في الجنوب إلى البحر المحيط في الشمال ، وبها من الجبال سبعة
وثمانون جبلاً ، انتهى .

* * *

[مقطعات في مدح الأندلس]

ولبعضهم :

لله أندلسٌ وما جمَعَتْ بها من كل ما ضَمَّت لها الأهواءُ

١ كباراً : سقطت من ق .

٢ ك : لا يسافر .

٣ ك : والصحاري .

فكأنّما تلك الديار كواكب
وكأنّما تلك البقاعُ سماء
وبكلّ قطر جدّولٌ في جنة
ولعت به الأفياء والأنداء

وقال غيره :

في أرض أندلسٍ تلتدُّ نَعَماءُ
وليس في غيرها بالعيش مُنتَفَعٌ
وأين يُعَدّلُ عن أرض تحض بها
وأين يُعَدّلُ عن أرض تحثُّ بها
وكيف لا تُبهِجُ الأبصارُ رؤيتها
أنهارها فضةً ، والمسك تُرْبَتُها
وللهواء بها لطف يرقّ به
ليس النسيم الذي يهفو بها سَحَرًا
وإنّما أَرَجُ الندى استنار بها
وأين يبلغ منها ما أَصَنَّفُهُ
قد مُيزت من جهات الأرض ثم بدت
دارت عليها نطاقاً أبجرُ خَفَقَتْ
لذاك يَسِمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ
فيها خلعت عِذارِي ما بها عوض

ولا يُفارق فيها القلبَ سرّاً
ولا تقومُ بحقّ الماءِ صَهْبَاءُ
على الشهادة أزواج وأبناء
على المدامة أفياء وأنداء^٢
وكلُّ أرض بها في الوشي صَنعاء
والخزّ رَوْضَتُها ، والدُرُّ حَصْبَاءُ
من لا يرقّ ، وتَبْدُو منه أهواء
ولا انتشار لآلي الطلّ أنداء
في ماء ورَدٍ فطابت منه أرجاء
وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
فريدةً ، وتولّى مَسِيرَها الماء
وجدّاً بها إذ تبدّت وهي حَسَناء^٣
والطيرُ يشدو ، وللأغصان إصغاء
فهي الرياض وكلّ الأرض صَحراء

وقد تقدمت هذه القصيدة^٤ .

وقال آخر :

حبّذا أندلس من بلد
لم تزل تَنْتَجِجُ لي كلَّ سُرُورٍ

١ ك : الأنس .

٢ ك : أمواه وأفياء .

٣ هذا البيت وأربعة قبله سقطت من ق ط ج .

٤ انظر ص : ٢٠٩ - ٢١٠ في ما تقدم .

طائر شادٍ ، وظلٌّ وارفٌ ومياهٌ سائحات وقُصُورٌ

وقال آخر :

يا حسن أندلس وما جُمِعَتْ لَنَا	فيها من الأوطار والأوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حُسْنَهَا	بتعاقب الأحيان والأزمان
نَسَجَ الرِّبْعُ نباتها من سُندُسٍ	مَوْشِيَةٍ ببدائع الألوان
وغدا النسيمُ بها عليلًا هائمًا	برُبُوعها وتلاطمَ البحران
يا حُسْنَهَا والطلّ ينثر فوقها	دُرَرًا خلالَ الورْدِ والريّحان
وسواعدُ الأنهار قد مدّت إلى	نُدَمائها بشقائق النُعمان
وتجاوَبَتْ فيها شَوَادِي طيْرِها	والتفت الأغصانُ بالأغصان
ما زُرْتُها إلّا وحيّاني بها	حدَقَ البَهارُ وأتمَلُ السُّوسان
من بعدها ما أعجبتني بلدة	مَعَ ما حلَّتْ به من البلدان

• • •

[من خصائص الأندلس]

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة أڤليش بلاطاً فيه جوائر منشورة مربعة
مستوية الأطراف ، طول الجائرة منها مائة شبر وأحد عشر شبراً .
وفي الأندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام ، من غير إرادة
ولا تفكر ، وفيها غير ذلك ممّا يطول ذكره ، والله أعلم .
ولنُصْنِك العِنانَ في هذا الباب ، فإن بحر الأندلس طويل مديد ، وربما
كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض ، أو لنقل صاحبه المروي عنه ، أو لاختلاف
مّا ، أو غير ذلك من غرض مسديد .

الباب الثاني

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً لسبق الحيات ، وعطّر رحل الارتباء^١ والارتباد ، وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد ، ونيل وصل إليه اعتياد وتقرر بمثله اعتياد

اعلم أنه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا ، وَسَيَلُغُ مَلِكٌ أُمِّي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » وقع الخلاف بين لُذْرِيْقٍ مَلِكِ الْقُوطِ وبين ملك سَبْتَةَ الَّذِي عَلَى عِجَازِ الرُّفَاقِ ، فكان ما بُدِّعَ من فتح الأندلس على يد طارق وطريف ومولاهما الأمير موسى ابن نصير ، رحم الله الجميع .

[أخبار الفتح حسب مختلف الروايات]

وذكر الحجاري وابن حبان وغيرهما أن أول مَنْ دَخَلَ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نصير الذي تُنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز ، غزاها بمَعُونَةِ صَاحِبِ سَبْتَةَ يُلْيَانَ النصراني ، لحقده على لُذْرِيْقٍ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ ، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل ، جاز البحر في أربعة مراكب ، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، وانصرف

١ في جميع الأصول : الارتباء ، والصواب ما أثبت ، والارتباء : هو تقديم الربيئة أي الطليعة وهو موافق للارتباد .

بغنيمة جلييلة ، فعقد موسى بن نُصَيْر صاحبُ المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس ، ووجهه مع يُلَيَّان صاحب سَبْتَة ، انتهى .

وسَيَّأِي في أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق ^١ ، وهي أقوال .
وقال ابن حيَّان : إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولَّى الوليدُ بن عبد الملك موسى بن نُصَيْر مولى عمِّه عبد العزيز على إفريقية وما خَلَفَهَا سنة ثمان وثمانين فخرج في نفر قليل من المُطَوَّعة ، فلَمَّا ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً ، وفعل ذلك في إفريقية ، وجعل على مقدمته مولاه طارقاً ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مَدَائِنَهُمْ ، حتى بلغ مدينة طَنْجَة ، وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فحصرها حتى فتحها ، وأسلم أهلها ، ولم تكن فُتِّحت قبله ، وقيل : بل فُتِّحت ثم استغلقت .

وذكر ابن حيَّان أيضاً استصعاب سَبْتَة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يُلَيَّان النصراني ، وأنه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لُدَرِيق صاحب الأندلس ، ثم سرد ما يأتي ذكره .

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله : وحديثُ الفتح ، وما مَنَّ الله به على الإسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير ، على موسى بن نُصَيْر ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قُصَّاصٍ وأوراق ، وحديث أفلول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعَظُم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قَشَّاش ، انتهى .

وقال في المغرب : طارق بن زياد من إفريقية .
وقال ابن بَشْكُوَال : إنَّه طارق بن عمرو ، فتح جزيرة الأندلس ودوَّخها ، وإليه يُنسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح ، في قبلة الجزيرة الخضراء ، ورحل مع سيِّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره ، انتهى .

١ ك : الانسياق .

وقال أيضاً : إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتّبه . وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نصير .

ومن تاريخ ابن بشكّوال : احتل طارق بالجلب المنسوب إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين في اثني عشر ألفاً غير اثني عشر رجلاً من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلا شيء يسير ، وإنه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق . تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه . فهب من نومه مستبشراً ، وبشّر أصحابه ، وثابت نفسه ببشراه . ولم يشك في الظفر ، فخرج من الجبل ، واقتحم بسيط البلد شاتاً للغارة . وأصاب عجوزاً من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة . فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه اليسرى شامة عليها شععر ، فإن كانت فيك فأنت هو ، فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك ومن معه .

ومن تاريخ ابن حيّان : لما حرّض يُلَيّانُ النصرانيُّ صاحبُ سبّته ، للأمر الذي وقع بينه وبين صاحب الأندلس ، موسى بن نصير على غزو الأندلس جهز لها مولاه طارقاً المذكور في سبعة آلاف من المسلمين ، جلّهم من البربر ، في أربع سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى توافي جميع أصحابه عنده بالجبل ، قال : ووقع على لُذريق صاحب الأندلس الخبر ، وأن يُلَيّان السبب فيه ، وكان يومئذ غازياً في جهة البُشكّنس ، فبادر في جموعه وهم نحو مائة ألف ذوي عدَدٍ وعدّة ١ ،

١ ك : عدة وعدد .

وكتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف إليه^١ لُدْرِيْق بما لا طاقة له به ، وكان عمل من السفن عِدَّة ، فجهَّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين ، فكمَّلوا بمن تقدَّم اثني عشر ألفاً ، ومعهم يُلَيَّانُ صاحبُ سَبْتَةِ في حَشْدِهِ يَدْلُهُمْ على العَوْرَات ، ويتجسَّس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُدْرِيْق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها ، وقلوبهم عليه ، فتلاقوا فيما بينهم ، وقالوا : إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا ، وليس من بيت الملك ، وإنما كان من أتباعنا ، ولسنا نعدم من سيرته خبلاً واضطراباً ، وهؤلاء القوم الذين طرَّقوا لا حاجة لهم في إبطان بلدنا ، وإنما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا ، فهل فلتنهزم بآبن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم ، فلعلهم يكفوننا أمره ، فإذا هم انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا مَنْ يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، انتهى .

وقال ابن خلدون^٢ - بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس ، وأن ملكهم لعهد الفتح يسمى لُدْرِيْق - ما نصه : « وكانت لهم خَطْوَةٌ وراء البحر في هذه العُدْوَةُ الجنوبية خَطْوَتُهَا من قُرْصَةِ المجاز بَطْنَجَة » ، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر ، واستعبدوهم ، وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلَيَّان ، فكان يَدِينُ بطاعتهم وبمِلَّتِهِمْ ، وموسى بن نُصَيْر أمير المغرب^٣ إذ ذاك عامل على إفريقية من قبَل الوليد بن عبد الملك ، ومترلُه بالقَيْرَوَان ، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ، ودَوَّخَ أقطاره ، وأثخن^٤ في جبال طَنْجَة هذه حتى وصل خليج الرُّقَاق ، واستنزل يُلَيَّان لطاعة الإسلام ، وخلف مولاة طارق بن زياد الليثي والياً بَطْنَجَة ، وكان يُلَيَّان يتقم على لُدْرِيْق ملك القوط لعده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا

١ ك : زحف عليه .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١١٧ .

٣ ابن خلدون وق : أمير العرب .

٤ ابن خلدون : وأوغل .

بأبته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارتهم ، فغضب لذلك ، وأجاز إلى لدريق ، وأخذ ابنته منه ، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على عورة^١ فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصة فانتهازها لوقته ، وأجاز البحر ستة اثنين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ، فصيرهم عسكريين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح ، فسمي جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن ، وبلغ الخبر إلى لُدْرِيْقَ فنهض إليهم يجرّ أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفاً ، وزحفوا إليه ، فالتقوا بفحص شريش^٢ ، فهزمه الله ونقلهم أموال أهل الكفر ورقابهم ، وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله ، وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة^٣ الفهري ، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخّم من وجوه العرب الموالي^٤ وعُرّقاء البربر ، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع ، وأتمّ موسى الفتح ، وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب ، ودوّخ أقطارها ، وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً

١ ابن خلدون : غرة .

٢ كذا في دوزي ؛ وفي ق : حبيب بن سعيدة ؛ وفي ك : حبيب بن مندة ؛ وفي ط : بن بندة ؛ وفي ج :

ميدة ؛ وفي ابن خلدون : حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري .

٣ ج ودوزي : والموالي .

لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، ونمي الخبر إلى الوليد فاشتدَّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنَّ ما همَّ به موسى غررٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع^١ ، وكتب له بذلك عهده ، ففتَّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بشغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها^٢ ، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة ، واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين ، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظَّهر ، يقال : إن من جملة ما جملتها ثلاثين ألف رأسٍ من السبي ، وولّى على إفريقية ابنه عبد الله ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسَخِطَه ونكَّبه ، وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لستين من ولايته ، وكان خيرَ أفاضلٍ ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ، ووليَّ من بعده أيوبُ بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فوليَّ عليها ستة أشهر ، ثم تابعت ولاة العرب على الأندلس : تارة من قبل الخليفة ، وتارة من قبل عامله بالقيروان ، وأثنوا في أمم الكفر ، وافتتحوا بمرسلونة من جهة المشرق ، وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف ، وانقرضت أمم القوط ، وأرزَّ الجلالقةُ ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدُّروب فتحصَّنوا بها ، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء بمرسلونة من دروب الجزيرة حتى احتلَّوا البسائط وراءها ، وتوغَّلوا في بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتنازعٌ أوجدَ للعدو بعضَ الكثرة ، فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بمرسلونة لعهد ثمانين

١ ابن خلدون : إن لم يرجع هو .

٢ ابن خلدون : لغزوها وجهاد أعدائها .

٣ ك : وأوى ؛ وأرز بمعنى لجأ وأوى .

سنة من لدن فتحها ، واستمر الأمر على ذلك » .

« وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك — لما بلغه مهلكُ عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر — بعث إلى الأندلس الحرَّ بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فقدم الأندلس ، وعزَّل أيوبَ بن حبيب ، ووليَ ستين وثمانية أشهر » .

« ثمَّ بعث عمرُ بن عبد العزيز على الأندلس السَّمْحَ بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة ، وأمره أن يخمس أرضَ الأندلس ، فخمسها وبني قنطرة قرطبة ، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة ، فقدم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي إلى أن قدم عَنبَسَةُ بن سُحَيْم الكلابي من قِبَل يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية ، فقدمها في صفر سنة ثلاث ومائة ، فاستقام أمر الأندلس ، وغزا الفرنجة ، وتوغَّل في بلادهم ، واستشهد سنة سبع ومائة لأربع سنين وأربعة أشهر » .

« ثمَّ تابعت ولاةُ الأندلس من قِبَل أمراء إفريقية : فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلابي ، أنفذه بِشْرُ بن صَفْوَان الكلابي والي إفريقية ، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عَنبَسَةَ ، فقدمها آخر سنة سبع ، وأقام في ولايتها ستين ونصفاً ، ولم يغزُ ، وقدم إليها عثمان بن أبي نسعة الخثعمي^١ والياً من قبل عبدة بن عبد الرحمن السَّلَمي صاحب إفريقية ، وعزله لخمسة أشهر بخديفة بن الأحوص القيسي فوافاها سنة عشر ، وعزَّل قريباً يقال : لسنة من ولايته ، واختلف : هل تقدَّمه عثمان أو هو تقدَّم عثمان ؛ ثمَّ وليَ بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبدة بن عبد الرحمن أيضاً ، قدم في المحرم سنة إحدى عشرة ، وغزا أرضَ مَقَوْشَةَ^٢ فافتتحها وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائة لستين من ولايته ، وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، فوليَ شهرين ، ثمَّ قدم عبد الرحمن بن

١ اللخمي في جميع النسخ .

٢ كذا في الأصول وابن خلدون ، ويبدو أن صوابه : « منوسة » كما في دوزي .

عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجية ، وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة ، في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ، وبه عُرِفَت الغزوة ، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، ثم وليَ عبدُ الملك بن قَطَنَ الفِهْري ، وقدم في رمضان سنة أربع عشرة فولّي ستين - وقال الواقدي : أربع سنين - وكان ظلوماً جائراً في حكومته ، وغزا أرض البُشْكُنْس سنة خمس عشرة ومائة ، فأوقع بهم وغنم ، ثم عَزَلَ في رمضان سنة ست عشرة ، وولي عُقْبَةُ بن الحجاج السَّلُولي من قبل عُبَيْدِ الله بن الحبحاب ، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة مجاهداً مظفراً ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربُونة ، وصار رِبَاطُهُم على نهر رودنة^١ ، ثم وثب عليه عبد الملك بن قَطَنَ الفِهْري سنة إحدى وعشرين ، فخلعه وقتله ، ويقال : أخرجه من الأندلس وولي مكانه إلى أن دخل بَلَجُ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين ، فغلب عليه ، وولي الأندلس سنة أو نحوها . « وقال الرازي : ثار أهل الأندلس بأمرهم عُقْبَةُ في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَنَ ولايته الثانية ، فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي بقرشونة^٢ في صفر سنة ثلاث وعشرين ، واستقام الأمر لعبد الملك ، ثم دخل بَلَجُ بن بشر القُشيري بجند الشام ناجياً من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية^٣ ، فثار على عبد الملك ، وقتله وهو ابن سبعين سنة ، واستوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك ، وانحاز الفِهْريون إلى جانب ، فامتنعوا عليه ، وكاشفوه ، واجتمع إليهم مَنْ أنكر فعلته بابن قَطَنَ ، وقام بأمرهم قَطَنَ وأمّية ابنا عبد الملك بن قَطَنَ ،

١ في الأصول (حيثما وقع) وابن خلدون : ردونة ، والتصويب عن دوزي .

٢ ك : بقرمونة وفي ق : بقرشونة .

٣ يريد انتصار البربر على العرب عند بليدة بقدورة (أو نقدورة) على مقربة من تاهرت ، وكان العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري .

والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بَلَجٌ من الجراح التي نالته في حربهم ، وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته ، ثم ولي ثعلبة بن سلامة الجُدّامي ، وغلب على إمارة الأندلس بعد مَهْلِك بَلَج ، وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه ، وولي ستين أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر ، إلى أن مالت به العصبية في يمانيته ، ففسد أمره ، وهاجت الفتنة ، وقدم أبو الخطّار حُسام بن ضِرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، ركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ، فدان له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نسعة وابنا عبد الملك ، فلقبهم وأحسن إليهم ، واستقام أمره ، وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم ، وكثُر أهل الشام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم في البلاد ، وأنزل أهل دمشق إلىيرة لشبهها بها ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية ، وسماها حمص ، وأهل قنسرين جَيّان ، وسماها قنسرين ، وأهل الأرْدُنّ رية ومالقة ، وسماها الأرْدُنّ ، وأهل فلسطين شدّونة - وهي شريش - وسماها فلسطين ، وأهل مصر تُدمير ، وسماها مصر ، وقتل ثعلبة إلى المشرق ، ولحق بمروان بن محمد ، وحضر حروبه ، وكان أبو الخطّار أعرابياً عصيباً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية ، وتحامل على المضرية ، وأسخط قيساً ، وأمر في بعض الأيام بالصّميل بن حاتم كبير القيسية - وكان من طوابع بلج ، وهو الصّميل بن حاتم بن شمير بن ذي الجوشن ورأس على المضرية - فأقيم من مجلسه ، وتقنع ، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر : أقم عمامتك يا أبا الجوشن ، فقال : إن كان لي قوم فسقيمونها ، فسار الصّميل بن حاتم أميرهم يومئذ وزعيمهم ، وألب عليه قومه ، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية ، فخلع أبو الخطّار سنة ثمان وعشرين لأربع مئتين وتسعة أشهر من ولايته ، وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجُدّامي ،

وهاجت الحرب المشهورة ، وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقيا ، فكتب إلى ثوبة بعده على الأندلس مُنْسَلَخَ رجب سنة تسع وعشرين ، فضبط الأندلس ، وقام بأمره الصَّمِيل ، واجتمع عليه الفريقان ، وهلك لسنة من ولايته ، ووقع الخلاف بإفريقية والثالث أمر بني أمية بالمشرق ، وشغلوا عن قاصية الثغور بكثرة الخوارج ، وعظم أمر المسوِّدة بقي أهل الأندلس فَوْضَى ، ونصبوا للأحكام خاصّة عبد الرحمن بن كثير ، ثم اتفق جندُ الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضربة واليمانية وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة ، وقدم المضربةُ على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي سنة تسع وعشرين ، واستم سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة ، ثم وافته اليمانية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيههم واتفاقهم ، فبيّتهم يوسف بمكان نزولهم في شَقْنْدَة من قرى قُرْطُبَة بمالأة من الصَّمِيل بن حاتم والقيسية وسائر المضربة ، فاستلحموهم ، وثار أبو الخطار فقاتله الصَّمِيل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين ، واستبدَّ يوسف بما وراء البحر من عُدُوَّة الأندلس ، وغلب اليمانية على أمرهم ، فاستكانوا لغلّبه ، وتربَّصُوا الدوائر إلى أن جاء عبدُ الرحمن الداخل . وكان يوسف ولَّى الصَّمِيل سَرَقُسْطَة ، فلما ظهر أمرُ المسوِّدة بالمشرق ثار الحُبَابُ الزهري بالأندلس داعياً لهم ، وحاصر الصَّمِيلَ بِسَرَقُسْطَة ، واستمد يوسف ، فلم يمه رجاء هلاكه لما كان يغصّ به ، وأمدته القيسية ، فأفرج عنه الحُبَابُ ، وفارق الصَّمِيل سَرَقُسْطَة فملكها الحُبَاب ، وولى يوسف الصَّمِيل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان . انتهى كلام وليّ الدين بن خلدون ببعض اختصار .

وقال بعضُ المؤرخين^١ : إن عبد الله بن مَرْوَانَ أخا عبد الملك كان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى

١ انظر ابن خلكان : ٤ : ٤٠٢ .

ابن نُصَيْر إلى إفريقية ، وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة ^١ ، فامثل أمره في ذلك .
وقال الحميدي في « جذوة المقتبس » ^٢ : إن موسى بن نُصَيْر ولي إفريقية
والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعة من الجند ، فبلغه أن بأطراف البلاد
مَنْ هو خارج عن الطاعة ، فوجه ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من
السيبا ، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى ، فأتاه بمائة ألف رأس ، وقال الليث بن
سَعْد : بلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال الصّدفي : لم يُسمع في الإسلام
بمثل سبَايا موسى بن نُصَيْر ، ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدي
البربر عليها ، وكانت البلاد في قَحْط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة
وإصلاح ذات البَيْن ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ، وفرق
بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصّراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى
مُنْتَصَفِ النهار ، ثمّ صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ،
فقبل له : ألا تدعو لأمر المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى ،
فسقوا حتى رَوُوا ثمّ خرج مُوسَى غازياً ، وتبع البربر ، وقتل فيهم قتلاً
ذريعاً ، وسبى سبباً عظيماً ، وسار حتى انتهى إلى السّوس الأدنى لا يُدافعه
أحد ، فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا ، وبَدَلُوا له الطاعة فقبل
منهم ، وولّى عليهم والياً ، واستعمل على طَنْجَة وأعمالها مولاة طارق بن زياد
البربري ، ويقال : إنّه من الصّدْف ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر
بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى
عندهم خَلْقاً يسيراً من العرب ليعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع
إلى إفريقية ، ولم يبقَ بالبلاد مَنْ يُنازعه من البربر ولا من الروم ، ولما استقرّت
له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجَة يأمره بغزو بلاد الأندلس ، فغزاها في
اثني عشر ألفاً من البربر خلا اثني عشر رجلاً ، وصعد على الجبل المنسوب إليه

١ ابن خلكان : تسع وثمانين .

٢ نقل ابن خلكان هذا النص ، وفي الجذوة : ٣١٧ أنه وليها سنة تسع وسبعين .

يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين ، وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب وقت التعدية ، فرأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، هكذا ذكر ابن بشكُوال .

وقيل : إن موسى ندم على تأخره ، وعلم أن طارقاً إن فتح شيئاً نسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جمع العساكر ، وولّى على القيروان ابنه عبد الله ، وتبع طارقاً فلم يدركه إلا بعد الفتح . وقال بعض العلماء : إن موسى بن نصير كان عاقلاً شجاعاً كريماً تقيّاً لله تعالى ، ولم يُهزم له قط جيش ، وكان والده نصير على جيوش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة ، ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه ، فقال له : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يدٌ لم تكافني عليها ؟ فقال : لم يمكني أن أشكر بكفري من هو أولى بشكري منك ، فقال : من هو ؟ فقال : الله عز وجل ، فأطرق ملياً ثم قال : استغفر الله ، ورضي عنه .

رجع إلى حديث طارق - قال بعض المؤرخين^١ : « كان لُذريق ملك الأندلس استخلف عليها شخصاً يقال له تدمير ، وإليه تُنسب تدمير بالأندلس ، فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير إلى لُذريق : إنه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمين السماء هم أم من الأرض ، فلما بلغ لُذريق ذلك - وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزو له في بعض أعدائه - رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين ، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد . فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ، ورغبهم ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعلو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع

١ ابن خلكان : على حرس .

٢ عود إلى النقل عن ابن خلكان بشيء من التصرف ، وانظر الإمامة والسياسة (طبع ابن القوطية : ١٣٧) .

من الأيام ، في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وِزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم ، وتعوّضت القلوب من رغبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطوة أرخص متاع فيها النفوس [إلا وأنا] ١ أبداً بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة صهاراً وأختاناً ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالد الأبطال والفرسان ، ليكون حظكم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين ، واعلموا أنني أول جيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلك بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلقوني في عزمي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخذلون .

« فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه وما

١ زيادة من ابن خلكان .

وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم ، وتحققت آمالهم ، وهبت رياح النصر عليهم ، وقالوا له : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمنا عليه ، فاحضر إليه فلاننا معك وبين يديك ، فركب وأصحابه فباتوا ليلتهم في حرس إلى الصبح ، فلما أصبح الفريقان تكتبوا وعبّوا جيوشهم ، وحمل لذرّيق وهو على سريرته ؛ وقد حمل على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل في غابة من البنود والأعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزرد ، من فوق رؤوسهم العمام البيضاء ، وبأيديهم القسيّ العربية ، وقد تقلّدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لذرّيق حلف وقال : إن هذه الصور هي التي رأيناها بيت الحكمة ببلدنا ، فداخله منهم الرعب ، فلما رأى طارق لذرّيق قال : هذا طاعة القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، ففرقت المقاتلة من بين يدي لذرّيق ، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه ، فقتله على سريرته ، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعتقلاً معتقلاً .

« ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبّر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنّه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلاتك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبّحه هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيتها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي ، يعني البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جليقية وهي ساحل البحر المحيط ، انتهى .

وقال الحافظ الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس »^٢ : « إن موسى بن نصير

١ ابن خلكان : يبيحك .

٢ انظر هذا النص في الجذوة - ترجمة طارق بن زياد : ٢٣٠ وقد نقله ابن خلكان أيضاً .

نَقَمَ على مولاه طارق إذ غزا بغير إذنه ، وَهَمَّ بقتله ، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه ، فأطلقه وخرج معه إلى الشام « انتهى .

* * *

[خبر بيت الحكمة بالأندلس]

« وقولُ لُذريق : إن هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة إلخ »
أشار به إلى بيت حكمة اليونان ، وكان من خبره^١ — فيما حكى بعض علماء التاريخ — أن اليونان ، وهم الطائفة المشهورة بالحكم ، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرس ، واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفاً في آخر العمار ، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك ، ولا مَلَكَها أحدٌ من الملوك المعبرة ولم تكُ عامرة ، وكان أول من عمَّر فيها واختطَّها أندلسُ بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق ، والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه ، وكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطير . وكانت اليونان لا ترى فتناً الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس ، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقوا الأنهار ، وبنوا المعازل ، وغرسوا الجنات والكروم ، وشيدوا الأمصار ، وملؤوها حرثاً ونسلاً وبنیاناً ، فعظمت وطابت ، حتى قال قائلهم لما رأى بَهْجتها : إن للطائر الذي صُوِّرَت هذه العمار على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووساً معظمُ جماله في ذنبه .

وحكي أن الرشيد هرون — رحمه الله — لما حضر بين يديه بعض أهل

١ عاد إلى النقل عن ابن خلكان ٤ : ٤٠٦ .

المغرب قال الرشيد : يقال : إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فقال الرجل : صدقوا يا أمير المؤمنين ، وإنه طاووس ، فضحك أمير المؤمنين الرشيد ، وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره .

رجع - قال^١ : « فاجتبط اليونان بالأندلس أتمَّ اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها طليستلة لأنها أوسط البلاد ، وكان أهمّ الأمور عندهم تحصينها عمّن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا هو أنه لا يحسدكم على رَغَد العيش إلا أرباب الشَّطَف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفتان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على أن يتخذوا للذين الجحنيين من الناس طليستماً ، فرصدوا لذلك أرسداً ، ولما كان البربر بالقرب منهم وليس [بينهم] سوى تعدية البحر ويردُّ عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك في طبائعهم ، وصار بعضه مركباً في غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبُغْضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسياً إلا مبغضاً بربرياً ، وبالعكس ، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدتها ببلاد البربر » .

« وكان بنواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها « قادس » وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدين ملك ، فخطبوها ، وخشي أبوها إن زوجهها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم وإناثهم ، ولذا قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب ، فقال لها : يا بُنَيَّة ، إنني أصبحت على حيرة في أمرك ممّن يخطبك

١ يعني ابن خلكان .

من الملوك ، وما أرضيت واحداً إلا أسخطت الباقيين ، فقالت له : اجعل الأمر إليّ تخلص ، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكاً حكيماً ، فقال : نعم ما اخترته لنفسك . فكتب في أجوبة الملوك الخطّاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلمّا وقفوا على الجواب سكّت من لم يكن حكيماً ، وكان في الملوك الخاطبين حكيّمان ، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم ، فلمّا وقف على كتابيهما قال لهما : يا بنية ، بقي الأمر على إشكال ، وهذان ملكان حكيّمان ، أيّهما أرضيت أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به ، فأيهما سبق إلى الفراغ ممّا التمسْتُ كنت زوجته ، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إنّنا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون إلى أرحيٍّ تدور بها ، وإنّي مقترحة على أحدهما لإدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لي طيلسماً نحصن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها ذلك ، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ، فأجاباه إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك .

« فأمّا صاحب الرّحىّ فإنّه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة نَصَد بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبّنة ، وسدّ الفُرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثاره باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبّنة والجزيرة الخضراء — وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبرَ عليها الناس من سبّنة إلى الجزيرة ، والله أعلم أي القولين أصح ، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني — فلمّا تمّ تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلّطه من ساقية محكمة وبني بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية . »

« وأمّا صاحب الطلسم فإنّه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ،

غير أنه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر في رملٍ عالٍ حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صَوَّرَ من النحاس الأحمر والحديد المصقَّى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجلٍ بربري ، وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جَعَدَ قائمة في رأسه لبعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جَمَعَ طَرَفَيْهِ على يده اليسرى بالطف تصوير وأحكمه ، في رجله نَعْلٌ ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف^١ بمقدار رجله فقط ، وهو شاهق في الهواء ، طوله نَيْفٌ عن ستين أو سبعين ذراعاً ، وهو محدود^٢ الأعلى ، إلى أن ينتهي ما سَعَتَهُ قدرُ ذراع ، وقد مدَّ يده اليمنى بمفتاح قُفْلٍ قابضاً^٣ عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول : لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطَّلَسَمِ في البحر الذي تجاهه أنه لم يَرَقَطْ ساكناً ولا كانت تجري فيه قَطُّ سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده . وكان الملكان اللذان عملا الرُّحَيَّ والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل ، إذ بالسَّبْقِ يستحق زواج المرأة ، وكان صاحب الرُّحَيَّ فرغ أولاً لكنه أخفى أمره عن صاحب الطَّلَسَمِ لئلا يترك عمله فيبطل الطَّلَسَمِ ، لتحظى المرأة بالرُّحَيَّ والطلسم ، فلما علم باليوم الذي يَقْرُغُ صاحبُ الطلسم في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرُّحَيَّ ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبرُ بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يَصْقُلُ وجهه ، وكان الطَّلَسَمُ مذهباً ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرُّحَيَّ على المرأة والرُّحَيَّ والطلسم ، وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطَّلَسَمَاتِ في أوقات

١ ابن خلكان : مستدق .

٢ ك : محدودب .

٣ في الأصول : قابض .

٤ في الأصول : إلا .

اختاروا أرسادها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام ، وتركوه في بيت بطليطلة ، وركبوا على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك ^١ .

« ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة ، وكان لندريق المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأي منهم : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يعمل عبثاً ، فقالوا : أيها الملك ، صدقت ، إنه لم يصنع عبثاً ، ولم يفل سُدّي ، والرأي والمصلحة أن تلقي أنت أيضاً عليه قفلاً أسوة بمن تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله ، وسر سيرهم ، فقال لهم : إن نفسي تنازعني إلى فتحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تحدث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته ، فأصرّ على ذلك ، وكان رجلاً مهيباً ، فلم يقدرُوا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب لم يرَ في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكلّلة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ، ومفتاحه معلق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رَقّ ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مضورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم مُعَمَّمُونَ على ذوائب جُعْدٍ ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرَقّ ، فإذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا

١ ابن خلكان : وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه ، وتقدموا إلى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقى على ذلك الباب قفلاً . . . الخ .

التابوت المقلان بالحكمة دخلَ القومُ الذين صَوَّرُهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذَهَبَ ملكٌ مِنْ فيها من أيديهم ، وبطلت حكمتهم ، فلمَّا سمع لُذْرِيْق ما في الرِّقْ ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دَوْلَتهم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جَهَّزَه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس ^١ انتهى .

فهذا هو بيت الحكمة الذي أشار إليه لُذْرِيْق ، والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كله .

على أن في هذا السياق مخالفةً لما سذكروه عن بعض ثقات مؤرخي الأندلس وغيرهم في شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر في هذه القصة من جلب الماء من برِّ العُدوة إلخ . فية بُعِدَ عندي ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياهاً وأنهاراً ، فأننى تحتاج إلى جلب الماء إليها من العُدوة الأخرى ؟ إلا أن يقال : إن المرأة أرادت تعجيزَ الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعِلِم الله من وراء ذلك كله ، وفوق كل ذي علم عليم ، ومتمهى العلم إلى الله الحكيم .

• • •

[عود إلى أخبار الفتح]

وقال ابن حيَّان في « المقتبس » : « ذكروا أن لُذْرِيْق لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب في القوط ، وأنه إنما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات إغطشة ^٢ الملك الذي كان قبله ، وكان أثيراً لديه ، مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد إغطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبَّروا عليه - فيما ذكر - عندما لقي

١ انتهى النقل عن ابن خلكان .

٢ ك : غطشة .

رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الرُّقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَيْر طماعةٌ منهم في أن يودي ويخلص إليهم ملك أبيهم ، فالتقوا بموضع يدعى وادي لَكَّةَ من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عبُورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول ستة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظمَ هزيمة ، وقُتل ملكهم لُذْرِيق ، وغلبت العرب على الأندلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصدقاً موعده نبيهم ، صلى الله عليه وسلم ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوَحْيي الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، والله القوة .

قال : « وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسلونَ منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طَوَالَ دولة بني أمية ، رضي الله تعالى عنهم ، إلى أن طرأ إليها فلُتْهم عند غلبة بني العباس عليهم ، وذلك عبدُ الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فملكها وأعاد إليها الدولة الأموية التي أورثها عَقِبُهُ حَقِيقَةً ، فكانت عدة هؤلاء الأمراء من لدن أولهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي عشرين عاملاً ، وعدة سنيهم بالشامي خمس وأربعون سنة ، وبالقمري سبع وأربعون سنة غير أشهر » انتهى .

وقال في موضع آخر ، نقلاً عن الرازي : « وافتُتحت الأندلس في أيام الوليد ابن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الزاهية بالصيت في ظهور الملة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز - رضوان الله عليه - مهتماً بها ، معتنياً بشأنها ، وقد حوّلها عن نظر والي إفريقية وجَرَدَ إليها عاملاً من قبله اختاره لها ، دلالةً على مَعْنِيَتِهِ بها ، ووقعت المقاسمُ فيها عن أمره وبفضل رأيه » انتهى .

. . .

[ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائي وغيره]

وفي الكتاب الخزائي وغيره سبابة فتح الأندلس على أتم الوجوه ، فلذلك ذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك - رحمه الله تعالى - موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بكري ، وذلك أن أباه نصيراً أصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في عين التمر ، فادعوا أنهم رهن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نصير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : إنه لخمي ؛ وعقد له على إفريقية وما خلفها في سنة ثمان وثمانين ، فخرج إلى ذلك الوجه في نفر قليل من المطوعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً ، وأتى إفريقية عمله ، فأخرج من أهلها معه ذوي القوة والجلد ، وصير على مقدمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويقتض جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ طنجة ، وهي قصبة ملك البربر وأم مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها - وقيل : إنها لم تكن افتتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتفعت - فأسلم أهلها ، وخطها قيرواناً للمسلمين . ثم ساروا إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها عالج يسمى يلبان ، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يطيقه ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة ، فهم يدبّون عن حريمهم ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هلك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب جبل أهل الأندلس ، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، إلا

١ أهل : سقطت من ق .

أنه من قوادهم وقرسانهم ، فولّوه أمرهم ، وكانت طليطلة دار الملك بالأندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عِدَّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وُكِّلوا به لثلاث يَفْتَح ، وقد عهد الأول في ذلك إلى الآخر ، فكلّما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلاً وصبروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفلَ مَنْ تقدّمه ، فلما قعد لثدريق هذا ، وكان متهمّاً يقظاً ذا فكر ، أتاه الحراسُ يسألونه أن يُقفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعلم ما فيه ، ولا بد لي من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، إنه لم يفعل هذا أحد ممّن قبلك ، وتناهوا عن فتحه ، فلم يلتفت إليهم ، ومشى إلى البيت ، فأعظمت ذلك العجمُ وضُرِعَ إليه أكابرُهم في الكف فلم يفعل ، وظن أنه بيت مال ، ففَضَّ الأقفال عنه ودخل ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، إلا تابوتاً عليه قفل ، فأمر بفتحهِ يحسب أن مضمونه يُقنّعه نقاسة ، فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقّة مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب عليهم العمامة وتحتهم الخيولُ العربابُ متقلّدي السيوف متنكبي القسي رافعي الرايات على الزمّاح ، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فإذا فيها : إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المصوّرة في هذه الشقّة تدخل الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوجم لثدريق وندم على ما فعل ، وعظم غمّه وغمّ العجم بذلك ، وأمر برّد الأقفال وإقرار الحرس على حالهم ، وأخذ في تدبير الملك ، وذُهِلَ عما أنذره .

وقد كان من سيرة أكابر العجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ، ويتأدّبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استلاقاً لأبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولّى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن . فانفق أن فعل ذلك يُلْيان عامل لثدريق على سبّته ، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلما

صارت عند لُذْرِيْقٍ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهَا فَأَعْجَبَتْهُ وَأَحْبَبَهَا حُبًّا شَدِيدًا ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتَضَّهَا ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرًّا ، بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدًّا ، واشتدَّتْ حِمِيَّتُهُ ، وقال : ودين المسيح لأزليْنَّ سلطانَه^١ ، ولأحضرَنَّ تحت قدميه ، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَرِ الله تعالى .

ثم إن يُلَيَّانَ ركبَ بحرَ الزُّفَاقِ من سَبْتَةِ في أصعبِ الأوقاتِ في يَنِيْرٍ^٢ قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى طُلَيْطَلَةَ نحو الملك لُذْرِيْقٍ ، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت ، وسأله عما لديه^٣ ولم جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيرا ، واعتلَّ بذكر زوجته ، وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، وإلحاحها عليه في إحضارها ، وأنه أحبَّ إسعافها ، ورجا بلوغها أمنيئتها منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية ، وتوثقَ منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه . وذكروا أنه لما ودَّعَه قال له لُذْرِيْقٍ : إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشَّدَانِيقَاتِ^٤ التي لم تَنَزَلْ تَطْرَفْنَا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا ، فقال له : أيُّها الملك ، وحقَّ المسيح لئن بقيتُ لأدخِلَنَّ عليك شُدَانِيقَاتٍ ما دخل عليك مثلها قط - عرَّضَ له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب عليه وهو لا يَفْقَظُ - فلم يَتَنَهَّه يُلَيَّانَ عندما استقرَّ بِسَبْتَةِ عمله أن تهيأَ للمسير نحو موسى بن نُصَيْرِ الأمير ، فمضى نحوه بإفريقية ، وكلمه في غزو الأندلس ، ووصف له حُسْنَهَا وفضلها ، وما جمعت من أسبابِ المنافع ، وأنواع المرافق ،

١ ك : ملكه وسلطانه .

٢ « يَنِيْر » اسم الشهر : (Enero) = كانون الثاني ، وفي ك : صَبر ، وصنبر : تعني شدة البرد .

٣ زاد في ك : وما جاء فيه .

٤ الشَّدَانِيقَات : الصقور .

ه ك : أَشْتَات .

وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثرارة^١ المياه وعلوبتها ، وهَوْن عليه مع ذلك حالَ رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء ، فشوق موسى إلى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلَيَّان ، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه مُكاشفة أهل مِلته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشنّ الغارة فيها ، ففعل يُلَيَّان ذلك ، وجمع جمعاً من أهل عمله ، فدخل بهم في مركبين وحلّ^٢ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبي وغنم ، وأقام بها أياماً ، ثم رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنيسوا بيُلَيَّان واطمأنّوا إليه ، وكان ذلك عقبَ سنة تسعين ، فكتب موسى بن نُصَيْر إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يُلَيَّان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خضّتها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُغرّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجعهُ أنه ليس بسَحَر زَخَّار ، وإنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زُرْعَة في أربعمئة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة مراكب ، فترل بجزيرة تُقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفائنهم ودارُ صناعتهم ، ويقال لها اليوم « جزيرة طريف » لتروله بها ، وأقام بها أياماً حتى تمام^٢ إليه أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سببياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله خُسناً ، ومالاً جسيماً ، وأمتعة ، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، فلمّا رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى الدخول ، وقيل : دخل طريف في ألف رجل ، فأصاب غنائم وسببياً ، ودخل بعده أبو زُرْعَة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، في ألف رجل منهم أيضاً فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرّقوا عنها ، فصرّموا عامتها بالنار ،

١ ج : وغزارة .

٢ ك : التام .

وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة ، وأصابوا سبياً يسيراً ، وقتلوا وانصرفوا سالمين .

وقال الرازي : هو أبو زرعة طريف بن مالك المَعافيري ، الاسم طبق الكنية .
قالوا : ثم عاود يُلَيان القُدومَ على موسى بن نُصير محرّكاً في الاقتحام على أهل الأندلس ، وخبرته بما كان منه ومن طريف وأبي زُرعة ، وما نالوه من أهلها ، وباروه من طيبيها ، فحمد الله على ذلك ، واستجدَّ عزماً في إقحام المسلمين فيها ، فدعا مولى له كان على مُقدّمته يسمّى طارق بن زياد بن عبد الله فارسياً همدانيّاً - وقيل : إنّه ليس بمولى لموسى ، وإنّما هو رجل من صَدَف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً ، وقيل : إنّه بربري من نَفْزَة - فعقد له موسى ، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهم البربر والموالي ، وليس فيهم عرب إلا قليل ، ووجّه معه يُلَيان ، فهيأ له يُلَيان المراكب ، فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها ، وخطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، في شهر أغسطس^١ ، ثم صرف المراكب إلى مَنْ خلفه من أصحابه ، فركب من بقي من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل ، وقيل : حلَّ طارق بجبله يوم الاثنين لحمس خلون من رجب من السنة في اثني عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً من البرابرة^٢ ، ولم يكن فيهم من العرب إلا يسير ، أجازهم يُلَيان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يُعلم بهم ، أولاً^٣ ، وركب أميرهم طارق آخرهم .

قيل :^٣ وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها : إنّه كان لها زوج عالم بالحديثان فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلادهم هذا ،

١ ك : أغسطس .

٢ ق : البربر .

٣ انظر ما تقدم ص : ٢٣١ .

ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخّم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شَعَرٌ ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومن معه .

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشّره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل : إنه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّأمه ، فهبّ من نومه مستبشراً ، وبشّر أصحابه ، وثابت إليه نفسه ثقةً ببشّراه ، فقويّت نفسه ، ولم يشكّ في الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شائناً للغارة .

قالوا : ووقع على لُذْرَيْقَ الملك خبرُ اقتحام العرب ساحل الأندلس ، وتوالي غاراتهم على بلد الجزيرة ، وأن يُلَيَّان السبب فيها ، وكان يومئذ غائباً بأرض بَنَبْلُونَةَ في غَزَاة له إلى البُشْكَنْسِ لأمر كان استصعب عليه بناحيتهما ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذي منه أُتي ، وأقبل مبادراً الفَتْقَ في جموعه ، حتى احتل بمدينة قُرْطُبَةَ من الوسطة ، ونزل القصر المدعوّ بها ببلاط لُذْرَيْقِ المنسوب إليه ، وليس لأنّه بناه أو اخترعه — وهو بناء منْ تقدمه من الملوك اتخذوه لمتزلّجهم في قرطبة إذا أتوها — إلا أن العرب لما غلبوا لُذْرَيْقَ وهذا القصر من مَواطنه نسبوه إليه ، إذ لم يعرفوا منْ بناه . ويزعم العجم أن الذي بناه ملك منهم كان ساكناً بمحصن المدور أسفل قرطبة ، وخرج يوماً يتصيد حتى

انتهى إلى مكان قُرْطُبَة ، وهي يومئذ خراب ، وكان في موضع قصرها غَيْضَة
عُلَيْقٍ ملتفة أشبّه ، فأرسل الملك بازيّاً له يكرم عليه على حَبْلَكَة غَنَّتْ له من
ناحية الكُدَيْة^١ المنسوبة بعد إلى أبي عبدة^٢ ، فَتَخَبَّتْ في ذلك العُلَيْقِ ،
ولجّ البازي في الانقضاض عليها ، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه
بالْحَرْجَة ، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه. ضَمّاً منه به ، ففُطِعت ، وبدا له تحتها
أساسُ قصر عظيم راقه رَصَه ، وقد كان ذا همة ، فأمر بالكشف عنه ، وتقصي
خدوده طولاً وعرضاً ، وتبع أسه وأصله ، فوجده مبنياً من وجه الماء بصمّ
الحجارة فوق زَرْجُونٍ وُضِعَ بينها وبين الماء بأحكام صناعة ، فقال : هذا أثر
ملك كريم ، وأنا أولى من جَدِّه ، فأمر بإعادته إلى هيأته ، واتخاذَه منزلاً من
منازل راحاته ، فكان إذا طاف بعمله أو مضى في مُتَصَيِّدِه نزل فيه ، وصار
السبب في بناء قرطبة إلى جنبه ، ونزول^٣ الناس فيها ، وتوارث الملوك قصرها من
بعد ، ونزله لُدَرْيَق في زحفه إلى العرب أياماً ، والحشود من أعماله تتوافى
إليه ، ثم مضى نحو كورة شدونة يبغى لقاءهم في حشوده الكثيرة .

وقيل : إن آخر ملوك الأندلس الذين تَلَكَّتْهم العربُ غِيظُشة ، وإنه هلك عن
أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك ، فضبطت أمهم عليهم ملك والدهم
بَطْلَيْطَلَة ، وانحرف لُدَرْيَق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم ، فصار
بَقْرُطُبَة ، فلما اقتحم طارق الأندلس نذر إليه لُدَرْيَق واستنفر إليه أجناد أهل
الأندلس ، وكتب إلى أولاد غِيظُشة - وقد ترعرعوا ، وركبوا الخيل ، واتخذوا
الرجال - يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود
عنه ، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يداً واحدة ، فلم يجلبوا بدءاً ،
وحشَدوا ، وقدموا عليه بَقْرُطُبَة ، فترلوا أكناف قرية شَقْنَدَة بعددوة

١ الكدية : الأرض المرتفعة .

٢ ك ق ج : عبدة .

٣ ك : ونزل .

نهرها قبالة القصر ، ولم يطمئنتوا إلى الدخول على لُذَرِيق أخذاً بالحزم ، إلى أن استتبَّ جهاز لُذَرِيق وخرج ، فانضموا إليه ، ومضوا معه وهم مُرْصِلُونَ لمكروهه . والأصح - والله أعلم - ما سبق أن مُلْك القوط اجتمع للذريق ، واختلف في اسمه فقيل : رُذَرِيق - بالراء أوله - وقيل : باللام للذريق وهو الأشهر ، وقيل : إن أصله من أصبهان ويسمى الإشبان ، والله أعلم .

قالوا : وعسكر لُذَرِيق في نحو مائة ألف ذوي عِدَد وعُدَّة ، فكتب طارق إلى موسى يستمده ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فُرْضَةَ الأندلس ، ومُلك المجاز إليها ، واستولى على أعمالها إلى البحيرة ، وأن لُذَرِيق زحف إليه بما لا قبيلَ له به ، إلا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عِدَّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَدَاً كملت بهم عدة مَن معه اثني عشر ألفاً أقوياء على المغام ، حِرَاصاً على اللقاء ، ومعهم يُلَيَّان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يدُهم على العَوْرَات ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُذَرِيق في جموع العجم ، وملوكها وفرسانها ، فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : إن هذا ابنَ الحبيشة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ، فلننا نعلم من سيرته خبَلاً في أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا ، وإنما مرَادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فهلمَّ فلننهزم بابن الحبيشة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إيَّاه ، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يُبْرَم ما ارتأوه .

وكان لُذَرِيق ولَّى ميمته أحد ابني غيطشة ، وميسرته الآخر ، فكانا

١ وقيل ... أعلم : هذه الجملة موجودة في جميع الأصول وهي قلقة ولا تلتزم مع ما تقدم من حديث عن إشبان .

رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولادُ غيطشة على الغدر بلذريق ، وأرسلوا إلى طارق يُعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركين حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ضياع والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغد ، فانحاز الأولاد إلى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح ، وكان الالتقاء على وادي لكّة من كورة شتونة ، فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لذريق نفسه في وادي لكّة وقد أثقلته السلاح^١ ، فلم يُعلم له خبر ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجه لذريق عِلجاً من أصحابه قد عرّف بجدته ووثق ببابه ليشرّف على عسكر طارق فيحزّر عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم ، فأقبل ذلك العليج حتى طلع على العسكر ، ثم شدّ في وجوه من استشرّفه من المسلمين ، فوثبوا إليه ، فولّى منصرفاً راكضاً ، وفاتهم بسبق فرسه ، فقال العليج للذريق : أتبتك الصور التي كشف لك عنها التابوت ، فخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرّقوا مراكبهم إبّاساً لأنفسهم من التعلّق بها ، وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، إلى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته ،

١ ك : الجراح .

انهزم بهما أبناء غيطشة ، وثبت القلبُ بعدهما قليلاً وفيه لُذريق ، فعذراً^١ أهله بشيء من قتال ، ثم انهزموا ولُذريقُ أمامهم ، فاستمرت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون القتل فيهم ، وخفي أثر لُذريق فلا يدرى أمره ، إلا أن المسلمين وجدوا قَرَسَه الأشهب الذي فقَدَ وهو راكبه ، وعليه سَرَج له من ذهب مُكَلَّل بالدرّ والياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفيّه وكان من ذهب مُكَلَّل بالدرّ والياقوت^٢ ، وقد ساخ الفرسُ في طين وحمأة ، وغرق العليج ، فثبت أحد خفيّه في الطين فأخذ ، وخفي الآخر ، وغاب شخص العليج ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، والله أعلم بشأنه .

وقال الرازي : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَون من شوال بعد تنمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم^٣ ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يحلُّ قَدْرُه ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجلونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الصيّء وخمسة ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل

١ أن ك ط ودوزي : فندر . وعذر : دفع عن نفسه اللوم بفعل كأنه تقصير ؛ وسقط من ج :

فندر . . . وخفي أثر لُذريق .

٢ زاد في ك : والزبرجد .

٣ ك : خلق كثير عظيم .

٤ ج : الغنائم .

طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شَدُونَة ، فامتنعوا عليه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم ، فتهيأ له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مورور^١ ، ثم عطف إلى قَرْمُونَة فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل إستِجَة وهم في قوة ومعهم فلّ عسكر لُدْرِيْق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلقَ المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعِلْج صاحبها ، وكان مغترّاً سىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلمّا كاشفَه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحبّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلص سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرُعبَ في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغباً في المغنم عاملاً على القُفُول ، فسقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعازل ، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طَلَيْطَلَة ، قيل : وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدم إلى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها في القدور ، يرونها أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رُعباً ويُجفِلُون فراراً ، قالوا : وقال يُلَيَّان لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مَهَرَة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طَلَيْطَلَة حيث مُعَظَمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم ، وفرّق طارق جيوشه من إستِجَة ، فبعث مغنياً الرومي مولى الوليد بن

١ ك : ملور ؛ ومورور : (Moron) كورة متصلة بأحواز قرمونة .

عبد الملك إلى قَرْطُبَة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيلَ العجم ، ولم يبقَ فيهم راجلٌ ، وفَضَلَتْ عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقَة ، وآخر إلى غَرْناطة مدينةَ البيرة ، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطَلَة ، وقد قيل : إن الذي سار لقَرْطُبَة طارق بنفسه ، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعدوّه نهر شَقْنُدَة في غَيْصَة أَرْزٍ شامخة ، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنمٍ فسئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطَلَة ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس^١ من حُماهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عالٍ فوق أرضها إلا أنه فيه ثُغْرَة ووصفها لهم^٢ ، فلما أجنّتهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسبابَ الفتح بأن أرسل السماء برداً أخفى دققة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قَرْطُبَة ليلاً ، وقد أغفل حَرَسُ المدينة احتراسَ السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد ، فترجّل القومُ حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل^٣ ، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلّقاً ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة التسنّم ، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلّق بها ، فصعد رجل من أشدّاء المسلمين في أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فتناوله طرفها ، وأعان بعضُ الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرًا منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوةً ، فصمد إلى البلاط منزِلَ الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم

١ فارس : سقطت من ق ط ج .

٢ لهم : سقطت من ط ج ق .

٣ أو أقل : سقطت من دوزي .

المدينة فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغيري المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وما حولها ، وقال مَنْ ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : إنه كتب إلى طارق بالفتح ، وأقام على محاصرة العِلج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدم إلى أسود من عبيده اسمه رباح ، وكان ذا بأس وبجدة ، بالكُمون في جنان إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار ، لعله أن يظفر له بعِلج يقف به على خبر القوم ، ففعل ، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد في بعض تلك الأشجار ، وذلك أيام الثمر ، ليحني ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ، وشدوا عليه ، فأخذوه فملكوه^١ ، وهم في ذلك هائبون له منكرون لحلقه ، إذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لخطهم وتعجبهم من خلقه ، وحسبوا أنه مصوغ أو مطلي ببعض الأشياء التي تُسود ، فجردوه وسط جماعتهم ، وأدنوه إلى القناة التي منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا في غسله وتدليكه بالحبال الحُرش ، حتى أدموه وأعنتوه ، فاستغاثهم ، وأشار إلى أن الذي به خِلقة من بارئهم ، عز وجل^٢ ، ففهموا إشارته^٣ ، وكفوا عن غسله^٤ واشتد فرعهم منه ، ومكث في إسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمع عليه والنظر إليه إلى أن يسر الله له الخلاص ليلاً ، ففر وأتى الأمير مغيثاً فخبّره بشأنه وعرفه بالذي اطلع عليه من موضع^٤ الماء الذي يتابونه ، ومن أي ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها ، فقطعوها عن جريتها إلى الكنيسة ، وسدوا منافذها ، فأيقنوا

١ دوزي : وملكوه .

٢ ق ط ج : ففهموا عنه .

٣ ك : وكفوا عنه وعن غسله .

٤ ك : اطلع عليه من شأنهم وموضع .

بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ؛ غير أن العليج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك ، ففر عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق بِطُلَيْطَلَة ، فمني^١ خبره إلى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تَطْلِيرَة^٢ هارباً وحده ، وتحت فرس^٣ أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالتفت العليج ودَّهَش لما رأى مغيثاً قد رَهَقه ، وزاد في حَتِّ فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندقت عنقه ، فقع على ترسه مستأسراً قد هاضته السقطة ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحسبه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره ، لأن بغضهم استأمن وبعضهم هرب إلى جَلَيْقِيَّة . وفي رواية أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة بعد أسره للمكهم ، فضرب أعناقهم جميعاً ، فمن أجل ذلك عُرِفَت بكنيسة الأسرى وأن مغيثاً جمع يهود قُرْطُبَة فضمهم إلى مدينتها استنامة^٤ إليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وَأَمَّا مَنْ وَجَّهَ إِلَى مَالِقَةَ ففتحوها ، ولجأ عُلُوجُهَا إلى جبال هناك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيشُ بالجيش المتوجه إلى البيرة ، فحاصروا مدينتها غَرْنَاطَة ، فافتحوها^٢ عَنَوَة ، وضموا اليهود إلى قصبة غَرْنَاطَة ، وصار ذلك لهم سُنَّة متبعة^٤ في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضي معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجلبوا يهوداً وقرؤوا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رِيَّة التي منها مَالِقَة مثل ذلك .

١ ك : قبل

٢ كذا في ق ك ط ج ، ولعلها : طلبيرة .

٣ ك : فاتتحوها .

٤ متبعة : سقطت من ك .

ومضى الجيش إلى تَدْمِير ، وتدمير : اسم العلاج صاحبها ، سميت به ، واسم قصبتهأ أريولة ، ولها شأن في المنعة ، وكان ملكها علجاً داهية ، وقاتلهم مضحياً^١ ، ثم استمرت عليه الخزيمة في فحْصِهَا ، فبلغ السيفُ في أهلها مَبْلَغاً عظيماً أفنى أكثرهم ولجأ العلاج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يُغْنُون شيئاً ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القَصَب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قُدَّامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمون في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مِرَاسَه لكثرة مَنْ عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكَّرَ زيه ، فترل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفَهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذَهم بالوفاء بعَهْدِهِ ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية ، فندموا على الذي أعطَوْه من الأمان ، واسترجحوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تَدْمِير من مَعَرَّة المسلمين بتدبير تَدْمِير ، وصارت كلها صلحاً ليس فيها عَنُوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخطفوا بقصبة البلد رجالاً منهم ، ومضى معظمهم^٢ إلى أميرهم لفتح طُلَيْطَلَة . قال ابن حِيَّان : وانتهى طارق إلى طُلَيْطَلَة دار مملكة القُوط ، فألفاها خالية قد فرَّ أهلها عنها^٣ ولجأوا إلى مدينة بها خلف الجبل ، فضم اليهود إلى طُلَيْطَلَة ، وخلف بها رجالاً من أصحابه^٤ ، ومضى خلف مَنْ فر من أهل طُلَيْطَلَة فسلك إلى وادي^٥ الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمي به

١ ق ك ط ج ودوزي : مصحياً ، واللفظة تحتاج تصويباً ، واقتراح مراجع ط . ليدن أن تقرأ « مضحياً » بمعنى « في وقت الضحى » .

٢ ق ط ج : المعظم .

٣ ك : عنها أهلها .

٤ من أصحابه : سقطت من ق .

٥ ك : فسلك وادي .

بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام ، وهي خضراء من زَبَرَجْدَةٍ ١ حافاتها منها وأرجلها ، وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلاً ، فأحرزها عنده ، ثم مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حلياً ومالاً ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيْطَلَة سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جَلَيْقِيَّة وَاخْتَرَقَهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَدِينَةِ اسْتُرْقَةٍ ، فدوخ الجهة ، وانصرف إلى طُلَيْطَلَة ، والله أعلم . وقيل : إن طارقاً دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نُصَيْر ، فالله أعلم . قال بعضهم : وكانت إقامته في الفتوح وتدوين البلاد إلى أن وصل سيده موسى ابن نُصَيْر سنة ، وكان ما سيذكر .

وَأَنشَدَ فِي « الْمَسْهَبِ » وَابْنُ الْيَسَعِ فِي « الْمَرْبِ » لطارق من قصيدة قالها في الفتح :

ركبته سقيناً بالمجاز مُقَيَّرَا عسى أن يكون الله منّا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بِجَنَّةٍ إِذَا مَا اشْتَهَيْنَا شَيْءَ فِيهَا تيسَّرَا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا إِذَا نحن أدركنا الذي كان أجندرا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يُكْتَبُ لمرعاة قائلها ومكانته ، لا لعلو طبقتها ٢ ، انتهى .

وأما أولاد غيطشة فإنهم لما صاروا إلى طارق بالأمان ، وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم ، قالوا لطارق ٣ : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ فقال : بل على رأيي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنوه باللاحاق بموسى بن نُصَيْر بإفريقية ليؤكد سيدهم به ، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى فتلَقَّوْهُ فِي انْخِدَارِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ بِالْقَرَبِ ٤

١ ك : زبرجد .

٢ ق ط ج ودوزي : لعلو طبخته .

٣ انظر ابن القوطية : ٢٩ - ٣٠ .

٤ في ق « بالمرب » وفي بعض الأصول « بالمغرب » ولعل الصواب « بالغرب » وهو ما ثبت في ك ط .

من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم ، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلاً ، وجعل لهم أن لا يقوموا لدخول عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضياع والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم أَلْمُنْدُ^١ ألف ضيعة في غرب الأندلس ، فسكن من أجلها إشبيلية مقرباً منها ، وصار لأرطباش^٢ ألف ضيعة ، وهو تلوه في السن ، وضياعه في موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قُرطُبة ، وصار لثلاثهم وقيلة^٣ ألف ضيعة في شرقي الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة طَلَيْطَلَة ، فكانوا على هذه الحال صدّر الدولة العربية ، إلى أن هلك أَلْمُنْدُ كبيرهم ، وتخلّف ابنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباش على ضياعهم ، وضمها إلى ضياعه ، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت أَلْمُنْدُ مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق ، فأنت خبرها ، وشكت ظلامتها من عمّتها واستعدت عليه^٤ ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه^٥ على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام إلى نفسه ، وأعجبه صورتها^٦ وحزمها ،

١ أَلْمُنْدُ : (Olmundo) .

٢ أرطباس ويكتب أحياناً «أرطبان» وهو أردبست بن غيطشة : (Ardabast) .

٣ دوزي : رمله على أنها تعريب (Romulus) وكذلك هي عند ابن القوطية ولكن يبدو أن الصواب

«وقله» وهو تعريب أخيل : (Aquila) .

٤ ك : وخلف .

٥ ك : وتديده عليها .

٦ ق ك ط ج : وإخوته .

٧ صورتها : ليست كذلك في النسخ وإنما وردت في ق ط : ضررها ، وفي أصول أخرى :

ضررها ، صرمها ؛ ولعل الأخيرة أصوب بمعنى «الحزم» .

وكتب إلى حَنْظَلَةَ بن صَفْوَانَ عامله بإفريقية بإلصافها من عمِّها أَرطَباش وإمضائها وأخويها^١ على سُنَّة الميراث فيما كان في يد والدها ممَّا قاسم فيه أخويه ، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أَبِي الخطار ابن عمِّه ، فمَّ لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزَاحِم^٢ ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها إلى الأندلس ، وقام لها في دفاع عمِّها أَرطَباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة ، ووُلِدَ له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرف المؤثِّل والرياسة بإشبيلية ، وشهرا ونسَلهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية . وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رَأَتْ عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعدُ إلى الأندلس ، وعرفها ، فتوسَّلت بذلك^٣ إليه لَمَّا مَلَكَ الأندلس ووفدت إليه ، فاعترف بذمِّ مامها وأكرمها ، وأذن لها في الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدد تَكرَمتها ولا يحجب عياله منها ، وتوفي زوجها عيسى^٤ في السنة التي ملك فيها عبدُ الرحمن الأندلس ، فزوَّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد .

وكان لها ولأبيها أَلَمَد وعمِّها أَرطَباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية : فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي^٥ أَنه قصد أَرطَباش يوماً إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصَّمِيل وابن الطُّفِيل وأبو عُبَيْدَة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسي ، وبالع في تَكرِمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بني حَزْم ، وكان في عداد الشاميين ، إلَّا أَنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده ووَرَعه ، فلمَّا بَصُر به أَرطَباش قام إليه دونهم إعظاماً ، ورقاه إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه ، وكان مُلبَّساً صفائح الذهب ، وجذبه

١ ق ك ط : وإخوتها .

٢ عيسى بن مُزَاحِم : من موالى عمر بن عبد العزيز ؛ انظر ترجمة ابن القوطية في ابن خلكان ٤ :

٤ - ٦ وفيه خبر سارة القوطية في إيجاز .

٣ بذلك : سقطت من ك .

٤ عيسى : سقطت من ق .

٥ انظر هذا الخبر في ابن القوطية : ٦١ .

ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : يا سيدي ، ما الذي جاء بك إلى مثلي ؟ فقال له : ما تسمعه ، إنا قدمنا إلى هذا البلد غُرّة نحسب أن مقامنا فيه لا يَطُول ، فلم نستعدّ للمقام ولا كَثُرنا من العدة ، ثمّ حدثنا بعدنا على موالينا وفي أجنادنا ما قد أيسّنا معه من الرجوع إلى أوطاننا ، وقد وسّع الله عليك ، فأحب أن تدفع إلي ضياعاً من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأؤدي إليك الحق منها وأخذ الفضل لي طيباً أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أهب لك هبة مسوغة ، ثمّ ادعأ بوكيل له فقال له : سلّم إليه المتجشّر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع إليه الضيعة التي بجيآن ، فتسلّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، وإليهم نُسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه . وقد أنف الصّميل من قيامه إليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنك أرجح وزناً ، أدخلُ عليك وأنا سيدُ العرب بالأندلس في أصحابي هؤلاء ، وهم سادة الموالى ، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، إن أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرْهِفْكَ ولو كان لم تنكر عليّ ما فعلته ، إنكم أكرمكم الله إنّما تكرمُون لدنياكم وسلطانكم ، وهذا إنّما أكرّمته الله تعالى ؛ فقد روينا عن المسيح ، عليه السلام ، أنّه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنّما ألقمه حجراً . وكان الصّميل أميّاً ، فلذلك عرّض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته ، فانظر في شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم إلاّ الكثير ، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقسمونها عشراً عشراً ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها

١ ك : وحدثت ، وفي بقية الأصول : ثمّ حدثت .

٢ المتجشّر : المرعى .

إليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

قال ابن حيّان وغيره : ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أُتيح له من الفتوح حسده ، وتنبأ للمسير إلى الأندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم ، وقيل : إنهم كانوا ثمانية عشر ألفاً ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل الذي حلقه طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أقف أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يُلّيان : نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وذلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً وأوسع غنماً^٢ من مدائنه ، لم تفتَحْ بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى ، فملأ سروراً . وكان شغوف طارق قد غمته ، فساروا به في جانب ساحل شدّة ونة ، فافتتحها عنوة ، وألقوا بأيديهم إليه ، ثم سار إلى مدينة قرمونة ، وليس بالأندلس أحصنُ منها ، ولا أبعد على من يرؤمها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلّيان ، دخلوا إليهم كأنهم فُلاّل وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملكّت المدينة . ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا ، وأعجبها ببناءً ، وأكثرها آثاراً ، وكانت دار الملك^٣ قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طليطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية ، فامتنعت أشهراً على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجة ، فضم موسى يهودها إلى القصبة ، وخلف بها رجالاً ، ومضى من إشبيلية إلى

١ ك : نسلك .

٢ بعض الأصول : هي أوسع خطراً وأعظم خطباً . . . الخ ؛ وقد سقطت « أعظم خطراً » من ق ط ؛ وفي ج : هي أعظم وأوسع منغماً .

٣ ق ك : الملكة .

لَقُنْتُ^١ إلى مدينة ماردة ، وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عزّ ومنّة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضاً ، وكان في أهلها منّة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم ، وعمل موسى دبابة دبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلمّا قلعوا الصخر أفضّوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه^٢ ، فنبت عنه معاولهم وعدتهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع برج الشهداء ، ثم دعا القوم إلى السلم ، فترسل إليه في تقريره قوم من أمثالهم أعطاهم الأمان واحتال في توهيمهم في نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فإذا هو أبيض الرأس واللحية كما نصل خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعادوه قبل الفطر بيوم ، فإذا به قد قنأ لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرّيج ، فعجبوا من ذلك ، وعادوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سوّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنّنا نقاتل أنبياء يتخلّقون كيف شاءوا ، ويتصورون في كل صورة أحبوا ، كان ملكهم شيخاً فقد صار شاباً ، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتل يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين^٣ ، ثم فتحوا له المدينة

١ في ك ط : القنت والتصحيح عن دوزي ، وهي تقابل (Fuente de Cantos) إذ لا يمكن أن تكون هي «لقنت» في جنوب الشاطئ الغربي من الجزيرة وقرأها بعض الباحثين لا كانتوس ، وهي تعني «عين كانتوس» .

٢ ألاشه ماشه : (Argamasa) أي الإسمنت ، كما أثبت ذلك في حواشي ط . ليدن ؛ وفي معجم بيدرو دالكالا أن (Laxmā = Argamasa) .

٣ في هذا النص اضطراب إذ يبدو أن شروط الصلح على هذا النحو لا يمكن أن يقبل بها أهل ماردة ؛ وقد جاء في أخبار مجموعة : ١٨ «فصالحوه على أن جميع أموال القتل يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها له» وإذا قرأت «ها» بدل «له» كان هذا النص أصوب ، فيما أرى .

يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها . ثم إن عجم إشبيلية انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجة ولبلة إليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، وأتى فلتهم الأمير موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها ، ونهض إلى لبلة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز^١ بإشبيلية ، وتوجه الأمير موسى من ماردة في عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة ، وبلغ طارقاً خبره ، فاستقبله في وجوه الناس ، فلقيه في موضع من كورة طليطلة ؛ وقيل : إن موسى تقدم من ماردة فدخل جليقية من فج نسب إليه ، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة ، فغض منه علانية ، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لما وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاماً له ، فقنعه موسى بالسوط ، ووبخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه . وساروا إلى طليطلة ، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفياء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لي به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخل بها .

وقال ابن الفرضي^٢ : موسى بن نصير صاحب فتح الأندلس لخمسي يكنى أبا عبد الرحمن ، يروي عن تميم الداري ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبي . وقيل : غزا موسى بن نصير في المحرم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طنجة ، ثم عبر إلى الأندلس ، فأدأخها ، لا يأتي على مدينة إلا فتحها ونزل أهلها على حكمه ، ثم سار إلى قرطبة ، ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى إفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا بما

١ ق : عبد العزيز بن موسى .

٢ ابن الفرضي ٢ : ١٤٤ وفيه : « يقال : مول لهم » ، وهو عجيب .

احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظَّهْر ،
ومعه ثلاثون ألف رأسٍ من السبي ، فلم يلبث أن هلك الوليدُ بن عبد الملك ،
وولي سليمان ، فنكب موسى نكباً أداه إلى المتربة ، فهلك في نكبته تلك بوادي
القرى سنة سبع وتسعين .

قال ابن حيّان : وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه
الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام
ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا
اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشبابها
من الذهب والفضة ، تحمل الشماسة والقُسُوس فوقها مصاحف الأناجيل
إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها^١ على المذابح في الأعياد للمباهاة بزيتها ،
فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صيغ^٢ في هذه السبيل ، وتأنقت الأملاك في
تفخيمها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من
تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ، وكانت مَصُوعَة من خالص الذهب ،
مُرَصَّعة بفآخر الدرّ والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلاً ، وبولغ في تفخيمها
من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة
إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فأصابها
المسلمون هناك ، وطار النبا الفخم عنها . وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل
الذي فعله من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه ، فاستظهر
بانتراع رجلٍ من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فلكجه به على
موسى علوة عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور ،
انتهى .

١ ابن عبد الملك : سقطت من ق ج ط .

٢ ق ودوزي : ويصفونها .

٣ ط : صنع .

وقال بعض المؤرخين^١ : إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكلها مكلّلة بالجوهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حيتان من أن الذي نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب ، وأما ما حكاه ابن خلدكان من أن المنكب^٢ له الوليد فليس بصحيح ، والله أعلم .

رجع إلى كلام ابن حيتان - قالوا : ثم إن موسى اصطليح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة وأعمالها ، وأوغل في البلاد ، وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلا فتح عليهما ، وغنمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح^٣ ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ، ويكمل ابتدائه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من أقام على سلمه ، ووطئ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفريقية ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى انتهوا إلى وادي رودة^٤ ، فكان أقصى أثر العرب ومتهى موطنهم من أرض العجم . وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلد إفريقية فملكنت مدينتي برشلونة وأربونة

١ ابن خلدكان ٤ : ٤١١ .

٢ جزء ٤ : ٤١٢ ، وليس هناك كلمة « المنكب » وإنما قال ابن خلدكان : « ويقال إن الوليد كان قد نعم عليه أمراً فلما وصل ، وهو بدمشق ، أقامه في الشمس يوماً كاملاً في يوم صائف حتى خر مغشياً عليه » وعندني أن المنكب تصحيف لكلمة « الميكت » .

٣ ط : صلح .

٤ في الأصول : رودة ، وهي تقابل نهر الرون ، ويشك المؤرخون في أن يكون موسى قد تغفل في هذه المناطق .

وصخرة أبنيون^١ وحصن لودون^٢ على وادي رُودنة ، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدآ ، وذكر أن مسافة ما بين قَرْطُبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً ، وقيل : ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً ، ولما أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارل^٣ ملكُ الإفرنجية بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلمّا انتهى إلى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة أبنيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بين الأَجبل المجاورة لمدينة أربونة ، وهم بحال غيرة لا عِيُون لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتى أحاط بهم علوّ الله قارله ، فاقتطعهم عن اللّجلى إلى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم ، وحَمَلَ جمهورُهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بمحصانها ، فثار لهم بها أباتماً أصيب له فيها رجال ، وتعذّر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلاً إلى بلده ، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رُودنة شكّتها بالرجال فصيرّها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس .

وقال الحِجاري في المسهب : إن موسى بن نُصَيْر نصره الله نصرأ ما عليه مزيد ، وأجفَلَتْ ملوك النصارى بين يديه ، حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سِمةُ للمكهم ، فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العُدّة والعَدَدَ بجمعهم القليل ،

١ أبنيون : (Avinionum) ، إلى الشمال من آرل على نهر الرون .

٢ لودون : (Leon) .

٣ Carlus = Charlie .

وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خراجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض^١ ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمُضَرِّيَّة واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ، انتهى .

وقيل : إن موسى بن نُصَيْر أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدمير ففتحها ، وإلى غرناطة ومالقة وكورة ربة ففتح الكل ، وقيل : إنه لما حاصر مالقة - وكان ملكها ضعيف الرأي قليل التحفظ - كان يخرج إلى جنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غمة الحصار من غير نصب عين وتقديم طليعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكن له في جنبات الخنة التي كان ينتابها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم ، أرصدوا له ليلاً فظفروا به وملكوه ، فأخذ المسلمون المدينة^٢ عنوة ، وملأوا أيديهم غنيمة .

وقيل : كانت نفس موسى بن نُصَيْر في ذلك كله تترعج^٣ إلى دخول دار الكفر جليقية ، فبينما هو يعمل في ذلك وبعد له إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس^٤ والإضراب عن اللوغول فيها ، ويأخذه بالقفول إليه ، فسأه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تلخه العرب إلى وقته ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص

١ الصواب : على بعض .

٢ ك : البلد .

٣ ق : فازعج .

٤ عن الأندلس : سقطت من ق .

على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة ، وسأله إنظاره إلى أن يُنفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أيتاماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن بارو^١ وحصن لُك^٢ ، فأقام هناك ، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلّاي^٣ على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هُدمت ، ولا ناقوس إلا كُسر ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخذل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليدُ مغيثاً لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع^٤ حيثنذ من مدينة لُك^٥ بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى^٥ ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومتّصين جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من أثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلّوا بإشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس ، وأقرّه بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان^٦ المجاز ،

١ دوزي : بازو ؛ وقد اختار هذه القراءة لتقابل (Viseu) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أوبورتو . ويرى بعض المؤرخين أن وصول موسى إليها حيث كان ، في وقت قصير ، أمر عسير جداً ، ولذا قدروا أن تكون بارو في منطقة بلد الوليد أي البلدة المسماة (Villabaruz) ويكون الاسم « باروز » .

٢ لك : هي (Lucus Asturum) ، وتسمى اليوم : (Maria de Lugo) .

٣ صخرة بلّاي : (Pena de Pelayo) وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي (البحر الأخضر) .

٤ ق : فانخلع ، وسقطت « حيثنذ » بعدها .

٥ فج موسى : (Valmusa) (أي زادي موسى) .

٦ ك : مكاره .

وركب موسى البحر إلى المشرق بلدي حجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله ستين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسبي ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوهاً بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقدَّر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاتته ، أسيفاً على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفريقية ، ويفتح الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مختبرته بتلك الأرض طريقاً مهيباً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً ، وقيل : إنه أوغل في أرض إفريقية حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالقر كتابة عربية ^١ قرئت ، فإذا هي : يا بني إسماعيل ، انتهيت فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كُتِبَ هذا إلا لمعنى كبير ، فشاوَر أصحابه في الإعراض عنه وجَوَّازَه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأي جمهورهم ، وانصرف بالناس ، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتَقَصَّى الغاية .

وحكى الرازي : أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على إفريقية أسنّ ولده عبد الله بن موسى ، وكان موسى في عشرة آلاف ، قال : وكان عبد الملك بن مروان هو الذي أغرى موسى المغرب في خلافته ، ففتّح له في أهله البرابرة فتوح كبار ، حتى لقد بعث إلى عبد الملك في الخمس بعشرين ألف سبيّة ، ثم أردفها بعشرين ألفاً أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .

وزعم ابن حبيب ^٢ : أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو

١ ك : بلاد .

٢ كذا في جميع الأصول .

٣ سيأتي الحديث عن التابعين الذين دخلوا الأندلس في أول الباب السادس .

المنيلدر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلي بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي ، وقيل : إن ثالثهم إنما هو حنّس بن عبد الله الصنعاني ، صنعاء الشام ، وإنّهم قفلوا عنها بقول موسى ، وأهل سرقسطة يزعمون أن حنّس مات عندهم ولم يقفل للمشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه ، فالله أعلم .

وقيل : إن التابعين أربعة . بأبي عبد الرحمن الحُبليّ الأنصاري ، واسمه عبد الله بن يزيد ، والله أعلم ، وخمستهم بعضهم بحبّان^١ بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر ، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدويقال له قرّشونة ، وقيل : بل قفل إلى إفريقية^٢ فتوفي بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : إن بين قرّشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً ، وفيها الكنيسة المعظمة عند القرنج المسماة شنت مرية ، وقد حكى ابن حبان أن فيها سبع سوارٍ من فضة خالصة لم يرَ الراؤون مثلاً لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مُقَرِّط .

وحنّس الصنعاني المذكور تابعي^٣ جليل ، كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتله ، فصار عداؤه في المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الأندلس شرّاً دخوله لها . وعلي بن رباح بصري تابعي ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمى ، وُلد عام اليرموك سنة خمس عشرة ، قال ابن معين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ،

١ في جميع الأصول : بحبان (خيشا وقع) ؛ وأثبتته ابن حجر (التبصير ١ : ٢٧٨) بالباء الموحدة .

٢ وقيل . . . إفريقية : سقطت من ك .

٣ تابعي : سقطت من ق ، وهو سهو .

وأهل العراق يقولونه بضمها ، وروى الليث عن ابنه موسى بن عليّ ، وكانت لعليّ بن رباح عند عبد العزيز بن مَرْوَان مكانة ، وهو الذي زفّ ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثمّ عتب عليه عبد العزيز فأغراه إفريقية .

وأما المنذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر في الصحابة^١ وقال : إنّه المنذر الإفريقي ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحُبلي ، قال : حدثنا المنذر الإفريقي^٢ ، وكان سكن إفريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنّه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : رضيت بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فأنا الزعيم له ، فلا تخُذَنَ بيده ، فلا تدخلنهُ الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في حق المنذر مزيدُ بيان^٣ .

ولما قُتِلَ موسى بن نُصَيْر إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم إليه العِلجَ صاحبَ قُرْطُبة الذي كان في إساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواي ، وكان يُدَلُّ بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حياً معك ادعاه مغيث ، والعِلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنّها عليه مغيث ، وصار إلثماً مع طارق الساعى عليه ، واستخلف موسى على طَنْجَة وما يليها من المغرب ابنه الآخرَ عبدَ الملك ، وقد كان - كما مرّ - استخلف بإفريقية أكبرَ أولاده عبد الله ، فصار جميعُ الأندلس والمغرب بيد أولاده ؛ وابنُه عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو الفاتحُ لجزيرة مَيُورُقة . وسار موسى فورد الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثاني قال : قدم على سليمان حين استُخْلِفَ ، وكان منحرفاً عنه ، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية

١ انظر الاستيعاب : ١٤٨٥ .

٢ وروى الإفريقي : سقطت سهواً من ق .

٣ يعني في أول الباب السادس .

منه ، ورَمَيَّاه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعليج صاحب قرطبة ، وقال له : إنَّه قد غلَّ جوهرأ عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلمَّا وافى سليمان وجده ضغيئاً عليه ، فأغلظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنَّه الذي أصابها دونك ، قال : لا ، وما رأها قطُّ إلا عندي ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرَّجل التي تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رجلاً صنعتها لها ، فحول طارق يده إلى قبائه فأخرج الرَّجل ، فعلم سليمان صدقه وكذب موسى ، فحقَّق جميع ما رمي به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وحبسه ، وأمر بتقصي حسابه ، فأغرمه غرمأ عظيمأ كشفه فيه ، حتى اضطره إلى أن سأل العرب معُونته ، فيقال : إن لُحماً حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حمله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمان ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إياه ، إلا أنَّه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية .

وقال الرازي : إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنائه وثناه قافلاً ، وقفل معه من أحبَّ المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

• • •

[نهاية موسى وابنه عبد العزيز]

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنَّما قدم على الوليد ، وأن سليمان وليَّ العهد لما سمع بقرب موسى بن نُصَيْر من دِمَشْق - وكان الوليد مريضاً - كتب - أي سليمان - إلى موسى يأمره بالتربص ، رجاء أن يموت الوليد قبل قتلوم موسى فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم

الكثيرة التي ما رثي ولا سُمِعَ مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينُهُ منه ، وجدَّ في السير^١ حتى قدم والوليدُ حيًّا ، فسَلَّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يَمكث الوليد إلاَّ يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفي ، واستخلف سليمان ، فحَقَدَ عليه وأهانهُ ، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرَمه أموالاً عظيمة ، ودسَّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس ، وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تولى الأندلس بعد قُصُول أبيه عنها باستخلافه إِيَّاه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضمَّ نَشْرَهَا ، وسدَّ ثغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممَّا كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، إلاَّ أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إِيَّاه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان المَوْقِعِ بأبيه موسى لأشياء نَقَمُواها عليه^٢ : منها^٣ زعموا تزوُّجَه لزوجَة لُدَرْيق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظيَّتْ عنده . ويقال : إنهُ سكن بها في كنيسة بلاشيبيلية ، وإنَّها قالت له : لمَ لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للُدَرْيق - زوجها الأول - أهل مملكته ؟ فقال لها : إن هذا حرام في ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك ممَّا يَزُرِّي بقلده عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحتون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فسمي الخبر إلى الجند ، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله ، فقتلوه ، ساعه الله تعالى .

وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدُّوا في الحجر بعد ما تقدّم من الكتابة التي

١ ط : وأجد السير ؛ ج : وجد السير ؛ دوزي : وأغد السير .

٢ انظر أخبار مجموعة : ٢٠ وابن القوطية : ٣٧ وتاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨٥ .

٣ منها : سقطت من ك .

هي « ارجعوا يا بني إسماعيل إلخ » ما معناه : وإن سألتكم لم ترجعوا فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ، انتهى .

قال ابن حبان : وليحيى بن حكيم الشاعر المعروف بالفزّال في فتح الأندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظماً^١ ، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصّى ، وهي بأيدي الناس موجودة ، انتهى .

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابن خلدون^٢ ، والروايات في فتح الأندلس مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا إلى بعض الاختلاف في ذلك ، ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر .

• • •

[عبد الرحمن الداخل]

وعلم ممّا ألعنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للأندلس من لدن الفتح ، وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين قبل تفرقهم ، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر ، فاقطع الأندلس عن بني العباس الدائلين على بني مروان الناصخين لهم قتل المروانيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، واقتعدوا دار مملكة مستقلة لنفسه ولأعقابيه ، وجمع بها شمل بني أمية ومواليهم ، وأورثها بنيه حقبنة من الدهر ، بعد أن قاسى في ذلك خُطوباً ، واجتمع عليه ثم على ذريته من بعده أهل الأندلس أجمعون رضّى بهم دون بني العباس ، بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأن ولّوا بعض رؤساء العرب ، وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جرّثومة دولة بني مروان ، فلم يتيسر ذلك ، وظفر

١ ق : فنظم فيها ذكر السبب في غزوها .

٢ انظر ص : ٢٣٢ - ٢٣٨ من هذا الكتاب .

عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك ، وقتل منهم آلافاً ، وذلك في مدة المنصور كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر ، وسنذكر قريباً ولاية الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل ، وإن سبق في كلام ابن خلدون .

* * *

[مزيد بيان في نهاية موسى وشيء من شخصيته]

وقال بعضهم : كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، انتهى .

وقال الحجاري في « المسهب » : يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفف عنه ، فقال له يزيد : أريد أن أسألك فأصغر إليّ ؛ قال : سل عما بدا لك ، فقال له : لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحروب ومدايرة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بُعد المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت افترعتها^١ ، واستملكك رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من اللخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك ، ثم إنك علمت أن سليمان وليّ عهد ، وأنه المولّى بعد أخيه ، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحققت مالكك ومملوكك - قال : يعني سليمان وطارقاً - وما رضى هذا الرجل عنك إلاّ بعيد ، ولكن لا ألو جهداً ، فقال موسى : يا ابن الكرام ، ليس هذا وقت

١ ك : اخترعتها .

تعديد ، أما سمعت « إذا جاء الحَيْن ، غطى العين »^١ فقال : ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيئاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن^٢ أرى ما عندك ؛ فقال موسى : أما رأيت المدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعد ، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ؟ ثم كلم فيه سليمان ، فكان من جوابه « إنّه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور ، وانقياد الجمهور ، والتحكم في الأموال والأبشار ، على ما لا يحويه إلا السيف ، ولكن قد وهبت لك دمه ، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردّ ما غلّ من مال الله » . قال : وآلت حاله إلى أن كان يُطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه ، وفي تلك الحال مات ، وهو من أفقر الناس وأذلهم ، بوادي القُرَى ، سائلاً من كان نازلاً به .

وقال أحد غلمانه ممن وفى له في حال الفقر والحمول : لقد رأيتنا نطوف مع الأمير موسى بن نُصَير على أحياء العرب ، فواحد يجيبنا^٣ ، وآخر يحتجب عنا ، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه من العذاب ، ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوك^٤ من قصور النصارى ، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمي به ، ولا نأخذ إلا الدرّ الفاخر ، فسبحان الذي بيده العزّ والذل والغنى والفقر .

قال : وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه إلى أن ضاق ذرّعه بامتداد الحال ، فعزم على أن يُسلمه وهو بوادي القُرَى في أسوأ حال ، وشعَرَ بذلك موسى ، فخضع للمولى المذكور ، وقال له : يا فلان ، أتسلمني في هذه الحالة ؟

١ ك : غطى جل .

٢ ط : وأنا .

٣ ق ط : يجيبنا .

٤ ك : السلوب .

فقال له المولى ، من شدة ما كان فيه من الضجر : قد أسلمك خالقك ومالكك الذي هو أرحم الراحمين ، فدمعت عيناه ، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعاً مهيناً بشفتيه ، فما سمرت تلك الليلة إلاّ عن قبض روحه ، رحمة الله عليه ، فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يُترحم عليه ، وإنّ فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه^١ بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وصّامته التي تعدّ عليه طول الدهر ، لا جرّم أنّ الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه .

وذكر ابن حيّان^٢ أن موسى كان عربياً فصيحاً . وقد سبق من مراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته ، ويكفي منها ما ذكره ابن حيّان أنّه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها «إنّها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر»^٣ .

وقال الحجاري : إن منازعة جرت بينه وبين عبد الله بن يزيد بن أسيد بمحضّر عبد الملك بن مروان أبحاثه إلى أن قال شعراً منه :

جارت غير سؤومٍ في مطاولةٍ لو نازع الحفل لم يترع إلى حصّرٍ

وتقدم ما ذكره غير واحد كابن حيّان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان ، وكذا ذكر الحجاري أنّه^٤ تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد ابن عبد الملك ، فكانت تُنمّي مكانته عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ . وأشهر من كان في صحبة موسى بن نصير من مواله طارق المشهور بالفتوح العظيمة ، وطريف ، وقد جرى ذكرهما في كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار .

١ ق : عنه نائباً .

٢ ق : وقال غيره ؛ ط ج : وقيل .

٣ انظر تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .

٤ أنه : سقطت من ك .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره الخلاف في ^١ موسى هل هو لحي صريح أو بالولاء ، أو بربري ، أو مولى لعبد العزيز بن مروان ، ما صورته : وأكان في عقبه نباهة في السلطنة ، وليّ ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس ، وعبد الملك سلطنة المغرب الأقصى ، وعبد الله سلطنة إفريقية ، وذكر الحجاري ^٢ أن أصله من وادي القرى بالحجاز ، وأنه خدّم بني مروان بدمشق ، وتنبه شأنه ، فصرفوه في ممالكهم إلى أن وليّ إفريقية وما وراءها من المغرب في زمن الوليد بن عبد الملك ، فدوَّخَ أقاصي المغرب ، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبتة ، ودوَّخَ بلاد الأندلس ، ثمّ أوفده الوليد إلى الشام ، فوافق مرضه ثمّ موته وخلافة أخيه سليمان ، فعذبه واستصفى أمواله ، وآل أمره إلى أن وجهه إلى قومه بوادي القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه ، فمات بها ، وقد نصّ ابن بشكّوَال على أنّه مات بوادي القرى .

أمّا معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خلفَ مصر إلى البحر المحيط بين بري البربر والأندلس .

وأما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تُدخِله - مع نزارتها - في أصحاب در الكلام . وذكر ابن بشكّوَال أنّه من التابعين الذين رووا الحديث ، وأن روايته عن تميم الداري ، وذكره في كتب الأئمة من المصنفين أنبّه وأوعب من أن يخصّص بذكره واحد منهم ، وهو غرّة التواريخ الأندلسية ، وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصة والعامة من أهلها .

ومن مُسْنَهَب الحجاري : كان قد جمع - رحمه الله - من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد ، والذكر الشهير المخلد ، الذي لا يُبْلى الليل والنهار ، ولا يُعْقَى جديدة بلى الأعصار ، إلا أنّه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيسٌ يسلم منه ، وهو الحقد والحسد ، والمنافسة لا تخلو

١ ك : في أن .

٢ ق : قال بعضهم ؛ ط ج : وقيل .

من ذلك ، وأنشد بعض الرؤساء :

وليس رئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحَقْدَا

فقلبه الرئيس وقال « من يترك الحقدَا » ثم قال : إن السيد إذا ترك لإضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجترىء عليه ، ونُسب للضعف والغفلة ، وهل رأيت صفقةً أخسر من غفلة^١ رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه ، وعدوه لا يغفل عنه ، وحاسده لا ينفعه عنده إلا الراحة منه ، وهو في وادٍ آخر عنه ، والله درُّ القائل :

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا مُضِرّاً ، كَوَضَعَ السِّيفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً : لا يزن الوافي لناقص ، ولا يزن الناقص لوافٍ ، ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان ، ويقدر فيه حُسن العاقبة .
ونص ابن بَشْكُوَال على أن موسى بن نُصَيْر مات بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين ، وأغزى^٢ الأندلس سنة إحدى وتسعين ، ودخلها سنة ثلاث وتسعين ، وقُتِل عنها إلى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين ، وذكر أن ولايته على الأندلس بالمباشرة - مذ دخلها إلى حين خروجه منها - سنة واحدة ، ومكث فيها مولاه طارق سنة ، انتهى . وقد تقدم شيء من ذلك^٣ .

* * *

[عود إلى ذكر التابعين في الأندلس]

وذكر ابن بَشْكُوَال أيضاً أن ابن حبيب قال عن ربيعة : غلّ الناسُ كلَّهم يوم فتح الأندلس ، إلا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين : حنش الصنعاني ،

١ ق : صفقة .

٢ ك : وغزا .

٣ وقد ... ذلك : سقطت من ق .

وأبو عبد الرحمن الحبلي^١ ، وابن شِماسة ، وعياض بن عقبة ، انتهى .
 قال ابن سعيد : وممن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين
 علي بن رباح اللخمي ، وموسى بن نصير فاتح الأندلس ، وحيّان بن أبي
 جبلة القرشي مولاهم ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي صاحب الأندلس المذكور
 في سلاطينها ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وزيد بن قاصد السكسكي ،
 والمغيرة بن أبي بردة الكتاني ، وعبد الله بن المغيرة الكتاني ، وحيثوة بن رجاء
 التميمي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، ومنصور بن
 خزيمة ، وعلي بن عثمان بن خطاب .

وذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف
 نحو عشرين رجلاً^٢ . وفي كتاب ابن بشكّو^٣ أنه دخل الأندلس من التابعين
 ثمانية وعشرون رجلاً ، وهم أسسوا قبله المسجد الجامع بقرطبة ، وسمى
 الحجاري في المشهيد هؤلاء المتقدمين .

وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقق المواضع التي تختص بهؤلاء التابعين من بلاد
 الأندلس ، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس وكانوا^٤ بها ، وسيأتي ذكر التابعين
 الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا ، وقد تقدم غلول من عدا التابعين من
 الغنائم .

* * *

[مغامم الأندلس]

وقال الليث بن سعد ، بعد ذكره أن طارقاً أصاب بالأندلس مغامم كثيرة
 من الذهب والفضة^٥ : إن كانت الطنفسة^٦ لتوجد منسوجة بقضبان الذهب ،
 وتنظم السلسلة من الذهب بالؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان البربر ربما وجلوها
 فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربوا به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها

١ ك : وسكنوا .

٢ النص في تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .

والآخر النصف الآخر لنفسه ، ويسير معهم جماعة والناس^١ مشغولون بغير ذلك .
وعن يحيى بن سعيد : لما افتتحت الأندلس أصاب الناس فيها غنائم ،
ففلوا منها غلولا^٢ كثيرأ حملوه في المراكب وركبوا البحر ، فسمعوا منادياً يقول :
اللهم غرق بهم ، وتقلدوا المصاحف ، فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف ،
وضربت المراكب بعضها بعضاً حتى تكسرت ، وغرق بهم ، وأهل مصر ينكرون
ذلك ، ويقولون : أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا ، وإنما هم أهل سردانية ،
فالله أعلم بحقيقة الحال .

ورأيت في بعض كتب التاريخ^٣ أنه وجد في طليطلة حين فتحت من
الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر
مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكي ، ووجد
فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ،
ومائدة سليمان ، وكانت - فيما يذكر - من زمردة خضراء ، وزعم بعض
العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة
في دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم مال
له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسي من الذهب والفضة ،
تحمل الشماسة والقُسوس فوقها الأناجيل في أيام المناسك ، ويضعونها في الأعياد
للمباهاة ، فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صنّع في هذا السيل ، وتأنق الملوك
في تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ
من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كلّ مَطَار ، وكانت مَصُوعَة من الذهب
الخالص مَرَصَّعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : إنها من زبرجدة
خضراء حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلاً ، وكانت
توضع في كنيسة طليطلة ، فأصابها طارق ، انتهى .

١ تقدم ما هو شبيه بذلك ، انظر ص : ٢٧٢ من هذا الكتاب ؛ وفي ك : ورأيت لبعض أهل التاريخ .

وقد ذكرنا فيما مرّ عن ابن حيّان ما فيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف ، وما ذلك إلّا لأنّا نقل كلام المؤرخين ، وإن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة ، وبالجملّة فالمائدة جليلة المقدار ، وإن حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها ، وهي من أجلّ ما غنم بالأندلس ، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوّعة الأجناس التي ذكرها إلى الآن شائع بين الناس .

. . .

[استيطان العرب في الأندلس]

واعلم أنّه لما استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ، فتزل بها من جرائم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

فأمّا العدنانيون فمنهم خنيدف ومنهم قريش ، وأمّا بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلّهم من ولد إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية^١ ، وأمّا بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، قال ابن سعيد : ويُعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وإنّما عمّوا نسبتهم إلى أمية في الآخر لما انحرف الناس عنهم ، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه ، وأمّا بنو زهرة فهم^٢ بإشبيلية أعيان متميزون ، وأمّا المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور ، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عبّاد . وقال ابن غالب : وفي الأندلس من ينسب إلى جُمّح ، وإلى بني عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بني مُحارب

١ انظر جمهرة ابن حزم : ٥٠ - ٥١ في أنساب الحموديين .

٢ في بعض الأصول : فمنهم .

ابن فيهر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجحد الأعيان العلماء . ومن بني الحارث بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبد الرحمن الأموي الداخل ، وجد يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب الفتوح بإفريقية ، قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عدد وثروة . وأما المتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلتهم في طليطلة وأعمالها ، ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبّير العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه في محله . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فذكر ابن غالب أن مزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير . وأما تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية . وأما ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس ، فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس ، كعبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه ، وكالقاضي أبي حنيفة بن عمر قاضي قرطبة . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ، قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، قال ابن غالب : ولهم منزل بجوف بلنسية على ثلاثة أميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حزم ، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري ، وهو فارسي الأصل . ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وذكر ابن غالب أن منهم بغيرناطة كثيراً ، كبني جودي ، وقد رأس بعض بني جودي . ومنهم من ينتسب إلى سلول امرأة نسب إليها بنوها ، وأبوهم مرة بن صعصعة

ابن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى نُمَيْر بن عامر ابن صعصعة ، قال ابن غالب : وهم بغيرناطة كثير . ومنهم من ينتسب إلى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآله ، وبنو رَشِيق . ومنهم من ينتسب إلى فَزَارَة بن ذُبْيَان بن بَغِيض بن رَيْث بن غَطَفَان بن سعد بن قيس عَيْلَان . ومنهم من ينتسب إلى أَشْجَع بن رَيْث بن غطفان ، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس . وفي ثقيف اختلاف ، فمنهم من قال : إنها قيسية ، وإن ثقيفاً هو قَسِيٌّ بن منبه بن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، وإليهم ينتسب الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس ، وقيل : إنها من بقايا ثمود ؛ انتهى قيس عيلان وجميع مضر .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بِحَوْفِيَّ مدينة وادي آش ، انتهى ؛ والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خُزَيْمَة بن مدركة بن إلياس ابن مضر . ومنهم من ينتسب إلى مُحَارِب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيْزٍ بن أَفْصَى بن دُعْمِي بن جَدِيلَة بن أسد بن ربيعة ، قال ابن غالب في فرحة الأنفس : ومنهم بنو عطية أعيان غَرْنَاطَة . ومنهم من ينتسب إلى النَّمِر بن قاسط بن هِنَب بن أَفْصَى بن دُعْمِي بن جَدِيلَة بن أسد ، كني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمر بن عبد البر . ومنهم من ينتسب إلى تَغْلِب بن وائل بن قاسط بن هِنَب ، كني حمّدين أعيان قُرْطُبَة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر ابن وائل ، كالبكرين أصحاب أونية وشكطيش الذين منهم أبو عُبَيْد البَكْرِي صاحب التصانيف ؛ انتهت ربيعة .

وأما إِيَاد بن نِزَار ، وقد يقال : إنه ابن معد ، والصحيح الأول ، فينتسب إليهم بنو زُهْر المشهورون بإشيبيلة وغيرهم^١ ؛ انتهت العدنانية ، وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام .

واختلف في القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود ، على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخاري الأول ، والأكثر على خلافه ، والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضَرِّية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية ، فإن القرشية قد متهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق ، وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتراء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قبيل ، فانحسرت مادة الفن والاعتراء بالأندلس ، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جذمين : كهلّان وحمير [ابني سبأ] بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ ابن سام بن نوح ، وقيل : قحطان بن الهَمَيْسَع بن تَيْهَان بن نبت بن إسماعيل ، وقيل قحطان بن هود بن عبد الله بن رباح بن حارف بن عاد بن عَوْص^٢ بن إرم بن سام ، والخلف في ذلك مشهور . فمنهم كهلّان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، ومنهم الأزْد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلّان ، وإليهم ينتسب محمد بن هانيء الشاعر المشهور الإلبيري ، وهو من بني المهلب ؛ ومن الأزْد من ينتسب إلى غَسَّان ، وهم بنو مازن بن الأزْد ، وغَسَّان : ماء شربوا منه ، وذكر ابن غالب أن منهم بني القُلَيْسِي من أعيان

١ قال ابن حزم (الجمهرة : ٣٢٧) إن دار إياد بالأندلس هي قرمونة ولبلة .

٢ في الأصول : عوص .

غَرْناطة ، وكثير منهم بصالحَة قرية على طريق مالقة ؛ ومن الأزْد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجُم الغفير بالأندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تعدّ هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشد عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلّا شيخاً من الخُزرج وعجوزاً من الأوس .

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها ، انتهى .

ومن الخُزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشحات ، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غَرْناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزراءهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يُذكر^١ .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخِي الخُزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عكّ بن عدنان بن هزان بن الأزْد ، وقد يقال : عك بن عدنان - بالنون - فيكون أخاً معدّ بن عدنان ، وليس بصحيح ؛ قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخِصال الكاتب ، وأكثر جهات شَقُورة ينتسبون إلى غافق^٢ . ومن كهلان من ينتسب إلى همدان ، وهو أوْسلة بن مالك بن زيد بن

١ من الأنصار الذين ذكر ابن حزم مواطنهم : بنو ربيع بن محمد بن ربيع من الأوس كانوا بقرطبة يتولون الأهرام (٣٣٣) وبنو عثيم بن سفيان برية (٣٤٧) وبقرطبة ، وكانوا يحملون الألوية خلفاء بني مروان (٣٤٨) ، وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب المطارين بقرطبة يعرفون ببني هارون (٣٥٤) ومن ولد مالك الأغر بنو خبيب وبنو قطنين البيازون الساكنون بقرية اختيابة من قبرة (٣٦٣) ومن ولد النعمان بن بشير قوم بقرية شوش الأنصار من إشبيلية (٣٦٤ - ٣٦٥) ولسميد بن سعد عقب بالأندلس بقرية يقال لها قربلان من عمل سرسطة (٣٦٥) .

٢ قال ابن حزم : ودارهم (أي غافق) بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة ؛ منهم =

أوسلة بن الحيار بن مالك بن زيد بن كهلان^١ ، ومترل همدان مشهور على ستة أميال من غرناطة ، ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى^٢ . ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج ، ومذحج : اسمُ أكمة حمراء باليمن ، وقيل : اسم أم مالك وطيء ابني أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : بنو سِرَاج الأعيان من أهل قُرْطُبَة ينتسبون إلى مذحج . ومترل طيء بقبلي مُرسية . ومنهم من ينتسب إلى مُراد بن مالك بن أدد ، وحصنُ مراد بين إشبيلية وقُرْطُبَة مشهور ، قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً . ومنهم من ينتسب إلى عَنَس بن مالك بن أدد ، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب « المغرب » وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة . ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد ، قال ابن غالب : وهو مُنَبِّه بن سعد العشيّرة بن مالك بن أدد . ومن كهلان من ينتسب إلى مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى عاملة ، وهي امرأة من قضاة ولدت للحارث ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ، فنُسب ولدها منه إليها ، قال ابن غالب : منهم بنو سِمَاك القضاة من أهل غرناطة ، وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ، وقيل : هم من قضاة . ومن كهلان خَوْلَان بن عمرو بن الحارث بن مرة ، وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى المتعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة ، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس . ومنهم من ينتسب إلى لَحْم بن علي بن الحارث بن مرة ، منهم

= بنو أسلم . . . ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن [النافقي] . . . وله عقب قد عمل بمرنيانة النافقين ، بقرب إشبيلية على النهر الأكبر (٢٢٩) .
١ ثبت في طبعة ليدن تصويهاً : وهو أوسلة بن ربيعة بن الحيار . . . الخ . وما ثبت هنا أقرب إلى نص عجلة المبتلي (ص ١٢٣) .
٢ قال ابن حزم : ودار همدان بالأندلس البيرة (٣٩٧) وهناك قرية همدان إلى الجنوب من غرناطة ، (الإحاطة ١ : ١١٨) .

بنو عبّاد أصحاب إشبيلية وغيرها ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ، ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية ، وبنو وافر الأعيان . ومنهم من ينتسب إلى جندام مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس ، وبنو هود ملوك شرقي الأندلس ، ومنهم المتوكل بن هود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدّين ، ومنهم بنو مردّ نيش أصحاب شرقي الأندلس ، قال ابن غالب : وكان لجندام جزء من قلعة ربّاح ، واسم جندام عامر ، واسم لحم مالك ، وهما ابنا عدي . ومن كهلان من ينتسب إلى كيندة ، وهو ثور بن عفير بن عدي [بن الحارث] ابن مرة بن أدد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر . ومنهم من ينتسب إلى تجيب وهي امرأة أشرس بن السكّون بن أشرس بن كندة . ومن كهلان من ينتسب إلى خثعم بن أنمار بن اراش بن عمرو بن القوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنهم عثمان بن أبي نسيعة سلطان الأندلس ، وقد قيل : أنمار بن نزار بن معد بن عدنان ؛ انتهت كهلان .

وأما حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رعين ، قال ابن غالب : وذو رعين هم ولد عمرو بن حمير في بعض الأقوال ، وقيل : هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن القوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير ، قال : ومنهم أبو عبد الله الحنّاط الأعمى الشاعر ^١ ، قال الحازمي ^٢ في كتاب النسب ^٣ واسم ذي رعين يريم ^٤ بن زيد بن سهل ، ووصل

١ سترغف به في موضعه ؛ قال ابن حزم (٤٣٤) : ودار رعين بالأندلس الفحص المنسوب إليهم برية .

٢ هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني (- ٥٨٤) راجع ترجمته في ابن خلكان : ٣ : ٤٢١ وطبقات السبكي : ٤ : ١١٩ وهو صاحب كتاب « عجالة المبتدي وفضالة المنتهي » في النسب ؛ حققه الأستاذ عبد الله كنون (القاهرة : ١٩٦٥) .

٣ انظر عجالة المبتدي : ٦٦ .

٤ يريم : كذا هو في دوزي والمعجالة ، وفي المخطوطات : عريم .

النسب ، ومنهم من ينتسب إلى ذي أَصْبَحَ ، قال ابن حزم^١ : هو ذو أَصْبَحَ ابن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن مهمل بن عمرو بن قيس ، ووصل النسب ، وذكر الحازمي^٢ أن ذا أَصْبَحَ من كَهْلان ، وأخبر أن منهم مالك بن أنس الإمام ، والمشهور أنهم من حِمِير ، والأَصْبَحِيُّون من أعيان قُرْطُبَة ، ومنهم من ينتسب إلى يَحْضُبَ ، قال ابن حزم : إنَّه أخو ذي أَصْبَحَ وهم كثير بقلعة بني سعيد ، وقد تُعرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْضُبَ ، ومنهم من ينتسب إلى هُوزَن^٣ بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن القَوْث ، قال ابن غالب : ومترلم بشراف إشبيلية^٤ ، والهوزنيون من أعيان إشبيلية : ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعَة بن مالك بن حِمِير ، وقد قيل : إنَّه قُضَاعَة بن معد بن عدنان ، وليس بمرضي ، ومن قُضَاعَة من ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبي بكر ابن عمار الذي وُتِبَ على ملك مُرْسِيَة ، وهو مَهْرَة بن حَيْدَان^٥ بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعَة ، ومنهم من ينتسب إلى خُشَيْن بن نمر بن وبرة بن تغلب بن حُلُوان بن عمران بن الحاف بن قُضَاعَة ، ومنهم من ينتسب إلى تَنْخُوح ، قال ابن غالب : وهو ابن مالك بن فَهْم بن نمر بن وبرة بن تغلب ، قال الحازمي^٦ : تَنْخُوح هو مالك بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة . ومنهم من ينتسب إلى بَلْكي بن عمرو ابن الحاف بن قُضَاعَة ، ومنهم الْبَلْكَوِيُّون بإشبيلية^٧ . ومنهم من ينتسب إلى جُهَيْنَة بن سود بن أَسْلَم بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعَة ، قال ابن غالب :

١ انظر الجهمرة : ٤٣٥ .

٢ حِجَالَة المِجَنِّي : ١٧ .

٣ ط ودوزي : هوازن ، وهو خطأ .

٤ قال ابن حزم (٤٣٤) : ودار بني هوزن بالأندلس القريتان المذكورتان هما بإشبيلية .

٥ ط : حدان .

٦ حِجَالَة المِجَنِّي : ٣٣ .

٧ حدد ابن حزم (٤٤٢) منازل بلي بقوله : ودار بلي بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال

قرطبة ، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام بالطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم . . . وكانت لهم دار أخرى بكورة مورور أيضاً .

وبقُرْطُبَة منهم جماعة . ومنهم من ينتسب إلى كَلْب بن وَبَرَة بن تغلب بن حلوان كني أبي عبدة الذين منهم بنو جَهْوَر ملوك قرطبة ووزراؤها . ومنهم من ينتسب إلى عُدرة بن سعد هُدَيم بن زيد بن سود بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عُدرة^١ .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرَمَوْت ، منهم الحضرميون بمَرْسِيَة وغَرْناطة وإشبيلية وبَطْلَيْوس وقُرْطُبَة ، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ، وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل : هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جَيْدَان - بالجيم - بن قطن بن العَرِيب بن الغَزَز^٢ بن نَبْت بن أيمن بن الهَمِيسع ابن حمير ، كذا نَسَقَ النسب الحازمي^٣ .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سَلَامَان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذُكِر في محله .

* * *

[ثبت بأسماء الأمراء]

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية ، وإن تقدّم ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتم ممّا هنا ؛ فنقول : طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَيْر .

ثمَّ الأمير موسى بن نُصَيْر ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة .

ثمَّ عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر ، وسريره إشبيلية .

ثمَّ أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريره قُرْطُبَة ، وكل من يأتي بعده فسريره

١ قال ابن حزم (٤٥٠) ودار بني عُدرة بالأندلس : دلالة ، وبجيان منهم ، وبالشفر منهم بنو فوارتش ، ولهم عدد بمرقطة .

٢ عجالة المبتدي : الغَزَز .

٣ انظر عجالة المبتدي : ٤٩ .

قرطبة أو الزهراء والزهرة بجانبها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينه عليه .

- ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي .
- ثم السَّمَح بن مالك الحَوْلاني .
- ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي .
- ثم عَنبَسَةُ بن سُهَيْم الكلبي .
- ثم عُدْرَةُ^١ بن عبد الله الفِهْري .
- ثم يَحْيَى بن سلمة الكلبي .
- ثم عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخَثْعَمي .
- ثم حذيفة بن الأحوص القيسي .
- ثم الهيثم بن عدي^٢ الكلابي .
- ثم محمد بن عبد الله الأشجعي .
- ثم عبد الملك بن قَطَن الفِهْري .
- ثم بلج بن بشر بن عياض القُشَيْري .
- ثم ثعلبة بن سلامة العاملي .
- ثم أبو الخطار [حُسَامُ] بن ضرار الكلبي .
- ثم ثوابة بن سلامة الجُدَامي .
- ثم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري .

وهنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير مُوَارِثَة ، أفراداً ، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ، ولم يتعدوا في السَّمة لفظ الأمير .

قال ابن حبان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من^٣ لِدَرِيق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري ، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية

٢ في الأصول : عيد .

١ دوزي : عزرة .

٢ ق ط ج : في .

المرواني على سرير الملك قرطبة - وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة
سنة ثمان وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام ، انتهى .

* * *

[حكام بني أمية]

ثم كانت دولة بني أمية :
أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .
ثم ابنه هشام الرضى .
ثم ابنه الحكم بن هشام .
ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط .
ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن .
ثم ابنه المنذر بن محمد .
ثم أخوه عبد الله بن محمد .
ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله .
ثم ابنه الحكم المستنصر ، وكترسيهما الزهراء .
ثم هشام بن الحكم ، وفي أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبي عامر الزاهرة .
ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وهو أول خلفاء الفتنة ،
وهُدِمت في أيامه الزهراء والزهرة ، وعاد السرير إلى قرطبة .
ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر .

* * *

[الحموديون]

ثم تخللت دولة بني حمّود العلويين :
وأولهم الناصر علي بن حمّود العكوي الحسني الإدريسي .

١ ط : ثم المؤيد .

ثمَّ أخوه المأمون القاسم بن حمود .
ثمَّ المعتلي يحيى بن الناصر علي بن حمود .

* * *

[بقية بني أمية]

ثمَّ كانت دولة بني أمية الثانية :
وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر .
ثمَّ المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر .
ثمَّ المعتد^١ هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة
بالأندلس ، وحين خلُع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية .

* * *

[ملوك الطوائف ومن بعدهم]

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة ، وابن عباد بإشبيلية ،
وغيرهما ، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد ، إلى أن ملكها يوسف بن
تاشفين الملقب من برّ العدوة ، وقتل في ملوك الطوائف ، وبعد ذلك ما خلصت
له ولا لولده علي بن يوسف ، لأن بني هود نازعوه في شرقها بالثغر ، إلى أن
جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه ، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مرّدّيش الذي
كان ينازعه في شرق الأندلس ، ثمَّ صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن
مرّدّيش ، ثم لمن بعده من بنيه ، وحضرته مرّا كش ، وكانت ولايتهم تتردّد
على الأندلس وممالكها ، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ،
إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سرقسطة
وجهاًتها ، فملك معظم الأندلس بحيث يُطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها
إلاّ زيّان بن مرّدّيش في بكتسية من شرق الأندلس ، وابن هلالة في طبرية^٢

١ ط : المعتد .

٢ ط : طبرزة .

من غرب الأندلس ، ثم كثرت عليه الحوارج قريب موته ، ولما قتله وزيره ابن الرُّمَيْمي بالمرية زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر . وكان أهل غرب الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، ثم تقلصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وقد ذكرت في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس مما يصلح للمذاكرة ، وربما سرت طرف القلم في بعضهم .

وبنو جهنور المشار إليهم قريباً كانوا وزراء الأمويين ، ثم إنه لما انتشر سلك الخلافة استبدَّ بقسْطية الوزير أبو الحزم بن جهنور من غير أن يتعدى اسم الوزارة .

• • •

[جهنور بن محمد بن جهنور]

قال في «المطمح»^١: الوزيرُ الأجلُّ جهنور بن محمد بن جهنور، [وبنو جهنور] أهل بيت وزارة ، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيْرَة في فزارة ، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات ، وأنجدهم في الملمات ، ركب مُتُونُ الفتون فَرَاضَهَا ، ووقع في بحور المحن فمخاضها ، منبسط غير منكمش ، لا طائشُ اللسان ولا رَعش ، وقد كان وزيراً في الدولة العامرية فشرُفَتْ بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت وعاقَتِ الفنْ واعترضت ، تحيز عن التدبير مُدَّتْهَا ، وغلَى لخلافه أعباء الخلافة وشدتها ، وجعل يُقْبَلُ مع أولئك الوزراء ويُدَبَّر ، وينهل^٢ الأمر معهم ويُدَبَّر ، غير مظهر للانفراد^٣ ، ولا متصرف^٤ في ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوَّغت ما شاءت ردأها ، وذهب من كان يتخذ^٥ في

٢ ك : ويدبر .

١ انظر المطمح : ١٤ .

٣ ط : إلى انفراد

٤ المطمح : ولا مقصر .

٥ ط ج : يجد .

الرياسة ويخبُّ ، ويسعى في الفتنة ويدبُّ ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الإقبال ، راسلَ أهلَ التقوى مستمدّاً بهم ، ومعتمداً على بعضهم ، تحيلاً^١ منه وتمويها ، وتداهياً على أهل الخلافة وذويها ، وعرض عليهم تقديم المعتدّ هشام ، وأومض منه لأهل قُرطبة برق خُلب^٢ يشام ، بعد سرعة التياشها ، وتعجيل انتكاشها ، فأنابوا إلى الإجابة ، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابة^٣ ، وتوجهوا مع ذلك الإمام ، وألّوا بقرطبة أحسن الملام ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة ، والبلد مُقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى جبد^٤ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت^٥ الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قُرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها^٦ بالجد والعزم ، وصَبَطَها ضبطاً آمناً خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوّ فطار ، واقتضى^٧ اللبانات والأوطار ، فعادت له قُرطبة إلى أكل حالتها ، وانجلي به نورُ جلالتها ، ولم تزل به مُشرقة ، وغصونُ الآمال فيها مُورقة ، إلى أن توفي سنة ٤٣٥ هـ فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال ، وعدم فيها المِثال ، وقد أثبت من شعره ما هو لائق ، وفي سماء الحسن رائق ، وذلك قوله في تفضيل الورد^٨ :

١ في المطمح : تحيلاً .

٢ المطمح : خلافة .

٣ دوزي : فأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استرعائه .

٤ ك : حيد ؛ ط : جيد ؛ ج : جهد .

٥ ك : وانقرضت .

٦ ك : ودبر أمرها .

٧ ك : وقضى .

٨ تابع المقرئ هنا خطأ الفتح في المطمح ، وقد نبه ابن الأبار في الحلة (١ : ٢٥٠) على هذا الخطأ ، قال : أنشد أبو نصر الفتح بن عبيد الله الإشبيلي في كتاب « مَطْمَحُ الأنفس ومرحِ التأنس في محاسن أهل المغرب والأندلس » من تأليفه أكثر هذه الأبيات والتي قبلها ، ونسبها لأبي الحزم =

الوردُ أحسنُ ما رأت عيني وأذ
 خضعت نواويرُ الرِّياضِ لحسنه
 وإذا تبدى الوردُ^١ في أغصانه
 وإذا أتى وقدُ الربيعُ مبشراً
 ليس المبشرُ كالمبشرِ باسمه
 وإذا تعرّى الوردُ من أوراقه
 كى ما سقى ماء السحاب الجائدُ
 فتذلت تنقاد وهي شوارِدُ
 يزهُو فذا مبيتٌ وهذا حاسِدُ
 بطلوع وفدته فنعم الوافِدُ
 خبرٌ عليه من النبوة شاهدُ
 بقيت عوارِفُه فهنَّ خوالِدُ

انتهى المقصود منه .

وكانه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل
 الرجس عليه من قصيدة :

للرجس الفضلُ المينُ وإن أبى أبٍ وحاد عن الحقيقة حائِدُ
 وهي مشهورة .

ورد على ابن الرومي بعضهم بقوله :

يا من يشبه نرجساً بنواظر دُعجٍ تنبّه إن فهمك فاسِدُ
 الخ وهي أيضاً مشهورة .

* * *

[انقراض حال الأندلس]

رجع إلى ما كنا فيه — وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع
 في الكفار شقت الصدور من أمراضها ، ووفت النفوس بأغراضها ، واستولت
 على ما كان ملّة الكفر من جواهرها وأعراضها ، ثم وقع الاختلاف ، بعد ذلك

= جهور بن محمد بن جهور رئيس قرطبة المتأخر غلطاً منه ووهماً لا يخفاء به وإنما هي لجدّه جهور
 ابن عبيد الله [بن أبي عبدة الوزير] . قلت : انظر ترجمة جهور أبي الحزم في الحلة ٢ : ٣٠ .
 ١. في الأصول : الفصن .

الائتلاف ، فعَصَفَتْ رِيحُ العدوِّ والحروبِ سِجَالاً ، وأَعْنَى العِلاجُ حُكْماءُ الرجالِ ، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نُصَيْرٍ وطارقاً ، وَمَنْ بعدهما من ملوك الأندلس الذين رَاعَتِ العدوُّ الكافر منهم طوارق .

[رسائل أبي المطرف بن عميرة]

وما أحسن ما أعرب الإمام الكاتبُ القاضي أبو المطرف بن عميرة^٢ ، عما يشمل هذا المعنى وغيره في كتابٍ بَعَثَ به إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية ، حين حلَّ الرُّزءَ ببِلَنَسِيَّةِ ، وهو^٣ :

أما لكَ مِنْ بادي الصَّبابَةِ من بُدٍّ	ألا أيُّها القلبُ المصْرُحُ بالوَجْدِ
له لَوْعَةُ الصَّادي وروْعَةُ ذي الصَّدِّ	وهل من سَلُوْا يرنجى لمتيِّمٍ
صروفُ اللَّيالي أن يعودَ إلى نَجْدِ	يحنُّ إلى نَجْدٍ ، وهيهات حَرَمَتْ
عدَتْ غَيْرُ الأَيامِ عن ذلك الوَرْدِ	فيا جَبَلَ الرِّبَّانِ لا رِيَّ بَعْدَ ما
خَلُوْني عن أهلٍ يُضَيِّفُ إلى الوَدِّ	ويا أهلَ وُدِّي والحوادثُ تَقْتَضِي
فإنَّا نراها كلَّ حينٍ إلى الرَّدِّ	ألا متعة يوماً بعاريةِ المُنَى
بأحنائنا ؛ كالنَّارِ مُضْمَرَةِ الوَقْدِ	أَمِنْ بَعْدِ رُزءٍ في بِلَنَسِيَّةِ ثَوَى
تطاعنُ فيهم بالثَّقَفَةِ المُلْدِ	يُرجي أناسٌ جُنَّةً من مصائبِ

١ كذا السمع ، وحقه أن يكون «وطارقاً» .

٢ أبو المطرف بن عميرة : أحمد بن عبد الله المخزومي ، سترجم له المقرئ ، وانظر ترجمته أيضاً في الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، ولسان الميزان وتحفة القادم : ١٤٥ والوافي ٧ الورقة : ٦٤ والفريبي : ١٧٨ والإعلام بمن حل مراکش ١ : ٣٥٤ ، وللاستاذ محمد بن شريفة رسالة جامعة في حياته وآثاره (الرباط : ١٩٦٥) . ورسائله في مجلدين ، وبعض رسائله في صنيح الأعشى ورحلة التجاني ورحلة العياشي وشرح المقصورة والروض المطار والذيل والتكملة ج ٥ «ترجمة الرعيي» .

٣ المقتطفات (الورقة : ٨٠) وورد بعضها في الروض المطار : ٥٠ - ٥١ .

٤ ط : بأحنائنا ؛ ج : بأحياننا .

ألا ليت شِعْري هل لها من مَطالِعٍ معادٌ إلى ما كان فيها من السَّعدِ
وهلْ أَذنبُ الأبناء ذَنْبَ أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلدِ

مرحباً بالسَّحابة ، وما أعارت أفقي من الإضاءة ، وَرَدَتْ تسحرُ النَّهى ،
وتسحب ذيلًا على السَّها ، وتهزُّ من المسرة أعطافاً ، وتردُّ من نجوم المجرة نطقاً ،
عامت من الظلمة في مَوْجها ، ثم غلبت الشهب على أوجها ، فقلبُ المقرَّب يجب ،
وسُهيلُ بداره يحتجب ، والطرف غَضِيض ، وجَناحُ الطائر مهِيض ، وصاحبُ
الأخبية يقرض ، والذابح عن ذبيحته يُعرض^١ ، ورامح السماكين تحوُّنه السلاح ،
وواقعُ التَّسرِّين يودُّ أن^٢ يُخفيه الصباح ، بلاغةُ تفتِنُ كلَّ لبيب ، وترعى
روض كلِّ أديب ، وتغضُّ على رَغَمِ العلوِّ من حبيب ، إن من البيان لسحراً ،
ويا أيتها الجواد وَجَدْنَاكَ بحرًا ، أدْرَيْتَ ، أيَ بَرِّي بِرِي ، وبأي قمر
اِهْتَدَيْتَ ، ليلة سريت ، افتتحت بأبياتك الحسان ، ونظمتها نظم الجُمان ،
فعوذتُ ستَّتها^٣ بالسبع ، وعرفتُ منها بَرَاةَ ذلك الطبع ، ثم نثرت ،
على القرطاس [من] شذور المنشور ، بل من جواهر النحور ، ما استوقف النُّظار ،
وبهَرَجَ اللَّجِين والنُّضار ، ورأيتك استمددت ولك الباع الأمد ، وأعرت
محاسنك والعارية تُردُّ ، وجئت بالرائية^٤ تروق أربعُتها ، وتخرسُ بها قعقة
الأشعار وَجَعَجَعَتْها ، فأدت من حسنِها ما يسر ، واجتمع لمن روى القطعتين
ما نظم فيها وهو الدر . وأجريت^٥ خبر الحادثة التي مَحَقَّتْ بدر التمام ،
وذهبت بنضارة الأيام ، فيا من حضر يوم البطشة ، وعزِّي في أنسه بعد تلك

١ يريد سعد الأخبية وسعد الذابح .

٢ ك : يود لو أنه .

٣ ق ط ك : ستها ؛ ج : سيتها ، والتصويب عن دوزي ؛ وستها : ستة أبياتها ، والسبع : السبع المثاني .

٤ هذه الكلمة مضطربة في الأصول ما عدا ط ؛ والرائية : القصيدة الرائية ، وفي ك : اللألاء .
وفي ق : الراية ، وفي ج : بدلالة .

٥ من هنا ورد في الروض المطار حتى قوله : « لقد طال الأسى عليهم والأسف » .

الوحشة ، أحقاً أنه دُكَّتِ الأرض ، ونزف المعين والبرص ، وصَوَّحَ روض
المنى ، وصَرَخَ الخطب وما كفى ؟ أبين لي كيف فقدت رِجاجة الأحلام ،
وعقدت مَنَاحَةَ الإسلام ، وجاء اليوم العسير ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر ؟
حلم ما نرى ؟ بل ما رأى ذا حلم ، طوفان يقال عنده لا عاصم ، مَنْ يُنْصِفُنَا مِنْ
الزَّمان الظالم ؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم ؛ بالله أيّ نحو تنحو ، ومَسْطُور تُثْبِت
وتمحو ، وقد حذف الأصلي والزائد ، وذهبت الصَّلَة والعائد ، وباب التعجب
طال ، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع ، وفُقدت سلامة
الجمع ، والمعتلّ أعدى الصحيح ، والمثلثُ أَرْدَى الفصيح ، وامتنعت العجمةُ
من الصَّرف ، وأمنت زيادتها من الحذف ، ومالت قواعدُ الملة ، وصرنا إلى
جمع القلّة ، وللشَّرك صيال وتَخَمُّط ، ولقرنه في شَرَكه تَجَبُّط ، وقد عاد
الدين إلى غُرْبته^١ ، وشرق الإسلام بكربته ، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصَيْر ،
وطرّق طارق بكل خير ، ونهَشات حنش^٢ وكيف أعيت الرُّقى ، وأدالت بليل
السَّليم يوم الملتقى ، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها ، وفقى مَعَاْفِر^٣ وتعفيره
للأوثان وطوائفها ، لله ذلك السلف ، لقد طال الأسى عليهم والأسف ، وبقي
الحَكَم العدل ، والربُّ الذي قوله الفصل ، وبيده الفضل ، ربنا أمرت فعصينا ،
ونهيته فما انتهينا ، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا ، أنت العليم بما أعلنّا وما
أخفينّا ، والمحيط بما لم نأت وما أتينا ، لو أننا فيك أحبينّا وقَلَّينّا ، لم تُرنا من
الفُرقة ما رأينا ، ولم تُسَلِّطْ عدوك وعدوّنّا علينا ، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا
بما جنينا ، وأكرم من أن لا تهب حقوقك لدينا .

وأشرت إليها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ ، وتنسم بما لديّ ، لتبرد - كما
زعمت - حرّ نفْس ، وتقذح زناد قَبَس ، وهيهات صليد الزند ، وذوَى العرار

١ إشارة إلى الحديث : « بدى الإسلام غربياً وسيعود غربياً ... » .

٢ يريد « حنش الصنماني » الذي تقدم ذكره .

٣ فقي معافر هو المنصور بن أبي عامر .

والرَّند ، وأقشع الشُّبوب ، وركد ما كان يظن به الهُبوب ، فالقلم دَقِينٌ لا يُحشر ،
وميتٌ لا يُنشر ، والطبع قد نكص القهقري ، وقلٌّ منزله أن يدعى له النِّقري ،
فها هو لا يملك مَبيتاً ، ولا يجد لقلمه تَبيتاً ، وأنت - أبقاك الله عزَّ وجلَّ -
بمقتبل الآداب ، طائر مَيتعة الشباب ، وأين سنَّ السمو من سن الانحطاط ،
ووقت الكسل من وقت النشاط ، وقد راجعتك لا داخلاً في حَلبتك ، بل قاضياً
حقَّ رَغبتك ، والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقياً ، وبجُنة الطاعة متوقياً ،
ولهاء الأنفس مستقبلاً ومتلقياً ، بمتته ، والسلام ، انتهى .

وكتب رحمه الله^٢ إلى سلطان إفريقية الوارث مُلك بني عبد المؤمن بتلك
النواحي ، المستولي على البلدان والضواحي ، وقد كان لأهل الأندلس أَمَلٌ في
أخذه بثأرهم ، وضم انتشارهم ، ما صورته :

شاقه غِبَّ الخيال الوارِدِ	بارقُ هاجَ غرامَ الهاجِدِ
صدَقاً وعدَّ ^٣ التلاقي ثمَّ ما	طَرَقاً إلا بخُلْفِ الواعدِ
وكلا الزَّورين من طيف ومن	وافِدٍ تحت الدياجي وارِدِ
لم يكن بعد السرى مُستَمَنع	فيه للرَّائي ولا للرائِدِ
وشديد بثُّ قلبِ هائمٍ	يشكِّيه عند ربيعِ هامِدِ
بالأمير المرتضى عزَّ الهدى	وثنى عِطْفَ المَلِيّ الواجِدِ
وبه أضحَبَ ما كان يرى	حاملاً أنفَ الأبِّي الشارِدِ
إنما الفخرُ لمولانا أبي	زكرياء بن عبد الواحدِ
ملك لولا حُلاه الغرُّ لَمَ	يجرُّ بالحمد لسانُ الحامِدِ ^٤

١ في الأصول : ميمة .

٢ أورد ستة من الأبيات في المقتطفات : (الورقة : ٨٢) .

٣ في الأصول : صدق وعد ؛ صدق الوعد ؛ صدق عند .

٤ ط : أيها .

٥ هذا البيت والذي بعده سقطا من ط .

وَلَوْ أَنَّ الْعَذَابَ أَبْدَى رَغْبَةً
فَضْلُهُ مِثْلُ سَنَا الشَّمْسِ ، وَهَلْ
قَهَرَ الْبَغْيَ بِجِدِّ صَادِعٍ
إِنَّمَا آلُ أَبِي حَقِصٍ هُدَى
قَعَدُوا فَوْقَ النُّجُومِ الزُّهْرِ عَنْ
وَعَنِ الْإِسْلَامِ ذَادُوا عِنْدَمَا
أَيُّ فَخْرٍ عُمَرِيُّ الْمُنْتَمَى
مَا الْفُتُوحُ الْغُرِّ إِلَّا لَهُمْ
فِي مُحْيَاً لَاحِقٍ مِنْ سَابِقِ
وَلَيْحَنِي رَاجِعُ الْحِلْمِ الَّذِي
عَقْدُ أَحْسَابِهِمْ تَمَّ بِهِ
أَيُّهَا الْجَامِعُ مَا قَدْ أَحْرَزُوا
هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ أَوْسَعَتْهَا
لَمْ تَزَلْ مِنْكَ بِخَيْرٍ طَارِفٍ
وَلَهُمْ مِنْكَ لِيَوْمٍ حَاضِرٍ
أَرْشَدَ اللَّهُ لِأَوَّلَى نَظَرِ
وَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقِ الْإِلَهِ
وَلَهُ فِي اللَّهِ أَوْفَى كَافِلِ

عَنْهُ لَمْ يَشْفِ غَلِيلَ الْوَارِدِ
لَسْنَا الشَّمْسُ يَرَى مِنْ جَاوِدِ
مَا تَعَدَّاهُ وَجَدَّ صَاعِدِ
لِلْوَرَى مِنْ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدِ
هِمَمِ نَبَّهْنِ عَزَمَ الْقَاعِدِ
فَلْ طَوَّلَ الْعَهْدَ غَرْبَ الذَّائِدِ
وَرِثُوهُ مَا جَدَّ عَنْ مَا جَدِ
بَيْنَ مَاضٍ بَادِيٍّ أَوْ عَائِدِ
وَعَلَى الْمَوْلُودِ سَيِّمَا الْوَالِدِ
تَرَكَ الطَّوْدَ بَعْطَفِي مَائِدِ
مِثْلُ مَا تَمَّ حَسَابُ الْعَاقِدِ
جَمَعَ مَنْ هِمَّتُهُ فِي الزَّائِدِ
نَظَرًا يَكْلَأُ لَيْلَ الرَّاقِدِ
رَيْشُهُ تَالِ قُدَامِي تَالِدِ
وَعَدِ رَأْيِي الْبَصِيرِ النَّاقِدِ
بِالْوَرَى رَأْيِي الْإِمَامِ الرَّاشِدِ
سَعِدُوا مِنْ عَاقِدٍ أَوْ عَاهِدِ
بِالَّذِي يَبْقَى وَأَكْفَى عَاضِدِ

نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْلَانَا وَأَيَّدَهُ ، وَشَدَّ مَلَكُهُ وَشَيَّدَهُ ، وَأَبْقَى لِلْفَضْلِ أَيَّامَهُ ،
وَلِلْفَضْلِ أَحْكَامَهُ ؛ وَأَظْفَرَ بِأَعْنَاقِ الْأَشْقِيَاءِ حُسَامَتَهُ ؛ وَوَفَّرَ مِنْ اتِّسَاقِ النِّعَمِ وَالْآلَاءِ
حَظُوظَهُ وَأَقْسَامَتَهُ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ جَعَلَ بِهِ حَرَمَ الْأُمَّةِ آمِنًا ،
وَوَهَجَ الْفِتْنَةَ سَاكِنًا ، وَأَبْوَابَ الصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ لَا تَعْرِفُ إِلَّا وَاصِلًا أَوْ آذَنًا ،
وَتَلَاوُفِي فَلِ الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَيْئَاتِهِ الَّتِي مِنْهَا يَنْتَظِرُونَ الْكُرْ ، وَبِهَا يُوعَدُونَ الْفَتْحَ

الأعز والنصر الأغر ؛ فهم بين جِدَّةٍ قبضوها ، وعِدَّةٍ رضوها ، وارْتِقَابٍ للفتح أكبر همهم منه دَرَكُ الثَّارِ ، وانتصاف لأهل الجَحَّةِ من أهل النار ، فأما الأوطان فقد أسَلَتْهُمْ عنها جهة تُنْبِتُ العز فيما تنبت ، وتنفي من الضيم ما تلك تثبته ، وما ذكر الساخط ، على المحل الساقط ، منازلَ عادت على مبانيها أطلالاً ، ومغانيها محالاً ، وللعبد حالٌ يستقبل بها من النظر الكريم - أدامه الله تعالى - ما أعينُ الآمالِ إليه صُور ، ورجاء الجميع عليه مقصور ، انتهى .

والغاية في هذا الباب ما كتب به - رحمه الله - من جملة كتاب لبعض ذوي الألباب ، ونصُّ محل الحاجة منه : نخصُّ الجهة البعيدة الصَّيت والاسم ، الشهيرة العمل والعلم ، دُرَّة تاجنا ، وضوء سراجنا ، ونكتة احتجاجنا ، أبقاها الله تعالى في أعيننا مناراً ، ولأندلسنا فخاراً ، على أنه وإن بقيت المُفَاخر - فقد أودى المُفَاخر ، وإن أضاء الطالع ، فقد دَجَّت المطالع ، وغلب عليها عُدَاةٌ زووا عنها وجوهنا ، وأروا فيها مكروهنا ، حتى إنِّي أتيت بشعر فيه استسقاء للديار ، على عادة الأشعار ، فقلت :

زِدْنَا على النائينَ عَنْ أوطانهم وإن اشترَكْنَا في الصَّبَابَةِ والجَوَى
 إِنَّا وَجَدْنَا هُمْ قَدْ اسْتَسْقَوْا هَا من بعد أن شَطَّتْ بهم عَنْهَا النُّوَى
 وَيَصُدُّنَا عَنْ ذَاكَ فِي أوطَانِنَا مَعَ حُبِّهَا الشَّرْكُ الَّذِي فِيهَا ثَوَى
 حَسَنَاء طَاعَتْهَا اسْتَقَامَتْ بَعْدَنَا لَعْدُونَا ، أَفِيستقيم لها الهوى ؟

انتهى .

قلت : وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها ، العالية في مبناها ، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى - دمرهم الله - على تلك الديار ، وثبوت قَدَمهم فيها على طَبِيق ما حصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبِّه لها الذي لا يُشْكُ فيه ولا يُرْتَاب ، واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونُجْعة المتأب ، ولكل أجل كتاب ، وإذا نقذ سهم المقدور فلا عتاب .

ومما يستولي على الخواطر ، ويروي رياض الأفكار بسحب بلاغته الماطر ،
قوله - رحمه الله تعالى - يخاطب أبا الحسن الرُّعَيْنِي سنة ١٦٣٤ :

يا صاحبي والدهرُ - لولا كَرَّةُ	منهُ على حفظ الذِّمَام - ذَمِيمُ
أُمْنَازِعِي أَنْتَ الْحَدِيثَ ؟ فَإِنَّهُ	مَا فِيهِ لَا لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمُ
وَمَرُوضٌ مَرَعَى مُنَايَ فَنَبَتْهُ	مِنْ طَوْلِ إِخْلَافِ الْغُيُومِ هَشِيمُ
طَالَ اعْتِبَارِي بِالزَّمَانِ ، وَإِنَّمَا	دَاءُ الزَّمَانِ كَمَا عَلِمْتَ قَدِيمُ
مَجْفُوقٌ حَظٌّ لَا يَنَادِي ثُمَّ لَا	يَنْفُكُ عَنْهُ الْخُذْفُ وَالْتَرَحِيمُ
وَأَرَى إِمَالَتَهُ تَدُومُ وَقَصْرَهُ	فَعَلَامٌ يُلْفَى الْمَدُّ وَالتَّفْخِيمُ
وَعَلَامٌ أَدْعُو وَالْجَوَابُ كَأَنَّمَا	فِيهِ بِنَصٍّ قَدْ أَتَى التَّحْرِيمُ
لَمْ أَلْقَ إِلَّا مُقْعِدًا ، غَيْرَ الْأَسَى	فَلَدَيْ مِنْهُ مُقْعِدٌ وَمُقِيمُ
وَشَرَابِي الْهَمِّ الْمَعْتَقُ خَالِصًا	فَمَتَى يُسَاعِدُنِي عَلَيْهِ نَدِيمُ
غَارَاتِ أَبْيَامِي عَلَيَّ خَوَارِجُ	قَعْدِيَّتُهَا فِي طَبْعِهِ التَّحْكِيمُ
وَلَوَاعِجُ بِحَتَّاجٍ صَالِي حَرَّهَا	أَمْرًا بِهِ قَدْ خُصَّ إِبْرَاهِيمُ
وَلَقَدْ أَقُولُ لَصَاحِبٍ هُوَ بِالَّذِي	أَدْرَكْتُ مِنْ عِلْمِ الزَّمَانِ عَلِيمُ
لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ الْإِلَهِ وَإِنْ قَسْتُ	يَوْمًا قُلُوبُ الْخَلْقِ فَهَوَ رَحِيمُ

ويهزني ، ويستفزني ، ما كتبه - رحمه الله تعالى - من رسالة :

كتبته إلى سيدي وهو السيد حقيقة ، وأخي وقد كتب الدهرُ بذلك وثيقة ،
أبقى الله تعالى جلاله محروساً ، وربَّع وفائه لا يخشى دُروساً ، من رِباط الفتح
وأنا بحقه عليم ، وعلى عهده مُقيم ، وشأني توقير له وتعظيم ، وحب فيه خالص
كريم ، ووصلني خطابه الخطير المبرور ، فكنت به كالصائم رأى الهلال ،

١. هو علي بن محمد بن علي بن الفخار أبو الحسن الرُّعَيْنِي (٥٩٢ - ٦٦٦) راجع ترجمته في الذيل
والتكلمة ٥ : ٣٢٣ ومقدمة كتابه « برنامج شيوخ الرُّعَيْنِي » تحقيق الأستاذ إبراهيم شيوخ (دمشق
١٩٦٢) والأبيات في الذيل : ٣٦٣ .

والهائم عين الماء الزلال، علق ليس يوازيه علق ، وسحر لكنه حلال طلق ،
ونظم لذكر الطائي طاو ، وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راو ، رمت ابن
الرومي بالحمول ، وبشرت اسم بشار من الفحول ، وحكمت بأن النمري
في نَمِرة الهَوَانِ مُدْرَج ، والسري عن سَرَوة الإحسان مُخْرَج ، فأما
النثر فصهيل لا يجاوبه الرُغَاء ، وطراز لا يحسنه البلُغَاء ، ونقذ تزييف معه
النقود ، ومدى تنقطع دونه الضمير القود ، غادر الصابي وصباه غير ذات
هبوب ، والصاحب وهو من العجز مع شر مصحوب ، والميكالي وميكاله
مرفوض ، والحريري وحريره في سوق الكساد معروض ، فأما بحر رئيس
أرجان ، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وأبقاه في ضحضاح ، بل تركه
يمشي بأدرج ضاح ، فمن ذا يجاري فارس الصفين وإمام الصنفين ؟ أبلغ من
خط بقلم ، وأشهر من نار على علم ، وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحف ،
وخمائل تفخر بها الروضة الأثف ، واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر ، ووسم
بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وهب وآل طاهر ، فالزمان يأثر ، ما ينثر ، ويعظم ،
ما ينظم ، ولو أن الأزمنة قبله عمرت المحاضر بكل ناجم ، ونشرت المقابر عن
الصنوبري وكشاجم ، وجاءت بالكتاب من كل جيل ، والشعراء رعيلاً بعد
رعيلاً ، لطال هذا العصر بواحدة آلفها ، وأنسى بخلقها أسلافها ، انتهى .
وكتب - رحمه الله تعالى - إلى صاحبين له في معنى ما ألعنا به آنفاً ، ما
صورته :

نحيّة منكما أتتني طابت كما طاب مُرسِلاها
ويا لها أذكرت عهداً قلبي والله ما سلاها
حللتما في البلاد أرضاً ريح صباها عني سلاها
لم يصب قلبي إلى سواها يوماً ولم يسئل عن سلاها

كتابي أيها الأخوان اللذان بודהما أقول ، وعن عهدهما لا أحول - أنزلكما

الله تعالى خير منزل ، وجعلكما من النوايب والشوايب بمَعزِل - من رباط الفتح ولُبِّي قديماً ملكتما رِقَه ، وقلبي تعلماً وتعليماً عرفتما صدقه ، كيف خالكما من سَقَر طويتما خبره ، حين تجشمتما غرره ؟ وكيف سَخَتْ نفوسكما بأَم الحصون ، وذات الظلال والعيون ؟ تربة الآباء ، ومترلة الجُمَحِيِّين النُجَباء ، حتى صرمتما حبلتها ، وهجرتما حزنّها وسَهْلَهَا ، وخضتما غُبْرَ الفِجَاج ، وخَضِرَ الأمواج ؟ ما ذاك إلا لتغلب الحادث النُكْر ، وتألّب المعشر القُدُر ، ومن أجل الداهية النكاد^١ ، والحادثة الشنيعة على البلاد ، أزعجتكم حين أزعجتنا ، وأخرجتكم كما أخرجتنا ، وطوّحت بنا طوائحها ، واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحها ، فشكراً لله تعالى على قضائه ، وتضرعاً فيما نرفعه من دعاائه ، وهنيئاً لنا ولكم معشر الشُرَداء ، المنظورين من الشجن على شرّ داء^٢ ، ذلك الطَوْد الذي إليه أُوَيْتُما ، وفي ظله ثَوِيْتُما ، وعن رأيه تَرَيَان ، وبسعيه تسعيان ، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحاً ، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُ المَهْم صبحاً ، انتهى .

* * *

[تعريف بأبي المطرف]

وكان أبو المطرف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب : قلوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، وصدر الحِلَّة الفضلاء ، وهو أحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومي ؛ ونكته البلاغة التي قد أحرزها وأودعها ، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها ، مبدع البدائع التي لم يحظ^٣ بها قبله إنسان ، ولا ينطق عن تلاوتها لسان ؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة ، وروية بلزر العلم فصيحة ، ذلت له صعب الكلام ، وصدقت رؤياه حين وَضَعَ سيدُ المرسلين

١ كذا في الأصول ؛ ويقال أيضاً « داهية نَاد » .

٢ ط : شر الداء .

٣ ك : يحظ .

صلى الله عليه وسلم وهو الذي أوتي جوامع الكلم^١ في يديه الأفلام ، وأصل سلقه من جزيرة شُقَر ، وولد بمدينة بِلَنَسِيَّة ، وروى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبيني النحوي وابن عات وابن حَوْط الله ، وغيرهم من الحفاظ ، وأجازه من أهل المشرق جماعة ، وكان شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، ثم تفنن في العلوم ، ونظر في المغولات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع براعة عُدَّ فيها من مجيدي النظم ، فأما الكتابة فهو فارسها الذي لا يُجارى ، وصاحب عينها الذي لا يُبارى ، وله وعظ على طريقة ابن الجوزي ، ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحدين والحقصيين ، وله تأليف في كائنة مَيُورقة وتغلب الروم عليها^٢ نحا في الخبر عنها منحى الإمام الأصبهاني في الفتح القدسي ، وله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازي في كتاب «المعالم» ، وله كتاب ردّ به على كمال الدين الأنصاري في كتابه المسمّى «بالتبيان» ، في علم البيان ، المطلع على إعجاز القرآن^٣ وسمّاه «بالتنبيهات» ، على ما في البيان من التموهيات ، وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة^٤ ، وغير ذلك .

ورد - رحمه الله - حضرة الإمامة مرّاً كُشِّصَحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قُفُوله من مدينة سَلا ، واستكتبه مدّة سيرة ، ثم صرفه عن الكتابة ، وقلده قضاء هيلانة ، ثم نقله إلى قضاء سلا ، ثم نقله السعيد إلى قضاء مِكناسة الزيتون ، ثم قصد سَبْتَة ، وأخذ ماله في قافلة في فتنة بني مَرِّين ، ثم توجه إلى بلاد إفريقية ، ووصف حاله في رسالة خاطب بها ابن السلطان أبي زكريا الحقصي ، وهو أبو زكريا ابن السلطان أبي زكريا ، وكان صاحب بجاية لأبيه ، ولم يزل - رحمه الله تعالى - مذ فارق الأندلس متطلعاً لسكنى إفريقية ، معمور القلب بسكناها ، ولما

١ ط : الكلام .

٢ يعني عام ٦٢٧ هـ .

٣ يريد كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين» وقد نشرت قطعة منه (بيروت - ١٩٦٤) .

قدم تونس مال إلى صُحبة الصالحين والزهاد وأهل الخير بُرْهة من الزمان ، ثم استقضي بالأُرْبُس^١ من إفريقية ، ثم بقابس مدة طويلة ، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي ، وأحضره مجالس أنسه ، وداخله مداخلة شديدة ، حتى تغلب على أكثر أمره .

ومولده بجزائر شُقَر في شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ ، وتوفي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٨ ، ألحقه الله رضوانه ، وجدد عليه غفرانه .

وقال ابن الأبار في « تحفة القادم »^٢ في حق أبي المطرف المذكور : فائدة هذه المائة ، والواحدُ يَقي بالفئة ، الذي اعترف باتحاده الجميع ، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع ، ومعاذ الله أن أحابه بالتقديم ، لما له من حق التعليم ، كيف وسبَّقه الأشهر ، ونطقه الياقوت والجوهر ، تحلت به الصحائف والمهارق ، وما تحلت عنه المغارب والمشارق ، فحسبي أن أجهد في أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه ، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره ، وتناوب المشور والمنظوم على شكره ؛ ثم أورد له جملة منها قوله :

وأجلتُ فكري في وشاحك فأنثى	شوقاً إليك يَجول في جَوَالِ
أنصفتُ غُصْنَ البانِ إذ لم تدعه	لتأوُدٍ معَ عطفك الميَالِ
ورحمتُ دُرَّ العقد حين وضعته	متوارياً عن ثغرك المتلالي
كيف اللقاء وفعلٌ وعندك سينه	أبدأ تخلصه للاستقبالِ
وكما قومك نارهم ووقيدها	لطارقين أسنة وعوالي

وله مما يكتب على قوس قوله :

ما أناد مُعتَقَلُ القنا إلا لأن يحكي تأطر قامي العوجاء

١ ط : بالأبرس .

٢ انظر المقتضب من التحفة : ١٤٥ والوافي (ترجمة أبي المطرف ٧ الورقة : ٦٤) .

تَحْنُو الضلوع على القلوب وإنّي ضلّع ثوى فيها بأعْضَل داء
وله وقد أهدى ورّداً :

خذها إلَيْكَ أبا عَبْدِ الإله فَقَدْ جاءَتْكَ مثلَ خلودِ زَانِها الحَفَرُ
أَتَتْكَ تحكي سَجَايا مِنْكَ قد عَدُبَتْ لَكِنْ تَغَيَّرَ هذا دُونَهُ الْغَيْرُ
إن شِئْتَ منها بروقَ الْغَيْثِ لَامِعَةٌ فَسَوْفَ يَأْتِيكَ من ماء لها مَطَرُ
قال : وكتب إلي مع تحفة أهداها مكافئاً عن مثلها :

يا واحدَ الأدب الذي قَدْ زَانَهُ بِمَنَاقِبِ جَعَلَتْهُ فَارِسَ مَقْبِهِ^١
بِالْفَضْلِ في الهبة ابتدأتْ فإن تُعِيرْ طرفَ القبول لما وَهَبْتُ خَتَمْتُ به
قال : وله ارتجالاً بقصر الإمارة من بِلَنْسِيَّة وأنا حاضر في صبيحة بعض
الجمع ، وقد حُجِم صاحب لنا من أهل النظم والنثر ، وأحسن إلى الحُجَماء
المخصوص^٢ :

أرى مَنْ جاء بالموسى موسى وراحةً ذي القريض تعود صِفْراً
فهذا مخْفِقٌ إن قصَّ شِعْراً وهذا مُنْجِحٌ إن قصَّ شِعْراً
وله أيضاً :

هو ما علمت من الأمير ، فما الذي تزدادُ منه وفيه لا يُرْتَابُ ؟
لا تتقي الأجنادُ في أيامه فقراً ، ولا يَرْجُو الْغنى الْكُتَّابُ
وله بعد انفصاله من بلنسية عن وَحْشَةٍ في ذي القعدة سنة ٦٢٨ :

أسيرُ بأرجاء الرِّجاء ، وإنما حديثُ طريقي طارقَ الحَدَثَانِ

١ ك : منصبه .

٢ ك : بالمخصوص .

وأحضر نفسي إن تقدّمت خيفةً
أترك حظي للحضيض وقد سرى
وأخبطُ في ليل الحوادث بعدما
فيحني لآمالي حياة مُعادة
وقالوا : اقترحْ إنَّ الأمانِيَّ منهما
فقلت : إذا ناجاهُما بقضيتي
وله أيضاً :

سلب الكرى من مُقلتي فلم يحىء
أهفؤ ارتياحاً للنسيم إذا سرى
منه على نأي خيالٍ يطرقُ
إنَّ الغريقَ بما يرى يتعلقُ
انتهى ما لخص من « تحفة القادم » في ذكر ابن عميرة أبي المطرف .

* * *

[رسالة لأبي المطرف]

ومما كتب أبو المطرف - رحمه الله - وفي أثنائه إشارة إلى الكفار الغالين
على بلاد الأندلس ، ما نصّه :

ألا إنَّ شخصينا على القطع واحد وجاحدُ هذا للضرورة جاحد
فإن لم تصدّق ما نطقْتُ بصدقه فإنك لي لاحٍ وللودٍ لاحد
ومعاذ الله ، عز وجل ، أن تلجاني ، أو تمنع أنفك ريحَ رِيحاني ، وكيف
تصدّ عني بوجهك ، أو تشخذ لي غَرْبَ نَجْهِك^١ ، وأنا على غَيْبِكَ أمين ،
ولشمالك يمين ، ولكم دعوتَ بي فأجبتُ ، واستغنيت عني فحجبت ، وأردت
الاستبداد فما استطعت ، ونعت^٢ الوداد فما أحسنت النعت ، وإنما تُحمد

١ النجى : الردع والانتهاز .

٢ ج : وأنفت .

فَرَاهَةُ الأعوجيَ إن جَرَى ، وتذكر فضيلة ابن السري إذا سَرَى ، فأما
الاقتصار على عَظْمٍ باد ، والانتظار لعيْنٍ عدمت السواد ، فخطأ من القائل ،
وخطل عند العاقل ، والله در أخيك من مغمض طرف التطرف ، قارىء أدب
الصحبة على السبعة الأحرف ، كَرَعَ في أعزّ مَوْرِد ، وتواضع في شَرَف مَوْلِد ،
وسمّا بنفسه عن أن يستخفه نسب يرفعه ، وحسب ما منّا أحد يدفعه ، وكذلك
الكرام يرون عليهم حقّاً ، ويتوقّونَ من لم يكن من الكبر مَوْقَى ، ولعَهدي
به وظلُّ الثروة بارد^١ ، وشيطان الشيبة مارد ، وبشره في الملمات يرفّ ، وقدمه
إلى الحاجات تخيفُ ، يصون عِرْضَه بماله ، ويخفي صدقة يمينه عن شماله ،
ويقسم جسمه في جُسوم^٢ ، ويقوم بالحقوق غير مكلول ولا ملوم ، تلك المكارم
لا قعبان^٣ ، وما تستوي البدنة المهیضة مع غيرها في القربان ، وعرضت بذكر
العصر الخالي ، والقصر العالي ، وظل من فنن ورّيق ، وعيش مع أكرم فريق ،
وما تذكر من زمن تولّى ، وعهد على أن لا يعود تألّى ، فارقناه أحسن ما كان ،
وودعنا به الأطيبين الزمانَ والمكان ، ففقت الرسوم ، وأفكت تلك النجوم ،
ورمّتنا عن قوسها الروم ، ثمّ خلفتنا في المغاني ، وقسمتنا بين الأسير والعاني ،
فأودى القلُّ والكُثر ، واشتفى من الإسلام الكفر ، فكم كأس أنس أرقناه ،
ومتزل فرقة الأبد فارقناه ، وذكرنا اجتيازك بين العَلَمين^٤ ، وقطعتك متن
اليمّ في يومين ، وأنتك انتقلت من ذوات الألواح ، إلى عدّبات الأدواح ،
ومن متهافت الشّراع ، إلى منابت اليراع ، ومن سكنى بيت السكان ، إلى منزل
به الفلاح والملاح يشتركان ، حيث اجتمع الضبُّ والنون ، وأينع الثين والزيتون ،

١ ج : وارد .

٢ من قول عروة بن الورد :

أقسم جسي في جُسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

٣ من قول أمية بن أبي الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادة بعد أبوالا

٤ ج : العالمين .

وظللت الساحات ، وذُللت الثمار المباحات ، فلا تُشْرِقنا يا أُصَيْل ، ولا مَـ
تلك الأرض الوَيْل ، انتهى .

ووصل هذا الكلام بالأبيات التي تقدّمت قريباً ، وهي قوله « زدنا على
النّائين عن أوطانهم إلخ » .

* * *

[رسالة أخرى لأبي المطرف]

وكتب رحمه الله عن أهل شاطِئَةِ أَيّام كان قاضياً بها ، مهنتاً أمير المسلمين
ابن هُود المستولي على الأندلس آخر دولة الموحّدين بوصول الكتاب العباسي
الكرّيم إليه من بغداد بولاية الأندلس ، إذ كان ابن هُود حين ثار على الموحّدين
يدعو إلى الخليفة العباسي الذي كان أكثر الملوك في ذلك الزمان يَدِينون بطاعته ،
بما نصّه بعد الصدر :

أمّا بعد ، فكتبَ العبيدُ - كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي
سعادة لا تبلغ أمداً إلا تخطته ، ويدأ علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته - من شاطِئَةِ
وبركاتُ الأمر المجاهدي المتوكلي ، والعهد الوثاقي المعتصمي ، تنسكب كالطر ،
وتنسحب على البشر ، وتقضي بعادة النصر والظفر ، وسعادة الورد والصّدَر ،
والحمد لله ، وعند العبيد من أداء فروض الحِدَم ، والقيام بحقوق النّعَم ، ما
عقّدت عليه ضمائرهم ، وسمت إليه نواظرهم ، واشترك فيه بادِئهم وحاضرهم ،
فجناب أملهم فسيح ، وتَجَرُّ خدمتهم ربيع ، وحديث طاعتهم حَسَن صحيح ،
وبسّنا النظر العلي اهتداؤهم ، وفي الباب الكريم رجاؤهم ، وبصدق العبودية
اعتراؤهم وإليها اعتراؤهم ، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية ، ويحملهم
على المناهج السّوية ، ووصل الكتاب الكريم متحلياً برِواء الحق ، ناطقاً بلسان
الصدق ، واصفاً من التشريف والفَخار المنيف ، ما صدر عن إمام الخلق ، فلا

بيان أعجب من ذلك البيان ، ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان ، أو تأدى خبره في أخيار الزمان ، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور ، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحصر ، ويهدي سواده سواد القلب والبصر ، فيا لمشهدا ما أعجب ما كان ، ومرآها الذي راع الكفر وراق الإيمان ، وأشبه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان ، وكفى بهذا فخاراً لا يحتاج ثابته مثبتاً ، أن باشرت برُداً باشر البدن الذي طاب حياً وميتاً ، فهو علو في الإسناد ولا نظير له في العوالي ، وفخار ضلّت عن مثله العصور الخوالي ، وجلّت بهجته أن تُخلّق جدّتها الأيام واليالي ، ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد ، والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل في جنس ذوات الأغمد ، وخير الأوصاف ما صدقه الموصوف ، وللكریم النسب نسبة "يُباهي" بها الدين وتزهى السيوف :

فإن نحن سَمِينَاك خِلْنَا سيوفنا من التيه في أغمادها تنبسم

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه ، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه ، فإنها تضمّنت صفة الله ، عز وجل ، من صفات الكمال ، ودلّت على مذهب أهل السنة في خلق الله ، عز وجل ، الأعمال ، وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدي المتوكلي - أحسن الله تعالى إليه - حين تولّى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فإنه لما شايعة بعزيمة مساعدة ، ونية في مشاريع الصفاء والإخلاص واردة ، ألهم زيادة في العلامة شاركت الإمامة في صفة واحدة ، فهذه كرامة في العلامة ، هي علامة الكرامة ، وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ (هود : ١١٢) فكان من أهل الاستقامة ، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيان وما معها ، وإن هذه البشائر وما تبعها ، لفروع عن هذا الأصل الصحيح ، وأقيسة عن هذا النص الصريح ، فأدلة

١ دوزي : يأي .

الخلافة قد استقلت ، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت ، والحمد لله على أن منّ جزيل النعماء ، وشرح باليقين صدور الأولياء ، وشرّف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء ، وابن عمّ سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، والعبيد يهتئون بهذه النعم ، التي لا يستقلّ بذكرها قلّم ، ولا يُقطع عِلْم من وصفها إلا بدا عِلْم ، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنيّة ، ولشّم اليمين الطاهرة العليّة ، ما أكده دنو الدار ، وجدّده ما تجدد للمقام العالي المتوكلي من نعم الله تعالى الخليفة المقدار ، والشاهدة له بإسعاد الأيّام وإسعاف الأقدار ، فلو أمكنهم الإقدام لأقدموا ، ولو وجدوا رُخصة في المسير لعزموا ، وهم يستلمون البساط الأشرفي توهماً ومنّ أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا ، انتهى .

وبه تعلم أن الدولة العباسية خطب لها ببلاد الأندلس — أعادها الله للإسلام — ولا يخفّاك أن ما جلتبئناه من ذلك وغيره مناسب للمقام ، فلا انتقاد ولا ملام .

* * *

[رسالة للسان الدين إلى أحمد بن قلاوون]

وقد رأيت أن أذكر هنا مخاطبة صدرت من الغني بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله ، لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس ، ونصّها : الأبواب التي تُفتّح لنصرها أبواب السماء ، وتُسْتَدَرّ من آفاقها سحب النعماء ، وتجلّ بأنوار سعدا دياجي الظلماء ، وتعرّف نكرة البلاد والعباد بالانتساب إلى محبتها والانتماء ، على اختلاف العروض وتباين الحلود وتعدّد الأسماء ، ويُجْتَرأ من صلات صلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء ، وتحمل لها التحيّة ذوات الدُّسُر والألواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء ، أبواب السلطان الكبير ، الجليل الشهير ، الطاهر الظاهر ، الأوحد الأسعد ، الأصعد الأمجد ، الأعلى العادل ، العالم الفاضل الكامل ، سلطان الإسلام والمسلمين ،

عماد الدنيا والدين ، رافع ظلال العدل على العالمين ، جمال الإسلام ، علّم
الأعلام ، فخر الليالي والأيتام ، ملك البرين والبحرين ، إمام الحرمين ، مؤتمل^١
الأمصار والأقطار ، عاصب تاج الفخار ، هازم الفرنج والترك والتتار ، الملك
المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة ، الكريم الولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير
الشهير ، المعظم الممجّد الأسمى ، الموقر الأعلى ، فخر الجلالة ، سيف الملة ،
تاج الإمارة ، عزّ الإسلام ، مستظلّ الأنام ، قمر الميدان ، أسد الحرب العوان ،
المقدس المطهر ، الأمير أحمد ابن والد السلاطين ، ومالك المسلمين ، وسيف خلافة
الله على العالمين ، وولي المؤمنين ، سلطان الجهاد والحج ، ومقيم رسم العجّ والثجّ ،
محبي معالم الدين ، قانع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنة ،
محبي الملة ، ملك البرين والبحرين ، سلطان الحرمين ، الملك العادل ، العالم
العامل ، المنصور المؤيّد المعان المرفع المعظم الميجل المؤمل ، المجاهد المرابط
الغازي^٢ الممجّد المكمل ، المطهر الكبير الشهير ، المقدس الملك الناصر أبي عبد
الله محمد بن قلاوون الصالحى ، جعل الله فسْطاط دعوته معموداً بعمود الصبح ،
وحركات عزمه مبنية على الفتح ، ومجمل سعادته غنيّاً عن الشرح ، وجياد
أوصافه متبارية في ميدان المدح ، وزناد رأيه^٣ وأرية على القدح ، من موجب
حقه وجوب الشعائر الخمس ، المرحب لأجل أفقه الشرقيّ بوفادة الشمس ،
المجدّد في اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالأمس ، أمير المسلمين
بالأندلس عبد الله الغنى بالله الغالب به محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن
نصر : سلام كريم كما زحفت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح ،
يفواح أرجه زهير^٤ الأدواح ، ويحاسن طرّر الوجوه الملاح ، ينخص أبوتكم التي

١ ك : مؤمن .

٢ ك : المغازي .

٣ ط ودوزي : آرائه .

٤ دوزي : زهر .

رتب العز فصولها ، وعصدت نصوص النصر فصولها ، ورحمة الله تعالى وبركاته .
 أمّا بعد حمد الله الذي جعله فاتحة القرآن ، وخاتمة دعاء أهل الجنان ،
 وشكره على ما أولى من مواهب الإحسان ، حمداً وشكراً يستخدمان من الإنسان ،
 ملكتي القلب واللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة
 كمامة الأكوان ، وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والألوان ، الذي أذل
 بعزة الله أنوف الطغيان^١ ، وغطى بسديته الحق على الأديان ، وزويت له
 الأرض فرأى ملك أمته يبلغ ما زوي له فكان الخبر وفق العيان ، والرضا عمّن
 له من الأصحاب والأحباب والأعمام والأخوال والإخوان ، صلاة يمجدها
 الجديدان ، ويُمليها الملوان ، وتتراحم على تربته المقدسة مع الأحيان ، ما سجت
 طيور البراعة من أعواد اليراعة على الأفنان ، والتفت عيون المعاني ما بين أجفان
 البيان ، والدعاء لأبوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتي الحجابة
 والاستئذان ، وضرب بدعوتها التي هي لذة الإقامة والأذان على الآذان ، واستخدم
 بروج الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام^٢ الأنصار والأعوان ، حتى يُعلم
 ما في المدافعة عن حماها مخالب السرحان ، وفي الإشادة بعدها كفتي الميزان ،
 ويهدي لها من الزهرة كُرّة الميدان ، ومن الهلال عوّض الصولجان ، وأبقى في
 عواملها ضمير الأمر والشان ، إلى يوم تغنو وجوه الملوك إلى الملك الديان ،
 فإنّا كتبناه إلى تلك الأبواب كتب الله لعبتها النصر الداخلة ، كما أخلج بمكارمها
 السحب الباخلة ، وجعل مقارق مناصلها المختضبة من نجيع عداها غير ناصلة^٣ ،
 وقرّن بكل سبب من أضدادها فاصلة ، من دار ملك الإسلام بالأندلس حمراء
 غرناطة — وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها ، وشدّ بأيدي اليقين عُرَى
 أملها في الله ورجائها — حيث المصاف المعقود ، وثنّ النفوس المنقود ، ونار

١ ك : الذي أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان .

٢ استخدام : سقطت من ق ط ج ودوزي .

٣ ق ط ج ودوزي : الناصلة .

الحرب ذات الوقود ؛ حيث الأفق قد تردى بالقَتَام وتعمَّم ، والسيف قد تجرد وتيمَّم ، وغُبار الجهاد يقول : أنا الأمان من دخان جهنم ؛ حيث الإسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير ، والتمرة من أوسق العير ؛ حيث المَصَارِع تتراحم الحورُ على شهدائها ، والأبطال يعلو بالتكبير مسمعاً نداءها ، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها ، وإن هذا القطر الذي مهدت لسياستنا^٢ أكوار مطّاياها ، وجُعِلت بيدنا - والمنّة لله - عِيَاب عطّاياها ، قطر مستقل بنفسه ، مُرَبِّ يومه في البرّ على أمسه ، زكيّ المنابت عذب المشارب ، متمم المآمل مكمل المآرب ، فاره الحيوان ، معتدل السحن والألوان ، وسيطة في الأقاليم السبعة ، شاهدة لله بإحكام الصنعة ، أما خيله ففارهة ، وإلى الرّكض شارهة ، وأما سيوفه فلمواطن الغمود كارهة ، وأما أسلّهُ فمتداركة الخطف ، وأما عوامله فبيّنة الخذف ، وأما نباله فمحذورة القذف ، إلا أن الإسلام به في سَفَطٍ مع الحيات^٣ ، وذريعة للمنيّات الوحيّات ، وهدف للنبال ، وأكلة للشبّال ، تطوهم الغارات المتعاقبة ، وتحفيهم^٤ الحدود المصاقبة ، وتجوّس^٥ خلاهم العيون المراقبة ، وتريب من أشكال مخطّطهم إلا أن يتفضل الله بحسن العاقبة ، فليس إلا الصبر ، والضرب والهبر^٥ ، والهمز والنبر ، والمقابلة والجبر ، وقد حال البحر بينهم وبين إخوان ملّتهم ، وأساءة علّتهم ، يقومون بهذا الفرض ، عن أهل الأرض ، ويقرضون ملكَ يوم العرض ، أحسن القرض ، فلولا بُعد المدى ، وغُول الردي ، ولَغَطُّ العدا ، وما عدا ممّا بدا ، لسمعتم تكبير الحملات ، وزئير تلك الفلّات ، ودويّ الخوافر ، وصليل السيوف من فوق المغافر ، وضُرّاخ الثكالي ، وارتفاع الأدعية إلى الله تعالى ، ولو ارتفع قيد^٦ المكان ، وهو للأولياء مثلكم من حيز الإمكان ، لمقلّم مقلّ الأسنة الزُّرْق ، حالة

١ دوزي : مستعم .

٢ إشارة إلى قول الشاعر : كيف الحياة مع الحيات في سَفَطٍ

٣ ك : وتحفيهم .

٤ ق : بند ؛ ك : هذا ؛ ج : نبذ ؛ ط ودوزي : نبذ .

من أطراف قَصَب الرماح محالَّ الورق ، وأبصرتم القنا الخطار قد عاد أخلة ،
والسيوف قد صارت فوق بلور الخوذ أهلة ، وعقود الشهادة عند قاضي السعادة
مستقلة ، وكان كما تحصره علومكم الشريفة حلق سور الفتح ، وآخر دلاء ذلك
المنح ^١ ، عُرِض على الفاروق فاحتاط ، وأغرى به من بعده فاشتات ، وسرحت
خيل ابن أبي سرح ، في خبر يدعو إلى شرح ، حتى إذا وَلَدُ مروان تقلدوا
كَرَّتْهَا التي هَوَتْ ، وخَضَمُوا ^٢ ما أنضجت ورثة الحق وشوت ، ويدهم على
الأمر احتوت ، وفازت منه بما نوت ، نفل ولأئده الوليد ، وجلب له الطريف
والتليد ، وطرقت خيل طارق ، وضافت عن أخباره المهارق ، وجلت الفائدة ،
وظهر على الذخيرة التي منها المائدة ، ثم استرسل المَهَبُّ ، ونصر الربُّ ، ويكثر
الطير حين ينتثر الحب ^٣ ، وصرفت أشراف الشام أعينتها إلى التماس خيره ،
وطارت بأجنحة العزائم تيمناً بطيره ، وقصدته الطلائع صحبة بلجج بن بشر
وغیره ، ففتحت الأقفال ، ونفلت الأنفال ، ونجح الفال ، ووُسمت الأغفال ،
وافتنحت البلاد الشهيرة ، وانتقيت العذارى الحيرة ، واقتنيت الذخيرة ، وتجاوز
الإسلام الدروب وتخطى ، وخضد الأرطى ، وأركب وأمطى ، واستوثق
واستوطا ، وتشاءب وتمطى ، حتى تعددت مراحل البريد ، وسخنت عين
الشیطان المرید ، واستوسق للإسلام ملكٌ ضَخَمُ السَّرادق ، مرهوب البوارق ،
رفیع العمَد ، بعيد الأمد ، تشهد بذلك الآثار والأخبار ، والوقائع الکبار ،
والأوراق والأسطار ^٤ ، وهل يخفى النهار ؟ ولكل هُبوب رُكود ، والدهر
حَسُود لمن يَسُود ، فراجعت الفرنج كَرَّتْهَا ، واستدركت معرَّتْهَا ، فلوَمَّت
جوارحها وحلَّقَتْ ، وأومضت بوارقها وتألقت ، وتشبث وتعلقت ، وأرسلت

١ ك : وآخر ولاء ذلك المنح .

٢ الخضم : التناول بجميع الفم ، أما القضم فهو بمقدم الفم .

٣ من قول بشار :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب ب وتغشى منازل الكرماء

٤ ك : والأوداق والأمطار .

الأعنة وأطلقت ، وراجعت العقائل التي طَلَقَتْ ، حتى لم يبق من الكتاب إلا الحاشية ، ولا من الليل إلا الناشية ، وسقطت الغاشية ، وأخلدت الفئة المتلاشية ، وتقلصت الظلال الفاشية ، إلا أن الله تدارك بقوم رُجِحَ من سَلَفنا أثبتوا في مستنقع الموت^١ أقدامهم ، وأخلصوا لله بأسَهُم وإقدامهم ، ووصلوا سيوفهم الباترة^٢ بخُطاهم ، وأعطاهم منشور العز من أعطاهم ، حين تعين الدين وتميز ، واشتد بالمدافعة وتميز ، وعادت الحروب سيجالاً ، وعلم الروم أن لله رجالاتاً ، وقد أوفد جدتنا - رضي الله عنه - على أبواب سلفكم من وقائعهم في العبدو كل مُبَشِّرَة ، ووجودية منتشرة ، ضحك لها ثغور الثغور ، وسرت بها في الأعطاف حُمياً السرور ، وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور ، وتمايم في الدور^٣ ، وخفراً في وجوه البسور ، فإن ذمام الإسلام موصول ، وفروعه تجمعها في الله أصول ، وما أقرب الحزن ممن داره صول^٤ ، والملة - والمنة لله - واحدة ، والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحدة ، والأقدار معروفة ، والآمال إلى ما يوصل إلى الله مصروفة ، فإذا لم يكن الاستدعاء ، أمكن الدعاء ، والخواطر فعالة ، والكل على الله عالة ، والدين غريب والغريب يحن إلى أهله ، والمرء كثير بأخيه على بُعد محله .

انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلق بهذا الباب ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب^٥ .

١ ك : الحرب ؛ وهو من قول أبي تمام :

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لما من تحت أخمصك الحشر

٢ ك : البارقة .

٣ ك : في درر النحور .

٤ من قول الحماسي :

ما أقدر الله أن يديني على شحط من داره الحزن من داره صول

٥ وإليه . . . والمآب : سقطت من ك .

ابواب الثالث

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد ، والقَهْر للعدو
في الرواح والغدو والتحرك والهدو والارتياح البالغ غاية الآماد ، وإعمال
أهلها للجهاد ، بالجد والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ، بالأسنة المشرعة
والسيوف المستلثة من الأعماق

أقول : قدّمنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين ، وفتحهم
الأندلس ، وما حصل لهم من سلطان بها إلى مجيء الداخل ، ففقررت القواعد
السلطانية ، وعلت الكلمة الإيمانية ، كما نسردُه هنا إن شاء الله تعالى .
وذكر غير واحد - منهم ابن حزم^١ - أن دولة بني أمية بالأندلس كانت
أنبَلّ دول الإسلام ، وأنكاهها في العدو ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد
عليه ، كما سترى بعضه .

• • •

[عبد الرحمن الداخل]

وأصل هذه الدولة - كما قال ابن خلدون^٢ وغير واحد - أن بني أمية لما
نزل بهم بالمشرق ما نزل ، وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن
كرسيها ، وقتل عبدُ الله بن علي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أخيراً
خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وتبّع بني مروان بالقتل ، فطلبوا بطن الأرض

١ راجع ابن عذاري ٢ : ٥٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٢٠ وسيورد المقرئ ترجمة مسببة لعبد الرحمن في الباب السادس .

من بعد ظهرها ، وكان ممّن أفلت منهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكان قومه يتحيّثون له ملكاً بالمغرب ، ويرون فيه علامات لذلك يأترونها عن ممسّعة بن عبد الملك^١ ، وكان هو قد سمعها منه مشافهة ، فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ، ونزل على أخواله نقرة من برايرة طرابلس ، وشعر به عبدُ الرحمن بن حبيب ، وكان قد قتل ابني الوليد ابن يزيد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية ، فلقق بمغيلة ، وقيل : بمكناسة ، وقيل : يقوم من زناته ، فأحسنوا قبوله ، واطمأن فيهم ، ثم لحق بمكيلة ، وبعث بذكرًا مولاه إلى ممّن بالأندلس من موالي المروانيين وأشياهم ، فاجتمع بهم وبشوا له في الأندلس دعوة ، ونشروا له ذكرًا ، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمنية والمضرية فأصفت اليمنية على أمره لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل ، ورجع بدر مولاه إليه بالخبر ، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور ، ونزل بساحل المنكب ، وأتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه ، ثم انتقل إلى كورة رية فبايعه عاملها عيسى ابن مساور ، ثم إلى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ، ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح ، ونهد إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمنية ، ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وكان غازياً بجليقية ، فانفضّ عسكره ، ورجع إلى قرطبة ، وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم بالتلطّف له ، والمكر به ، لكونه صغير السن ، حديث عهد بنعمة ، فلم يتم ما أراده^٢ ، وارتحل عبدُ الرحمن من المنكب ، فاحتلّ بمالقة فبايعه جندها ، ثم برندة^٣ ، ثم بشرش كذلك ، ثم بإشبيلية ، فتوافت إليه جنود الأمصار ، وتسايلت المضرية إليه ، حتى إذا لم يبقَ مع يوسف بن عبد الرحمن غيرُ الفهرية والقيسية

١ سيورد المقرئ من بعد طرفاً من هذه الأخبار عن مسلمة .

٢ ابن خلدون : فلم يتم له مراده .

٣ زاذ ابن خلدون : فبايعه جندها .

لمكان الصَّمِيل منه زَحَفَ حيثُ عبدُ الرحمن الداخل ، وناجزهم الحرب بظاهر قُرْطُبَة ، فأنكشف يوسف ، ونجا^١ إلى غَرْنَاطَة فتحصَّن بها ، واتبعه الأمير عبدُ الرحمن فنازله ، ثم رغب إليه يوسف في الصلح ، فعقد له على أن يسكن قُرْطُبَة ، ثم أقفله معه ، ثم نقض يوسف عهده ، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة^٢ ، ولحق بطُلَيْطَلَة ، واجتمع إليه زُهاء عشرين ألفاً من البربر ، وقَدَّم الأميرُ عبدُ الرحمن للقائه عبدَ الملك بن عمر المرواني ، وكان وَقَدَّ عليه من المشرق ، وكان أبوه عمر بن مَرْوان بن الحكم في كَفَالَة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر ، فلَمَّا دخلت المسوَدَة أرضَ مصر خرج عبد الملك يؤمُّ الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين ، فعقد له على إشبيلية ، ولابنه عمرَ بن عبد الملك على مَوْرور ، وسار يوسف إليهما ، وخرجا إليه ولقياه ، وتناجز الفريقان ، فكانت الدائرة على يوسف ، وأبعد المفرّ ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طُلَيْطَلَة ، واحتزَّ رأسه ، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن ، فاستقام أمره ، واستقر بقرطبة ، وثبت قَدَمُه في الملك ، وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، وبنى مساجد ، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق ، وكان يدعو للمنصور ، ثم قطع دَعْوَتَه ، ومَهَّد الدولة بالأندلس ، وأثَّل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز ، وجدَّد ما طُمَس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثَّوَار عليه على كثرتهم في التَّوَاحي ، وقطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس ، وسدَّ المذاهب منهم دونها ، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وكان يُعرَف بعبد الرحمن الداخل ، لأنَّه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس ، وكان أبو جعفر المنصور يُسميه « صَقَر قريش »^٣

١ كذا في ط وقد تقرأ « ولجأ » في بقية الأصول .

٢ انظر ابن عذارى ٢ : ٧٣ في تفصيل الخبر عن نهاية يوسف الفهري .

٣ ابن خلدون : صقر بني أمية .

لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل^١ ، وما ركب إليها من الأخطار ، وأنه نهّد
إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فغلب أهلها على أمرهم ،
وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ، ومضاء عزم حتى انقاده الأمر ، وجرى
على اختياره ، وأورثه عقبه ، وكان يسمى بالأمر ، وعليه جرى بنوه من بعده ،
فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأديباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومُنْتَدَى
العرب ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو ثامن بني أمية بالأندلس ،
فتسمّى بأمير المؤمنين على ما سنذكره ، لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد
الثلاثمائة ، وغلبة الأعاجم عليهم ، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم ، وتوارث
التلقب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد .

قال ابن خلدون^٢ : وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعدوة الأندلسية مُلك
ضخم ودولة متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة ، وعندما شغل المسلمون بعبد
الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الجلالقة ، واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن
أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم ،
فملك مدينة لُكَّ وبرتقال وسمّورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية^٣ ، وصارت
للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة ، ثم استعادوها بعده
فيما استعادوه من بلاد الأندلس ، واستولّوا على جميعها حسبما يُذكر ، والله
سبحانه الأمر ؛ انتهى .

وخطب عبد الرحمن قارله^٤ ملك الإفرنج ، وكان من طُغاة الإفرنج ،
بعد أن تمرّس به مدة ، فأصابه صُلب المكسير ، تامّ الرجولية ، فمال معه إلى

١ ابن خلدون : لما رأى ما فعل بالأندلس .

٢ كذا في ج ، والنقل عن ابن خلدون ما يزال مستمراً ؛ وفي ق : قال ابن سعيد ؛ وفي ك : قال
ابن حيان ؛ وفي ط بياض .

٣ شقوبية : (Segovia) .

٤ قارله : سقطت من ط ؛ وفي ج : قارله .

المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تم المصاهرة .
قال ابن حيّان ^١ : ألقى ^٢ الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حيلة
الملك عاطلاً ، فأرَهَفَ أهلها بالطاعة السلطانية ، وحَنَكهم بالسيرة الملوكية ،
وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ
فلوّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعَقَدَ الأثوية ،
وَجَنَدَ الأجناد ، ورفع العِماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آله ، وأخذ
للسلطان عُدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وَحَدَرُوا جانبه ، ونحاموا
حَوَوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلَّ له الأمر فيها . فلذلك
ما ظلَّ علوه أبو جعفر المنصور - بصدق حِسِّه - ، وَبُعْد غَوْرِهِ ،
وَسَعَةِ إحاطته - يسترجعُ عبدَ الرحمن كثيراً ، وَيَعُدُّه بنفسه ، وَيُكْثِرُ ذكره ،
ويقول : لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِرَاسِه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر
فى قريش الأخوذى القذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونَشَبِه ، وتسليته
عن جميع ذلك ببعْد مَرَفَى همته ، ومَضَاء عزمته ، حتّى قَدَف نفسه في بلج
المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عَصِيَّة ^٣
البحند ، ضرب بين جُنْدِها بخصوصيته ، وقَمَعَ بعضهم ببعض بقوة حيلته ،
واستمال قلوبَ رعيّتها بقضية سياسته ، حتّى انقاد له عَصِيَّتُهُمْ ، وذلَّ له
أبيّهم ، فاستولى فيها على أربكته ، ملكاً على قطعتِه ^٤ ، قاهراً لأعدائه ، حامياً
لذماره ، مانعاً لحَوَوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك هو الفتى كُلُّ
الفتى لا يكذب مادحه . وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد
الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة ، والاجترأ

١ هكذا في ك ؛ والكلام متصل في ج ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ق : وقال في المطبع .

٢ ك : لما ألقى ... أرهف .

٣ ط : عصية .

٤ ك : قطيعته .

على الكباثر والقساوة ، وأنَّ أم كل واحد منهما بربرية .

وكان الداخل يقعد للعامّة ، ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه مَنْ أدرك وقت طعامه ، ومَنْ وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه .

وفي كتاب ابن زيدون^١ أنّه كان أصهَب ، خفيف العارضين ، بوجهه خالٌ ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له ضفيران ، أعور أخشم ، والأخشم : الذي لا يشم ، وكان يلقب « بصقر قریش » لكونه تغرب وقطع البر والبحر ، وأقام ملكاً قد أدبر وحده .

ولما ذكر الحجاري أنّه أعور قال : ما أنشد فيه إلّا قول امرئ القيس^٢ :

لكن عَوِيرَ وَفَى بدمته لا عَوْرَ شأنه ولا قِصْرُ

وقال ابن خلدون^٣ : « وفي سنة ست وأربعين سار العلّاء بن مُغيث السخّصي من إفريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجّة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلق ، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنو آحي لإشبيلية ، فقاتله أياماً ، ثمّ انهزم العلّاء ، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقها سرّاً ، ومعها اللواء الأسود ، وكتاب المنصور للعلّاء^٤ » ، فارتاع المنصور لذلك وقال : ما هذا إلا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه ، وقد مرّ ذكر ذلك .

١ هو كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » لأبي الوليد ابن زيدون (ولعله لابنه أبي بكر) جملة على مثال « كتاب التبيين في خلفاء المشرق » للمسعودي ، ذكره ابن سعيد في تذييله على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس .

٢ ديوان امرئ القيس : ١٣٣ وعوير هو العوير بن شجنة من بني عوف ، مدحه بالوفاء .

٣ تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٢٢ وانظر ابن عذاري : ٢ : ٧٧ وابن القوطية : ٥٧ .

٤ هنا ينهي النقل عن ابن خلدون .

وكثر ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوباً عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب في آخر أمره بالعرب ، لكثرة من قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالي ، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم ، ورجع بالظفر ، وكان في نيته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق ، فمات دون ذلك الأمل ، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ومات سنة اثنتين وسبعين ، وقيل : إحدى وسبعين ومائة ، في خلافة الرشيد ، وأمه أم ولد بربرية اسمها راح ، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة ، بدير حنا من أرض دمشق ، وقيل : بالعلاء من تدمر ، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثمان عشرة عن إحدى وعشرين سنة ، وكفله وإخوته جدُّهم هشام ، وَوَهَبَ لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس ، وأقطعها إيتاها ، ووجه حيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى ، وقيل : إنه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة : بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع ، وزباد ، وعمرو ، وقيل : إن بدرأ لحقه ولم يخرج معه ، فآله أعلم ، وخلف من الولد عشرين ، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث .

وحكى غير واحد أنه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة ، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ، ويكنى أبا قرّة ، فاستتر عنده وقتاً ، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهب أنفذته أخته إليه ، فلما دخل الأندلس واستتب أمره به سار إليه أبو قرّة وانسوس البربري ، فأحسن إليه ، وحظي عنده ، وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خباته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه ، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظله في الأندلس : لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف ، وسعطني^١ بأنتن من ريح الجليف ، فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك

١ ك : وسعطني .

كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك ، فاستظرف جوابها ،
وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك ، وهذا من آفات المزاح .
ومن محاسنه أنه أدار السور بقرطبة ، رحمه الله تعالى .

[هشام بن عبد الرحمن]

وتولى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه إليه ، وأمه أم ولد اسمها حُلل^١ ،
وأفضى إليه الملك وهو بماردة^٢ وال عليها ، وكان أبوه يوليه في حباه ويرشحه
للأمر ، وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنه سليمان وهشام ، فيذكر له أن
هشاماً إذا حضر مجلساً امتلاً أدباً وتاريخاً وذكر ألامور الحرب ومواقف الأبطال ،
وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلاً سخفاً وهدياناً ، فيكبر هشام في
عينه بمقدار ما يصغر سليمان^٣ ، وقال يوماً لهشام : لمن هذا الشعر :

وتَعْرِف فيه من أبيه شمائل^٤ ومن خاله أو من يزيد ومن حُجِر^٥
سماحة ذا ، وبرّ ذا ، ووفاء ذا ، ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر^٦

فقال له : يا سيدي لامرئ القيس ملك كندة ، وكأنه قاله في الأمير أعزّه
الله ؛ فضمه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد في عينه .
ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعلهما
لأحد أجلاف العرب ، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب^٧ ؟ فأطرق عبد
الرحمن ، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية .
ولما ولي هشام^٨ أشخص المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء

١ ابن عذاري : جمال ؛ والحيمدي : حوراء .

٢ انظر الحلة السيرة ١ : ٤٢ .

٣ ط : أقوال بنفشاء العرب .

٤ ابن القوطية : ٦٤ والمقتطفات (الورقة : ٨٢) .

إلى قُرْطُبَة ، وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه
 حَدِثًا وإصابة ، فلَمَّا أتاه خلا به وقال له : يا ضبي ، لست أشك أَنَّهُ قد عَنَّاكَ
 من أَمْرنا إِذْ بلغك ما لم يُدْعَ تجديد^١ النظر فيه ، فَأَنشَدَكَ الله إِلا ما نَبَأْتنا بما ظهر
 لك فيه ، فَلَجَلَجَ وقال : أَعَفَنِي أَيُّهَا الأمير ، فَإِنِّي أَلَمْتُ به ، ولم أَحَقِّقِ النظر
 فيه لجلالته في نفسي ، فقال له : قد أَجَلَّتْكَ لذلك ، فَتَفَرَّغَ للنظر فيما بقي عليك
 منه ، ثُمَّ أَحْضَرَهُ بعد أَيَّام ، فقال : إِن الذي سَأَلْتُكَ عنه جَدَّ مَنِّي ، مع أَنِّي
 والله ما أَتَقُّ بِحَقِيقَتِهِ ، إِذْ كان من غَيْبِ الله الذي استأْثَر به ، وَلَكِنِّي أَحَبُّ أَنْ
 أَسْمَعَ ما عِنْدَكَ فيه ، فَأَنْفَسَ طُلْعَةً ، وَأَلْزَمَهُ الصَّلَاةَ أو العُقُوبَةَ ، فقال : اعلم
 أَيُّهَا الأمير أَنَّهُ^٢ سوف يَسْتَقِرُّ مَلِكُكَ ، سَعِيدًا جَدَّكَ ، قَاهِرًا لِمَنْ عاداك ، إِلا أَنْ
 مَدَّتْكَ فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أَعْوامٍ أو نَحْوِها ، فَأَطْرَقَ سَاعَةٌ ثُمَّ
 رَفَعَ رَأْسَهُ وقال : يا ضبي ما أَخُوفُنِي أَنْ يَكُونَ النَّذِيرُ كَلَّمَنِي بِلِسَانِكَ ، والله
 لو أَنَّ هَذِهِ المَدَّةَ كانت في سَجْدَةٍ لَهِ تَغَالَى لَقَلَّتْ طَاعَةٌ لَهُ ، وَوَصَلَهُ وَخَلَعَ
 عَلَيْهِ ، وَزَهَدَ في الدُّنْيَا ، وَالتَزَمَ أَفْعَالَ الْبِرِّ^٣ .

ومن حكاياته في الجود^٤ أَنَّهُ كان قاعداً لراحته في عِلْيَةِ على النهر في حياة
 والده ، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أَهْلِ جَبْيَانَ قد أَقْبَلَ يُوَضِّعُ السَّيْرَ
 في الهاجرة ، فَأَنكَرَ ذلك ، وَقَدَّرَ شَرًّا وَقَعَ به من قِبَلِ أَخِيهِ سَلِيمَانَ ، وكان والياً
 على جَبْيَانَ ، فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ ، فقال له : مَهِيمُ يا كَنَانِي ، فَلأَمْرٍ ما جِئْتَ ، وما
 أَحْسَبُكَ إِلاَّ مَزْعِجاً لشيء دَهَمَكَ^٥ ، فقال : نَعَمْ يا سَيِّدِي ، قَتَلَ رَجُلٌ من
 قَوْمِي رَجُلًا خَطَا ، فَحَمَلْتُ الدِّيَةَ على العاقلة ، فَأَخَذَها من كَنانة عامَةٍ ، وَحُمِّلَ^٦

١ ك : لم ندع تجديد . ٢ أَنَّهُ : سقطت من ق ط ج .

٣ ك : ولزم أفعال الخير والبر .

٤ أخبار مجموعة : ١٢١ - ١٢٤ ، وابن عذاري ٢ : ٩٩ (٦٧ ط . ليدن) .

٥ في ط يياض موضع « مهيم » و « جئت » وفي أخبار مجموعة : ما خبرك يا كناني ، فلا أحسبك
 إِلاَّ قد هَمَكَ أَمْرٌ .

٦ أخبار مجموعة وابن عذاري : وحيف .

عليّ من بينهم خاصّة ، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك ، فمد هشام يده إلى جارية كانت وراء السر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها ، وقال له : دونك هذا العقد يا كناني ، وشرّاه عليّ ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخْذَ عَنّْ عنه ، وبعه ، وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك ، فقال : يا سيدي ، لم آتكَ مستجدياً ولا لضيق المال عمّا حملته ، ولكنّي لما اعتمدت بظلم صُراح أحببت أن يظهر عليّ عزّ نصرك ، وأثر ذبّك وامتعاضك^١ ، فأتجمّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك ، فقال هشام : فما وجه ذلك ؟ فقال : أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عنّي ، والقيام بذمتك لي ، فقال : أمسك العقد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلّا أمر مقلق ، ائذّنوا له ، فلمّا دخل سلّم عليه ، ومثّل قائماً بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله الأمير سيدي ، وكيف جلوسي بهمّ وذل مزعج ، وحقّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلّا مطمئنّاً ، ولن يقعدني إلّا طيب نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي ، وإلا رجعتُ على عقبي ، فقال له : حاش لك من انقلابك خائباً ، فاقعد مُجاباً مُشَقَّعاً ، فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدث المقلق ؟ فأعلمه ، فأمر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال ، فسُرّ هشام وأطنب في الشكر ، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني . ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له : يا سيدي قد تجاوزتُ بك حدّ الأمنية ، وبلغت غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبه ، فأبى من ذلك ، وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم

١ أخبار مجموعة : وأثر عنايتك .

من ثقافته إلى الكُور^١ فيسألون الناس عن سِير عُمّالِه ، ويخبرونه بحقائقها ،
فلذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم
يستعمله بعد .

ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال^٢ : ليت أن الله تعالى
زين مؤسماً بمثل هذا^٣ .

وفي أيامه فُتحت أربونة الشهيرة^٤ ، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية
من صغاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها
إلى باب قصره بقُسطُبة ، وبني منه المسجد الذي قدّام باب الجنان ، وفضلت منه
فضلة بقيت مكومة .

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً ، ثم كانت الدائرة له .
وقصد إلى بلاد الحرب غازياً ، وقصد ألبّة والقلاع ، فلقى العدو وظفر
بهم ، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين^٥ . وبعث العساكر إلى جليقية مع
يوسف بن بخت^٦ فلقى ملكها برمند^٧ ، وهزمه ، وأثنى في العدو .

وفي سنة ست وسبعين^٨ بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث
لغزاة العدو ، فبلغ ألبّة والقلاع ، فأثنى في نواحيها ، ثم بعثه في العساكر سنة
سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة^٩ فأثنى فيها ، ووطىء أرض برطانية ، وتوغل

١ ابن عذاري ٢ : ٩٨ (٦٦ ط . ليدن) .

٢ أخبار مجموعة : ١٢٠ وابن القوطية : ٦٥ .

٣ ق : ان الله تعالى زين . . . وأخبار مجموعة : وددت أن الله ؛ وسقطت « ليت أن » أو ما
يقابلها من ط . وفي ك : نسأل الله أن يزين . . .

٤ كان ذلك عام ١٧٧ .

٥ في ابن عذاري : سنة ١٧٦ .

٦ هكذا في البيان المغرب : ٩٥ وفي ط ق : بن نجبة ؛ وفي ك ج : ابن نجبة .

٧ ك : ابن منده ، اقرأ « ابرمنده » وفي البيان : برمود = (Vermudo) .

٨ انظر ابن عذاري ٢ : ٩٥ (٦٤ ط . ليدن) .

٩ جرندة : (Gerona) إلى الشمال الشرقي من برشلونة .

عبدُ الملك في بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبه والقلاع سنة ثمان وسبعين ، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية ، فأنتهى إلى استرقة^١ ، فجمع له ملك الجلائقة واستمد بملك البشكنس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع أدراجته ، واتبعه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين . ومن محاسنه أنه جدّد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة كما سبق ، وكان بَنَاهَا السَّمْنُحُ الحَوْلَانِي عاملُ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية ، وقال يوماً لأجد وزرائه^٢ : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه ، فألى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها ، فلم يمرّ عليها بعدُ ، ووفى بما حلف عليه . ومن محاسنه^٣ أيضاً إكمال بناء الجامع بقرطبة ، وكان أبوه شرّع فيه ، ومن محاسنه أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة ، رحمه الله . ثم توفّي سنة ثمانين ومائة ، لسبع سنين وتسعة أشهر من إمارته ، وقيل : لثمان - وكان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد - وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر ، ووُلد في شوال سنة ١٣٩^٤ .

* * *

[الحكم بن هشام]

وولي بعده ابنه الحكم^٥ بعهدٍ منه إليه ، فاستكثر من الماليك ، وارتبط

١ استرقة أو اشتركة : (Astorga) من منطقة جليقية إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلّة (Niebla) .

٢ ابن عذاري ٢ : ٦٦ ط . ليدن) .

٣ هذا النص متأخر في أصول النسخ عن قوله : « ثم توفّي ... الخ » فاصل خبر الوفاة إلى جزئين ، يبدأ الثاني منهما بقوله « وعمره ... » ولهذا الاضطراب أبحت لنفسه إعادة ترتيبه .

٤ في الأصول : ١٣٧ . ٥ ابن خلدون ٤ : ١٢٥ .

الحليل ، واستفحل ملكه ، وباشر الأمور بنفسه ، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتتم العدو الكافر الفرصة في بلاد المسلمين ، وقصدوا^١ برشيلونة فملكوها سنة خمس وثمانين ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها ، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث^٢ إلى بلاد الجلالقة ، فالتحنوا فيها ، وخالفهم العدو إلى المضائق ، فرجع على التعيبة ، وظفر بهم ، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً .

وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الربض^٣ من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة ، مثل يحيى ابن يحيى الليثي^٤ صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه وطالوت الفقيه^٥ وغيرهما ، فتأروا به ، وخلعوه ، وبايعوا بعض قرابته ، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة ، وكان محلة^٦ متصلة بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العدو ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جميع منهم ، ثم ثاروا بها ، فرحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة أفرطيش^٧ ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

١ في الأصول : وقصد .

٢ الصواب : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

٣ انظر تفصيل الخبر عن هيج أهل الربض أولا سنة ١٨٩ وثانياً سنة ٢٠٢ في ابن عذاري ٢ : ١٠٦ ،

١١٣ وابن القوطية ٧٢٠ والخلة السراء ١ : ٤٤ وأوجز ابن خلدون الخبر عن قمتهم ٤ : ١٢٦ .

٤ يحيى بن يحيى الليثي : مصودي سمع من مالك وعاد إلى الأندلس بعلم كثير وأصبح يفتي فيها برأي

مالك (توفي سنة ٢٣٣ أو ٢٣٤) راجع ترجمته في ابن القضي ٢ : ١٧٦ والخلاصة : ٣٥٩

وبنية الملتس رقم : ١٤٩٧ وابن خلكان ٥ : ١٩٤ ؛ وسيرجم له المقرئ في الراجلين إلى المشرق

رقم : ٢ .

٥ راجع ترجمة طالوت بن عبد الجبار في الذيل والتكملة ٤ : ١٤٩ وابن القوطية : ٧٥ - ٧٧

والتكملة : ٣٤٥ .

٦ في الأصول : محله متصلا ، والتصويب عن ابن خلدون .

وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم .

وفي سنة ثنتين وتسعين^١ جمع لُدَرِيق^٢ بن قارلُة^٣ ملك الفرنج جموعه ، وسار إلى حصار طَرَسُونَة^٤ ، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولما كثر عَيْثُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين^٥ ، فافتتح الثغور والحصون ، وخرَّب النواحي ، وأتخن في القتل والسبي والنهب ، وعاد إلى قُرْطُبَة ظافراً .

وفي سنة مائتين^٥ بعث العساكر مع ابن مُغِيث إلى بلاد الفرنج فخرَّب وهدم عدة حصون ، وأقبل عليه أليط^٦ ملكُ الجلالقة في جموع عظيمة ، وتنازلوا على نهر ، واقتتلوا عليه أياماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النِّيل ، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ، ثم كثرت الأمطار ، ومدَّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

وهو أول من جَنَّد الأجناد ، واتخذ العدة ، وكان أفحل^٧ بني أمية بالأندلس ، وأشدَّهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبهه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء ، وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن^٨ ، وحضر يوماً عنده ، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله

١ ابن عذاري ٢ : ١٠٨ وتاريخ الحملة ١٩٣ .

٢ هكذا في الأصول ودوزي ولعل الأصوب لدويق - بالواو - وهو تعريب (Ludovico) .

٣ البيان المغرب : طرطوشة .

٤ أثبت دوزي سنة ١٩٤ ولا خلاف فإن الغزو اتصل بين عامي ١٩٤ - ١٩٦ كما ورد عند ابن عذاري .

٥ ابن عذاري ٢ : ١١٢ .

٦ أليط : وردت في الأصول ، ولم يرد الاسم في ابن عذاري وأسقطه دوزي .

٧ هذه العبارة إلى قوله « وقع الأعداء » في المغرب ١ : ٣٨ .

٨ زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطلون (١٩٩ أو ٢٠٤) قيل إنه أول من أدخل الأندلس فقه مالك -

إليه كتاباً كره وصوله ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير ، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه أن « مَنْ كَظَمَ غِيظاً يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاقِهِ مِثْلَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْنًا وَإِيمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، فأمر أن يمسك عن الخادم ، ويعفى عنه ، فسكن غضبه ، وقال : الله إن مالكا حدثك بهذا ؟ فقال زياد : الله إن مالكا حدثني بهذا^١ .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة^٢ ، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه^٣ :

نَكِدَ الزَّيْمَانُ فَأَمَنَتْ أَيَّامُهُ مِمَّنْ أَنْ يَكُونَ بِعَصْرِهِ عُسْرُ
ظَلَمَ الزَّيْمَانُ بِأَزْمَةٍ فَجَلَّ لَهُ تِلْكَ الْكَرْبَةُ جُودُهُ الْغَمْرُ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق الحكم ويعتصم » .

وذكور ولده عشرون ، وإناثهم عشرون ، وأمه جارية اسمها زخرف .
وكان أسمر ، طوالاً ، أشم ، نحيفاً .

ومدة ملكه ست وعشرون سنة ، ساءحه الله .

وقال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبتة ، واستعد^٤
بالماليك حتى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل .

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، ومولده سنة ١٥٤ .

وقال ابن خلدون وغير واحد^٥ : إنه أول من جند بالأندلس الأجناد

= وكانوا قبله على مذهب الأوزاعي (الجنوة : ٢٠٣) .

١ انظر المقتطفات (الورقة : ٨٣) .

٢ يذكر ابن عذاري أنها كانت سنة ١٩٩ .

٣ عباس بن ناصح الجزيري ، ثقفي بالولاء ، رحل إلى المشرق غير مرة ، وكان شاعراً كثير الملح
للأمير الحكم ، ثم ولي قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة (راجع ترجمته في ابن الفرعي ١ : ٣٤٠
وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبغية الوعاة ٢ : ٢٨) .

٤ انظر ابن خلدون ٤ : ١٢٧ والمغرب ١ : ٣٩ .

والمرتقة ، وجمع الأسلحة والعُدَد ، واستكثر من الخدم والخواشي والحشم ،
وارتبط الخيول على بابهِ ، واتخذ الممالك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ،
وحكى في عدتهم ما تقدم ، ثم قال : وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ،
وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذي وطأ
الملك لعقبه بالأندلس ، انتهى .

وكان له - فيما حكى غير واحد - ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر
بقبلي قصره يجمعها داران . وهو القاتل لما قتل أهل الربض وهدم ديارهم
وحرثها^١ :

رأبتُ صُدُوعَ الأرض بالسيف راقما وقدماً لأمتُ الشعبَ مذ كنتُ يافعا
فسائلُ ثغوري هل بها اليومَ ثَغْرَةٌ أبادِرُها مستنضيَ السيفِ دارعا
تُنَبِّيكَ أني لم أكن في قِراعِهِمْ بِيوانٍ ، وقدماً كنتُ بالسيفِ قارعا
وهل زدتُ أن وفيتُهم صِلاعَ قَرْضِهِمْ فوافوا منايا قُدْرَتِ ومَصَارِعا
فهتدي بلادي ، إنني قد تركتُها مِهَاداً ، ولم أترك عليها مُنَارِعا

وقال ابن حزم في حقه^٢ : إنه كان من المُجاهرين بالمعاصي ، السافكين
للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء . وقال غيره^٣ إنه تنصّل أخيراً ،
وتاب ، سامحه الله .

ومن نظمه قوله متغزلاً^٤ :

قُضِبُ من البانِ ماسَتُ فوقَ كُثبانٍ وَلَكِنَّ عَنِّي وَقَدْ أزمَعَنَ هِجْرَانِي

١ الأبيات في ابن عذاري ٢ : ١٠٧ وأخبار مجموعة : ١٣٢ والحلة ١ : ٤٧ ومخطوط الرباط :

١٠٧ والمغرب ١ : ٤٤ .

٢ ورد هذا في نقط العروس : ٧٣ (نشر الدكتور ضيف) وانظر المغرب ١ : ٤٤ ومخطوط
الرباط : ١٠٦ .

٣ ك : غير واحد .

٤ انظر الحلة ١ : ٥٠ ومخطوط الرباط : ١٠٦ .

ومنها :

من لي بمُقْتَضِبَاتِ الرُّوحِ من بَدَنِي بَغْضِيْنَتِي فِي الْهَوَى عِزِّي وَسُلْطَانِي
وقيل : إنّه كَانَ يَمْسِكُ أَوْلَادَ النَّاسِ وَيَخْضِيْهِمْ ، وَنُقِلَتْ عَنْهُ أُمُورٌ ، وَلَعَلَّهُ
تَابَ مِنْهَا كَمَا قَدْ مَنَّا ، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِحَقِيْقَةِ أَمْرِهِ .

ومن بديع أخبار الحكم^١ أن العباس الشاعر توجه إلى الشَّعْرِ ، فلما نزل
بوادي الحجارة سمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم ، لقد أهملتنا حتى
كَلَبَ الْعَدُوُّ عَلَيْنَا ، فَأَيْمَنَا وَأَيْمَنَا ، فَسَأَلَهَا عَنْ شَأْنِهَا ، فَقَالَتْ : كُنْتُ مُقْبِلَةً
مِنَ الْبَادِيَةِ فِي رُفْقَةٍ ، فَخَرَجْتَ عَلَيْنَا خَيْلَ عَدُوٍّ ، فَقَتَلْتَ وَأَسَرْتَ ، فَصَنَعَ قَصِيدَتَهُ
الَّتِي أَوَّلَهَا :

تَعْلَمْتُ فِي وَادِي الْحَجَارَةِ مُسْهَرًا أُرَاعِي نَجْمًا مَا يُرِدُّنَ تَغَوُّرًا^٢
إِلَيْكَ أبا العاصي نَضَيْتُ مَطِيَّتِي تَسِيرُ بِهِمْ سَارِيًّا وَمُهَجَّرًا
تَدَارِكُ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ بِنَصْرَةٍ فَلَيْتَكَ أَحْزَى أَنْ تَغِيثَ وَتَنْصُرَا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ، ووصف له خوف الشَّعْرِ واستصراخ المرأة
باسمه ، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاث إلى وادي
الحجارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدو كانت ،
فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها ، وفتح الحصون ، وخرب الديار ،
وقتل عدداً كثيراً ، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من
أسر له أحد في تلك البلاد ، فأحضر ، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحَضْرَتِهَا ،
وقال للعباس : سَلِّهَا : هَلْ أَغَاثَهَا الْحَكَمُ ؟ فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ ، وَكَانَتْ نَبِيلَةً : وَاللّٰهُ لَقَدْ
شَفَى الصُّدُورَ ، وَأَنْكَى الْعَدُوَّ ، وَأَغَاثَ الْمَلْهُوفَ ، فَأَغَاثَهُ اللّٰهُ ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُ ؛

١ ورد هذا الخبر نصاً في مخطوط الرباط ١٠٧ - ١٠٨ وفي المقتطفات الورقة : ٨٣ .

٢ في الأصول ودوزي : تغيرا .

فارتاح لقولها ، وبدا السرور في وجهه وقال :

أَلَمْ تَرَيَا عَبَّاسُ أَنْتِي أَجَبْتُهُمَا عَلَى الْبُعْدِ أَفْتَادُ الْخَمِيسَ الْمُظْفَرَا
فَادْرَكْتُ أَوطَاراً وَبَرَدْتُ غَلَّةً وَتَفَسْتُ مَكْرُوباً وَأَغْنَيْتُ مُعْسِراً

فقال عباس : نعم ، جزاك الله خيراً عن المسلمين ، وقبل يده .
ومما عيبَ به أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مُضَرَّ القَيْسِي ، وكان
قُدُوةً في الدين والورع ، سمع من سُفْيَان ومالك بن أنس ، وروى عنه مالك
وقال : حدثنا يحيى بن مضر عن سُفْيَان الثوري أن الطَّلَح المنضود هو الموز ،
وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم .

* * *

[عبد الرحمن بن الحكم]

وقام بأمره^١ من بعده ابنه عبد الرحمن ، بعهد منه إليه ، ثم لأخيه المغيرة
بعده ، فغزا عبدُ الرحمن لأول ولايته إلى جليقية وأبعد ، وأطال المغيب ،
وأنخن في أمم النصرانية هنالك ، ورجع .

وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق^٢ ، وهو مَوَلَى المهدي
ومتعلم لإبراهيم الموصلي ، واسمه علي بن نافع ، فركب بنفسه لتلقيه ، على ما
حكاه ابن خلدون ، وبالع في إكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث
صناعة الغناء بالآندلس وخلف أولاداً فخلفه كبيرهم عبدُ الرحمن في صناعته
وحظوته .

وفي سنة ثمان^٣ أغزى حاجبه عبدَ الكريم بن عبد الواحد إلى ألبنة

١ سياق الأخبار التاريخية عن عهد عبد الرحمن بن الحكم جار وفق ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٢٧ -

١٣٠ مع حذف ، ويظل النقل مستمراً حتى قوله « واحتجب عن العامة » .

٢ ستأتي أخبار زرياب في موضعها مفصلة .

٣ ابن عذاري ٢ : ١٢٣ ، قلت : وسياق تاريخ الماركة من بعد يختلف عما أورده ابن خلدون .

والقلاع ، فخرَّب كثيراً من البلاد وانتسفها ، وفتح كثيراً من حصونهم ، وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً .

وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البكنسي في العساكر لغزو ألبّة والقلاع ، فسار ولقي العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبي ، ثم خرج لُدَريق ملك الجلائقة ، وأغار على مدينة سالم^١ بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى ، وقاتلته ، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر ، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبّة بالثغر نكاية للمسلمين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبدُ الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية ، فلدّوَّخها وافتتح عدّة حصون منها ، وجال في أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم .

وفي سنة ست وعشرين بعث عبدُ الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض برّطانية^٢ ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطيلّة^٣ ، ولقيهم العدو ، فصبر حتى هزم الله عدوّهم ، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود .

وفي سنة تسع وعشرين بعث ابنه محمداً بالعساكر ، وتقدم إلى بَسْبُلونة^٤ ، فأوقع بالمشرّكين عندها ، وقتل غرسيّة صاحبها ، وهو من أكبر ملوك النصاري . وفي أيامه ظهر المجوس^٥ ، ودخلوا إشبيلية ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر مع القوادر من قُرْطُبَة ، فترّل المجوس من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون ،

١ مدينة سالم (Medinaceli) كانت من أعظم مدن الثغر الأوسط وبينها وبين وادي الحجارة خمسون ميلا ، وكانت أولا عاصمة هذا الثغر ثم حلت محلها طليطة .

٢ طليطة : (Tudela) من مدن الثغر الأعلى إلى الشمال الغربي من سرقطة .

٣ بنبِلونة : (Pamplona) عند المداخل الغربية من جبال البرت ، وتقع في سهل ريوخه (Rioja) وهي من أوائل المناطق التي استقلت عن الحكم الإسلامي .

٤ المجوس أو الإردمانيون (Nordmani) (النورمان = Norsemen) كانوا يغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية ؛ وقد سباهم العرب المجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيراً فظن العرب أنهم يعبّدونها ؛ انظر ابن عذاري ٢ : ١٣٠ في غارتهم سنة ٢٣٠ هـ .

فهمز موهم بعد مقام صعب ، ثم جاءت العساكر مددًا من قُرطبة فقاتلهم المجوس ، فهمزهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ، ورحل المجوس إلى شدونة فأقاموا عليها يومين ، وغنموا بعض الشيء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية فأقلع المجوس إلى لبلة ، وأغاروا وسبوا ، ثم إلى باجة ثم أشبونة ، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة ، وسكنت البلاد ، وذلك سنة ثلاثين ، وتقدم عبدُ الرحمن بإصلاح ما خربوه من البلاد ، وأكثف حاميتها .

وفي سنة إحدى وثلاثين^١ بعث العساكر إلى جليقية فلدوخوا ، وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق ، وهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها ، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه ، لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً ، فشكّموا فيه ثلثة ورجعوا .

ثم أغزى عبدُ الرحمن حاجبه عبدَ الكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة ، فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فلدوخوا قتلاً وأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى جرنندة ، وعاث في نواحيها ، وقفل . وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس^٢ بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم حتى إنه ذكرهما له في كتابه له وعبر عنهما بابني مَرَّاجل وماردة ، فكافأه الأمير عبدُ الرحمن عن الهدية ، وبعث إليه يحيى الغزال^٣ من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة ، فأحكم

١ ابن عذاري ٢ : ١٢٢ .

٢ توفلس : (Theophilus) .

٣ سيرجم له المقرئ ؛ وهنا يذكر المقرئ نقلاً عن ابن خلدون خبر سفارته إلى القسطنطينية ، وأطلب ابن دحية في تفصيل سفارته إلى بلاد المجوس ، ولعل تعاقب النصين هو منشأ الوهم حول هذه السفارة . راجع المطرب : ١٢٥ - ١٤١ (وانظر ترجمة الغزال في الجلفة : ٣٥١ ، وبغية الملتبس رقم : ١٤٦٧ ، والمغرب ٥٧ : ٢ ودزاسي عنه في تاريخ الأدب الأندلسي : ١١١) ، =

بينهما الوُصْلَة ، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس .
ويُعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبدُ الرحمن الداخل ،
والثالث عبد الرحمن الناصر .

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، بربيع الآخر ،
لإحدى وثلاثين سنة من إمارته ؛ ومولده بِطَيْبِطَلَّة في شعبان سنة ست وسبعين
ومائة .

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ،
وكثرَت الأموال عنده ، واتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ،
وجعل لقصّره مصنعاً اتخذُه الناس شريعة ، وأقام الجسور ، وبُنيت في أيامه
الجوامع بكُور الأندلس ، وزاد في جامع قُرْطُبَة رِوَاقَيْنِ ، ومات قبل أن
يستمته^١ ، فأتمه أبنه محمد بعده ، وبني بالأندلس جوامع كثيرة ، ورتب رسوم
المملكة ، واحتجب عن العامة .

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور ، وخمسون من الإناث^٢ ، ونقش
خاتمُه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » وفي ذلك قيل^٣ :

خَاتَمُ الْمَلِكِ أَضْحَى حُكْمُهُ فِي النَّاسِ مَاضِي
عَابِدُ الرَّحْمَنِ فِيهِ بِقَضَاءِ اللَّهِ رَاضِي

= وقد كتب عن سفارته عدة دراسات آخرها كتاب :

(The Poet And The Spae-Wife, by W. E. D. Allen ; London, 1960) .

١ قال ابن حيان في المقتبس (نسخة القرويين : ١٤٠) نقلا عن الرازي : وزاد الأمير عبد الرحمن
ابن الحكم الزيادة الأولى الظاهرة من قبله للداخل إليه . . . ؛ وقد كانت أهواء المسجد تسعة
أهواء زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانبيه فأكملها أحد عشر بهواً ؛ وكان الشروع في هذه
الزيادة سنة ٢٣٤ . . . وقال ابن القوطية : مات الأمير عبد الرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة
بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها الأمير ابنه محمد الوالي في مكانه . (وانظر ابن القوطية : ٨٤) .
٢ ابن عذاري ٢ : ١٢٢ أن الذكور ٤٥ والبنات ٤٢ وجاء ابن سعيد (المغرب ١ : ٤٥) بأرقام
أخرى نقلا عن ابن حزم .

٣ انظر ابن عذاري ٢ : ١٢٢ ومخطوطة الرباط : ١١٣ .

وهو أول من أحدث هذا النقش ، وبقي وراثته لمن بعده من ولده .
قال ابن سعيد^١ : وفي أيامه انتهى مالُ الجباية إلى ألف ألف دينار في السنة ،
وكان قبلُ لا يزيد على ستمائة ألف ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما يخالف
هذا فليراجع ، والله أعلم .

ومن توقيعاته^٢ : من لم يعرف وَجْهَ طلبه ، فالحرمانُ أولى به .
ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله :

وَلَقَدْ تَعَارَضُ أَوْجُهُ لَأَوَامِرٍ فيقودُها التوفيقُ نحو صوابها
والشيخُ إن يحوِ النُهي بتجاربٍ فشبابُ رأي القوم عند شبابها
وفي زيادته في جامع قرطبة يقول ابن المثنى^٣ رحمه الله تعالى :

بَنَيْتَ لِلَّهِ خَيْرَ بَيْتٍ يَخْرُسُ عَنْ وَصْفِهِ الْأَنَامُ
حَجَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ أَوْبٍ كَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ
كَأَنَّ مِحْرَابَهُ إِذَا مَا حُفَّ بِهِ الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ

وقال آخر^٤ :

بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ لَمْ يَكُ مِثْلُهُ وَلَا مِثْلُهُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدُ
سِوَى مَا ابْتَنَى الرَّحْمَنُ وَالْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَاهُ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ
لَهُ عُمْدٌ حُمْرٌ وَخَضِرٌ كَأَنَّمَا تَلَوَّحُ يَوَاقِيتُهَا وَزَبَرَجَدُ
أَلَا يَا أَمِينَ اللَّهِ ، لَا زَلَّ سَالِمًا وَلَا زَلَّ فِي كُلِّ الْأُمُورِ تَسَدُّدُ
فِيَا لَيْتَنَّا نَقْدِيكَ مِنْ كُلِّ حَادِثٍ وَأَنْتَكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ تَحْلُدُ

١ المغرب ١ : ٤٦ .

٢ المغرب ١ : ٤٦ وأخبار مجموعة : ١٣٩ والمقتبس (تحقيق مكِّي) : ٨٩ .

٣ هو عثمان بن المثنى النحوي ، هاجر إلى المشرق ولقي أبا تمام وروى عنه شعره (انظر طبقات
الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦) وهذا الشعر لابن المثنى ورد في مخطوطة الرباط : ١١٦ .

٤ مخطوطة الرباط : ١١٦ .

وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته طَرُوب^١ ، وكلف بها كلفاً شديداً ، وهي التي بنى عليها الباب ببِدَر المال حين تجنّت عليه ، وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار ، فقيل له : إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك ، فقال : إن لابسهُ أنفُس منه خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهرأ ، وأشرف عنصراً ، وفيها يقول :

إذا ما بدت لي شمسُ النّها رِ طالعةً ذكرتني طَرُوبا
أنا ابن الميامين من غالب أشبُّ حرُوباً وأطفي حرُوبا
وخرج غازياً إلى جليقية فطالت غيبته فكتب إليها :
عدائي عَنكَ مَزَارُ العدا وقودي إليهم سِهاماً مُصِيبا
فكم قد تخطيتُ من سَبَسَبٍ ولاقيتُ بعدَ دُرُوبٍ دُرُوبا
ألاقي بوجْهي سُموُمَ الهَجِيرِ إذ كاد منه الحصى أن يذُوبا
تدارك بي الله دينَ الهدى فأحييتُهُ وأمت الصليبا
وسِرتُ إلى الشَّرِكِ في جَحْفَلٍ ملأتُ الحزُونُ به والسُّهُوبا

وساق بعض المؤرخين قصة طَرُوب هذه بقوله : إن السلطان المذكور أغضبها فهجرته ، وصدت عنه ، وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها ، فاشتد قلقه لهجرها ، وضاق ذَرَعُهُ من شوقها ، وجهد أن يرضأها بكل وجه فأعياه ذلك ، فأرسل من خِصِيَّانِه من يُكرهها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم ، وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل ، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها ، واستأذنوه في كسر الباب عليها ، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَر الدراهم ، ففعلوا ، وبتوا عليها بالبِدَر ، وأقبل حتى وقف بالباب وكلّمها مسترضياً راعباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب ،

١ زاجع أخباره مع طروب وشعره فيها في المغرب ١ : ٤٦ وابن عذاري ٢ : ١٣٧ والحلة السيرة ١ : ١١٤ وابن القوطية ٨٢ - ٨٣ والمقتطفات (الورقة : ٨٣ - ٨٤) .

فأجابت وفتحت الباب ، فأنهالت البِدَر في بيتها ، فأكبت على رِجله تقبلها ، وحازت المال ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الحصي فلا يردُّ شيئاً مما تبرمه . وأحب أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها ، وأخرى كذلك اسمها الشفاء ، وأمّا جاريته قلم فكانت أديبة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضرور الأدب . وكان مولعاً بالسماع ، مؤثراً له على جميع لذاته ، وله أخبار كثيرة ، رحمه الله .

* * *

[محمد بن عبد الرحمن]

ولمّا مات وليّ ابنه محمد^١ ، فبعث لأوّل ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة^٢ ، فعاث في نواحي ألبّة والقلاع ، وفتح بعض حصونها ، ورجع ، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برّشلونة وما وراءها ، فعاثوا فيها وفتحوا حصونها من برّشلونة ورجعوا .

ولما استمدّ أهل طليطلة المخالفون^٣ من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكي جليقية والبشكنس لقيهم الأمير محمد على وادي سليطة^٤ ، وقد أكن لهم ، فأوقع بهم ، وبلغت عدّة القتلى من أهل طليطلة والمشرّكين عشرين ألفاً . وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب المجوس^٥ ، وعاثوا في الأندلس ،

١ يتبع المقرئ في سياق الأحداث ونصها ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٣٠ - ١٣٢ . وقارن بما في المقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٩٢ وما بعدها .

٢ ك ق : طليطلة ، وهو خطأ ، والتصويب عن ابن خلدون و ط .

٣ ثار أهل طليطلة أول ما تولى الإمارة (٢٣٨) فأخرج إليهم في العام التالي ابنه الحكم ثم خرج إليهم بنفسه في العام بعده فاستعانوا بصاحب جليقية (٢٤٠) . انظر ابن عذاري وتفصيل الأخبار عن تمرد طليطلة في حكم الأمير محمد ٢ : ١٤٢ وما بعدها .

٤ ابن خلدون وابن عذاري : وادي سليط : (Auzalete) وهو نهر يصب في التاجه جنوبي طليطلة ، وأثبتنا ما في الأصول .

٥ انظر تفصيل هذا الغزو في المقتبس (تحقيق مكّي) : ٣٠٧ - ٣٠٩ .

فلقبهم مراكبُ الأمير محمد ، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين ، واستشهد جماعة من المسلمين .

وفي سنة سبع وأربعين^١ أغزى محمد إلى نواحي بَنبُلُونَة ، وصاحبها حينئذ غَرْسِيَّةُ بن وثقه^٢ ، وكان يظاهر أردون^٣ بن أذفنش ، فعاث في نواحي بَنبُلُونَة ، ورجع وقد دَوَّخَهَا وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فرتونَ ابنَ صاحبها ، فبقي أسيراً بقرطبةَ عشرين سنة .

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبّة والقلاع فعاثوا فيها ، وجمع لُدَرْيْقُ للقائهم ، فلقبهم وانهزم ، وأثنى المسلمون في المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحاً لا كفاء له .

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة ، فأثنى وخرب . وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بَنبُلُونَة فدَوَّخَهَا ورجع .

وفي سنة ثمان وستين أغزاه أيضاً إلى دار الحرب ، فعاث في نواحيها وفتح حصوناً .

وفي أيام الأمير محمد خربت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر . وذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ، ولم يعلم قائلها ، وذلك سنة ٢٥٤ :

وَيْلٌ لِمَارِدَةَ الَّتِي مَرَدَتْ وَتَكَبَّرَتْ عَنْ عُدْوَةِ النَّهْرِ
كَانَتْ تَرَى لَهُمْ بِهَا زَهْرَ فَخَلَّتْ مِنَ الزَّهْرَاتِ كَالْقَفْرِ
فَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْحُ حِينَ غَزَا بِجَمِيعِهِمْ مِنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ

١ ابن عذاري : وفي سنة ٢٤٦ .

٢ (Garcia) ابن (Inigo) ؛ وفي ق ك ط ج : وبقة .

٣ في الأصول أردن ؛ والاسم (Ordano) .

ثم توفي الأمير محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، لخمس وثلاثين سنة من إمارته ، ومولده سنة سبع ومائتين .

* * *

[المنذر بن محمد]

وولي بعده ابنه المنذر^١ ، ولم تطل مدته ، وأقام في الملك سنتين إلا نصف شهر ، وتوفي منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وفيه قيل :
بالمنذر بن محمد صلحت بلاد الأندلس

* * *

[عبد الله بن محمد]

ثم ولي أخوه عبد الله ، قال ابن خلدون^٢ : كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار : مائة ألف للجيوش ، ومائة ألف للنفقة في النواصب وما يعرض ، ومائة ألف ذخيرة ووفرأ ، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثورار والمتغلبين في تلك السنين ، وقل الخراج ، انتهى .
ومن نظم الأمير عبد الله قوله^٣ :

يا مُهْجَةَ المشتاق ما أوجَعَكَ ويا أُسِيرَ الحُبِّ ما أَخْشَعَكَ
ويا رَسُولَ العين من لحْظِهَا بالردِّ والتبليغ ما أَسْرَعَكَ
تذهبُ بالسُرِّ فتأتي به في مَجْلَسٍ يخفي على من معَكَ
كم حاجةٍ أنجزت لإبرازها تبارك الرحمنُ ما أَطْوَعَكَ

١ أوجز المقرئ في أخبار هذا الأمير فراجع ابن خلدون ٤ : ١٣٢ والمغرب ١ : ٥٣ وابن القوطية : ١١٩ وأخبار مجموعة : ١٤٩ ومخطوطة الرباط : ١٢٤ .
٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٣٣ وراجع المصادر السابقة في ولاية عبد الله وأخباره ؛ وقد بقي جزء من المقتبس خاص بهذا الأمير ، نشره ملشور أنطونية (باريس ١٩٣٧) .
٣ ابن عذاري ٢ : ٢٣٢ والحلة ١ : ١٢١ .

وهذه الأبيات عنوان فضله ، وبراعة استهلال نبله .
 وكان الوزراء يطالعون بأرائهم الخليفةَ في بطاقة ، فطالعه وزيره النَّضْرُ بن
 سَكَمَةَ^١ برأيه في أمر في ورقة ، فلما وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأي ، فكتب^٢ :

أَنْتَ يَا نَضْرُ أَبْدَهُ لَيْسَ تُرْجَى لِفَائِدِهِ
 إِنَّمَا أَنْتَ عُدَّةٌ لَكَنْيَفٍ وَمَائِدُهُ

وتوفي الأمير عبد الله سنة ثلاثمائة ، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة .

* * *

[عبد الرحمن الناصر]

وولي حافِدُهُ عبد الرحمن الناصر^٣ ابن ابنه محمد قتيل أخيه المُطَرَف ،
 وكانت ولايته من الغرب ، لأنه كان شاباً ، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون ،
 فتصدَّى إليها واحتازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين ، مضطربة
 بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له
 الأندلس في سائر جهاتها بعد نيِّف وعشرين سنة من أيامه ، ودامت أيامه
 نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك الناحية ، وهو أول من تسمَّى
 منهم بالأندلس بأمر المؤمنين ، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبدَّ
 موالى الترك على بني العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع
 عشرة وثلاثمائة ، فتلقب باللقاب الخلافة ، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار
 الحرب ، إلى أن هُزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين^٤ ، ومَحَصَّ الله فيها

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٢٨ استقضاء الأمير عبد الله بقرطبة ثم استوزره (توفي سنة ٣٠٢) .

٢ ابن عذاري ٢ : ٢٣١ والحلة ١ : ١٢٢ .

٣ انظر ابن خلدون ٤ : ١٣٧ .

٤ الصواب سنة ٣٢٠ .

٥ اقرأ : سنة ٣٢٧ .

المسلمين ، فقعده عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصّوائف في كل سنة ، فأوطأ
عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبلُ في أيّام سلكه ، ومدّت إليه أمم
النصرانية من وراء الدروب يدّ الإذعان ، وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من
رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته ،
ووصل إلى سدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات
قشتالة وبَنبُلونة وما يُنسب إليها من الثغور الجوفية ، فقبلوا يده ، والتمسوا
رضاه ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطّوا مراكبه ، ثم سما إلى ملك العدوة فتناول
سبّنة - قفل الفُرْضة^١ - من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلاثمائة^٢ ، وأطاعه بنو
إدريس أمراء العدوة وملوك زنّانة والبربر ، وأجاز إليه الكثير منهم كما يُعلم
من أخباره ، وبدأ أمره أولَ ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ، انتهى كلام
ابن خلدون .

وفيه يقول ابن عبد ربّه صاحبُ العقد يوم تولّى الملك^٣ :

بدا الهلالُ جديداً والملكُ غَضُّ جديداً
يا نعمةَ الله زيدي إن كان فيك مزيدُ
إن كان للصّوم فِطْرٌ فأنتَ للدهر عيدُ

وأراد بأوّل الأبيات أنّه وليَ مستهلَّ ربيع الأوّل كما علّم .
وما أشار إليه ابنُ خلدون في غزوة الخندق فصلّه المسعودي فقال^٤ ، بعد أن
أجرى ذكر مخالفة أُمّية بن إسحاق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته
إياهم على عَوّرات المسلمين ، ما ملخصه : وغزا عبدُ الرحمن صاحب الأندلس

١ قفل الفُرْضة : مضطربة في النسخ فهي في ق : قفل الفرسة ؛ وفي ك : ونقل الفرسة ؛ وفي

ط : نقل الفرسة ؛ ج : فغل الفرسة ، وسقطت من طبعة بولاق من تاريخ ابن خلدون .

٢ كذلك عند ابن خلدون ؛ وعند ابن عذاري : (٣١٩) .

٣ ورد منها بيتان في ابن عذاري ٢ : ٢٣٦ والمغرب ١ : ١٧٧ .

٤ مروج الذهب ٢ : ٣٧ .

سمُورة دارَ الجلالقة ، وكان عبدُ الرحمن في مائة ألف أو يزيدون ، وكانت الوقعة بينه وبين رُدْمير^١ ملكِ الجلالقة في شوال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيّام ، فكانت للمسلمين عليهم ، ثم ثابوا بعد أن حوصروا وأبْحَثُوا إلى المدينة ، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندقَ خمسين ألفاً ، وقيل : إن الذي منع رُدْمير من طلب من نجا من المسلمين أميّة بن إسحاق ، وخوْفُه الكمين ، ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعُدّة والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثمَّ إن أميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلّص من رُدْمير ، وقبله عبد الرحمن أحسنَ قبول . وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهّز عساكر مع عِدّة من قوّاده إلى الجلالقة ، فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعفُ ما قُتل من المسلمين في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، ورُدْمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ٢٣٣٢ ، انتهى .

وقال في موضع آخر ما ملخصه^٢ : إن عبد الرحمن غزا في أزيد من مائة ألف من الناس ، فتنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة سمُورة ، وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، وافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممّن أدركه الإحصاء وممّن عُرِف أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين ألفاً ، وكانت للجلالقة والبُشْكَنْس على المسلمين ، انتهى كلام المسعودي .

رجع إلى أخبار الناصر - فنقول : إن الناصر - رحمه الله - كان له نظم ، ومما نسب إليه بعضهم قوله :

لا يضرُّ الصغيرَ حِدْثَانُ سنٍّ إنّما الشأنُ في سَعُودِ الصغيرِ

١ رُدْمير = (Ramiro)

٢ ط ج ق ودوزي : وهو سنة ٣٣٦ ؛ وما هنا موافق لما في المروج ، وفي ك : ٣٢٩ .

٣ المروج ١ : ١٦٢ .

كم مقيم فازت يدها بغنم لم تنله بالرخص كف مغير
هكذا ألفت البيت منسوين إليه بخط بعض الأكابر ، ثم كتب بأثره ما
نصه : الصحيح أنهما لغيره ، والله أعلم ، انتهى .

* * *

[هدية ابن شهيد للناصر]

وكان الناصر — رحمه الله — قد استحجب موسى بن محمد بن حدير ،
واستوزر عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وأهدى
له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيّان وابن
خلدون^١ وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون : وهي مما يدل على ضخامة
الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ؛ وكان ذلك^٢ سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ،
لثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهي هدية عظيمة الشأن ، اشتهر ذكرها
إلى الآن ، واتفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجبت
الناصر وأهل مملكته جميعاً ، وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربةً
عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها
استحسنها الناس وكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصاً ، وأسمى
مترلته على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف
دينار أندلسية ، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار ، وثني له العظمة لشئته له الرزق ،
فسمّاه « ذا الوزارتين » لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً
لأسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ،
وتقديم اسمه في دفتر الارتاق أول التسمية ، فعظم مقداره في الدولة جداً .

١ ابن خلدون ٤ : ١٣٨ .

٢ أورد المقرئ الحديث عن هذه الهدية مفصلاً أيضاً في أزهار الرياض ٢ : ٢٦١ إلا أنه لم يمزج بين
روايي ابن خلدون وابن الفرضي بل اكتفى بالثانية .

وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر :
خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفة
خمس وأربعون ألف دينار من سبائك الفضة في مائتي بكرة ، واقتصر ابن الفرضي
على خمسمائة ألف دينار فقط ؛ واثنا عشر رطلاً من العود الهندي الذي يحتم
عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلاً من العود المتخير ، ومائة رطل من العود
الشبه المنتقى ، هكذا ذكره ابن خلدون .

وقال ابن الفرضي مستنداً إلى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية : إن
العود الغالي من ذلك أربعمائة رطل ، منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً .
وقال ابن خلدون : ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه ، انتهى .
وقال ابن الفرضي ، نقلاً عن الكتاب المصحوب مع الهدية : إن المسك مائتا
أوقية ، واثنا عشرة أوقية . ومن العنبر الأشهب الباقي على خلخته بغير صناعة
خمسمائة أوقية ، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، هكذا في
تاريخ ابن خلدون .

وفي ابن الفرضي أن الكل مائة أوقية ، وأن هذه القطعة أربعون أوقية .
ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلاثمائة أوقية .

قال ابن خلدون : ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب
كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية^١ من عالي جلود
الفنك الحراسانية .

وخالفه ابن الفرضي^٢ ، إذ قال : ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة خنج^٣
خاصية للباسه بيضاء وملونة ، وخمس ظهائر شعبية^٤ خاصة له ، وعشر فراء من

١ أفرية : جمع فروة .

٢ الفقرة من قوله « وخالفه . . . أدري » كلها سقطت من ق .

٣ خنج لعلها من الفارسية « خنك » بمعنى حرير أبيض ، وهي كذلك في ك ط .

٤ الشعبية : نوع من الأقمشة .

عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملوثة ، وستة مطارف عراقية
خاصية له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ، ومائة ملحفة زهرية لرقاده .
ولم يذكر ابن خلدون ذلك ، وابنُ الفرضي أعرف ، لا سيما وقد استند إلى
كتاب المهدي ، وصاحبُ البيت أدري .

قال ابن خلدون : وعشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سمّور ، وقاله ابن
الفرضي أيضاً ، وزاد ابن خلدون : وستة من السراوقات العراقية ، وثمانية
وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ، ثم قالاً معاً :
وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المتقى
للاستغزال ، وزاد ابن خلدون : وثلاثون شقة من القريون^١ لسروج الهبات ، وزاد
ابن الفرضي في الحرير المذكور : قيل : إنّه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت
به مع الهدية ، وإنّما دفعه لصاحب الطراز ، وأثبتته في الدفتر ، قالوا : وثلاثون
بساطاً من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعاً ، وقال
ابن خلدون : متقاة مختلفة الألوان ، قالوا : ومائة قطعة مُصَلِّيَّات من وجوه الفرش
المختلفة ، زاد ابن الفرضي : الصناعات من جنس البُسُط ، قالوا : وخمسة عشر
نخاً^٢ من عمل الخز المقطوع شطرها ، قال ابن الفرضي : وسائرهما من جنس
البُسُط الوجوه ، قال ابن خلدون : ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجافيف
المزينة أيام البروز والمواكب ، وقال ابن الفرضي : مائة تجفاف بأبدع الصناعات
وأغربها وأكملها ، قالوا : وألف تُرْس سلطانية ، ومائة ألف سهم ، زاد ابن
خلدون : من النبال البارعة الصنعة ، قال ابن خلدون : ومن الظهر خمسة عشر
فرساً من الخيل العِراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت ، وقال ابن
الفرضي : ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العِراب المتخيرة لركابه خمسة
عشر فرساً ، وخمس من عرض هذه الخيل مُسَرَّجة مُلجَمة لراكب الخلافة

١ كذا وردت هذه اللفظة في ق ك و لملها : « البزبون » وهو سندس .

٢ في ق ك : نوخاً ؛ والنخ : بساط طويل طوله أكثر من عرضه .

مجالسُ سروجها خز عراقي ، وثمانون فرساً مما يصلح للوصفاء والחסَم ، وقال ابن خلدون : مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ، وقال ابن الفرضي : وخمسة أبغل عالية الركاب ، وقال ابن خلدون : وعشرون من بغال الركاب مُسرَّجة ملجئة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجها خز جعفري عراقي ، قالوا : ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، وقال ابن خلدون في الجواري : متخيرات بكسوتهن وزيتتهن ، وقال ابن خلدون : ومن سائر الأصناف قرية تغلُّ ألفاً من أمداد الزرع ، ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار ، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه^١ وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار ، انتهى .

وقال ابن الفرضي نقلاً عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته : وكان قد أمرني^٢ - أيدهُ الله - بابتيعاهم من مال الأخماس ، فابتعتهم من نعمته عندي ، وصيرتهم من بعتي ، ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزد لا سُحاق فيه .

وفي آخر الكتاب : ولما علمت تطلُّع مولاي - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالقنباية^٣ المنقطعة الغرس في شرقها ، وترداده - أيده الله تعالى - لذكرها لم أهنأ بعيثٍ حتى أعلمت الحيلة في ابتياعها بأحوازها ، وأكثبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه ، وضممتها إلى ضياعه ، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلُّعه إليها ، فما زلت أتصدى لسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها ، واحتاز ذلك

١ ط ك : وأصله .

٢ ك : قد أرى .

٣ قد مر التعريف بالقنباية ، وهي تدل على الحقول ، وإن كانت تطلق علماً على كثير من المواضع بالأندلس أهمها البساط الواقعة إلى جنوب قرطبة في حوض الوادي الكبير .

كله الوكيل^١ ابن بقية ، وصار في يده له أبقاه الله سبحانه ، وأرجو أنه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى . ولما علمت نافذة عزمه - أبقاه الله تعالى - في البنيان ، وكلفه به ، وفكرت في عدد الأماكن التي تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها - مد الله تعالى في عمره ، وأوفى بها على أقصى أمل - علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبغثان ما لا يتوهم عليه ، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاماً ، وينتهي تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفاً أعجل شأنه في عام ، سوى التوفير العظيم الذي يبغديه العيان قبلاً إن شاء الله تعالى ، وكذلك ما ثاب إليّ في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة ، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلاثمائة ألف عود ونيف على عشرين ألف عود ، على أنه لا يدخل منه في السنة إلا نحو الألفي عود ، ففتح لي سعدك رأياً أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليية^١ لوقتها ، وقيمه على الرخص ما بين الخمسين ألفاً والستين ألفاً ، انتهى .

* * *

[عود إلى أخبار الناصر]

ومن غريب ما يحكى^٢ عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفصد ، فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر ، فبينما هو إذ أطل زُرُور فصعد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيها الفاصدُ رفقاُ بأمر المؤمنين

١ الجليية : كذا جاءت في ق ك ، فإن لم تكن تعني « الخشب المجاوب » فلا أدري دلالتها بدقة .

٢ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ .

إنما تفصد عِرْقاً فيه مَحْيَا العالمينا

وجعل يكرّر ذلك المرّة بعد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسرّ به غاية السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزُّرُور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مرّجاة أم ولده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار .

وذكر ابنُ بَسّام^١ أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدي له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه ، فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : أتى لك هذا ؟ قال : هو من عند الله ، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ، فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام ، وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به ، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي ، وكتب معه هذين البيتين^٢ :

أمولاي هذا البدرُ سار لأفقيكم^٣ ولألفق^٤ أولى بالبدور من الأرض
أرضيكم بالنفس وهني نفيسة^٥ ولم أرَ قبلي منْ بمهجته يُرضي

فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكنت عنده مكانته ، ثم إنّه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى^٦ ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصّة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى ، وبعثها معها ، وكتب له :

أمولاي هذي الشمسُ والبدرُ أولاً^٧ تقدّم كيما يلتقي القمران

١ انظر مطالع البدور ١ : ٢٤٠ والمقتطفات (الورقة : ٨٤) .

٢ في الأصول : هذه الأبيات .

٣ ك : ينتهي .

قِرَانٌ لِعَمْرِي بالسعادة قد أتى فِدُماً منهما في كوثر وجنانِ
فما لهُما والله في الحُسْنِ ثالثٌ وما لك في مُلكِ البرية ثاني

فتضاعفت مكانته عنده .

ثمَّ إنَّ أحدَ الوشاة رفع للملك أنَّه بقي في نفسه من الغلام حرارة ، وأنَّه لا يزال يذكره حين تُحرَّكه الشَّمول ، ويقرع السن على تعذر الوصول ، فقال للواشي : لا تحرك به لسانك ، وإلاَّ طار رأسك ، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : « يا مولاي ، تعلم أنَّك كنتَ لي على انفراد ، ولم أزل معك في نعيم ، وإنِّي وإن كنت عند الخليفة مشارك في المترلة ، محاذر ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل في استدعائي منه » ، وبَعَثَها مع غلام صغير السن ، وأوصاه أن يقول : من عند فلان ، وإن الملك لم يكلمه قط ، إن سأله عن ذلك ، فلمَّا وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام ، وما تكلم به في مجالس المدام ، فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفاً :

أمن بعد إحكام التجاربِ يُبتغى لديَّ سقوطُ الطير^١ في غابة الأسد
وما أنا ممَّن يغلب الحبُّ قلبه ولا جاهل ما يدَّعيه أولو الحَسَد
فإن كنت رُوحِي قد وهبتك طائعاً وكيف يُردُّ الروحُ إن فارق الحَسَد

فلمَّا وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ، ولم يَعدْ إلى استماع وائشٍ به .

ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشَّرْك ؟ فقال : لأنَّ عقلي بالهوى غير مشترك ، فأنعم عليه ، وزادت محبته عنده ، وممَّن ذكر هذه الحكاية صاحب « مطالع البدور ، في منازل السرور »^٢ .

١ المطالع : سقوط العير ؛ وهو أقرب إلى الصواب .

٢ هو علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي .

[غزوات الناصر]

وأخبار الناصر طويلة جداً ، وقد مُنِحَ الظفر على الثَّوَار ، واستزلمهم من معاقلمهم ، حتى صفا له الوقت ، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء ، فمن غَزَوَاتِهِ أَنَّهُ غَزَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى جَلِيقِيَّةَ وَمَلَكُهَا أَرْدُونُ بْنُ أَذْفُونَش ، فَاسْتَنْجَدَ بِالْبُشْكُنْسِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَظَاهَرَ شَانِجَةَ^١ بِنَ غَرَسِيَّةَ صَاحِبَ بَنْبُلُونَةَ أَمِيرَ الْبُشْكُنْسِ ، فَهَزَمَهُمْ ، وَوُطِئَ بِلَادَهُمْ ، وَدَوِّخَ أَرْضَهُمْ ، وَفَتَحَ مَعَاقِلَهُمْ ، وَخَرَبَ حَصُونَهُمْ ، ثُمَّ غَزَا بَنْبُلُونَةَ سَنَةِ ثِنْتِي عَشْرَةَ ، وَدَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ ، وَدَوِّخَ الْبَسَائِطَ ، وَفَتَحَ الْمَعَاقِلَ ، وَخَرَّبَ الْحَصُونِ ، وَأَفْسَدَ الْعِمَائِرَ ، وَجَالَ فِيهَا ، وَتَوَغَّلَ فِي قَاصِيَتِهَا ، وَالْعَدُوُّ يُحَازِيهِ فِي الْجِبَالِ وَالْأَوْعَارِ ، وَلَمْ يَظْفَرْ مِنْهُ بِشَيْءٍ ، ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ ظَفَرَ بِبَعْضِ الثَّوَارِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ اسْتَمَدَّ^٢ بِالنَّصَارَى فَقَتَلَ النَّاصِرُ مَنْ كَانَ مَعَ الثَّائِرِ مِنَ النَّصَارَى أَهْلَ أَلْبَةِ^٣ ، وَفَتَحَ ثَلَاثِينَ مِنْ حَصُونِهِمْ ، وَبَلَغَهُ انْتِفَاضُ طُوطَةِ^٤ مَلِكَةِ الْبُشْكُنْسِ فغَزَاهَا فِي بَنْبُلُونَةَ وَدَوِّخَ أَرْضَهَا وَاسْتَبَاحَهَا ، وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ غَزَا غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ إِلَى جَلِيقِيَّةَ فَانْهَزَمَ وَأَصِيبَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَقَعْدَ بَعْدَهَا عَنِ الْغَزْوِ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ يَرُدُّ الْبِعُوثَ وَالصَّوَائِفَ إِلَى الْجِهَادِ ، وَبَعَثَ جِيُوشَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَمَلَكَ سَبْتَةَ وَفَاساً وَغَيْرَهُمَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَطَارَ صَيْتُهُ وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ كَمَا سَبَقَ . وَلَمَّا هَلَكَ غَرَسِيَّةَ بِنَ شَانِجَةَ مَلَكَ الْبُشْكُنْسِ قَامَ بِأَمْرِهِمْ بَعْدَهُ أُمُّهُ^٥ طُوطَةُ ، وَكَفَلَتْ وَلَدَهُ ، ثُمَّ انْتَقَضَتْ عَلَى النَّاصِرِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ ، فَغَزَا النَّاصِرُ بِلَادَهَا ، وَخَرَبَ نَوَاحِيَ بَنْبُلُونَةَ وَرَدَدَ عَلَيْهَا كَمَا مَرَّ الْغَزَوَاتِ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ سَنَةِ ثَنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ غَزَا إِلَى وَخْشَمَةِ^٦ ،

١ شَانِجَةُ : (Sancho) مَلِكُ الْبُشْكُنْسِ أَيْ مَنَاطِقَةِ نَبْرَةِ (Navarra) ، وَفِي كَ : شَانِجَةُ بِنَ فَرْوِيلَةَ ؛ وَفِي ط : شَنْجَةُ .

٢ طُوطَةُ (Teoda) وَفِي تَارِيخِ بَرْوَقْسَالِ (٧٢ : ٧٣) (Toda) .

٣ ابْنُ خَلْدُونِ : أُخْتُهُ .

٤ وَخْشَمَةُ : (Osma) وَفِي كَ : خَشْمَةُ .

ثم رحل إلى بَسْبُلُونَة ، فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غَرْسِيَّةَ على بنبلوقة ،
 ثم عدل إلى أَلْبَسَة وبسائطها فلوّخها وخرب حصونها ، ثم اقتحم جليقية
 وملكها يومئذ رُذْمِير بن أردون ، فخام عن لقائه ، ودخل وَخْشَمَة ، فنازله
 للناصر فيها ، وهدم بُرْعُش^١ وكثيراً من معقلهم ، وهزمهم مراراً ، ورجع ،
 ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة ، وهابته أمم النصرانية .

* * *

[الوفود على بلاط الناصر]

ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته — وهو
 يومئذ قسطنطين — واحتفل الناصر لقدهمهم في يوم مشهود ، قال ابن خلدون^٢ :
 ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شِكَّة ، وزين القصر الخلافي
 بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وجُمِّلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة
 والأعمام والقترجة ، ورُتِبَ الوزراء والخدمة في مواقفهم ، ودخل الرسلُ
 فهاهم ما رأوه ، وقُربوا حتى أدَّوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا
 في ذلك الحفل ، ويعظّموا من أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على
 ظهور دينه وإعزازة ، وذلة عدوّه ، فاستعدُّوا لذلك ، ثم بهرهم هَوَلُ المجلس
 فوجموا ، وشرعوا في القول فأرتجَّ عليهم ، وكان فيهم أبو علي القالي وافدُ
 العراق ، كان في جملة الحكم ولي العهد ونَدَبَه لذلك استثناءً بفخره^٣ ، فلمّا
 وجمَّوا كلهم قام مُنْذِر بن سعيد البلّوطي من غير استعداد ولا رَوِيَّة وما
 تقدّم له أحد بشيء من ذلك ، فخطب واستحضر^٤ وجلّسى في ذلك القصد ، وأنشد

١ برغش : (Burgos) إحدى مدن الحدود الشمالية ، وانظر شرحاً لغزوات الناصر في تاريخ
 بروفسال ٢ : ٢٣ - ٧٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٢ وأزهار الرياض ٢ : ٢٥٨ وابن عذاري ٢ : ٣١٩ .

٣ ك : فحيز ؛ وفي ق وابن خلدون : لفخره ؛ وفي ج : لمجزه .

٤ ج ك : واستحضر .

شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض^١ ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها ، وأصبح من رجالات العالم^٢ ، وأخباره مشهورة ، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حبان وغيره . ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل^٣ بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة ، ورجع بعد ستين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين .

ثم جاء رسول من ملك الصقالبة - وهو يومئذ هوتو^٤ - ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الإفرنجية وراء البرت - وهو يومئذ أوقه^٥ - ورسول آخر من ملك الإفرنجية بقاصية المشرق - وهو يومئذ كلدة^٦ - واحتفل الناصر لقدمهم ، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد ستين .

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردلند قومس قشتيلة في عهده ، فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده ، وكان غرسيّة بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة^٧ ثم انتقض عليه أهل جليقية ، وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ، ومال إلى أردون بن رذمير ، وكان غرسيّة بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكنس ، فامتعضت لحافدها غرسيّة ، ووفدت على الناصر سنة

١ ط : العرض .

٢ ج : العالم .

٣ ابن خلدون : هشام بن كليب البختليق .

٤ هوتو : (Otton) وفي نسخ الفتح المخطوط في رسم الاسم بين : هوتو في ق ج ؛ وذوقوة في ك ؛ وذواقو ؛ وذوفو في غيرها .

٥ ق ك ط : أوقه ، ج : أرمه ، والصواب ما أثبتناه إذ يقابل : (Hugo) وهو (Hugues d'Arles) مركيز بروفانس .

٦ (Guido) وهو ابن أدلبرت مركيز تسكانية .

٧ فرويلة : (Fruela) .

سبع وأربعين مُلقية بنفسها في عَقْدُ السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك ، وإعانة حافدها غَرْسِيَّة بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوّه ، وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدمهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غَرْسِيَّةَ ملك جليقية فردّ عليه ملكه ، وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه ، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته ، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك ، وبما ارتكبه فردلند قومُس قَشْتِيَّة في نكته ووثوبه ، ويعيره بذلك عند الأمم ، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك ، ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجية بالشرق كما تقدّم وصل معه رسول ملك بَرْشِلُونَة وطَرْكونَة راجباً في الصلح ، فأجابه الناصر ، ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب ؛ انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنفصل بعض ما أجمله فنقول : ذكر ابنُ حَيَّان وغيرُ واحد أن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورقعة الشأن ، وهادتهُ الروم ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجية والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راجبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ، ورغب في مؤادعته ، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وتقدّم في كلام ابن خلدون أنها ست وثلاثون ، فإله أعلم أيهما أصح ، وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يُتلقوا أعظم تلقٍ وأفخمه ، وأحسن قبولاً وأكرمهم ، وأخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلمّا صاروا بأقرب المحلات من قَرْطُبَة خرج إلى لقائهم القوّاد في العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الحصين ياسراً وتاماً ، إبلاغاً في الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القوّاد ،

فاستبان لهم بخروج الفَتَيَيْنِ إليهم بَسْطُ الناصر وإكرامه ، لأنَّ الفَتَيَانِ حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنَّهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ويدهم القصر السلطاني ، وأنزلوا بِمُنْيَةٍ وليَّ العهد الحكم المنسوبة إلى نصر^١ بعدُوة قُرْطُبة في الرَبَضِ ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملةً ومن ملابسة الناس طُرّاً ، ورَتَّبَ لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووُجوه الحَشَمِ فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول ، لكل دولة أربع منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قُرْطُبة للدخول وفود الروم عليه ، فقَعَدَ لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً ، وقعد عن يمينه وليُّ العهد من بني الحكم ثم عبيدُ الله ثم عبد العزيز أبو الأصبح ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتحلف عبد الملك لأنَّه كان عليلاً لم يُطَقِ الحضور ، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجابُ من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بَسَطَ صحن الدار أجمع بعناق البَسْطِ وكرائم الدرائك^٢ ، وظلَّلَتْ أبواب الدار وحناياها بظُلُلِ الديباج ورفيع الستور ، فوصل رُسُلُ ملك الروم حائرين ممّا رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون ، وهو في رَقٍّ مصبوغ لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي^٣ ، وداخل الكتاب مُدْرَجَةٌ مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين

١ ك : نصير ، وهو خطأ .

٢ الدرائك : البسط .

٣ في الأصول : الاغريقي .

الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه : قسطنطين ورومانس^١ المؤمنين بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفي سطر آخر : العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه ؛ ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته ، وتقديم إلى الأمير الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني^٢ بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة ، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ؛ وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى حاله وبهره هولُ المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لقطعة ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة : قم فارقع هذا الوهي ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم — هكذا ذكر ابن حيان وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضي أن القالي هو المأمور بالكلام أولاً والمُعَدُّ لذلك ، ونحوه في المَطْمَح ، والخطبُ سهل — ثم انقطع القول بالقالي ، فوقف ساكناً مفكراً في كلام يَدْخُلُ به إلى ذكر ما أريد منه ، وقال في المَطْمَح^٣ : إن أبا علي القالي انقطع ، وبُهِتَ وما وصل إلا قطع ، ووقف ساكناً متفكراً ، لا ناسياً ولا متذكراً ، فلما رأى ذلك مُنْذِرُ بن سعيد — وكان ممّن حضر في زمرة الفقهاء — قام من

١ ق ك ط ج : ورومانين .

٢ في ج : الكسنياني ؛ وفي ط ق ودوزي كما أثبتته ، وكذلك ورد في لب الباب ؛ وفي أزهار الرياض وك ٢ : ٢٧٣ : الكسنياني .

٣ المَطْمَح : ٣٨ .

ذاته ، بدرجة من مِرْقَاتِهِ ، فوصل افتتاح أبي علي لأوّل خطبته بكلام عجيب ، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كلّ مجيب ، يسحّه سحاً كأنّما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي ، فقال ^١ : أمّا بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعماّه ، والصلاة والسلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه ، فإن لكلّ حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحقّ إلا الضلال ، وإنّي قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فأصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم ، والقنوا ^٢ عني بأفئدتكم ، إن من الحقّ أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإنّ الجليل تعالى في سمائه ، وتقدّس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى ، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكرّ قومه بأيّام الله ، جلّ وعزّ ، عندهم ، وفيه وفي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، أسوة حسنة ، وإنّي أذكركم بأيّام الله عندكم ^٣ ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمتّ شعثكم ^٤ ، وأمنتّ سربكم ، ورفعت فرّقتكم ^٥ ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ، ومستضعفين فقوّاكم ، ومُستندلين فنصركم ، ولآله الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيّام ضربت الفتنة سُرَادِقَهَا على الآفاق ، وأحاطت بكم شعلُ النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم ^٦ الله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكه فحقنّها ، والسبل مخوفة فأمّنّها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنّها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمّرّها ، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جَمْع

١ نص الخطبة في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٣ والرقبة العليا : ٦٦ والمطح : ٣٨ .

٢ ك : واتقنوا ؛ ط : والقنوا ؛ ق : والقنوا ؛ وأثبتنا ما في ج والمطح .

٣ المطح : وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم . ٤ لمت شعثكم : سقطت من المطح .

٥ ك : قوتكم ؛ وفي ق ط : فوقكم ؛ وفي المطح : خوفكم .

٦ المطح : ناشدكم .

كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتهم بدأ على صدوركم ، بعد أن كان بكم بينكم ، فأنشدكم^١ الله ألم تكن خلافته قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة^٢ والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة^٣ ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابية غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب إلا جبهته ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات^٤ ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفئها غير نائم ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية (النور: ٥٥) وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ،

١ ك : فأنشدكم .

٢ بالقوة : زيادة من ك .

٣ المطمح : خالصة .

٤ ثابتة : زيادة من ك والمطمح .

٥ المطمح : فقد فتح الله تعالى عليكم أبواب البركات وتواترت عليكم أسباب الفتوحات .

ولكل نيل مستقر ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه
 المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة
 والستاد ، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم
 بالآ ، وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجملهم صنماً ، لا
 تهاجون ولا تزدادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على
 صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتم وابن عم نبيكم ،
 صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يداً^١ من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ،
 ومروق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد
 علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعزوتها ، حفظ الأموال وحقن
 الدماء ، وصلاح الخاصة والدائمة ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفي
 العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل ،
 وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ،
 واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى
 يقول ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ الآية (النساء : ٥٩) ،
 وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف
 الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم^٢ ، الآخذين في غاذلة
 دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه
 وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأنتم بالحمد لله رب العالمين ،
 مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .

• • •

١ المطمح : يده .

٢ المطمح : ملتكم ؟ وملاككم مخففة من ملاكم .

[ترجمة منذر بن سعيد البلوطي عن المغرب]

وساق ابنُ سعيد في « المغرب » هذه الحكاية فقال ما صورته^١ : منذر بن سعيد البلوطي ، قاضي الجماعة بقرطبة ، خطيبٌ مِصْقَعٌ ، وله كتب مؤلفة في القرآن والسنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، شاعر بليغ ، وُلد سنة خمس وستين ومائتين^٢ ، وأوّلُ سببه في التعلّق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لذكر جلاله مقعده ، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ، ورمني ملوك الأمم بسهام بأسه ونجّدته ، وتقدّم إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده بإعداد مَنْ يقوم لذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدّم الحكم إلى أبي عليّ البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع ، وبُهِتَ فما وصل ولا قطع ، ووقف ساكناً مفكراً ، فلمّا رأى ذلك منذرُ بن سعيد قام قائماً بدرجة من مِرْقاة أبي عليّ ، ووصل افتتاحه بكلام عجيب يَهْرُ العقول جزالةً ، وملأ الأسماع جلاله ، ثم ذكر الخطبة كما سبق ، وقال بعد إيرادها ما صورته : فصلب العِلَجُ وغلب على قلبه ، وقال : هذا كبير القوم ، أو كبش القوم ، وخرج الناس يتحدثون عن حُسن مقامه ، وثبات جَنَانِهِ ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدّهم تعجباً منه ، وأقبل على ابنه الحكم — ولم يكن يُشَبِّت معرفته — فسأله عنه ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخبرني الله بعدُ لأَرْفَعَنَّ من ذكره ، فضع يدك يا حكم عليه ، واستخلصه ، وذكرني بشأنه ، فما للصنيعة مذْهَبَ عنه ، ثم ولّاه الصلاة والخطابة في المسجد

١ لم ترد ترجمة لمندر بن سعيد في المغرب المطبوع .

٢ صوابه : ٢٧٣ .

الجامع بالزهراء ، ثم توفي محمد بن عيسى^١ القاضي فولاًه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
ومن شعره في هذه الواقعة قوله^٢ :

مقال كحدّ السيف وسَطَ المحافلِ	فرقتُ به ما بين حقّ وباطلِ
بقلبٍ ذكيّ ترتمي جنباته ^٣	كبارق رعدٍ عند رَعش الأناملِ
فما دَحَضَتْ رجلي ولا زلّ مِقُولي	ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازلِ
وقد حدّقتُ حولي عيُونُ إخالها	كمثل سهامٍ أثبتت في المقاتلِ
لخير إمام كان أو هو كائن	لمقتبِلٍ أو في العصور الأوائلِ
ترى الناسَ أفواجاً يؤمّون بابه	وكلُّهم ما بين راجٍ وآملِ
وفودُ ملوكِ الروم وسَطَ فنائه	مخافة بأسٍ أو رجاءٍ لنائلِ
فعرشٌ سالماً أقصى حياة مؤملاً	فأنت غياثُ كلِّ حافٍ وناعلِ
ستَمَلِكُها ما بين شرقٍ ومغرب	إلى درب قسطنطين أو أرض بابلِ

انتهى كلام ابن سعيد ، وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القاضي .

وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه^٥ : لقد أحسن ما شاء ، فلئن كان حَبَّر خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يلور ما دار فيتلافى الوهي فلأنه

١ الصواب : محمد بن أبي عيسى ؛ وهو محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي ظل قاضياً للجماعة حتى سنة ٣٣٩ (انظر ترجمته في الجذوة : ٦٩ وبنية الملتبس رقم : ٢١٨ وابن الفرضي ٢ : ٦١ والحشي : ١٧٢ والمراقبة العليا : ٥٩ ، وسيرتجم له المقرئ في الراحلين رقم : ٣) .

٢ المطمح : ٤٠ .

٣ ك : جمراته .

٤ ك : رجاء الكل .

٥ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٦ .

لَبَدِّيعٍ مِنْ قُدْرَتِهِ وَاحْتِيَاطِهِ ، وَلَئِنْ كَانَ أَتَى بِهَا عَلَى الْبَدِيَةِ لَوَقْتُهُ فَإِنَّهُ لَأَعْجَبُ
وَأَغْرَبُ .

قال ابن سعيد : ولما فرغ مندر من خطبته أنشد^١ :

هذا المقام^٢ الذي ما عابه فنَدُّ لكنَّ قائله أزرى به البلدُ
لو كُنْتُ فيهم غريباً كنت مُطَرِّفاً لكنني منهمُ فاغتالي التكدُّ

ويروى بدل هذا الشطر :

ولا دهاني لهم بغيٌ ولا حسدُ
لولا الخلافة أبقي الله حرمتها ما كنتُ أَرْضى^٣ بأرض ما بها أحدُ

قلت : كأنه عرض بأبي علي القالي ، وتقديمهم إياه في هذا المقام ، والله أعلم .
ومن نظم مندر بن سعيد قوله :

الموتُ حَوْضٌ وكلُّنا نَرِدُ لم يَنْجُ ممَّا يَخَافُهُ أَحَدُ
فلا تكن مُغْرَماً بِرِزْقِ غَدٍ فلست تَدْرِي بما يَجِيءُ غَدُ
وخذْ من الدهر ما أُنَّاكَ بِهِ ويسلم الروحُ منك والحسدُ
والخيرُ والشرُّ لا تُدْعُهُ فما في الناس إلا التشنُّعُ والحسدُ

وله وقد آذاه شخص فخطبه بالكُنيَّة ، فقليل له : أيؤذيك وأنت تخطبه
بالكنية ؟ فقال :

لا تعجبوا من أني كُنَّيته من بعد ما قد سَبَّنا وأذانا
فإنَّ الله قد كَتَبَ أبا لب و ما كناه إلا خِزْيَةً وَهَوَاناً

• • •

١ الجنوة : ٣٢٦

٢ الجنوة : المقال .

٣ الجنوة : أبقي .

[ترجمة منظر في المطمح]

وقال في المطمح^١ : منذر بن سعيد البلوطي ، آية حركة وسكون ، وبركة لم تكن معدة ولا تكون ، وآية سفاهة في تحلّم ، وجهامة ورع في طي تبسم . إذا جدّ وجد^٢ ، وإذا هزل نزل ، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرّقب . ولا اكتسب إثمًا ولا احتقّب ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن . وناهيك من عدل أظهر ، ومن فضل أشهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ومن باطل خفض ، وكان متهيباً صلياً صارماً غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم ، واستمر في القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقره ، وفي خلافته استعفى مراراً فما أعفي . وتوفي بعد ذلك لم يحفظ عنه^٣ مدة ولايته قضية جور ، ولا عدت عليه في حكومته زلة ، وكان غزير العلم ، كثير الأدب ، متكلماً بالحق ، متيناً بالصدق ، له كتب مؤلفة في السنة والقرآن والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً ، وُلد عند ولاية المنذر بن محمد^٤ ، وتوفي سنة ٣٥٥ ، ومن شعره في الزهد قوله :

كم تصابى وقد علاك المشيبُ	وتعامى عمداً وأنت الليبُ؟
كيف تلهو وقد أذاك نذيرٌ	أن سيأتي الحِمَامُ منك قريبُ؟
يا سفيهاً قد حان منه رحيلٌ	بعد ذاك الرحيل يومٌ عصيبُ
إنّ للموت سكرةً فارتقبها	لا يداوي إذا أثتك طيبُ
كم توائى حتى تصير رهيناً	ثمّ تأتيك دَعْوَةٌ فتجيبُ

١ المطمح : ٣٧ .

٢ المطمح : تجرد .

٣ المطمح : تحفظ عليه .

٤ زاد في المطمح سنة ثلاث وسبعين ومائتين (وفي طبعة الجوائب : ثلاث وعشرين ، وهو خطأ) .

بأمور المعاد أنت عليم^١ فاعملن^٢ جاهداً له يا أريب^٣
وتذكّر^٤ يوماً نحاسب^٥ فيه إن من يدك^٦ فسوف يُنِيب^٧
ليس من ساعة من الدهر إلا^٨ للمنايا بها عليك رقيب^٩

ولعلنا نذكر شيئاً من أحوال مندر في غير هذا الموضع .

رجع لأخبار الناصر لدين الله - حكي^{١٠} أنه لما أعذر لأولاد ابنه أبي مروان
عبيد الله اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته
وأمر أن يُنذَر^{١١} لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه
الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو إبراهيم ، وافترق مكانه لارتفاع منزلته ،
فسأل في ذلك الخليفة الناصر ، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين
عليهم المدار ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبي إبراهيم ، وأمر ابنه ولي^{١٢}
العهد الحكم بالكتاب إليه ، والتفنيذ له ، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسندك ورعاك ، لما امتحن
أمير المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه الله - الأولياء الذين يستعد بهم وجدك
متقدماً في الولاية ، متأخراً عن الصلة ، على أنه قد أنذرك - أبقاه الله -
خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدهم الله توالي المسرة ،
ثم أنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف
ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه ،
فأعيت عليك عنك الحجة ، فعرفني - أكرمك الله - ما العذر الذي أوجب
توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذي سر به ورغب المشاركة فيه ،
لنعرفه - أبقاه الله - بذلك ، فتسكن نفسه العزيرة إليه إن شاء الله تعالى » . فأجابه
أبو إبراهيم : « سلام على الأمير سيدي ورحمة الله ، قرأت - أبقى الله الأمير

١ في الأصول ما عدا ج : ربيب .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .

سيدي - هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفي لنفسي ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا أبى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه ، وسكوني إلى تقواه ، واقتضائه لأثر سلكه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ، ولا بما يفيض منها ويترك إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصّادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمي بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى . فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبي إبراهيم لإسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه .

وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظماً عند الناصر وابنه الحكم ، وحقّ لهما أن يعظماه ؛ وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرّج قال ^١ : كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم - رحمه الله تعالى - فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية ، فإني لعينده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره بجوفي قصر قرطبة ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل ، جاء من عند الخليفة الحكم ، فوقف وسلّم ، وقال له : يا فقيه ، أجيب أمير المؤمنين أبقاء الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بإعجالك ، فإله الله ، فقال له : سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة ، فأرجع إليه وعرفه وفقه الله غني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العلم أسمعههم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيدونه غني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد من مسيري إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلي من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيت إليه إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على

شأنه ، ومضى الخصي يهين متضاجراً من توقفه ، فلم يك إلا ريشاً أدى جوابه ، وانصرف سريعاً ساكن الطيش ، فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، وأمتعهم بك ، وإذا أنت أوعيت^١ فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى يتقضي شغلك وتمضي معي ، فقال له : حسن جميل ، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة ، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي ، وباب الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرّم أحوط وأقرب وأرفق بي ، فإن رأى أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوّن عليّ المشي ، وودّع جسمي ، وأحب أن تعود وتُنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إليّ فإنّي أراك فتي سديداً ، فكن على الخير معيّنًا . ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك ، وقال : افعل راشداً ؛ وجلس الخصي جانباً حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه كأفسح^٢ ما جرت به عادته غير مترعج ولا قلق ، فلما انقضى عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه . قال ابن مفرّج : ولقد تعمّدنا في تلك العشيّة إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المهود إغلاقه بدُبُر^٣ القصر لنرى نجشّم الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الخصي مفتوحاً ، وقد حقّه الخدم والأعوان مترعجين ما بين

١ ك : أوعيت .

٢ ك : بأكل وأنسح .

٣ في الأصول : بدير .

٤ ك : مفتوحاً كما وصف .

كنّاس وفرّاش متأهّبين لانتظار أبي إبراهيم ، فاشتدّ عجبنا لذلك ، وطال تحدّثنا عنه ، انتهى . فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم ^١ ، قدس الله تلك الأرواح .

ثم توفي الناصر لدين الله ثاني - أو ثالث - شهر رمضان ، من عام خمسين وثلاثمائة ، أعظم ما كان سلطانه ، وأعز ما كان الإسلام بملكه .

قال ابن خلدون : خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات ، انتهى .

وقال غير واحد ^٢ : إنّه كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدّخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقري خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يُخصّصها ديوان .

وحكي ^٣ أنّه وجد بخط الناصر - رحمه الله - أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعدّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأولياها ، هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة - أو سبعة - أشهر وثلاثة أيّام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبحان ذي العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو .

ومما يُنسب للناصر من الشعر ، وقيل : لابنه الحكم ، قوله ^٤ :

١ ك : مع العلماء .

٢ المغرب ١ : ١٧٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧١ .

٣ المغرب ١ : ١٧٧ وأزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .

٤ المغرب ١ : ١٧٩ .

ما كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْتُ إِلَّا عَوَضِي اللهَ مِنْهُ شَيْئاً
إِنِّي إِذَا مَا مَنَعْتُ خَيْرِي تَبَاعَدَ الْخَيْرُ مِنْ يَدَيَا
مَنْ كَانَ لِي نِعْمَةٌ عَلَيْهِ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ عَلَيَا

[ترجمة أحمد بن عبد الملك بن شهيد]

ومما زين الله به دولة الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد ،
قال في المطمح ^١ : أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد ، مفخر الإمامة ،
وزهر تلك الكمامة ، وحاجب ^٢ الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين على
سُمُوهما في ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف
شاء على حد نظرها والتفات مقلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع
كثرة النظراء ، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة ، بعد عنها كل نفس
بالسوء إمارة ، فلم يطرقها صرْف ، ولم يرمقها محذور بطرف ، فقرع الناس
فيها هضاب الأماني ورباها ، ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها ، وهو أسد على
برائته رابض ، وبطل أبدأ على قائم سيفه قابض ، يروع الروم طيفه ، ويجوس
خلال تلك الديار خوفه ، ويروى بل يحسم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج
الآراء ويلقحها ، وينقذ تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائها ،
متجملة بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ، ويكسو الأولياء بذلك الإجمال ،
وكان له أدب ترخر لجججه ، وتبهر حججه ، وشعره رقيق لا ينقد ، ويكاد
من اللطافة يعقد ، فمن ذلك قوله :

ترى البدرَ منها طالعا فكأنما يجول وشاحها على لؤلؤ رطب

١ المطمح : ٩ والمقتطفات (الورقة ٨٥ - ٨٦) وانظر ترجمة الوزير ابن شهيد أيضاً في الحلة
٢ : ٢٣٧ وجذوة المقتبس : ١٢٣ (وبغية الملتبس رقم : ٤٣٩) ، وسقطت ترجمته من

المغرب المطبوع .
٢ ك : وصاحب .

بعيدة مَهْوَى القُرْطُ مخطفة الحشا ومُفْعَمَةُ الخَلخال مُفْعَمَةُ ١ القَلْبِ
من اللاء لم يَرَحَلْن فوق رواحل ولا سِرْنَ يوماً في ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهنَّ المدامُ لنشوة وشدو كما تشدو القيانُ على الشربِ

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولي الأمر معه ، ومشاركه
في التدبير إذا حضر مجتمعه ، منافسة ، لم تفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة ،
وكلاهما يتربصُ بصاحبه دائرة السوء ، ويغص به غصص الأفق بالنوء ،
فاجتاز يوماً على رَبَضِه ، ومال إلى زيارته ولم تكن من غَرَضِه ، فلما استأمر
عليه ، تأخر خروج الإذن إليه ، ففتى عِناهُ حَنَقاً من حِجابِه ، وضجراً
من حُجابِه ، وكتب إليه مُعَرَّضاً ، وكان يلقب بالحمار :

أتيناك لا عَنْ حاجة عَرَضَتْ لنا إِلَيْكَ ولا قَلْبَ إِلَيْكَ مَشُوق
ولكننا زَرْنَا بِفَضْلِ حُلُومنا جماراً تولَّى بَرِّنا بِعُقُوقِ ٢

فراجعه ابن جهور يغض منه ، بما كان يشيع عنه ، بأن جدّه أبا هشام ، كان
بَيْطَاراً بالشام ، بقوله :

حَجَبْنَاكَ لما زَرْتنا غَيْرَ تائق بقلب عَدُوٍّ في ثيابِ صَدِيق
وما كان بَيْطارُ الشَّامِ بِمَوْضِع يُبَاشِرُ فيه بَرِّنا بِخَلِيقِ

ومن شعره قوله يتغزل :

حلفتُ بمن رَمَى فأصاب قَلْبِي وَقَلْبَهُ على جَمَرِ الصُّدُودِ
لَقَدْ أودى تَذَكُّرُهُ بِقَلْبِي وَلَسْتُ أَشْكُ أَنَّ النفسَ تُودي

١ ط ق : مقمة .

٢ في ق ك :

ولكننا زرنا بفضل حلومنا فكيف تلاقي برنا بعقوق
والتصحيح عن الحميدي والحلة السراء .

فَقِيدٌ وَهُوَ موجودٌ بِقَلْبِي فَوَاعَجَبَا لموجودٍ فقيدٍ .
وقد تقدّم الكلام على هدية ابن شهيد وبعض أخباره ، رحمة الله عليه .

* * *

[الحكم المستنصر]

ولما توفي الناصر لدين الله^١ تولى الخلافة بعده وليُّ عهده الحكمُ المستنصر بالله فجرى على رَسْمِهِ ، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ، وولي حجابته جعفر المصحفي . وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيّان في «المقتبس» وهي : مائة مملوك من الإفرنج ناشئة^٢ على خيول صافنة كاملو الشبكة والأسلحة من السيوف والرماح والدّرق والتراس والقلائس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة خشبية^٣ من بيضات الفرنجة من غير الخشب^٤ يسمونها الطشطانة^٥ ، وثلاثمائة حربة لإفرنجية ، ومائة ترس سلطانية^٦ ، وعشرة جواشن فضة مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس ، انتهى . قال ابن خلدون^٧ : ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلائقة في الثغور ، فغزا الحكم المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فرذلند بن ختشلب^٨ ، فنزل شنته^٩

١ سياق الخبر حسياً ورد في ابن خلدون ٤ : ١٤٤ .

٢ ك : ناشبة .

٣ ق ك : وخمسون هندية خشبية .

٤ كذا ولعلها : « من غير الخشب » .

٥ ابن خلدون : الطاشانة ؛ والطشطانة (Tistina) كلمة مشتقة من البروفنسالية (Testa) (أي الرأس Tête) وتكتب أيضاً طشتانية وتعني « الخوذة » .

٦ ابن خلدون : سلطانية الجنس .

٧ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٤ والكلام متصل بما قبله في النقل عنه .

٨ فرذلند (Fernando = Ferdinand) ؛ غندشلب (جنتالث) (Gonzalo) .

٩ شنت اشتين (وفي ق ك ط قدمت الباء الموحدة على الألف) (San Esteban) وبها يسمى غير موضع بالأندلس ، ولكن المعنى هنا المدينة القريبة من وشقة (Huesca) .

وفتحها عَنوة واستباحها ، وقفل ، فبادروا إلى عَقْدِ السلم معه وانقبضوا عَمَّا كانوا فيه ، ثمَّ أغزى غالباً مولاة بلادَ جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرزلند ودوتخا ، وكان شانجة^١ بن رُدْمير ملك البُسْكَنْس قد انتقض ، فأغزاه الحكمُ التجيبيُّ صاحبَ سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره ، فهزمهم ، وامتنعوا بقُورِيَّة^٢ ، وعاثوا في نواحيها ، وقفل ، ثمَّ أغزى الحكمُ أحمدَ بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد بَرَشِلُونَة ، فعاثت العساكر في نواحيها ، وأغزى هُدَيْل بن هاشم ومولاة غالباً إلى بلاد القومس ، فعاثا فيها ، وقفلا ، وعظمت فتوحات الحكم وقوَاد الثغور في كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح قَلَهْرَة^٣ من بلاد البُسْكَنْس على يد غالب ، فعمرها الحكم ، واعتنى بها ، ثمَّ فتح قَطُوبِيَّة^٤ على يد قائد وشقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرَّمَك والأطعمة والسبي ما لا يحصى .

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبَة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون ، فابتنى حصن غُرْمَاج^٥ ، ودوخ بلادهم ، وانصرف .

وظهرت في هذه السنة مراكبُ المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط أشبُونَة وناشبهم الناسُ القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكمُ

١ ق ج ك ط : شنجة .

٢ قورية (Coria) من مدن كورة ماردة وكانت تعرف قبل فتح العرب باسم (Caurium) .
٣ في ك : قلمرية (Coimbra) من مدن البرتغال إلى الغرب من قورية قريباً من الساحل .
أما قلهرة (Calahorra = Calagurri) فهي حسب التقسيمات القديمة من قسم طركونة ومن قواعد منطقة نبره (نافار) .

٤ كذا في ق ك ج ط وعند دوزي ، ولعل الصواب : قطريه (Yerba) .
٥ غرماج (Gormaz) ؛ (وانظر أخباراً عما حدث لهذا الحصن في المقتبس : ٢٣٤ ط . بيروت) .

القوَّاد لاحتِراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رُماحس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل .

ثمَّ كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجَلَالِيَّة ، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن رذمير - وهو ابن عمِّه ، وهو الملك^١ من قَبْل أردون - وحمل النصرانية على طاعته ، واستظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلة ، توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به ، فاحتفل لقدمومه ، وعبَّى العساكر ليوم وفادته ، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيَّان كما وصف أيَّام الوفادات قبله ، ووصل إلى الحكم ، وأجلسه ، ووعد بالانصر من عدوِّه ، وخلع عليه ، وكتب بوصولهِ مَلَقِيّاً بنفسه ، وعاقده على موالاة الإسلام ، ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صَفَقَةً يمينه . ورهن ولده غمرسية ، ودفعت الصَّلَات والحُمْلان له ولأصحابه ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمَّة ليوطنوا له الطاعة عند رعيته ، ويقبضوا رهنه .

وعند ذلك بعث ابنُ عمِّه شانجةُ بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسمّورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ، ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثمَّ بعث ملكاً برُشْلونة وطَرَكُونة وغيرُهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه ، وبعثا بهدية ، وهي : عشرون صبيّاً من الحصيان الصقلية ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذراعٍ صقلية ، ومائتا سيف فرنجية ، فتقبل الهدية وعقد لهم على أن يَهْدِمُوا

١ ق : الملك .

الحصون التي تضرُّ بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهلَ ملَّتْهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين .

ثم وصلتُ رسلُ غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فقعدهم الحكم ، فاغتنبوا ورجعوا .

ثم وفدت على الحكم أم لُذريق بن بلاشك القومس^١ بالغرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر ، فأخرج الحكم لتلقيها أهلَ دولته ، واحتفل لقدمها في يوم مشهود مشهور^٢ ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها ، دون ما وصلت به هي ، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع ، فعاودتها بالصلوات لسفرها ، وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرضَ العُدوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة ، فبثوها في أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بني خزر وبني أبي العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وفادتهم ، وأحسن مُنصرَفهم ، واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعُدوة في ناحية الرّيف ، وأجازهم البحر إلى قُرطبة ، ثم جلاهم إلى الإسكندرية .

وكان مُحِبّاً للعلوم ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، قال أبو محمد بن حزم^٣ : أخبرني تليد الخصي^٤ — وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان — أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة^٥ ، ليس فيها

١ لذريق بن بلاشك (أو بلاشك) (Rodrigo Velasques) وأمه هي : (Oneca) .

٢ انظر الجمهرة : ١٠٠ وابن خلدون ٤ : ١٤٦ .

٣ الجمهرة : خمسون ورقة .

إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائمه من كل قطر . ووفد على أبيه^١ أبو عليّ القالي صاحب كتاب « الأمالي » من بغداد فأكرم مثواه ، وحسّنت منزلته عنده ، وأورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه ؛ وكان يبعث في الكتب^٢ إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل^٣ إليهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده ، وبعث في كتاب « الأغاني » إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج به إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك . وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبي عامر ، ونُهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عتوة ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنبسط الكلام على الحكم فنقول^٤ : إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام بأعباء الملك أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه ، وتنقيف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وأول ما أخذ

١ ك : قال أبو محمد بن خلدون ولما وفد ... أكرم ...

٢ ك : في شراء الكتب .

٣ ج : ويسدي ؛ ط : ويسري .

٤ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٨٦ والنص متفق مع النسخ حتى آخر قصيدة المرادي ص : ٣٩٤ .

البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر ، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم ، وتكفلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم ، وأوصل إلى نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء ، فبايعوه ، فلما كملت بيعة أهل القصر تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عبيد الله المتخلف بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة ، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حنبل بالنهوض أيضاً إلى أبي الأصبح عبد العزيز شقيقه الثاني ، فمضى إليهما كل واحد منهما في قطيع من الجند ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافي جميعهم الزهراء في الليل ، فنزلوا في مراتبهم بفصلان^١ دار الملك ، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح المرء ، فأول مَنْ وصل إليه الإخوة فبايعوه ، وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتمروا بالإيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوانهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله ، إلا عيسى بن فطيس فإنه كان قائماً يأخذ البيعة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة ، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابر الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو كل منهم على قدره في المترلة ، عليهم الظواهر البيض شعار الحزن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء ، عليهم الدروع السابعة والسيوف الحالية ، صفين منتظمين في السطح ، وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض ، بأيديهم السيوف ، يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات

١ الفصلان والفصل : جمع فصيل ، ويقابل (Porticus) باللاتينية ، وهو الرحبة عند مدخل البيت ، وتكون الفصلان فيما يبدو على شكل رحاب وصحون متوالية تحدها هيئة الأعمدة .

الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرماة متكبين قسيّهم وجعابهم ، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين في الأسلحة الرائقة والعدة الكاملة ، وقامت التعبئة في دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والأقنية البيض ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة^١ ، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة ، انتظموا صفين إلى آخر الفصل ، وعلى باب السدّة الأعظم البوابون وأعوانهم ، ومن خارج باب السدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء ، واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة ، موكباً إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ، فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض ، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتُمل جسد الناصر - رحمه الله - إلى قصر قُرطبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء .

وفي ذي الحجة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب ، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضي مُنذر ابن سعيد والملاّ ، فأخذت عليهم البيعة ، ووُقعت الشهادات في نسخها .

* * *

[وفود أردون على المستنصر]

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مَوْلِيَّه محمدًا وزيادًا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقّي غالب الناصري صاحب مدينة سالم المورِد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمّه المملّك قبله شانجة بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير

١ ك : الصقلية ؛ وفي بعض النسخ : الصقلية .

طالب إذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزامُ الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخذهُ في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتقاء عليه ، وخرج قبل أمانٍ يُعقَد له أو ذِمّة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه ، تكتفهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه ، فجاء به نحو مولاة الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحرّكا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قُرْطُبة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة ، وتقدّموا إلى باب قُرْطُبة ، فمروا بباب قصرها ، فلمّا انتهى أردون إلى ما بين باب السّدة وباب الجنان سأل عن مكان رَمَسِ الناصر لدين الله فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم ردّ قلنسوته إلى رأسه . وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدّم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسّع له في الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلمّا كان يوم السبت تقدّم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفّاً في المجلس فيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طُمُنُس^١ بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه^٢ ثوب ديباجي روميّ أبيض وبليوال^٣ من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة

١ محمد بن قاسم بن طمّس : كان يشغل في أيام المستنصر منصب الوزير صاحب الخشم ، وقد قتل في حروب الدولة أول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بفحص مهران (المقتبس : ٩٦ ط . بيروت) .

٢ ق : لباسه .

٣ لعلها من اللفظة (Pluvial) ، أو (Palio) (فتقرأ : بليون) ، وفي ق : ويلبوال ؛ ج : يلنوال ؛ ك : بليون .

بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه ،
فيهم وليد بن خيزران^١ قاضي النصارى بقَرْطُبَة وعبيد الله بن قاسم مطران
طَلَيْطَلَة^٢ وغيرهما ، فدخل بين صفتي الترتيب يُقَلِّب الطرف في نظم
الصفوف ، ويُجِيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما
أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسي رؤوسهم غاضبين من أجفانهم
قد سُكِرَتْ أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء ، فترجل
جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم ،
حتى انتهوا إلى باب السُدَّة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام ،
فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طُمْلُس ، فأنزل في
بَرْطُل^٣ البهو الأوسط من الأبناء القبليّة التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسو
الأوصال بالفضّة ، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن رذمير
الوافد على الناصر لدين الله — رحمه الله تعالى — فقعد أردون على الكرسي ، وقعد
أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ،
فتقدم بمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي
الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع بُرْنُسَهُ ، وبقي حاسراً
إعظاماً لما بان له من الدنو إلى السرير ، واستنّهض فمضى بين الصفيين المرتبين
في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السرير

١ كذا في ق ج ط ودوزي ؛ وهو مضطرب في النسخ فهو : خيزان ؛ حيزون (في ك) ؛ خيرون ؛
ولعل الأخيرة « خيرون » هي الصواب ؛ وهذا القاضي فيما يبدو هو الذي أعان على ترجمة
كتاب هرويشوش حين أهدها إمبراطور القسطنطينية إلى الناصر (ابن خلدون ٢ : ٨٨) وفي
أحداث سنة ٣٦٠ من المقتبس أن قاضي النصارى بقرطبة كان اسمه « أصبغ بن نبيل » (ص :
١٤٦ ، ٦٤) .

٢ ساء في المقتبس (٤٧) مطران إشبيلية ، وكان المستنصر يعتمد عليه في الترجمة وفي مرافقة
الوفود وشؤون السفارات .

٣ البرطل : يقابل بالإسبانية (Portal) أي المدخل .

خَرَّ ساجداً سُويعةً ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ،
ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكرَّ
راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وسادٍ ديباجٍ مُثَقَّل بالذهب ، جعل له هناك ،
ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبهرُ قد علاه .
وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممثلين في تكرير الخنوع
وناوهم الخليفة يَدَه فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ،
ووصل بوصولهم وليدُ بن خيزران قاضي النصارى بقُرْطُبة ، فكان الترجمان
عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه
وقتاً كيما يُفْرِخَ رَوْعُهُ ، فلما رأى أن قد خُفِّضَ عليه افتتح تكليمه فقال :
ليسرك إقبالك ويغبطك تأميك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورَحْبَ قبولنا فوق ما قد
طلبته ، فلما ترجم له كلامه إياه تطلت وجه أردون ، وانخط عن مرتبته ، فقبل
البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد إلى
مجدته ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته
رجوت أن أقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت
عندنا بمحلٍّ مَنْ يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك
على أهل ميلتك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل
سلطاننا ، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعياً ، وقال :
إن شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني ، فكان من إعزازه
إياه ما يكون من مثله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ،
وكان قَصْدَه قصدَ مضطر قد شَنَّاه رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتي
لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ، ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن
ملكه مضطراً مضطهداً ، فتطول عليه — رحمه الله — بأن صرَّفه إلى ملكه ،

وقوى سلطانه ، وأعز نصره ، ومع ذلك فلم يقدّر بفرض النعمة التي أسديت إليه ، وقصّر في أداء المفروض عليه وحقّه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطاني وموضع أحكامي ، مُحَكِّمًا له في نفسي ورجالي ومعالي ومن تحويه من رعيتي ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إيتاك على الخصوصية شأنه ، ويراود من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبنائنا - رضي الله تعالى عنه - إلى نذك ، وإن كان له فضلُ التقدّم بالجنوح إلينا والتقصّد إلى سلطانتنا ، فليس ذلك ممّا يؤخره عنه ، ولا ينقصك ممّا أنلناك ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشدّ أواخيه ملكك ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك^١ ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرّ به حدّ ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد إلى يدك ، وسيترادف عليك من إفضالنا^٢ فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرّر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً لا يولّي الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الفتيان^٣ ، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البهز وأذهله الرّوع ، من هول ما باشره وجلالة ما غايته من فخامة الخليفة وبهاء العزة ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحطّ ساجداً إعظاماً له ، ثم تقدّم الفتيان به إلى البهو الذي بجوّفي هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخنع له^٤ ، وأوماً إلى تقبيل يده ،

١ من أمتك : سقطت من ك .

٢ ق : إحساننا .

٣ زاد بعدها في ق : من جملة الفتيان .

٤ ك : وخضع له .

فقبضها الحاجبُ عنه ، وانحنى إليه فعانقه ، وجلس معه ، فغَبَطَهُ ، ووعدته من إنجاز عِدَات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبَّت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة ، وكانت دُرَّاعَة منسوجة بالذهب ، وبرنساً مثلها له لوزة مفرغة من خالص الثبر مرصعة بالجواهر والياقوت ملأت عين العِلج تجلّة ، فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فأكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخرّ جميعهم خائعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقُدِّم لركابه في أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سرّج حلي ولحام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طُمْلُس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أُعِدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش .

واستشعر الناس من مَسَرَّة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجّح به والتحدث عنه أياماً ، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة مِتان ، يطول القول في اختيارها ، فمن ذلك قولُ عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة حيث يقول^٢ :

ملك الخليفة آية الإقبال	وسعوده مَوْصُولَة بتوالي ^٣
والمسلمون بعِزّة وبِرفعة	والمشركون بذِلّة وسفّال
ألْقَتْ بأيديها الأعاجمُ نحوه	متوقعين لَصُولَة الرّثبَال
هذا أميرُهُمُ أتاه آخذاً	منه أواصِرَ ذِمّة وحِبَال
متواضِعاً لجلالِهِ متخشّعاً	متبرّعاً لما يَرُوعُ بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضى	عِزّاً يعمُ عِداَهُ بالإذلال

١ ك : خاضعين .

٢ منها أربعة أبيات في البيان المغرب ١ : ٢٣٥ (ط . ليدن) .

٣ في الأصول : بنوال .

لا يوم أعظم للولادة مَسْرَّةً
 من يوم أردون الذي إقباله
 ملك الأعاجم كلها ابن ملوكها
 إن كان جاء ضرورة فلقد أتى
 فالحمد لله المنيل إمامنا
 هو يوم حشر الناس إلا أنهم
 أضحي القضاء مفعماً بحيوشه
 لا يهتدي الساري الليل قتامة
 وكان أجسام الكُماة تسربلت
 وكأنما العقبان عقبان الفلا
 وكان منتصب القنا مهتزة
 وكأنما قبل التجافيف اكتست
 وأشدّه غيظاً على الأقبال
 أمل المدى ونهاية الإقبال
 والي الرعاة وللأعاجم والي
 عن عز مملكة وطوع رجال
 حظ الملوك بقدره المتعالي
 لم يسألوا فيه عن الأعمال
 والأفق أتم أغبر السربال
 إلا بضوء صوارم وعوالي
 مذ عريت عنه جسوم صلال
 منقضة لتخطف الضلال
 أشطان نازحة بعيدة جال^٢
 ناراً توهجها^٣ بلا إشعال

[عود إلى سيرة الحكم]

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم المستنصر عن فتاه تليد صاحب خزائنه
 العلمية فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم : إن عدة الفهارس التي فيها
 تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها
 إلا ذكر الدواوين فقط ، انتهى ، وقد قدمناه عن ابن خلدون^٤ ، ونقله ابن
 الأبار في التكملة^٥ .

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم : إنه كان حسن السيرة ، مكرماً للقاديين

١ في نسخة : مغنياً .

٢ النازحة : البئر البعيدة الفور ؛ الحال والجول : صفحة البئر .

٤ نص : ٣٨٥ فيما سبق .

٣ ك : تزججها .

٥ لم أجده في التكملة المطبوعة ، وهو في الحلة السيرة ١ : ٢٠٣ وانظر المقتطفات (الورقة : ٨٦) .

عليه ، جمع من الكتب ما لا يُحَدُّ ولا يوصف كثرة ونفاًسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمئة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دُحيم ومحمد ابن عبد السلام الخُشْتِي وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد أثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجباً لابن القرظي وابن بشكوال كيف لم يذكرهما وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن^١ .
ومما ينسب إليه من النظم قوله^٢ :

إلى الله أشكو من شمائلٍ مُتَرَفٍّ عَلَيَّ ظَلُومٌ لَا يَدِينُ بِمَا دَنَتْ
نَأَتْ عَنْهُ دَارِي فَاسْتَرَادَ صُدُودَهُ وَإِنِّي عَلَى وَجْدِي الْقَدِيمِ كَمَا كُنْتُ
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ شَوْقِي بِالْغُ مِنْ الْوَجْدِ مَا بَلَغْتُهُ لَمْ أَكُنْ بَنْتُ
وقوله^٣ :

عَجِبْتُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا كَيْفَ لَمْ أَمُتْ وَكَيْفَ انْتَشَنَتْ بَعْدَ الْوَدَاعِ يَدِي مَعِي
فِيَا مَقْلَتِي الْعَبْرَى عَلَيْهَا اسْكُبِي دَمًا وَيَا كَبِيدِي الْحَرَّى عَلَيْهَا تَقْطَعِي

١ بعض هذا النص موجود في الحلة السراء .

٢ المغرب ١ : ١٨١ والمقطعات (الورقة : ٨٦) .

٣ ك : مسرف .

٤ انظر الحلة السراء ١ : ٢٠٣ والمغرب ١ : ١٨٢ .

وتوفي - رحمه الله تعالى - بقصر قُرْطبة ثاني صفر سنة ست وستين
وثلاثمائة ، لست عشرة سنة من خلافته ، وكان أصابه القالج ، فلزم الفراش
إلى أن هلك - رحمه الله تعالى - وكان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته
تشديداً عظيماً .

[خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر]

وولي بعده ابنه هشام صغيراً سنه تسع سنين ، ولا ينافيه قول ابن خلدون :
« قد ناهز الحلم » وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ، ونقله من
خطة القضاء إلى وزارته ، وفوض إليه أموره ، فاستقل .
قال ابن خلدون ^١ : وترقت حال ابن أبي عامر عند الحكم ، فلما توفي
الحكم وبويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قُتل ليلثذ المغيرة أخو الحكم المرشح
لأمرة تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بمالاة من جعفر بن عثمان المصحفي
حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ
ورؤسائهم فائق وجؤذر ، فقتل ابن أبي عامر المغيرة بمالاة من ذكر ، وتمت
البيعة لهشام ، ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ،
وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة ، وضرب بين رجالها ، وقتل
بعضاً ببعض ، وكان من رجال اليمينية من معافر ، دخل جدّه عبد الملك مع
طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وكان له في الفتح أثر ، وعظم ابن أبي عامر
هذا ، وغلب على المؤيد ، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام
يُسَلِّمون وينصرفون ، وأرضح للجند في العطاء ، وأعلى مراتب العلماء ،
وقمّع أهل البدع ، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ،
ثم تجرّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وخطّهم عن

١ ابن خلدون ٤ : ١٤٧ .

مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن [أمر]^١ هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جموعهم ، وأول ما بدأ بالصقالبة الحصيان الخدّام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحفيّ على نكبتهم ، فنكبهم وأخرجهم من القصر ، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم ، وبالع في خدمته والتنصّح له ، واستعان به على المصحفيّ فنكبه ومحا أثره من الدولة ، ثم استعان على غالب بجعفر بن عليّ بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانيء بالفائية المشهورة وغيرها^٢ ، وهو النازع إلى الحكم أوّل الدولة بمن^٣ كان معه من زناة والبربر ، ثم قتل جعفرأ بممالة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ، ثمّ لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشّحين للرياسة رجع إلى الجند ، فاستدعى أهل العُدوة من رجال زناة والبرابرة فرتب منهم جنداً ، واصطنع أولياء ، وعرف عُرّقاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال وميكناسة وغيرهم ، فتغلّب على هشام وحجّره ، واستولى على الدولة ، وملاً الدنيا وهو في جوف بيته ، من تعظيم الخلافة ، والخضوع لها ، وردّ الأمور إليها ، وترديد الغزو والجهاد ، وقدّم رجال البرابرة وزناة ، وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ، وبسّى لنفسه مدينة لتزله سمّاها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يُحيا بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على

١ زيادة لازمة .

٢ يعني ابن هانيء الأندلسي شاعر العبيدين ، ومطلع قصيدته الفائية :

أليتنا إذ أرسلت وارداً وخفاً وبتنا نرى الجوزاء في أذنّها شنفاً

٣ في الأصول : وبين .

المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك ، وجئت البرابرة والممالك ، واستكثر من العبيد والعلاج للاستيلاء على تلك الرتبة ، وقهر من تطاول إليها من العلية ، فظفر من ذلك بما أراد ، وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا قُلَّ له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية ، وأجاز عساكره إلى العدو ، وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض ، فاستوثق له ملك المغرب ، وأحببت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه ، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر ، ولما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من إعلانه بالتبيل منه والغص من منصبه والتأقف لحجّر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ، ونزل بفاس وملكها ، وعقد للملك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها ، وشرّد زيري بن عطية إلى تاهرت ، فأبعد المقر ، وهلك في مفره ذلك ، ثم قتل عبد الملك إلى قُرطبة ، واستعمل واضحاً على المغرب ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً ، وأشدّ استيلاء ، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة^١ ، بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته ، ودُفن هناك ، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه ، انتهى كلام ابن خلدون ، وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة .

ولا بأس أن نزيد عليه فنقول : مما حُكي أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى^٢ :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمانُ بمثله أبداً ، ولا يحمي الثغور سيواه

وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لما توجهتُ إلى أذفونش وجدته في

١ الصواب : سنة ٣٩٢ .

٢ الحلة السيرة ١ : ٢٧٣ .

مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريرته ، وامرأته متكئة إلى جانبه ، فقال لي : يا شجاع ، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ؟ قال : فحملتني الغيرة أن قلت له : لو تنفّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهمّ بي ، فحالت امرأته بيني وبينه ، وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد^١ ، قال رحمه الله :

ترجمة الملك الأعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، المَعافري ، من قرية تَرْكُش^٢ ، وعبد الملك جدّه هو الوافد على الأندلس مع طارق في أوّل الداخلين من العرب ، وأمّا المنصور فقد ذكره ابنُ حَيَّان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية ، والفتح في المطمح ، والحجاري في السُهب ، والشَّقْصُندي في الطرف ، وذكر الجميع أن أصله من قرية تَرْكُش ، وأنه رحل إلى قَرْطُبَة ، وتأدّب بها ، ثم اقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعينُ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة صُبُح أم المؤيد من يكتب عنها ، فعرفها به مَنْ كان يَأْنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها ، فاستحسنته ونسّبت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة ، فولّاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشْبِيلِيَّة وتمكّن في قلب السيدة بما استمالها به من التَّحَف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره ولم يقصر — مع ذلك — في خدمة المصحفيّ الحاجب ، إلى أن توفّي الحكم وولي ابنه هشام المؤيد ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فجاشت الرومُ ، فجهز المصحفيّ ابن أبي عامر لدفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكّن حبّه من قلوب الناس .

١ راجع المغرب ١ : ٣٩٤ والنص عند المقرئ يختلف عما ورد في كتاب ابن سعيد ، ولم يقل المقرئ إنه ينقل عن المغرب ؛ وانظر المقتطفات (الورقة : ٨٦ - ٨٧) .

٢ كذا هنا ، وفي المغرب : « كرتش » وفي المعجب : طرش من أعمال الجزيرة الخضراء .

وكان جواداً عاقلاً ذكياً ، استعان بالمصحفيّ على الصّقالبة ، ثم بغالب على المصحفيّ ، وكان غالب صاحب مدينة سالم - وتزوج ابن أبي عامر ابنته أسماء ، وكان أعظم عُرُس بالأندلس - ثم بجعفر بن علي الأندلسي ممدوح ابن هانيء على غالب ، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التّجيّبي على جعفر ، وله في الحزْم والكَيْد والجلْد ما أفرد له ابن حيّان تأليفاً ، وعدّد غزواته المنشأة من قرطبة نيّف وخمسون غزوة ، ولم تُهزَم له راية ، وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس .

ومن شعره^١ :

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَخَاطَرْتُ وَالْحَرُّ الْكَرِيمُ يَخَاطِرُ
وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُشَيِّعٌ وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ
فَسُدْتُ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ وَفَاخَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أَفَاخِرُ
وَمَا شِدْتُ بِنِيَانًا وَلَكِنْ زِيَادَةً عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ
رَفَعْنَا الْمَعَالِي بِالْعَوَالِي حَدِيثَةً^٢ وَأَوْرَثْنَاهَا فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرُ

وجوده مع صاعد البغدادي اللغوي مشهور .

وصدر عن بعض غزواته فكتب إليه عبدُ الملك بن شهيد^٣ ، وكان قد تخلف عنه :

أَنَا شَيْخٌ وَالشَّيْخُ يَهْوَى الصَّبَايَا يَا بِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ الرَّزَايَا
وَرَسُولُ الْإِلَهِ أَسْنَهَمَ فِي الْفِي لَمْ يَخِبْ فِيهِ الْمَطَايَا

فبعث إليه بثلاث جوارٍ من أجمل السبي ، وكتب معهن^٤ ، وكانت واحدة أجملهن^٥ ، قوله :

١ الحلة ١ : ٢٧٤ وابن عذاري ٢ : ٤٠٩ .

٢ في الأصول : مثلها .

٣ الذخيرة ٤ : ١٨ والحلة ١ : ٢٧٦ .

قد بَعَثْنَا بها كَشَمْسَ النَّهَارِ في ثلاث من المَها أَبْكَارِ
وامْتَحَنَّا بعدرة البكر إن كنه ت تُرْجِي بُوادِرَ الإِعْذارِ
فاجتهدْ وابتدِرْ^١ فَإِنَّكَ شَيْخٌ قَدْ جَلَا لَيْلَهُ بِيَاضُ النَّهَارِ^٢
صَانِكَ اللهُ من كَلَالِكَ فيها فَمِنْ العَارِ كَلَّةُ المِيسْمَارِ

فافتضهنَّ من ليلته ، وكتب له بكرة :

قد فَضَضْنَا خَتَامَ ذَاكَ السَّوَارِ واصْطَبَغْنَا من التَّجْعِ الجَارِي
وَصَبَرْنَا على دِفَاعٍ وَحَرْبٍ فَلَعِبْنَا بالدرِّ أَوْ بالدراري^٣
وَقَضَى الشَّيْخُ مَا قَضَى بِحُسَامٍ ذِي مَضَاءٍ عَضْبِ الطُّبَا بَتَّارِ
فاصْطَنِعْهُ فليس يحزبك كُفْرًا واتَّخِذْهُ فَحْلًا على الكِفَارِ

وقدِمَ بعض التجار ، ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ، فتجرّد ليسبح في
النهر ، وترك الكيس ، وكان أحمر ، على ثيابه ، فرفعته حداة في مخالبتها ،
فجرى تابعا لها وقد ذُهِل ، فتغلّلت في البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع
متحيراً ، فشكا ذلك إلى بعض من يأنس به ، فقال له : صف حالك لابن أبي
عامر ، فتلطّف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : نظرت إن شاء الله تعالى في
شأنك ، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ، ويسأل خدّامها عمّن ظهر
عليه تبديلُ حال ، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل اشترى حماراً ، وظهر من
حاله ما لم يكن قبل ذلك ، فأمر بمجيئه ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أحضر
الكيس الأحمر ، فتملك الرعب قلبه وارتعش ، وقال : دعني آتي به من منزلي ،
فوكّل به من حمّله إلى منزله وجاء بالكيس ، وقد نقص منه ما لا يقدر في

١ الحلة : واتّدد .

٢ الحلة : خفي الليل عن بياض النهار .

٣ اختلفت روايته في كل من الذخيرة والحلة .

٤ انظر القصة في ابن عذاري ٢ : ٤٣٥ مع اختلاف في التفاصيل .

مُسَرَّةٌ صاحبه ، فجبره ، ودفعه إلى صاحبه ، فقال : والله لأحدثنَّ في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ويُنصف منها ، والتفت ابنُ أبي عامر إلى الزبال فقال له : لو أتيت به أغنيك ، لكن تخرج كفافاً لا عقاباً ولا ثواباً .

وتوفي رحمه الله في غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، وحُمل في سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحفّ به وبين يديه ، إلى أن وصل إلى مدينة سالم .

ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف ، انتهى كلام ابن سعيد ، وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون

• • •

[الحاجب المصحفي عن المطمح]

وقال الفتح في « المطمح » في حق المصحفي الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ما صورته^١ : تجرّد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المني ، وتسوّغ ذلك الجحى ، ووصل إلى المنتهى ، وحصل على ما اشتهى ، دون مجد تفرّع من دوحته ، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحه ، فما دون سابقة ، ورمى إلى رتبة لم تكن لنفسه^٢ مطابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ، ولم يزل يستقل ويضطلع^٣ ، وينتقل من مطلع إلى مطلع ، حتى التاح في أفق الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه^٤ كنشوان السّلاقة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان يسمع وبه يبصر ، وحجّب الإمام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لذلك

١ المطمح : ٤ - ٨ ونقل ابن عذاري بعض هذه الترجمة ٢ : ٣٧٩ وصدرها بقوله : قال ابن بام .

٢ المطمح : لبنته .

٣ ك : يستقل ويطلع .

٤ في الأصول : إليه مظلها .

ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحباثل والشرك ، فاقضى اقتناء مدّخِر ، وأزرى
 بمن سواه وسخر ، واستعطفه ابنُ أبي عامر ونجمه غائر لم يَلُحْ ، وسره مكتوم لم
 يبح ، فما عطف ، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قَطَف ، وأقام في تدبير
 الأندلس ما أقام وبرّهائه مستقيم ، ومن الفتن عقيم ، وهو يَجْري من السعد
 في مَيْدانِ رَحْب ، ويكْرَع من العزّ في مَشْرَبِ عذب ، ويقْضُ ختام
 السرور ، وينهض بمُلكٍ على لَبَتِهِ مزرور ، وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر
 إلى نظم القرىض^١ مُسارع ، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده ،
 وقاله حين ألهمته سَلَمَاه وسُعادته ، قوله :

لَعَيْنِيكَ فِي قَلْبِي عَلَى عَيُونٍ^٢ وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ
 نَصِيبي مِنَ الدُّنْيَا هَوَاكَ ، وَإِنَّهُ غِذَائِي ، وَلَكِنِّي عَلَيْهِ ضَنِينُ

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة
 ونقصان في الباب الرابع .

* * *

[ترجمة ابن أبي عامر في المطمح]

وقال في المطمح في حق ابن أبي عامر^٣ : إنه تمرّس ببلاد الشرك أعظم
 تمرّس ، ومحا من طواغيتها كُلَّ تَعَجْرُفٍ وَتَغَطُّرُسٍ ، وغادرهم صَرَغِي
 البقاع ، وتركهم أذلَّ من وتَدِ بَقَاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدّد إلى
 أكبادهم سهام الفجائع ، وأغصّ بالحِمام أرواحهم ، ونغصّ بتلك الآلام
 بكورهم ورواحهم ، ومن أوضح الأمور هنالك ، وأفصح الأخبار في ذلك ، أن
 أحد رسله كان كثير الانتياب ، لذلك الجناب ، فسار في بعض مسيراته إلى غَرْسِيَّة

١ هذه رواية المطمح ، وفي المقرئ : البديع .

٢ في الأصول : شجون .

٣ قد ذكر المقرئ المطمح الصغير ؛ وهناك مطمح متوسط وآخر كبير ؛ و ترجمة ابن أبي عامر هذه
 غير موجودة في المطمح الذي بين أيدينا ، وقد وردت في ابن عذاري ٢ : ٤٤٤ .

صاحب البُشْكَنْس فوالى في إكرامه ، وتناهى في برّه واحترامه ، فطالت مدته فلا متزّه إلا مرّ عليه متفرّجاً ، ولا منزل إلا سار عليه مُعَرَّجاً ، فحلّ في ذلك ، أكثر الكنائس هنالك ، فيينا هو يَجُول في ساحتها ، ويُجِيل العَيْنَ في مساحتها ، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، قويمه على طول الكسر ، فكلمته ، وعرفته بنفسها وأعلمته ، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بئوسها ، ويتمتع بلبّوس العافية وقد نضت لبّوسها ، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة ، وبكل ذل وصغار ملبسة ، وناشدته الله في إنهاء قصتها ، وإبراء غصّتها ، واستحلفته بأغلظ الأيمان ، وأخذت عليه في ذلك أوكد موثيق الرحمن ، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه ، وهو مُصنّع إليه حتى تم كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت هناك على أمر أنكرته ، أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه ، وبالمواريث التي أخذت عليه ، فعتبته ولامه ، على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من قنوره ، وعرض من من الأجناد في نجدّه وغوره ، وأصبح غازياً على سرّجه ، مُباهياً مروان يوم مرّجه ، حتى وافى ابن شاذجة في جمعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمّعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليّة ، ويخلف له بأعظم أليّة ، أنّه ما جتّى ذنباً ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنّباً ، فغنف أرساله وقال لهم : كان قد عاقدني أن لا يَبْقَى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو حملته في حواصلها النُسُور ، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها ، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها ، وأقسم أنّه ما أبصرهن ولا سمع بهنّ وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها ، قد بالغ في هدمها ، تحقيقاً لقوّله ، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطوّله ، فاستحيا منه ، وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة إلى نفسه ، وألحف توحّشها بأنسه ، وغيّر من حالها ، وعاد بسواكب نُعماءه على جدّها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شردّ من نومها ، انتهى .

وقال في المطمح أيضاً في حقّه ما نصّه ١ : فردّ نابه على مَنْ تقدّمه ،
وصرفه واستخدمه ، فإنه كان أمضاهم سيناً ، وأذكاهم جناناً ، وأتمهم
جلاًلاً ، وأعظمهم استقلالاً ، قال أمره إلى ما آل ، وأوهم العقول بذلك
المآل ، فإنه كان آية الله في اتفاق سَعْدِهِ ، وقربه من الملك بعد بُعْدِهِ ، بهر
برفعة القَدَر ، واستظهر بالأناة وسعة الصَدَر ، وتحرك فلاح نجم الهدى ،
وتملك فما خَفَقَ بأرضه لواء علوّ ، بعد خمول كابد منه غَصَصاً وشرّاقاً ،
وتعذر مأمول طارد فيه سَهَرًا وأرقاً ، حتى أنجز له الموعد ، وفرّ نحسُه أمام
تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة ، وساس الأمور
أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانظمت له الممالك ، واتضح
به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، وملك
الأندلس بضْعاً وعشرين حِجَّةً ، لم تُدَحْض لسعادتها حُجَّةً ، ولم تزخر لمكروه
بها لَحَّةً ، لبست فيه البهاء والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العراق ، وكانت
أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أسد سهام ، غزا الروم شاتياً وصائفاً ، ومضى
فيما يروم زاجراً وعائفاً ، فما مرّ له غير سَنِيح ، ولا فاز إلا بالمعلّى لا بالمنيح ،
فأوغل في تلك الشباب ، وتغلغل حتى راع ليث الغاب ، ومشى تحت ألويته صيدُ
القبائل ، واستجرت في ظلّها بيض الظبّا وسُمُر الذوايل ، وهو يقتضي الأرواح
بغير سَوْم ، ويتضي الصفاح على كل رَوْم ، ويتلف من لا ينساق للخلافة
ويتقاد ، ويخطف منهم كل كوكب وقاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس إليه
من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعدوّة ، واجتمعت في
ملكه اجتماع قريش بدار الندوة ، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة ، ولم يدع
السمع لخليفته والإجابة ، ظاهرٌ يخالفه الباطن ، واسم تنافره مواقع الحكم
والمواطن ، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام

١ ابن عذاري ٢ : ٤٠٧ (٢٧٣ ط . ليدن) .

الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يَبَاباً ، وملأها وحشاً وذئاباً ، وأعراها من الأمان ، برهة من الزمان ، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس . وحدّ السرور بها والثأنس ، وغزواته فيها شائعة الأثر ، رائعة كالسيف ذي الأثر ، وحسبه وافر ، ونسبه معافر ، ولذا قال يفتخر « رميت بنفسي ... الأبيات » وزاد هنا بعد قوله « أبيض باتر » بيتاً ، وهو :

ولمّني لرجاء الحيوش إلى الوغى أسود^١ تلاقيها أسود^٢ خَوَادِرُ

وكانت أمّه تميمية ، فعاز الشرف بطرفيه ، والتحف بمِطْرَقِيّه ، ولذا قال القسطلي فيه ^١ :

تلاقَتْ عليه من نعيم ويَعْرُبُ شُمُوسُ^١ تلالا في العلّا وبُدُورُ
منَ الحِمِيرِيَيْنَ الذين أَكْفُهُم سَحَابُ تَهْمِي بالنَدَى وبحورُ

وتصرّف قبل ولايته في شتى الولايات ، وجاء من التحدّث بمنتهى أمره بآيات ، حتى صَحَّ زَجْرُه ، وجاء بصُبْحُه فَجْرُه ، تَوَثَّرَ عنه في ذلك أخبار . فيها عَجَبٌ واعتبار ، وكان أديباً محسناً ، وعالماً متفتناً ، فمن ذلك قوله يَمْنِي نفسه بملك مصر والحجاز ، ويستدعي صدور تلك الأعجاز ^٢ :

مَنَعَ العينَ أنْ تَلُوقَ المناما حُبُّها أنْ ترى الصِّفا والمقاما
لي ديون^١ بالشرق عند أناسٍ قد أحلّوا بالمشعرَيْنَ الحرّاما
إنْ قَضَوْها نالوا الأمانى ، وإلاّ جَعَلُوا دونها رقاباً وهاما

١ القسطلي أبو عمر ابن دراج ؛ انظر ديوانه : ٣٠١ .

٢ الحلة ١ : ٢٧٥ ، والبيان المغرب ٢ : ٢٧٥ (ط . ليدن) .

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النبلَ خطوُها والشأما
انتهى ما نقلته من المطمح .

[أخبار في سيرة المنصور]

وفي المنصور المذكور أيضاً قال بعض مؤرخي المغرب^١ ، مازجاً كلامه
ببعض كلام الفتح ، بعد ذكر استعائته ببعض الناس على بعض ، وذكر قتله لـجعفر
ابن عليّ ، فقال بعده ما صورته : ثم انفرّد بنفسه وصار ينادي صُروف الدهر
هل من مبارز ، فلمّا لم يجدْ حصل الدهر على حكمه ، فانتهاد له وساعده ، فاستقام
أمره منفرداً بمملكة لا سلكَ له فيها ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنّه
لم يُنكب قطّ في حرب شهداها ، وما توجهت عليه هزيمة ، وما انصرف عن
موطن إلاّ قاهراً غالباً ، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء
وواجه من الأمم ، وإنّما لخاصّة ما أحسب أحداً من الملوك الإسلامية شاركه فيها ،
ومن أعظم ما أعين به مع قوّة سعده وتمكّن جده سعةُ جوده ، وكثرة بذله ،
فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، وأوّل ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق ،
وانتشر عليه لواء السعد وخفّق ، حط صاحبه المصحفيّ ، وأثار له كامن
حقده الخفيّ ، حتى أصاره للهُمُوم لبيساً ، وفي غيابات السجن حبيساً ، فكتب
إليه يستعطفه بقوله^٢ :

هَبْنِي أَسَاتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالكَرَمُ إِذْ قَادَنِي نَحْوُكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ
يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ الْإِيْدِي إِلَيْهِ أَمَا تَرْنِي لَشَيْخٍ رَمَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ

١ البيان المغرب ٢ : ٤٢٧ وبمضه في أعمال الأعلام : ٧٧ .
٢ قال ابن الأبار (الحلّة ١ : ٢٦٥) هذه الأبيات متنازعة ينسبها إل المصحفي جماعة ، وقد وجدتها
منسوبة إل أبي عمر ابن دراج القسطلي ، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق في تاريخه
أنها لكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ؛ قلت انظر البيان المغرب ١ : ١٦١ واسم الكاتب
هذا محمد بن حيون ويعرف بابن البريدي .

بَالِغَتْ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْجِمُوا رَحِمُوا
فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا حَقْقًا وَحَقْدًا ، وَمَا أَفَادَتْهُ الْأَبْيَاتُ إِلَّا تَضَرُّعًا وَوَقْدًا ،
فَرَاغَهُ بِمَا أَيَّاسُهُ ، وَأَرَاهُ مَرْمَسَهُ ، وَأَطْبِقْ عَلَيْهِ مَحْبَسَهُ ، وَضَيِّقْ تَرَوْحَهُ مِنْ
الْمَحْنَةِ وَتَنْفُسَهُ :

الْآنَ يَا جَاهِلًا زَلْتِ بِكَ الْقَدَمُ تَبْغِي التَّكْرُمَ لَمَّا فَاتَكَ الْكَرَمُ
أَغْرَيْتِ بِي مَلِكًا لَوْلَا تَثْبِيتُهُ مَا جَازَى لِي عِنْدَهُ نَطْقٌ وَلَا كَلَمُ
فَيَأْسُ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ قَدْ صِرْتَ فِي طَبَقٍ إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَقَمُوا نَقَمُوا
نَفْسِي إِذَا سَخِطْتَ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ
وَكَانَ مِنْ أَخْبَارِهِ الدَّاخِلَةِ فِي أَبْوَابِ الْبَرِّ وَالْقُرْبَةِ بِنِائِ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، إِلَى
أَنْ قَالَ ^١ :

وَمِنْ ذَلِكَ بِنَاؤُهُ قَنْطَرَةً عَلَى نَهْرِ قَرْطَبَةِ الْأَعْظَمِ ، ابْتَدَأَ بِنَاءَهَا الْمَنْصُورُ سَنَةَ
ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةً ، وَفَرَّغَ مِنْهَا فِي النِّصْفِ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ ، وَانْتَهَتْ
النَّفَقَةُ عَلَيْهَا إِلَى مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَعَظُمَتْ بِهَا الْمَنْفَعَةُ ، وَصَارَتْ
صَدْرًا فِي مَنَاقِبِهِ الْجَلِيلَةِ ، وَكَانَتْ هُنَاكَ قِطْعَةً أَرْضٍ لِشَيْخٍ مِنَ الْعَامَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ
لِلْقَنْطَرَةِ عُدُولٌ عَنْهَا ، فَأَمَرَ الْمَنْصُورُ أَمْنَاءَهُ بِإِرْضَائِهِ فِيهَا ، فَحَضَرَ الشَّيْخُ عِنْدَهُمْ ،
فَسَاوَمُوهُ بِالْقِطْعَةِ ، وَعَرَّفُوهُ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَأَنَّ الْمَنْصُورَ لَا يَرِيدُ إِلَّا إِنْصَافَهُ
فِيهَا ، فَرَمَاهُمُ الشَّيْخُ بِالْغَرَضِ الْأَقْصَى عِنْدَهُ فِيمَا ظَنَّهُ أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ ^٢ عَنْهُ بِأَقْلٍ
مِنْ عَشْرَةِ دَنَانِيرٍ ذَهَبًا كَانَتْ عِنْدَهُ أَقْصَى الْأَمْنِيَةِ ، وَشَرَطَهَا صَحَاحًا ، فَاعْتَمَ
الْأَمْنَاءُ غَفْلَتَهُ ، وَنَقَدُوهُ الثَّمَنَ ، وَأَشْهَدُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخْبَرُوا الْمَنْصُورَ بِخَبْرِهِ ،
فَضَحِكَ مِنْ جَهَالَتِهِ ، وَأَنْفَ مِنْ غِبْنِهِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى عَشْرَةُ أَمْثَالِ مَا سَأَلَ ،

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٠ ، والنقل مستمر حتى بدء النقل عن كتاب « الأزهار المنثورة » .

٢ البيان : ألا تخرج .

وتُدفع له صحاحاً كما قال ، فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يُجَنَّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور ، وصارت قصته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرة على نهر إَسْتِجَّةَ ، وهو نهر شَنِيل ، وتَجشم لها أعظم مؤنة ، وسهل الطريق الوَعْرَةَ والشعاب الصعبة .
ومن ذلك أيضاً أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يَدْرُس فيه ، ويتبرك به .

ومن قوّة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغُبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدمُ يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم ، حتى اجتمع له منه صُرّة ضخمة ، عهد بتصويره في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقّعاً لحلُولِ مَنِيَّتِهِ ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزّل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك .

وكان مُتَسِمّاً بصحة باطنه ، واعتراه بذنبه ، وخوفه من ربّه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذُكِرَ بالله ذكر ، وإذا خُوف من عقابه ازدجر ، ولم يزل متترهاً عن كل ما يفتن به الملوك سوى الخمر ، لكنّه أقلع عنها قبل موته بستين^١ ، وكان عدله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل .

ومن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه ، فنادى : يا ناصر الحق ، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك ، وأشار إلى الفتى صاحب الدركة ، وكان له فضلُ محلّ عنده ، ثمّ قال : وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت ، فقال له المنصور : أوعبد الرحمن بن فطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنتاً

١ ق ط ج : بستين .

نظنته أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصَف ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ؛ ثم نظر إلى الصَّقْلبي وقد ذُهِل عقله ، فقال له : ادفع الدرقة إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وسأول خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضجك ، ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سَجْنٍ أو غيره ، ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرّاً ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت ، اذهب لسبيلك ، وبقي انتصافي أنا ممتنّ تهاون بمتزلي ، فتناول الصَّقْلبي بأنواع من المذلّة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك ^١ قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقي ^٢ مع التاجر المغربي ، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، وإليه أمر داره وحرمه ، فدافع الحاكم ، وظن أن جأه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى ، فوكل به في الوقت من حملة إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونقاه .

ومن ذلك ^٣ قصة محمد فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفَصْد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب ؛ لِحَيْفٍ ظهر منه على أمراته قدر أن سبيله من الخدمة يَحْمِيه من العقوبة ، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصّته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٣ .

٢ البيان : بالمبورقي .

٣ المصدر نفسه ، وصدرها بقوله : ومن دهائه .

٤ محمد بن يبيّ بن زرب (المرقية العليا : ٧٧ - ٨٢) .

من عمله عنده ، ثم يرده إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب القاصد إلى شكوى ما ناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يا محمد ، إنَّه القاضي ، وهو في عدِّله ، ولو أخذني الحق ما أطق الامتناع منه ، عدُّ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك ، فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته للقاضي ، فصالحه مع زوجته ، وزاد القاضي شدةً في أحكامه . وقال ابن حيَّان^١ : إنَّه كان جالساً في بعض الليالي ، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر ، فلما بأحد القُرَّسان وقال له : انهض الآن إلى فجع طليارش وأقم فيه فأول خاطر يخاطر عليك سقِّه إليَّ ، قال : فنهض الفارس وبقي في الفجع في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه ، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هَرَم على حمار له ، ومعه آلة الخطب ، فقال له الفارس : إلى أين تريد يا شيخ ؟ فقال : وراء حطب ، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً ، فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ قال : فركبته ، فسار عني قليلاً ، ثم فكرت في قول المنصور ، وخفت سَطَوته ، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : ارجع إلى مولانا المنصور ، فقال له : وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي ، فقال له الفارس : لا أفعل ، ثمَّ قدم به على المنصور ، ومثله بين يديه وهو جالس لم يَسْمَ ليلته تلك ، فقال المنصور للصقالبة : فتشوه ، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً ، فقال : فتشوا برذعة حماره ، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقبِلوا ويضربوا في إحدى النواحي الموطومة^٢ ، فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة ، فضربت أعناقهم ، وضربت رقبة الشيخ معهم .

١ المصدر نفسه : ٤٣٤ .

٢ في ج : المرطومة ؛ والموطومة (قراءة ط ك) لعلها الأرض التي كثر فيها الوطم وهو نبات يشبه الأذخر ، وذلك تأويل بعيد ، وأقدر أن تكون مصحفة عن «الموصوفة» أي التي وصفت في الكتاب .

ثم ذكر هذا المؤرخ^١ قصة الجوهري التي قدمنا نقلها من مغرب ابن سعيد ، ولكننا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرخ ، لأنه أتمّ مساقاً إذ قال عطفاً على دهائه : ومن ذلك قصة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلاً جوهرياً من تجّار المشرق قصد المنصور من مدينة عدّان بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسّنه ، ودفع إلى التاجر الجوهري صُرّته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شطّ النهر ، فلما توسّطها واليوم قانظ وعرقه منصبّ دَعَتَه نفسه إلى التبرّد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصّرة^٢ على الشطّ ، فمرّت حِدَاة فاخترقت الصّرة تحسبها لحماً ، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عينُ التاجر ، فقامت قيامته ، وعلم أنّه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسرّ الحزن في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجّار فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل^٣ من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصّته ، فقال له : هلاًّ أتيت إلينا بحيدّتان وقوع الأمر فكنا نستظهر على الحيلة ، فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال : مرّ مشرقاً على سَمْت هذا الجبل الذي يلي قصرك ، يعني الرملة ، فدعا المنصور شُرْطيّه الخاص به ، فقال له : جثني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمّن غير حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضافة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك ثمّ قالوا : يا مولانا ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٥ ؛ وانظر ص : ٤٠١ فيما سبق .

٢ بمض النسخ : وترك الصرة .

٣ بمض النسخ : ما نال الزجل .

بالغدو^١ إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سَبَب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هوذا يا مولاي ، وضرب بيده إلى حُجْزَة سَرَائِيلَه فأخرج الصُّرَة بعينها ، فصاح التاجر طَرَبًا ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور : صِف لي حديثها ، فقال : بَيْنَا أنا أعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي ، فأخذتها وراقني منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من قَصْرِكَ لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صُرَّتَكَ وانظرها واصدقني عن عددها ، ففعل وقال : وحقَّ رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له ، فقال المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا نُنْغِصُ^١ عليك فرحك ، ولولا جَمْعُهُ بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره ، وللجنَّان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بدَّأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاءً ، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأُبْثِنَ^٢ في الأقطار عظيم ملكك ، ولأُبْثِنَ^٢ أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذي جارك ، فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك ، فعجب الناس من تلطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كُرْبَتِهِ . ثم حكى هذا المؤرخ^٣ غزوة المنصور لمدينة شنت ياقُبَ قاصية غليسية ، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت

١ ق ط : ننقص .

٢ ق ط : ولأبثن .

٣ البيان المغرب ٢ : ٤٣٩ وهذه بداية ج ، فأما في ق ك فقد بدأ بقوله « ومن ذلك » وذلك خطأ لأن القصة ليست من قصص الدهاء التي مرت أمثلها . وفي ط بياض .

كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلفون ، وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المَرْوَر فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر ، وكان أخصّهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمّونه أخاه للزومه إياه ، وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقري الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه ريمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبعد سُقَّتْها ، فخرج المنصور إليها من قُرْطُبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بَقَيْنَ من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قُورِيّة ، فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المسلمين ، وركبوا في المَغَاوِرَ سبيلهم ، وكان المنصور تقدّم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس^١ من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعدّد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دُويره^٢ ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك ، ووجّه^٣ المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند ، فتوسّعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب^٤ ، فقطع أرضين متباعدة الأقطار ،

١ قصر أبي دانس (Alcacer do Sal) مرسى الأسطول ، على ساحل البرتغال جنوبي الأشبونة (لشبونة) .

٢ نهر دويره (Duero = Duoro) يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي .

٣ دوزي : ووزع ؛ مطابقة المعنى نقلا عن البيان المغرب .

وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدّها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش^١ وما يتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدلاء إلى سواه ، فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادي منيه^٢ ، وانبط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة ، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان^٣ وبسيط بلبنو^٤ على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلاية^٥ ، وغنموه ، وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبّوا من فيها ممن لجأ إليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية^٦ المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخلّوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء إليهما ، ثم نهر أيلة^٧ ، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة^٨ ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها ، وعقّوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً

١ البيان المغرب : فلطارش .

٢ منيه = منيو أو منهو (Minho = Rio Mino) .

٣ بعض النسخ : قسان .

٤ البيان المغرب : بلبنوط ، وفي نسخة : بيلنوا .

٥ شنت بلاية : (San Pelayo) .

٦ مراسية (Morrazo) .

٧ أيلة (Ulla) .

٨ زاد في البيان : منها بسيط أونبة وقرجيلة ودير شنت برية .

كأن لم تَغْنِ بالأمس ، وانتسفت بعوْثُه بعد ذلك سائرَ البسائط ، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيْل مَجَال ، ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقُوبَ وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردون ليستقره عائثاً ومفسداً ، حتى وقع في عمل القوامس المفاهدين الذين في عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومرَّ مجتازاً حتى خرج إلى حصن بليقية^١ من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بليقية ، وكان مبلغ ما كساه في غزّاته هذه للملوك الروم ولن حَسَنَ غَنّاوُه من المسلمين ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شُقّة من صنوف الخز الطرازي ، وأحدأ وعشرين كساء من صوف البحر ، وكسّاءين عنبرين ، وأحد عشر سقلاطوناً ، وخمس عشرة مريشاً ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبي ديباج رومي ، وفرّوي فنك ، ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً ، وعظمت النعمة والمنّة على المسلمين ، ولم يجد المنصور بشنت ياقُوبَ إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونسُ يعقوبَ ، فأمر بالكف عنه .

قال^٢ : وحدثت شعلة قال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علّة العصب ، فقال : يا شعلة ، الملك لا ينام إذا نامت الرعيّة ، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

* * *

١ ابن عذاري : مليقه ، ولعلها لميقه = لاميجو (Lamego) .

٢ ليس هذا الخبر في البيان المغرب وإنما هو في أعمال الأعلام : ٧٦ .

[أخبار المنصور من كتاب الأزهار المنثورة]

وقد رأيت أن أذكر هنا أخباراً ، نقلتها من كتاب « الأزهار المنثورة » ، في الأخبار المأثورة ^١ .

قال في الزهرة التاسعة والعشرين : تقدم إلى المنصور وانرمار بن أبي بكر البرزالي أحد جند المغاربة ، وقد جلس للعرض والتميز ، والميدان غاص بالناس ، فقال له بكلام يضحك الثكلى : يا مولاي ، ما لي ولك ، أسكنتني فإني في الفحص ، فقال : وما ذاك يا وانرمار ؟ وأين دارك الواسعة الأقطار ؟ فقال : أخرجتني عنها والله نعمتك ، أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها ، وأنا ببربري مجوع حديث عهد بالبؤس ، أتراني أبعد القمح عني ؟ ليس ذلك من رأيي . فتطلق المنصور وقال : لله درك من فذة عيسى ، لعيتك في شكر النعمة أبلغ عندنا ، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متريد وبلغ متفنن ، وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس فقال : يا أصحابنا ، هكذا فلتشكر الأيادي وتستدام النعم ^٢ ، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم ، والتشكي المبرح ، وأمر له بأفضل المنازل الحالية .

وفي الموفية ثلاثين ما نصه : أصبح المنصور صبيحة أحد ، وكان يوم راحة الخدمة الذي أعفوا فيه من قصد الخدمة ، في مطر وابل غب أيام مثله ، فقال : هذا يوم لا عهد بمثله ، ولا حيلة للمواظين لقصدنا في مكابדתه ، فليت شعري هل شذ أحد منهم عن التقدير فأغرب في البكور ؟ أخرج وتأمل ، يقوله لحاجبه ، فخرج وعاد إليه ضاحكاً ، وقال : يا مولاي ، على الباب ثلاثة من البرابرة : أبو الناس ابن صالح واثان معه ، وهم بحال من الليل إنما توصف بالمشاهدة ، فقال : أوصلهم إلي وعجل ، فدخلوا عليه في حال الملاح بلا

١ لم أعتد إلى مؤلفه ، وأرجح أنه ابن سعيد ، وأنه « كتاب الزهرات » الذي ينقل عنه ابن هذيل في كتابه « عين الأدب والسياسة » وينسبه لابن سعيد .

٢ ق ج ط ودوزي : واستديموا النعم .

ونَدَاوَة ، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم ، وقال : خبروني كيف جئتم ؟ وعلى أي حال وصلتم ؟ وقد استكان كل ذي روح في كتفه ، ولاذ كل طائرٍ بوكَّره ، فقال له أبو الناس بكلامه : يا مولانا ، ليس كل التجار قعد عن سوقه ، وإذا عُدَّ التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها باليدَ ومن غير رؤوس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابهم ، ونحن نأتيك على خيالك ، ونذيلُ على صهواتها ملابسك ، ونجعل الفضلَ في قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا ؟ فضحك المنصور ودعا بالكُسا والصُّلات ، فدُفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغلوتهم .

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نصّه : كان بقُرْطُبَة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رَقَّتْ حاله في الطلب ، فتعلّق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتى قلَّد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلما ضمَّ إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له : يا فاسق ، ما الذي جرّأك على مال السلطان تنتهبه ؟ فقال : قضاء غلب الرأي ، وفقر أفسد الأمانة ، فقال المنصور : والله لأجعلنك نكالاَ لغيرك ، ليُحضَرَ كبَلٌ وحدّاد ، فأحضرا ، فكبّل الفتى وقال : احملوه إلى السجن ، وأمر الضابط بامتحانهِ والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أَوَاهُ أَوَاهُ وَكَمْ ذَا أَرَى أَكْثَرُ مِنْ تَذْكَارِ أَوَاهِ
مَا لَامَرَى حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ لِلَّهِ

فقال المنصور : ردوه ، فلما رُدَّ قال : أتمثلت أم قلت ؟ قال : بل قلت ، فقال : حلُّوا عنه كبَله ، فلما حلَّ عنه أنشأ يقول :

١ ك : تكرر .

أَمَا تَرَى عَقْوَ أَبِي عَامِرٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَّبِعَهُ مِنْهُ
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَفَا عَنْ عَيْبِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ

فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَسَوَّغَهُ ذَلِكَ الْمَالُ ، وَأَبْرَأَهُ مِنَ التَّبَعَةِ فِيهِ .
وَفِي الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ : عُرِضَ عَلَى الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ اسْمُ أَحَدِ خَدَمِهِ
فِي جُمْلَةٍ مَنْ طَالَ سَجْنُهُ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَقْدِ عَلَيْهِ ، فَوَقَعَ عَلَى اسْمِهِ بِأَنْ لَا
سَبِيلَ إِلَى إِطْلَاقِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِأَمِّهِ الْهَاقِيَةِ ، وَعُرِفَ الرَّجُلُ بِتَوَقُّعِهِ ، فَاعْتَمَ
وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ ، فَأَرَقَ الْمَنْصُورُ إِثْرَ ذَلِكَ ، وَاسْتَدْعَى النَّوْمَ
فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَأْتِيهِ عِنْدَ تَنَوُّعِهِ آتٍ كَرِيهُ الشَّخْصِ عَنيفٍ لَأَخْذِ أَمْرِهِ
بِإِطْلَاقِ الزُّجْلِ ، وَيَتَوَعَّدُهُ عَلَى حَبْسِهِ ، فَاسْتَدْفَعَ شَأْنَهُ مَرَارًا إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ
نَذِيرٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَدَعَا بِالدَّوَاءِ فِي مَرَقَدِهِ فَكُتِبَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَقَالَ فِي
كِتَابِهِ : هَذَا طَلِيقُ اللَّهِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ زَمَانًا بِمَا
كَانَ مِنْهُ .

وَفِي الثَّامِنَةِ وَالْأَرْبَعِينَ ٢ مَا نَصَّه : انْتَهَتْ هَيْبَةُ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ
وَضَبْطُهُ لِلْجُنْدِ وَاسْتِخْدَامُ ذُكُورِ الرِّجَالِ وَقُوَّامِ الْمُلْكِ إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَصِلْهَا مَلِكٌ
قَبْلَهُ ، فَكَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمِيدَانِ عَلَى لِحْتِفَالِهِ مِثْلًا فِي الْإِطْرَاقِ ، حَتَّى إِنْ لَحِيزَ
لِتَمَثُّلِ إِطْرَاقِ فَرَسَانِهَا فَلَا تُكْثِرُ الصَّهِيلُ وَالْحَمْحَمَةُ ، وَلَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى
بَارِقَةِ سَيْفٍ قَدْ سَكَّهَ بَعْضُ الْجُنْدِ بِأَقْصَى الْمِيدَانِ لَهْزَلٍ أَوْ جَدٍّ بِحَيْثُ ظَنَّ أَنَّ لِحْظَ
الْمَنْصُورِ لَا يَنَالُهُ ، فَقَالَ : عَلَيَّ بِشَاهِرِ السَّيْفِ ، فَمِثْلَ بَيْنِ يَدَيْهِ لَوْقَتِهِ ، فَقَالَ :
مَا حَمَلْتُكَ عَلَى أَنْ شَهَرْتَ سَيْفَكَ فِي مَكَانٍ لَا يُشْهَرُ فِيهِ إِلَّا عَنْ إِذْنٍ ؟ فَقَالَ :
إِنِّي أَشَرْتُ بِهِ إِلَى صَاحِبِي مُغْمَدًا فَزَلِقَ مِنْ غَمْدِهِ ، فَقَالَ : إِنْ مِثْلَ هَذَا لَا
يَسُوغُ بِالْدَّعْوَى ، وَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بِسَيْفِهِ ، وَطُيِفَ بِرَأْسِهِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ
بِذَنْبِهِ ، وَانْتَهَى .

١ ك : فَاغَمَّ . وَاعْتَمَ .

٢ ك : وَفِي السَّادَةِ وَالْأَرْبَعِينَ .

وحكى غير واحد أن المنصور كان به داء في رجله ، واحتاج إلى الكي فامر الذي يكونه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ويفري الفري في أموره ، ورجله تكوى والناس لا يشعرون ، حتى شمتوا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكثر .

وأخبره - رحمه الله تعالى - تحتل مجلدات ، فلنمسك العنان ، على أننا ذكرنا في الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره ، رحمه الله تعالى ، فلترجع إلى آخره .

• • •

[عود إلى النقل عن المطمح]

وقال الفتح في المطمح^٢ : وكان مما أعين به المنصور على المصحفي ميل الوزراء إليه ، وإيثارهم له عليه ، وسعيهم في ترقيه ، وأخذهم بالعصية فيه ، فإنها وإن لم تكن حمية أعرابية ، فقد كانت سلفية سلطانية ، يقتني القوم فيها سبيل سلفهم ، ويمنعون بها ابتذال شرفهم ، غادروها سيرة ، وخلّفوها عادة أثيرة ، تشاح الخلف فيها تشاح أهل الديانة ، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية ، ولا يتعاقد لها راية^٣ ، فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ، ووّضعه من أثرته حيث وّضعه ، وهو نزيح بينهم ونابغ^٤ فيهم ، حسدوه وذمّوه ، وخصّوه بالمطالبة وعمّوه ، وكان أسرع صنف الطائفة من أعمالي الوزراء وأعظم الدولة إلى مهاودة المنصور

١ ك : وفي السابعة والأربعين ؛ ق : وفيه ؛ وفي ط بياض .

٢ بياض في ط ؛ وفي ك : وفي الثامنة والأربعين ؛ وفي ج : قال في المطمح ؛ والنص في المطمح :

٧ وفي البيان المغرب ٢ : ٤٠٥ (٢ : ٢٧١ ط . ليدن) .

٣ ابن عذاري : لا يدرك ولا يلحق . ق : ولا يناقد ؛ ط : ولا يناقد .

٤ دوزي : وتابع ؛ ج : ونابغ .

عليه ، والانحراف عنه إليه ، آل أبي عبدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الردافة^١ ، من أولي الشرف والإنافة^٢ ، وكانوا في الوقت أزيمة الملك وقوام الخدمة ، ومصاييح الأمة ، وأغير الخلق على جاه وحرمة ، فأحفظوا محمد بن أبي عامر مشايعة ، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة ، وشادوا بناءه ، وقادوا إلى عنصره سناءه ، حتى بلغ الأمل ، والتحف بمناء واكتحل^٣ ، وعند الثام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة ، وأيقن بالنكبة ، وزوال الحال وانتقال الرتبة ، وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير ، وانقبض الناس من الرواح إليه والتبكير ، واثالوا على ابن أبي عامر ، فخف موكبه ، وغار من سماء العز كوكبه ، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه ، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها ، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها ، حتى محاه ، وهتك ظله^٤ وأضحاه ، قال [محمد^٥] بن إسماعيل : رأيت يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يلدم ، وجوارحه باللواعج تضطرم ، ووائق الضاغيط ينهره ، والزعم يقهره ، والبحر والسن قد هاضاه^٦ ، وقصراً خطاه ، فسمعتة يقول : رفقاً بي فستدرك ما تحبه وتشتهيه ، وترى ما كنت ترتجيه ، ويا ليت أن الموت يباع فأغلي^٧ سؤمه ، حتى يردّه من أطال عليه حومه ، ثم قال^٨ :

لا تأمن من الزمان قلباً إن الزمان بأهله يتقلب

١ ق ط ج : الردانة .

٢ ق ط ج : والأمانة .

٣ المطمح : والتحف يمينه بمناء واشتمل .

٤ المطمح : ظلاله .

٥ زيادة من المطمح .

٦ المطمح : والزعم والبحر قد هاضاه .

٧ دوزي : فأغلى الله .

٨ انظر أيضاً الحلة ١ : ٢٦٧ .

ولقد أُراني والليوثُ تخافني فأخافني من بعدِ ذاك الثعلبُ
حَسْبُ الكريمِ مذلةٌ ومهانةٌ أن لا يزال إلى لثيمٍ يطلبُ

فلما بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلم على أحد ، أو يوميء إليه
بعين أو يد ، فلما أخذ مجلسه تسرع إليه الوزير محمد بن حَقَص بن جابر فعنه
واستجفاه^١ ، وأنكر عليه ترك السلام وجفاه ، وجعفر مُعرض عنه ، إلى أن كثر
القول منه ، فقال له : يا هذا ، جهلت المبرة فاستجهلت معلمها^٢ ، وكفرت
النعم^٣ فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نُكُرا ، لكان غيرك
أدري ، وقد وقعت في أمر ما أظنك تخلص منه ، ولا يسعك السكوت عنه ،
ونسيت الأيادي الجميلة ، والمبرات الحليلة ، فلما سمع محمد بن حفص ذلك من
قوله قال : هذا البهت بعينه ، وأي أياديك الغر التي مننت بها ، وعيَّنت
أداء واجها ؟ أيدُ كذا أم يد كذا ؟ وعدَّ أشياء أنكرها منه أيام إمارته ،
وتصرف الدهر طوع إشارته ، فقال جعفر : هذا ما لا يُعرف ، والحق الذي
لا يُردُّ ولا يُصرف ، دفعي^٤ القطع عن يمينك ، وتبليغي لك إلى مُناك ، فأصرَّ
محمد بن حَقَص على الجحد ، فقال جعفر : أنشدُ الله من له علم بما أذكره ،
إلا اعترف به فلا ينكره ، وأنا أخرج إلى السكوت ، ولا تحجب دعوتي فيه
عن الملكوت ، فقال الوزير أحمد بن عباس^٥ : قد كان بعض ما ذكرته يا أبا
الحسن ، وغير هذا أولى بك ، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وظلمك ، فقال :
أخرجني الرجل فتكلمت ، وأخرجني إلى ما به أعلمت ، فأقبل الوزير ابن
جَهْزور على محمد بن حَقَص وقال : أسأت إلى الحاجب ، وأوجبت عليه غير

١ ق ط ج : واستجفاه .

٢ المطمح والبيان : عالمها .

٣ المطمح : وكفرت اليد .

٤ ق ط ج : دفعي .

٥ البيان المغرب : أحمد بن عياش .

الواجب ، أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل
ألزهمهم الرد لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا
أَوْ رُدُّوها ﴾ (النساء : ٨٦) فإن فعلوا لطف بهم من إنكار السلطان ما يخشى
ويخاف ، لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا
الله ، فصار الإمساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن ؛ فانكسر
ابن حفص ، وخجل مما أتى به من النقص .
وبلغه أن قوماً توجهوا له ، وتفجعوا مما وصله ، فكتب إليهم :

أحينٌ إلى أنفاسِكُمْ فَأَظْنِهَا بَوَاعِثِ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي
وإنَّ زماناً صرْتُ فيه مُقَيِّداً^١ لِأَثْقَلِ مِنْ رَضْوَى وَأَضْيَقُ مِنْ رَمْسِ
انتهى ما ترجم به المنصور بن أبي عامر .

* * *

[عبد الملك المظفر الحاجب]

ولنرجع^٢ فنقول : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر
أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو ، وكانت أيامه أعياداً دامت
مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع ، تشبيهاً بسابع العروس ، ولم يزل مثل
اسمه مظفراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرم ، وقيل : سنة
ثمان وتسعين .

وكانت المعز بن زيري ملك مغرّابة بعد أن استرجع فاساً والمغرب لآثر
موت أبيه ، فكتب له العهد على المغرب ، واثارت الطوائف في ممالكهم ،
وتحركت الحلالقة لاسترجاع معاقلم وحصونهم .

* * *

١ نسخة : مفنداً .

٢ انتهى . . . ولنرجع : سقط من بعض النسخ ؛ وفي ق : انتهى كلام ابن أبي عامر فنقول .
وسقطت لفظة « كلام » من ط ج .

[عبد الرحمن شنجول]

قال ابن خلدون ^١ : ثمّ قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وقيل : بالمأمون ، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام ، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ، ثمّ ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده ، فأجابه ، وأحضر لذلك الملاء من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن بُرد بما نصّه ^٢ : « هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصّة ، وأعطى به صفة يمينه ببيعة تامّة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمّه ما جعل الله إليه من الإمامة ، وعصّب به من أمر المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف ، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه ، وملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلقي ربه تبارك وتعالى مُفَرَّطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ، وتقصّي عند ذلك من أحياء قریش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجه يدينه وأمانته ، وهديته وصيانته ، بعد اطراح الهوى ، والتحرّي للحق ، والتزلف ^٣ إلى الله جل جلاله بما يرضيه ، وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه وكرم خيمه

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ ؛ وسقطت عبارة « قال ابن خلدون » من ط ج ؛ وفي ج : ولما هلك المظفر قام . . . الخ .

٢ انظر هذا العهد أيضاً في أعمال الأعلام : ٩١ والبيان المغرب ٣ : ٤٤ ، وابن برد كاتب العهد هو أحمد بن برد أبو حفص الوزير المعروف بابن برد الأكبر تمييزاً له عن حفيده ابن برد الأصغر ، وكان الجد رئيساً مقدماً في الدولة العامرية توفي سنة ٤١٨ (جذوة المقتبس : ١١١) .

٣ ك : والزلفى .

وشرف مرتبته وعلو منصبه ، مع ثقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، أبي المطرف^١ عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر ، وفقه الله ؛ إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً في الخيرات ، سابقاً في الحكيات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه ، ويحوي من خلال الخير ما حواه ؛ مع أن أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالع من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، يرى أن يكون ولي عهد القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معتدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته ، طائعاً راضياً مجتهداً ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازته ، وأنجزه وأفضلته ، ولم يشرط فيه مشنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول^٢ ، وأشهد الله على ذلك والملائكة ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد [من أوقع اسمه في هذا]^٣ وهو جائر الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي هذه المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى ، وقوله ما قلده ، وإلزامه نفسه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى

١ في الأصول : أبي المظفر .

٢ أعمال الأعلام : ولا يتأول .

٣ ساقطة من أصول النسخ ، مثبتة في أعمال الأعلام .

بعدها بولي العهد^١ .

ونقم عليه أهل الدولة ذلك^٢ ، فكان فيه حتفه ، وانقراض دولته ودولة قومه ، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين ، فغصّوا بأمره ، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرة إلى اليمينية ، فاجتمعوا لشأنهم ، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم ، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الخلافة في غزاة من صوائفه ، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وخلعوا هشاماً المؤيد .

* * *

[بيعة المهدي بالله]

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء ، ولقبوه المهدي بالله ، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثغر ، فانفضّ جمعه ، وقفل إلى الحضرة مدلاً بمكانه ، زعيماً بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، وبايعوا المهدي القائم بالأمر ، وأغرّوه بعبد الرحمن الحاجب ، لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر ، فاعترضه منهم من قبض عليه ، واحترّ رأسه ، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة . وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ، والله عاقبة الأمور .

وفي المهدي يقول بعضهم :

قَدْ قَامَ مَهْدِيْنَا وَلَكِنْ بِمِلَّةِ الْفَسَقِ وَالْمُجُونِ

١ في أعمال الأعلام والبيان المغرب : وهذا الكتاب نسختان ، أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد ابن عبد الله بن ذكوان ويليّه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً ، يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة .

٢ لا يزال النقل في هذه الفقرة والتي تليها مستمراً عن ابن خلدون .

وشارك الناس في حريم لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجماً فاليوم قد صار ذا قرون

[خبر الفتنة البربرية]^١

وكان رؤساء البربر^٢ وزناة لحقوا بالمهدي لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره ، وكانت الأموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامرين ، وتنسب تغلب المنصور وبنيه^٣ على الدولة إليهم ، فسخطهم القلوب ، وخزرتهم العيون ، ولولا ما لهم من العصية لاستأصلهم الناس ، ولغطت^٤ السنة الدهماء من أهل المدينة بكراتهم ، وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ، ورد بعض رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر ، فانتهبت العامة دورهم ، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم ، فاعتذر [إليهم]^٥ وقتل من اتهم من العامة في أمرهم ، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم ، مجاهر بسوء الناء عليهم ، وبلغهم أنه يريد الفتك بهم ، فتمشت رجالاتهم ، وأسروا نجواهم ، واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، وفشا في الخاصة حديثهم ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك ، وأغرى بهم السواد الأعظم ، فثاروا بهم ، وأزعجهم عن المدينة ، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر ، وأحضرا بين يدي المهدي ، فضرب أعناقهما .

١- تفصيل الخبر عن هذه الفتنة عند ابن عذاري ٣ : ٥٠ - ١١٩ وفي أعمال الأعلام : ١٠٤ - ١٢٨

والذخيرة ١ / ١ : ٢٤ - ٤٠ .

٢ انظر تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥٠ .

٣ ك : وغيره .

٤ ط : ولغظت .

٥ إليهم : سقطت من ق ط ج ك .

ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتوامروا ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة ، فاستجاش بابن أذفونش ، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة ، وبرز إليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ، ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة . ولحق المهدي بطليطلة . واستجاش^١ بابن أذفونش ثانية ، فنهض معه إلى قرطبة ، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر^٢ من ظاهر قرطبة ، ودخل قرطبة - أعني المهدي - وملكها ، وخرج المستعين مع البربر ، وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبْقُون على أحد ، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتباعهم ، فكروا عليهم ، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين إلى قرطبة ، فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك ينفعه ، وهيات ، وحاصروهم المستعين والبربر ، فخشي أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي وأن الفتنة إنما جاءت من قبله ، وتولى كبير ذلك واضح العامري ، فقتلوا المهدي ، واجتمع الكافة على المؤيد ، وقام واضح بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئاً ، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعُدمت المرافق ، وجهدهم الحصار ، وبعث المستعين إلى أهل [ابن] أذفونش يستقدمهم^٣ لمظاهرة ، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التي كان المنصور

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥١ .

٢ عقبة البقر (El-Vacar) على عشرين كيلومتراً شمالي قرطبة .

٣ ق : يستقدمهم ؛ ج : يستلهم .

افتتحها^١ ، فسكن عن مظاهرتهم عزم^٢ أذفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل
المستعين^٣ قرطبة ومن معه من البربر عتوة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام
سرّاً ، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نسايم وأبنائهم .

وظن المستعين^٤ أن قد استحكم أمره ، وتوثبت^٥ البرابرة والعبيد على الأعمال ،
فولوا المدن العظيمة ، وتقلدوا البلاد^٦ الواسعة ، مثل باديس بن حبّوس في
غرناطة ، والبرزالي في قرمونة ، واليفرني في رندة ، وخزرون^٧ في شريش ،
وافترق شمل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل
الدولة ، مثل ابن عبّاد بإشبيلية ، وابن الأفطس ببطنية^٨ ، وابن ذي النون
بطليلة ، وابن أبي عامر ببكنسية ، وابن هود بسرّ قسطة ، ومجاهد العامري
بدانية والجزائر وكان ماثلاً لبني حمّود يهجو سليمان المستعين :

لا رَحِمَ الله سُلَيْمَانَكُمْ فَإِنَّهُ ضِدَّ سُلَيْمَانَ
ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ شَيَاطِينُهَا وَحَلَّ هَذَا كُلَّ شَيْطَانٍ
فَبَاسْمِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا لَهْلَكَ سَكَانَ وَأَوْطَانٍ

وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات
مستريحاً بها إلى خواصّه ، وهي قوله :

حلفتُ بمن صلتى وصام وكبّراً لأغمدّها فيمن طغى وتجبّراً^٩
وأبصر دين الله تحيا رسومه فبدّل ما قد لاح منها^{١٠} وغيرا

١ ابن خلدون : اقتحمها .

٢ لا يزال النقل عن ابن خلدون مستمراً .

٣ ق : وترتبت .

٤ بعض النسخ : الأعمال .

٥ ق ج ط ك : وهرزون .

٦ بياض في ط ، وفي ك : قال ابن خلدون . وفي ق : وقال الشاعر .

٧ ق : وتكبرا .

٨ ك : كان منه .

فَوَاعِجَا مِنْ عَبْشَمِيٍّ مَمْلَكٍ بَرَعَمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرُّبَرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكْمًا مَحَرَّرَا
فَإِمَّا حَيَاةٌ تُسْتَلَذُّ بِفَقْدِهِمْ وَإِمَّا حِمَامٌ لَا نَرَى فِيهِ مَا زَرَى

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المرواني فقال :

قَدْ بَلَغَ الْبَرَبْرُ فِينَا بِنَا مَا أَفْسَدَ الْأَحْوَالَ وَالنَّظْمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لَمَّا أَضْمَى
قَوْمُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةٌ تُزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرَّغْمَا
إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ ، أَوْ لَا نَرَى مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى

وكان عليُّ بن حَمَوْدَ الْحَسَنِي وَأَخُوهُ قَاسِمٌ مِنْ عَقَبِ إِدْرِيسٍ مَلِكِ فَاسٍ
وبانيها قد أجازوا مع البربر من العُدُوَّةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، فَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ ،
وَاعَصَوْصَبَ عَلَيْهِمُ الْبَرَبْرُ ، فَمَلَكُوا قَرْطُبَةَ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَقَتَلُوا
الْمُسْتَعِينَ ، وَمَحَّوْا مَلِكَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِي خَلْفٍ مِنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ ،
ثُمَّ رَجَعَ الْمَلِكُ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ .

وكان المستعين المذكور أديباً بليغاً ، ومن شعره يعارض هرون الرشيد
في قوله ^١ :

ملك الثلاث الآنسات عناني

الأبيات - قوله :

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ سَحَرًا فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وَأَقَارِعُ الْأَهْوَالِ لَا مُتَّهَبًا مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهِجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدُّمَى زُهِرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ

١ الذخيرة ١ / ١ : ٣٣ والبيان المغرب ٣ : ١١٨ والحلة ٢ : ٨ - ٩ والجنوة : ٢٠ - ٢١ .

٢ ك : لحظ .

ككواكب الظلّماء لُحْنٌ لناظري مِنْ فوقِ أغصانٍ على كُثبانٍ
حاكمتُ فيهنَّ السلوَّ إلى الرضى^١ فقضى بسُلطانٍ على سلطاني
هذي الهلالُ، وتلك بنتُ المشتري حُسْنًا، وهذي أختُ غُصْنِ البانِ
فأبْحَنَ من قلبي الحمى وتركني في عِزِّ ملكي كالأسير العاني
لا تعذّلوا ملكاً تذلل في الهوى ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملك ثاني
ما ضَرَّ أنِّي عبْدُهُنَّ صَبَابَةٌ وبنو الزمان وهُنَّ من عبْداني
إن لم أطع فيهنَّ سلطانَ الهوى كَلَفًا بهنَّ فليستُ من مَرَّوانِ

* * *

[بنو حمّود]^٢

وولي الأمر بعده علي^٣ بنُ حمّود الحسني ، تلقّب بالناصر ، وخرج عليه العيدُ وبعض المغاربة ، وبايعوا المرتضى أخا المهدي ، ثم اغتيل المرتضى ، واستقام الملك لعلي بن حمّود نحو عامين ، إلى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة ، فولي مكانه أخوه القاسم ، وتلقّب بالمأمون ، ونازعه الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابنُ أخيه ، وكان على سبّته ، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر ، واحتل بمالقة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما ، فبعثه إلى سبّته ، ثم زحف يحيى إلى قرطبة فملكها سنة ثني عشرة وأربعمائة ، وتلقب المعتلي ، وفرّ عمّه المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عبّاد ، واستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة وملكها ، ثم لحق المعتلي بمكانه من مالقة ، وتلقّب على الجزيرة الخضراء وتغلّب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر ، وكان المأمون يعتدّها حصناً لنفسه ، وفيها ذخائره ،

١ ك : الهوى ؛ دوزي : الصبا .

٢ انظر جذوة المقتبس ٢١ - ٢٤ في الحموديين .

٣ وولي . . . علي : موضعها بياض في ط ؛ وفي ج : ولما ملك علي . . . الخ . وفي ق : ثم إن ابن حمود . . . الخ .

فلما بلغه الخبر اضطرب ، وثار عليه أهل قرطبة ، ونقضوا طاعته ، وخرج
فحاصروهم فدافعوه ، ولحق بإشبيلية فمنعوه ، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه ،
وضبطوا بلدهم ، واستبدَّ ابنُ عباد بملكها ، ولحق المأمون بشرش ، ورجع
عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه ، فبايعوه سنة خمس عشرة ، وزحف إلى
عمّه المأمون فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالقة إلى أن
هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين ، وقيل : إنه خُنف كما سيأتي ، واستقل المعتلي
بالأمر ، واعتقل ابني عمّه القاسم .

وكان المستكفي من الأمويين استولى على قرطبة في هذه المدة عندما أخرج
أهلها العلوية ، ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة ، وصاروا
إلى طاعة المعتلي ، واستعمل عليهم ابن عطاف من قبيلة ، ثم نقضوا سنة سبع
عشرة ، وصرفوا عاملهم ، وبايعوا للمعتد الأموي أخي المرتضى ، وبقي
المعتلي يردّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون
والمدائن له ، فعلا سلطانه ، واشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ، اغتاله
أصحابه بدسيسة ابن عبّاد الثائر بإشبيلية ، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس
ابن علي [بن حمود] من سبّنة وملّكوه ، ولقبوه المتأيّد ، وبايعته رُنْدَة
وأعمالها والمريّة والجزيرة الخضراء ، وبعث عساكره لحرب أبي القاسم إسماعيل
ابن عبّاد والد المعتضد بن عباد ، فجاءوه برأسه بعد حروب ، وهلك ليومين بعد
ذلك سنة إحدى وثلاثين ، وبويع ابنه يحيى ، ولم يتم له أمر ، وبويع حسن
المستنصر بن المعتلي ، وفر يحيى إلى قمارش^٢ فهلك بها سنة أربع وثلاثين ، ويقال :
إنّه قتله نجا ، وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمّه إدريس ، تأرت منه بأخيها ،
وكان إدريس بن يحيى المعتلي معتقلاً بمالقة فأخرج بعد خطوط وبويع
بها ، فأطاعته غرناطة وقرمونة ، ولقب العالي ، وهو الممدوح بالقصيدة

١ في الأصول : بني .

٢ قمارش (Comares) .

المشهورة بالمغرب التي قالها فيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القيذاقي^١
الأشبوني من شعراء الذخيرة ، وهي :

ذَرَقْتُ عَيْنَكَ بِالماءِ ^٢ المَعِينِ	الْبِرْقِ لائِحٍ مِنْ أَنْدَرِينَ
كَمْ خَارِقَ بِأَيْدِي اللَّاعِينَ	لَعِبْتُ أَسَافُهُ عَارِيَةً
وَلِقَلْبِي زَفَرَاتٌ وَأَنِينَ	وَلِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وَحْنِينَ
وَيْكَ لَا أَسْمَعُ ^٣ قَوْلَ الْعَاذِلِينَ	وَأَنَا حِي فِي الدُّجَى عَاذِلَتِي
إِنَّ هَذَيْنِ لَدَيْنُ الْعَاشِقِينَ	عَبَّرَتْنِي بِسِقَامٍ وَضُنَى
فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الْأَذِينَ	قَدْ بَدَأَ لِي وَضَحُ الصُّبْحِ الْمُبِينِ
لَبِثْتُ فِي دَكَّتِهَا بِضَعِ سَنِينَ	إِسْقِنِيهَا مُزَّةً مَشْمُولَةً
دُرَّرًا عَامَتَ فَعَادَتِ كَالْبُرِينَ	نَشَرَ الْمَرْجُ عَلَى مَقْرِقِهَا
يَتَهَادَوْنَ رِيَّاحِينَ الْمَجُونِ ^٤	مَعَ فِتْيَانِ كَرَامٍ نَجُوبِ
نَوَّرَ الْوَرْدُ بِهِ وَالْيَاسَمِينَ	شَرَبُوا الرِّاحَ عَلَى خَدِّ رَشَا
سَبَّحَ الشَّعْرُ عَلَى عَاجِ الْجَبِينِ	وَجَلَّتْ آيَاتُهُ ^٥ عَامِدَةً
ضَمَّةَ اللَّامِ عَلَى عَطْفَةِ نُونِ	لَوَتْ الصُّدُغَ عَلَى حَاجِبِيهِ
وَتَرَى لَيْلًا عَلَى صُبْحِ مَبِينِ	فَتَرَى غَصْنًا عَلَى دِعْصِ نَقَا
بَابَارِقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ	وَسَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرَبُوا

١ تصحفت هذه اللفظة في النسخ فهي القنذاقي في ق ط ك ؛ والقنذاقي في ج ؛ والقيذاقي ؛ والقيذاقي ؛ وقد أثبتنا محقق المغرب « القيذاقي » (١ : ٤١٣) فالحرف الأخير منها قاف على التأكيد إذ يوافق سجع ابن سعيّد « كتاب حديقة الأحداق في حلى قرية القيذاق » ؛ وهي من قرى أشبونة ويقول ابن بسام إن القيذاق (؟) من ساحل شنرة ، وتصيدة ابن مقانا ورد قسم منها في المغرب ؛ وفي الذخيرة (القسم الثاني ، الورقة : ٣٠٣) .

٢ ق ج : بالدمع .

٣ الذخيرة : لا أقبل .

٤ بعد هذا البيت في الذخيرة :

وعليهم زاجر من حلمهم

٥ اقرأ : رجلت داياته ، وهي رواية المغرب .

وَمَصَابِيحُ الدُّجَى قَدْ طُفَّتْ
وَكَأَنَّ الظِّلَّ مِسْكٌ فِي الثَّرَى
وَالنَّدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسِهِ
وَالثَّرِيَّا قَدْ هَوَتْ مِنْ أَفْقِهَا
وَانْبَرَى جَنحُ الدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ
وَجَهُ لَادِرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ
مَلِكٌ ذُو هَيْبَةٍ لَكِنَّهُ
خَطَّ بِالْمِسْكِ عَلَى أَبْوَابِهِ :
فَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ
وَإِذَا أَشْكَلَ خُطْبُ مُعْضِلٍ
فَيُسْرَاهُ يَسَارُ الْمَعْسِرِينَ
يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ الْوَرَى
نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ فَاحْتَبِي
خُلُقُوا مِنْ مَاءِ عَدْلٍ وَتَقَيَّ
انْظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نَوْرِكُمْ

فِي بَقَايَا مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جُونُ
وَكَأَنَّ الظِّلَّ دُرٌّ فِي الْغُصُونِ
كَدُمُوعٍ أَسْبَلَتْهُنَّ الْجُفُونُ
كَقَضِيبِ زَاهِرٍ مِنْ يَاسَمِينِ
كَغُرَابٍ طَارَ عَنْ بَيْضِ كَتِينِ
فَانْتَبَتْ عَنْهَا عُيُونُ النَّاطِرِينَ
بَنِي حَمُودٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
خَاشِعُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ٢
خَفَقَتْ بَيْنَ جَنَاحِي جَبَرَتَيْنِ
صَدَعَ الشَّكَّ بِمَصْبَاحِ الْيَقِينِ
وَيُؤْمِنَاهُ لِيَوَاءِ السَّابِقِينَ ٣
لَأَبِيكُمْ كَانَ وَفْدُ الْمُسْلِمِينَ
فِي الدُّجَى فَوْقَهُمُ الرُّوحُ الْأَمِينُ
وَجَمِيعُ النَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينِ
لِأَنَّهُ مِنْ نَوْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقيل : إنه أنشده إياها من وراء حجاب اقتفاءً لطريقة خلفاء بني العباس ،
فلما بلغ إلى قوله :

انْظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نَوْرِكُمْ إنه من نور رب العالمين
أمر حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ،

١ الذخيرة : قد علت في .

٢ بعده في الذخيرة :

وينادي الجود في آفاته يموا قصر أمير المؤمنين

٣ صدر البيت سقط من ج ط .

وأمر له بإحسان جزيل^١ ، فكان هذا من أنبل ما يُحكى عنه .
وخلع العالي سنة ثمان وثلاثين ، وولي ابن عمّه محمد بن إدريس بن
علي ، وتلقّب بالمهدي ، وتوفي سنة أربع وأربعين .

وبويع إدريس بن يحيى بن إدريس ، ولقّب الموفق ، ولم يخطب له بالخلافة
وزحف إليه العالي إدريس المخلوع المدوح بالقصيدة السابقة ، وكان بقمارش ،
فدخل عليه مالمّة^٢ ، وأطلق أيدي عبيده عليها لحقه عليهم ، ففرّ كثير منهم ،
وتوفي العالي سنة ست أو سبع وأربعين .

وبويع محمد بن إدريس ، ولقّب المستعلي ، ثم سار إليه باديس بن حبّوس
سنة تسع وأربعين وأربعمائه ، فتغلّب على مالمّة ، وسار محمد إلى المريّة
مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مملكة [فأجاز إليهم]^٣ وبإيعوه سنة ست
 وخمسين ، وتوفي سنة ستين .

وكان محمد بن القاسم بن حمّود لما اعتقل أبوه القاسم بمالمّة سنة أربع
عشرة فرّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها ، وتلقّب بالمعتصم ،
إلى أن هلك سنة أربعين ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواصل ، إلى أن هلك سنة
خمسين ، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عبّاد ، ومالمّة لابن حبّوس مزاحماً
لابن عبّاد .

وانقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس ، بعد أن كانوا
يدّعون الخلافة .

* * *

[خلافة المستظهر]^٣

وأما قرطبة فإن أهلها لما قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من ملكهم

١ في نسخة : بمال جزيل .

٢ زيادة من ابن خلدون وفي ق ط ج : إلى مليلة وجارت .

٣ انظر الحلة السراء ٢ : ١٢ .

وزحف إليهم القاسم بن حمّود في البربر ، فهزمهم أهل قرطبة ، ثم اجتمعوا
واتفقوا على ردّ الأمر لبني أمية ، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن
عبد الجبار أخا المهدي ، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ،
ولقبوه المستظهر وقاموا بأمره ، ومن شعره قوله ^١ :

طال عُمُرُ الليلِ عندي مذ ^٢ تولعتْ بصدّي
يا غزالاً نقض العهد د ولم يوفِ بوعدِ
أنسيت العهد إذ به نا على مفرش وردِ
واجتمعنا في وشاحٍ وانتظمتنا نظم عقدِ
ونجومُ الليل تحكي ذهباً في لازوردِ

قال الحِجاري : لو قال « لؤلؤاً في لازوردٍ » لكان أحسن تشبيهاً ، وأنشد
متمثلاً :

إنّا عصابتك الألى كنّا نكابد ما تُكابدُ
هذا أوانٌ بلوغنا ^٣ إل نغمي وإنجازِ المواعدِ

وكان حسان بن أبي عبدة ^٤ من وزراء المستظهر ، ولما أكثر المستظهر دونه
الاستبداد كتب إليه بقوله ^٥ :

إذا غبتُ لم أحضر ، وإن جئتُ لم أسلُ فسيان مني مشهدٌ ومغيبُ

١ الخلة ٢ : ١٦ .

٢ لك : قد .

٣ ج ط ق : بلوغ أواننا .

٤ حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير من الأئمة في الأدب واللغة ، ألف للنصور كتاباً في الأسفار
ووزر للمستظهر ، وتوفي قبل سنة ٤٢٠ (الجذوة : ١٨٣ والبغية رقم : ٦٦٢ والمطبع :

(٢٦) .

٥ البيتان في المصادر السابقة .

فأصبحتُ تيمياً ، وما كنتُ قبلها ليتيم ، ولكنَّ الشَّيْءَ نَسِيبُ
يشير إلى قول الأول :

ويُقْضَى الأمرُ حينَ تَغيبَ تيمٌ ولا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ
وعاتبه أيضاً بقوله :

إذا كان مثلي لا يُجَازَى بِصَبْرِهِ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُجَازَى عَلَى الصَّبْرِ
وكم مَشْهَدٌ حَارَبْتُ فِيهِ عَدُوَّكُمْ وَأَمَلْتُ فِي حَرْبِي لَهُ رَاحَةً الدَّهْرِ
أُخَوِّضُ إِلَى أَعْدَائِكُمْ لُجَجَ الْوَغَى وَأُسْرِئُ إِلَيْهِمْ حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْرِي
وَقَدْ نَامَ عَنْهُمْ كُلُّ مُسْتَبْطِنِ الْحِشَا أَكُولٍ إِلَى الْمُنْسَى نَوْمٌ إِلَى الظُّهْرِ
فَمَا بَالُ هَذَا الْأَمْرِ أَصْبَحَ ضَائِعاً وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ تَحْكُمُ فِي الْأَمْرِ

وسأيتُ إن شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدلُّ على عظيم قدره ،
وهناك نذكر تحلية الفتح له .

* * *

[بيعة المستكفي والمعتد]

ثمَّ ثار عليه لشهريْن من خلافته محمدُ بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير
المؤمنين الناصر لدين الله ، فاتبعه الغوغاء ، وفتك بالمستظهر ، وتلقَّب بالمستكفي ،
واستقلَّ بأمر قُرْطُبَةَ ، وهو والد الأدبية الشهيرة ولأدَّة ، ولعلنا نلَمُ ببعض
أخبارها إن شاء الله تعالى فيما بعد ، وكان أبوه عبد الرحمن قتله المنصور بن
أبي عامر لسعيه في الخلاف ٢ .

ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحيى بن
علي بن حمّود سنة ست عشرة ، وخلع أهل قُرطبة المستكفي ، وولى عليهم

١ ق : يجاز ، ط ج : يجاز .

٢ ك : الخلافة .

المعتلي من قبله ، وفرَّ المستكفي إلى ناحية الثغر ، ومات في مَقَرِّه ، ثم بدا لأهل قُرْطُبَة فدخلوا المعتلي بن حَمَّود سنة سبع عشرة ، وبايع الوزير أبو محمد جَهْوَ بْن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى ، وكان بالثغر في لارْدَة عند ابن هُود ، وذلك سنة ثمانى عشرة ، وتلقَّب المعتد بالله ، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام ، واشتدَّت الفتن بين رؤساء الطوائف ، واتَّفَقوا على أن ينزل دار الخلافة بقُرْطُبَة ، فاستقدمه ابن جَهْوَ والجماعة ، ونزلها آخر سنة عشرين ، وأقام بها يسيراً ، ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين ، وفرَّ إلى لارْدَة فهلك بها سنة ثمان وعشرين .

* * *

[انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف]

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خُطَّتْها ، وتغلَّبَ بَعْضُ على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استغفل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملكُ العُدوة وصاحبُ مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللَمْتُوني ، فدخلهم وأخلى منهم الأرض .

* * *

[ملوك الطوائف]

[١ - بنو عباد وبنو جهور]

فمن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد ابن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق ، وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كافٍ شافٍ .

ومنهم بنو جَهْوَر ، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة ، حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد ، وأخذ قرطبة ، وجعل عليها ولده ، ثم كانت له عليه حروب وخطوب ، وفرق أبنائه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعكست يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف ، مثل ابن حبّوس^١ بغرناطة ، وابن الأفطس ببطلْيوس ، وابن صُمّاح بالمرية ، وغيرهم ، فكانوا يخطبون سيلمه ، ويغنون^٢ في مرضاته ، وكلهم يُدّآرون الطاغية ويتقون بالجزى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإعانه ، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية ، فقتل المعتمد اليهودي الذي جاء في طلب الجزية للطاغية ، بسبب كلمة آسفه بها ، ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا مع الطاغية في الزلافة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كفاء له ، حتى قال بعض المؤرخين : إنّه كان عدد النصارى ثلاثمائة ألف ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وصبر فيها المعتمد صبر الكرام ، وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلمات عنهم ، فتقدّم بذلك إلى ملوك الطوائف ، فأجابوه بالامثال ، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم ، وهو خلال ذلك يُردّد عساكره للجهاد ، ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم ، ونازلت عساكره جميع بلادهم ، واستولى على قرطبة وإشبيلية وبطلْيوس وغرناطة وغيرها ، وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الأندلس في قبضته أسيراً بعد حروب ، ونقله إلى أغمات قرب مراکش سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ، وسنم بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه حين زار قبره .

١ في الأصول : ابن باديس .

٢ ويغنون : سقطت من ق ؛ وفي ج ط : ويغنون .

وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصاً مع زوجته أم أولاده الرميكية الملقبة
 باعتماد ، وقد روي أنها رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبيعن اللبن
 في القرب وهنّ راغبات عن سوقهنّ في الطين ، فقالت له : أشتري أن أفعل
 أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء
 الورد ، وصيّر الجميع طيناً في القصر ، وجعل لها قِرباً وحبالاً من إبريسم ،
 وخرجت هي وجواريتها تخوض في ذلك الطين ، فيقال : إنّه لما خلّع وكانت
 تتكلّم معه مرّة فجري بينهما ما يجري بين الزوجين ، فقالت له : والله ما
 رأيت منك خيراً ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكر أنّها بهذا اليوم الذي
 أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، فاستحييت وسكتت .
 ومن أعظم ملوك الطوائف^١ غير من تقدّم بنو رزيّن أصحاب السّهلة ،
 وبنو الفهري أصحاب البونت ، وتغلّب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين .

[٢ - بنو ذي النون بطليطة]

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجحّفي ،
 وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخ والتّرف إلى الغاية ، ولهم الإعذار
 المشهور الذي يقال له « الإعذار الدّثوني » وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ،
 وهو عندهم بمثابة عرس بورّان عند أهل المشرق ، والمأمون من بني ذي النون
 هو صاحب ذلك ، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وكان بينه
 وبين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قرطبة ، وملكها من يد ابن عبّاد
 المعتمد ، وقتل ابنه أبا عمرو ، وغلب أيضاً على بلنسية وأخذها من يد بني
 ابن أبي عامر .

١ منك : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : وولي بعده غير من تقدم ، وسقط ما يقابله من ط ؛ وفي ج : ومن ملوك ... الخ ؛

وسقطت « غير من تقدم » من ك .

وفي أيام حافد المأمون - وهو القادر بن ذي النون - كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره ، لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافة ، وخفّ ما كان على كاهله من إصر العرب ، فاكسح البساط ، وضايق ابن ذي النون ، حتى أخذ من يده طليطلة ، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمئة كما سبق ، وشرط عليه أن يظاھرہ على أهل بكنسية ، فقبل شرطه ، وتسلمها [ابن] القونش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون^١ مثل خيران وزهير وأشباههما .
وأخبار الجميع تطول .

* * *

[بنو هود بسرقسطة]

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما إليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله ، وابنه يوسف المؤمن ، وكان المؤمن قائماً على العلوم^٢ الرياضية ، وله فيها تأليف ، ومنها كتاب الاستكمال^٣ والمناظر ؛ وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة ، وعلى يده كانت وقعة وشقة - زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة ، وكان محاصراً لها ، فلقبه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاھر سرقسطة في زحف الطاغية إليها ، وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتي عشرة ، وتولى ابنه سيف الدولة ، وبالغ في النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بحشمه إلى طليطلة ، فكان فيها حِمَامه .
ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله في مبانیه :

١ ك : ثم زحف على الموالي العامريين ؛ مع اتصال النص بما قبله .

٢ ق ك : الأمور ؛ والتصويب عن ابن خلدون .

٣ ابن خلدون : الاستهلال .

قَصَرَ السرور ومجلس الذهبِ بكما بَلَغَتْ نهايةَ الأربِ
لو لَمْ يَحْزُ ملكي خلافاً كما كانتْ لديّ كفايةَ الطلبِ

• • •

[بنو الأفطس ببطليوس]

ومن مشاهير ملوك الطوائف^١ بنو الأفطس أصحاب بطليوس وما إليها ،
والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمّى بالمظفرّي في نحو الخمسين مجلداً ،
والمتموكل منهم قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين ، وفيه قال ابن عبدون
قصيدته المشهورة :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالآثِرِ فما البكاء على الأشباح والصُّورِ

وهي من غرر القصائد^٢ .

• • •

[اللمتونيون ثم الموحدون]

فلما استولى^٣ لمتونة على بلاد الأندلس^٤ وأزالوا ملوك الطوائف
منها ، وبقيت عمالهم تردّد إليها وبنوهم حتى فشلت ريجهم ، وهبت ريح
الموحدين ، أعني عبد المؤمن بن عليّ وبنيه ، فحاربوا لمتونة ، واستولوا
على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ، ثمّ أجازوا البحر إلى الأندلس ،
وملكوا أكثر بلاد الأندلس ، وملك بنو مردنيش شرق الأندلس ، وملخص
ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعاً لمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف ،
فلما اشتغل لمتونة في العُدوة بحرب الموحدين اضطربت عليهم الأندلس ،

١ سقطت كلمة « الطوائف » من ط ج ق ك .

٢ ك : القصائد الأندلسية .

٣ ج : أخذ . . . الأندلس .

٤ فلما استولى . . . الأندلس : سقطت هذه الجملة من ك .

وعادت إلى الفرقة بعض الشيء ، ثم خلس أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مرْدَنِيش وقائده ابن همشك^١ بفحص غرناطة ، وقد استعان ابنُ مردنیش بالنصارى على الموحدين ، فهزمهم عبدُ المؤمن ، وقتلهم أبرحَ قَتْل ، واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مرْدَنِيش .

* * *

[غزوة الأرك]

وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف ، وأجاز إلى الأندلس ، وكانت له مواقف في جهاد العدو ، وولي بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التي تُضاهي وقعة الزلاقة أو تزيد ، والأرك : موضع بنواحي بطليوس ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وعدة الأسارى ثلاثين ألفاً ، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً ، والبغال مائة ألف ، والحميز أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفتنش ملكُ النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صلبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرساً ولا دابة ، حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها ، ولم

١ ق ك ط : همشكه .

يبقى إلا فتحها ، فخرجت إليه والدّة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكسّين بين يديه ، وسألته إبقاء البلد عليهن ، فرقّ لهنّ ومنّ عليهن بها ، ووهب لهنّ من الأموال والجواهر ما جلّ ، وردّهنّ مكرّماً ، وعفا بعد القدرة ، وعاد إلى قرطبة ، فأقام شهراً يقسم الغنائم ، وجاءته رسلُ الفَنش بطلب الصلح ، فصالحه ، وأمنّ الناس مدّته ، وفيه يقول بعض شعراء عصره :

أهلٌ بأنّ يُسعى إليه ويُرْتَجَى ويُرَار من أقصَى البلاد على الرّجا
منّ قد غدا بالمكرّمات مقلّداً وموشّحاً ومختماً ومُتوجّجا
عمرت مقاماتُ الملوك بذكره وتعطّرت منه الرّياحُ تارّجا

* * *

[بين صلاح الدين ويعقوب الموحدي]

وهو الذي ^١ أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين ^٢ بن منقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة ^٣ ، ولم يخاطبه بأمر

١ هذه رواية ج ؛ وفي ق : ولما تبلّبت الفرنج على الساحل أرسل السلطان ؛ وفي ط : أرسل الخ ؛ وفي ك : ولما أرسل ...

٢ في الروضتين : شمس الدولة ؛ واسمه عبد الكريم (انظر مقدمة ابن خلدون : ٦٣١) .
٣ لدينا من الكتب التي أرسلها صلاح الدين للخليفة الموحدي المنصور كتاب تاريخه سنة ٥٨٥ من إنشاء الفاضل ، وفيه يستجيشه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا (صبح الأعشى ٦ : ٥٢٦ - ٥٣٠) يلقبه فيه بأمر المؤمنين ، يتلوه كتاب ثان في ٢٧ شعبان سنة ٥٨٦ بقلم الفاضل أيضاً إلى شمس الدين بن منقذ (الروضتين ٢ : ١٧٠) يطلب فيه المعاونة بإرسال قطع من الأسطول المغربي أثناء حصار الفرنج لعكا ، ويحتوي التعليمات الموجه بها شمس الدين ، ثم خطاب مرسل إلى المنصور (الروضتين ٢ : ١٧١) وهو الذي يشير إليه المقرئ وبدايته « من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب » (وتاريخه شعبان سنة ٥٨٦) ؛ وهناك كتاب للقاضي الفاضل رفعه إلى صلاح الدين (الروضتين ٢ : ١٧٤) وهو يحاول فيه أن يقنع صلاح الدين بقبول صيغة « من الفقير إلى الله تعالى » ويستقيح أن يكتب « الخادم » ؛ ومن رأي الفاضل أن لا تتمّ المكتابة لأنّ الجواب عنها يستغرق سنتين وفي هذه المدة « فما يتخلل الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله » . وأثناء مقام ابن منقذ في المغرب أرسل إليه كتاب يشرح فيه أخبار القتال حول عكا (الروضتين ٢ : ١٨٨) .

المؤمنين ، فلم يُجِبْهِ إلى ما طلبه ، وكلُّ ذلك في سنة ٥٨٧ هـ ، ومدحه ابنُ منقذ بقوله من قصيدة :

سأشْكُرُ بَحْرًا ذَا عُبَابٍ قَطَعَتْهُ إلى بحر جُودٍ ما لأخراه سَاحِلُ
إلى مَعْدِنِ التَّقْوَى إلى كَعْبَةِ النَّدى إلى مَنْ سَمَتْ بِالذِّكْرِ مِنْهُ الْأَوَائِلُ
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَزَلْ إلى بابِكَ المَأْمُولِ تُزْجِي الرِّوَا حِلُ
قَطَعْتَ إِلَيْكَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ مُوقِنًا بَأَنَّ نَدَاكَ الْغَمْرَ بِالنَّجْحِ كَافِلُ
وَحَزُنْتُ بِقَصْدِكَ الْعُلَا فَبَلَّغْتَهَا وأدْنَى عَطَايَاكَ الْعُلَا وَالْفَوَاضِلُ
فَلَا زِلْتَ لِلْعَلِيَاءِ وَالْجُودِ بَانِيًا تَبْلَغُكَ الْآمَالُ مَا أَنْتَ آمِلُ

وعدتها أربعون بيتاً ، فأعطاه بكل بيت ألفاً ، وقال له : إنما أعطيتك لفضلك ولييتك .

وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين « إلى أمير المسلمين » وفي أوله « الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب » وبعده من إنشاء الفاضل « الحمد لله الذي استعمل على الملة الخنيفية من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها مَنْ سَأَلَهُ الْقَرَضَ ، وأجْزَى مَنْ أَجْرَى عَلَى يَدِهِ النَّافِلَةَ وَالْفَرْضَ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ الْمِلَّةِ بِدَرَارِي الذَّرَارِي الَّتِي بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وهو كتاب طويل سأله فيه أن يَقْطَعَ عنه مادة البحر ، واستنجد به على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم ، وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ هـ بغير فائدة ، وبعث معه هدية حقيرة ، وأما ابن منقذ فإنه أحسن إليه وأغناه ، لا لأجل صلاح الدين ، بل لنيته وفضله كما مرَّ ، وما وقع من يعقوب في صلاح الدين إنما هو لأجل أنه لم يُوفِّهِ حَقَّهُ في الخطاب .

* * *

[الموحدون والأندلس]

رجع^١ : ولما استفحل أمر الموحدين بالأندلس استعملوا القَرَابة على الأندلس

١ في ق : رجع إلى أخبار يعقوب ؛ والنص متابع لما ورد عند ابن خلدون ٤ : ١٦٦ .

وكانوا يُسمّونهم السادة ، واقتسموا ولاياتها بينهم ، ولهم مواقف في جهاد العدوّ المذكورة ، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلس للجهاد ، وهزم يعقوب المنصور كما سبق قريباً بالأرك ابن أذفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء .

* * *

[العقاب والنيّات أمر الموحدين]

وأجاز ابنه الناصر الوالي بعده البحر إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى ، حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنّه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل ، فمحض الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب ، واستشهد منهم عدّة ، وكانت سبب ضعف المغرب والأندلس ، أمّا المغرب فيخلاء كثير من قرّاه وأقطاره ، وأمّا الأندلس فطلب العدو عليها ، لأنّه لما التّاث أمر الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس كلّ في عمله ، وضعف ملكهم بمراكش ، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض ، وإسلام حصون المسلمين إليه في ذلك ، فمشت رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية ، وأجمعوا على إخراجهم ، فثاروا بهم حين واحد وأخرجوهم ، وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي النّائر بالأندلس وابن مرّد تيش وثوار آخرون .

* * *

[ابن هود ومنافسه ابن الأحمر]

قال ابن خلدون^١ : ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وتلقّب محمد هذا بالشيخ ، فعاذبه الحبل ، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه ، انتهى .

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٦٧ .

وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب بغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابته حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل ، فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر ، فبعث إليه ابن أشقيلولة ، وتسلم مُرْسِيَّةَ منه ، وخطب لابن الأحمر بها ، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر ، فأوقع به النصارى في طريقه ، ثم رجع الواثق إلى مُرْسِيَّةِ ثالثة ، فلم يزل إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين وستمائة ، وعوّضه عنها حصناً يسمى يُسْر ، وهو من عملها ، فبقي فيه إلى أن هلك . وانقرضت دولة ابن هود ، والله وارثُ الأرض ومن عليها .

* * *

[دولة بني الأحمر]

ولنذكر ملوك بني الأحمر^١ إجمالاً لأن لسان الدين وزير أحدهم ، ولأنهم آخر ملوك الأندلس ، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره . قال ابن خلدون^٢ : أصلهم من أَرْجُونَةَ من حصون قُرْطُبَة ، ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند ، ويُعرفون ببني نصر ، ويتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر ، ويُعرف بالشيخ ، وأخوه إسماعيل وكانت له وجهة في ناحيتهم .

ولما فشلت ريع الموحدين ، وانتزى الثوار بالأندلس ، وأعطى السادة حصونها للطاغية ، استقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمُرْسِيَّة بدعوة العباسية ، وتغلب على شرق الأندلس أجمع ، فتصدى الشيخ هذا للثورة وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ، ودعا لأبي زكرياء صاحب إفريقية ، وأطاعته جِيَّان وشَرِيش سنة ثلاثين بعدها ، واستظهر على أمره بقرابته من

١ في ك : رجع إلى ذكر دولة أولاد الأحمر ؛ وسقطت لفظة « ملوك » من ج .

٢ ابن خلدون ٤ : ١٧٠ .

بني نصر وأصهاره بني أشقيلولة ، ثم بايع لبني هُود سنة إحدى وثلاثين ، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ، ثم ثار إشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مُرسية ، فدخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوجه ابنته ، فأطاعه ، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ، ثم فتك بابن الباجي فقتله ، وتناول البطش^١ به علي بن أشقيلولة ، ثم راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هُود ، وأخرج ابن الأحمر ، ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمدخلة أهلها^٢ حين ثار ابن أبي خالد بدعوته فيها ، ووصلته بيعتها وهو بجيآن ، فقدم إليها علي بن أشقيلولة ، ثم جاء على أثره ، ونزلها ، وابتنى بها حصن الحمراء لتزوله ، ثم تغلب على مالقة ، ثم تناول المريّة من يد ابن الرميحي وزير ابن هُود الناصر بها سنة ثلاث وأربعين ، ثم بايعه أهل لُورقة سنة ثلاث وستين ، وكان ابن الأحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهاراً على أمره ، فعضده وأعطاه ابن هُود ثلاثين حصناً في كَفَّ غرّبه بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على ملك قرطبة ، فتسلمها ، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، أعادها الله ، ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه ، ثم دخلها صلحاً ، وملك أعمالها ، ثم ملك مُرسية سنة خمس وستين ، ولم يزل الطاغية يقطع ممالك المسلمين كورة كورة وثغراً ثغراً إلى أن لجأ المسلمون^٣ إلى سيف البحر ما بين رُنْدَة من الغرب والبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق ، وفي قدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف ، ثم سخط ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنع عليه ، وتلاحق بالآندلس الغزاة من بني مَرين وغيرهم ، وعقّد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة

١ ابن خلدون : الفتك .

٢ كذلك في ابن خلدون وبعض الأصول ؛ وفي ك : بمداجاة أهلها .

٣ ابن خلدون : لجأ المسلمون .

آلاف منهم ، فأجازوا في حدود الستين وستمائة ، وتقبَّل ابن الأحمر لإجازهم ، ودفع بهم في نَحْر عدوّه ، ورجعوا ، ثم تناسلوا إليه بعد ذلك ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وولي بعده ابنه محمد الفقيه ، وأوصاه باستصراخ بني مَرِين ، ملوك المغرب بعد الموحدين ، إن طرّقه أمر أن يعتضد بهم ، فأجاز الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين ، فأجاب صريحه ، وأرسل ابنه وعساكره معه ، ثم أجاز على أثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها ركاباً لجهاده ، ونزل إليه ابنُ الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون ، وهزم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانية دَنَنهُ^١ وفرق جمعه ، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة ، وبثّ سراياه وبُعُوته في أرض النصرانية ، ثم خاف ابنُ الأحمر على ملكه ، وصالح الطاغية ثم عاد ، انتهى كلام ابن خلدون ملخصاً .

وثبت قدم عقب ابن الأحمر بالأندلس ، واحتلوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرِين .

* * *

[ين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر]

وبعد مدة أَلَبَ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة ، وجاءها الطاغية دون بِطْرُهُ^٢ في جيش لا يُحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً ، وكان من خبر هذه الواقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرُهُ إلى طُلَيْطَلَة ، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرّع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد

١ دَنَنهُ = (Don Nuno) .

٢ دون بطره = (Don Pedro) .

صاحب فاس ، وأنفذوا إليه رُسُلًا ، فلم ينجع ذلك الدواء ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللّجأ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النيّات ، وأقبل الإفرنج في جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بيطرته ومن معه ، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً .

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلمّا بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم ، وجهز الأساطيل والرجال ، فلمّا رأوا ذلك طلبوا إلى طليطلة ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهبوا لذلك غاية الأبهة ، ووصلت الأتقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب ، ووصل العدو إلى غرناطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج إلى لقائهم بأبجد المسلمين وشجعانهم ، فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول . ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة ، فقطعوهم عن الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح ، فاستأصلوهم ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلمّا شاهدتهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قتلهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام ، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال ، وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السّي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك

بعض الغرناطين إلى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسرى^١ امرأة الطاغية وأولاده ، فبدلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ، ويقال : إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع في الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يُقتل من المسلمين والأجناد سنوي ثلاثة عشر فارساً ، وقيل : عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرجالة نحواً من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوت الوصف ، وسُلخ الطاغية دون بطرّه وحُشي جلده قطعاً ، وعُلّق على باب غرناطة ، وبقي مغلّقاً سنوات ، وطلبت النصراري الهدنة ، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب ، وهو جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمال مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً ، فصبر المسلمون ، وخيب الله سعي الكافرين ، فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة

١ ك : الأسارى .

الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة ، وحاصره
السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولما
أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ،
وقاتلهم الطاغية ، هزمهم في وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ،
حتى قبض الله من بني الأحمر الغني بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب
وزيره ، فاسترجعها وجملته بلاد كجيان وغيرها .

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة ، وامتد ملكه واشتد حتى محا دولة
سلاطين فاس ممّا وراء البحر ، وملك جبل الفتح ، ونصر الله الإسلام على
يده ، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين - رحمه الله - في مواضع
من هذا الكتاب ، وسعد هذا الغني بالله من العجائب .

وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أخذ ما بقي من الأندلس العدو الكافر
واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للإسلام ، كما نبين إن شاء الله ،
وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام ، وأبدلت من النور بالظلام ، حسبما
اقتضته الأقدار النافذة والأحكام^١ ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو
خير الوارثين .

* * *

[شيخ الغزاة أيام بني الأحمر]

قال ابن خلدون^٢ : واتفق بنو الأحمر سلاطين غرناطة أن يجعلوا مشيخة
الغزاة لواحد يكون من أقارب بني مَرِّين سلاطين المغرب ، لأنهم أول من
ولي الأندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة ،

١ سقطت من ق ط ج .
٢ في ق : قلت وكان بنو الأحمر (دون ذكر لابن خلدون) . وفي ج : ولقد كان بنو
الأحمر ... يحملون .

وكان لهؤلاء في الجهاد مواقف مشهورة ، وسأذكر لك ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه : « بحمد الله تعالى ، هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال الكُماة ، واحد الجلالة ، ليث الإقدام والبسالة ، علم الأعلام ، حامي دمار الإسلام ، صاحب الكتاب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازي المسطورة ، وإمام الصفوف ، القائم بباب « الجنة تحت ظلال السيوف » ، سيف الجهاد ، وقاصم الأعداء ، وأسد الآساد ، العالي همم ، الثابت قدّم ، الهمام المجاهد الأَرْضِي ، البطل الباسل الأَمْضِي ، المقدّس ، المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير ، الأصيل الشهير ، المقدّس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفق ما بين رَوْحَةٍ في سبيل الله وغَدْوَةٍ ، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنيتين وثلاثين غَزْوَةً ، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب ، محتسباً في إدارة الحرب ، ماضي الغزائم في جهاد الكفّار ، مُصَادِماً بين جموعهم تدفق التيّار ، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ، ما سار ذكره في الأقطار ، أشهر من المثل السيّار ، حتى توفي رحمه الله وغُيّر الجهاد طيُّ أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفي ملحمة الجهاد قَبَضَهُ الله تعالى إليه ، واستأثر به سعيداً مرتضى ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضِي ، مقدّمة قبول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجِلاد ، ودليلاً على نيته الصالحة ، وتجارته الراجحة ، فارتجّت الأندلس لبُعْدِهِ ، أتمّحه الله تعالى رحمة من عنده ، توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة » انتهى .

ومنها ما كتب به لسانُ الدين بن الخطيب - رحمه الله - في تولية علي ابن بدر الدين مشيخة الغزاة ما نصّه : « هذا شيخ الغزاة الذي فتح على الإسلام

١ ك : منها ما كتب ؛ وفي ط بياض . وفي ج : فلنذكر منها .

أبواب السراء ، وراق طرازاً مذهباً على عاتق الدولة الغراء ، وأعمل عَوَامِل
الجهاد ، في طاعة ربّ العباد ، شارعةً لأهل الكفر والعناد ، من باب الأعمال
والإغراء ، أمر به فلان صدر صدور أودّاته ، وحسامه المشهور على أعدائه ،
ووليه الذي خبر صدق وفائه ، وجلّى في مضمار الخلوص له مُغَيِّراً في وجوه
أكفائه ، شيخ شيوخ المجاهدين ، وقائد كتائبه المنصورة إلى غزوّ الكافرين
المعتدين ، وعِشْرَتِهِ التي يُدَافِع بها عن الدين ، وسابق وُدّه المبرّر في
الميادين ، الشيخ الأجلّ « إلى آخر ما وصفه به ممّا ضاق الوقت عن مثله ،
والله وليّ التوفيق .

②

الباب الرابع

في ذكر قُرْطُبَة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامعها الأموي
ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإمام بحضرتي الملك الناصرية الزهراء
والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من منزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات
المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجرّ إليه شُجُون الحديث من أمور تقضي
بِحُسْن إيرادها القرائح الوقادة والأفكار الماهرة

[نقول في وصف قرطبة]

قال ابن سعيد ، رحمه الله : مملكة قُرْطُبَة في الإقليم الرابع ، وإيالته
للشمس ، وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كَرْتَش ، ومعدن
الزئبق والزنجفر في بلد بسطاسة^١ ، ولأجزائها خواص مذكورة في متفرقاتها ،
وأرضها أرض كريمة للنبات^٢ ، انتهى .

وقدّم ، رحمه الله ، في المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس وقال :
إنّما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس
الأول اتخذوها سريراً لسلطنة الأندلس ، ولم يعدلوا عن حضرتها قرطبة ، ثم
سلاطين بني أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة ، وتقلّبوا منها في
ثلاثة أقطاب^٣ أداروا فيها خلافتهم : قرطبة ، والزهراء ، والزاهرة ، وإنّما

١ ج : والزنجفور ... بسطاسة .

٢ ك : كريمة النبات .

٣ ك : أقطار .

اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها لذلك أهلاً ، وقُرْطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً
بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها .
ثم قسم ابن سعيد كتاب « الحلة المذهبة ، في حلى ممالك قُرْطبة » بالنظر
إلى الكُور إلى أحدَ عشر كتاباً :

- الكتاب الأول كتاب « الحلة الذهبية ، في حلى الكورة القرطبية » .
 - الكتاب الثاني كتاب « الدرر المصونة ، في حلى كورة بلكونة » .
 - الكتاب الثالث كتاب « محادثة السмир^١ ، في حلى كورة القصير » .
 - الكتاب الرابع كتاب « الوشني المصوّر ، في حلى كورة المدوّر » .
 - الكتاب الخامس كتاب « نيل المراد ، في حلى كورة مراد » .
 - الكتاب السادس كتاب « المُرْزَنَة ، في حلى كورة كرنه » .
 - الكتاب السابع كتاب « الدر النافق ، في حلى كورة غافق » .
 - الكتاب الثامن كتاب « النفحة الأرجة ، في حلى كورة إستِجَة » .
 - الكتاب التاسع كتاب « الكواكب الدريّة ، في حلى الكورة القبرية » .
 - الكتاب العاشر كتاب « رقة المحبة ، في حلى كورة إستبة » .
 - الكتاب الحادي عشر كتاب « السّوسانة ، في حلى كورة اليُسّانة » انتهى .
- ثمّ قال ، رحمه الله تعالى : إن العمارة اتّصلت في مباني قُرْطبة والزّهاء
والزّاهرة ، بحيث إنّه كان يُمشي فيها لضوء السّرج المتصلة^٢ عشرة أميال
حسبما ذكره الشّقنّدي في رسالته ، ثمّ قال : ولكل مدينة من مدن قُرْطبة
وأعمالها ذكر مختص به ، ثمّ ذكر المسافات التي بين ممالك قُرْطبة المذكورة
فقال : بين المدوّر وقُرْطبة ستة عشر ميلاً ، وبين قُرْطبة ومُرّاد خمسة
وعشرون ميلاً ، وبين قُرْطبة والقصير ثمانية عشر ميلاً ، وبين قرطبة وغافق
مرحلتان ، وبين قرطبة وإستبة ستة وثلاثون ميلاً ، وبين قُرْطبة وبلكونة

١ ك : السير .

٢ ق ط : السراج ؛ ك : الممتدة .

مرحلتان ، وبين قُرْطُبة واليُسَّانة أربعون ميلاً ، وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلاً ، وبين قرطبة وبيَّانة مرحلتان ، وبين قرطبة وإسْتِجَة ثلاثون ميلاً ، وكورة رُنْدَة كانت في القديم من عمل قُرْطُبة ، ثم ضارت من مملكة إشبيلية ، وهي أقرب وأدخل في المملكة الإشبيلية ، انتهى .

ثم قسّم رحمه الله تعالى كتاب « الحلة الذهبية » ، في حلى الكورة القرطبية « إلى خمسة كتب :

الكتاب الأول كتاب « النغم المطربة » ، في حلى حضرة قُرْطُبة .

الكتاب الثاني كتاب « الصبيحة الغراء » ، في حلى حضرة الزهراء .

الكتاب الثالث كتاب « البدائع الباهرة » ، في حلى حضرة الزاهرة .

الكتاب الرابع كتاب « الورْدَة » ، في حلى مدينة شَقْنْدَة .

الكتاب الخامس كتاب « الجرعة السيّعة ^١ » ، في حلى كورة ^٢ وَرْغَة .

وقال ، رحمه الله تعالى ، في كتاب « النغم المطربة » ، في حلى حضرة قرطبة :

إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها ، وفي اصطلاح الكتاب أن للعُرُوس

الكاملة الزينة منّصّة ، وهي مختصّة بما يتعلّق بذكر المدينة في نفسها ، وتاجاً ،

وهو مختصّ بالإيالة السلطانية ، وسلماً ، وهو مختصّ بأصحاب دُرر الكلام من

النُشّار والنُظّام ، وحلّة ، وهي مختصّة بأعلام العلماء المصنّفين الذين ليس لهم

نظم ولا نثر ، ولا يجب إهمال تراجمهم ، وأهداباً ، وهي مختصّة بأصحاب

فنون الهزّل وما ينحو منحاه ، انتهى .

ثمّ فصل ، رحمه الله تعالى ، ذلك كلّهُ بما تعدّدت منه الأجزاء ، وقد خلصت

منه هنا بعض ما ذكر ، ثمّ أردفته بكلام غيره ، فأقول ^٣ : قال في كتاب أجار ^٤ :

١ ج : المسوغة .

٢ ق ط : قرية .

٣ ق : فقلت ذكر ابن خلدون في كتاب أجار ؛ وهو وهم كما ترى .

٤ كتاب أجار هو نزهة المشتاق المعروف بجغرافية الإدريسي ، وأجار هو رجار (Rujjiero) . =

إن قُرْطُبة — بالطاء المعجمة — ومعناه أُجِر ساكنها^١ ، يعني عربت بالطاء ،
ثم قال : ودَوَّرُ مدينة قُرْطُبة ثلاثون ألف ذراع ، انتهى .

وقال غيره : إن تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون الأرباض
طولاً من القبلة إلى الجوف ألف وستمئة ذراع ، واتصلت^٢ العمارة بها أيام
بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون
في الطول ، وفي العرض ستة ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول
ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير ، وليس في الأندلس وادٍ يُسمّى باسم
عربي غيره . ولم تزل قُرْطُبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمئة ،
فانحطت ، واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى
عليها بأخذ العدو الكافر لها ثالث عشري شوال سنة ستمئة وثلاث وثلاثين^٣ .
ثم قال هذا القائل : ودَوَّرُ قرطبة أعني المسور منها دون الأرباض ثلاثة

وثلاثون ألف ذراع ، ودَوَّرُ قصر إمارتها ألف ذراع ومائة ذراع ، انتهى .
وعدد أرباضها واحد وعشرون ، في كل ربض منها من المساجد والأسواق
والحمامات ما يقوم بأهلها ولا يحتاجون إلى غيره ، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف
قرية ، في كل واحدة منبر وفقه مقلص^٤ تكون الفتيا في الأحكام والشرائع
له ، وكان لا يجعل القالص عندهم على رأسه إلا من حفظ الموطأ ، وقيل :
من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة ،
وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقُرْطُبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة
بقرطبة ، ويستلمون عليه ، ويظالعونه بأحوال بلدهم . انتهى .

= (روجر Roger) الذي ألف له الإدريسي الكتاب ، وهو أحد ملوك صقلية النورمانيين ،
حسبنا مر .

١ الروض المعمار : ١٥٦ وقيل معناه « القلوب المختلفة » .

٢ من هنا حتى آخر الفقرة في مخطوط الرباط : ٢٤ ، ويبدو أن النقل عن ابن حيان .

٣ ك : في ثاني وعشرين شوال سنة ٦٢٣ .

٤ مقلص — بالصاد والسين — الذي يلبس قلنسوة ؛ وانظر النص في مخطوط الرباط : ٢٧ .

قال : وانتهت جباية^١ قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار ،
بالإنصاف ، وقد ذكرنا في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا ، فإله أعلم .
وما أحسن قول بعضهم^٢ :

دَعْ عَنْكَ حَضْرَةَ بَغْدَادٍ وَبَهْجَتَهَا وَلَا تُعْظِمْ بِلَادَ الْفَرَسِ وَالصِّينِ
فَمَا عَلَى الْأَرْضِ قَطْرٌ مِثْلُ قُرْطُبَةٍ وَمَا مَشَى فَوْقَهَا مِثْلُ ابْنِ حَمْدِينَ

وقال بعضهم^٣ : قُرْطُبَةُ قَاعِدَةُ الْأَنْدَلُسِ وَدَارُ الْمَلِكِ الَّتِي يُجْبَى لَهَا ثَمَرَاتُ
كُلِّ جِهَةٍ وَخَيْرَاتُ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَاسْطَةُ بَيْنَ الْكُورِ ، مَوْفِيَةٌ عَلَى النَّهْرِ ، زَاهِرَةٌ
مَشْرِقَةً ، أَحْدَقَتْ بِهَا الْمُنَى فَحَسَنَ مَرَاَهَا ، وَطَابَ جَنَانُهَا .
وفي كتاب « فرحة الأندلس » لابن غالب : أَمَا قُرْطُبَةُ فَإِنَّهُ اسْمٌ يَنْحَوِ
إِلَى لَفْظِ الْيُونَانِيِّينَ ، وَتَأْوِيلُهُ الْقُلُوبُ الْمَشْكُوكَةُ .

وقال أبو عبيد البكري^٤ : إِنَّهَا فِي لَفْظِ الْقَوَاطِلِ بِالظَّاءِ الْمَعْجَمَةِ .
وقال الحِجَارِيُّ : الضَّبْطُ فِيهَا بِإِهْمَالِ الطَّاءِ وَضَمِّهَا ، وَقَدْ يَكْسِرُهَا
الْمَشْرِقِيُّونَ^٥ فِي الضَّبْطِ ، كَمَا يَعْجَمُهَا آخَرُونَ . انْتَهَى .

وقال بعض العلماء^٦ : أَمَا قُرْطُبَةُ فَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَنْدَلُسِ ، وَقُطْبُهَا وَقَطْرُهَا
الْأَعْظَمُ ، وَأَمَّ مَدَائِنُهَا وَمَسَاكِنُهَا ، وَمُسْتَقَرُّ الْخُلَفَاءِ ، وَدَارُ الْمَمْلَكَةِ فِي النُّصْرَانِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ ، وَمَدِينَةُ الْعِلْمِ ، وَمَقَرُّ^٧ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، نَزَلَهَا جُمْلَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ

١ مخطوط الرباط : ٢٧ .

٢ المصدر السابق : ٣٥ .

٣ هو أحمد الرازي كما في المتن من فرحة الأنفس : ٢٩٥ ؛ وفي ق : وقال غيره ، وسقطت
اللفظتان من ط ؛ وفي ج : وفي كتاب الرازي .

٤ انظر مخطوطة المسالك : ٢١٨ (رقم : ٨٨) ق بالخزانة العامة بالرباط .

٥ ط ج : المشرقون .

٦ مخطوط الرباط : ٢٢ .

٧ ك : ومستقر .

وتابعي^١ التابعين ، ويقال : نزلها بعض من الصحابة^٢ ، وفيه كلام .
وهي مدينة عظيمة أزلية من بُنيان الأوائل ، طيبة الماء والهواء ، أحدثت
بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها
المَحْرَثُ العظيمُ الذي ليس في بلاد الأندلس مثله^٣ ولا أعظم منه بركة .
وقال الرازي : قرطبة أم المدائن ، وسُرَّةُ الأندلس ، وقرارة الملك في
القديم والحديث والجاهلية والإسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة
التي هي لإحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام ، والجامع الذي ليس في
بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه .

وقال ابن حوقل^٤ : هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها
عندي شبيه في كثرة أهل ، وسعة محل^٥ ، وفُسْحَة أسواق ، ونظافة محال^٦ ،
وعماره مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد
جانبى بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبى بغداد فهي قريبة من ذلك ولا حقة به ،
وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال^٧ حسنة ، وفيها كان سلاطينهم
قديماً ، ودورهم داخل سورها المحيط بها ، وأكثر أبواب القصر السلطاني من
البلد وجنوب قرطبة على نهرها .

قال : وقرطبة هذه باثنة عن مساكن أرباضها ظاهرة ودُرْتُ بها في غير
يوم في قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشياً .
وقال الحجاري^٨ : وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ،

١ ق ج ط : وتابع .

٢ مخطوط الرباط : نزلها - فيما نقل - رجل من الصحابة .

٣ ك : الذي ليس له في بلاد الأندلس نظير .

٤ في ك : وقال بعضهم ؛ وفي ق : وقال ابن سعيد رحمه الله في المغرب ؛ وفي ط : وقال الرازي ؛

وفي ج : وفي كتاب ابن حوقل والنص منقول عن ابن حوقل ، انظر صورة الأرض : ١٠٧ -

١٠٨ مع اختلاف في بعض النص .

٥ في ج : وفي المسهب ؛ وفي ق : وقال الفتح في المطمح ؛ وفي ط : قال ابن سعيد .

وَجَمَعَ علماء الأنام^١ ، بها استقر سرير الخلافة الروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مَرَكز الكرماء ، ومَعَدِن العلماء ، ولم تزل تملأ الصلور منها والحفائب ، ويُبَارِي فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتاب ، ولم تبرح ساحاتها مَجَرَّ عوالٍ ومجرى سوابق ، ومحطَّ معالٍ وحِمى حقائق ، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزَّور من الأسد ، ولها الداخلُ الفسيخ ، والخارجُ الذي يتمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحاً وهو من تردد النظر طليح .

وقال الحجاري^٢ : حضرة قرطبة منذ استفتحت^٣ الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ، ومركز الراهية ، وأمَّ القرى ، وقرارة أولي الفضل والثقى ، ووطن أولي العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صَوْب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر دُرر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصُنِّفَت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقَهُم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب ، لأنواع العلم والأدب . انتهى .

قال الإمام علي بن سعيد^٤ : أخبرني والذي أن السلطان الأعظم أبا يعقوب ابن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد : ما عندك في قرطبة ؟ قال : فقلت له : ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلّ بصيرة :

١ ك : ومجتمع أعلام الأنام الأعلام .

٢ في ق : وقال أيضاً ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ج : وقال في الذخيرة .

٣ ك : افتتحت .

٤ انظر ما تقدم في هذا الكتاب ص : ١٥٤

الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري ،
والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحراث العظيم ، والشعراء الكافية ،
والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين
ما أقول .

ثم قال ابن سعيد : ومن كلام والذي في شأنها : هي من أحسن بلاد الأندلس
مباني ، وأوسعها مسالك ، وأبرعها ظاهراً وباطناً ، وتفضل إشبيلية بسلامتها
في فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سمة^١
العلم متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدهم تشنيعاً وتشغيلاً ،
ويُضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة
وقلة الرضى بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن
لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الحمل
إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته به صاح ، ما ندري أين رضاهم
فنقصده ، ولا أين سخطهم فنتجنبه^٢ ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى
كان عامتها شرّاً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي
ولاية ، وإني إن كُلفت العود إليها لقائل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .
قال والذي : ومن محاسنها ظرف اللباس ، والتظاهر بالدين ، والمواظبة
على الصلاة ، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم ، وكسر أواني الخمر حيثما وقع
عين أحد من أهلها عليها ، والتستر بأنواع المنكرات ، والتفاخر بأصالة البيت
وبالجنديّة وبالعلم ، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشدّ الناس اعتناء
بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى إن الرئيس
منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ،
وينتخب فيها ليس إلاّ لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني

١ ط : سمة .

٢ ك ط : فنتجنبه .

ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به .
قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتفسير مليح^١ ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المتادي بالزيادة عليّ ، إلى أن بلغ فوق حدّه ، فقلت له : يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيّدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه ؛ قال : فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكنني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلمّا رأيته حسن الخط جيّد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ؛ قال الحضرمي : فأخرجني ، وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلاّ عند مثلك ، يعطي الجوز من لا عنده^٢ أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحوّل قلّة ما بيدي بيّني وبينه .

قال ابن سعيد : وجرّت مناظرة بين يدي منصور بني عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ما أدري ما تقول ، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حُمِلت إلى إشبيلية .

ولما ذكر ابن بشكّوال قصر قرطبة قال^٣ : هو قصر أولي تداولته ملوك

١ ك : بخط فصيح وتفسير مليح ؛ والتفسير : التجليد .

٢ ك : من لا له .

٣ ك : وسئل ابن بشكّوال عن قصر قرطبة فقال .

الأمم من لدن عهد موسى النبي ، صلى الله على نبيّنا وعليه وسلّم ، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثمّ للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعجّز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - في قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض المونقة^١ ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتموتوا المؤن الحسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرّم^٢ ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنّوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموّء إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة .

قال : وفي هذا القصر القصّابُ العالية السمو ، المنيفة العلو ، التي لم يرَ الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها .
قال : ومن قصوره المشهورة ، وبساتينه المعروفة : الكامل ، والمجدد ، وقصر الحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيّق ، وقصر السرور ، والتاج ، والبديع .

قال : ومن أبوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين ، وغيث الملّهوفين ، والحكم بالحق ، الباب الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له في الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد ، وفيه حلقٌ لاطون^٣ قد أثبتت في قواعدها ، وقد صورت صورة إنسان فتح فمه ، وهي حلق باب مدينة أربؤنة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب ، وله باب قبلي أيضاً ، وهو المعروف بباب الجنان ، وقدّام هذين البابين المذكورين على الرصيف

١ ك : الأنيقة .

٢ ك : الكريم ، ق : الكرم .

٣ لاطون (وبالاسبانية Laton) : الأصفر من الصفر (النحاس) .

المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشام^١ الرضى يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل ، وله باب ثالث يُعرف بباب الوادي ، وله باب بشماليه يُعرف بباب قُورِيّة^٢ ، وله باب رابع يدعى بباب الجامع ، وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على السباط ، وعدد أبواباً بعد هذا طمست أيام فتنة المهدي ابن عبد الجبار^٣ .

وذكر ابن بَشْكُوَال رحمه الله أن أبواب قرطبة سبعة أبواب^٤ : باب القنطرة إلى جهة القبلة ويُعرف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر ، وباب الحديد ويُعرف بباب سَرَقُسْطَة^٥ ، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طَلَيْطَلَة^٦ ، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرُصَف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قَرْمُونَة إلى قُرْطُبَة إلى سَرَقُسْطَة إلى طَرَكُونَة إلى أَرْبُونَة مارة في الأرض الكبيرة ، ثم باب طَلَيْبَة وهو أيضاً باب لِيُون^٧ ، ثم باب عامر القرشي وقدّاهه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الجوز^٨ ويُعرف بباب بَطَلَيْسُوس^٩ ، ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلية ، انتهى . وذكر أيضاً^{١٠} أن عدد أرباض قُرْطُبَة عند انتهائها في التوسيع^{١١} والعمارة واحد وعشرون رِبْضاً ، منها القبلية بعدوّة النهر : رِبْض شقندة^{١٢} ، وربض مُنِيّة عَجَب^{١٣} ، وأما الغربية فتسعة : ربض حوانيت الرياح^{١٤} ، وربض الرقاقين^{١٥} ، وربض مسجد الكهف^{١٦} ، وربض بلاط مُغِيث^{١٧} ، وربض مسجد الشفاء^{١٨} ، وربض

١ عدها في مخطوطة الرباط على النحو التالي : باب السدة وباب الجنان وباب العدل وباب الصناعة وباب الملك وباب السباط (انظر الورقة : ٢٥) .

٢ انظر مخطوطة الرباط في عد أبواب قرطبة : ٢٤ .

٣ مخطوطة الرباط : باب الجوزة .

٤ ذكر أرباض قرطبة في مخطوطة الرباط : ٢٥ .

٥ ك : التوسع .

٦ مخطوطة الرباط : ربض الرياحي ؛ وفي ق ط : الرياحي .

حَمَامَ الإلبيري^١ ، وربض مسجد المسرور ، وربض مسجد الروضة^٢ ،
 وربض السّجن القديم ، وأما الشمالية فتلاثة : ربض باب اليهود ، وربض
 مسجد أم سلمة ، وربض الرّصافة ، وأما الشرقية فسبعة : ربض شبنلار ،
 وربض فرن بريل^٣ ، وربض البرج^٤ ، وربض منية عبد الله ، وربض
 منية المغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة^٥ .

قال : ووسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت
 هذه الأرباض دون سور ، فلمّا كانت أيام الفتنة صُنع لها خندق يدور بجميعها
 وحائط مانع . وذكر ابن غالب أنّه كان دورُ هذا الحائط أربعة عشر ميلاً^٦ ،
 وشقنّدة معدودة في المدينة لأنّها مدينة قديمة كانت مسورة .

[منتزهات قرطبة]

قال ابن سعيد في « المغرب » : ولذكر الآن من منتزهات قرطبة ومعاهدها
 المذكورة في الألسن نظماً ونثراً ما انتهى إليه الضبط ، من غير تغلغل في غير
 المشهور منها والأهمّ ، ونوشتي ذلك بجميع ما يحضرنى من مختار النظم في قرطبة ،
 وما يحتوي عليه نطاقها المذكور .

فأول ما نذكر من المنتزهات منته الخلفاء المروانية ، وهو قصر الرّصافة ؛
 قال والدي^٧ رحمه الله : كان ممّا ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه
 لنزّهه وسكناه أكثر أوقاته : منية الرّصافة التي اتخذها بشمال قرطبة

١ ج ومخطوط الرباط : ربض الأبوري .

٢ ق : وربض الرمضة .

٣ مخطوطة الرباط : فرن بلي .

٤ مخطوطة الرباط : ربض الفرج .

٥ في مخطوط الرباط : « ربط العدو » وسقط من العدد هنالك ربض مسجد أم سلمة .

٦ في ك : أربعة وعشرين ميلاً .

٧ ج : قال ابن حيان .

منحرفة إلى الغرب ، فاتخذ بها قصرأ حسناً ، ودحا جناناً واسعة ، ونقل إليها غرائب الغُرُوس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسقمر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة ، حتى نمت بيمن الجدة وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً مُعْتَمَةً أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . قال : وسماها باسم رُصافة جدّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه ، وامثله في اختيار رصافته هذه ^١ ، وكلفه بها وكثرة تردده عليها ، وسكناته أكثر أوقاته بها ، فطار ^٢ لها الذكر في أيامه ، واتصل من بعده في إيثارها . قال : وكلّهم فضّلها ، وزاد في عمارتها ، وانبرى وُصّاف الشعراء لها ، فتنازعوا ^٣ في ذلك فيما هو إلى الآن ماثور ^٤ عنهم ، مستجاد منهم .

قال ابن سعيد : والرّمّان السقري الذي فاض على أرجاء الأندلس ، وصاروا لا يفضلون عليه سواه ، أصله من هذه الرُصافة . وقد ذكر ابن حيّان شأنه ، وأفرد له فصلاً ^٥ ، فقال : إنّه الموصوف بالفضيلة ، المقدم على أجناس الرّمّان بعدوبة الطعم ، ورقّة العجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة ، وكان رسوله إلى الشام في توصيل أخته ^٦ منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رُمّان الرصافة المنسوبة إلى هشام ، قال : فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مُباهياً به ، وكان فيمن حضره منهم سقر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن ، ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزواته ، قال : وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني

١ ك : وليله في اختياره هذه .

٢ ك : طار .

٣ في ك : فتنازعوا .

٤ ك : مشهور ماثور .

٥ ج : وأفرد فضله .

٦ في ك : أخته .

أمية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فراقه حُسْنُه وخُبْرُه ، فسار به إلى قرية
بكورة رَيْتَه ، فعالج عَجْمَه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً
أثمر وأينع ، فترع إلى عِرْقَه ، وأغرب في حسنه ، فجاء به عمّاً قليل إلى عبد
الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجهه
حيلته ، فاستبرع استبطاه ، واستنبل همته ، وشكر صنعه ، وأجزل صلته ،
واغترس منه بمُنية الرصافة وبغيرها من جناته ، فانتشر نوعه ، واستوسع
الناسُ في غِراسه ، ولزمه النسب إليه ، فصار يُعرف إلى الآن بالرمان السَّقْري .
قال : وقد وصف هذا الرمان أحمد بن فرج^١ الشاعر في أبيات كتب
بها إلى بعض مَنْ أهداه له ، فقال :

ولايسة صدفاً أحمرًا	أنتك وقد ملئتُ جوهرًا
كأنك فاتحُ حقٍّ لطيفٍ	تضمن مَرَجَانَهُ الأحمرًا
حُبُّوباً كمثلِ لِيثاتِ الحبيبِ	رُضَاباً إذا شئتَ أو منظرًا
وللسَّقْرِ تُعْزَى وما سافرت	فتشكو النوى أو تقاسي السرى
بلى فارتقتُ أَيْكَهَا ناعماً	رَطِيباً وأغصانها نُضْراً
وجاءتك مُعْتَاضَةً إذ أنتك	بأكرم من عودها عُنْصُراً
بعودٍ ترى فيه ماء الندى	ويُورِقُ من قبل أن يُثْمِرًا
هديةً مَنْ لو غدتْ نفسه	هديته ظنّه قَصْراً

وقال ابن سعيد : وأخبرني والذي قال : أخبرني الوشاح المبرِّز المحسن أبو
الحسن المريني^٢ قال : بينما أنا أشرب مع ندماني بإزاء الرُصافة ، إذا بإنسان

١ هو ابن فرج صاحب كتاب الحقائق ، الذي ألفه للحكم المستنصر ، من شعراء عصر الخلافة
الأموية ، جرى عليه أيام الحكم ما أدى إلى سجنه وتوفي حوالي ٣٦٦ هـ (انظر ترجمته في الجذوة
٩٧ وبغية الملتبس رقم : ٣٣١ ومعجم الأدباء ٤ : ٢٣٦ والصلة ١١ ، وممالك الأبصار ١١ :
١٩٥ والمغرب ٢ : ٥٦ والمطبخ ٧٩ والوقايح ٨ : ٣٤ وله أشعار في البيتية) .
٢ هو علي بن المريني أبو الحسن ، شاعر وشاح توفي في مدة منصور بن عبد المؤمن وكان كثير التجول =

رث الهيئة ، مَجْفُوءًا الطلعة ، قد جاء فجلس معنا ، فقلنا له : ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة ؟ فقال : لا تعجلوا علي ، ثم فكر قليلاً ورفع رأسه فأنشدنا :

استقنيها إزاء قصر الرُصافة واعتبر في مآل أمر الخلافه
وانظر الأفق كيف بُدِّل أرضاً كي يطيل اللبيب فيه اعترافه
ويرى أن كل ما هو فيه من نعيم وعز أمر سخافه
كل شيء رأسته غير شيء ما خلا لذة الهوى والسلافه

قال المريني : فقبلت رأسه ، وقلت له : بالله من تكون ؟ فقال : قاسم بن عبود الرياحي ، الذي يزعم الناس أنه موسوس أحق ، قال : فقلت له : ما هذا شعر أحق ، وإن العقلاء لتعجز عنه ، فبالله إلا ما تمت مسرتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طُرف أشعارك ، فنادم وأنشد ، وما زلنا معه في طيبة عيش إلى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سُكراً ، ويقول : اللهم غفراً . انتهى ٢ .

= (المغرب ٢ : ٢١٣) وسيورد المقرئ له موشحة في سد قرطبة ، وفي المغرب موشحة تنازع نسبتها هو واليكي (٢ : ٢١٨) .

١ ج : مجلو .

٢ زاد بعد هذه الكلمة في نسخة (ج) : « فائدة : قال الذهبي في المشتبه : والرصافة مواضع منها رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة ورصافة بغداد - محلة كبيرة جداً أنشأها المنصور لابنه المهدي وتلقب بعسكر المهدي ، منها أئمة ، ورصافة البصرة قرية منها شيخان روياء ؛ ورصافة قرطبة بليدة أنشأها عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، سماها باسم رصافة جده هشام خرج منها فضلاء ؛ ورصافة الكوفة صغيرة ، ورصافة نيسابور قرية ، ورصافة الأنبار بناها السفاح ، ورصافة بليدة بإفريقية ، والرصافة قلعة أحدثها الإسماعيلية بالشام . انتهى باختصار . قال في القاموس ، في فصل الراي باب الفاء : والرصافة كمكناسة بلد بالشام منه أبو منيع عبد الله بن أبي زياد وابن ابنه الحجاج ، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن علي ، وبلد بالبصرة منها محمد بن عبد الله بن سيفون ، وقرية بواسط منها عبد المجيد وقرية بنيسابور وبالكوفة وبلد بإفريقية وقرية للإسماعيلية ، وعمي الرصافة موضع بالحجاز ، انتهى . رجع إلى قرطبة ؛ قال ابن سعيد ... الخ » .

قال : ومن أبدع قصورا خارج قرطبة قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، وهو على متن النهر الأعظم ، تحمله أقواس ، وقيل للسيد : كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر ، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية ، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم .

قال ابن سعيد : وأخبرني والدي أن ناهض بن إدريس^٢ شاعر وادي آش في عصره أنشده لنفسه في هذا القصر :

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنوع الأعلى الذي أنف الثرى ورقعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزاً ورفعة وفي موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الخناب وبابه بغص وخت أفقه الدهر أعراس

وقال الفتح في قلائده ، لما ذكر الوزير ابن عمار^٣ : وتتره بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد ، وجري في إتقانه إلى غير أمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحاته وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضمار أفراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب المشرق ، وأنشد فيه لابن عمار :

كل قصر بعد الدمشق يندم فيه طاب الجنى ولد المشم
منظر رائق ، وماء نعيم وثرى عاطر ، وقصر أشم
بيت فيه والليل والفجر عندي عنبر أشهب وميسك أحمر

١ ق : ومن المنزهات قصور خارج قرطبة ؛ ط : ومن أعظم قصور . . .

٢ ناهض بن إدريس : من مداح ناصر بني عبد المؤمن (المغرب ٢ : ١٤٥) .

٣ قلائد العقيان : ٨٤ .

وهي منسوبة للحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفى .
 وذكر الحِجاري في « المسهب » أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر
 المصحفى ، اجتاز بالمنية المصحفية التي كانت لجدّه أيام حجابته للخليفة الحكم
 المستنصر ، فاستعبر حين تذكر ما آل إليه حال جده مع المنصور بن أبي عامر ،
 واستيلاءه على ملكه وأملاكه ، فقال :

قف قليلاً بالمصحفية واندب مقلةً أصبحت بلا إنسان
 واسألنها عن جعفر وسطاه ونداه في سالف الأزمان
 جعفر مثل جعفر حكم الدهر رُ عليه بعُسرة وهوان
 ولكم حذر الردى فصمنا لا أمان لصاحب السلطان
 بينما يعتلي غدا خافضاً مذ اكتساب ككفة الميزان^١

ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر المثلث^٢ ملك قرطبة .
 قال ابن سعيد : أخبرني والذي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المنية
 في زمان فتح النُّوار أبو بكر بن بَقِيّ الشاعر^٣ المشهور ، فجلسنا تحت سطر
 من أشجار اللوز قد نَوَّرت ، فقال ابن بَقِيّ :

سَطَّر من اللوز في البُستان قابلي ما زاد شيء على شيء ولا نقصا
 كأنما كلُّ غصنٍ كمْ جارياً إذا النسيمُ نثى أعطافه رقصا

١ ك : انتساب ؛ ج : اكتساباً .

٢ الزبير بن عمر من ولاية المثلثين (المرابطين) على قرطبة ؛ وقد عده في مفاخر البربر (٨٢)
 من ولاية غرناطة ولكن ابن سعيد (٢ : ١٢٧) يسميه صاحب قرطبة ، وهو مهجو الشاعر المعروف
 بالأبيض .

٣ أبو بكر يحيى بن بقي الطليطل من كبار الشعراء الوشاحين في عصر المرابطين توفي سنة ٥٤٠ هـ
 (انظر ترجمته في الذخيرة القم الثاني : ٢٤٤ والقلائد : ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١
 والتكملة : ٢٠٤٢ ووفيات الأعيان ٥ : ٢٤٨ ومسالك الأبحار ١٦ : ٢٨٠ والمغرب ٢ : ١٩)
 وله موشحات في دار الطراز وفي مخطوطة جيش التوشيح للسان الدين .

ثم قال شعراً منه :

عجبت لمن أبقي على خمر دنة غداة رأى لوز الحديقة نوراً

ولا أذكر بقية الأبيات ، قال جدي : ثم اجتمعت به بعد ذلك بغرناطة ،
فذكرته باجتماعه في منية الزبير ، فتهتد وفكر ساعة وقال : اكتبوا عني ،
فكتبنا :

سقى الله بستان الزبير ، ودام في مجاريه سبل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة في جنابه كبرته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهي على كل موضع أما ظله ضاف أما ماؤه دقق
أهيم به في حالة القرب والنوى وحق له مني التذكر والعشق
ومن ذلك النهر الحفوق فؤاده بقلبي ما غيبت عن وجهه خفق

قال : فقلت له : جمع الله بينك وبينه على الحالة التي تشتهي ، قال : ذلك
لك ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تدفع لي هذا السيف الذي تقلدت به أتزود
به إليه ، وأنفق الباقي فيه على ما تعلم ، قال : فقلت له : هذا سيف شرفي
به السلطان أبو زكرياء ابن غانية ، وما لعطائه سبيل ، ولكن أعطيك قيمته ،
فخرج وأتى بشخص يعرف قيمة السيوف ، فقدّره وجعل يقول : إنّه سيف
السلطان ابن غانية ، ليعظم قدره في عينه فيزيد في قيمته ، ثم قبض ما قدر به ،
وأنشد ارتجالاً :

أطال الله عمر فتى سعيد وبقاه ورقته السعود
غدا لي جوده سبباً لعودي إلى وطني فها أنا ذا أعود
والثم كفه شكراً ويتلّو طريقي آي نعماه النشيد

١ ك ج ط : ذراه مسيل .

حباني من ذخائره بسيف به لم يبق للأحزان جيد

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للتزاهة بخارج قرطبة ، وقد ذكره الوزير أبو الوليد ابن زيدون في قصيد ضمنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه ، وكان قد فر من قرطبة أيام بني جهور ، فحضره في فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعا هذه الأنسية مع ولادة التي كان يهاها ويتغزل فيها ، فقال^١ :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي فما حال من أسنى مشوقاً كما أضحي

ومستأني هذه القصيدة في هذا الباب ، كما ستأتي قصيدة أبي القاسم ابن هشام القرطبي التي أوتها :

يا هبة باكرت من نحو دارين

وفيها كثير من منتزهات قرطبة .

قال ابن سعيد : كان والدي كثيراً ما يأمرني بقراءتها عليه ، ويقول : والله لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل ، قال : وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها ، ويزين بها مجالسه ، ويحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم ، أو حاسد لا ينصف في الاهتزاز لها ، وإنه بلخدير بذلك ، وإنها لمن كنوز الأدب .

ثم قال : والمرج النصير المذكور بها هو مرج الخز ، أخبرني والدي أنه حضر في زمان الصبا بهذا المرج على راحة ، ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوقشي^٢ والمسني^٣ ابن دريدة^٤ المشهور بحقة الروح ، قال : فسبحت أمامنا إوز ، وجعلت ترح وتثر ما عليها من الماء فوق المرج ،

١ ديوان ابن زيدون : ١٥٨ .

٢ أبو الحسين الوقشي ، سيذكره صاحب النفخ ، وكان ذا صوت بديع عارفاً بالألحان ؛ وقد مر ذكره في المغرب (١ : ٢٢٠) في مجلس مع والد ابن سعيد .

٣ في بعض النسخ : الحسن ؛ وفي نسخة : دويده ؛ وقد ذكره ابن سعيد في المغرب ٢ : ١٨١ وأورد بعض نوادره ؛ وهو قلبي أي ينسب إلى قلعة بني سعيد ؛ وفي ج : ودريده .

والمرج قد أحرق به الوادي ، والشمس^١ قد مالت عليه للغروب ، فقال لي أبو الحسين : بالله صِفْ يومنا وحسن^٢ هذا المنظر ، فقلت : لا أصفه أو تصفه أنت ، فقال : ولك مني ذلك ، فأفكر كل^٣ منا على انفراد بعدما ذكرنا ما نصف نثراً ، فقال أبو الحسين الوقشي :

لله يوم بِمَرْجٍ الْخَزْ طَابَ لَنَا فِيهِ النِّعَمُ بُحَيْثِ الرُّوضِ وَالنَّهْرِ
وَالْإِوزَ عَلَى أَرْجَائِهِ لَعَبٌ إِذَا جَرَتْ بُدِّدَتْ مَا بَيْنَنَا الدُّرُورُ
وَالشَّمْسُ تُنَجِّحُ نَحْوَ الْبَيْنِ مَائِلَةٌ كَأَنَّ عَاشِقَهَا فِي الْغَرَبِ يَتَنَظَّرُ
وَالكَأْسُ جَائِلَةٌ بِالْبَّ حَائِرَةٌ وَكُلْنَا غَفْلَاتِ الدَّهْرِ نَبْتَدِرُ

قال : فقلت :

أَلَا حَبْدًا يَوْمٌ ظَفَرْنَا بِطَبِيهِ بِأَكْنَفِ مَرْجِ الْخَزْ وَالنَّهْرِ بَبَسِيمٍ
وَقَدْ مَرَّحَتْ فِيهِ الْإِوزُ ، وَأَرْسَلَتْ عَلَى سُنْدُسٍ دُرّاً بِهِ يَتَنَظَّمُ
وَمُدَّ بِهِ لِلشَّمْسِ فَهَوَ كَأَنَّهُ لَنَامٍ لَهَا مُلْقَى مِنَ النُّورِ مَعْصَمُ
أَدْرْنَا عَلَيْهِ أَكُوساً بَعَثَتْ بِهِ مِنَ الْإِنْسِ مَيْتاً عَادَ وَهُوَ يُكَلِّمُ
غَدُونَا إِلَيْهِ صَامَتِينَ سَكِينَةً فَرُحْنَا وَكُلَّ بِالْهَوَى يَتَرَنَّمُ

فأظهر كل^٤ منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطاً وتتميماً للمسرة ، ثم قلنا للمسن : ما عندك أنت ما تعارض^٢ به هاتين القطعتين ؟ قال : بهذا ، ورفع رجله وحبَّقَ حَبَقَةً فَرَقَعَتْ^٣ منها أَرْجَاؤُهُ ، فقال له أبو الحسين : ما هذا يا شيخ السوء ؟ فقال : الطلاق له لازم^٤ إن لم تكن أوزن من شعركما ، وأطيب رائحة ، وأغن صوتاً ، وأطرب معنى ، فضحكنا منه أشد ضحك ، وجعلنا نهتر غاية

١ ق : في حسن .

٢ ق ط ج : بما تعارض .

٣ ق ط ج : فرقت .

٤ ك : يلزمه .

الاهتزاز لموقع نادرته ، فقال : والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم .

ثم قال ابن سعيد : ومن منزهات قرطبة المشهورة فحص السراق ، مقصود للفرجة ، يروح^١ فيه البصر ، وتبتهج فيه النفس ، أخبرني والذي عن أخيه أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال : خرجت مع الشريف الأصم القرطبي إلى بسيط الجزيرة الخضراء - وقد تديج بالأنوار^٢ - فلما جركنا حسن المكان ، وتشوقنا إلى الأركان^٣ ، قال الشريف : لقد ذكرني هذا البسيط بسيط فحص السراق ، فقلت له : فهل ثار في خاطرك نظم فيه ؟ قال : نعم ، ثم أنشد :

ألا فدعوا ذكر العذيب وبارق	ولا تسأموا من ذكر فحص السراق
مجر ذبول السكر من كل متشرف	ومجرى الكؤوس المترعات السوابق
قصرت عليه اللحظ ما دمت حاضراً	وفكري في غيب لمراه شائقي
أيا طيب أيتام تفضت بروضة	على لمح غدران وشم جدائق
إذا غردت فيها حمام دوحها	تخيلتها الكتاب بين المهارق
وما باختيار الطرف فارقت حسنها	ولكن بكيد من زمان منافي

قال أبو جعفر : فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار ، وحركني ذلك إلى أن قلت في حور مؤمل سيد منزهات غرناطة ، ولم يذكر هنا ما قاله فيه ، وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا ، والله أعلم . ومن منزهات قرطبة السد^٤ ، قال ابن سعيد : أخبرني والذي أن الشاعر

١ ق : ليسرح .

٢ ك : بالأنوار .

٣ لعل الصواب : الأوطان .

٤ ك : خاطركم .

٥ ق : رددت ؛ طج : وردت .

٦ بعض النسخ : حوز .

المبرز أبا شهاب المالقي^١ أنشده لنفسه واصفاً يوم راحة بهذا السد :

ويوم لنا بالسّد لو رُدَّ عيشه بعيشة أيام الزّمان رددناه
بكرنا له والشمسُ في خدر شرقها إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدواً واعتباقاً ونشوة ورجّع حديث لورقي الميت أحياء
على مثله من منزّه تُبتغى المنى فله ما أحلى وأبدع مرآه
شدتنا به الأرحا وألقت نثارها علينا فأصغينا له وقبلناه
لئن بانَ إنا بالأنين لفقدته وبالدمع في إثر الفراق^٢ حكيانه

وأنشدني والدي موشحة لأبي الحسن المبرّني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد ، وهي^٣ :

في نغمة العود والسّلافه والروض والنهر والتّديم
أطال من لامني خلافة فظلّ في نصحه مُليّم

دعّني على منهج التّصابي ما قام لي العذر بالشّباب
ولا تطلّ في المنى عتابي فلستُ أصغي إلى عتاب
لا ترّج ردي إلى صواب^٤ والكأسُ تفرّ عن حُباب

والغصنُ يُبدّي لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروضُ أهدى لنا قِطافه واختال في برّده الرقيم

١ أبو شهاب المالقي : من شعراء المائة السابعة ، صحبه والد ابن سعيد أيام الشّباب ووصفه بأنّه كان خليع العذار في شرب العقار (المغرب ١ : ٤٣٧) .

٢ ق : الغرام .

٣ استعمل في ك كلمتي « مطلع » و « دور » للدلالة على القفل وعلى كل غصن من أغصان الموشحة .

٤ ك : إلى جواب ؛ ق : إلى الجواب .

يا حَبِّدَا عَهْدِي الْقَدِيمُ ومن به همتُ مُسْعِدِي
رَبِّمُ هِنِ الْوَصْلُ لَا يَرِيمُ مُؤَلَّسَعٌ بِالتَّوَدُّدِ
مَا تَمَّ إِلَّا بِهِ النِّعِيمُ طَوْعاً عَلَى رَغَمِ حُسْدِي

مُعْتَدِلُ الْقَدِّ ذُو نَحَافَةٍ أَسْقَمَنِي طَرْفُهُ السَّقِيمُ
وَرَامَ طَرْفِي بِهِ انْتِصَافَهُ فَخَدَّ فِي خَدِّهِ الْكَلِيمُ

غَضُّ الصَّبَا عَاطِرُ الْمُقْبَلِ أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَمَلِ
ظَامِي الْحَشَا مُفْعَمُ الْمُخْلَلِ حُلُو اللَّيِّ سَاحِرُ الْمُقْلِ
لِكُلِّ مِنْ رَامِهِ تَوَصَّلِ لَمْ يَخْشَ رَدّاً بَمَا فَعَلَ

أَشْكُو فَيُبْدِي لِي اعْتِرَافَهُ إِنْ حَادَ عَنْ نَهْجِهِ الْقَوِيمُ
لَا أَعْدَمُ الدَّهْرُ فِيهِ رَافَهُ فَحَقَّ لِي فِيهِ أَنْ أَهْيِمُ

لِلَّهِ عَصْرٌ لَنَا تَقْضَى بِالسَّدِّ وَالْمَنْبَرِ الْبَهِيْجِ
أَرَى أَدَّكَارِي إِلَيْهِ فَرَضَا وَشَوْقَهُ دَائِماً يَهِيْجِ
فَكَمْ خَلَعْنَا عَلَيْهِ غَمَضَا وَلِلصَّبَا مَسْرَحٌ أَرِيْجِ

وَرَدُّ أَطَالِ الْمُنَى ارْتِشَافَهُ حَتَّى انْقَضَى شَرْبُهُ الْكَرِيمِ
لِلَّهِ مَا أَسْرَعَ انْخِرَافَهُ وَهَكَذَا الدَّهْرُ لَا يَدِيمُ

يَا مَنْ يَحِثُّ الْمَطِيَّ غَرْبَا عَرَّجَ عَلَى حَضْرَةِ الْمُلُوكِ
وَانْتَرَبَهَا إِنْ سَفَحَتْ غَرْبَا مِنْ مَدْمَعٍ عَاطِلِ سُلُوكِ
وَاسْمِعْ إِلَى مَنْ أَقَامَ صَبَاً وَاحِكِ صِدَاحَهُ لَا فُضَّ فُوكِ

بَلَّغْ سَلامِي قَصرَ الرُّصافَةِ^١ وَذَكَرُوا^٢ عَهْدِي الْقَدِيمَ
وَحَيِّ عَنِّي دارَ الخِلافَةِ وَقِفْ بِها وَقِفَةَ الْغَرِيمِ

قال ابن سعيد : والمنبر المذكور في هذه الموشحة من منبرها قرطبة ،
والسدُّ هو الأرحا التي ذكرها في زجله قاسم بن عُبَّود الرياحي ، رَوَيْتُهُ^٣ عن
والدي عن قائله ، وهو^٤ :

بِاللهِ أَيْنَ نَصِيبُ مَنْ لَمْ يَلِ فِيهِ نَصِيبُ
مُحِبُّوْناً مُخَالَفَ وَمَعُوْراً رَقِيبُ

حِينَ نَقَصْدُ مَكَانَهُ يَقُومُ فِي الْمَقَامِ
وَيُخَلِّ عَليْنَا بِرَدِّ السَّلامِ
أَدْخَلْتَ يَا قَلْبِي رُوحَكَ فِي زِحَامِ^٣

سَلامَتِكَ عِنْدِي هِيَ شَيْ عَجِيبُ
وَكَيفَ بِاللهِ يَسْلَمُ مَنْ هُوَ فِي لَهَبِ

بِاللهِ يَا حَبِيبِي أَتَرَكَ ذَا النِّقَارِ
وَأَعْمَلُ أَنْ نَطِيبُوا فِي هَذَا النَّهَارِ
وَأُخْرِجَ مَعِيَ لِلوَادِي لَشَرْبِ الْعُقَارِ

نُتَمِّ نَهَارَنَا فِي لَدَى وَطِيبِ
فِي الأَرْحَا وَإِلَّا فِي الْمَرْجِ الْخَصِيبِ

١ ك : وذكره ؛ والصواب قرأته حسب النطق الدارج « وذكروا » ، وهي قراءة ق .

٢ استعمل أيضاً في ك في تقسيم هذا الزجل لفظي مطلع ودور .

٣ ج : الزحام .

أَوْ عِنْدَ النَّوَاعِرِ ^١	وَالرُّوَضِ الشَّرِيقِ ^٢
أَوْ قَصْرِ الرِّصَافَةِ ^٣	أَوْ وَادِي الْعَقِيقِ
رَحِيقِ ^٤ وَاللَّهِ دُونَكَ	هُوَ عِنْدِي الْحَرِيقِ
وَفِي حُبِّكَ أُمْسَيْتُ	فِي أَهْلِي غَرِيبُ
وَمَا الْمَوْتُ عِنْدِي	إِلَّا حِينَ تَغِيبُ
أَتَكَلُّ عَلَى اللَّهِ	وَكُنْ فَظْ جَسُورُ
وَلَا رَيْتُ فُضُولِي	وَقُلْ لِّإِن تَمُورُ
كَمْشَ عَنَّا وَجْهَكَ	فَلَا رَاكَ نَقُورُ
يَهْرَبُ عَنْكَ خَائِفُ	وَيَبْقَى مُرِيبُ
وَأَمْسِ أَنْتَ مُوَقَّرُ	كَأَنَّكَ خَطِيبُ
مَا أَعْجَبَ حَدِيثِي	إِشْ هَذَا الْجُنُونُ
نَظْلَبُ وَنُدَبِّرُ	أَمْرًا لَا يَكُونُ
وَكَمْ ذَا نُهُونُ	شَيْئًا لَا يَهُونُ
وَإِشْ مَقْدَارُ مَا نَصْبِرُ	لِبُعْدِ الْحَيِّيبُ
رَبِّ اجْمَعْنِي مَعُو	عَاجِلًا قَرِيبُ

١ ج : النواير .
 ٢ ج : الرشيق .
 ٣ ك ط : حرق ؛ ج : حرق .
 ٤ ك : عني .

[نهرها وقنطرتها]

قال ابن سعيد : وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية ، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها في نهر إشبيلية ، ومنبعه من جهة شقورة^١ يمر النصف منه إلى مرسية^٢ مشرقاً والنصف إلى قرطبة وإشبيلية مغرباً .

ولما ذكر الرازي قرطبة قال : « ونهرها الساكن في جريه ، اللين في انصبابه ، الذي تؤمن مغبة ضرره في حمله » . وقال هذا لأنه يعظم عند إشبيلية ، فإذا حان حمله في أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق ، وتوقع أهلها الهلاك . والقنطرة التي على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها - على ما ذكره ابن حيّان وغيره - السّمح ابن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وشيّدوها بنو أمية بعد ذلك وحسّنوها ، قال ابن حيّان : قيل : إنه قد كانت في هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثّرت فيها الأزمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ، ومحيّت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها ، وعليها بنى السّمح في سنة إحدى ومائة ، انتهى .

وقال في مناهج الفكر : إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا ، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ، وطولها ثمانمائة ذراع^٢ ، وعرضها عشرون باعاً ، وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد حناياها ثمان مائة عشرة حنيّة ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً ، انتهى .

١ شقورة : (Segura de la Sierra) مدينة كانت من عمل جيان ، وينسب إليها نهر شقورة وهو نهر مرسية .

٢ ق : باع .

رجع إلى قرطبة

ذكر ابن حيّان والرازي والحجاري أن أكتبيان^١ - ثاني قياصرة الروم الذي ملك أكثر الدنيا وصفّح نهر رومية بالصّفّح ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة - أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، فبُنيّت في مدّته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة ، وانفرد الحجاري بأن أكتبيان المذكور وجّه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة في الجهة التي ولاه عليها ، وسماها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغير الحجاري جعل أسماء هذه المدن مُشتقّة مما تقتضيه أوضاعها كما مر ؛ وذكروا أنّه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، إلى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الأندلس ، إلى أن أخذها منهم المسلمون . ولم تكن في الجاهلية سريراً لسلطنة الأندلس ، بل كرسياً لخاّص مملكتها ، وسعدت في الإسلام ، فصارت سريراً للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطباً للخلافة المروانية ، وصارت إشبيلية وطليطلة تبعاً لها ، بعدما كان الأمر بالعكس ، والله يفعل ما يشاء ، بيده الملك والتدبير ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا هو العلي الكبير .

وقال صاحب «نشق الأزهار»^٢ عندما تعرّض لذكر قرطبة : هي مدينة مشهورة ، دار خلافة ، وأهلها أعيان ناس في العلم والفضل ، وبها جامع ليس في الإسلام مثله ، انتهى .

١ ق : اكتبان ؛ ك : الثبان ؛ والصواب ما أثبتناه فهو (Octavian) المعروف باسم اكتافيرس قيصر .

٢ أظن المراد هنا هو «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» لابن إياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠ .

[الفتنة البربرية والتزاع بين الحموديين والأمويين]

ومن الأسباب في سلب محاسن قرطبة عيّن البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتتحت بالقهر وسفك الدماء ، وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان عليّ بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - وجدّه إدريس هرب من هرون الرشيد إلى البربر ، فتربر ولده ، وبني ابنه إدريس مدينة فاس ، وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ، ووقف على أن دولة بني أمية تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوّ كثيراً من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود ، وبلغ هشاماً المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدرس إليه أن الدولة صائرة إليك ، وقال له : إن خاطري يحدّثني أن هذا الرجل يقتلني ، يعني سليمان ، فإن فعل فعذّ بئاري ، وكان هذا الأمر هو الذي قوّى نفس ابن حمود على طلب الإمامة ، وحمله على الأخذ بئار هشام المؤيد ، فكان المؤيد أحد من أخذ بئاره بعد موته .

وتولّى بعد ذلك علي بن حمود^١ ، وبويع بقرطبة في قصرها في اليوم الذي قُتل فيه سليمان المستعين^٢ ، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة ، وأذلّ رؤوس البربر ، وبرقت للعدل في أيامه بارقة خلب لم تكد تقيد حتى خبّت ، وجلس للمظالم ، وقدمت له جماعة من البربر في إجرام فضرب رقابهم ، وأهلهم وعشائرهم ينظرون ، وخرج يوماً على باب عامر فالتقى فارساً من البربر وأمامه حمل عنب ، فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، وطيف به في البلد ،

١ انظر تفصيل الخبر عن ولاية علي بن حمود في الذخيرة ١/١ : ٧٩ نقلاً عن ابن حبان ، وهذا

الذي أورده المقرئ تلخيص لما جاء هناك .

٢ وبويع ... المستعين : سقطت هذه العبارة من ق .

واستمر على هذا مع أهل قرطبة في أحسن عيشة نحو ثمانية أشهر ، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى الرواني في شرق الأندلس ، فتغير عما كان عليه ، وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها ، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخر الدهر ، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله ، وانتزع الإسلام من أهل قرطبة^١ ، وهدم المنازل ، واستهان بالأكابر ، ووضع المغارم ، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال ، فلما غرموه سرحهم ، فلما جيء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب ، وتركهم يتزلون إلى منازلهم على أرجلهم ، وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثته ولده معلودة في دول الطوائف ، فانجمعت عن عليّ النفوس ، وتوالى عليه الدعاء ، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمام ، وكان قتله غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة ، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها ، وصح عند الناس موته ، ففرحوا ، وكانت مدته كما مر نحو عامين ، وحققها بعض فقال : أحد وعشرون شهراً وستة أيام .

وكان الناصر علي بن ختمود - على عجمته ، وبعده من الفضائل - يصغي إلى الأمداح ، ويثيب عليها ، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ، ومن شعرائه المختصين به ابن الخطاط القرطبي^٢ ، ومن شعره قوله^٣ :

راحت تذكرُ بالنسيم الراحا وطفاء تكسر للجُنُوح جناحا
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدت من برقها كي تهدي مضباحا

١ ك : وانتزع أهل قرطبة .

٢ ابن الخطاط (وفي ق ك ط ج : الخطاط) : محمد بن سليمان بن الخطاط الرعيي القرطبي الأعمى ، كان أبوه يبيع الخططة بقرطبة ، ثم تعهد ابنه بنو ذكوان بالتعليم واتصل بدولة بني حمود ومدح أمراءها وتوفي سنة ٤٣٧ (انظر الذخيرة ١/١ : ٣٨٣ والجدوة : ٥٣ وبنية الملئس رقم : ١٢٤ والمغرب ١ : ١٢١ والصلة : ٦٤٠ والتكملة : ٣٨٧ .

٣ الذخيرة ١/١ : ٣٩٠ .

وعبادة بن ماء السماء ، وكان معروفاً بالتشيع ، وفيه يقول من قصيدة :

أبوكم عليٌّ كان بالشرق بدء ما ورثتم ، وذا بالغرب أيضاً سميّة
فصلّوا عليه أجمعون وسلّموا له الأمر إذ ولّاه فيكم وليّة

ومدحه ابن درّاج القسطليّ بقوله^١ :

لعلّك يا شمس عند الأصيل شجيت لشجو الغريب الدليل
فكوني شفيعي لابن الشّفيح وكوني رسولي لابن الرسول

وكان أخوه القاسم بن حمّود أكبر منه بعشر سنين ، وأمهما واحدة ، وهي علوية ، ولما قُتل الناصر كان القاسم والياً على إشبيلية ، وكان يحيى بن علي والياً على سبّطة ، فاختلف أهواء البربر^٢ ، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غُنيّاً أولاً ، وقُدّم عليه أخوه الأصغر ، وكونه قريباً من قرطبة ، وبين يحيى والبحر ، فلما وصلت رُسُلهم إلى القاسم لم يُظهر فرحاً بالإمامة ، وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه ، فتقهقر إلى أن اتضح له الحق ، فركب إلى قرطبة ، وبويع فيها بعد ستة أيّام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وأحسن من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه عليّ صاحب سبّطة ، فتهاكف في اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيراً ، وقوّدهم على أعماله ، فأنتفت البرابر من ذلك ، وانحرفوا عنه . وفي سنة تسع وأربعمائة^٣ قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبد الرحمن من أعقاب الناصر ، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بني حمّود العلويين بسبب البرابر ، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مروان ، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف ، وكان معه حين أقبل لقرطبة مُنذر التجيبيّ صاحب سرقسطة

١ ديوان ابن درّاج : ٧٥ .

٢ ك : فاختلف هؤلاء البربر ؛ ج : فاختلف أحوال . . .

٣ انظر تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ١٢٥ .

وخَيْرَان العامري الصَّقْلِي صاحب المَرِيَّة ، وانضاف إليهم جمعٌ من الفرنج ، وتأهَّب القاسم والبرابرة للقائهم ، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نيَّة منلر وخَيْرَان على المرتضى ، وقالوا : أرانا في الأوَّل وجهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجَم الغفير ، وهذا ماكر غير صافي النيَّة ، فكتب خيرَان إلى ابن زيري الصَّنْهَاجِي المتغلب على غَرْنَاطَة - وهو داهية البربر - وضمن له أَنَّهُ متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازِهِ عليه إلى قرطبة خَدَلَّ عن نصرته المَوَالِي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور ، فأصغى ابن زيري إلى ذلك ، وكتب المرتضى إلى ابن زيري يدعوهُ لطاعته ، فقلب الكتاب ، وكتب في ظهره ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - السورة ﴾ (السورة : ١٠٩) فأرسل إليه كتاباً ثانياً يقول فيه : قد جئتكَ بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج ، فماذا تصنع ؟ وختم الكتاب بهذا البيت :

إِنْ كُنْتَ مِنَّا أَبْشَرُ بِخَيْرٍ أَوْ لَا فَأَيُّقِينَ بِكُلِّ شَرٍّ

فأمر الكاتب أن يحوِّل الكتاب ويكتب في ظهره ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ - السورة ﴾ (السورة : ١٠٢) فازداد حنقه ، وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قُرْطُبَة ، وعدل إلى محاربته ، وهو يرى أَنَّهُ يَصْطَلِمُهُ في ساعة من نهار ، ودامت الحرب أياماً ، وأرسل ابنُ زيري إلى خَيْرَان يستنجزه وعده ، فأجابه : إِنَّمَا تَوَقَّفتَ حَتَّى تَرى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنَّا ببواطنتنا معه ، ما ثبتَ جمعك لنا ، ونحن ننهزم عنه ونَحْذِلُهُ في غد .

ولما كان من الغد رأى أعلام خَيْرَان وأعلام مندر وأصحاب الثغور قد ولَّتْ عنه ، فسُقِطَ في يد المرتضى ، وثبتَ حَتَّى كادوا يأخذونه ، واستعمرَ القتل ، وصُرِعَ كثير من أصحابه ، فلما خاف القبض عليه ولَّى ، فوضع عليه خيرَان عيوناً فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه ، فهجموا عليه ، فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى المَرِيَّة ، وقد حل بها خيرَان ومنذر ،

فتحدث الناس أنهما اصطبحا^١ عليه سروراً بهلاكه .

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة ، ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم ، وضرب القاسم^٢ بن حمود سراق^٣ المرتضى على نهر قُرْطُبَة ، وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تنقطع حشرات ، وأنشد عبادة ابن ماء السماء قصيدته التي أولها^٤ :

لَكَ الْخَيْرُ خَيْرَانُ مَضَى لِسَيْلِهِ وَأَصْبَحَ أَمْرُ اللَّهِ فِي ابْنِ رَسُولِهِ

وتمكنت^٢ أمور القاسم ، وولّى وعزل ، وقال وفعل ، إلى أن كشف وجهه في خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن علي ، وكتب من سبّته إلى أكابر البرابر بقرطبة : إن عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم إنّه قدّم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراثي ، وأوليكم مناصبكم ، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه إلى ذلك ، فجمع ما عنده من المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة ، فجاز البحر بجمع وافر ، وحصل بمالقة مع أخيه ، وكتب له خيران صاحب المربة مذكراً بما أسلفه في إعانة أبيه ، وأكد المودة فقال له أخوه إدريس : إن خيران رجل خدّاع ، فقال يحيى : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا ، ثم إن يحيى أقبل إلى قُرْطُبَة واثقاً بأن البرابر معه ، ففرّ القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ ، وحلّ يحيى بقُرْطُبَة ، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مُسْتَهْلَ جمادى الآخرة ، وكان يحيى من النجباء ، وأمه فاطمية ، وإنّما كانت آفته العُجْب واصطناع السفلة ،

١ ك : اصطبحا .

٢ ابن عذاري ٣ : ١٣٠ دون نسبة ، وفي الذخيرة ١/١ : ٣٩٦ أن القصيدة لابن الحناط قالها في أبي القاسم بن حمود يصف خيران الصقلي وقتل المرتضى المرواني .

٣ ق ط : ومشت ؛ ج : وتمت .

٤ ك : ٤١٣ .

واشتط أكابر البرابر عليه ، وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان ، فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال ، وفر السودان إلى عمته بإشبيلية ، ومن البرابر ومن جند الأندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم ، ولم يعل إليه ملوك الطوائف ، وبقي منهم كثير على الخطبة لعمته القاسم ، إلى أن اختلت الحال بحضرة قرطبة ، وأيقن يحيى أنه متى أقام بها قبض عليه ، وكان قد ولّى على سببته أخاه لإدريس ، وبلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيران وكتبوه ، فطمع خيران فيها ، وفر يحيى في خواصه تحت الليل إلى مالقة ، ولما بلغ القاسم فراره ركب من إشبيلية إلى قرطبة ، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ ، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة ، ووقع الاختلاف ، وكان هوى السودان معه ، وهوى كثير من البرابر مع يحيى ، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر ، وكثر الإرجاف بذلك ، ووقع الطلب على بني أمية فتفرقوا في البلاد ، ودخلوا في أغمار الناس ، وأخفوا زيتهم ، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة ، وتكاثر البلديون ، وأخرجوا القاسم وبرابره فضرب خيمة بغربها ، وقاتلهم مدة خمسين يوماً قتالاً شديداً ، وبني القرطبيون أبواب مدينتهم ، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار ، فهدموا باباً من الأبواب وخرجوا خرجة رجل واحد وصبروا ، فمَنَحَهُم الله تعالى الظفر ، وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية ، وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة ، وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ .

وكان ابنه محمد بن القاسم والياً على إشبيلية ، وثقته المدبر لأمره محمد بن زيري من أكابر البرابرة ، وقاضيه محمد بن عباد ، فعمل القاضي لنفسه ، وهو

جد المعتمد بن عباد ، وأطعم ابن زيري في التملك ، فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه ، فقتل من البرابر والسودان خلق كثير ، وابن عباد يضحك على الجميع ، فيثس القاسم ، وقنع أن يُخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم ، فأخرجوهم إليه ، فسار بهم إلى شريش . وعندما استقر بها وصل إليه يحيى ابن أخيه من مالقة ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوماً كانت فيها حروب صعاب ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمته وإسلام أهل شريش له ، وفرّ سودانه ، وحصل القاسم وابنه في يد يحيى ، وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتلته ، ولا يتركه حتى يلي الإمامة بقرطبة مرة ثانية ، فرأى الترتبص في قتله حتى يرى رأيه فيه ، فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة ، وحبسه عنده ، وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماءؤه في الإبقاء عليه لأنه لا قدرة له على الخلاص ، وكان كلما نام رأى والده علياً في النوم ينهاه عن قتله ، ويقول له : أخي أكبر مني ، وكان محسناً إلي في صفري ومُسْلِماً لي عند إمارتي ، الله الله فيه ، وامتلت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقاً بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه ، لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة ، فنُميّ إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال : أوبقي في رأسه حديثاً بعد هذا العمر ؟ فقتله سنة ٤٢٧ ، وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نيفاً عن شهرين يرون رأيهم فيمن يبائعونه بالإمامة .

ولما كان يوم الثلاثاء^١ نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أُحضِرَ المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه ، فبايعا المستظهر ، وقبلًا يده بعدما كان قد كُتب عقْد^٢ البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل ،

١ ق : حدث .

٢ قارن هذا بما في الأخيرة ١/١ : ٣٥ - ٣٦ .

٣ ك : قبل البيعة .

فبُشِّرَ اسمه ، وكتب اسم المستظهر وركب إلى القصر ، وحمل معه ابني عمه المذكورين فحبسهما ، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب ، كأبي عامر ابن شهيد المنهمك^١ في بطالته ، وأبي محمد ابن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقاله ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزلي المترف في حالته ، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والأكابر ، وبادر المستظهر باصطناع البرابر ، وأكرم مثواهم ، وأحسن مأواهم ، واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الآداب ، ونظم الشعر والتمسك بتلك الأهداب ، والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون ، وكان جماعة من أهل الشر في السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان ، فأخرج منهم شخصاً يقال له أبو غمران ، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه ، فأخرجوه وخالفه في ذلك ، ولم يقبل النصيحة ، وفعل ما أداه إلى الفضيحة ، فسعى القوم الذين خرجوا من الحبوس ، على إفساد دولته وإبدال فرجه بالحبوس ، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس ، فسعموا في خلعه مع البرابر ، وقتل في ذي القعدة من السنة التي بويج فيها وصار كأمس الدابر ، بعد سبعة وأربعين يوماً من يوم بويج بالخلافة ، وإذا أراد الله أمراً فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه ، وعمره ثلاث وعشرون سنة كأنها سنة .

ومن شعر المستظهر المذكور ، وهو من القريض المدوح صاحبه بالبلاغة المشكور^٢ :

طال عُمُرُ اللَّيْلِ عِنْدِي مَدُّ تَوَلَّعَتْ بِبِصْدَيِ
يَا غَزَالاً نَقَضَ الْعَهْدَ دَلَّ وَلَمْ يَوْفِ بَوَعْدِ
أَنْسَيْتَ الْعَهْدَ إِذْ بَيْتُ نَا عَلَى مَقَرَشِ وَرَدِ

١ ق ط : المنهك ؛ ج : المتهك .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٤٣٦ .

واعْتَنَقْنَا فِي وَشَاحٍ وَانْتَضَمْنَا نَظْمَ عَقْدٍ
وَنَجُومُ اللَّيْلِ تَسْرِي ذَهَبًا فِي لَازَوْرَدٍ

وكتب إليه شاعر في طرس مكشوط :

وَالطَّرْسُ مَبْشُورٌ وَفِيهِ بَشَارَةٌ بَيْقًا لِلْإِمَامِ الْفَاضِلِ الْمُسْتَظْهِرِ
مَلِكٌ أَعَادَ الْعَيْشَ غَضًّا مُلْكُهُ وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طَوَالُ الْأَعْصَرِ

فأجزل صلته ، وكتب في ظهر الورقة :

قَبَلْنَا الْعُدْرَ فِي بَشْرِ الْكِتَابِ لَمَّا أَحْكَمْتَ فِي فَصْلِ الْخُطَابِ

وقد قدّمنا في الباب الثالث شيئاً من هذه الأخبار ، وما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولّى الأمر ابنُ جَهْوَور في صورة الوزارة ، ثم ابنه ، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد ، حسبما ذُكر في أخباره .
ثم آل الأمر بعد ذلك كله إلى استيلاء ملوك العُدْوَة من المُلثَمين والمُوحِدِينَ ، على قرطبة ، إلى أن تسلّمها النصارى ، أعادها الله تعالى للإسلام ، كما يُذكر في الباب الثامن .

وقال صاحب «مناهج الفكر» في ذكر قرطبة ، ما ملخصه : فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة ، من البلاد الخطيرة ، فمنها قُرْطُبة ، وكانت مقر الملك ، ودار الإمارة ، وأمّ ما عداها من البلاد ، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم ، وتنقلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن ، فبنى في تجاهها مدينة سماها الزهراء ، يجري بينهما نهر عظيم ، انتهى .

[استطرد في وصف المباني العامرة]

واعلم أن المباني دالة على عظيم قدر بانيها ، كما ذكرناه في كلام الناصر

الذي طابت له من الزهراء مجانيها ، ولم يزل البلغاء يصفون المباني ، بأحسن الألفاظ والمعاني ، ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك ، زيادة في توسيع المسالك ، فمن ذلك قول ابن حمديس الصقلي^١ يصف داراً^٢ بناها المعتمد على الله^٣ :

ويا حَبَّذا دار قَضَى اللهُ أَنتَهَا يُجَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عِزٍّ وَلَا يَبْلَى
مُقَدَّسَةً لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِمَهُ مَشَى قُدُمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النَّعْلَا
وَمَا هِيَ إِلَّا خُطَّةُ الْمَلِكِ الَّذِي يَخْطُ إِلَيْهِ كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَجُلًا
إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا خِلَتْ أَنتَهَا تَقُولُ بِرَحِيبٍ لِدَاخِلِهَا أَهْلًا
وَقَدْ نَقَلْتُ صُنَاعُهَا مِنْ صِفَاتِهِ إِلَيْهَا أَفَانِيًا فَأَحْسَنْتِ النُّقْلَا
فَمِنْ صَدْرِهِ رَجَبًا وَمِنْ نَوْرِهِ سَنًا وَمِنْ صَيْتِهِ فِرْعَا وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلَا
فَأَعْلَتْ بِهِ فِي رُتْبَةِ الْمَلِكِ نَادِيًا وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ أَنْ يُعْلَى
نَسِيتُ بِهِ لِيُؤَانَ كَسْرِي لِأَتِّي أَرَاهُ لَهُ مَوْلًى مِنَ الْحَسَنِ لَا مِثْلَا
كَأَنَّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ لَمْ تُبْحَ مَخَافَتُهُ لِلْجِنِّ فِي صُنْعِهِ مَهْلَا
تَرَى الشَّمْسَ فِيهِ لَيْقَةً تَسْتَمِدُّهَا أَكْفٌ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلَا
لَهَا حَرَكَاتٌ أُودِعَتْ فِي سَكُونِهَا فَمَا تَبِعَتْ فِي نَقْلِهَا يَدُ رَجُلَا
وَلَمَّا عَشِينَا مِنْ تَوَقُّدِ نَوْرِهَا تَخِذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاطِرِنَا كَحَلَا

وقال من أخرى يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببسجاية^٤ :

١ أبو بكر عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي ، هاجر من بلده إلى الأندلس وأصبح من مداح المعتمد بن عباد ، إلى أن عزل عن ملكه (٤٨٤) فغادر الأندلس إلى المغرب وظل متنقلاً يمدح ملوكها إلى أن توفي سنة ٥٢٧ هـ (انظر مقدمة ديوانه ، ط . صادر - بيروت ١٩٦٠) .

٢ ك : في دار ؛ ق : يمدح داراً .

٣ المقتطفات (الورقة : ٢٩) وديوان ابن حمديس : ٣٧٨ .

٤ رواية الديوان :

ويا حبذا دار يد الله مسحت عليها بتجديد البقاء فما تبلى

٥ المقتطفات (الورقة : ٣٠) وديوان ابن حمديس : ٥٤٥ نقلا عن النسخ ونهاية الأرب ومطالع البدور .

اعْمُرْ بِقَصْرِ الْمَلِكِ نَادِيكَ الَّذِي
 قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ
 وَاشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ نَسِيمُهُ
 نُسِي الصَّبِيحِ مَعَ الْمَلِيحِ^١ بِذِكْرِهِ
 وَلَوْ أَنَّ^٢ بِالْإِيوَانِ قَوْبِلَ حُسْنِهِ
 أُعِيَتْ مَصَانِعُهُ عَلَى الْفُرْسِ الْأَلَى
 وَمَضَتْ عَلَى الرُّومِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا
 أَذْكَرْتَنَا الْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا
 فَالْمَحْسُونُونَ تَزِيدُوا أَعْمَالَهُمْ
 وَالْمَذْنُوبُونَ هَلُّوا الصِّرَاطَ وَكَفَّرَتْ
 فَلَكِ^٣ مِنَ الْأَفْلَاقِ إِلَّا أَنَّهُ
 أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مِنْظَرٍ
 وَظَنَنْتُ أَنِّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ
 وَإِذَا الْوَلَائِدُ فَتَحَتْ أَبْوَابَهُ
 عَضَّتْ عَلَى حَلْقَاتِهِنَّ ضِرَاجِمُ^٤
 فَكَأَنَّهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَا
 تَجْرِي الْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتٍ أَعْنَةً
 بِمَرْحَمِ السَّاحَاتِ تَحْسِبُ أَنَّهُ
 وَمُحْصَبٌ بِالْدَّرِّ تَحْسِبُ تَرْبَهُ
 تَسْتَخْلِفُ الْأَبْصَارُ مِنْهُ إِذَا أَتَى^٥

أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورًا
 أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرًا
 فَيَكَادُ يُحْدِثُ لِلْعِظَامِ^٢ نُشُورًا
 وَسَمَا فَفَاقَ خَوَرَنَقًا وَسَدِيرًا
 مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورًا
 رَفَعُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا التَّدْبِيرَا
 لِلْمُؤَكَّمِ شَبَهًا لَهُ^٣ وَنَظِيرَا
 غُرْفًا رَفَعَتْ بِنَاءَهَا وَقُصُورَا
 وَرَجَوْا بِذَلِكَ جَنَّةً وَحَرِيرَا
 حَسَنَاتُهُمْ^٤ لِدُنُوبِهِمْ تَكْفِيرَا
 حَقَرَ الْبُيُوتَ فَأَطْلَعَ الْمَنْصُورَا
 ثُمَّ^٥ انْثَبْتُ بِنَاطِرِي مَحْشُورَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْمَلِكَ فِيهِ كَبِيرَا
 جَعَلَتْ تَرْحَبُ بِالْعُفَاةِ صَرِيرَا
 فَغَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهُهَا تَكْشِيرَا^٦
 مَنْ^٧ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُورَا
 فِيهِ فَتَكْبُؤُ عَنْ مَدَاهِ قُصُورَا
 فُرْشَ الْمَاهِ وَتَوْشَّحَ الْكَافُورَا
 مَسْكَأً تَضُوعَ نَشْرُهُ وَعَبِيرَا
 صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلَامِ مُنِيرَا

١ ك : بالعظام .

٢ ك : تكيرا .

١ ك : الجنان .

٢ ك : الفصح .

٣ ق ج ط : تستخلف الاصباح منه إذا انقضى .

٤ ق ج ط : عتق .

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه ، وتقفن
فذكر أسوداً على حافاتها قاذفة بالمياه أيضاً ، فقال ١ :

وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خريبر الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضارُ جسمها وأذاب في أفواهِها البلورا
أُسْدُ كأنَّ سكُونَهَا مُتَحَرِّك في النفس لو وجدتْ هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتِها فكأنما أفعتْ على أدبارها لتشورا
وتخالها والشمسُ تجلو لونها نارا وألسنها اللواحسُ نورا
فكأنما سكتْ سيوف جداول ذابتْ بلا نارِ فعدنْ غديرا
وكأنما نسجَ النسيمُ لمانه درعا فقدَرَ سردها تقديرا
وبديعة الثمراتِ تعبُرُ نحوها عيناى بحرَ عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعَتْ إلى سحرٍ يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجتْ أغصانها فكأنما قنصتْ بهنَّ ٢ من الفضاء طيورا
وكأنما تابى لواقع ٣ طيرها أن تستقلَّ بنهضها وتطيرا
من كلِّ واقعة ترى منقارها ماء كسكسال اللجينِ نميرا
خرس تعدُّ من الفصاح فإن شدتْ جعلتْ تغردُ بالمياه صفيرا
وكأنما في كلِّ غصنِ فضة لانتْ فأرسلَ خيَظها مجرورا
وتريك في الصهريج مَوْعَ قطرها فوق الزبرجدِ لؤلؤا متشورا
ضحكتْ محاسنه إليك كأنما جعلتْ لها زهرُ النجوم ثغورا
ومصقح الأبواب تبرا نظروا بالنقش فوق شكوله ٤ تنظيرا
تبدو مساميرُ النضارِ كما علتْ تلك النهودُ من الحسانِ صدورا ٥

١ المقتطفات (الورقة : ٣٠) وديوان ابن حمديس : ٥٤٧ .

٢ ق ج ط : قد صوبت . . . قبضت بهن .

٣ ق ج ط : بين شكوله .

٥ ق ك ج ط : من الجنان صدورا .

خَلَعَتْ عَلَيْهِ غِلَاطًا وَرُسِيَّةً^١ شَمْسٌ تَرِدُ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرًا
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ سَقْفِهِ أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرًا
وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي حَامَتْ لَتَبْتِي فِي ذُرَاهُ وَكُورًا
وَضَعْتَ بِهِ صِنَاعَهُ^٢ أَقْلَامَهَا فَأَرْتِكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصَوِّرًا
وَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لَيْقَةٌ مَشَقُّوا بِهَا التَّزْوِيقَ وَالتَّشْجِيرَا
وَكَأَنَّمَا بِاللَّازُورِدِ^٣ مَخْرَمٌ بِالْخَطِّ فِي وَرَقِ السَّمَاءِ سَطُورَا
وَكَأَنَّمَا وَشَوْا عَلَيْهِ مَلَاءَةٌ تَرَكُّوا مَكَانَ وَشَاحَهَا مَقْصُورَا

ثم مدح المنصور بعد ذلك ، وختم القصيدة بقوله :

يَا مَالِكَ الْأَرْضِ الَّذِي أَضْحَى لَهُ مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْعُدَاةِ نَصِيرَا
كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ وَاسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ^٤ التَّأْخِيرَا
فَعَمَرَتْهَا وَمَلَكَتْ كُلَّ رِيَاةٍ مِنْهَا وَدَمَّرَتْ الْعِدَا تَدْمِيرَا

قلت : لم أر لهذه القصيدة من نظير ، في معناها اليبانع التضمير ، ولفظها العذب التميم ، الذي شمر فيه قائلها عن ساعد الإجابة أي تشمير ، غير أن فيها عندي عيباً واحداً ، وهو ختمها بلفظ التدمير ، وعلى كل حال فالحسن والإحسان ، يُقَادَانِ فِي أَرْسَانِ ، لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسان ، وخصوصاً في وصف المباني والبرك ، فما أبقي لسواه في ذلك حسناً ولا تترك .

ومن ذلك قوله في وصف بركة تجري إليها المياه من شاذروان من أفواه

١ ق : موشية .

٢ ك : صناعها .

٣ ك : اللازورد فيه .

٤ ق : لقصورك .

طيور وزرافات وأسود ، وكل ذلك في قصر أطنب في وصفه في قصيدة طويلة^١ :

والماء مِنْهُ سِبَائِكُ^٢ فضيَّةٌ
وكانَما سيفٌ هناك مُشَطَّبٌ
كم شاخصٍ فيه يُطِيلُ تَعَجُّباً
عَجَباً لها تَسْقِي الرِّياضَ يَنابِعاً
خُصَّتْ بِطائِرةٍ على فَنَنِ لها
قُسُّ الطيور الخاشعات بلاغةً
فإذا أُتِيحَ لها الكلامُ تَكَلَّمَتْ
وكانَ صانِعُها استبدَّ بِصَنعَةٍ
أوقَتَ على حَوْضٍ لها فكانَها
فكانَها ظنَّتْ حلاوةَ مائها
وَزَرَّافَةٌ في الجوفِ من أنبوبيها
مركوزة كالرمحِ حيثُ ترى له
وكانَما تَرْمِي السماءَ بِبُندُقٍ
لو عاد ذاك الماءُ نَفْطاً أحرقت
في بَرَكَةٍ قامت على حافاتها
نَزَعَتْ إلى ظِلْمِ النفوسِ نفوسُها
وكانَ بَرْدُ الماءِ مِنْها مُطْفِئٌ
وكانَما الحياتُ من أفواهاها
وكانَما الحيتانُ إذ لم تَخْشَها

ذابتْ على دَوَّحاتٍ شاذِرَوانٍ
ألقتهُ يومَ الحربِ كَفُّ جَبانٍ
من دَوَّحةٍ نبتَتْ من العقيانِ
نبتَتْ من الثمراتِ والأغصانِ
حَسُنَتْ فَأفردَ حُسْنُها من ثاني
وفصاحةٍ من مَنطِقٍ وبيانٍ
بِخَرِيرِ ماءٍ دائِمٍ الهَمَلانِ
فخَرَّ الجَمادُ بها على الحيوانِ
منها على العَجَبِ العُجابِ رَوَّانٍ
شهداً فذاقتهُ بكلِّ لسانٍ
ماءٌ يُريكِ الجَحْرِيَّ في الطيرانِ
من طعنه الخلقَ انعطافَ سنانٍ
مُسْتَنبِطٍ من لؤلؤٍ وجُمانٍ
في الجَوْءِ مِنْهُ قَميصٌ كلَّ عَنانٍ
أُسْدٌ تذللُ لِعِزَّةِ السلطانِ
فلذلك انتزَعَتْ من الأبدانِ
ناراً مُضَرِّمةً من العدوانِ
يَطْرَحْنَ أَنفُسَهُنَّ في الغُدرانِ
أخذتْ من المنصورِ عقدَ أمانِ

١ المقتطفات (الورقة : ٣٢) وديوان ابن حديد : ٤٩٥ ، ونهاية الأرب .

٢ ك : من فضة .

٣ ك : درجات .

٤ ق ج ط : بنيت .

وهاتان القصيدتان لابن حمديس - كما في المناهج - مع طولهما تدلان على الإبداع الذي ابتكره ، والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره ^١ .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ^٢ يصف قصراً بمصر يسمى « منزل العز » بناه حسن بن علي [بن يحيى] بن تميم بن المعز العبدي ^٣ :

منزلُ العزِّ كاسمه معناهُ لا عدا العزُّ منْ به سماءُ
منزلٌ ودَّتْ المنازلُ في أعلى ذراه لو صيرتْ إياهُ
فأجلٌ فيه لحظة عينيك تبصرُ أيَّ حُسنٍ دون القصورِ حواه
سال في سقفه النضارُ ولكنْ جمدت في قراره الأمواه
وبأرجائه مجالُ طرادٍ ليس تهلكُ من وعى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدُمى من الطعان قتاه
وترى النابل المواصل للنز ع بعيداً من قرنيه مرماه
وصفوفاً من الوحوش وطيرٍ لا جوَّ كلُّ مُستحسنٍ مرآه
سكناتٌ تحالها حركاتٍ واختلافٌ كأنه إشباه

١ زاد في ك : لما أسكره .

٢ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز : ولد بدانية سنة ٤٦٠ ثم رحل إلى الإسكندرية أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبي تميم معد ، وسجن بمصر مدة ، ثم عاد إلى المغرب فاتصل بيحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ؛ وتوفي سنة (٥٢٩) وكان أبو الصلت طبيباً شاعراً ومن مؤلفاته كتاب الحديقة ، والرسالة المصرية (وقد نشرت هذه بتحقيق عبد السلام هارون في سلسلة نواذر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥١) . انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٢ ومجمع الأدباء ٧ : ٥٢ وتحفة القادم ص : ٣ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٠ وتاريخ الحكماء ٨٠ والمغرب ١ :

٢٥٦ .

٣ كلمة العبدي هنا مضللة لأن « حسن بن علي بن تميم بن المعز » أحد سلاطين بني زيري بالقيروان وكان المعز عبدياً بالتبعية أي يدين للبيديين ولكنه تنكر لهم سنة ٤٤١ وعاد إلى مذهب أهل السنة ؛ وحسن لا يبي قصرأ بمصر ، ولا بد من أن يكون المقرئ قد وهم فذكر قصراً بناه أحد العبديين بمصر أو بناه حسن بالمهدية . أما الشاعر تميم بن المعز العبدي فكان عقيماً (الحلقة ١ : ٢٩١) .

كُحَيَّا الحبيب حرفاً بحرف
وَزَدُهُ وَجَتَاهُ ، نرجسه الفة
وَكَانَ الكافور والمسك في الطيب
منظرٌ يبعث السرور ومرأى
ما تعدَّى صفاته إِذْ حكاه
انْ عَيْنَاهُ ، آسُهُ عارضاه
بِ وفي اللون صُبحه ومَسَاه
يذكر المرء طيب عَصْرِ صباه

وقال أبو الصَّلْت أمية الأندلسي
ابن المعزَّ العبَّيْدِي :

لله مجلسك المنيفُ قبابُهُ
مُوفٍ على حُبِّكَ المجرَّة تَلْتَقِي
تتقابلُ الأنوارُ من جنباتِهِ
عَطَفَتْ حَنَائِيهِ دُورَيْنَ سَمَائِهِ
واستشرفتُ عمْدَ الرخام وظهورتُ
فهواؤُهُ من كلِّ قَدَةٍ أَهْيَفٍ
فَلَيْكَ نَحِيرٌ فِيهِ كُلُّ مَنْجَمٍ
فَبِدا لِللَّحْظِ العَيْنِ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ
فاطلعْ به قمرًا إِذَا ما أَطْلَعْتَ
فالناسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رَتَبَةٌ
بموطَّدٍ فوق السَّمَاءِ ٢ مؤسَّسٍ
فيه الجوّاري بالجوّاري الكُنُوسِ
فالليلُ فيه كالنَّهارِ المَشْمِسِ
عَطَفَ الأهلَةُ والحواجب والقِيسِ
بأجلٍ من زهر الربيعِ وأنفَسِ
وقرارُهُ من كلِّ حَدٍّ أَمْلَسِ
وأقرَّ بالتقصيرِ كلُّ مُهَنْدِسِ
وغدا لطيب العَيْشِ خَيْرٌ ٣ مُعْرَسِ
شمسُ الحدورِ عليك شمسُ الأكْوَاسِ
والأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هَذَا المَجْلَسِ

ويُعْجِبُنِي قول أبي الصَّلْت أمية المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه :

والله مَجْرَى النيل منها إِذَا الصَّبَا
إِذَا زَادَ يَحْكِي الوردَ لَوْنًا وَإِنْ صَفَا
أَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَرَّهَا عَسْكَرًا مَجْرًا
حَكِي مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَعْلَهُ نَشْرًا ٤

١ تحفة القادم : يحيى بن تميم .

٢ ق ج ط : السماء .

٣ ك : ولم يحكه مرا .

٤ ك : طيب .

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر :

يا نَزْهَةَ الرصد اللّائي قَدْ اشْتَمَلَتْ من كلّ شيء حلا في جانب الوادي^١
فذا غَدِيرٌ ، وذا رَوْضٌ ، وذا جَبَلٌ والضبُّ والنونُ والملاحُ والحادي
وهو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة^٢ :

زُرُّ وادي القصر ، نعم القصرُ والوادي لا بُدَّ من زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعادِ
زُرُّهُ فَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ يُشَاكِلُهُ من منزلٍ حاضِرٍ إن شئت أو بادي
تلقَى به السُّفْنُ والظلمان حاضِرَةً والضبُّ والنونُ والملاحُ والحادي
وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين^٣ :

بَعِيشِكَ هل أبصرت أحسنَ منظرًا على طول ما عايَنت من هَرَمِيٍّ مِصرِ
أنافا بأعنانٍ السّماء ، وأشرفا على الجوّ إشرافَ السّماكِ أو النّسرِ^٤
وقدَ وافيا نَشْرًا مِنَ الأرضِ عالياً كأنهُما ثديانٍ^٥ قاما على صدرِ

وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى في الباب الخامس .

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف ببركة
عليها عدّة فوّارات^٦ :

غَضِبَتْ مجاريها فأظْهر غَيْظُها ما في حشاها من خَفِيٍّ مُضْمَرِ

١ ق ط : النادي .

٢ الشعر لابن أبي عيينة المهلبى كما في الأغاني ٢٠ : ٣٧ (دار الثقافة) ومعجم البلدان (قصر عيسى) مع بعض اختلاف في الرواية .

٣ الأبيات في مسالك الأبصار ١ : ٢٣٧ وبدائع البداهة : ١٣٦ (ط . بولاق) .

٤ ك : بأكناف .

٥ ك : على النسر .

٦ ك : نهْدان . ٧ المقطعات (الورقة : ٣٣) .

وَكأنَ نَبَعَ الماءَ من جَنابَها والعينُ تَنظُرُ منه أحسنَ منظرٍ
قُصِبُ من البلورِ أثمرَ فَرَعُها لَمّا انتهت بالؤلؤِ المتحدِّرِ

وقال ابن صارة الأندلسي^١ يصف ماء بالركة والصفاء^٢ :

والنهرُ قد رَقَّتْ غِلالُهُ خَصَره وعليه من صِبغِ الأصيل طِرَازُ
تَتَرَقُّقُ الأمواجُ فيه كأنَّها عُكِنُ الحُصُورِ تهزها الأعجازُ

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرني الآن اسمه^٣ :

والنهرُ مكسوٌ غِلالةً فضَّةً فإذا جرى سيلاً فتوبَ نُضارِ
وإذا استقام رأيتَ صفحةً مُنصَّلِ وإذا استدار رأيتَ عطفَ سِوارِ

وقال ابن حَمْدِيسَ المغربي يصف نهراً بالصفاء^٤ :

ومُطَرَّدِ الأمواجِ يصقلُ متته صَباً أعلنتُ للعين ما في ضميره
جريحاً بأطرافِ الحصى كلَّما جرى عليها شكا أوْجاعهُ بَحْرِيَّره

وهذا النهج متسع ، ولم نطل السير في هذه المهامه ، وإنما ذكرنا بعض
كلام المغاربة ليتنبه به مُبتَدِئُهم من سِنَةِ أوامه ، ولأن في أمرها عبرة لمن
عقل ، إذا أصدأ مرآة حسنُها ولطالما كان لمتنها صَقَل .

١ ابن صارة الأندلسي : أبو محمد عبد الله بن صارة الشنتريني (ويكتب أيضاً : سارة بالسين)
سكن إشبيلية وتعيش فيها بالورقة وتجول في بلاد الأندلس مادحاً (توفي سنة ٥١٧) . انظر
ترجمته في الذخيرة ، القسم الثالث : ٣٢٣ والمغرب ١ : ٤١٩ والقلائد : ٢٦٠ والتكملة :
٨١٦ ومسالك الألبصار ١١ : ٣٨٣ وأخبار وتراجم أندلسية : ١٥ ؛ وهذه الأبيات في المقتطفات
(الورقة : ٣٣) .

٢ زاد في ك : يجري على الصفا .

٣ المقتطفات (الورقة : ٣٣) .

٤ ديوان ابن حَمْدِيس : ١٨٦ والمقتطفات (الورقة : ٣٣) .

[البكاء على خراب العمران]

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصاً ، وهو : ونُلحِقْ بذكر المنازل التي راق منظرها ، وفاق مخبرها ، وارتفع بناؤها ، واتسع فناؤها ، طَرَفاً من الكلام على ما عفاه الدهرُ من رسومها ، ومحاها من محاسن صُور كانت أرواحاً لجسومها .

وصف أعرابي محلة قوم ارتحلوا عنها فقال نثراً : ارتحلت عنها ربّات الخُدُور ، وأقامت بها أثافي القدور ، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم ، وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم ، والعهد قريب ، واللقاء بعيد .

وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن^١ :

يا دارُ أُمسَى دارساً رَسْمُهَا وَحُشّاً قَفاراً ما بيها آهِلُ
قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ بِهَا ذَيْلَهَا وَاسْتَنَّ فِي أَطْلَالِهَا الْوَابِلُ

ومن كلام الفتح بن خاقان ، في قلائد العقيان ، يذكر آل عبّاد من فَصْل أكثر فيه التَفَجُّع ، وأطال به التوجّع^٢ : والغصون^٣ تختال في أدواحها ، والأزاهر يُحْيِي مِيتَ الصَّبَابَةِ شَدّاً أرواحها^٤ ، وأطيّارُ الرِّياضِ قد أشرفت عليهم^٥ كَشْكَالِي يَنْجُنْ عَلَى خَرَابِهَا ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار منها غُرَاب ناعِب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلّصت ظلّالها وأفياها ، ولطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من

١ ديوان عمر : ٣٠١ .

٢ قلائد العقيان : ١٠ .

٣ ق ل ج ط : والقصور .

٤ القلائد : وتثنى في أكف أرواحها .

٥ القلائد : وآثار الديار .

٦ قد أشرفت عليهم : زيادة من القلائد .

شَدَّاهُمْ وَأَرْجَتَ^١ ، أَيَّامَ نَزَلُوا خِلَالَهَا ، وَتَفَيَّأُوا ظِلَّالَهَا ، وَعَمَرُوا حَدَاقَتَهَا
وَجَنَّاتِهَا ، وَنَبَّهُوا الْآمَالَ مِنْ سِنَاتِهَا ، وَرَاعُوا اللَّيْثَ فِي آجَامِهَا ، وَأَخْجَلُوا
الْغَيُوثَ عِنْدَ انْسِجَامِهَا ، فَأَصْبَحَتْ وَلَهَا بِالتَّدَاعِي^٢ تَلَفُّعٌ وَاعْتِجَارٌ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ
آثَارِهَا إِلَّا نُؤْيٍ وَأَحْجَارٌ ، قَدْ هَوَتْ قِيَابُهَا ، وَهَرِمَ شَبَابُهَا ، وَقَدْ يَلِينُ
الْحَدِيدُ ، وَيَبْتَلَى عَلَى طِيَّةِ الْحَدِيدِ .

وقال أبو صخر القرطبي يذكر ذلك من أبيات ينعمهم بها :

دِيَارَ عَلَيْنِهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا بَقَايَا تَسْرُ النَّفْسَ أَنْسَاً وَمَنْظَرَا
رُبُوعَ كَسَاهَا الْمَرْزُومُ مِنْ خَلِيعِ الْحَيَا بُرُوداً وَحَلَاها مِنَ النُّورِ جَوْهَرَا
تَسْرُكُ طَوْرًا ثُمَّ تُشْجِيكَ تَارَةً فَرْتَاخُ تَأْنِيسَاً وَتَشْجِي تَذْكَرَا

ومن كلام أبي الحسن القاشاني يصف نادي رئيس خلا من ازدهام الملا ،
وَعَوَضَهُ الزَّمَانُ مِنْ تَوَاصُلِ أَحِبَّابِهِ هَجْراً وَقِلِي : « قَدْ كَانَ مَمْتَرُهُ مَأْلَفَ
الْأَضْيَافِ ، وَمَأْنَسَ الْأَشْرَافِ ، وَمُسْتَجْعَ الرِّكَبِ ، وَمَقْصِدَ الْوَفْدِ ،
فَاسْتَبَدَلَ بِالْأَنْسِ وَخَشَّةً ، وَبِالضِّيَاءِ ظُلُمَةً ، وَاعْتَاضَ مِنْ تَزَاحُمِ الْمَوَاقِبِ ،
تَلَاطُمَ النَّوَادِبِ ، وَمِنْ ضَجِيجِ النَّدَاءِ وَالصَّهِيلِ ، عَجِيجَ الْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ » .
ومن رسالة لابن الأثير الجزري يصف دِمْنَةَ دَارٍ^٣ لعبت بها أيدي الزمن ،
وَفَرَقَتْ بَيْنَ الْمَسْكَنِ وَالْمَسْكَنِ : « كَانَتْ مَقَاصِيرَ جَنَّةٍ ، فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَلَاعِبُ
جَنَّةٍ ، وَقَدْ عَمِيتْ أَخْبَارُ قُطَّانِهَا ، وَآثَارُ أَوْطَانِهَا ، حَتَّى شَابَهَتْ لِاحِدَاهُمَا فِي
الْحَقَاءِ ، الْأُخْرَى فِي الْعَقَاءِ ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا لَا تُسْقَى بَعْدَهُمْ بِغَمَامٍ ، وَلَا
يُرْفَعُ عَنْهَا جَلِيبَابُ ظَلَامٍ ، غَيْرَ أَنَّ السَّحَابَ بَكَاهُمْ فَأَجْرَى بِهَا هَوَامِعَ دُمُوعِهِ ،
وَاللَّيْلَ شَقَّ عَلَيْهِمْ جَيُوبَهُ فَظَهَرَ الصَّبَاحُ مِنْ خِلَالِ صُدُوعِهِ » .

١ ك : وتأرجت .

٢ بالتداعي : زيادة من القلائد .

٣ دار : سقطت من ك .

وقد لمح في بعض كلامه قول الشريف^١ من أبيات يصف فيها ما كان في
الحيرة من منازل النعمان بن المنذر^٢ :

ما زلتُ أطرقُ المنازلَ باللّوى	حتى نزلتُ منازلَ النّعمانِ
بالحيرةِ البيضاء حيث تقابلتُ	شمَّ العِمادِ عريضةَ الأعطانِ
شهدتُ بفضلِ الرّافعينَ قبابها	ويبينُ بالبنانِ فضلُ الباني
ما ينفعُ الماضين أن بقيتُ لهم	خططُ مَعْمَرَةٍ بِعُمُرٍ فاني

يقول فيها :

ولقد رأيتُ بديراً هندٍ منزلاً	ألاً من الضّرّاء والحِدْثانِ
يغضّي كستَمعِ الهوانِ تغيّبتُ	أنصارُهُ وخلا من الأعوانِ
بالي المعالمِ أطرقتُ شرفاته	إطراقَ مُنجذبِ القرينةِ عاني
أَمَقاصِرِ الغِزلانِ غيرَكَ البلى	حتى غدوتِ مَرايضَ الغِزلانِ
وملاعبِ الإنسِ الجميع طوى الردى	منهمُ فصِرتِ ملاعبَ الحِثانِ

ومنها :

مِسْكِيَّةُ النّفحاتِ تحسبُ تَرْبِها	بُرْدَ الخَلِيعِ مُعَطَّرَ الأُردانِ
وكانتْما نَسِيَّ التّجارِ لَطِيمَةً	جَرَّتِ الرّياحُ بها على الصّيعانِ ^٣
ماء كجيبِ الدّرعِ يَصْقِلُهُ الصّبا	ويفي بدَوْحَتِهِ النّسيمُ الواني
زَفَرَ الزّمانُ عَلَيهِمُ فَتَفَرَّقُوا	وجلّوا عن الأوطار والأوطانِ

١ يعني الشريف الرضي .

٢ ديوان الشريف ٢ : ٤٦٨ .

٣ ق ك والديوان : المقيان .

٤ الديوان : ونقا يدرجه .

وقال أبو إسحاق الصابي ، وتواردَ مع الشريف الرضي في المعنى والقافية ،
يصف قصر رَوْحٍ بالبصرة^١ :

أَحْبَبَ إِلَيَّ بِقَصْرِ رَوْحٍ مِثْلَ
سُورٍ عَلا وَتَمَنَعَتْ شُرُفَاتُهُ
شَهِدْتُ بِنَيْتِهِ بِفَضْلِ الْبَابِ
فَكَأَنَّ إِحْدَاهُنَّ هَضْبُ أَبَانٍ
وَكَأَنَّمَا يَشْكُو إِلَى زُورِهِ
بَيْنَ الْخَلِيطِ وَفُرْقَةِ الْخَيْرَانِ
وَكَأَنَّمَا يُبْذِرُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ
إِطْرَاقَ حَزُونِ الْحَشَا حِرَّانِ

ولأحمد بن فرج الإلييري من أبيات :

سَأَلْتُ بِهَا فَمَا رَدَّتْ جَوَاباً
وَمِنْ سَفَهٍ سَوَّالِكَ رَسْمَ دَارٍ
عَلَيْكَ ، وَكَيْفَ تَجْبِرُكَ الطَّلُولُ ؟
مَضَى لَعَنَاتِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ
فَإِنْ تَكُ أَصْبَحْتَ قَفْراً خَلَاءَ
لَعَيْنِكَ فِي مَغَانِيهَا هُمُولٌ
فَقَدْ مَا قَدْ نَعِمْتَ قَرِيرَ عَيْنٍ
بِهَا وَبَرَبْعِهَا الرِّشَاءُ الْكَحِيلُ

وقال أبو عبد الله بن الحنَّاط^٢ الأندلسي الأعمى :

لَوْ كُنْتُ تَعَلَّمْتُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ نَارٍ
يَا دَارَ عُلُوَّةٍ قَدْ هَيَّجَتْ لِي شَجَنًا
لَمْ تَوْقِدِ النَّارَ بِالْهِنْدِيِّ وَالْغَارِ
وَزِدْتَنِي حُرْقًا ، حُبَيْتَ مِنْ دَارٍ
كَمْ بَتُّ فَيْكَ عَلَى اللَّذَاتِ مُعْتَكِفًا
وَاللَّيْلُ مُدَّرَّعٌ ثَوْبًا مِنَ الْقَارِ
كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي الْمَسْحِ مُلْتَحِفٌ
شَدَّ الْمَجْدُ لَهُ وَسَطًا بِزُنَّارٍ
يُذِيرُ فِيهِ كَوْوَسَ الرَّاحِ ذُو حَوَرٍ
يُذِيرُ مِنْ طَرَفِهِ^٣ الْحَاظَ سَحَّارِ

ولا مزيد في التفجع على الديار ، والتوجع للدمن والآثار ، على قول
البحري من قصيدة يرثي بها المتوكل^٤ :

١ أبيات الصابي في البيتية ٢ : ٢٦٩ . ٢ في الأصول : ابن الحياط .

٣ ك : من لفظه .

٤ ديوان البحري : ١٠٤٥ (القصيدة رقم : ٤١٣) .

عَلَّ عَلَى الْقَاطُولِ أَخْلَقَ دَائِرُهُ
 كَانَ الصَّبَا تُوْفِي نَدُوراً إِذَا انْبَرَتْ
 وَرُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثُمَّ عَهْدُهُ
 تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنْثَى
 تَحْمَلُ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً
 إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى
 وَلَمْ أُنْسِ وَحْشَ الْقَصْرِ إِذْ رِيحُ سِرْبِهِ
 وَإِذْ صَبِيحٌ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَكَتْ
 وَأَوْحَشَهُ^٣ حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ
 كَانَ لَمْ تَبَتْ^٤ فِيهِ الْخِلَافَةُ طَلْفَةً
 وَلَمْ تَجْمَعْ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بَهَاءَهَا
 فَأَيْنَ الْحِجَابُ الصَّعْبُ حَيْثُ تَمْنَعَتْ
 وَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ تَوْبَةٍ

وعلى قول أبي إسحاق بن خفاجة الأندلسي^٥ :

وَمُرْتَبَعٌ حَطَّطَتْ الرَّحْلُ فِيهِ
 تَخَرَّمَ حُسْنُ مَنْظَرِهِ مَلِكٌ
 بَحِثُ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الْقَرَّاحُ
 تَخَرَّمَ مُلْكُهُ الْقَدَرُ الْمُتَّاحُ
 فَجَرِيَّةُ مَاءِ جَدْوَلِهِ بَكَاءُ
 عَلَيْهِ ، وَشَدْوُ طَائِرِهِ نَوَّاحُ

وهذا النوع من البكاء على الدمن ، والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن ،

١ القاطول : نهر كان في موضع سامرا قبل عمرائها ؛ وفي ق ك ج ط : تغادره .

٢ الجعفري : قصر للمتوكل .

٣ الديوان : ووحشته .

٤ ق ط ج : لم يقيم .

٥ ق ك : تبين .

٦ ديوان ابن خفاجة : ١٣٧ ، يقولها في صفة مصنع جميل خلع سلطانه .

كثير جدّاً ، لا يعرف الباحث عنه له حدّاً ، وذلك لشدة وَلَوْع النفوس بذكر أحبابها ، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن أطرابها ، ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة ، وجعلناها نُغْبَةً^١ يشفي المشوقُ بها غليله ، وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنّه لا يُجْدِي ، ولا يدفع عادية الدهر الخثّون ولا يُعْدي ، ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب ، المجرّع لصاحبه المصاب والأوصاب .

قال أبو عمر بن عبد البر :

عَفِيَ المنازل غير أَرْسُمِ دِمْنَةٌ حَيَّتُهَا من دِمْنَةٍ ورُسُومِ
كم ذا الوقوف ولم تَقِفْ في منسكٍ كم ذا الطواف ولم تطفُ بحريمِ
فكِلِ الديار إلى الجنائب والصَّبَا ودَعَ القِفَار إلى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار .

رجع إلى قرطبة - فنقول :

[رسائل للسان الدين]

وقد أَلَمَّ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه بجملة في الباب الخامس من القسم الثاني فليراجع ثَمَّة ، ونص محلّ الحاجة منه هنا : ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومثوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل ، والكرسي^٢ الذي بعصاه رُعي الهَمَل ، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمال^٣ ، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمِيَّة الحمل ، فخيم الإسلام

١ ك : نبعة ؛ هامش ج : بلغة .

٢ ك : والمصر والمعمور الذي . إلخ .

في عقوتها^١ المستباحة ، وأجاز نهرها المعيني على^٢ السباحة ، وعمّ دوحها
 الأشيب بواراً ، وأدار المحلات بسورها سواراً ، وأخذ بمُخَنَّقها حصاراً ،
 وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصاراً ، وجدّل من أبطالها من
 لم يرصّ انجحاراً ، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً ، حتى قرع بعض جهاتها
 غلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلماً بعزّ الإسلام وإظهاراً ، فلولاً استهلال
 الغوادي ، وأن أتى الوادي ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي ، ولقضى
 تَفَثَه العاكفُ والبادي . انتهى .

وممّا كتب به لسان الدين - رحمه الله تعالى - في وصف هذه الغزوة
 لسلطان بني مرّين على لسان صاحب الأندلس ، ما صورته : المقامُ الذي نُطالعه
 بأخبار الجهاد ، ونُهدي إليه عواليّ العواليّ صحيحة الإسناد ، ونبشره بأخبار
 الفتح البعيد الآماد ، ونسأل الله تعالى له تواليّ الإسعاف ودوام الإسعاد والإمداد^٣ ،
 ونرتقب من صنّع الله تعالى على يديه تكييفاً يخرج حجاب المعتاد ، وامتناعاً
 يُطْلِعُ بِآفاق البلاد نجومَ غرر الجياد ، ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف
 الحِداد ، وينبئ عن مكارم منّ سلف من الآباء الكرام والأجداد ، مقامُ
 محلّ أحنينا الذي نستفتح له بالفتح والظهور ، ونهدي إلى مجده لما نعلم من
 فضل نيّته وحسن قصده لطائف السرور ، ونستظهر بملكه المؤيد المؤمل
 ومجده المشهور ، ونتوعد منهما العدوّ بالحبيب المتذخّر والولي المنصور ،
 السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالي القدر ،
 قرير العين منشرح الصدر ، ولا زال حديث فخره سائراً مسير الشمس والبدر ،
 عَظُمَ سلطانه الخليقَ بالتعظيم ، الواصل منه بالذخّر الكريم ، المثني على

١ ك : في عقوتها ؛ ق ط : بمقرتها ، والعقوة - بالواو - : الساحة .

٢ ك : المغني عن .

٣ ك : تواليّ الأسعاف والامداد ؛ وسقطت « الامداد » من ط ج .

٤ المؤيد : زيادة في ك .

مجده الصَّميم وفضله العميم ، أميرُ المسلمين عبد الله الغني بالله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر: سلام كريم ، برّ عميم ، ينحس مقامكم الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله ربّ العباد ، ومُلهِم الرِّشاد ، ومُكَيِّف الإِسعاف والإِسعاد ، الولي النصير الذي نُلْقِي إلى التوكّل عليه مقاليد الاعتماد ، ونعد إلى إنجاده ! أيدي الاعتداد ، ونرفع إليه أكف الاستمداد ، ونُخلص لوجهه الكريم عمل الجهاد ، فتتعرّف عوارف الفضل المزداد ، ونجتني ثمار النصر من أغصان القنا الميَّاد ، ونجتلي وجوه الصنع الوسيم أبهر من وجه الصباح الباد ، ونظفر بالنعيم العاجل في الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الأشهاد ، ونستقيّ ظلال الجنة من تحت أوراق السيوف الحِداد ، والصَّلَاة على سيّدنا ومولانا محمد رسوله النبيّ الهاد ، رسول المُنحَمّة المؤيَّد^١ بالملائكة الشداد ، ونبيّ الرحمة الهامية العِهاد ، أكرم الخلق بين الرائح والغاد ، ذي اللواء المعقود والحوّض المورود والشفاعة في يوم التناد ، الذي بجاهه نجدع أنوف الآساد يوم الجِلاد ، وببركته تنال أقصى الأمل والمراد ، وفي مَرْضاته نصل أسباب الوداد ، فنعود بالتجّر الرابع من مَرْضاة رب العباد ، ونستولي من ميدان السعادة المعادة على الآماد ، والرضى عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء الأجماد ، دعائم الدين من بَعْده وهُدَاة العباد ، أنجاد الأنجاد وآساد الآساد ، الذين ظاهروه في حياته بالحلوم الراجحة الأطواد ، والبَسالة التي لا تُنال بالعدَد في سبيل الله والأعداد ، حتى بَوَّأوا الإسلام في القواعد الشهيرة والبِلاد ، وأرغموا أنوف أهل الجحد والإلحاد ، فأصبح الدين رفيع العِماد ، منصور العساكر والأجناد ، مستصحب العزّ في الإصدار والإيراد ، والدعاء لمقامكم الأعلى بالسعد الذي يُغني عن اختيار الطوالع وتقويم الميлад ، والنصر الذي تُشرق أنباؤه في

١ ك : انجاده وامداده .

٢ ط : المؤيدة .

جَنَحَ لَيْلَ الْمَدَادِ ، وَالصَّنْعَ الَّذِي تُشْرِعُ لَهُ أَبْوَابُ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ ، مِنْ حَمْرَاءِ
غَرْنَاطَةِ حَرَسِهَا اللَّهُ وَالْيَسَرَ وَثِيقَ الْمِهَادِ^١ ، وَالْخَيْرَ وَاضِحَ الْأَشْهَادِ ، وَالْحَمْدَ
لِلَّهِ فِي الْمَبْدِئِ وَالْمَعَادِ ، وَالشُّكْرَ لَهُ عَلَى آلَائِهِ الْمُتَّصِلَةِ التَّرْدَادِ ، وَمَقَامِكُمُ الذَّخِرَ
الْكَافِيَ الْعَتَادِ ، وَالْمَرَدَّدَ الْمُتَكَفَّلَ بِالْإِنْجَادِ ، وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ سَعْدَكُمْ ، وَحَرَسَ
مَجْدَكُمْ ، وَوَالَى نَصْرَكُمْ وَعِصْدَكُمْ^٢ وَبَلَّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ أَمْلَكُمْ
وَقَصْدَكُمْ ، فَإِنَّا نَوَثِّرُ تَعْرِيفَكُمْ بِتَافِهِ الْمَتَزِيدَاتِ^٣ ، وَنُورِدُ عَلَيْكُمْ أَشْثَاتَ^٤
الْأَحْوَالِ الْمُتَجَدِّدَاتِ ، إِقَامَةً لِرِسْمِ الْخُلُوصِ فِي التَّعْرِيفِ بِمَا قُلْنَا ، وَمُودَةً
خَالِصَةً فِي اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ التَّعْرِيفُ بِمَا تَهْتَرُ مِنْابِرِ الْإِسْلَامِ
ارْتِياحاً لَوُرُودِهِ ، وَتَشْرِحَ الصَّدُورِ مِنْهُ لِمَوَاقِعِ فَضْلِ اللَّهِ وَجُودِهِ ، وَالْمَكِيفَاتِ
الْبَدِيعَةِ الصِّفَاتِ فِي وَجُودِهِ ، وَهُوَ أَنَّنَا قَدَّمْنَا إِعْلَامَكُمْ بِمَا نَوَيِّنَا مِنْ غَزْوِ
مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ أُمِّ الْبِلَادِ الْكَافِرَةِ ، وَمَقَرِّ الْحَامِيَةِ الْمَشْهُودَةِ^٥ وَالْخَيْرَاتِ الْوَافِرَةِ ،
وَالْقُطْرِ الَّذِي عَهْدُهُ بِالْإِسْلَامِ مُتَقَادِمٌ ، وَالرَّكْنِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّعُ صَدْمَةً
صَادِمَةً ، وَقَدْ اشْتَمَلَ سُورُهَا مِنْ زُعَمَاءِ مِلَّةِ الصَّلِيبِ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ بِئِيسٍ^٦ ،
وَهَزْبٍ بِرِ خَيْسٍ^٧ ، وَذِي مَكْرٍ وَتَكْلِيسٍ ، وَمَنْ لَهُ سِمَةٌ تَذِيعُ مَكَانَهُ وَتَشِيعُهُ ،
وَأَتْبَاعَ عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَةِ طَيعُهُ ، فَاسْتَدْعَيْنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقْصَايِ الْبِلَادِ ،
وَأَذْعَنَّا فِي الْجِهَاتِ نَفِيرَ الْجِهَادِ ، وَتَقَدَّمْنَا إِلَى النَّاسِ بِسَعَةِ الْأَزْوَادِ ، وَأَعْطَيْنَا
الْحَرَكَةَ الَّتِي تَخْلِفُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا وَرَاءَهُمْ جَمْهُورَ الْكُفْرِ مِنَ الْأَقْطَارِ وَالْأَعْدَادِ
حَقَّقَهَا مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ ، وَأَفْضَيْنَا^٨ الْعَطَاءَ وَالِاسْتِلْحَاقَ وَالِاسْتِرْكَابَ فِي أَهْلِ الْغَنَاءِ

١ ك : قَدْ وَطَأَ الْمِهَادَ .

٢ زَادَ فِي ك : وَعَدَدَكُمْ وَعَدَدَكُمْ .

٣ ق : الْمَتَزِيدَاتِ . ٤ ق : بَعْدَ الشَّتَاتِ .

٥ ق : الشَّهِيرَةِ .

٦ بَيْسٍ : سَقَطَتْ مِنْ ق .

٧ ق وَدُوزِي : خَيْسٍ ؛ وَالْخَيْسُ : الْفِيلُ .

٨ ك : وَأَفْضَيْنَا .

وأبطال الجلال ، فحشر الخلق في صعيد ، وأخذوا الأهبة والزينة في عيد سعيد ،
وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعد ، ورحلنا وفضلُ الله شامل ،
والتوكل عليه كافٍ كافل ، وخيمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس
آرابهم ، واستكملوا أسرابهم ، ودُسنا منهم بلادَ النصارى بجموع كثراها
الله وله الحمد وأنماها ، وأبعد في التماس ما عنده من الأجر مُنتماها ، وعندما
حلكتنا قاشرة^١ وجدنا السلطان دُونُ بيطرُه مؤمل نصرنا وإنجادنا ، ومستعيد حفظه
من لواحق^٢ جهادنا ، ومقتضي دين كدحه بإعانتنا إياه وإنجادنا ، قد نزل
بظاهرها في محلات ممن استقر على دعوته ، وتمسك بطاعته ، وشمله حكم
جماعته ، فكان لقاؤنا إياه على حالٍ أقرت عيون المسلمين ، وتكفلت بإعزاز
الدين ، ومجملها يغني عن التعيين ، والشرح والتبيين ، ورأى هو ومن معه من
وفور جيش الله ما هالهم ، وأشك في حال اليقظة خيالهم ، من جموع تسدُّ
الفضا ، وأبطال تقارع أسود الغضا ، وكتائب منصوره ، ورايات منشورة ،
وأمم محشورة ، تفضل عن مرأى العين ، وتردي العدو في مهاوي الحين ،
فاعترفوا بما لم يكن في حسابهم ، واعتبر في عزة الله سبحانه أولو ألباهم ،
وإذا كثر الله تعالى العدد نما وزكا ، وإذا أزاح العليل ما اعتذر غازٍ ولا شكا ،
وسالت من الغد الأباطح بالأعراف ، وسمت الهوادي إلى الاستشراف ، وأخذ
الترتيب حقّه من المواسط الجهادية والأطراف ، وأحكمت التعبئة التي لا ترى
العين فيها خفلاً ، ولا يجدُ الاعتبار^٣ عندها دخلاً ، وكان التزول على فرسخ
من عُدوة النهر الأعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وعدَ دمارها ، وأعادها
إلى عهدتها في الإسلام وشعارها ، وعما ظلام الكفر من آفاقها بلمة الإسلام وأنوارها ،
وقد برزت من حاميتها شوكة سابعة الدروع ، وافرة الجموع ، واستجنت

١ قاشرة : ذكر ياقوت أنها من أحواز لبلة ؛ وفي اللجة البدرية : قشرة ؛ وفي ق ج : ناشرة .

٢ ك : مواقع .

٣ ق ط ج ودوزي : الاختيار ، وصوابها « الاختيار » .

من أسوار القنطرة العظمى بحمى لا يُخَفَّر ، وأخذ أعقابها من الحُماة والكمأة
العددَ الأوفر ، فبادر إليهم سرعانُ خيل المسلمين فصدَّ قُوهم الدفاع والقيراع ،
والمِصال والمِصاع ، وخالطوهم هتيراً بالسيوف ، ومباكرة بالحثُوف ،
فتركوهم حصيداً ، وأذاقوهم وبلاً شديداً ، وجدَّلوهم منهم جملة وافرة ،
وأمة كافرة ، وملكوا بعض تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة ،
وظهرت عليها عزماهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادي سباحاً في غمره ،
واستهانةً في سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو في صفته فاقتلعوها ،
وتعلقوا بأوائل الأسوار ففرعوها ، فلو كنَّا في ذلك اليوم على عزم من القتال ،
وتيسير الآلات وترتيب الرجال ، لدُخِلَ البلد ، ومُلِكَ الأهل والولد ، لكن
أجار الكفار من الليل كافر ، وقد هلك منهم عددٌ وافر ، ورجع المسلمون
إلى محلاتهم ونصرُ الله سافر ، والعزم ظافر ، ومن الغد خُصُصنا البحر الذي جعلنا
العزم فيه سقيناً ، والتوكل على الله للبلاغ ضميناً ، ونزلنا من صفته القصوى^٢
منزلاً عزيزاً مكيناً ، بحيث يجاور سورها طُنُبُ القباب ، وتصيب دورها من
بين المخيمات^٣ بوارق النشآب ، وبرزت حاميتها على متعددات الأبواب ،
مقيمة أسواق الطعان والضراب ، فأبت بصفقة الحُسُر والتباب ، ولما شرعنا
في قتالها ، ورتبنا أشتات النكايات لنكالها ، وإن كنا لم نُبْقِ على مطاولة
نزالها ، أنزل الله المطر الذي قدَّم بعهاده العهد ، وساوى النجد من طوفانه
الوهْد ، وعظم به الجهد ، ووقع الإبقاء على السلاح ، والكف بالضرورة
عن الكفاح ، وبلغ المقام عليها ، والأخذ بمُخَنَقِها والثواء لديها ، خمسة
أيام لم تخلُ فيها الأسوار من اقتراع ، ولا الأبواب من دفاع عليها وقيراع ،
وأنفذت مقاتل السنانر أنقاباً ، وارتقب الفتح الموعود ارتقاباً ، وفشت في

١ في الأصول : سيما .

٢ ك : من ضفة القوي العزيز ؛ ج ق ط : ضفة القوي .

٣ ك : الخيمات .

أهلها الجراح والعَيْثُ الصُّراح ، وساءهم المساء بعزة الله والصُّباح ^١ ، ولولا عائق المطر لكان الإجهاز والاستفتاح ، والله بعدها الفَتَّاح ، وصُرِفَت الوجوه إلى تخريب العُمُرَان ، وتسليط النيران ، وعَقَرُ الأشجار ، وتعقبة الآثار ، وأتى منها العَفَاء على المضر الشهير في الأمصار ، وتركت زروعها المائحة عِبرة لأولي الأبصار ^٢ ، ورحلنا عنها وقد ألبسها الدخان حداداً ، ونكس من طغاتها أجياداً ، فاعتادت الذلَّ اعتياداً ، وألفت الهون قياداً ، وكادت أن تستباح عَنوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعاداً ، وأتى القتل من أبطالها ، ومشاهير رجالها ، ممَّن يبارز ويناطح ، ويماسي بالناس ويُصابح ، على عدد جم أنخبرت سِيماهم المشهورة بأسمائهم ، ونبتت علاماتها على نبهائهم ، وظهر إقدام المسلمين في المعرَكَات ^٣ ، وبروزهم بالحدود المشتركة ، وتنزيلهم الأسلاب ، وقوْدهم الخيلَ المسومة قوْد الغِلاب ، وكان القُفُول ، وقد شمل الأمن والقبول ، وحصل الجهاد المقبول ، وراع الكفرَ العزُّ الذي يهْوُل ، والإقدام الذي شهدت به الرماح والخيول ، وخاض المسلمون من زَرْع الطرق التي ركبوها ، والمنازل التي استباحوها وانتهبوها ، بحوراً بَعْدَ منها الساحل ، وفلاحة مُدْرَكة تتعدد فيها المراحل ، فصيروها صَريماً ، وسلطوا عليها النار غرباً ، وحلَّوْا بظاهر حصن أنْدُوجَر ^٤ وقد أصبح مألَف أذمار غير أوشاب ، ووكر طينور ^٥ نشاب ، فلمَّا بلونا مِرَاسَه صَعْباً ، وأبراجه ملئت حَرَساً شديداً وشُهباً ، ضننَّا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه ، فسلطنا العَفَاء على

١ وفشت والصباح : سقطت العبارة من ق .

٢ ك ط : عبرة للأبصار .

٣ ق : على المعرَكَات .

٤ ق ط ودوزي : وبذرهم ؛ ج : ونذرهم .

٥ أندوجر (Andujar) (أندوشر عند ياقوت) حصن قريب من قرطبة إلى شمال شرقها على نهر الوادي الكبير . وفي ك : أندجر .

٦ ك : طير ؛ ج : طور .

ساحه ، وأغرينا الغازات باستيعاب ما بأحوازه واكتساحه ، وسلطنا النار على حُزُونِه وبِطاحِه ، وألصقنا بالرغام ذوائبَ أدواحيه ، وانصرفنا بفضل الله والمناجلُ دامية ، والأجورُ نامية ، وقد وطننا المواطىء التي كانت على الملوك قبلنا بَسْلا ، ولم نترك بها حرثاً يرفد ولا نسلا ، ولا ضَرْعاً يرسل رَسْلا ، والحمد لله الذي يتم النعيم بحمده ، ونسأله صلة النصر^١ فما النصرُ إلا من عنده ، عرفناكم بهذه الكيفيات^٢ ، الكريمة الصفات ، والصنائع الروائع التي بَعْدَ العهدِ بمثلها في هذه الأوقات ، علماً بأنّها لديكم من أحسن الهديات الوُدَيَات ، ولما نعلمه لديكم من حسن النيات وكرم الطويّات ، فإنكم سُلالة الجهاد المقبول ، والرّفْد المبلول ، ووعد النصر المفعول ، ونرجو الله ، عزّ وجل ، أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهاديّة ، إلى المعاينة في نصر المِلّة المحمديّة ، وأن يجمع الله بكم كلمة الإسلام ، على عبّدة الأصنام ، ويتم النعمة على الأنام ، وودّنا لكم - ما علمتم - يزيد على ممرّ الأيّام ، والله يجعله في ذاته لكم متصل الدوام ، مُبَلِّغاً إلى دار السلام ، وهو سبحانه يَصِلُ سَعْدُكُمْ ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف الآلاء عندكم ، والسلام الكريم بخصّكم^٣ ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

ومن هذا المنحَى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ، ونصّه : المقامُ الذي أحاديثُ سعادته لا تُعَمَلُ على الإعادة والتكرار ، وسبيل مَجَادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار ، وأخبارُ صنائع الله للملكه ، ونظمُ فرائد الآمال في سلكه ، تخلدها أقلامُ الأقدار ، بمداد الليل في قرطاس النّهار ، وترسُمها بتذهيب الإسفار في صفحاتُ الأقمار ، وتجعلها هَجِيرَى حملاء الأسفار ، وحُدادة القطار في مسالك الأقطار ، مقامُ

١ ك : حلة النصر .

٢ ق ط ودوزي : المكيفات .

٣ ك : يصحبكم .

٤ ق : صحائف .

حل أحيانا الذي نلذ عادة هنائه مع الإعادة ، و نلتقى أنباء علائمه بالإذاعة والإشادة ،
 ونُطَرِّزُ بأعلام ثنائه صحائف المجادة ، ونشكر الله أن وهب لنا من أخوته
 المضافة إلى المحبة والودادة ، ما يرجح في ميزان الاعتبار أخوة الولادة ، وعرفنا
 بيمُنْ ولايته عوارف السعادة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان
 الكذا أبقاء الله تعالى في أعلام الملك السعيد ، بَيْتُ الْقَصِيدِ ، ووُسْطَى الْقِلَادَةِ ،
 ومجلى الكمال الذي تبارى بميدان بأسه وجوده جنسا الإبادة والإفادة ، ولا زالت
 آماله القاصية تتثال طَوْعُ^١ الإرادة ، ويمن نَقِيبَتِهِ يجمع من أشات الفتوح
 والعز الممنوح بين الحسنى وزيادة^٢ ، مُعْظَمُ سُلْطَانِهِ الْعَالِي ، المثني على مجده
 المرفوع إسنادُه في عوَالِي الْعَالِي ، المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالي ،
 والفتح المقدم والثالي ، أميرُ المسلمين عبد الله الغني بالله محمد ابن أمير المسلمين
 أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر ، أَيْدِ اللَّهِ أَمْرُهُ ،
 وأسعد عصره^٣ : سلام كريم يتأرجح في الآفاق شذا طيبه ، وتُسْمَعُ في ذِرْوَةِ
 الود بلاغة خطيبه ، ويتضمن نوره سواد المداد ، هند مُرَّاسِلَةُ الْوَدَادِ ، فيكاد
 يذهب بعبؤوسه المجهول وتقطيعه ، ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله
 فاتح الأبواب بمقاليد الأسباب ، مهما استصعبت ، وميسر الأمور بمحكم
 المقلدور إذا أجهدت الحيل وأنعت ، مُخْمِدُ نِيرَانِ الْفَنِّ مَا التَّهَبَّتْ ،
 وجامع كلمة الإسلام وقد تصدَّعَتْ وتَشَعَّبَتْ ، وَمُسْكِنُ رَجَفَانِ الْأَرْضِ
 بعدما اضطربت ، ومُحْيِيهَا بَعْدَ الرِّحْمَةِ مَهْمَا اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ، اللطيف
 الخبير الذي قدرت حكمته الأمور ورتبت ، مِنْهُي كُلَّ نَفْسٍ إِلَى مَا خَطَّتْ
 الْأَقْلَامُ عَلَيْهَا وَكَبَّتْ ، ونفت وأوجبت وشاءت وأبت ، ومُجَازِيهَا يَوْمَ الْعَرْضِ

١ ق : طول .

٢ ك ط ح : والزيادة .

٣ ك : نصره .

٤ ق : رجفات .

بما كسبت^١ ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لما تألفت وتآلّبت ، وجالب الحنف إليها عندما أجلبت ، رسول الملحمة إذا الليوث وثبتت ، ونبي الرحمة التي هيأت النجاة وسببت ، وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ، ومدّاي القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت ، بلطائفه التي راضت وهذّبت ، وقادت إلى الجنة العليا واستجلبت ، وأدّت عن الله وأدبت ، الذي يجاهه نستكشف الغمّاء إذا طنّبت^٢ ، ونستؤكف النعماء إذا أخلفت البروق وكذبت ، ونتحاب في طاعته ابتغاء الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت^٣ ، والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التي استحقت المزية المرضية واستوجبت ، لما انتمت إلى كماله وانتسبت ، وببذل نفوسها في الله ومرضاته تقرّبت ، وإلى نصرته في حياته انتدبت ، والمناصل قد رويت من دماء الأعداء واختضبت^٤ ، وخلفته في أمته بعد مماته بالهمم التي عن صدق اليقين أعربت ، فتداعت لمجاهدة الكفار وانتدبت ، وأبعدت المغار وأدربت ، حتى بلغ ملك أمته أقاصي البلاد التي نبتت ، فكسرت الصلْب التي نُصبت ، ونقلت^٥ التيجان التي عُصبت ، ما همت السُحب وانسحبت ، وطلعت الشمس وغربت ، والدعاء لمثابنتكم العليا بالنصر العزيز كلّما جهّزت الكتاب وتكتبت ، والفتح المبين كلّما ركنت عقائل القواعد إذا خُطبت ، والصنائع التي مهما حدّقت فيها العيون تعجّبت ، أو جالت في لطائفها الأفكار استطابت مذاق الشكر واستعذبت ، حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت ، فإننا كتبنا إليكم كتّب الله لكم أغيا ما سألت الألسن السائلة واستوعبت ، من

١ ق : بما اكتسبت .

٢ ك ط : اطنبت .

٣ ق : ثبتت .

٤ ك : وأخصبت ، وفي الهامش : نسخة « واختضبت » . ط : وأخضبت .

٥ ق : لجهاد .

٦ ك : ونقلت ؛ ج ط : ونقلت .

حَمْرَاءُ غِرْنَاطَةَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَجُنُودُ اللَّهِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَنِعْمَتِهِ قَدْ غَلَبَتْ ،
 وَفَتَحَتْ وَسَلَبَتْ ، وَأَسْوَدُ جِهَادِهِ قَدْ أَرَدَتْ الْأَعْدَاءَ بَعْدَمَا كَلَبَتْ ، وَمِرَاعِي
 الْأَمَالِ قَدْ أَخْضَبَتْ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَجْلُو وَجْهَ الرِّضَى بَعْدَمَا احْتَجَبَتْ ،
 وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ فَكَلَّمَا اسْتَقْبَلَهَا الْأَمَلُ رَحَّبَتْ ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ شُكْرًا يُقَيِّدُ
 شَوَارِدَ النِّعَمِ مِمَّا أَبَقَتْ وَمَا هَرَبَتْ ، وَإِلَى هَذَا - وَصَلَ اللَّهُ لِمَقَامِكُمْ أَسْبَابَ الظُّهُورِ
 وَالْإِعْتِلَاءِ ، وَعَرَفَكُمْ عَوَارِفَ الْآلَاءِ عَلَى الْوَلَاءِ - فَإِنَّا لَمَّا وَرَدَ عَلَيْنَا كِتَابُكُمْ
 الْبِرُّ الْوَفَادَةَ ، الْجَمُّ الْإِفَادَةَ ، الْجَامِعُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالزِّيَادَةِ ، جَالِي غُرَّةِ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ
 مِنْ ثَنَائِ السَّعَادَةِ ، وَوَاهِبِ الْمَنِّ الْمُتَنَاحَةِ وَوَاصِفِ النِّعَمِ الْمَعَادَةِ ، فَوَقَفْنَا^١
 مِنْ رَقِّهِ الْمُنْشُورِ عَلَى تَحْفِيفِ سَنِيَّةٍ ، وَأَمَانِي هَنِيَّةٍ ، وَقِطَافِ لِلنَّصْرِ جَنِيَّةٍ ،
 ضَمِنَتْ سَكُونَ الْبِلَادِ وَقَرَارَهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ الْفَنْنَ وَأَوَارَهَا وَأَخْمَدَ نَارَهَا ،
 وَنَضَحَ عَنْ وَجْهِ الْإِسْلَامِ عَارَهَا ، وَجَمَعَ الْأَهْوَاءَ عَلَى مَنْ هَوَيْتَهُ السَّعَادَةُ بَعْدَ
 أَنْ أَجْهَدَ اخْتِيَارَهَا ، فَأَصْبَحَ الشِّتَّى مَجْتَمِعًا ، وَجَنَحَ الْجَنَاحُ مَرْتَفِعًا ، وَالْجَبَلُ
 الْمَخَالَفَ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا ، وَأَصْحَبُ^٢ فِي الْقِيَادِ مَنْ كَانَ مُتَمَنِّعًا^٣ ، فَاسْتَوْتَقْتُ
 الطَّاعَةَ ، وَتَبَجَّحَتِ السَّنَةُ وَالْجَمَاعَةُ ، وَارْتَفَعَتِ الشَّنَاعَةُ ، وَتَمَسَّكَتِ الْبِلَادُ
 الْمَكْرُوهَةَ بِأَذْيَالِ وَلِيِّهَا لَمَّا رَأَتْهُ ، وَعَادَتِ الْأَجْيَادُ الْعَاطِلَةَ إِلَى حَكْمِهَا بَعْدَمَا أَنْكَرَتْهُ ،
 أَجَلْنَا جِيَادَ الْأَقْلَامِ فِي مَلْعَبِ الْهَنَاءِ وَمَيْدَانِهِ ، لِأَوَّلِ أَوْقَاتِ إِمْكَانِهِ عَلَى بُعْدِ
 مَكَانِهِ ، وَأَجْهَدْنَا عِبَارَةَ الْكَلَامِ فِي إِجْلَالِ هَذَا الصَّنْعِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، وَأَغْرَيْنَا
 الثَّنَاءَ بِشَيْمٍ مَجْدُكُمْ فِي شَرْحِهِ لَنَا وَبَيَانِهِ ، رَأَيْنَا أَنْ لَا نَكِيلَ ذَلِكَ إِلَى الْيَسْرَاعِ ،
 وَنَفْرَدَهُ فِيهِ بِالْاجْتِمَاعِ ، وَمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ مُنَّةِ النَّرَاعِ ، وَأَنْ نَشْدُ بِرِدْءِ
 مِنَ الْمَشَافَهَةِ أَرْزَرَهُ ، وَنَعْضِدَ بِمَعِينِ مِنَ اللِّسَانِ أَمْرَهُ ، فَعَيْنًا لَذَلِكَ مَنْ يَفْسِّرُ مِنْهُ
 الْمَجْمَلَ ، وَيَهْدِي الْمَقْصِدَ الْمُعْمَلَ ، حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ أَغْرَاضِ الْبِرِّ ، وَالْعَلْنِ مِنْهُ

١ ك : فَأَوْقَفْنَا ؛ ق : فَوَاقَفْنَا .

٢ ق : وَأَوْضَحْتُ ؛ ط ج : وَأَضَحْتُ .

٣ ق ط : مُتَمَنِّعًا ؛ دُوْزِي : مُتَمَنِّعًا .

والسر ، وقيم شتى الأدلة على الوداد المستقر ، ووجهنا في غرض الرسالة به إليكم ، واخترنا لشرحه بين يديكم ، خطيب الوفود ، وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود ، الشيخ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج^١ - وصل الله حفظه ، وأجزل من الحمد واللفظ حفظه ؛ - وهو البطل الذي لا يُعلم الإحالة في الميدان ، ولا يبصر بوظائف ذلك الشأن ، ومُرادنا منه أن يطيل ويطيب ، ويحبل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب ، ويقرر ما عندنا لمقامكم من التشيع الذي قام على الحب المتوارث أساسه ، واطرّد حكمه وأنتج قياسه ، وليجعل تلو مقصد الهناء ، بمجلسكم الباهر السناء ، الصارف إلى الجهاد في سبيل الله والفناء ، وجه التهمم والاعتناء ، على مر الآناء ، ما تجدد لدينا من الأنباء في جهاد الأعداء ، وإن كان رسولكم - أعزه الله تعالى - قد شارك في السرى والسير ويؤمن الطير ، وأغنى في الحكاية عن الغير ، فلا سرف في الخير ، وهو أننا لما انصرفنا من منازلة قرطبة نظراً للحشود التي نفذت معدّات أزوادها ، وشابت بهشيم الغلبة المستغلة^٢ مفارق بلادها ، وإشفاقاً لفساد أوقاتها ، بفوات أوقاتها ، رحلنا عنها وقد انطوينا من إعفاء أكثر^٣ تلك الزروع ، المائلة الفروع ، المائلة الروع ، على هم ممّض ، وأسف للمضاجع ممّض^٤ ، إذ كان عاذل المطر يكف السنة النار عن المبالغة في التها بها ، وحلاق إهابها ، ونفض أغوارها ، ونهب شوارها ، وإذاعة أسرارها ، وهي البحور المتلاطمة ، إذا حطمتها الرياح الحاطمة ، واللّجج الزاخرة ، إذا حركتها

١ أبو البركات ابن الحاج : محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البليقي السلي (توفي ٧٧٣ أو ٧٧١) أحد شيوخ لسان الدين ؛ سترجم له المقرئ وانظر الكتبية الكاسنة : ١٢٧ والإحاطة ٢ : ١٠١ والمرقبة العليا : ١٦٤ والديباج ١٦٤ والتعريف بابن خلدون : ٦١ وغاية النهاية ٢ : ٢٣٥ .
٢ ق : المستقبل .
٣ أكثر : سقطت من ق .
٤ ق ك : مفض .

السوافي الماخرة ، تود العيون أن تتحدى حدودها القاصية فلا تطيق ، والركائب الراكضة أن تُشرف على غايتها فيفضل عن مراحلها الطريق ، قد جللها الربيع أرزاقاً تنص بها الخزائن والأطباق ، وجوباً مفضلة لا يريزوها الإنفاد والإنفاق ، ولو اعتصبت^١ على انتسافها الآفاق ، فَخَفَقْنَا في سبيل الله لتعقيب غزو تلك الأقطار المخالفة ، بمحق الصائفة ، وإحانة^٢ تلك الطائفة ، بكلوم المجاعة الجائفة^٣ ، خفوقاً لم نقتنع فيه بالاستنابة ، حرصاً على استئصال الصبابة ، وأعفينا الرحل من اتصال الكد ، وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد ، وأطللنا على قرطبة بمحلاتنا ننسف جبال النعم^٤ ، نَسْفًا ، ونعم^٥ الأرض زلزلاً وخَسْفًا ، ونستقري مواقع البذر إحراقاً^٥ ، ونخترق أجوابها المختلفة بحبّ الحصيد اختراقاً ، ونسلط عليها من شرر النار أمثال^٦ الجمالات الصُقر مدّت من الشواظ أعناقاً ، ونوسّع القرى الواسعة قتلاً واسترقاقاً ، وندير على مستديرها أكواس الخُتُوف دِهَاقاً ، وأخذت النيران وادبها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأن القيون^٧ أحمت سبيكته فاستحالت ، وأذابت صفيحته فسالت ، وأنت الكفار سماؤهم بالدخان المين ، وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقبة الحيّا معصبة الجبين ، وخَضْنَا أحشاء الفرنيرة^٨ نَعْمُ أشبات النعم انتسافاً ، وأقوات أهلها إتلافاً ، وآمال سكانها إخلافاً ، وقد بُهِتُوا لبرعة الرجوع ، ودُهِشُوا

١ هذه اللقطة مصحفة في الأصول ، فهي : اعتصت في ج ؛ وفي ق ك ط : اعتضت .

٢ ق ك ج : وإعانة ؛ وفي ط : لمحق الصائفة .

٣ ق ك ط ج ودوزي : المجاع الجائفة .

٤ في ك : الجبال ؛ وفي ق : جليل النعم ؛ ج : جبال النعم .

٥ ك : احتراقاً .

٦ ط : أثقال .

٧ ق ك : العيون .

٨ تصحفت هذه الكلمة على عدة وجوه ؛ فهي الفرنيرة في ق والفريرة في ك . . . والفرنيرة في طج والصواب الفرنيرة (La Frontera) .

لوقوع الجوع ، وتسبب تخريب الربوع ، فمن المنكر البعيد ، أن يتأتى بعدُ
 عمرائها المعهود ، وقد اصطلم الزرع واجتث العود ، وصار إلى العدم منها
 الوجود ، ورأوا من عزائم الإسلام خوارق تشدُّ عن نطاق العوائد ، وعجائب
 تستريب فيها عين المشاهد ، إذ اشتمل هذا العام ، المتعرّف فيه من الله تعالى
 الإنعام ، على غزوات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميراً ، وعلا فوق
 مراقبها الأذانُ عزيزاً جهيراً ، وضويقت كراسيُ الملك تضييقاً كبيراً ،
 وأذيق وبالألم مبيراً ، ورياحُ الإدالة إن شاء الله تعالى تستأنف هبوباً ، وبأساً
 مشبوباً ، والثقة بالله قد ملأت نفوساً مؤمنة وقلوباً ، والله سبحانه المسؤول
 أن يوزع شكر هذه النعم التي أثقلت الأكثاد ، وأهبطت الطوق المعتاد ،
 وأبهجت المسيم^٢ والمرتاد ، فبالشكر يستدر مزيدها^٣ ، ويتوالى تجديدها ، وقطعنا
 في بحبوحة تلك العمالة المستبحرة العمارة ، والفكج المغني وصفها عن الشرح
 والعبارة ، مراحل ختمنا بالتعريج على حزب^٤ جيان حربها ، فقللنا ثانية غربها ،
 وجددنا كربها ، واستوعبنا حرقها وخربها ، ونظمنا البلاد في سلك البلاء ،
 وحششنا في أنجادها وأغوارها ركائب الاستيلاء ، فلم نترك بها ملقظ طير ،
 فضلاً عن معاف غير ، ولا أسارنا لفلها المحروب بلالة خير ، وققلنا وقد
 تركنا بلاد النصارى التي منها لكيادنا المدد ، والعدة والعدد ، وفيها الحصام
 والدّد ، قد لبست الحداد حريقاً ، وسلكت إلى الخلاء والخلاء طريقاً ، ولم
 نترك بها مضغة تحالط ريقاً ، ولا نعمة تصون من الفراق فريقاً ، وما كانت تلك
 النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرَي النار والهواء بجنود كونه الواسع ،
 ومدركه البعيد الشاسع ، لتتولى الأيدي البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها ، ولا

١ ق : غرائب .

٢ ك : المشيم .

٣ ك ق ط ج : فريدها .

٤ ق : غرب ؛ ك : حرب .

لتمتاح بالاغتراف غديرها ، بل الله القدرة جميعاً ، فقدرته لا تتحامي ريباً ،
ولا حمى مريباً منيعاً ، وعدنا والعود في مثلها أحمد ، وقد بعد في شفاء النفوس
الأمم ، ونُسَخ بالسُرور الكمد ، ورُفِعَت من عز الإسلام العمَد ، والحمد لله
حمد الشاكرين ، ومنه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين ،
عرفناكم به ليُسَر دينكم المتين ، ومجدكم الذي راق منه الجبين ، والله يصل
سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويبلغكم أملككم من فضله ، وقصدكم بمنه
وطوله ، والسلام الكريم يخلصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

رجع إلى ما كنّا بسيله من أخبار قرطبة الجلييلة الوصف ، وذكر
جامعها البديع الإتقان والرصف ، فنقول :

قد شاع وذاع على ألسنة اللحم الغفير من الناس في هذه البلاد المشرقية
وغيرها أن في جامع قرطبة ثلاثمائة ونحو ستين طاقاً ، على عدد أيام السنة ، وأن
الشمس تدخل كل يوم من طاق ، إلى أن يتم الدور ثم تعود ، وهذا شيء لم
أقف عليه في كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس ، ولو كان كما شاع
لذكروه وتعرضوا له ، لأنه من أعجب ما يُسَطَّر ، مع أنهم ذكروا ما هو
دونه ، فالله أعلم بحقيقة الحال في ذلك^١ ، وستأتي في الباب السابع رسالة
الشَّقْندي الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطم والرّم ،
وقد ذكرنا في الباب الأول جملة من محاسن قرطبة ، فأغنى ذلك عن إعادتها
هنا ، على أن رسالة الشَّقْندي تكرر فيها بعض ما ذكرناه ، لأننا لم نرد أن
نخل منها بحرف ، فأتينا بها بلفظها ، وإن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه ،
والعذر واضح للمنصف المُغْضي ، والله نسأل سلوك السبيل الذي يَرْضِي ،
بمنه وكرمه .

١ في ذلك : سقطت من ق .

وقال صاحب « نشق الأزهار » : إن في جامع قرطبة تنوراً من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وفيه أشياء غريبة ، من الصنائع الهندسية ، يعجز عن وصفها الواصفون ، قيل : أحكم عمله في سبع سنين ، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث ^١ صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام ، الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع ، انتهى .

قلت : لم أر أحداً من محققي المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا ، على قلة اطلاعي ، وهو عندي بعيد ، لأنه لو كان لذكره الأئمة .

وقد حكى القاضي ^٢ عياض في الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر هذا ، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : ن دور قرطبة أربعة عشر ميلاً ، وعرضها ميلان ، وهي على النهر الكبير وعيه جسران ، وبها الجامع الكبير الإسلامي ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصاي ، وبهذه المدينة معدن الفضة ومعدن الشاذنج ^٣ ، وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم ، وكان يجلب منها البغال التي تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسناتها وعلوها الزائد ، انتهى .

رجع إلى أخبار البنيان :

ولا خفاء أنه يدل على عظيم قدر بانيه ، ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء وبعض ينسبهما لغيره ، وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن سعيد علي منسويين :

١ ط : وعلى الأرض ؛ ق ج : وعلى الآخر .

٢ القاضي : سقطت من ك ط ج .

٣ الشاذنج والشاذنة : يسمونه حجر الدم ، ويستعمل لدمل القروح ، وتعمل منه شياطات لأمراض العين .

همُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بَعْدِهِم فبِأَلْسِنِ البُنْيَانِ
إن البناء إذا تعاظم قَدْرُهُ أضْحَى يَدْلَ على عَظِيمِ الشانِ

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين ، وهو الأديب الفاضل الشيخ
أسد بن معين الدين ، مما يُكتب على أبراج^١ دار الحسب النسيب ، الشهير
البيت ، الكبير الحمي والميت ، القاضي عبد الرحمن بن القُرْفُورِ الدمشقي ،
وضمَّنها بيتي الناصر المذكورين :

زُرْ مَجْلِساً أضْحَى أعزَّ مَكَانِ ومَحَلَّ أَهْلِ العِلْمِ والعِرْفَانِ
المجدُ حَيَمَ في ذرى أبراجه والسعدُ عَيْدُ البابِ طَوْلَ زَمَانِ
كالخلد مرفوع البناء ، وأَرْضُهُ مفروشة بالسدر والعقيان
بيت به فخر البيوت لأنّه بيت القصيد ومنزل الضيفان
مَعْنَى فسِيحٌ فيه معنى مُفْصَح عن قدر بانيه بغير لسان
قد قال بعض ذوي الفضائل قبلنا قولاً بديعاً واضح التبيان
همُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بعدهم فبِأَلْسِنِ البنيانِ
إن البناء إذا تعاظم قدره أضْحَى يَدْلَ على عَظِيمِ الشانِ
قد شاده مَنْ ساد أهل زمانه بالأصل والإفضال والرُّجْحانِ
وَرِثَ السيادة كابرًا عن كابر وسَمَا برفعته على كيوان
قاضي القضاة ومفخر العصر الذي قد جاء فيه سابق الأقرانِ
في العلم بحرٌ لا يُنَالُ قَرَارُهُ في الحُكْمِ مثل مُهَنْدٍ وسِنانِ
يَرْوِي عطاءً عن يديه قد اقتضى آثارَ آباء ذوي إحسانِ
لا زال يبقى شائداً بيتَ العُلا وعدُوهُ في الوهن والتقصانِ
يا أيّها المولى الذي يجري مع الإفة بال والإسعاد طَلَّقَ عِناناً^٢

١ أبراج : سقطت من ط .

٢ ق : طول زمان .

دُمُ شامخِ المِقْدَارِ مرتفعِ البنا والناسُ تحتِ رضاكَ كالغلمانِ
متمتعاً ببنيك ساداتِ الورى في عِزِّ ربِّ دائمِ السلطانِ
ما رجَعَ القُصْرِيُّ في تغريده في الروضِ فوقِ منابرِ الأغصانِ

وكان القاضي عبد الرحمن بن فرُّقور المذكور عالي الهمة ، تضيق يده عما يريد ، فلذلك كان كثيراً ما يبث شكواه في الطروس والدفاتر ، ويعتب على الزمان الذي أخفى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحُسامه الباتر ، ويرحم الله القائل :

هذا زمان دريهمي لا غيره فدعِ الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه ، فكتب إليه معتذراً ، وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الأعداء به حذراً :

أبطأتُ في ذا الجزء يا سيدي كتابة من جورِ دهرٍ بغِيضِ
صابرتَه فابجسمُ مني لَقِي تجلُّداً والقلبُ مني مريضِ
فلأبى إلا تلافِي وقد أحلَّتي مِنه مَحَلَّ النقيضِ
واقْتادني قَسْراً إلى مَضْرَعِ قد رَقَّ منه اللحم والعظمُ هِيضِ
سَلِمْتُ للأقدارِ مستسرِعاً لبابِ مؤلَّى ذي عطاء عريضِ
جُمُومُ صبرِ كنتِ أسطو به على روايا الدهرِ بالهم غِيضِ
فلا تلمِ يا صاحٍ من بعد ذا إذا تَمَثَّلَتْ بِـ « حالِ الجريضِ »

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى ممّا نسبته جده القطب الخيضي الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموي ثم المصري المعروف بابن الفقيه :

يا زماناً كلِّما حا ولتُ أمراً يتَمَنَّعِ
إن تعصَّبتْ فإنِّي باصطباري أتَقَنِّعِ

وهذه تورية بديعة للغاية في التعصب والتفنع ، مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفة الوزن ، والله سبحانه يروح تلك الأرواح في الجنان ، ويعاملنا وإياهم بمحض الفضل والامتنان ، ويكفيننا شجون دهر جرى بنا طلق العنان .

رجع إلى ما كنا فيه : وكنت وقفت في كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المرواني - رحمه الله تعالى - قالهما في الزهراء التي بناها ، وسيأتي ذكرها قريباً .

وقال الشيخ سيدي محي الدين بن عربي في «المسامرات» : قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وبناؤها عجب في بلاد الأندلس ، وهي قرية من قرطبة ، أحياناً تذكر العاقل ، وتنبه الغافل ، وهي :

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ	وما إن بها من ساكنٍ وهي بلقعُ
ينوحُ عليها الطيرُ من كل جانب	فَيَصْنُتُ أحياناً وحيناً يَرْجِعُ
فخاطبت منها طائراً متفرداً	له شجنٌ في القلب وهو مُروّعُ
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكي ؟	فقال : على دهرٍ مضى ليس يرجعُ

ثم قال : وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر مات له سُريرة ، وتركت مالا كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء - وكان يحبها حباً شديداً - : اشتيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي ، وتكون خاصة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبله الجبل ، وشمال قرطبة ، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستترها ومسكناً للزهراء

وحاشية أرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب ، فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسناها في حجر ذلك الجبل الأسود ، فقالت : يا سيدي ، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسنة في حجر ذلك الزنجي ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل ، فقال بعض جلسائه : أعيد أمير المؤمنين أن يخطر له ما يَشِينُ العقل سماعه ، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حضراً ولا قطعاً ، ولا يزيله إلا مَنْ خلقه ، فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظر أحسن منها ، ولا سيماً في زمان الإزهار وتفتح الأشجار^١ ، وهي بين الجبل والسهل ، انتهى ببعض اختصار .

[وصف ابن خلكان للزهراء]

وقال ابن خلكان^٢ في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته^٣ : الزهراء - بفتح الزاي ومكون الهاء وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة - [سراية] وهي من عجائب أبنية الدنيا ، وأنشأها أبو المظفر غيد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر ، أحد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلاث ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ، وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف

١ ق : وتفتح الأزهار .

٢ في ج : وقال ابن خلدون .

٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٧ .

٤ كذا في الأصول وابن خلكان ، والصواب : أبو المطرف .

وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص^١ سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار ، وهي من أهول ما بناه الإنس ، وأجله خطراً ، وأعظمه شأناً ، ذكر ذلك كله ابن بشكّو^٢ في تاريخ الأندلس ، انتهى كلامه .
وحكى في المطمح^٣ أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جهّور قال وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوّضت أنبيتها ، وعوّضت من أنيسها بالوحوش^٤ أفنيتها :

قلتُ يوماً لدار قوم تفانوا : أين سكّانك الغراز عليّنا ؟
فأجاب : هنا أقاموا قليلاً ، ثم ساروا ، ولست أعلم أين

وفيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور^٥ واتناس ، وقرع النواقيس يهيج سمعه ، ويرق الحميا يسرع^٥ لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبداع توشيح ، قد هجّروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح :
لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يعملها حمياً ، كأنما يرشف من كأسها شفة لميا ، وهي تنفّح له بأطيب عرّف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتحل ، بعدما ارتحل ، فقال :

ولربّ حان قد شيمتُ بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فنية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين نخشعاً لكبيره

١ ك : المستخلصة ؛ ج ق ط : ومن السوق المستخلص .

٢ انظر المطمح : ١٥ .

٣ ك : بالوحش .

٤ المطمح : ١٨ .

٥ ق ط : يسرج .

والْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طَوْلَ مُقَامِنَا يَدْعُو بَعْدَ حَوْلِنَا بِزَبُورِهِ
يُهْنِدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصَقَّرٍ كَالْحِشْفِ خَفَّرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرَهُ
يَتَنَاوَلُ الظُّرْفَاءَ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ لِسُلَافِهِ ، وَالْأَكْلُ مِنْ خَنْزِيرِهِ

رجع إلى بناء^١ الزهراء :

قال بعض من أَرَّخَ الأندلس : كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفَعْلَة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الأجر والصخر غير المعدل ، انتهى ، وسيأتي في الزهراء^٢ مزيد كلام .

وقال ابن حيَّان^٣ : ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ ، وجعل طولها من هرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع ، وتكسيها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع ، كذلك نقله بعضهم ، وللنظر فيه مجال ، قال^٤ : وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزمه [من النفقة]^٥ على قطعها ونقلها ومؤونة حملها^٦ ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المَرِيَّة ، والمَجَزَّع من رِيَّة ، والوردي والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقرطاجنة ، والحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل^٧ على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، ولما جلبه أحمد^٨

١ ك : أنباء .

٢ ق : الزاهرة .

٣ انظر مخطوط الرباط : ١٣٥ .

٤ قارن بما جاء في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .

٥ زيادة من مخطوط الرباط .

٦ مخطوط الرباط : سوقها .

٧ ك : وتماثيل وصور .

٨ ساء في مخطوط الرباط : أحمد بن حزم الفيلسوف .

الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً ، وبني في قصرها المجلس المسمّى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه^١ الصافي لونه المتلونة أجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتخف الناصر بها أليون^٢ ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصّع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبلّور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر^٣ المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفرّج أحداً من أهل مجلسه أوماً إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم ، ما دام الزئبق يتحرك ، وقيل : إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس ، وقيل : كان ثابتاً على صفة^٤ هذا الصهريج ، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنما نبأ له لكثرة الزئبق عندهم ، وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن ، وبها من المرمر والعُمد كثير ، وأجرى فيها المياه ، وأحرق بها البساتين ، وفيها يقول الشاعر السمسير^٥ :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أُنْدُبُ أَشْتَاتَا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلَا فَارُجِي قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟

١ في جرمه : سقطت من ك .

٢ ق ط ج : في سلك .

٣ ج ط : ضفة .

٤ مخطوط الرباط : ١٣٧ .

فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يُغني الدمعُ هيهاتاً
كأنما آثار من قد مضى نوادبٌ يندبن أموانا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصاً ، وسيأتي ما يوافق جلّه ، ويخالف قلّه ،
والله سبحانه يعلم الأمر كله ، فإنه ربّما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد في
بعض الأخبار تخالفاً ، فيحمل ذلك على الغلط ، وليس كذلك ، وإنّما السبب
الحامل لذلك جلبُ كلام الناس بعباراتهم ، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا ،
وربّما يقع التكرار ، وذلك من أجل ما ذكر ، والله أعلم .

[قصور بني ذي النون]

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم
الذي شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون بها^١ ، وذلك أنه أتقنه إلى
الغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة ، وصنع في وسط
البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة
بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً
بها ويتصل بعضها ببعض ، فكانت قبة الزجاج في غلالة ممّا سكب^٢ خلف
الزجاج لا يقرّ من الحرّ ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا
يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها
مع جواريه^٣ ذات ليلة إذ سمع منشدًا ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإنّما بقاؤك^٤ فيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

١ الذخيرة ٤ : ١٠٢ وما بعدها .

٢ ق ط ج : من ماء سكب .

٣ ق : وجواريه .

٤ ك : لفطاك .

فنعص عليه حاله ، وقال : إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أظن أن الأجل قد قرب^١ ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي ، ولم يجلس في تلك القبة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ ، تجاوز الله تعالى عنه ، هكذا حكاه بعض مؤرخي المغرب . وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون^٢ شارح العبدونية فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبي محمد المصري^٣ في صفة قصر طليطلة :

قَصْرٌ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدُ	عَذُبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ الْمَوْرِدُ
نَشَرَ الصَّبَاحُ عَلَيْهِ ثَوْبَ مَكَارِمِ	فَعَلَيْهِ الْوَيْةُ السَّعَادَةُ تُعْقَدُ
وَكَاثِمًا الْمَأْمُونُ فِي أَرْجَائِهِ	بَدْرُ تَمَامِ قَابِلَتِهِ أَسْعَدُ
وَكَاثِمًا الْأَقْدَاحُ فِي رَاحَاتِهِ	دُرٌّ جَمَادُ ذَابَ فِيهِ الْعَسَجَدُ

وله في صفة البركة والقبة عليها :

شَمْسِيَّةُ الْأَنْسَابِ بِدْرِيَّةُ	يَخَارُ فِي تَشْبِيهِهَا الْخَاطِرُ
كَاتِمًا الْمَأْمُونُ بِدْرِ الدُّجَى	وَهِيَ عَلَيْهِ الْفَلَكَ الدَّائِرُ

* * *

[أشعار ورسائل للأندلسيين في وصف المجالس]

وكان ملوك الأندلس في غاية الاحتفال بالمجالس والقصور ، وللوزير الجزيري^٤ - رحمه الله تعالى - في وصف مجلس المنصور بن أبي عامر ما

١ ق : أظن الأجل قرب .

٢ ق : ابن زيدون - وهو خطأ -

٣ الذخيرة ٤ : ١٠٩ .

٤ الوزير الجزيري : أبو مروان عبد الملك بن إدريس أحد كتاب الدولة العامية . وكان حيناً على الشرطة للمنصور ، سخط عليه المنصور فسجنه وله القصيدة الرائية المشهورة في السجن ، ثم كتب بعده للمظفر فلما قتل صهره عيسى بن سعيد بن القطاع تغير المظفر على أبي مروان فسجنه في برج من طرطوشة وقتله (٣٩٤) هنالك . (ترجمته في الجذوة : ٢٦١ وبغية الملثس رقم : ١١٥٨ =

يشهد لذلك ، وهو قوله ^١ :

وتوسّطتها لحة في قعرها
تنساب من فكّي هزبر إن يكن
صاغوه من ندّ وخلقت صفحي
للياسمين تطلّع في عرشه
ونضائد من نرجس وبنفسج
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
فكانت هي في اختلاف رقومها
في مجلس جمع السرور لأهله
حازت بدولته المغارب عزة ^٢

بنت السّلاحف ما تزال تُنفق
ثبّت الجنان فإن فاه أخرق
هاديه محض الدرّ فهو مطوق ^٣
مثل المليك عراه زهو مطرق
وجنيّ خيريّ وورد يعبق
طرب إليك بلا لسان تنطق
زهر الربيع فهنّ حسناً تشرق
رايات نصرك يوم بأسك تحفيق
ملك إذا جمعت قتاه يفرق
فغدا ليحسدها عليه المشرق

ومن هذه القصيدة :

أما الغمام فتشاهدك أنته
وافي الصنيع فحين تمّ تمامه
وأظنه يحكيك جوداً إذ رأى
لا شك صنوك أو أخوك الأوثق
في الصّحو أنشأ ودّقه يتدفق
في اليوم بحرك زائراً يتفهق

وكان السبب في هذه الأبيات أن المنصور صنع في ذلك الأوان صنيعاً لتطهير
ابنه عبد الرحمن ، وكان عام قحط ، فارتفع السعر بقرطبة ، وبلغ ربع الدقيق

= والمغرب ٢ : ٣٢١ واعتاب الكتاب : ١٩٣ والخيرة ٤ : ٣١ والمطبخ : ١٣ والصلة : ٣٥٠

وله شعر في اليثيمة والتشبيات والبديع .

١ المقتطفات (الورقة : ٢٣) .

٢ المقتطفات : فيه مطبق ؛ وفي ك : فهو مخلق .

٣ ك : رفعة .

٤ ق : بل أخوك .

إلى دينارين ، فجلا الناس من قرطبة ، فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت في السماء سحابة عمت الأفق ، ثم أتى المطر الوابل ، فاستبشر الناس ، وسُرَّ المنصور بن أبي عامر فقال الجزيري بديهة : أما الغمام إلخ : وهو القائل على لسان نرجس العامرية ^١ :

حَيَّتْكَ يَا قَمَرَ الْعُلَا وَالْمَجْلِسِ أَزْكَى تَحِيَّتَهَا عَيُونُ النَّرْجَسِ
زَهْرُ تَرِيكَ بِحُسْنِهَا ^٢ وَبِلُونِهَا زُهْرُ النُّجُومِ الْجَارِيَاتِ الْكُنُوسِ
مُلْكُنْ أَفْنَدَةَ النَّدَامَى كُلَّمَا دَارَتْ بِمَجْلِسِهِمْ مَدَارَ الْأَكُوسِ
مَلِكُ الْهُمَامِ الْعَامِرِيِّ مُحَمَّدٍ لِلْمَكْرَمَاتِ وَلِلنَّهْيِ وَالْأَنْفُسِ

قال ابن بسام ^٣ : ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء نثره الذي ملح فيه مخاطبته للمنصور على السنة أسماء كرائمه بزهر رياضه ، فمن ذلك عن بَهَارِ العامرية :

حَدَقُ الْحَسَانِ تُقِرُّ لِي وَتَغَارُ وَتَضِلُّ فِي صِفَتِي الشَّهَى وَتَحَارُ
طَلَعْتُ عَلَى قُضْبِي عَيُونُ كَمَائِي ^٤ مِثْلَ الْعَيُونِ تَحْفَهَا الْأَشْفَارُ
وَأَخْصُ شَيْءَ بِي إِذَا شَبَّهْتَنِي دَرٌّ تَنْطَقُّ سَلَكُهَا دِينَارُ
أَهْدَى لَهُ قُضْبَ الزَّمَرْدَ سَاقَهُ وَجَاهُ أَنْفَسَ عَطْرِهِ الْعَطَارُ
أَنَا نَرْجَسٌ حَقًّا بَهَرْتُ عَقُولَهُمُ بَبْدِيعِ تَرْكِيبِي فَقَبِلْ بَهَارُ

ومن أخرى عن بنفسج العامرية ^٥ : إذا تدافعت الحصوم - أيَدُ الله مولانا

١ الذخيرة ٤ : ٣٢ والبدیع : ١١٥ - ١١٦ والمقتطفات : ٣٣ .

٢ البديع : بشكلها .

٣ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبدیع : ٩٩ والمقتطفات : ٣٣ .

٤ ك : مدحه .

٥ في الأصول : تمانني ، والتصويب عن البديع .

٦ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبدیع : ٧٨ - ٧٩ والمقتطفات : ٣٣ - ٣٤ .

المنصور - في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فإليه^١ مفرعها ، وهو المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرّها وجهرها ، وقد ذهب البهار والرجس في وصف محاسنهما ، والفخر بمشابهتهما ، كل مذهب ، وما منها إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، وأعذب من الغمام الذي يسقينا ، وإن كانا قد تشبّها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومصايح السماء وهي من الموات الصامت ، فإتي أتشبه بأحسن ما زَيْنَ الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنني أعطر منهما عطراً ، وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً ويانعاً وذابلاً ، وكلاهما لا يتمتع ، إلا ريشما يينع^٢ ، ثم إذا ذبل تستكره النفوس^٣ شمّه ، وتستدفع الأكف^٤ ضمه ، وأنا أمتع يابساً ورطباً ، وتلدخري الملوك في خزائنها^٥ وسائر الأطباء ، وأصرف في منافع الأعضاء ، فإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساق ، فلا غرو أن الوشي ضعيف ، والهوى لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يُدْرَك بالصرع ، وقد أودعت أيد الله مولانا قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه ، وحضرت بنفسي لثلاً أغيب عن حضرتهما ، فقديماً فضل الحاضر وإن كان مفضولاً ، ولذا قالوا : ألد الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس من أنت في شعره ، فلمولانا أتم الحكم في أن يفصل بحكمه العدل ، وأقول :

شهدت لنوّار البنفسج السنّ من لونه الأحوى ومن إيناعه^٥

-
- ١ البديع : فإليك ، وكذلك جرى الضمير في سائر الرسالة للخطاب ، وفي النصين اختلافات كثيرة ، نشير إلى بعضها .
٢ البديع : وكلاهما لا يتمتع إلا ريشما يبدو للعيون ويسلم من الذبول .
٣ البديع : ثم تستكره الأنوف .
٤ البديع : فإن هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً وادخاري في خزائن الملوك جافاً .
٥ ق ط ج : ومن أتباعه .

لمشابه الشعر الأعمّ أعاره الـ
ولربّما جمع^١ النجيع من الطلي
فحكاه غير مخالف في لونه
ملك جهلنا قبله سُبُل العُلا
في سيفه قِصرٌ لطول نِجاده
ذو همة كالبرق في إسراره
تلقى الزمان له مطيعاً سامعاً
وترى الملوك الشُّمّ من أتباعه

وما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة^٢ :

وحديقة مخضرة أثوابها
نادمت فيها فتية صفحاتهم
والجدول الفضي يضحك ماؤه
وإذا تجعد بالنسيم حسبته
وتناثرت نَقَطٌ على حافاته
وتدحرجت^٣ للناظرين كأنها
في قُضْبها للطير كل مغرد
مثل الدور تُنير بين الأسعد
فكأنه في العين صَفْحٌ مهند
لما تراه مشبهاً للمبرد
كالعقد بين جمع ومُبدّد
دُرٌّ نثيرٌ في بساط زبرجد

وكان بحمّام الشطارة بإشبيلية صورة بدیعة الشكل فوصفها بعض أهل
الأندلس بقوله :

ودُمّية مرمر تزهى بجيد
لها ولدٌ ولم تعرف حليلاً
ونعلم أنها حَجَرٌ، ولكن
تَنَاهَى في التورّد والبياض
ولا أَلَمَتْ بأوجاع المخاض
تُتِمُّنَا بِالْحَاطِ مِرَاضٍ

١ البديع : جف .

٢ وردت الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٤) .

٣ ق ط : وترجرت ؛ وفي ج ؛ : وترخرفت .

وكان بسرْقُسطة في القصر المسمى^١ بدار السرور ، مجلس الذهب أحد
قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين بن غُنْدَشَلْب^٢ يهجو وزيراً
كان^٣ ينبر بتحقون :

ضَجَّ من تحقون بيتُ الذهبِ ودِعا ممّا به وأحرّبي
رَبّ طهرّني فقد دنستني عارُ تحقونَ الموقى الذنبِ

وكتب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه^٤ : « كتابي هذا من وادي الزيتون ،
ونحن فيه مختلفون^٥ ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلّت بأنواع
الزهر ، وتحاليت بأنهار تتخلّلها ، وأشجار تُظللّها ، تحجب أدواحها الشمس
لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شتم من محاسن ثروق وتعجب ،
وأطيار تتجاوب بألحان تلهي وتطرب ، في مثلها يعود الزمان كله صياً ،
وتجري الحياة على الأمل والمنى ، وأنا فيها - أبقاكم الله سبحانه - بحال من
طاب غذاؤه ، وحسُن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من
مضض^٦ الخمار ، وزايلته وساوسه ، وخلصت من الخباط هواجسه » ؛ ثم
ذكر كلاماً من هذا النمط في وصف الخمار والدعاء إلى العقار .

١ ق : الذي يسمى .

٢ ك : عيد شلب - وهو خطأ -

٣ كان : سقطت من ق .

٤ هذه الرسالة للكاتب أبي المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كان كاتباً عند
المقتدر بن هود فاستوحش منه ولحق بالمعتد بن عباد فرحب به وسفر بينه وبين المتوكل ابن
الأنطس ، ثم اختلف مع ابن عمار فهرب إلى المتوكل في بطليوس وكانت نهايته أن قتل ببطليوس
(راجع ترجمته في الذخيرة - القسم الثالث : ٨٢ وهذه القطعة من رسالته فيها ص : ٩٣ ؛
والقلائد : ١٠٦ والمغرب : ٢ : ٤٤٠ ومسالك الأبصار : ٨ : ٢٢١) .

٥ كذا في ق ك ولعله : مختلفون ، وفي ط ج : محتلون ، وهو صواب .

٦ الذخيرة : فضول .

فراجعه أبو الفضل بن حسداي برقعة قال في صدرها^١ : «إلى سيدنا^٢
الذي ألزمتنا بامتنانه الشكر ، وكبيرنا الذي علّمنا ببيانه السّحر ، وعميدنا الذي
عَقَدنا بحرمه وانحل^٣ ، ورمانا بدائه وانسل^٤ ، أبقاك الله تعالى لتوبة نصُوح
تمرّها ، ويمين غموس تبرّها ، ورَدَ أبقاك الله تعالى كتابك الذي أنفذته من
مُعَرَّسِك بوادي الزيتون ، ووقفنا على ما لقنت في أوصافه من حجة المفتون ،
وإعجابك بالتفاف شجره ودوحاته ، واهتزازك بلطف بَواكره وروحاته ،
وغرورك^٥ به وهو حَوْ تِلَاعُهُ ، مورودة هضابه وأجراعُهُ ، وكل المشارب
ما خلاه ذميم^٦ ، وماؤه الدهر خَصِير والمياه حميم ، وتلك عادة تلوثك ،
وسجية تخضرمك^٧ ، وشاكلة ملالك وسأمك ، وأشعر الناس عندك مَنْ^٨ أنت
في شعره ، وأحب البلاد إليك ما أنت في عقره ، فأين منك بساتين جلق
وجنانه ، ورياضه الموقفة وخُلُجانه ، وقبابه البيض في حدائقه الخضر ،
وجوه العطر في جنبابه النضر^٩ ، وما تَضُمُّهُ^{١٠} حيطانه ، وتمجّه أنجاده^{١١}
وغيطانه ، من أمهات الراح التي طلقتهما^{١٢} بزَعَمك ، ومواد^{١٣} الشّمول التي

١ الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ٩٤ وأبو الفضل بن حسداي : هو حسداي بن يوسف بن
حسداي الإسرائيلي أحد كتاب عصر الطوائف ، الذخيرة (القسم الثالث) : ١٥٣ والقلائد : ١٨٣
والمغرب ٢ : ٤٤١ والمطرب : ١٩٦ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٠ .

٢ ق ج : يا سيدنا .

٣ ق ك ط : بحمة الحل ؛ ج : بحمة الحل .

٤ ق ج ودوزي : ومروك ؛ ك : وسرورك .

٥ إشارة إلى قول الشاعر :

اقرأ على الوشل السلام وقل له - كل المشارب مذ هجرت ذميم

٦ ق ط : تخضرمك ؛ وفي ج ط ق ودوزي : وشجية .

٧ دوزي وق : ووجوه العطر في جنبانه النضر ؛ ج : وجون العطر في جنبانه النضر .

٨ دوزي : وما تَضُمُّهُ .

٩ الذخيرة : وتحتوي عليه نجاهه .

١٠ ق : هجرتها .

١١ ك : ومورد ؛ ج : وموارد .

طلّقتها برغمك ، وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الأجارعُ والمجاني ، ولا شافتك تلك المنازل والمغاني ، إلا تذكّراً لما لدينا من طيب المعاهد ، وحينئذٍ إلى ما عندنا من جميل المشاهد ، وأين من المشتاق عتقاء مغرب » ثم ذكر كلاماً في جواب ما مرّ من الخمار لم يتعلّق لي به غرض .

وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة في ذكر منتره ^١ :
ولما أكبّ الغمام لإكباباً ، لم أجد منه إغباباً ، واتصل المطر اتصلاً ، لم ألف منه انفصلاً ، أذن الله تعالى للصّحو أن يُطلع صفّحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تحطّ ^٢ نقابها ، وتطلّعت ^٣ الدنيا تبتهج كأنّها عروس تجلّت ، وقد تحلّت ، ذهبت في لُمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً ، ونطوي للفرج أرضاً ، فلا ندفع إلا إلى غدير ، ندير ، قد استدارت منه في كل قرارة سماء ، سحابها غمماً ، وانساب في كل تلعة حباب ، جلده حباب ، فتردّنا بتلك الأباطح ، نتهادي تهادي أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشي ، على بساط وشي ، فإذا مر بغدير نسجه درعاً ، وأحكمه صنّعاً ، وإن عثر بجدول شطبّ منه نصلاً ، وأخلصه صقلاً ، فلا ترى إلا بطاحاً ، مملوءة سلاحاً ، كأنما انهزمت هنالك كتابت فآلقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول .

ومن فصل منها : فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية رواق الأوراق ، وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء

١ انظر هذه الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ١٧٣ وديوان ابن خفاجة : ٣١٧ والمقتطفات (الورقة : ٢٢) .

٢ ك : تميط .

٣ ك : وطلعة .

نسيم عليل ، ونجبل الطرف في نهر صقيل ، صافي لجين الماء ، كأنه مَجْرَة
السماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحاب ، وقد حَضَرْنَا
مُسْمِعٌ يجري مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها واهوآها ، ويغني لها مَقَرَّهَا
ومُنَاهَا ، فصيح لسان النقر ، يشفي من الوقْر ، كأنه كاتب حاسب ، تمشق
يمناه ، وتعقد يسراه :

يحرّك حين يشلو ساكناتٍ وتنبعث الطبايعُ للسكون

وكانت بين أبي إسحاق وبعض إخوانه مقاطعة ، فاتفق أن ولي ذلك
الصديق حصناً ، فعاطبه أبو إسحاق برقعة ، منها^١ : أطال الله بقاء سيدي
النبهة أوصافه التزيهية عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء ، ما
انحدفت ياء يَرْمِي للعزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم ، كتبت عن ودِّ
قديم هو الحال ، لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله الاعتلال ،
والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعدد من الحروف
الجازمة ، وأنا أستنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية
فعل الفَصْل ، وعدولك عن باب ألف القطع ، إلى باب الوصل والجمع ،
حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت ، فلا
تتخيل أعزك الله أن رَسَمَ إخالك عندي ذُو حَسَا^٢ قد دَرَسَ عَقَاء ، ولا
أن صدري دارُ مية أمسى من ودك خلاء^٣ ، وإنما أنا فعلٌ إذا ثَنِيَ ظهر من
ضمير ودّه ما بطن ، وبدا منه ما كمن ، وهنيئاً أعزك الله أن فعل وزارتك
حاضر لا يلحق رفعه تغيير ، وأن فعل سيفك ماضٍ ما به للعوامل تأثير ، وأنت
بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ،

١ الذخيرة : ١٧٦ ، والديوان : ٣٢٦ والمقتطفات : ٢٣ .

٢ إشارة إلى قول النابغة : « عفا ذو حَسَا من فرتنا فالقوارع » وفي ك : دوحه قد درس .

٣ إشارة أخرى إلى قول النابغة في وصف دار مية : « أمست خلاء وأمسى أهلها احتلوا » .

ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من قُرْبِكَ^١ ، وتدع ألف الألفة أن تكون بعدُ من حروف اللين ، وترفع بالإضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الإخاء أن يصح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرًا ، وعدوك وإن تكبر كالكُمَيْت لم يقع إلا مُصَغَّرًا ، وللأيتام على تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا دخل عروضك قبض ، ولا غائب رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطاً بالفضل شرطك وجزاؤك ، جارياً على الرفع سروك الكريم وسناؤك ، حتى يُخَفِّض الفعل ، وتبنى على الكسر قبْلُ ، إن شاء الله .

وكتب رحمه الله تعالى يستدعي عودَ غناء^٢ : انتظم من إخوانك - أعزك الله تعالى - عقد شرب يتساقون في ودك ، ويتعاطون ريحانة شكيرك وحملك ، وما منهم إلا شره المسامح إلى رنة حمامة ناد ، لا حمامة بطن واد ، والطَّوْل لك في صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لساناً ، وصار لضمير صاحبه ترجماناً ، وهو على الإساءة والإحسان لا ينفك من إيقاع به ، من غير إيجاع له ، فإن هفا عُرِكت أذنه وأدب ، وإن تأتت^٣ واستوى بُعِج بطنه وضُرب ، لا زلت منتظم الجَدَل ، ملتئم الأمل ، انتهى .

* * *

[قصيدة لابن خفاجة]

ومن نظمه رحمه الله تعالى يتنجع ويتوجع^٤ :

١ ك : عبك ؛ ق : عتبك . ٢ الذخيرة : ١٧٤ والديوان : ٣١٩ .

٣ ك : تأتي ؛ ج : تأتي .

٤ الذخيرة : ١٨١ والديوان : ٢١٧ وفيها يرثي الوزير أبا محمد بن ربيعة إثر وفاة جملة من إخوانه .

شَرَابُ الْأَمَانِي لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ
 وَهَلْ مُهْجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ
 يَجِبُ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
 وَكَيْفَ يَغِيضُ الدَّمْعُ أَوْ يَبْرِدُ الْحَشَا
 أَقْلَبُ طَرَفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْثَلَةٍ
 كَأَنِّي، وَقَدْ طَارَ الصَّبَاحُ، حَمَامَةٌ
 دَعَا بِهِمْ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا
 فَهَاهُمْ وَسِلْمُ الدَّهْرِ حَرْبُ كَأَنَّمَا
 هَجُودٌ وَلَا غَيْرَ التَّرَابِ حَشِيَّةٌ
 وَلَسْتُ بِنَاسٍ صَاحِبًا مِنْ رِبِيعَةٍ
 وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَتَفَ أَنْفِهِ
 وَأَنَا تَجَارِينَا ثَلَاثِينَ حِجَّةً
 كَانَ لَمْ نَبْتَ فِي مَتَرِ الْقَصْفِ لَيْلَةٍ
 إِذَا قَامَ مَتَا قَائِمٌ هَزَّ عَظْفَهُ
 وَلَمَّا تَرَاءَتْ لِلْمَشِيبِ بُرَيْقَةً
 نَهَضْنَا بِأَعْبَاءِ اللَّيَالِي جَزَالَةً
 فَيَا ظَاعِنًا قَدْ حَطَّ مِنْ سَاحَةِ الْبَلَى
 كَفَى حَزَنًا أَنْ لَمْ يَزِرْنِي عَلَى النَّوَى
 وَأَنِّي إِذَا يَمُمْتُ قَبْرَكَ زَائِرًا
 وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ حَاوَرَ مَيِّتًا
 وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ
 وَعُتْبَى اللَّيَالِي لَوْ عَرَفْتَ عِتَابُ
 يَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عِقَابُ
 مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلَى وَرَكَابُ
 وَقَدْ بَادَ أَقْرَانُ وَفَاتَ شَبَابُ
 وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ نِقَابُ
 يَمُدُّ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ غَرَابُ
 تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عِرَابُ
 جَثَا بِهِمْ^١ طَعْنُ لَهُمْ وَضْرَابُ
 لَجْنَبٍ وَلَا غَيْرَ الْقُبُورِ قِيَابُ
 إِذَا نَسِيَتْ رَسْمَ الْوَفَاءِ صَحَابُ
 وَمَا ائْتَدَقَ رَمَحُ دُونِهِ وَكِعَابُ^٢
 فَفَاتَ^٣ سَبَاقًا وَالْحِمَامِ قِصَابُ
 نَجِيبُ بِهَا دَاعِي الصَّبَا وَنَجَابُ
 شَبَابُ أَرْقَنَاهُ بِهَا وَشَرَابُ
 وَأَقْشَعُ مِنْ ظِلِّ الشَّبَابِ سَحَابُ
 وَأُرْسَتْ بِنَا فِي النَّائِبَاتِ هِضَابُ
 بِمَتَرٍ بَيْنَ لَيْسَ عَنْهُ مَبَابُ
 رَسُولُ^٤ وَلَمْ يَنْفُذْ إِلَيْكَ كِتَابُ
 وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتَّرَابِ حِجَابُ
 لَطَالُ كَلَامُ بَيْنَنَا وَخَطَابُ
 فَأَقْشَعُ عَنْ شَمْسٍ هُنَاكَ ضَبَابُ

٢ الذخيرة والديوان : وذباب .

١ ك : بينهم .

٣ أصول المقرئ : حقبة ، فمات .

[عود إلى عمران قرطبة]

وقد أبعدنا عمّا كنّا بصده من ذكر قرطبة أعادها الله للإسلام ، فنقول :
قال بعض من أرخ الأندلس :
انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمئة وتسعين مسجداً ،
ثم زادت بعد ذلك كثيراً كما يأتي ذكره .

وقال بعضهم ^١ : كانت قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المدائن ، وقرارة
الملك ، وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمئة ، وكانت عدة الدور في القصر
الكبير أربعمئة دار ونيّفاً وثلاثين ، وكانت عدة دور الرعايا والسّواد بها
الواجب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، حاشا
دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لَمَسْتُونَة والموحّدين ، قال :
وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلاثمئة دار ، انتهى .

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل : واحد وعشرون ، ومبلغ المساجد
بها ثلاثة آلاف وثمانمئة وسبعة وثلاثون مسجداً ، وعدد الحمّامات المبرزة للناس
سبعمئة حمّام ، وقيل : ثلاثمئة حمّام .

وقال ابن حيان : إن عدة المساجد عند تنهايتها في مدة ابن أبي عامر ألف
وستمئة مسجد ، والحمّامات تسعمئة حمّام ^٢ .

وفي بعض التواريخ القديمة : كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف
مسجد وثمانمئة وسبعة وسبعون مسجداً — منها بشقنّدة ثمانية عشر مسجداً —
وتسعمئة حمّام وأحد عشر حمّاماً ، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية
خصوصاً ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .

٢ دوزي : ستمئة حمّام .

في المغرب ، وهو أعلم بما يأتي ويذر ، رحمه الله تعالى .

وقال بعض المؤرخين — بعد ذكره نحو ما تقدم^١ — : ووسط الأرباض
قبة قرطبة التي تحيط^٢ بالسور دونها ، وأمّا اليتيمة التي كانت في المجلس البديع
فإنّها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى
الناصر مع تحف كثيرة سنية ، انتهى .

ونحوه لابن الفَرّاضي وغير واحد ، لكن خالفهم صاحب « المسالك
والممالك »^٣ فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجداً ،
وهو بعيد ، وقال قبله^٤ : إن دَوْرَ قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع ، وتفسيرها
باللسان القوطي القلوب المختلفة ، وهي بالقوطية بالطاء المشالة ، وقيل : إن
معنى قرطبة أجر فاسكنها^٥ ، قال : وبقرطبة أقاليم كثيرة وكُورٌ جليّة ، وكانت
جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين
ديناراً ، وسبق ما يخالف هذا ، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمئة مدي ،
ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمئة مدي وسبعة وأربعين مدياً .

وقال بعض العلماء : أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي
عامر فكان مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعاً وسبعين داراً ، وهذه
دور الرعيّة ، وأمّا دور الأكابر والوزراء والكتّاب والأجناد وخاصة الملك
فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصاري^٦ الكراء والحمّامات والخانات ،
وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمئة وخمسة وخمسون ، ولما كانت
الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ، ومحيّت آثار تلك

١ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .

٢ ق ط ج : تختص .

٣ مخطوطة المسالك والممالك (الورقة : ٢٢٠) .

٤ المصدر السابق (الورقة : ٢١٩) .

٥ قد مر أنه « أجر ساكنها » وفي نسخة الروض المطار : « آخر فاسكنها » .

٦ المصاري : جمع مصرية وهي غرفة علوية منفصلة ، تكرر أو تجعل للخدم .

القرى والبلدان ، انتهى ملخصاً . وسيأتي في رسالة الشقندي ما هو أشمل من هذا .

• • •

[قصيدة القرطبي والمتنزهات]

ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي^١ بقرطبة وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين مراكش قال وذكر المتنزهات القرطبية :

يا هبةً باكرت من نحو دارين سرت على صفحات النهر ناشرة
وافت إليّ على بُعد تحييتي ردت إلى جسدي روح الحياة وما
جناحها بين خيرتي ونسرين لولا تنسمها من نشر أرضكم
خلت النسيم إذا ما مت بحيني مرت على عقدات الرمل حاملة
ما أصبحت من أليم الوجد تبيري عرفت من عرفه ما لست أجهله^٢
من سركم خبراً بالوحي يشفيني نزوت من طرب لما هفا سحرأ
لما تنسم في تلك الميادين خلّت الشمال شمولاً إذ سكّرت بها
وظلّ ينشّري طوراً ويطنويني أهدت إليّ أريجاً من شمائلكم
سكراً بما لست أرجوه يمنيّني وخلت من طمع أن اللقاء على
فقلت : قربني من كان يقصيني فظلت أليم من تعظيم حقكم
إثر النسيم وأضحى الشوق يحذوني مسارح كم بها سرحت من كمد
مجرّ أذيالها والوجد يغريني بين المصلى إلى وادي العقيق وما
قلبي وطرفي ولا سلوان يشيني إلى الرصافة فالمرج النصير فوا
يزال مثل اسمه مذ بان يبكيّني دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون

١ شاعر وشاح مترسل مشهور بالبلاغة صلحت حاله بأخرة وأقبل على النكاح (توفي سنة ٦٢٢) -

انظر التكملة رقم : ١٩٤٤ والمغرب ١ : ٧٥ .

٢ ك : ما كنت أجهله .

لباب عبد سقته السحب وابلها
لا باعد الله عني عن منازحه
حاشا لها من محلات مفارقة
أين المسير ورزق الله أدركه
يا من يزين لي الترحال عن بلدي
وأن يعدل عن أرجاء قرطبة
قطر فسيح ونهر ما به كدر
يا ليت لي عمر نوح في إقامتها
كلاهما كنت أفني على نشوا
وإنما أسقي أني أهيم بها
أرى بعيني ما لا تستطيل يدي
وأنكد الناس عيشاً من تكون له
يغض طرف الصابي حين تبهته
قالوا: الكفاف مقيم قلت: ذاك لمن
ولا يستلبه هب الصبا سحراً
ولا يهيم بتفاح الخدود ورماً
لا تجتني راحة إلا على تعب
وصاحب العقل في الدنيا أخو كبر
يا أمري أن أحت العيس عن وطني
نصحت لكن لي قلباً ينازعني
لأزمن وطني طوراً تطاوعني

فلم يزل بكؤوس الأنس يسقيني
ولا يقرب لها أبواب جبرون
من شيتي دونها في القرب محزون
من دون جهدي وتأميل يعنيني
كم ذا تحاول نسلاً عند عني
من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
حفت بشطيه ألف البساتين
وأن مالي فيه كنز قارون
ت الراح نهبا ووصل الخرد العين^٢
وأن حظي منها حظ مغبون
له وقد حازه من قدره دوني
نفس الملوك وحالات المساكين
قضبان نعمان في كئيبان يبرين
لا يستخف إلى بيت الزاجين
ولا يلطفه عرف الرياحين
ن الصدور^٣ وترجيع التلاحين
ولا تنال العلا إلا من الهون
وإنما الصفو فيها للمجانين
لما رأى الرزق فيه ليس يرصيني
فلو ترحلت عنه حله دوني
قود الأمانى وطوراً فيه تعصيني

١ ق ط : مجلات .

٢ ك : الحور والعين .

٣ دوزي : النهود .

مُدُلًّا بَيْنَ عِرْفَانِي وَأَضْرَبُ عَنْ سَيْرٍ لَأَرْضٍ بِهَا مَنْ لَيْسَ يَدْرِينِي
 هَذَا يَقُولُ غَرِيبٌ سَاقَهُ طَمَعٌ وَذَلِكَ حِينَ أَرَاهُ الْبَرَّ يَجْفُونِي
 إِلَيْكَ عَنِّي آمَالِي فَبَعْدُكَ يَهْ دِينِي وَقُرْبُكَ يَطْغِينِي وَيُغْوِينِي
 يَا لِحَظِّ كُلِّ غَزَالٍ لَسْتُ أَمْلِكُهُ يَدْنُو وَمَا لِي حَالٌ مِنْهُ تُدْنِينِي
 وَيَا مُدَامَةَ دَيْرٍ لَا أَلِمْ بِهِ لَوْلَا كُما كَانَ مَا أُعْطِيتُ يَكْفِينِي
 لِأَصْبِرَنَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ كَدَرٍ لِمَنْ عَطَايَاهُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنَّوْنِ

وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس « كثر الأدب » وقد أشرنا في الباب الأول إلى كثير مما يتعلق بقرطبة ، أعادها الله تعالى إلى الإسلام ، فأغنى عن إعادته ، وإن كان ذكره هنا أنسب ، لأن ما تقدم إنما هو في ذكرها مع غيرها من بلاد الأندلس ، وهذا الباب ^٢ لها بالاستقلال .
 وأنشد أبو العاصي غالب بن أمية الموروري ^٣ لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الرِّبض ملتفتاً إلى القصر ، بديهة ^٤ :

يَا قَصْرُ كَمْ [قَدْ] حَوَيْتَ مِنْ نَعَمٍ عَادَتْ لَقَى فِي عَوَارِضِ السَّككِ
 يَا قَصْرُ كَمْ [قَدْ] حَوَيْتَ مِنْ مَلِكٍ دَارَتْ عَلَيْهِ دَوَائِرُ الْفَلَكَ
 ابْقَ بِنَا شَيْتَ كُلُّ مُتَّخِذٍ يَعُودُ يَوْمًا بِحَالٍ مُتْرَكٍ

وقال القاضي أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة ^٥ :

- ١ ق ك ط ج : الفصل . ٢ ق ك ط ج : الفصل .
- ٣ غالب بن أمية بن غالب الموروري (ويترجم له أيضاً تحت أمية بن غالب) من شعراء القرن الرابع سكن قرطبة . (انظر ترجمته في التكملة رقم : ١٩٥٥ والجذوة : ٣٠٥ وبغية الملتبس رقم : ١٢٧٥) والأبيات الواردة له مذكورة في هذه المصادر .
- ٤ حولت الأبيات حسب رواية النفع إلى الوزن الكامل المرفل ، ولكنها جاءت مع أبيات أخرى في الجذوة والبغية على وزن المنسرح فلذلك عدلنا بها إلى ذلك الوزن .
- ٥ أصول النفع : بعوارض .
- ٦ أصول النفع : ما شئت فابق فكل متخذ يوماً يعود .
- ٧ وردت الأبيات في ترجمة القاضي عياض في القلائد : ٢٢٢-٢٢٦ وانظر أزهار الرياض ٣ : ١٨ .

أقول وقد جدّ ارتحالي وغرّدتُ
وقد غمضتُ من كثرة الدَّمْعِ مُقْلتي
ولم يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ يَسْتَحْثُّهَا
رَعَى الله جيراناً بقرطبة العُلا
وحياً زماناً بَيْنَهُم قد أَلْفَتْهُ
أَخواننا بالله فيها تذكّروا
غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بَرِّهِمْ واحْتَفائِهِمْ
حُدَاتِي وَزُمْتُ لِلْفِرَاقِ رِكَائِي
وصارت هَوَاءَ مِنْ فَوَادِي تَرَائِي
ودَاعِي لِلأَحْبَابِ لَا لِلْحَبَائِبِ
وجاد رُبَاهَا بِالْعَهَادِ السَّوَائِبِ
طَلِيقَ الْحَيَا مُسْتَلَانَ الْجَوَانِبِ
مَوَدَّةَ جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ
كَأَنِّي فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

* * *

[عود إلى مسجد قرطبة]

وأما مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله ما لا بدّ منه ، فنقول :

قال بعض المؤرخين : ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأنقى صنعة ، وكلّما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله ، انتهى .

وكان الذي ابتدأ ببناء^١ هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، ولم يكمل في زمانه ، وكله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروباً به ، والذي ذكره غير واحد أنّه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على مَنْ قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم^٢ بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيهاً برصافة جده هشام بدمشق .

١ ك : بناء .

٢ وعظم : زيادة في ك .

وقال بعض^١ : إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار ، واشترى موضعه
إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار ، فآله تعالى أعلم .

وقال بعض^١ في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنه لما تمهد
ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ،
وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فيناه ، وأصلح مساجد الكور ،
ثم ابنتى مدينة الرصافة متزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجناناً واسعة ،
نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار ،
انتهى .

وكانت أخته أم الأصمغ ترسل إليه من الشام بالغرائب ، مثل الرمان العجيب
الذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مرّ ، وسياقي كلام ابن سعيد بما هو أتم
من هذا .

ولما ذكر ابن بشكّو^٢ زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة قال^٣ :
ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مُصَفِّدِينَ
في الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً
من رجالة المسلمين ، إذ لا لالشرك وعزة للإسلام ، ولما عزم على زيادته هذه
جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يؤتى بصاحب المنزل
فيقول له : إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتاعها^٣ لجماعة المسلمين من
ما لهم ومن فيئتهم لأزبدها في جامعهم وموضع صلاتهم ، فشطّط^٤ وأطلب ما
شئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشتري له بعد ذلك
دار عوضاً منها ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت :
لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فقال : تبتاع لها دار بنخلة ، ولو ذهب فيها

١ ك : وقال بعض المؤرخين .

٢ قارن بما ورد في مخطوط الرباط : ٣٠ .

٣ ك : أريد أن أبتاعها .

بيت المال ، فاشترت لها دار بنخلة ، وبولغ في الثمن ؛ وحكى ذلك ابن حبان أيضاً .

وقيل : إن إنفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحدًا وستين ألف دينار ونيقاً ، وكله من الأخماس .

وقال صاحب كتاب « مجموع المفقود » : وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسة وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع ، ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع ، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً ، وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ، فم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعاً ، وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً ، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً والذين يليانه شرقاً أربعة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً ، وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانية عشر كل واحد عشرة أذرع ، وكان العمل في زيادة المنصور ستين ونصفاً ، وخدم فيه بنفسه ، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمانية وعشرون ذراعاً ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة ذراع وخمسة أذرع ، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع ، فتكسره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً ، وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً ، وأربعة في بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاماً كلها ، وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء ، وثريبات المقصورة فضة محضة ، وارتفاع الصومعة اليوم — وهي من بناء عبد الرحمن ابن محمد — ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن ،

وفي رأس هذه القبة تفافيح^١ ذهب وفضة ، ودور كل تفاعحة ثلاثة أشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهب لإبريز ، وواحدة فضة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هُنِدت بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج ، وهي إحدى غرائب الأرض .

وكان بالجامع المذكور^٢ في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي خطّه بيده ، وعليه حلية ذهب مكلّلة بالدر والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسيّ العود الرطب بمسامير الذهب .

رجع إلى المنارة :

وارتفاعُ المنارة إلى مكان الأذان أربعة وخمسون ذراعاً ، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر ذراعاً ، انتهى بحروفه . وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضي وبعضهم ، إذ قال في ترجمة المنصور بن أبي عامر ما صورته^٣ : وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البرّ والقربةُ ببناءُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، وذلك أنّه لما زاد الناس بقُرطبة وانجلب إليها قبائلُ البربر من العُدوة وإفريقية ، وتناهى حالها في الجلالة ، ضاقت الأرباض وغيرها ، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس ، فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تتمكّن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة ، فبدأ ابنُ أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره ، وقصد ابنُ أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في

١ تسمى في مخطوطة الرباط : « رمانات » .

٢ انظر مخطوط الرباط : ٣٣ ؛ والروض المطار : ١٥٥ .

٣ النص في ابن عذاري ٢ : ٤٢٨ .

٤ ق ودوزي : الخير والبر .

الإتقان والوثاقة ، دون الزخرفة ، ولم يقصّر - مع هذا - عن سائر الزيادات جودة ، ما عدا زيادة الحكم . وأوّل ما عمله ابن أبي عامر تطيب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن ، وصنع في صحنه الحبّ العظيم قدره ، الواسع فِناؤه ، وهو - أعني ابن أبي عامر - هو الذي رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت^١ ، فتطابق بذلك النوران ، وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومَناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية ، وقيل : أكثر ، وعدد ثُرَيَّات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثُرَيَّا ، وعدد الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس ، وزنة مَشَاكي الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة أرباع^٢ أو نحوها ، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار ، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربيع أو نحوها ، يُصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد ، وممّا كان يختصّ برمضان المعظّم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور ، والكبيرة من الشمع التي تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً ، يحترق بعضها بطول الشهر ، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة ، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً^٣ ، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواقٍ من العنبر الأشهب وثمانين أواقٍ من العود الرطب ، انتهى .

١ ابن عذاري : للرسم .

٢ ابن عذاري : عشرة أرباع القنطار .

٣ مخطوطة الرباط : ثلاثمائة رجل ، وهو يوافق ما سيأتي من نقل عن ابن سعيد .

وقال بعض المؤرخين : كان للجامع كل ليلة جمعة^١ رطل عود ، وربيع رطل عنبر ، يتبخر به ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، نقلاً عن ابن بشكُوّال : طول جامع قرطبة الأعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً ، الصحنُ المكشوف عنه ثمانون ذراعاً ، وغير ذلك مُقَرَّمَد ، وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً ، وعدد أبوابه عند اكتمالها بالشمال التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا تسعة عشر بهواً ، وتسمى البلاطات ، وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً : في الجانب الغربي تسعة أبواب ، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن ، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها للدخول الرجال ثمانية أبواب ، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها للدخول الرجال بابان كبيران وباب للدخول النساء إلى مقاصيرهن^٢ ، وليس لهذا الجامع في القبلي سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة في قبلته متصل بالسباط المُنْفُضِي إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة ، وجميع هذه الأبواب مُلَبَّسة بالنحاس الأصفر بأعرب صنعة ، وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه والملصقة^٣ بمبانيه وقبابه ومنازه وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألف وأربعمائة سارية وتسع سوار ، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية .

وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال :
إنه خطر بها على خمسة بلاطات من الزيادة الحكيمية ، وأطلق حفافها على الستة الباقية : ثلاثة من كل جهة ، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسة وسبعين ذراعاً ، وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين

١ ق : كل جمعة .

٢ في ط : والملصقة ؛ ج : والملصقة .

وعشرين ذراعاً ، وارتفاعها في السماء إلى حدّ شرفاتها ثمانية أذرع ، وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار ، ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقيّ وغربيّ وشماليّ ، ثم قال : وذَرَعُ المحراب في الطول من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ، والمنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل وتَبَعُ وبَقَمُ وشَوْحَطُ وما أشبه ذلك ، ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وثُلُث درهم^١ وقيل غير ذلك ، وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله .

وذكر أن عدد ثُرَيَّات الجامع التي تُسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصّة — سوى ما منها على الأبواب — مائتان وأربع وعشرون ثُرَيّا ، جميعها من لاطون مختلفة الصنعة ، منها أربع ثُرَيَّات كبار معلقة في البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة ، فيها من السُرُج — فيما زعموا — ألف وأربعة وخمسون^٢ ، تستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الأخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثرِيّا منها سبعة أرباع في الليلة ، وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام تمام وقوده في مدّة ابن أبي عامر مكملّة بالزيادة المنسوبة ألف ربيع ، منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربيعاً ، قال : وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القوّة بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر ثلاثمائة ، انتهى . وفيه مخالفة لبعض ما تقدّم .

وذكر بعضهم الزيت — ولكن قوله أولى بالاتباع ، لنقله عن ابن بشكوال ،

١ وثلاث درهم : سقطت من ك .

٢ في ك : ألف وأربعمائة وأربعة وخمسون .

ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره ، والله سبحانه أعلم -
 فقال : ألف ربيع وثلاثون ربيعاً ، منها في رمضان خمسمائة ربيع ، وفي الثريات
 التي من الفضة - وهي ثلاث - اثنان وسبعون رطلاً ، لكل واحدة ثمانية عشر
 في ليلة وقّدها . وقال في المنبر : إنه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل ،
 قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضّة ، وسمرت بمسامير الذهب والفضّة ،
 وفي بعضها نفيس الأحجار ، واتصل العمل فيه تسعة ، ثم قال : ودور الثريا
 العظيمة خمسون شبراً ، وتحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلّها مؤشاة
 بالذهب ، إلى غير ذلك من الغرائب .

• • •

[وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة]

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم ابن صاحب الصلاة الونبتي يصف
 جامع قرطبة بما نصّه^١ : عمر الله سبحانه بشمول السعادة رسمك ، ووفر من
 جزيل الكرامة قسّمك ، ولا بَرِحْتَ سحائب الإنعام تهمي عليك ثرّة ،
 وأنامل الأيام تهدي إليك كلّ مَسَرَّة ، لئن كان أعزّك الله طريق الوداد بيننا
 عامراً ، وسبيل الاتحاد^٢ غامراً ، لوجب أن نفص ختمه ، ونرفض كتمه ،
 لا سيّما فيما يُدرُّ أخلاف الفضائل ، وبهر أعطاف الشمائل ، وإنّي شخصت
 إلى حضرة قرطبة - حرسها الله تعالى - منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ،
 والجامع - قدس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه - قد كسي
 ببردة الازدهاء ، وجُلي في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشرف^٣
 في أسنان ، وكأنّما ضُربت على سمائه كِلل ، أو خلُعت على أرجائه حُلل ،
 وكأن الشمس قد خلّفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهراً

١ وردت هذه الرسالة في المقتطفات (الورقة : ٣٥ - ٣٧) .

٢ ك : وسبيل المحبة ؛ وفي ط بياض موضع « الاتحاد » .

قد أحدق به ليل ، كما أحدق برَبْوَةِ سِيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللدُّبَال
تَأَلَّقَ كَتَضَنُّضَةِ الحَيَات ، أو إشارة السَّبَابَات في التَّحِيَّات ، قد أترَعَت من
السليط كؤوسها ، ووُضِلَت بِمَحَاجِنِ الحَديد رُؤوسها ، ونيطت بسلاسل
كالجدوع القائمة ، أو كالنعاين العائمة ، عُصِبَتْ بها تفاح من الصُّفْر ، كاللُّفَّاح
الصُّفْر : بولغ في صقلها وجلاتها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها
جلّيت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سامتَها طويلاً رأيت منها سبائك
عسجد ، أو قلائد زبرجد ، وإن جثتها^١ عرضاً رأيت منها أفلاكاً ولكنها
غير دائرة ، ونجوماً ولكنها ليست بسائرة ، تتعلّق تعلّقَ القرط من الذُّفْرَى ،
وتبسّط شعاعها بسَطَ الأديم حين يُفْرَى ، والشمع قد رُفَعَت على المنار رفع
البُود ، وعُرِضَتْ عليها عرض الجنود ، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد ،
ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد ، وقد قوبل منها مُبَيَّضٌ بِمَحْمَرٍّ ،
وعورض مخضّرٌ بِمَصْفَرٍّ ، تضحك ببكائها وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها
وتحيي بهلكها ، والطيب تفغم أفواحه ، وتتنسّم أرواحه ، وقتارُ الأَلَنجُوج
والند ، يسترجع من رَوْحِ الحياة ما نَدَّ ، وكلّما تصاعد وهو محاصر ، أطل من
العمر ما كان تقاصر ، في صفوف^٢ مجامر ، ككعوب مُقَامَر ، وظهور القباب
مؤلّلة ، وبطونها مهلّلة ، كأنها تيجان ، رُصِّعَ فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس
محرابها أحكم تقويس ، ووُثِمَ بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة
مُقَرَّطَق ، وبقوس قُزَحٍ مُمَنَّطَق ، وكأنّ اللازورد حول وشومه ، وبين
رسومه ، نُتِفَ من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلّل الغمام ، والناس أخياف
في دواعيهم ، وأوزاع في أغراضهم ومراميمهم ، بين رُكْعٍ وسُجْدٍ ، وأيقاظ
وهُجْدٍ ، ومزدهم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحم على الظهور يتمطاها ،

١ ك : أتيتها .

٢ ق : الحياة ما هو مزجوج وأقيمت في صفوف (وهو مضطرب ناقص) .

كانتهم برداً خلال قطر ، أو حروف في عرض^١ سطر ، حتى إذا قرعت
أسماعهم روعة التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجادبوا بالأثواب ، وتساقبوا
بالأكواب ، كانتهم حضور طال عليهم غياب ، أو سقر أتيح لهم إياب ،
وصفيك مع إخوان صدق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ، في مكان
كوكر العصفور ، أستغفر الله أو ككناس اليعفور ، كأن إقليدس قد
قسم بيننا مساحته بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباط اليبادق بالفرازين ، حتى صار
عقدنا لا يحل ، وحدنا لا يفل ، بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى ،
ونطلع صور التفصيل^٢ كيف تجلى ، والقومة حوالينا يجهدون في دفع الضر ،
ويعمدون إلى قرع العمود بالدرر ، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين ،
وسرت نجومهم^٣ سرى القين ، توهوا أنها إلى أعطافهم واصله ، وفي أقحافهم
حاصله ، ففروا بين الأساطين ، كما تفر من النجوم الشياطين ، كأنما ضربهم
أبو جهنم^٤ بعصاه ، أو حصبهم عمير بن ضاب^٥ بحصاه ، فأكرم بها مساع
تشوق إلى جنة الخلد ، ويهون في السعي إليها إنفاق الطوارف والتلذذ ، تعظيماً
لشعائر الله ، وتنبهاً لكل ساه ولاه ، حكمة تشهد لله تعالى بالربوبية ، وطاعة
تذل لها كل نفس أبيية ، فلم أر ، أدام الله سبحانه عزك ، منظرأ منها أبهى ،
ولا مخبرأ أشهى ، وإذا لم تتأمله عياناً ، فتخيّله بياناً ، وإن كان حظ منطقي
من الكلام ، حظ السفيح^٦ من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها ،
وأذمة تقلدنا حمائلها ، يوجب قبول إتحاف سميناً وغشاً ، ولبس لطافي جديداً

١ ق ودوزي : عروض ، وما ثبت هنا في نسخة ك ط ج .

٢ ق ط : التفضيل .

٣ دوزي : بملهم .

٤ فيه إشارة إلى ما قاله الرسول (ص) في أبي جهنم العدوي من أنه لا يرفع عصاه عن أهله .

٥ عمير بن ضاب^٥ البرجمي من حسب الحجاج حين جلس على منبر الكوفة .

٦ السفيح : قح لا نصيب له في الميسر ، وكذلك المنج .

ورثاً ، لا زلت لزناد النبل مُورياً ، وإلى آمام الفضل مجرياً ، والتحية العبيقة
الرياً ، المشرقة المحيّا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله تعالى
وبركاته ، انتهى .

* * *

[تمام الحديث في متعلقات الجامع]

وذكر ابن بَشْكُوَال أن الحكم المستنصر هَدَم الميضأة القديمة التي كانت
بفناء الجامع ، يستسقى لها الماء من بئر السانية ، وبني موضعها أربع مِيضَات في كل
جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها ثنتان كبيرى للرجال وصغرى للنساء ،
أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قُرْطُبة إلى أن صبت ماءها في
أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى
سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ،
أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير^١
بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير ، وألقاه الرخامون^٢ هنالك ، واحتفروا
أجوافها بمناقيرهم في المدّة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة لأعين
الناس ، فخفض ذلك من ثقلها ، وأمكن من إهابها إلى أماكن نصبها بأكتاف
المسجد الجامع ، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته ، فتهيأ حمل الواحدة منها
فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فلّك موثقة بالحديد
المتقّف مخفوفة بوثق الحبال قُرْن لجرّها سبعون دابة من أشد الدواب ، وسهلت
قدامها الطرق والمسالك ، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه
الصفة في مدة اثني عشر يوماً ، فنصبت في الأقباء المعقودة لها ، قال : وابنتي
المستنصر في غربي الجامع دار الصدقة ، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ،

١ في ط : المنسیر ؛ ق : النسر ؛ ج : المتسین .

٢ ك : الرخاميون .

وابتني للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربي ، انتهى .

* * *

[عمل أهل قرطبة حجة في الفقه]

واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجةً بالمغرب ، حتى إنهم يقولون في الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة ، وفي هذه المسألة نزاع كثير ، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك ، قال الإمام ابن عرفة^١ رحمه الله تعالى : في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقد المشترط اجتهاداً وتقليداً - ثلاثة أقوال : الصحة للباقي ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب مَنْ ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة ؛ قال المازري : مع احتمال كون الرجل مجتهداً . الثاني : البطلان ، للطروشوي ، إذ قال في شرط أهل قرطبة : هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويبطل^٢ الشرط ، تخريباً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس ، انتهى مختصراً .

قال ابن غازي : إن ابن عرفة نسب للطروشوي البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى .

ولما ذكر مولاي الجلد الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقرئ التلمساني^٣ في كتابه « القواعد » شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصّه :

١ هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (٧١٦ - ٨٠٣) تلميذ قاضي الجماعة بتونس محمد ابن عبد السلام ، وأحد الفقهاء المشهورين بها ، وله مختصر فقهي ومؤلفات أخرى في مذهب مالك تشهد بتقدمه وإمامته (انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٨١ والديباج : ٣٣٧ والنصوء اللامع : ٩ : ٢٤٠ وغاية النهاية ٢ : ٢٤٣) .

٢ ك : ويذهب .

٣ جد المؤلف هذا هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ التلمساني الذي تولى قضاء فاس أيام السلطان أبي عنان المريني ، وكان آية في غزارة الحفظ ومادة العلم (انظر ترجمته في المرقية العليا : ١٦٩ والتعويف بابن خلدون : ٥٩ والإحاطة ٢ : ١٣٦ ونيل الابتهاج : ١٤٩ وسيرتجم له المقرئ) .

وعلى هذا الشرط ترتب إيجاب^١ عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ،
فبينما نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل
بها من علماء الأمة كعلي وابن مسعود ومن كان معهما :

ليس التَّكْحُلُ في العينين كالكَحْلِ

سنع لنا بعض الجُمُود ، ومعدن التقليد^٢ :

الله أَخَّرَ مُدَّتِي فَتَأَخَّرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّوْمَانِ عَجَائِبًا

يا لله وللمسلمين ، ذهبت قرطبة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ،
ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقيه
ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل
والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماءها كالعتمة ويثرب ،
وكذا التنازع بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه ، كيف لم تزل من أهلها ،
وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ،
بل يجعلون العادات القديمة أسساً ، وكذلك محبة الشعر والتلحين^٣ والنسب وما انحط
في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع
وستين سنة لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نعمله إلا كلاً ، انتهى .

وقال الحافظ ابن غازي - بعد ذكر كلام مولاي الجدد - ما نصّه : وحدثني
ثقة ممن لقيت أنه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمساني وتصدى
لإقراء التفسير بالبلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المريني الحفيد أعيان الفقهاء

١ إيجاب : سقطت من ك .

٢ كذا وردت هذه العبارة ، واقترح فليشر أن تقرأ « سنح لنا بغض المجهود ومودة التقليد » وهو
تخريج بعيد .

٣ ط : والتأخير .

بمحضور مجلسه كان ممّا ألقاه إليهم مترع المقرّي^١ هذا ، فبالغوا في إنكاره ،
ورأوا أنّه لا معدل عمّا عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق
كالميتي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومن في معناهم ، انتهى .

* * *

[رجع إلى وصف قرطبة ومسجدها]

وقال بعض المؤرخين - حين ذكر قرطبة - ما ملخصه : هي قاعدة بلاد
الأندلس ، ودار الخلافة الإسلامية ، وهي مدينة عظيمة ، وأهلها أعيان البلاد
وسرّة الناس ، في حسن المآكل والمشارب^٢ والملابس والمراكب ، وعلو الهمم ،
وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وأجلاد الغزاة ، وأنجاد الحروب ،
وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم
حصين حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات
والأسواق والصناعات ، وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد ، وهي في
سفح جبل مطل عليها ، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة^٣ والجامع الذي
ليس في معمور الأرض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين ، وفيه من السواري
الكبار ألف سارية ، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريباً للوقود أكبرها تحمل ألف
مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات
تدهش العقول ، وعلى فرجة^٤ المحراب سبع قسي^٥ قائمة على عمد طول كل
قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها ، وفي عِضادتي
المحراب أربعة أعمدة : اثنان أخضران واثنان لازورديان ، ليس لها قيمة لنفاستها ،
وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفُس منه ولا^٦ مثله في حسن صنعته ، وخشبه

١ ك : مشرع المقرّي .

٢ والمشارب : زيادة من ك .

٣ ق ودوزي : فرخة ؛ ط : فرضة .

٤ أنفُس منه ولا : زيادة من ك .

ساج وآبنوس وبقم^١ وعود قافلتى ، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صنّاع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي^٢ ، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً^٣ ، وفي الجامع حاصل^٤ كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال : إنه عثماني ، والجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسي غرمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبههم ، وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكنى المعروف بالرشاشي^٥ ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته ، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع حلقة ربانية ، وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة ، عجيبة المراءى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً^٦ ، وعدد قيسيتها سبع عشرة قوساً ، سعة كل قوس منها خمسون شبراً وبين كل قوسين خمسون شبراً ، وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن يحيط بها وصف ، انتهى ملخصاً . وهو وإن تكرّر بعضه مع ما قدمته^٦ فلا يخلو من فائدة زائدة ، والله الموفق . وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مرّ ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار إليه هو في أمر الصومعة ، وكذا ما ذكره في

١ وبقم : زيادة من ك .

٢ يقال إن الدنانير الحمديدية منسوبة إلى محمد بن الناصر الموحدي وفي الأوقية الواحدة ٢٣ درهماً ، وهناك دنانير محمديّة تنسب إلى محمديّة العراق وأخرى إلى مدينة الحمديدية بالمغرب (انظر الدوحة المشبكة : ٨٩ والهاشية رقم : ٥) .

٣ الحاصل : المخزن أو المستودع .

٤ الرشاشي : ذراع ينسب إلى الرشاش الذي جرى التكسير بذراعه أي اتخذ طوله وحدة لقياس الأطوال والمساحات : (انظر طبقات الزبيدي : ٢٨٤ وابن القرضي : ١ : ١٩٦) .

٥ ق : عدداً .

٦ ج : مع ما تقدم .

عدد السواري ، إلا أن يقال : ما تقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذي ذكره هنا إنما هو للكبار فقط ، كما صرح به ، والله تعالى أعلم .
وأما الثريات فقد خالف في عددها ما تقدم ، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخي الأندلس ، ونحن جلبنا النقل من مواضعه ، وإن اختلفت طرقه ومضموناته .

وقال في المغرب - عند تعرضه لذكر جامع قرطبة - ما نصّه : اعتمدت فيما أنقله^١ في هذا الفصل على كتاب ابن بشكّو^٢ال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره : عن الرازي أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيسهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشت بِنَجْنَتْ ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهُدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما في أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنّون بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض ، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدّنت به ، فنظر في أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه ، فأحضر أعظم النصارى ،

١ ك : نقله .

وسامَهُم ببيعَ ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجلد بهم أن يباحوا ببناء كنيستهم^١ التي هُدِمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلَّوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير^٢ الزيادة فيه ، وإنما الحاجة في وصفه بكماله . وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي^٣ من قصيدة :

وَأُنْفَقَ فِي دِينِ الْإِلَهِ وَوَجْهِهِ ثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ لُجَيْنٍ وَعَسْجِدٍ
تَوَزَّعَهَا فِي مَسْجِدِ أَسْهٍ التَّقَى وَمَنْتَهَجُهُ دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
تَرَى الذَّهَبَ النَّارِيَّ فَوْقَ سَمُوكِهِ يَلُوحُ كَبْرَقُ الْعَارِضِ الْمُتَوَقِّدِ

قال : وكمل سنة سبعين ومائة ؛ ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضى وما جدَّده فيه ، وأنه بناه من خُمُسٍ فيءٍ أربُونة ، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لما تزايد الناس ، قال : وهلك قبل أن يُتم الزخرفة ، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن^٤ ، ثم رمَّ المنذر بن محمد ما وهى منه ، وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى وبنائه للصومعة العظيمة ، قال : ولما ولي الحكم المستنصر بن الناصر - وقد اتسع نطاق قرطبة ، وكثر أهلها ، وتبين الضيق في جامعها - لم يقدِّم شيئاً على النظر في الزيادة ، فبلغ الجُهد ، وزاد الزيادة العظمى ، قال : وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حدِّ يحسر^٥ الوصف عنه ، وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة إلى نحو المشرق ، حسبما فعله

١ ق ط : كنائسهم .

٢ ق : في تفسير .

٣ ق ودوزي : البلوي . والأبيات في مخطوطة الرباط : ٩٥٠ مصدرة بقوله : قال بعضهم .

٤ لما تزايد ... عبد الرحمن : سقطت من ق - وهو سهو واضح -

٥ ك : يقصر .

والدهُ الناصر في قبة جامع الزهراء ، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبة الجامع القديمة إلى نحو الغرب ، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، إنّه قد صلى إلى هذه القبة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسين بأول مَنْ نصبها من التابعين كوسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهما ، رحمهم الله تعالى ؛ وإنّما فَضِّلَ مَنْ فَضِّلَ بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع ، فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نَعَمْ ما قلت ، وإنّما مذهبنا الاتباع .

قال ابن بَشْكُوَال : ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة في هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت إلى مائتي ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهمين ونصف .

ثم ذكر الصومعة نقلاً عن ابن بَشْكُوَال فقال : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ١٣٤٠^١ وأقام هذه الصومعة البديعة ، فحضر في أساسها حتى بلغ الماء مدّة من ثلاثة وأربعين يوماً ، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء وصعد في الصّومعة من أحد درجتيها ، ونزل من الثاني ، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين في المقصورة ، وانصرف ، قال : وكانت الأولى ذات مَطْلَع واحد ، فصير لهذه مطلعين ، فَصَلَّ بينهما البناء ، فلا يلتقي الراقون فيها إلّاّ بأعلاها ، تزيد مراقي كل مطلع منها على مائة سبعا .

قال : وخبر هذه الصومعة مشهور في الأندلس^٢ ، وليس في مساجد المسلمين صومعة تعلوها .

قال ابن سعيد : قال ابن بَشْكُوَال هذا لأنّه لم يرَ صومعة مراكش ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن ، فهما أعظم وأطول ، لأنّه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعاً

١ ق : ٣٣٠ .

٢ ك ط ج : في الأرض .

ولم أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزجاج ثلاثة وسبعون ذراعاً ، وعرضها في كل
تربيع منها ثمانية عشر ذراعاً ، وذلك اثنان وسبعون ذراعاً ، قال ابن سعيد : وطول
صومعة مراکش مائة وعشرة أذرع . وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة
المقطعة^١ منجدة غاية التجديد ، وفي أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها
زمانات ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس : الثتان منها ذهب لإبريز ،
والثالثة منها وسطي بينهما من فضة لكسير ، وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة
فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزجاج البارز بأعلى الجوّ ، وكان تمام هذه
الصومعة في ثلاثة عشر شهراً .

وذكر ابن بشكّو^٢ في رواية أن موضع الجامع الأعظم بقُرطبة كان
حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قُمامتهم وغيرها ، فلمّا قدم سليمان بن
داود صلى الله عليه وسلم ودخل قرطبة قال للجن : أرْدِمُوا هذا الموضع وعدّلوا
مكانه ، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه ، ففعلوا ما أمرهم به ، وبني فيه بعد
ذلك الجامع المذكور ، قال : ومن فضائله أن الدارات المائلة في تزاويق سمائه
مكتوبة كلّها بالذكر والدعاء إلى غيره بأحكام صنعة ، انتهى .

وذكر مصحف عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الذي كان في جامع
قرطبة وصار إلى بني عبد المؤمن فقال : هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن
عفّان رضي الله تعالى عنه ، ممّا خطّه يمينه ، وله عند أهل الأندلس شأن
عظيم ، انتهى . وسنذكر فيه زيادة على هذا .

• • •

[الزهراء]

وأما الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر

١ في ق : القطيعة ، وفي ك : الفظيعة ، وفي ج : المنقطعة .

٢ انظر مخطوط الرباط : ٢٨ والسند فيه « قال صاحب التاريخ - عفا الله عنه - ذكر ابن عتاب
عن عبيد الله الزهراوي عن شيوخه ... إلخ » .

لدين الله ، وقد تقدّم ذكره ، وهي من المدن الجلييلة العظيمة القدر ، قال ابن
 الفرضي وغيره : كان يعمل^١ في جامعها حين شرع فيه من حُدّاق الفَعَلَة
 كلّ يوم ألف نسمة منها ثلاثمائة بِنَاء ومائتا نِجَار وخمسمائة من الأجراء وسائر
 الصنائع ، فاستم بنياه وإتقانه في مدّة من ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء في غاية
 الإتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا
 المقصورة — ثلاثون ذراعاً ، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى
 الغرب ثلاثة عشر ذراعاً ، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر
 ذراعاً ، وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعاً ،
 وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد وأربعون ذراعاً ، وجميعه مفروش بالرخام
 الأحمر ، وفي وسطه قَوَّارة يجري فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من
 القبلة إلى الجوف — سوى المحراب — سبعة وتسعون ذراعاً ، وعرضه من الشرق
 إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً ، وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعاً ،
 وعرضها عشرة أذرع في مثلها .

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصنع في نهاية من
 الحسن ، ووضع في مكانه منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان
 وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين
 من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

قال^٢ : وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بِنان القناة الغربية الصنعة التي جرى^٣
 فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة ، في المتأخر
 المهندس ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة
 إلى بركة عظيمة ، عليها أسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد

١ قارن بما في أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٢ المصدر السابق ٢ : ٢٦٦ ، وسقطت كلمة « قال » من ق ط ج ومطبوعة ليدن .

٣ ك : التي أجراها وجرى .

أُبْنِي منه فيما صَوَّرَ الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب لإبريز ، وعيناه جوهرتان
لهما وَبَيْضٌ شَدِيدٌ ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمَجَّة في تلك البركة
مِنْ فِيهِ ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثَّجاجة صَبَّة ، فتسقى من
مُجَاجِه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجَناباته ، ويمدّ
النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب
فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبُعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ،
وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوّب من أعاليها ،
وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت - أعني القناة -
إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً ، وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاق
الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر
في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضّلَ فيها على عامّة أهل مملكته ،
ووصل المهندسين والقوَّام بالعمل بصِلات حسنة جزيلة ^٢ .

وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى
آخر دولة الناصر وابنه الحكيم ، وذلك نحو من أربعين سنة .
ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صَلَّيَتْ
فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ، وكان الإمامُ القاضي
أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة ،
وأوّل خطيب ^٣ به القاضي المذكور .

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على
أنّه لم يُبْنَ مثله في الإسلام البتّة ، وما دخل إليه قطُّ أحد من سائر البلاد النائية
والنحل المختلفة من ملك وارسول وافد وتاجر جهيد ، وفي هذه الطبقات

١ ك : ويص أي تلاق - وهو صواب أيضاً -

٢ ك : حسنة جليّة جزيلة .

٣ ك : وأوّل من خطب .

من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم يَرَ له شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه ، والأخبار عن هذا تتسع جداً ، والأدلة عليه تكثر ، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح المردّ المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبّة وعجيب ما تضمّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون^١ وعمدٍ كأنما أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياضٍ وتماثيلٍ عجيبة الأشخاص لا تهدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يبري الغافلين عنه من عباده مثلاً لما أعدّه لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الرّم ، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم .

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيّان^٢ صاحب الشرطة أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ، ونيف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية^٣ ، قال : منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهدها صاحب القسطنطينيّة ، وأن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّ ، والله سبحانه أعلم فإنّها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطراً ، وأعظمه شأناً ، انتهى .

قلت : فسر بعضهم ذلك النيف في كلامه بثلاث عشرة ، والله أعلم .

١ ك : مصون .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٨ .

٣ أزهار الرياض : وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة ؛ وفي ك : ونيف على ثلاثمائة هو ست عشرة .

وقال بعض من أرخ الأندلس^١ : كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمئة وخمسين فتى ، ودُخِلَ بهم من اللحم في كل يوم — حاشا أنواع الطير والحيات — ثلاثة عشر ألف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار ، وخدم الخدّمة ستة آلاف وثلاثمئة امرأة وأربع عشرة ، انتهى .

وقيل : إن عدد الفتيان^٢ الصقالية ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسون ، وجعل بعض^٣ مكان الخمسين سبعة وثمانين .

وقال آخر : ستة آلاف صقلبي وسبعة وثمانون ، والمرتب من الخبز لحياتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ، وينتفع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم ، انتهى .

ثم قال الأول : وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك ، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيات ، انتهى .

وقال ابن حيان^٤ : ألفت بخط ابن دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان^٥ الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمئة ، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت^٦ المنجور المعدل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخر المصروف في التبليط ، فإنه لم يدخل في هذا العدد ، وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمئة بغل ، وقيل أكثر ، منها أربعمئة زوامل الناصر لدين الله ، ومن دواب الأكرياء^٧ الراكبة للخدمة ألف بغل ، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر ، يجب لها في الشهر

١ أزهار الرياض : وقال بعض المؤرخين .

٢ ك : عدد الصبيان .

٣ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٩ .

٤ ك : بعمارة .

٥ المنحوت : سقطت من ط ج ق .

٦ ك : الأكريّة .

ثلاثة آلاف مثقال ، وكان يرد الزهراء من الجيار^١ والحصص في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل ، وكان فيها حمّامان : واحد للقصر ، وثان للعامة .

وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنّه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها ، لأنّه توفي سنة خمسين ، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال .

قال^٢ : وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عزيز البنائين^٣ وحسن وعلي بن جعفر^٤ الإسكندراني ، وكان الناصر يَصِلُهُم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير ، انتهى .

وقال بعض ثقات المؤرخين : إنّهُ كان يَصِلُهُم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بشمانية دنانير سجلماسية^٥ ، قيل^٦ : وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرهما من مقاطع الأندلس طرّكونة وغيرها ، فالرخام المجزّع من ريّة ، والأبيض من غيرها ، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقُس ، وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتمثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، مع ربيع الأسقف

١ ك ج : الجير .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .

٣ ط : البنيان .

٤ أزهار الرياض : وحسن ومحمد ابنا جعفر الإسكندراني . وفي ك : وحسن بن محمد وعلي بن جعفر .

٥ سجلماسية : زيادة من ج وأزهار الرياض .

٦ في ق : قال ؛ وسقطت من ج ، وموضعا بياض في ط .

أيضاً ، وقالوا : إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحُمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر ، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالموئس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحيدأة ونسراً ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها ، وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره ، وكان يخبز في أيامه في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة ، وقيل : أكثر ، إلى غير ذلك ممّا يطول تتبعه .

قال ^٢ : وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة ^٣ فلا يحصيها ديوان .

وقد سبق هذا كله ، وإنّما كرّرت له لقول بعضهم إثر حكايته له ، ما صورته : وقيل : إن مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة ، وقيل : إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وسبعة أفقزة من الدراهم المذكورة . واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلّها ، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهرأ ، فسبحان الباقي بعد فناء الخلق ، لا إله إلا هو ، انتهى .

* * *

١ هذه ثلاثة عشر تمثالا وقد ذكر أنها اثنا عشر ، وفي أزهار الرياض عد منها أحد عشر ثم قال : والثاني عشر لم يحضر في اسمه الآن ؛ وذلك أنه لم يذكر الهدأة والنسر .

٢ قال : سقطت من ك ج ط .

٣ في ق أخماس العظيمة ؛ ط : أخماس الغنائم ؛ ك : أخماس الغنيمة .

[بين الناصر ومنذر بن سعيد في شأن المباني]

وقال ابن أصبغ الهمداني^١ والفتح في المطمح^٢ : كان الناصر كليلاً بعمارة الأرض ، وإقامة معالمها ، وانبساط أمرها^٣ ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة ، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابنتى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر في الأرض أثره ، واستفرغ وسعه^٤ في تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، وانهماك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذ ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكر بالإنباء والرجوع ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ - إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلَا تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (الشراء : ١٢٨) ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ومكان الجزاء ، ومضى في ذم تشييد البنيان ، والاستغراق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكلام جزل ، وقول فصل ، قال الحاكي : فجرى فيه طلقاً ، وانتزع فيه قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَهْتَسَّ بِبُنْيَانِهِ ﴾ - إلى آخر الآية ﴿ (التوبة : ١٠٩) وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته ، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار عن طلب اللذات ، ونهي النفس عن اتباع هواها ، فأسهب في ذلك كله ، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر مَنْ حضره من الناس

١ في ك : ابن البديع الهمداني ؛ وفي ق : ابن حيان الهمداني . وسيدكره في الكتاب الخامس باسم « ابن أصبغ الهمداني » وكذلك ورد في ج وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٧ والمرقبة العليا : ٦٩ .
٢ انظر المطمح : ٤٠ والمرقبة العليا : ٦٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .
٣ دوزي : وانبساط مياهها ؛ وفي المطمح : وتكثير مياهها .
٤ ك : جهده .

وَحَشَعُوا وَرَقُوا وَاعْتَرَفُوا^١ وَبَكَوا وَضَجُّوا وَدَعَوْا وَأَعْلَنُوا التَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّوْبَةِ وَالِابْتِهَالِ فِي الْمَغْفِرَةِ ، وَأَخَذَ خَلِيفَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْفَرِ حَظٍ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِهِ ، فَبَكَى وَنَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ لَهُ مِنْ فَرْطِهِ ، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى مَنْذَرٍ لَغْلَظَ مَا قَرَّعَهُ بِهِ^٢ ، فَشَكَا ذَلِكَ لَوْلَدِهِ الْحَكَمَ بَعْدَ انْصِرَافِ مَنْذَرٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ تَعَمَدَنِي مُنْذَرٌ بِخُطْبَتِهِ ، وَمَا عَنَى بِهَا غَيْرِي ، فَأَسْرَفَ عَلَيَّ^٣ ، وَأَفْرَطَ فِي تَقْرِيعِي^٤ ، وَلَمْ يَحْسَنِ السِّيَاسَةَ فِي وَعْظِي ، فَرَزَعُ قَلْبِي ، وَكَادَ بَعْصَاهُ يَقْرَعُنِي ، وَاسْتِشْاطَ غِيْظًا عَلَيْهِ فَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَصِلِي خَلْفَهُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ خَاصَّةً ، فَجَعَلَ يَلْتَزِمُ صَلَاتَهَا وَرَاءَ أَحْمَدَ بْنِ مَطْرُوفٍ صَاحِبِ الصَّلَاةِ بِقَرْطَبَةِ ، وَيُجَانِبُ الصَّلَاةَ بِالزَّهْرَاءِ ، وَقَالَ لَهُ الْحَكَمُ : فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنْ عَزَلِ مَنْذَرٍ عَنِ الصَّلَاةِ بِكَ وَالِاسْتِبْدَالِ بِغَيْرِهِ مِنْهُ إِذْ كَرِهْتَهُ ؟ فَزَجَرَهُ وَانْتَهَرَهُ ، وَقَالَ لَهُ : أَمِثِلْ مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ فِي فَضْلِهِ وَخَيْرِهِ وَعِلْمِهِ - لَا أُمَّ لَكَ - يُعْزَلُ لِإِرْضَاءِ نَفْسٍ نَاكِبَةٍ عَنِ الرُّشْدِ ، سَالِكَةٍ غَيْرِ الْقَصْدِ ؟ هَذَا مَا لَا يَكُونُ ، وَإِنِّي لِأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا أَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ شَفِيعًا مِثْلَ مَنْذَرٍ فِي وَرَّعِهِ وَصِدْقِهِ ، وَلَكِنَّهُ أُحْرِجُنِي ، فَأَقْسَمْتُ ، وَلَوِ دِدْتُ أَنِّي أَجِدُ سَبِيلًا إِلَى كَفَّارَةِ عِمِّي بِمَلِكِي ، بَلْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حَيَاتَهُ وَحَيَاتِنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَمَا أَظُنُّنَا نَعْتَاضُ مِنْهُ أَبَدًا^٥ . وَقِيلَ : إِنْ الْحَكَمُ اعْتَذَرَ عَمَّا قَالَ مَنْذَرٌ ، وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ ، وَمَا أَرَادَ إِلَّا خَيْرًا ، وَلَوْ رَأَى مَا أَنْفَقْتَ وَحَسَنَ تِلْكَ الْبَنِيَّةَ لَعَذَرَكَ ، فَأَمَرَ حَيْثُ نَزَلَ النَّاصِرُ بِالْقُصُورِ فَقُفِّرَتْ ، وَقُفِّرَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ بِأَصْنَافِ فُرَشِ الدِّيْبَاجِ ، وَأَمَرَ بِالْأَطْعَمَةِ ، وَقَدْ أَحْضَرَ الْعُلَمَاءَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ^٥ وَغَصَّ بِهِمُ الْمَجْلِسَ ، فَدَخَلَ مَنْذَرٌ فِي آخِرِهِمْ ،

١ ج : واعتبروا . ٢ ك ط ج : تفرعه به .

٣ زاد في ك : وتقريري .

٤ هنا انقطع النقل عن المطبع .

٥ وغيرهم من الأمراء : سقطت من ك ج ، وفي ط بياض .

فأوماً إليه الناصر أن يقعد بقربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنما يقعد الرجل
 حيث انتهى به المجلس ، ولا يتخطى الرقاب ، فجلس في آخر الناس وعليه
 ثياب رثة ، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاماً من كلام المنذر يأتي قريباً .
 وقطع الناس آخر مدة الناصر ، فأمر القاضي منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء
 بالناس ، فتأهب لذلك ، وصام بين يديه أياماً ثلاثة تنفلاً وإجابة ورهبة ، واجتمع
 له الناس في مصلى الربض بقربة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم ، وصعد
 الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشarf الناس ، ويشاركهم
 في الخروج إلى الله تعالى والضراعة له ، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس وغصت
 بهم ساحة المصلى ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبئاً متخشعاً ، وقام
 ليخطب ، فلما رأى بداراً الناس إلى ارتقائه ، واستكانتهم من خيفة الله ،
 وإخباتهم له ، وابتهاهم إليه - رقت نفسه ، وغلبته عيناه ، فاستعبر وبكى
 حيناً ، ثم افتتح خطبته بأن قال : يا أيها الناس ، سلام عليكم ، ثم سكت
 ووقف شبه الحصر ، ولم يك من عادته ، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون
 ما عراه ولا ما أراد بقوله ، ثم اندفع تالياً قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
 نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لِدَقْوِهِ : رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ٥٤) ثم قال : استغفروا
 ربكم إنه كان غفاراً ، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، وترلقوا بالأعمال
 الصالحة لديه ، قال الحاكبي : فضج الناس بالبكاء ، وجأروا بالدعاء ، ومضى
 على تمام خطبته ، ففرغ النفوس بوعظه ، وانبعث الإخلاص بتذكيره ، فلم
 ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر ، روى الثرى ، وطررد المحل ،
 وسكن الأزل ، والله لطيف بعباده . وكان لمنذر في خطب الاستسقاء افتتاح
 عجيب ، ومنه أن قال يوماً - وقد سرح طرفه في ملا الناس عندما شخصوا

١ عاد النقل عن المطمح ، وانظر كذلك المرقبة العليا وأزهار الرياض .

٢ ج : تبادر .

إليه بأبصارهم ، فهتف بهم كالمنادي - : يا أيها الناس ، وكررها عليهم مشيراً بيده في نواحيهم ﴿ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ... ﴾ (فاطر : ١٥) فاشتد وجُدُّ الناس ، وانطلقت أعينهم بالبكاء ، ومضى في خطبته .
وقيل ^١ : إن الخليفة الناصر طلبه مرة ^٢ للاستسقاء ، واشتدَّ عزمه ^٣ عليه ، فتسابق الناس للمصلّي ، فقال للرسول - وكان من خواص الناس - : ليت شعري ، ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قطُّ أخشع منه في يومنا هذا ، إنّه متبذّج حائر منفرد بنفسه ، لابس أخس ^٤ الثياب ، مفرش التراب ، وقد رمَدَ به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه ناصيتي بيدك ، أتراك تعذب بي الرعيّة وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شيء مني ، قال الحاكي : فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله ، وقال : يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسّقيّ ، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء ، وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السّقيّ ^٥ .
وكان منذر شديد الصلابة ^٦ في أحكامه ، والمهابة في أقضيته ، وقوّة الحكومة ^٧ والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده ، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه .

وقال ابن الحسن النّباهي ، وأصله في المطمح وغيره ^٨ : ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسراف في البناء ، أن الناصر كان

١ ق : ومنه . وفي ط بياض ؛ ج : وذكر أن .

٢ ك : خرج مرة ؛ ج : حركة مرة .

٣ ك : وأسرع عزمه ؛ ج : ووطن عزمه .

٤ ج : أخشن .

٥ إذا ... السقيّ : سقط من ج .

٦ المطمح : من ذوي الصلابة .

٧ ق ط ودوزي : الخلوة .

٨ المرقبة العليا : ٧١ والروض المطار : ١٤٠ - ١٤١

اتخذ لسطح القبية المصغرة الاسم للخصوصية التي كانت ماثلة على الصّرح
المرّد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد [مغشاة]^١ ذهباً وفضّة أنفق عليها
مالاً جسيماً ، وقرّمّد سقفها به ، وجعل سقفها صفراء فاقعة ، إلى بيضاء ناصعة ،
تستلب الأبصار بأشعة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته ،
فقال لقربته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من
ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة : هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل
مثل هذا أو قدّر عليه ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنك لأوحد في
شأنك كلّه ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ،
فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو
ناكس الرأس^٢ ، فلمّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف
المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبل دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال
له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ،
ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك
به على العالمين ، حتى يترك منازل الكافرين ، قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ،
وقال له : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني مترلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى
يقول ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ - الآية ﴿ (الزخرف : ٢٢)
فوجم الخليفة ، وأطرق مكيّاً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى ، قال الحاكي^٣ :
ثمّ أقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضي عناً وعن نفسك خيراً وعن الدين
والمسلمين أجلّ جزائه ، وكثر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو الحق ، وقام
عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقّض سقف القبية ، وأعاد
قرمدها تراباً على صفة غيرها ، انتهى ما حكاه ابن الحسن النّباهي .

١ زيادة من المرقبة العليا . وفي ط ج ق : قراميد ذهب . . . الخ .
٢ المرقبة العليا : واحداً ناكس الرأس . وفي ك ط : واحداً - وذلك تصحيحه -
٣ قال الحاكي : سقطت من ك .

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها ، وإن خالف السياق ما سبق ، وهذا منقول من كلام الحِجَارِي فِي « المسهب فِي أخبار المغرب » فإنه أتمُّ فائدة ، إذ قال رحمه الله : دخل منذر بن سعيد يوماً على الناصر باني الزهراء ، وهو مكب على الاشتغال بالبنيان ، فوعظه ، فأنشده عبد الرحمن الناصر ١ :

هَمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِالْسُنَنِ الْبَنِيَانِ
أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيََا وَكَمْ مَلِكٌ مَحَاهُ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ
إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

قال : فما أدري أهذا شعره أم تمثّل به ؟ فإن كان شعره فقد بلغ فيه إلى غاية الإحسان ، وإن كان تمثّل به فقد استحقّه بالتمثّل به في هذا المكان ، وكان منذر يكثر تعنيته ٢ على البنيان ، ودخل عليه مرة وهو في قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضّة ، واحتفل فيها احتفالاً ظن أن أحداً من الملوك لم يصل إليه ، فقام خطيباً والمجلس قد غصّ بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ - الآية ﴿ وأتبعها بما يليق بذلك ، فوجم الملك ، وأظهر الكآبة ، ولم يسهه إلا الاحتمال لمندّر بن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه .

وحضر معه يوماً في الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها ٣ :

سَيَشْهَدُ مَا أَبْقَيْتَ أَنْتَ لَمْ تَكُنْ مُضِيعاً وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا
فَبِالْحَامِغِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالتَّقَى وَبِالزَّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعِلْيَا

١ انظر المغرب ١ : ١٧٤ .

٢ ك : تعنيته .

٣ المغرب ١ : ١٧٤ .

فاهترّ الناصر ، وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

يا باني الزهراء مُستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رَوْنَقاً لو لم تكن زهرتها تذبل .

فقال الناصر : إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع
يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللهم اشهد أنني قد بثت
ما عندي ولم آلُ نُصْحاً ، انتهى .

ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فإنّها ذبلت بعد ذلك في
الفتنة ، وقُلب ما كان فيها من مِشْحة مِحنة ، وذلك عندما وليّ الحجابة عبد
الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقب بشنجل^١ ، وتصرف في الدولة مثل
ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور ، فأساء التدبير ، ولم يميز بين القبيل
والدبير ، فُدس إلى المؤيد هشام بن الحكم مَنْ خَوْفه منه حتى ولاّه عهده كما
يبتأ نص العهد فيما سبق ، فأطبق الخاصة والعامة على بغضه ، وإضرار السوء
له ، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن
عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدي وخلع المؤيد وحبسه ،
وأسلمت الجيوش شنجل فأخذ وأمر وقُتل .

قال ابن الرقيق : ومن أعجب ما روي أنّه من نصف نهار يوم الثلاثاء
لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فُتحت قرطبة ،
وهُدِمت الزهراء ، وخلع خليفة وهو المؤيد ، وولي خليفة وهو المهدي ، وزالت
دولة بني عامر العظيمة ، وقُتل وزيرهم محمد بن عسقلان^٢ ، وأقيمت جيوش
من العامة ، ونُكِب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون ، وكان ذلك كله
على يد عشرة رجال فحّامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدي هذا ، انتهى .

١ شنجل أي شانجة الصغير ؛ وكان شانجة (Sancho) اسم خاله .

٢ ك : علاجه .

وقد تقدم بعض الكلام على المهدي هذا ، وهو الذي قيل فيه لما قام على الدولة ^١ :

قد قام مهديُّنا ولكن بعلّة ^٢ الفِسْقِ والمُجُونِ
وشاركَ الناسَ في حريمِ لولاه ما زال بالمُصُونِ
مَنْ كان من قبلِ ذا أجمًا فاليومَ قد صار ذا قُرُونِ

ومن شعر المهدي هذا وقد حيّاه في مجلس شرايه غلامٌ بقضيب آسٍ :

أَهْدَيْتَ شَيْبَةَ قِوَامِكَ المِياسِ غُصْنًا رَطْبِيًّا نَاعِمًا من آسٍ
وَكأنْتما يَحْكِيكَ في حَرَكَاتِهِ وَكأنْتما تَحْكِيهِ في الأَنْفَاسِ

وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثالث خبر المهدي هذا وقتله ^٣ . ولقد كان قيامه مشحوناً على الدين والدنيا ، فإنه فاتحُ أبوابِ الفتنة بالأندلس ومأحي معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكثر الرؤساء ، وتطاول العدو إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محاً اسم الإسلام منها ، أعادها الله تعالى .

[حديث ابن خلّون عن الزهراء]

وقد ألمَّ الولي ابن خلّون في تاريخه بذكر الزهراء في جملة مباني الناصر ، فقال ما نصّه ^٤ : ولما استفتح ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا^٥ في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الإتقان والفضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر

١ انظر ما سبق ص : ٤٢٦ .

٢ ق ج : بآلة .

٣ يريد الباب الثالث ؛ انظر ما سبق ص : ٤٢٨ .

٤ تاريخ ابن خلّون ٤ : ١٤٤ .

٥ ابن خلّون : قد اختلفوا ، وكذلك في ق .

والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسمّاه « دار الروضة » ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ في بناء المنتزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها لنزله ، وكرسيّاً للملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عَفَى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقربطية وقاية للناس من حر الشمس ، انتهى .

* * *

[الزاهرة]

وأما الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر . قال ابن خلدون أثناء كلامه على المنصور ما صورته ^١ : وابنتي لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها جزءاً من الأموال والأسلحة ، انتهى . وقال غيره ، وأظنّه صاحب المطمح ^٢ : وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة ، وذلك عندما استفحل ^٣ أمره ، واتقد جَمْرُهُ ، وظهر استبداده ، وكثر حُسّاده وأنداده ^٤ ، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان ، وخشي أن يقع في أشطان ، فتوثق لنفسه ، وكشف

١ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ .

٢ لم يرد هذا النص في المطمح ، وإنما هو في البيان المغرب لابن عذاري ٢ : ٤١٠ - ٤١٥ (٢٧٧ ط . ليدن) .

٣ ك : تكامل واستفحل .

٤ ك : وأضداده وأنداده .

له ما ستر عنه في أمسه ، من الاعتزاز عليه ، ورفع الاستناد إليه ، وسما إلى ما سَمَتْ إليه الملوك من اختراع قصر يتزل فيه ، ويحله بأهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتياه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونَسَقَ فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة ، وحشد الصنّاع والفَعَلَة ، وجلب إليها الآلات الحليّة ، وسَرَبَلَهَا بهاءً يردُّ الأعين ككيلة ، وتوسع في اختطاطها ، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ، وبالع في رفع أسوارها ، وثابر على تَسْوِيَةِ أنجاده وأغوارها ، فاستعت هذه المدينة في الملة القريبة ، وصار بناؤها من الأنباء الغربية ، وبني معظمها في عامين .

وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته ، فنبوّأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه ، وقوّاده وحجّابه ، فابْتَنَوْا بها كبار الدور ، وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكثُرَتْ فيها الأرفاق ، وتنافس الناس بالتزول بأكتافها ، والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثُرَتْ بمحورّتها العمارة ، واستقرت في محبوبتها الإمارة ، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي ، وصير ذلك هو الرسم العافي ، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤوس أمرائه ، وندب إليها كل ذي خطة بخطته ، ونصب ببابها كرسيَّ شُرْطته ، وأجلس عليها والياً على رَسْمِ كرسي الخليفة ، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوَة

بأن تُحْمَلَ إلى مدينته تلك أموالُ الحبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ،
ويتنابها طلابُ الحوائج ، وَحَدَّرَ أن يعوج عنها إلى باب^١ الخليفة عائج ،
فاقتضيت إليها اللبانات والأوطار ، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار ، وتم
لمحمد بن أبي عامر ما أراد ، وانتظم بلبنة أمانيه المراد ، وعطل قصر الخليفة
من جميعه ، وصيَّره بمَعزِل من سامعه ومُطيعه ، وسدَّ باب قصره عليه ،
وجدَّ في خبر ألا يصل إليه ، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ،
وييسط فيه النهي والأمر ، ويُشرف منه على كل داخل ، ويمنع ما يحذره من
الدواخل ، ورتب عليه الحرَّاس والبوابين ، والسُّمَّار والمتابين ، يلزمون
حراسة مَنْ فيه ليلاً ونهاراً ، ويراقبون حركاتهم سرّاً وجهاراً ، وقد حَجَّرَ
على الخليفة كل تدبير ، ومنعه من تملك قبيل أو دبير ، وأقام الخليفة هشام
مهجور الفناء ، معجوز الغناء ، خفيّ الذكر ، عليل الفكر ، مسدود الباب ،
محجوب الشخص عن الأحباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يُخاف منه
بأسٌ ولا يرجى منه إنعام ، ولا يُعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السَّكة والدعوة ،
وقد نسخته ولَبَسَ أبهته ، وطمس بهجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال أطماعهم
منه ، وصيرهم لا يعرفونه ، وأمرهم أنهم^٢ لا يذكرونه ، واشتدَّ ملك محمد بن
أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسَّع مع الأيام في تشييد^٣ بنيتها حتى كملت
أحسن كمال ، وجاءته في نهاية الجمال ، نقاوة بناء ، وسعة فناء ، واعتدال
هواء رقّ أديعه ، وصقالة جوّ اعتل^٤ نسيمه ، ونضرة بستان ، وبهجة للنفوس
فيها افتنان ، وفيها يقول صاعد اللغوي :

يا أيُّها الملكُ المنصُورُ مِنْ يَمَنِ والمُبْتَنِي نَسَباً غَيْرَ الذي انتسباً

١ ك : دار .

٢ أنهم : زيادة من ق ط .

٣ ق : تجديد .

٤ ق : اعتدل .

بَغْزَوَةٌ^١ فِي قُلُوبِ الشَّرِكِ رَائِعَةٌ بَيْنَ الْمَنَائِي تَنَاقِي السَّمَرِ وَالْقُضْبَا
أَمَّا تَرَى الْعَيْنَ تَجْرِي فَوْقَ مَرْمَرِهَا هَوًى فَتُجْرِي عَلَى أَحْقَافِهَا الطَّرْبَا^٢
أَجْرِيَّتُهَا فَطَمًا الرَّاهِي بِجَرِيَّتِهَا كَمَا طَمَنَوْتَ فَسُدَّتِ الْعُجْمَ وَالْعَرَبَا
تَخَالُ فِيهِ جُنُودَ الْمَاءِ رَافِلَةٌ مُسْتَلْثَمَاتٌ تُرِيكَ الدَّرْعَ وَالْيَلْبَا
تَحْفُفُهَا مِنْ فُتُونِ الْأَيْكِ زَاهِرَةٌ قَدْ أَوْرَقَتْ فُضَّةً إِذْ أَوْرَقَتْ^٣ ذَهَبَا
بَدِيعَةُ الْمَلِكِ مَا يَنْفُكُ نَاطِرُهَا يَتَلَوُ عَلَى السَّمْعِ مِنْهَا آيَةٌ عَجَبَا
لَا يَحْسِنُ الدَّهْرُ أَنْ يُنْشِي لَهَا مَثَلًا وَلَوْ تَعْنَتْ فِيهَا نَفْسُهُ طَلَبَا

ودخل عليه ابن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامة ،
والروض قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجاده وأغواره ، وتصرف فيها الدهر
متواضعا ، ووقف بها السعد خاضعا ، فقال :

لَا يَوْمَ كَالْيَوْمِ فِي أَيَّامِكَ الْأَوَّلِ بِالْعَامِرِيَّةِ ذَاتِ الْمَاءِ وَالظُّلُلِ
هَوَاؤُهَا فِي جَمِيعِ الدَّهْرِ مُعْتَدِلٌ طَبِيبًا وَإِنْ حَلَّ فَصْلٌ غَيْرُ مُعْتَدِلِ
مَا إِنْ يَبَالِي الَّذِي يَحْتَلُّ سَاحَتَهَا بِالسَّعْدِ أَنْ لَا تَحُلَّ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وما زالت هذه المدينة راققة ، والسعود بلببها متناسقة ، تُرَاوِحُهَا
الفتوح وتغاديا ، وتُجَلِّبُ إِلَيْهَا مِنْكَسَرَةَ أَعَادِيهَا ، لَا تَزْحَفُ عَنْهَا رَايَةٌ إِلَّا

١ ط : بغرة .

٢ البيان : على أحسانها الطربا ؛ وفي ق : الرطبا ؛ ج : أخفافها .

٣ البيان : أثمرت .

٤ البيان : عمرو بن أبي الحباب ؛ وهو خطأ ؛ وأظن أن ابن أبي الحباب هو أحمد بن عبد العزيز بن
أبي الحباب النحوي (- ٤٠٠) أحد تلامذة القاضي (الصلة : ٢٥) وقد ترجم له الحميدي في
موضعين مرة باسمه مرة بكنيته « أبو المطرف » (١١١ ، ٣٧٧) وكناه في الأولى بأبي عمر
ولعل هذا موضع اللبس والاضطراب بتسميته « عمرو » في البيان ؛ وفي الترجمة الثانية أورد
الحميدي شعره في المنية العامرية .

٥ ك : المنية .

إلى فتح ، ولا يصدر عنها تدبير إلاّ إلى نُجَح ، إلى أن حان يومها العصيب ، وقُبِضَ لها من المكروه أوفر^١ نصيب ، فتولت فقيدة ، وخلت من بهجتها كل عقيدة ، انتهى .

وقد حكى الحميدي في « جنوة المقتبس »^٢ هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة ، فقال — بعد أن ذكر هذه المنية العامرية التي إلى جانب الزهراء — : إن أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل إلى المنصور في هذه المنية ، فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح ، فقال :

لا يَوْمَ كالْيَوْمِ في أيامنا الأوّل	بالعامرية ذات الماء والظّلّل ^٣
هواؤها في جميع الدهر معتدل	طيباً ، وإن حلّ فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتلّ ساحتها	بالسعد ألاّ تحلّ الشمس في الحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا الـ	سوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثاً من السوسان مائلة	أعناقهنّ من الإعياء والكسل
فبعض نوّارها للبعض منفتح	والبعض مغلق عنهنّ في شغل
كأنها راحة ضمت أناملها	من بعد ما ملئت من جودك الخصيل
وأختها بسطت منها أناملها	ترجّو نذاك كما عودتها فصل

وقد ذكر ابن سعيد^٤ أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات :

فالعامريّة تزهى على جميع المتباني

١ ق ج ط : وافر .

٢ انظر الجنوة : ٣٧٧ (ويغية الملتبس رقم : ١٥٤٥) .

٣ ق : والقلل .

٤ لم يرد هذا النص في مطبوعة المغرب ؛ وانظر المقتطفات : ٣٤ - ٣٥ .

وأنت فيها كسَيْفٍ قد حلَّ في غُمدانٍ^١

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ،
ومكن سلطانه ؛ هذا الشعر الذي قاله^٢ قد أعدّه وروى^٣ فيه أقدرُ أن أقول أحسن
منه ارتجالاً ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدقُ دعواك ، فجعل يقول من
غير فكرة طويلة^٤ :

يا أيُّها الحاجبُ المُعْ تلي على كيوان
ومنْ به قد تناهى فخارُ كلِّ يمانٍ^٥
العامريّة أضحتْ كجنّة الرضوان
فريدة لفريدٍ ما بين أهل الزمان

ثمَّ مر في الشعر إلى أن قال في وصفها :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالشعبان
والطيرُ يخطبُ شكرًا على ذُرِّ الأغصان
والقُضْبُ تلتفُّ سكرًا بميسر القُضبان
والروضُ يفتُرُ زهواً عن ميسم الأفحوان
والرجسُ الغضُّ يرنو بوجنة النعمان
وراحةُ الريح تمنا ر نفحة الريحان
قدُمُ مدى الدهر فيها في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : ما لك فائدة في مناقضة

١ يعني سيف بن ذي يزن وقصره « غمدان » باليمن .

٢ قاله : سقطت من ك .

٣ ك : وروى .

٤ ك : كثيرة .

٥ ق : في الحسن كل يمان .

مَنْ هذا ارتجاله ، فكيف تكون رَوِيَّتُهُ ؟ فقال ابن العريف : إنما أنطقه وقَرَّبَ عليه المأخذَ إحسانك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك وبعَّدت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما .

قلت : وقد ذكر مؤرخو الأندلس منى كثيرة بها : منها منية الناعورة السابقة ، ومنية العامرية هذه ، ومنية السرور ، ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملقب بملك قرطبة .

قال أبو الحسن بن سعيد^١ : أخبرني أبي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المنية في زمان فتح نُوَّار اللوز أبو بكر بن بَقِيَّ الشاعر المشهور ، فجلسنا تحت سطر لوز قد نَوَّر ، فقال ابن بَقِيَّ :

سَطَّرُ من اللوز في البُسْتَانِ قابِلَتِي ما زاد شيء على شيء ولا نَقَصَا
كَأَنَّمَا كلَّ غُصْنٍ كُفٌّ جارِيَةٌ إذا التَّسِيمُ ثَنَى أعطافَهُ رَقَصَا
ثم قال :

عجبتُ لمن أبقي على خمر دَنَهٍ غَدَاة رَأَى لَوَزَ الحديقة نَوَّرَا
وذكر بعض مؤرخي الأندلس أن المنصور بن أبي عامر كان يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة به ، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحلُّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، قال : وكان له دخالة^٢ كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم ، حاشا الصيد والطير

١ - انظر هذا فيما تقدم ص : ٤٧١
٢ - في المعاجم : الدخل فقط بمعنى الحاصل ، ويبدو أن الأندلسيين استعملوا لفظة «دخالة» ليعنوا القسط أو النصيب أو الحصة .

والحيتان ، وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف تُرْس عامرية لقصر الزاهرة
والزهراء ، قال : وابنتي على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة^١ ذات القصور
والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة ، انتهى .

* * *

[المنصور وابن شهيد]

ومن المطمح^٢ : أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها
الإيغال ، وغال فيها من عظماء الروم مَنْ غال ، وحلَّ من أرضهم ما لم يُطرق ،
وراع منهم ما لم يُرْعَ قطُّ ولم يَقْرُقْ ، وصدر صدرأ سَما به على كل حسناء
عَقِيلَة ، وجلا به كل صفحة للحُسْن صَقِيلَة ، ودخل قرطبة دخولا لم يُعْهَد ،
وشهد له فيها يوم مثله لم يُشْهَد ، وكان ابن شهيد متخلفاً عن هذه الغزوة
لنِقْرَس عداه عائده ، وحداه متجعّعه ورائده ، وابن شهيد هذا أحد حجاب^٣
الناصر ، وله على ابن أبي عامر أباد محكمة الأواصر ، وهو الذي نهَضَ به
أول أنبعاثه ، وشفى أمره زمن التياث ، وخاصم المصحفي عنه بلسان من الحماية
ألدَّ ، وتوخّاه بإحسان قلّده من الرعاية ما قلّد ، وأسمى رتبته ، وحلّى
بإعظام جيده ولبّته^٤ ، وكان كثيراً ما يُتَحَفّه ، ويَصِلُه ويُلْطِفُه ، فلما
صدر المنصور من غزوته هذه وقفل ، نسي متاحفته وغفل^٥ ، فكتب إليه
ابن شهيد :

أنا شيخ والشيخ يَهْوَى الصَّبَا يا بِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ الرَّزَايَا
وَرَسُولُ الْإِلَهِ أَسْهَمَ فِي الْفِي ء لَمَنْ لَمْ يُخَبِّ فِيهِ الْمَطَايَا

١ ك : العامرية .

٢ لم يرد هذا النص في المطبع المطبوع .

٣ ط : أصحاب .

٤ ق : وحل بأعظم جاه جيده ولبته . والعبارة في ط دون لفظة « جيده » .

٥ ق : أو غفل .

فاجعلني - فديت - أشكر معرو فك وابعث بها عذاب الثنايا
فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوارٍ ، كأنهن نجوم سوارٍ ،
وكتب إليه :

قد بعثنا بها كشمس النهار في ثلاث من المها أبكار
فاتتد واجتهد فإنك شيخ سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلالك فيها فمن العار كلة المسمار
فكتب إليه ابن شهيد :

قد فضضنا ختام ذاك السوار واصطبغنا من النجيع الجاري
ونعيمنا في ظل أنعم ليل ولهونا بالبدر ثم الدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذي مضاء عضب الظبي بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كُفراً واتخذهُ سيفاً على الكفار

وقد قدمنا هذه الحكاية في أخبار المنصور من الباب الثالث^١ ، ولكننا أعدناها
هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة .

* * *

[ترجمة الجزيري من المطمح]

وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان
عبد الملك بن إدريس الخولاني ، قال في المطمح^٢ : علّم من أعلام الزمان^٣ ،
وعين من أعيان البيان ، باهر الفصاحة ، طاهر الجنب والساحة ، تولى

١ انظر ما سبق ص : ٤٠٠ - ٤٠١ .

٢ المطمح : ١٣ .

٣ ك : علم من الأعلام فريد الزمان .

التحجير أيام المنصور والإنشاء ، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء ، ولبس العزة
 ضافية البرود^١ ، وورد بها النعمة صافية الورود ، وامتنى من جياذ التوجيه ،
 أعنتق من لاحق والوجيه^٢ ، وتمادى طلقه ، ولا أحد يلحقه ، إلى أيام المظفر
 فمشى على سنننه ، وتمادى السعد يترنم على فنننه ، إلى أن قتل المظفر صهره
 عيسى بن القطاع ، صاحب دولته وأميرها المطاع ، وكان أبو مروان قديم
 الاصطناع له والانتقطاع ، فاتهم معه ، وكاد أن يذوق حيمامه ومصرعه^٣ ،
 إلا أن إحسانه شفع ، وبيانه نفع ودفع^٤ ، فحط عن تلك الرتب ، وحمل إلى
 طرطوشة على القتب ، فبقي هنالك معتقلاً في برج من أبراجها نائي المنتهى^٥ ،
 كأنما ينجي السها ، قد بعد ساكنه عن الأنيس ، وقعد من النجم بمنزلة الجليس ،
 تمر الطيور دونه ولا تجوزهُ ، ويرى منه الثرى ولا يكاد يحوزهُ ، فبقي فيه
 دهرأ لا يرتقي إليه راق ، ولا يرجى لبثه راق ، إلى أن أخرج منه إلى ثراه ،
 واستراح مما عراه ، فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل^٦ ، الذي فيه اعتقل :

ياؤي إليه كل أعور ناعق^٧ وهب فيه كل ربح صرصر
 ويكاد من يرقى إليه مرة من عمره يشكو انقطاع الأبهـر

ودخل ليلة على المنصور^٨ والمنصور قد اتكا وارتفق ، ونحلى بمجلسه ذلك
 الأفق ، والدنيا بمجلسه ذلك مسوقة ، وأحاديث الأماني به منسوقة ، فأمره

١ ك : ولبس العزة مدة ضافية البرود .

٢ لاحق والوجيه : فحلان من فحول الخيل .

٣ المطمح : أن يذوق الحمام فيصرعه .

٤ ق ودوزي : وبيانه منع ودفع ؛ وفي نسخة المطمح « صنع » وهو مصحف .

٥ المطمح : فات المنتهى .

٦ ك : المعتقل .

٧ المطمح : ناعب .

٨ على المنصور : سقطت من ق .

بالتزول^١ فنزل في جملة الأصحاب ، والقمر يظهر ويختجب في السحاب ،
والأفق يبدو به أغرّ ثم يعود مبهماً ، والليل يترأى منه أشقر ثم يعود أدهماً ،
وأبو مروان قد انتشى ، وجال في ميدان الأنس ومشى ، وبرّدُ خاطره قد
دبجه السرور ووشى ، فأقلقه ذلك المغيب والالتياح ، وأنطقه ذلك السرور
والارتياح ، فقال :

أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثمّ يلتحف السحابا
وذلك أنّه لما تبدّى وأبصر وجهك استحباً فغابا
مقال لو نمي عندي إليه لراجعي بذنا حقاً جوابا

وله في مدة اعتقاله ، وتردده في قبليه وقاله^٢ :

شَحَطَ المزار فلا مزار ، ونافرت عيني المجوع فلا خيال^٣ يعترني
أزرى بصبري وهو مشدود العرى^٤ وألان عودي وهو صلب المكسر
وطوى سروري كله وتلدّذي بالعيش طي صحيفة لم تنشر
ها إنّما ألقى الحبيب توهماً بضمير تذكاري وعين تذكري
عجبا لقلبي يوم راعتني النوى ودنا وداعي كيف لم يتفطر

رجع إلى المنصور :

وكان المنصور إذا أراد أمراً مهماً شاور أرباب الدولة الأكابر من
خدام الدولة الأموية ، فيشرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة
الأموية عليه ، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه ، فيقضون في أنفسهم

١ ك : بالتزول عنده .

٢ في رواية من أصول المطمح : في قيده وعقاله ؛ وهذه الأبيات من رأيته المشهورة عند الأندلسيين
وفيها نصائح وحكم لابنه (انظر فهرست ابن خير : ٤١٠) .

٣ ك : القوى .

٤ ك : ودنا وداع .

بالهلاك في الطريق الذي سلكه ، والمهيع الذي اخترعه ، فتُسفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها سَعْدُهُ ، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها .
وقيل له مرة : إن فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه ، فقال : أفّ لسعد لا يغطي على شؤمه ، فاستخدمه ، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء .
وحكي عنه أنه كان في قصره بالزاهرة^١ ، فتأمل محاسنه ، ونظر إلى مياهه المطردة ، وأنصت لأطياره المغردة ، وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال ، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال ، فانحدرت دموعه ، ونجهم وقال : ويها^٢ لك يا زاهرة ، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ فقال له بعض خاصته : ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به ؟ فقال : والله لآرون ما قلت ، وكأنني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبرسومها قد غُيرت ، وبمبانيها قد هُدمت ونُحيت ، وبخزائنها قد نُهبَت ، وبساحاتها قد أُضمرت بنار الفتنة وألُهِيت ، قال الحاكي : فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى المظفر ولم تطل مدته ، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول^٣ ، فقام عليه المهدي والعامّة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ، وانقرضت دولة آل عامر ، ولم يبقَ منهم أمر :

كأن لم يكن بين الحَجَّوْنَ إلى الصِّفا أنيس^٤ ولم يَسْمُرْ بمكة سامر^٥
بلى نحنُ كُنَّا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجلودُ العوايرُ^٦

وخربت الزاهرة ، وذهبت^٧ كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية

١ ك : الذي بالزاهرة .

٢ ك : ويل .

٣ ك ج : بسنجور ؛ ط : بسنجول .

٤ سقط هذا البيت من ق .

٥ ك : ومضت .

والمنابر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر ، والسلاح ، وتلاشى أمرها فلم يُرَجَّ لفسادها صلاح ، وصارت قاعاً صَفْصَفاً ، وأديلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء .

ويروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها ، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة ، فقال : يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار . قال الحاكمي : فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نُهبت ذخائرها ، وعُمَّ بالخراب سائرها ، فلم تبقَ دار في الأندلس إلا ودخلها من فيئها حصّة كثيرة أو قليلة ، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي هِمَّتْه مع ربّه جليلة .

ولقد حكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضي ملكه لا إله إلا هو . وتذكرت هنا ما رآه في المنام بعض أهل المغرب بالليلّة التي انقضى فيها ملك الموحّدين أن شخصاً ينشده :

مُلْكُ بني مؤمن تولّى وكان فوق السّمّاء سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا : سبحان من لا يبديد ملكه

لا إله إلا هو .

وكان المهدي القائم على العامريين ماجناً فاتكاً ، وقال - وقد حيّاه في مجلس شرابه غلام بقضيب آس^١ :

أهديت شيبه قوامك الميأس غصناً رطيباً ناعماً من آس
وكأنما يحكيك في حركاته وكأنما تحكيه في الأنفاس
وكان المنصور بن أبي عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل

١ انظر ص : ٥٧٧ .

المهدي المذكور ، فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه ، وأخّر
كلّ ما قدّمه ، ولم ينفع في ذلك احتياط ولا حزم ، ولا راداً للقضاء المبرم
الحزم :

والله يحكم ما يشاء فلا تكن متعرضاً

* * *

[طرف من أخبار المنصور]

وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور ، ولا بأس أن نُلِمَّ هنا ببعضها وإن حصل
منه نوع تكرار في نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض .
قال بعض المحققين من المؤرخين : حجر المنصور بن أبي عامر على هشام
المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه
برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك ، فلا يُعرف منهن ، ويأمر من ينحّي الناس من
طريقه ، حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه ، ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة
الخلافة في بعض الأيام لغرض له ، كما ألعنا به فيما سبق ، وكان المنصور إذا
سافر وكلّ بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني
أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن
يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم
للولاية ، ثم فرق باقيهم في البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطّراف
والثّلاذ ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال
بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :

أبّي أمية أين أقمار الدّجى منكم ؟ وأين نجومها والكوكب ؟
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

مع أن للمنصور مفاخر بدت بها الأوائل والأواخر ، من المثابرة على جهاد

العدو ، وتكرار الذهاب بنفسه في الرواح والغدو ، وله مع المصحفي وغيره أخبار مرت ويأتي بعضها ، ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفي فنقول :

• • •

[ترجمة المصحفي من المطمح]

قال الفتح في المطمح^١ : الحاجب جعفر المصحفي - تجرد للعكيا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المني ، وتسوَّغ ذلك الجنى ، فسمادون سابقة ، وارتمى إلى رتبة لم تكن لبنيته^٢ بمطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان يسمع وبه كان^٣ ينصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحباثل والشرك ، واقتنى وادَّخر ، وأزرى بمن سواه وسخر ، واستعطفه المنصور بن أبي عامر ونجمه بعد غائر لم يُلح ، وسره مكتوم لم يبع ، فما عطف ، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف ، فأقام في تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيرة ، والأذهان في تكيف سعده متحيرة ، فناهيك من ذكر خلد ، ومن فخر تقلد ، ومن صعب راض ، وجنّاح فتنة هاض ، ولم يزل بنجاح تلك الخلافة معتقلا ، وفي مطالعها منتقلا ، إلى أن توفي الحكم ، فانتقض عقده المحكم ، وانبرت إليه النوائب ، وتسددت إليه من الخطوب^٤ سهام صوائب ، واتصل إلى المنصور ذلك الأمر ، واختص به كما مال بيزيد أخوه الغمر ، وأناف في تلك الخلافة كما شبَّ قبل اليوم عن طوقه عمرو ، وانتدب للمصحفي بصدر كان أوغره ، وساءه وصغره ، فاقتصر من تلك الإساءة ، وأغص حلقه بأي مساءة^٥ ،

٢ ك : لبيته ؛ ق : إلى بيته .

١ انظر المطمح ٤ - ٨ .

٣ كان : سقطت من ك .

٤ ج ط : وزرى .

٥ من الخطوب : زيادة من المطمح .

٦ ق ك : بأي أشاة .

فأخمله ونكبه ، وأرجله عما كان الدهر أركبه ، وأهب بجوارحه ^١ حزنًا ، ونهب
له مدحخرًا ومُخترنًا ، ودمر عليه ما كان حاط ، وأحاط به من مكروهه ما
أحاط ، وغبر سنين في مهوى تلك النكبة ، وجوى ^٢ تلك الكربة ، ينقله المنصور
معه في غزواته ، ويعتقله بين ضيق المطبق وهواته ، إلى أن تكورت شمسُه ،
وفاظت بين أثناء المحن نفسه ، ومن بديع ما حفظ له في نكبته ، قوله يستريح
من كربته :

صَبَرْتُ عَلَى الْإَيَّامِ لَمَّا تَوَلَّتْ وَأَلَزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
فَوَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتِرَافَهُ وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ الْعِزِّ كَيْفَ اسْتَذَلَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ طَمَعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ
وَكَانَتْ عَلَى الْإَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذَّلِ ذَلَّتْ
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ مَوْتِي كَرِيمَةٌ فَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَنَا ثَمًّا وَلَّتْ

وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر إلى نظم القريض يُسارع ^٣ ، فمن محاسن
إنشاده ^٤ ، التي بعثها إيناسُ دهره بإسعاده ، قوله :

لَعَيْنِيكَ فِي قَلْبِي عَلَيَّ عَيُونُ وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشَّجُونِ فُنُونُ
لَنْ كَانَ جِسْمِي مَخْلَقًا فِي يَدِ الْهُوَى فَجَبَّكَ عِنْدِي فِي الْفَوَادِ مَصُونُ

وله وقد أصبح عاكفًا على حُمَيَّاه ، هاتفًا بإجابة دنياه ، مرتشفًا نغز الأنس
متنسمًا رِيَّاه ، والمثلَّك يغازله بطرف كليل ، والسعدُ قد عقد عليه منه إكليل ،
يصف لون مُدامِه ، وما تعرف له منها دون ندامِه :

١ دوزي : جوارحه .

٢ ق ك ط : وجراء ؛ ج : وجزاء .

٣ دوزي : مسارع .

٤ ك : نظامه وإنشاده .

صَفْرَاءُ تَطْرُقُ فِي الزَّجَاجِ فَإِنْ سَرَتْ فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِيلٍ لَادَغٍ
خَفِيَتْ عَلَى شُرَابِهَا فَكَأَنَّمَا يَجِدُونَ رِيّاً مِنْ إِنَاءٍ فَارِغٍ

ومن شعره الذي قاله في السَّفَرَجَلِ مشبهاً ، وغدا به لناثم البديع مُنبهاً ،
قوله يصف سفرجلة ، ويقال إنه ارتجلاه :

وَمُصْفَرَّةٌ تَخْتَالُ فِي ثَوْبِ نَرْجِسٍ وَتَعْبِقُ عَنْ مِسْكِ ذَكِيٍّ التَّنْفَسِ
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٌ وَقَسْوَةٌ قَلْبِهِ وَلَوْ نُحِبُّ حَلَّةَ السَّقَمِ مُكْتَسِي
قَصْفَرَتَهَا مِنْ صُفْرَتِي مُسْتَعَارَةً وَأَنْفَاسُهَا فِي الطَّيِّبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِي
وَكَانَ لَهَا ثَوْبٌ مِنَ الزَّغَبِ أَغْبَرَ عَلَى جِسْمِ مُصْفَرَّةٍ مِنَ التَّبَرِّ أَمْلَسِ
فَلَمَّا اسْتَمْتَتْ فِي الْقَضِيبِ شَبَابُهَا وَحَاكَتْ لَهَا الْأَوْرَاقُ أَثْوَابَ سُنْدُسِ
مَدَدَتْ يَدِي بِاللَّطْفِ أَبْغَى اجْتِنَاءُهَا لِأَجْعَلَهَا رِيحَانِي وَسَطَ مَجْلِسِي
فَبَزَّتْ يَدِي غَضَباً لَهَا ثَوْبَ جِسْمِهَا وَأَعْرَيْتُهَا بِاللَّطْفِ مِنْ كُلِّ مَلْبَسِ
وَلَمَّا تَعَرَّتْ فِي يَدِي مِنْ بُرُودِهَا وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا فِي غِلَالَةِ نَرْجِسِ
ذَكَرْتُ لَهَا مِنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِه فَأَذْبَلَهَا فِي الْكَفِّ حَرُّ التَّنْفَسِ

وله وقد أعاده المنصور إلى المطبق ، والشجون تُسرع إليه وتسبِقُ
معزياً لنفسه ^١ ، ومجتزئاً بإسعاد ^٢ أمسه :

أَجَازِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ مُجَازَاةً نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا
إِذَا نَفَسٌ صَاعِدٌ شَقَّهَا تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَاسِهَا
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةً لِلزَّمَانِ عَطَفْتُ بِنَفْسِي ^٣ عَلَى رَاسِهَا

ومما حُفِظَ لَهُ فِي اسْتِعْطَافِهِ ، وَاسْتِزَالِهِ لِلْمَنْصُورِ وَاسْتِلْطَافِهِ ، قَوْلُهُ :

١ ق : لنفسه بنفسه .

٢ المطبع : بأخبار .

٣ المطبع وق ط : عطف بصلدي ؛ دوزي وج : بصدري .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ، أَلَا رَحْمَةً
لَنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ
وَمَوَّلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَسْلَفِيَّتُهُ
فَعَادَ فَاصْلَحَ مَا أَفْسَدَا
أَقْلَيْتِي أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ
يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى ، وجازاه عن
جهاده أفضل الجزاء بمجته وكرمه وفضله وطوله ، فنقول :

وكان له في كل غزوة من غزواته المنيفة على الحسين مفر من المفاخر
الإسلامية ، فمنها أن بعض الأجناد نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى
مدائن الروم ، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر ،
وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على التثليث^١ ، لأنهم لما أشرب
قلوبهم خوف شير ذمة المنصور وحزبه ، وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة
له بحزبه ، لجأوا إلى الفِرَار والتحصن بالمعاقل والقلاع ، ولم يحصل منهم غير
الإشراف من بُعد والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبليْن عظيمين في طريق
عرض بريد^٢ بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحل - وهو آخذ في التحريق
والتخريب والغارات والسبي يمينا وشمالا - لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه ،
حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم ،
وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبليْن ، وكان الوقت شتاء ، فلما رأى
ما فعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدم
ببناء الدور والمنازل ، ويجمع آلات الحرث ونحوها ، وبث سراياه فسبَّت

١ ك : أهل التثليث .

٢ عرض بريد : سقطت من ط .

وغنمت ، فاسترق الصغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جثثهم حتى
سد بها المدخل الذي من جهته ، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً ،
فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى
ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سأله أن يخرج
بغنائمه وأسراه ، فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا ، وقالوا : إننا لا نكاد
نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة ،
فإذا غزونا عدونا ، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا
على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي ، وأن يمدّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده ،
وأن يُنَحِّقوا جيفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كله ، وانصرف .
ولعمري إن هذا لعزماً وراءه مطمح ، ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله
ويستسمح ، خصوصاً إزالتهم جيفَ قتلاهم من الطريق ، وغصصهم في شرب
ذلك بالريق .

ومن مآثره التي هي في جبين عصره غرة ، ولعين دهره قرّة ، أنه
لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ، ومن أولاد
الضعفاء عدد لا يتحصر^١ ، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار ، خمسمائة ألف
دينار ، وهذه مكرمة مُخلّدة ، ومنّة مُقلّدة ، فالله سبحانه يجازيه عن
ذلك أفضل الجزاء ، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء .
ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن^٢ ، أن أكثر جنده
من سبّيه على ما حققه بعض المؤرخين ، وذلك غاية المنح من الله والمن .
ومن أخباره الدالة على إقبال أمره وخيبة عدوه وإدباره ، أنه ما عاد قط
من غزوة إلا استعدّ لأخرى ، ولم تُهزَم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية
وصائفة وكفاه ذلك فخراً .

١ ك : لا يحصر .

٢ كذا في ق ك ط ج ، وفي مطبوعة ليدن : في غابر الزمن .

ومنها أنه لقيته - وقد عاد من بعض غزواته - امرأة نَقَمَتْ عليه بلوغ
 مناه وشهواته ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائي ، فأنت في طيب عيشك
 وأنا في بكائي ، فسألها عن مصيبتها التي عَمَتْها وغمَتْها^١ ، فذكرت له أن لها
 ابناً أسيراً في بلاد سَمَتْها ، وأنها لا يهنا عيشها لفقده ، ولا يجبو ضيرام قلقها
 من وفده ، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي :

أَيَا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِّنَ الْخَلِيِّ^٢

فرحب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك
 المدينة التي فيها ابنها وجاس أقطارها وتخلَّلها ، حتى دَوَّخها إذ أناخ عليها
 بكلكله وذللها ، وأعراها من حُماتها وبنود الإسلام المنصورة ظلَّلها ،
 وخلَّص جميع من فيها من الأسرى ، وجلبت عوَّامله إلى قلوب الكفرة
 كَسَّرا ، وانقلبت عيون الأعداء حَسْرَى ، وتلا لسانُ حال المرأة ﴿ فَيَا مَعَ
 الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح : ٦٠٥) .

فهكذا تكون الهمة السلطانية ، والنخوة الإيمانية ، فالله سبحانه يروح تلك
 الأرواح في الجنان ، ويرقي درجاتها ويعاملها بمَحْضِ الفضل والامتنان .

* * *

[رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير]

وقد تذكرت هنا والحديث شجون ، وفي ذكر المناسبات^٣ يَبْلُغُ الطلابُ
 ما يَرْجُونَ ، كتاباً كتبه الأديب الكاتب أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث

١ وغمَتْها : سقطت من ق ط ج .

٢ شطر بيت لأبي تمام وتماه :

وبالي الربع من إحدى يلى

٣ ك : وبذكر المناسبة .

الأندلس أبي عمر بن عبد البر النميري^١ ، إلى المنصور بن أبي عامر ، وهو من ذرية المنصور الكبير الذي كنا نتحدث في أخباره ، يمت إليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره وإكباره ، وهو^٢ : عَمَرُ اللَّهِ بقاء مولاي^٣ ذي السابقتين بهجة أوطانه ، وملكه عنان زمانه ، ومدد عليه ظلال أمانه ، إنني ، أبقى الله الملك الكريم ، والسيد الزعيم ، لما أضاعت لي أهلة مفاخركم في سماء الفخار ، وأشرقت شمس مكارمكم على مفارق الأحرار ، وأبصرت شمائلك الزهر تهدي إليك من الهمم كامنها^٤ ، ومحاسنك الغر توقظ لك من الآمال نائمها^٥ ، تيقنت أن بحق أنقادت لك القلوب بأعنتها ، وتهادت إليك النفوس بأزمتها ، فأليت أن لا ألم إلا بحماك ، ولا أخط رحلاً إلا بفيناك^٦ ، علماً بأنك نثره الفخر ، وغرة الدهر ، فتمت سارياً في ساطع نورك ، متيمناً بيمين طائرك ، محققاً للربيع^٧ ، موقناً بالفلج والتجج ، حتى حللت في دوحة المجد ، وأنخت بلولة السعد ، واستشعرت لبسة الشكر والحمد ، وجعلت أنظّم من جواهر الكلام ، ما يُرَبِّي على جواهر النظام ، وأنشر من عطر الثناء ، ما يزرى بالروضة الغناء ، وحاشا للفهم^٨ أن يعطل ليلى من أقمارك ،

١ أبو محمد ابن عبد البر كاتب من كتاب عصر ملوك الطوائف البارزين اتصل بخدمة عباد صاحب إشبيلية ، فضاقت به ابن زيدون ذرعاً ، ما اضطر ابن عبد البر إلى مفارقة الدولة العبادية والالتحاق بالعامرين أصحاب دانية وغيرهم (انظر ترجمته في الذخيرة - القسم الثالث : ٣٩ والقلائد :

(١٨١)

٢ انظر هذه الرسالة في الذخيرة : ٥٣ مع حذف في مواضع ؛ والمقتطفات (الورقة : ٣٧) .

٣ ك : سيدي .

٤ الذخيرة : أيد الله .

٥ الذخيرة : مفاخره ، والضمير في سائر الرسالة للغائب .

٦ الذخيرة : تثير من الهمم كامنها . ك : من الهمم محامدها .

٧ هذه رواية الذخيرة ؛ وفي ك : رواقدها ، وفي ق ط ج : راقدها .

٨ الذخيرة : إلا بحماه . . . في ذراه .

٩ الذخيرة : بأمل متحقق للربيع .

١٠ الذخيرة : الفضل .

أو يخلي أفقي من أنوارك ، فأراني منخرطاً في غير سلكه ، ومنحطاً إلى غير ملكه ، لا جرم أنه من استضاء بالهلال ، غني عن الذبال ، ومن استنار بالصباح ، ألقى^١ سنا المصباح ، وتالله ما هزت^٢ آمالي ذوائبها إلى سواك ، ولا خدّت أوطاري ركائبها إلى مَن عداك ، ليكون في أثر الوسمي في الماحل ، وعلي جمال الحلي على العاقل ، لسيادتك السنية ، ورياستك الأولية ، التي يقصّر عنها لسان إفصاحي^٣ ، ويعني في بعضها بياني وإيضاحي^٤ ، فالقرايطس عند بث مناقبك تفنّي ، والأقلام في رسم مآثرك تحفّي ، وما أمل المجذب ، في حياة المخصب ، ولا جدل المذنب ، برضى المعتب ، كأمل في التعزّز بحوزتك ، والتجمل بجملتك ، والترفع بخدمتك ، فالسعيد من نشأ في دولتك ، وظهر في أمتك ، واستضاء بعزتك ، لقد فاز بالسبق من لحظته عين رعايتك ، وكنته حوزة حمايتك ، فأنبت الذي أمنت بعدله نواب الأيام ، وقويت بسلطانه دعائم الإسلام ، تحتل بك المعالي اختيال العروس ، وتخضع لجلالك أعزة النفوس ، سابقة أشهر من الفجر ، وفطنة أنور من البدر ، وهمة أنفذ من الدهر :

لقد فاز من أضحي بكم متمسكاً يشدّ على^٥ تأمل عزكم يدا
سلكت سبيل الفخر^٦ خلقاً مركباً وغيرك لا يأتيه إلا تجلدا
فأنتم لواء الدين لا زال قيماً بآرائكم في ظلّمة الخطب يهتدى

١ الذخيرة : ألقى .

٢ الذخيرة : مدت .

٣ الذخيرة : عن وصفها إفصاحي .

٤ ويعني . . إفصاحي : لم يرد في الذخيرة .

٥ الذخيرة : وكفه حرز .

٦ الذخيرة : أبعد .

٧ الذخيرة : يمد إلى .

٨ الذخيرة : الفضل .

لِيَهْنِكُمْ مَجْدٌ تَلِيدٌ بَنَيْتُمْ أَغَارَ سَنَاهُ فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَلَا

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر إيراقيه ، فيثمر جَنَاهُ ، ويستثمر إيراقيه ،
فَيُمَظِرُ حَيَاهُ ، لا سِيَّما وَإِنِّي نَشَأْتُ حَقَّهَا إِحْسَانِ أَوْلَئِكَ الطَّاهِرِينَ ، وَأَلْفَهَا
إِنْعَامِ أَكَابِرِكَ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ ، وَجَدِيرٌ بِقَبُولِكَ وَإِقْبَالِكَ ، وَبِرِّكَ وَإِجْمَالِكَ ،
مَنْ أَصْلُهُ ثَابِتٌ فِي أَهْلِ مَحَبَّتِكَ ، وَفَرَعُهُ نَابِتٌ فِي خَاصَّتِكَ ٢ :

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسَجْدِ اسْتَقِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرِ اسْتَجِدُهُ
فَكُلُّ نَوَالٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنْ فَلَحْظَةُ طَرْفٍ مِنْكَ عِنْدِي نِدُهُ
فَكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مُحْسِناً كَجَرْبِ يَبِينُ لَكَ تَقَرُّبُ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ
إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السِّيفِ فَابْلُهُ فَمَا تُنَافِيهِ وَإِمَّا تُعَدُّهُ
وَمَا الصَّارِمُ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كَفِيرُهُ إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

ولا غرو ٣ أن يتطوّل مولاي بغرّس الصنّعة في أزكى التّرب ، ووضع الهناء
مكان التّقب ، والله سبحانه يُبْقِي مولاي آخِذاً بِزَمَامِ الْفَخْرِ ، نَاهِضاً بِأَعْبَاءِ الْبِرِّ ،
مَالِكاً لِأَعْنَةِ الدَّهْرِ ، وَصَنَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِسَيِّدِي أَتَمَّ الصَّنْعِ وَأَجْمَلَهُ ، وَأَفْضَلَهُ
وَأَكْمَلَهُ ، بِمَنَّةِ لَارِبِّ سِوَاهُ ، انْتَهَى .

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبي عامر ، رحمه الله :

وكنّا قد ذكرنا أنّه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع أنّه كان أحد
أتباعه .

١ الأخيار : زيادة من ك .

٢ هذه الأبيات من قصيدة للتنبي يمدح بها كافوراً ومطلماً :
أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

٣ ك : ولا بأس .

٤ ق ط : مكان النوب ؛ وأصله من المثل : « يضع الهناء مواضع التقب » ، والهناء :
القطران ، والتقب : الحرب ؛ يعني يضع الشيء موضعه مسدداً مصيئاً .

قال صاحب كتاب «روضة الأزهار ، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار»^١ :
ولما أمر المنصور بن أبي عامر بسجن المصحفي بالمطابق في الزهراء ودّع أهله
وودّعوه وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم تروني بعدها حياً ، فقد أتى وقت
لإجابة الدعوة ، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة ، وذلك أنني أشركت^٢ في
سجن رجل في عهد الناصر ، وما أطلقته إلا برؤيا رأيته بأن قيل لي : أطلق
فلاناً فقد أجيبك فيك دعوته ، فأطلقته وأحضرتة وسألته عن دعوته عليّ ، فقال :
دعوت على من شارك في أمري أن يميت الله في أضيق السجون ، فقلت^٣ : إنها
قد أجيبك ، لأنني كنت ممن شارك في أمره ، وندمت حين لا ينفع الندم ،
فيروي أنه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الأبيات^٤ :

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالكَرَمُ إِذْ قَادَنِي نَحْوُكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ
يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ الْإِيْدِي إِلَيْهِ أَمَا تَرْنِي لَشَيْخٍ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ
بَالِغَتْ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْحِمُوا رَحِمُوا
فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري :

يَا جَاهِلًا بَعْدَمَا زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمُ تَبْغِي التَّكْرُمَ لَمَّا فَاتَكَ الْكَرَمُ
نَدِمْتَ إِذْ لَمْ تَعُدْ مِثِّي بِطَائِلَةٍ وَقَلَّمَا يَنْفَعُ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ
نَفْسِي إِذَا جَمَحَتْ لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ

فبقي في المطبق حتى مات ، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم ، انتهى .
وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ،
فإن هذه الأبيات للمنصور ، وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيري ،

١ لم أعرف إلى مؤلف هذا الكتاب ، ولكن النص منقول عن ابن حيان في الذخيرة ٤ : ٥٠ .

٢ كذا في الأصول ، وفي مطبوعة ليدن : شاركت ، وفي الذخيرة : أسرفت .

٣ الذخيرة : فعلمت .

٤ انظر ما تقدم ص : ٤٠٧ - ٤٠٨ والذخيرة ٤ : ٥١ .

وقد يقال : لا منافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ؟ الأمر أعم^١ ؛ فبين هنا ، والله أعلم .

وقال بعض مؤرخي المغرب^٢ : إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله ، حتى إنه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلماً لأولاده ، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس ، لأنهم ظالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلماً^٣ ، فكيف يروونه الآن في دهليزي معلماً ؟ ! وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته ، حتى إنه حكى بعضهم أنه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نَهَى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدو الكافر ، وهو ينفخ فحماً في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه ، أو كما قال ، فسبحان مدبل الدول ، لا إله إلا هو ، فإن هذا المصحفي بلغ من الجلالة والعظمة والتحكم في الدولة المدة المديدة أمراً لا مزيد عليه ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ولقد ذكر بعض العلماء المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يترقبون به الدوائر ، فغلب سَعْدُهُ الذي هو المثل السائر ، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال^٤ :

اقتَرَبَ الوعدُ وحان الهلاكُ وكلُّ ما تحذره قد أتاكُ
خليفة يلعبُ في مَكْتَبِ وأمه حُبلى وقاضٍ يذاكُ

١ يقترح فليشر أن تقرأ « الأمر أعمى » أي مبهم غامض .

٢ قارن بما أورده ابن عذاري ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٣ ج : . ومعلماً .

٤ ك : بعض علماء .

٥ ابن عذاري ٢ : ٤١٨ .

يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً ، وأمه صبح البشكنسية كان
الأعداء يتهمون بها المنصور ، وذلك بهتان وزور ، وأفزع منه رميهم القاضي
بالفجور ، والله عالم بسرائر الأمور ، ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا
يراعون إلاّ ولا ذمة ، ويطلقون ألسنتهم في العلماء والأئمة ، ومن كان حاسداً
لمن بات في نعمائه يتقلب^١ ، جدير بأن لا يلرك ما يؤمل ويتطلب ، لأنه
يعترض على الله سبحانه في أحكامه ، نعوذ بالله من شرّ أنفسنا ومن شرّ كل ذي
شرّ ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه ..

وقد قدّمنا أن المنصور بن أبي عامر كان أولاً يخدم جعفر بن عثمان المصحفي
مدبر مملكة هشام المؤيد ، ويريه النصيحة ، وأنه ما زال يستجلب القلوب
بجوده وحسن خلقه ، والمصحفي ينفرها ببخله وسوء خلقه ، إلى أن كان من
أمره ما كان ، فاستولى على الحجابة ، وسجن المصحفي ، وفي ذلك يقول
المصحفي^٢ :

غَرَسْتُ قُضِيّاً خَلِئَتْهُ عُودُ كَرَمَةٍ وَكُنْتُ عَلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ قَبِيماً
وَأَكْرَمُهُ دَهْرِي فَبَزَادَ خُبَيْثُهُ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ تَكْرَماً

ولما يش المصحفي من عفو المنصور قال^٣ :

لِي مُدَّةٌ لَا بَدَّ أَبْلُغُهَا فَلِذَا انْقَضَتْ أَيَامُهَا مَتٌ
لَوْ قَابَلْتَنِي الْأُسْدُ ضَارِيَةً وَالْمَوْتُ لَمْ يَقْرُبْ لَمَا خِفْتُ
فَانْظُرْ إِلَيَّ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ فِي مِثْلِ حَالِكَ أَمْسَ قَدْ كُنْتُ
وَمِنْ أَحْسَنِ مَا خَتَمِي بِهِ نَفْسُهُ قَوْلُهُ حَسْبَمَا تَقْدِيمٌ^٤ :

١ أخذه من قول الشاعر :

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

٢ الذخيرة ٤ : ٥٢ .

٣ الحلة السيرام ١ : ٢٦٧ والذخيرة ٤ : ٥١ .

٤ الحلة : لم يقدر ؛ الذخيرة : لم يدن . ٥ انظر ما سبق ص : ٥٩٣ .

صبرتُ على الأيامِ حتى تولتُ وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرتُ
فوا عَجَبًا للقلبِ كيف اعترافهُ وللنفسِ بعدَ العِزِّ كيف استدلَّتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتى فإن طَمَعَتْ تَأَقَّتْ وإلا تَسَلَّتِ
وكانتُ على الأيامِ نفسي عَزِيزَةً فلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي على الذلِّ ذَلَّتِ
فَقُلْتُ لها يا نفسُ موتي كَرِيمَةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتِ

وأنشد له الفتح في المطمح ، ونسبهما غيره لأحمد بن القرج صاحب
الحدائق ١ :

كَلَّمْتَنِي فَقُلْتُ دُرٌّ سَقِيطٌ فتَأَمَّلْتُ عَقْدَهَا هَلْ تَنَاقِرُ
فازدَهاها تَبَسُّمٌ فَأَرَتَنِي نَظْمَ دُرٍّ مِنْ التَّبَسُّمِ آخِرُ

وله كما مر ٢ :

صفراء تُطَرِّقُ في الزَّجَاجِ ، فإن سَرَتْ في الجِسمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ لَادِغٍ
خَفِيتْ عَلَى شُرَّابِهَا فَكَأَنَّمَا يَجِدُونَ رِيًّا مِنْ إِنَاءٍ فارِغٍ

وله :

يا ذا الذي أودَعَتِي سِرَّهُ لا تَرَجُ أَنْ تَسْمَعَهُ مِنِّي
لم أَجِرْهُ بَعْدَكَ في خَاطِرِي كَأَنَّهُ ما مَرَّ في أُذُنِي

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات ٣ :

سَأَلْتُ نَجُومَ اللَّيْلِ هَلْ يَنْقُضِي الدُّجَى فَخَطَّتْ جَوَاباً بِالثَّرِيَّا كَخَطِّ لَا

١ الحلة : ٢٦٠ والتشبيهات واليتيمة ومسالك الأبصار ، ولكن لم يوردهما صاحب المطمح .

٢ الحلة والتشبيهات واليتيمة ؛ وقد مرأ ص : ٥٩٤ .

٣ لعل المعنى هنا كتاب الفرائد في التشبيه لابن أبي الحسين القرطبي ، والأبيات في الحلة : ٢٥٩ والتشبيهات لابن الكتاني .

وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي بِأَخِيرِ لَيْلَتِي فَأَطْرُقُ حَتَّى خَلَيْتُهُ عَادَ أَوَّلًا
وَمَا عَنِّي هَوًى سَامَرَتْهَا ، غَيْرَ أَنِّي أَنَا فِسْهُهَا الْمَجْرَى إِلَى طَرُقِ الْعَلَا

* * *

[المصحف العثماني بقرطبة]

رجع : وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثماني ، وهو متداول بين^١ أهل الأندلس ، قالوا ثم آل أمره إلى الموحدين ، ثم إلى بني مَرِين ، قال الخطيب ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن »^٢ ما ملخصه : وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر^٣ إلا ومعه المصحف الكريم العثماني ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، ومقام كبير ، وكيف لا ؟ قال ابن بَشْكُوَال : أخرج هذا المصحف من قرطبة وغرَّبَ منها وكان يجامعها الأعظم ، ليلة السبت حادي عشر شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله تعالى عنه إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام . وما قيل إن فيه دم عثمان هو بعيد^٤ ، وإن يكن أحدها فلعله الشامي ، قاله ابن عبد الملك . قال أبو القاسم التجيبي السبتي : أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أمية بدمشق المحروسة ، وعايته هناك سنة ٦٥٧ ، كما عاينت المكي بقبة اليهودية ، وهي قبة التراب ، قلت^٤ : عاينتهما مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها ، قال النخعي : لعله الكوفي أو البصري . وأقول : اختبرت الذي بالمدينة والذي

١ ق ط ج ودوزي : وهو متواتر عند .

٢ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الأصل (- بعد ٧٨٠) من أكابر رجالات الدولة المرينية ، وسيترجم له المقرئ ترجمة طويلة وانظر الديباج المذهب : ٣٠٥ وفيل الابتهاج : ٢٦٧ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٣١٢ والتعريف بابن خلدون : ٤٩ ؛ وكتابه هذا في مناقب السلطان العظيم أبي الحسن المريني .

٣ ك : يسافر موضعاً .

٤ هذا تعليق ابن مرزوق .

نقل من الأندلس فألفيت خِطَّتهما سواء ، وما توهموا أنه خطّه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخطّ عثمان واحداً منها ، وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني ، ونص ما على ظهره : هذا ما أجمع عليه جماعة من ^١ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير. وسعيد بن العاصي ، وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على كتب المصحف ، انتهى .

واعتنى به عبد المؤمن بن علي ، ولم يزل الموحدون يحملونه في أسفارهم متبركين به ، إلى أن حملة المعتضد ، وهو السعيد علي بن المأمون أبي العلاء إدريس ابن المنصور ، حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ ، فقتل قريباً من تلمسان ، وقدّم ابنه إبراهيم ، ثم قتل ، ووقع النهب في الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ، ونهب المصحف ولم يعلم مستقره ، وقيل : لأنه في خزانة ملوك تلمسان ، قلت : لم يزل هذا المصحف في الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ ، فظفر به وحصل عنده إلى أن أصيب في وقعة طريف ^٢ ، وحصل في بلاد برتقال ، وأعمل الحيلة في استخلاصه ، ووصل إلى فاس سنة ٧٤٥ على يد أحد تجار أزموور ، واستمر بقاؤه في الخزانة ؛ انتهى باختصار .

واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء ، كما ذكره ابن رُشيد في رحلته ، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملة ، والرسالة في شأن المصحف لما فيها من الفائدة ، ونص محل الحاجة منه : أنشدني الخطيب أبو محمد بن برطُلُك من لفظه وكتبته من خطه ، قال : أنشدني الشيخُ الفقيهُ القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى ممّا نظمه ، وقد أمر أمير

١ جماعة من : سقطت من ق .
٢ كانت وقعة طريف سنة ٧٤١ وفيها غلب أبو الحسن المريني ، وعاد إلى المغرب مفلولا صابراً محتسباً يروم الكرة ويرتقب الطائفة (اللوحة البدرية : ٩٣) .

المؤمنين المنصور بتحلية المصحف :

ونُفِّلْتَهُ مِنْ كُلِّ مَلِكٍ ذَخِيرَةً كَأَنَّهُمْ كَانُوا بِرِسْمٍ مَكَاسِبُهُ
فَإِنْ وَرِثَ الْأَمْلَاقَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَكَمْ قَدْ أَحْتَلَّوْا جَاهِلِينَ بِوَاجِبِهِ
وَكَيْفَ يَفُوتُ النَّصْرُ جَيْشًا جَعَلْتَهُ أَمَامَ قِتَانِهِ فِي الْوَعْيِ وَقَوَاضِيهِ
وَأَلَيْسَتْهُ الْيَاقُوتُ وَالْدُرُّ حَلِيَّةً وَغَيْرِكَ قَدْ رَوَاهُ مِنْ دَمِ صَاحِبِهِ

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر في وصوله إلى الخليفة
أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وما أبدى في ذلك من الأمور الغريبة التي لم يُسمع
بمثلها في سالف الدهر ، حسبما أطرفنا به الوزير الأجلُّ أبو زكرياء يحيى بن
أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طُفَيْلٍ القيسي حفظه الله تعالى وشكره ،
مما استفاده وأفاده لنا مما لم نسمع به قبل ، عن كتاب جده الوزير أبي بكر
محمد بن عبد الملك بن طُفَيْلٍ المذكور ، مما تضمنه من وصف قصة المصحف ،
فقال : وصل إليهم أدام الله سبحانه تأييدهم قمر الأندلس النيران ، وأميرها
المتخيران ، السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله ، وفي ضحبتهما
مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وهو الإمام الذي لم يختلف فيه
مختلف ، وما زال ينقله خلف عن سلف ، قد حفظ شخصه على كثرة المتناولين ،
وذخره الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين ، وله من غرائب
الأنباء ومتقدم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيما ما ملئت به الطروس ، وتحفظه
من أهل الأندلس الرائس والمرؤوس ، فتلقني عند وصوله بالإجلال والإعظام ،
وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام ، وعُكف عليه أطول العكوف والتزم
أشد الالتزام ، وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة
ما هو معتبر لأولي الألباب ، وبلاغ في الإغراب والإعجاب ، وذلك أن سيدنا
ومولانا الخليفة أمير المؤمنين ، أدام الله له عوائد النصر والتمكين ، كان قبل
ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم ، وحركته إليه دواعي خلقه العظيم ،

وتراعي مع نفسه المطمئنة المرضية ، وسجاياه الحسنة الرضية ، في معنى اجتلابه من مدينة قُرْطُبة محل مَثْوَاه القديم ، ووطنه الموصل بحرمة للتقديم ، فتوقع أن يتأذى أهلُ ذلك القطر بفراقه ، ويستوحشوا لفقدان إضاءته في أفقهم وإشراقه ، فتوقف عن ذلك لما جُبِلَ عليه من رحمته وإشفاقه ، فأوصله الله إليه تحفة سنية ، وهدية هنية ، وتحية من عنده مباركة زكية ، دون أن يكدرها من البشر اكتساب ، أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب ، بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقه ، والتبرع به إلى القائم إلى الله تعالى بحقه ، ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه ، وعضدت مخايل بَرَقه سواكبٌ ودّقه ، وكان ذلك من كرامات سيّدنا ومولانا الخليفة معبوداً ، وإلى أمره الذي هو أمر الله مردوداً ، وجمع^١ عند ذلك بحضرة مراکش — حرسها الله تعالى — سائر الأبناء الكرام ، والسادة الأعلام ، بُدُور الآفاق ، وكواكب الإشراق ، وأهل الاستئصال للمقامات الرفيعة وذو^٢ الاستحقاق ، فانظم عند ذلك هذا القصيد مشيراً إلى اجتماع هذه الدراري الزاهرة ، والثام خطوطها على مركز الدائرة ، ووصول المتقدم ذكره ، المشهور في جميع المعمور أمره^٣ ، وهو هذا :

دَرَارِيٍّ مِنْ نَوْرِ الْهُدَى تَتَوَقَّدُ مَطَالِعُهَا فَوْقَ الْمَجَرَّةِ أَسْعَدُ
وَأَنْهَارُ جُودٍ كُلَّمَا أَمْسَكَ الْحَيَا يَمُدُّ بِهَا طَائِمِي الْغَوَارِبِ مُزِيدُ
وَأَسَادُ حَرْبٍ غَابَهَا شَجَرُ الْقَنَا وَلَا لَبْدَةً إِلَّا الْعَجَاجُ الْمَلْبَدُ
مَسَاعِيرٍ فِي الْهَيْجَا مَسَارِيعُ^٤ لِلنَّدَى بِأَيْدِيهِمْ يَحْمِي الْهَجِيرُ وَيَبْرُدُ^٥

١ ق : وأجمع .

٢ وذو : سقطت من ك .

٣ ق ط ج : منه .

٤ ك : ولا لبدة .

٥ ك : مساعير .

تَشَبُّ بِهِم نَارَانِ لِلْحَرْبِ وَالْقِرَى
وَيَسْتَمْطِرُونَ الْبَرْقَ وَالْبَرْقُ عَنْدهُمْ
إِذَا عَنْ سَجَفِ السَّارِيَّاتِ مَضَاوِهَا
وَيَسْتَرْشِدُونَ النَّجْمَ وَالنَّجْمُ عَنْدهُمْ
تَزَاحِمُ فِي جَوْ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا
تَخَازَرُ أَلْحَاطُ الْكَوَاكِبِ دُونَهَا
أَلَمْ تَرَهَا فِي الْأَفْقِ خَافِقَةً الْحَشَا
وَلَيْسَ أَحْمَرُ الْفَجْرِ مِنْ أَثَرِ السَّنَا
وَمَا انْبَسَطَتْ كَفُّ الثَّرِيَّا فِدَا فَعَتْ
وَحَطَّ سَهَيْلًا ذُعْرُهُ عَنْ سَمِيهِ
وَلَمَّا رَأَى نَسْرًا وَقُوعَ أَلِيْفِهِ
مَوَاقِعَ أَمْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
أَهَابَ بِأَقْصَى الْخَافِقِينَ فَنَظَّمَتْ
وَأَضْفَى عَلَى الدُّنْيَا مَلَائِسَ رَحْمَةٍ
وَأَخْضَلَ أَرْجَاءَ الرَّبِّى فَكَأَنَّمَا
فَمَنْ طَرَبَ مَا أَصْبَحَ الْبَرْقُ بِاسْمًا
وَعَنَى عَلَى أَفْنَانِ كُلِّ أَرَاكَةِ
وَكَبَّرَ ذُو نَظْقٍ وَسَبَّحَ صَامِتٌ
وَأَبْرَزَ لِلْأَذْهَانِ مَا كَانَ غَائِبًا
سَلَامٌ عَلَى الْمَهْدِيِّ ، أَمَّا قَضَاؤُهُ
إِمَامُ الْوَرَى عَمَّ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ
بَصِيرٌ رَأَى الدُّنْيَا بَعَيْنٍ جَلِيَّةٍ
وَلَمَّا مَضَى وَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ
تَرَدَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رِدَاءَهُ

وَيَجْرِي بِهِمْ سَيْلَانِ جَيْشٌ وَعَسَجْدُ
سَيُوفٌ عَلَى أَفْقِ الْعُدَاةِ تُجَرَّدُ
فَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي الْحَدِيدُ الْمَسْرَدُ
نُصُولٌ إِلَى حَبِّ الْقُلُوبِ تُسَدَّدُ
عَوَامِلُهَا فِي الْأَفْقِ صَرَحٌ مَمْرَدُ
وَيَفْرَقُ مِنْهَا الْمِرْزَمَانِ وَفَرَقْدُ
كَمَا تَطْرَفُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ يُزَادُ
وَلَكِنَّهُ ذَلِكَ النَّجِيعُ الْمُرَدُّ
وَلَكِنَّهَا فِي الْحَرْبِ شِلْوُ مُقَدَّدُ
فَأَضْحَى عَلَى أَفْقِ الْبَسِيطَةِ يُرْعَدُ
تَطَايَرَ مِنْ خَوْفٍ فَمَا زَالِ يَجْهَدُ
يَكَادُ لَهَا رَأْسُ الثَّرَى يَتَمَيِّدُ
وَهَيْبَ جَمْعِ الْمُخَفِقِينَ فَبُدِّدُوا
نُضَارَتُهَا فِي كُلِّ حِينٍ تَجَدَّدُ
عَلَيْهَا مِنَ التَّبَتِّ النَّصِيرِ زَبَرَجَدُ
وَمَنْ فَرَحَ مَا أَضْحَتِ الْمُزْنَ تُرْعَدُ
غَذَاهَا حَيَا النُّعْمَى حَمَامٌ مُعْرَدُ
وَكَادَ بِهِ الْمَعْدُومُ يَحْيَا وَيُوجَدُ
فَسَيَّانِ فِيهَا مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدُ
فَحَتَمَ ، وَأَمَّا أَمْرُهُ فَمُؤَكَّدُ
عَلَى حِينِ وَجْهِ الْأَرْضِ بِالْجُورِ أَرْبَدُ
فَلَمْ يُغْنِهِ إِلَّا الْمَقَامُ الْمَجْدُ
وَبُلَّغَ مَأْمُولٌ وَأُنْجِزَ مَوْعَدُ
وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَالنَّاسُ هُجْدُ

بعزْمَةٍ شَيْحَانِ الْفَوَادِ مُصَتَّمٍ
 مَشِيئَتُهُ مَا شَاءَهُ اللَّهُ ، إِنَّهُ
 كَتَابُهُ مَشْفُوعَةٌ بِمَلَائِكَةٍ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا نِيَّةٌ خَلَصَتْ لَهُ
 إِذَا خَطَبَتْ رَابَاتُهُ وَسَطَ عَجَلٍ
 وَإِنْ نَطَقَتْ بِالْفَصْلِ فِيهِمْ سِيُوفُهُ
 مُعِيدُ عُلُومِ الدِّينِ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا
 وَبَاسِطُ أَنْوَارِ الْهِدَايَةِ فِي الْوَرَى
 وَقَدْ كَانَ ضَوْءُ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا
 فَمَا زَالَ يَجْلُو عَنْ مَطَالِعِهَا الصَّدَا
 جَزَى اللَّهُ عَنْ هَذَا الْأَنَامِ خَلِيفَةً
 وَحَيَّاهُ مَا دَامَتْ مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ
 بِمُصْخَفِ عُثْمَانَ الشَّهِيدِ وَجَمْعِهِ
 تَحَامَتُهُ أَيْدِي الرُّومِ بَعْدَ انْتِسَافِهِ
 فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَمْرُسَ صَارِخٌ
 وَجَاءَ وَلِيُّ الثَّارِ يَرْغَبُ نَصْرَهُ
 رَأَى أَثَرَ الْمَسْفُوحِ فِي صَفْحَاتِهِ
 وَشَبَّهَهُ بِالْبَدْرِ وَقَدْ خُسُوفُهُ
 زَمَانَ ارْتِفَاعِ الْعِلْمِ كَانَ خُسُوفُهُ
 أَتَتْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْوَكَّةُ
 سَيُوفُ بَنِي عِيلَانَ قَامَتْ شَهِيرَةٌ
 وَطَافَتْ بَيْتَ اللَّهِ فَاشْتَدَّ شَوْقُهُ
 وَحَجَّ إِلَيْكَ الزَّكْنَ وَالْمَرْوُ وَالصَّفَا

يَقُومُ بِهِ أَقْصَى الْوُجُودِ وَيَقْعُدُ
 إِذَا هُمْ فَالْحَكْمُ الْإِلَهِيُّ يُسْعِدُ
 تُرَادِفُهَا فِي كُلِّ حَالٍ وَتُرْفَدُ
 فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا سِوَى اللَّهِ مَقْصِدُ
 تَرَى قِيمَ الْأَعْدَاءِ فِي التُّرْبِ تَسْجُدُ
 أَقْرَبَ بِأَمْرِ اللَّهِ مَنْ كَانَ يَجْجَحُدُ
 وَمُبْدِي عُلُومٍ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَعَهْدُ
 وَقَدْ ضَمَّ قَرَصَ الشَّمْسِ فِي الْغَرْبِ مَلْحَدُ
 يُغَانُ بِأَكْثَانِ الضَّلَالِ وَيُغْنَدُ
 وَيُبْرِزُهَا بِيضَاءَ وَالْجَوْ أَسْوَدُ
 بِهِ شَرَبُوا مَاءَ الْحَيَاةِ فَخَلَدُوا
 عَلَى مَدْرَجِ الْأَيَّامِ تَتَلَّى وَتُنْشَدُ
 تَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ بِالْحَقِّ يُعْضَدُ
 وَقَدْ كَادَ لَوْلَا سَعْدُهُ يَتَبَدَّدُ
 بِدَعْوَتِهِ الْعَلْيَا فَصَيَّنَ الْمَدَدُ
 قَلْبَاهُ مِنْهُ عَزَمَهُ الْمُتَجَرَّدُ
 فَقَامَ لِأَخْذِ الثَّارِ مِنْهُ مُؤَيَّدُ
 فَلَلَهُ تَشْبِيهُ لَهُ الشَّرْعُ يَشْهَدُ
 وَقَدْ عَادَ بِالْمَهْدِيِّ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
 مِنْ الْحَرَمِ الْأَقْصَى لِأَمْرِكَ تَمْنَعُدُ
 لِدَعْوَتِكَ الْعَلِيَاءِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ
 إِلَيْكَ وَلَبَّى مِنْ حِجْرٍ وَمَسْجِدُ
 فَأَنْتَ لَذَاكَ الْحَجَّ حَجَّ وَمَقْصِدُ

مَشَاعَرُهَا الْأَجْسَامُ وَالرُّوحُ أَمْرُكُمْ وَمِنْكُمْ لَهَا يَرْضَى الْبَقَاءُ الْمَخْلَدُ
 فَلِلَّهِ حَجٌّ وَاعْتِمَارٌ وَزُورَةٌ أَتَيْنَا وَلَمْ يَبْرَحْكَ بِالْغَرْبِ مَشْهُدُ
 وَلِلَّهِ سَبْعُ نَيِّرَاتٍ تَقَارَنَتْ بِهَا فِئَةُ الْإِسْلَامِ تُحْمَى^٢ وَتُسَعَّدُ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِنَاءُكَ عَصْمَةٌ فَمَاذَا الَّذِي يَرْجُو الْقَصِيُّ الْمُبْعَدُ
 فَدُمُ اللَّوَرَى غَيْثًا وَعِزًّا وَرَحْمَةً فَقَرُبُكَ فِي الدَّارَيْنِ مُنْجٍ وَمُسْعَدُ
 وَزَادَتْ بِكَ الْأَعْيَادُ حُسْنًا وَبَهْجَةً كَأَنَّكَ لِلْأَعْيَادِ زِيٌّ مَجْدَدُ
 وَلَا زِلْتَ لِلْأَيَّامِ تُبْلِي جَدِيدَهَا وَعَمْرُكَ فِي رِبْعَانِهِ لَيْسَ يَنْفَدُ

ثم إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لما أرادوا من المبالغة
 في تعظيم المصحف المذكور ، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من
 التوقير والتعزير^٣ ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته ،
 وتأفقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصونته ، فحشروا له الصُّنَاعَ
 المتقين والمهرة المتفنين^٤ ، ممن كان بحضرتهم العلية ، أو سائر بلادهم
 القرية والقصبة ، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ، ومهرة كل طائفة من
 المهندسين والصواغين والنظاميين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين
 والزواقين والرسميين والمجلدين وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعة ،
 أو يُنسب إلى الحذاق في صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من
 معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ،
 وضممتوها من غرائب الحركات ، وخفي إمداد الأسباب للمسيبات ، ما بلغوا فيه
 منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهدهم قوتهم ، والهمة العلية أدام الله سموها

١ ك : المقام .

٢ ك : تحيا .

٣ ق ط ج : والتعزير .

٤ والمهرة المتفنين : سقطت من ك .

٥ ك : وسائر .

تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواجهم ، وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كل شِعْب ، وأشرفوا عند تحقيقها وإبراز دقيقتها على كل صَعْب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تياس عن مَطْلَبِهَا ، والخواطر تكرر راجعةً عن خفي مذهبها ، حتى أطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لإقامة حقّه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقوا ذلك - أيدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته ويُسره - إلى المهندسين والصناع فقبلوه أحسن القَبُول ، وتصوروه بأذهانهم فأروه على مطابقة المأمول ، فوقفهم حسن تنبيهه مما جهلوه على طَوْر غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم - وسيأتي بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغرِبة ، والأشكال المونِقة المعجبة ، إن شاء الله تعالى - ؛ مما صُنِع للمصحف العظيم من الأصوْنة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسي كله بصِوَان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أُجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الأول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنظم ، قد أسلست للتحرك أعطافها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدرّ وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفرادها ، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده ، وتظنّ العزّ الأعبس ، والملك الأنفس ، في ادخاره وإعداده ، وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنفه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكلة زهر الكواكب في تلائمه

وانقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبَّ سماء أفلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصَّوَانُ الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً^١ بصُورته الغريبة على جميع الصُّور ، يدهش العقول بهاء ، ويحير الألباب رُواء ، ويكاد يُعشي الناظر تألقاً وضياءً ، فحين تمتَّ خصاله ، واستركبت أوصاله ، وحن ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله ، رَأَوْا — أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم — مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثنيات ، أن يُتَلَطَّف في وجه يكون به هذا الصَّوَان المذكور طوراً متصلاً ، وطوراً منفصلاً ، ويتأتَّى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذلاً ، وتارة للعموم متجملاً ، إذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلُّ له مقام إليه ينتهي وعنده يقف ، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد ، وتلطف في تنميم هذا الغرض المعتمد ، وكسي المصحف العزيز بصِوان لطيف من السندس الأخضر ، ذي حلية خفيفة تلازمه في الغيب والمحضر ، ورتب ترتيباً يتأتَّى معه أن يكسى بالصَّوَان الأكبر ، فيلثم به التثاماً يغطي على العين من هذا الأثر ، وكل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها ، وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصنع له محمل غريب الصنعة ، بديع الشكل والصيغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك ، ويشد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مُغَشَّى كله بضروب من التبرصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع من الآبنوس والخشب الرفيع ، لم تُعمل قطُّ في زمان من الأزمان ، ولا انتهت قطُّ إلى أسره نوافذ الأذهان ، مُدار بصنعة قد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشُّهب ، وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصع مثل ترصيعه الغريب ، ومُشاكل له في جودة التقسيم وحُسن الترتيب ، وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها .

١ ط : متولياً .

والصدور على محفوظ أفكارها ، مكعب الشكل سامٍ في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتيميم في أوصاله والتكميل ، جارٍ مجرى المحمل في التزين والتجميل ، وله في أحد غواربه بابٌ ركبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجهما ، ويسر بعد الإبهام انفراجهما ، ولا تفتح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه وتركب المحمل عليه ، ما دبرت الحركات الهندسية ، وتلقيت تلك التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية ، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلاً فيه موضع قد أُعِدَّ له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيه وأديرته به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته ، وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفاً إلى مقدمه ، فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق البابُ برجوع الدفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد ، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التي أدير إليها أولاً انفتح الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي إلى مؤخره ، فإذا عاد كلٌّ إلى مكانه انسدَّ البابُ بالدفتين أيضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح ، كالذي كان في حال خروجه ، وصحَّتْ هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومُسَبِّبات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ، وهي ممَّا يَدِقُّ وصفها ، ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركاتُ هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيِّدنا ومولانا الخليفة ، أدام الله تعالى أمرهم وأعزَّ نصرهم .

وفي خلال الاشتغال بهذه الأعمال التي هي غرر الدهر ، وفرائد العمر ، أمروا - أدام الله تعالى تأييدهم - ببناء المسجد الجامع بحضرة مراکش - حرسها

الله تعالى - فبدىء ببنائه^١ وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والتجارة . وفيه من شمسيات الزجاج وحركات^٢ المنبر والمقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه . فكيف في هذا الأمر اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصنائع أن يتم فيه فضلاً عن بنائه ؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ، ونهضوا - أدام الله سبحانه تأييدهم - عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة ، والروضة العظيمة ، بمدينة تينملل^٣ أدام الله رفعتها ، فأقاموا بها بقية شعبان المكرم ، وأكثر شهر رمضان المعظم ، وحملوا في صحبتهم المصحف العزيز ومعه مصحف الإمام المهدي المعلوم رضي الله تعالى عنه في الثابوت الموصوف ، إذ كان قد صنع له غرفة في أعلاه ، وأحكمت فيه لإحكام كل به معناه ، واجتمع في مشكاته فعاد النور إلى مبتداه ، وختم القرآن العزيز في مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها ، وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب . ثم قال ابن رُشيد - بعد إيراد ما تقدم - ما صورته : نجزت الرسالة في المصحف العظيم ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى محل الحاجة منه .

* * *

[شعر في قرطبة]

وما أحسن قول الشيخ الإمام أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية^٤ يستودع أهل قرطبة :

١ ك : بينائه . ط : فبدأ بنيانه .

٢ ك : ودرجات .

٣ تينملل : المدينة التي دفن فيها المهدي ابن تومرت .

٤ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (- ٥٤٢) من أهل غرناطة كان واسع المعرفة قوي الأدب متفناً في العلوم (الصلة : ٣٦٧ والقلائد : ٢٠٨ وسيترجم له المقري) .

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ حَيْثُ عَهَدْتُ^١ الْحَيَاءَ وَالْكَرَمَا
وَالْجَامِعَ الْأَعْظَمَ الْعَتِيقَ وَلَا زَالَ مَدَى الدَّهْرِ مَأْمَنًا حَرَمًا

وقال أبو الربيع ابن سالم^٢ : حدثني بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع
الأشعري^٣ قال : أنشدني أبو محمد بن عطية لنفسه ، فذكرهما بعد أن قال :
إنه لما أزمع القاضي أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع
وأنشد^٤ البيتين ، انتهى .

وقال ابن عطية أيضاً رحمه الله تعالى^٥ :

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قرطبةً وهُنَّ قَنْطَرَةُ الوادي وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ، والعلم أكبر شيء وهو رابعها
وقد تقدم إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبة لأحد^٦.

* * *

[أبو المغيرة والجارية]

ومما يدخل في أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزير

١ ك : وجدت .

٢ أبو الربيع ابن سالم : سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي (- ٦٣٤) من أجل شيوخ
الأندلس علماً وتالياً وأولي الحزم والجرأة والإقدام ، استشهد بمركة أنيشة صابراً محتسباً .
(راجع ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ والتكملة رقم : ١٩٩١ والمرقبة إلعيا : ١١٩
وبرنامج الرعي : ٦٦ وتحفة القادم : ١٢٩ وإعتاب الكتاب : ٢٤٩ والديباج : ١٢٢ وتذكرة
الحفاظ : ١٤١٧ وسيترجم المقرئ له في النفع) .

٣ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة يعرف بابن أبي له برنامج
شيوخ أخذه عنه أبو الربيع ابن سالم وعنه أخذه تلميذه ابن الأبار ، ولي القضاء باستجة وكان شيخاً
جليلاً معتنياً بصناعة الحديث ، توفي بغرب العدو صادراً عن مراکش سنة ٥٨٥ (التكملة رقم :
١٦١٩) .

٤ ك : وأنشدني .

٥ انظر البيتين في ترجمة ابن ربيع الأشعري في التكملة .

٦ انظر ما تقدم ص : ١٥٣ .

الكاتب أبو المغيرة بن حَزْم قال : نادمت يوماً المنصور بن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير ، فلمّا تضمخ النهار بزعفران العشيّ ، ورفرف غرابُ الليل الدَّجُوجيّ ، وأَسبل الليلُ جُنْحَه ، وتقلّد السَّمَاكُ رُمُحَه ، وهمَّ النسر بالطيران ، وعام في الأفق زورق الزُّبْرِقان ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا ملاء الارتياح ، وللدَّجَنِ فوقنا رواق مضروب ، فغتننا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب ^١ :

قدم اللَّيْلُ عند سَيْرِ النَّهَارِ وبدا البدرُ مثل نصف سوارٍ ^٢
فكأنَّ النَّهَارَ صَفْحَةً خَدَّ وكأنَّ الظَّلامَ خَطُّ عِذارٍ
وكانَّ الكُثُوسَ جامدُ ماءً وكانَّ المدام ذائبُ نارٍ
نظري قد جَتَّى عليَّ ذنوباً كيف مما جنته عيني اعتذاري؟
يا لقومي تعجَّبوا من غزال جائر في محبتي وهو جاري
ليت لو كان لي إليه سبيلٌ فأقضي من حبه ^٣ أوطاري

قال : فلمّا أكملت الغناء ، أحسست بالمعنى ، فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمارِ بين سُمُرِ القنا وبيض الشِّقَارِ
لو عَلِمْنَا بأن حُبِّكَ حَقٌّ لطلبنا الحياةَ منك بثارٍ
وإذا ما الكرامُ همَّوا بشيءٍ خاطروا بالنفوس في الأخطارِ

قال : فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ في كلامه ، وقال لها : قولي واصدقي إلى مَنْ تُشيرين ، بهذا الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية : إن كان الكذب أنجى ، فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولَدَّت في

١ زاد في ك : وقالت .

٢ ك : السوار .

٣ ك : من الهوى .

القلب فكرة ، فتكلم الحب على لساني ، وبرَّحَ الشوق بكتماني ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المَعذرة ؛ ثم بكت فكأن دمعها دُرٌّ تنثر من عقد ، أو طَلٌّ تساقط من ورد ، وأنشدت :

أَذْنَبْتُ ذَنْباً عَظِيماً فكيف منه اعتذاري ؟
واللهُ قَدَرٌ هَذَا وَلَمْ يَكُنْ باختيارِي
والعَفْوُ أَحْسَنُ شَيْءٍ يَكُونُ عِنْدَ اقْتِدَارِ

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إليّ ، وسلَّ سيف السخط عليّ ، فقلت : أيدك الله تعالى ، إنما كانت هَفْوَةٌ جرَّها الفكر ، وصَبْوَةٌ أَيْدها النظر ، وليس للمرء إلا ما قدر له ، لا ما اختاره وأمله . فأطرق المنصور قليلاً ثم عفا وصفح ، وتجاوز عتاً وسمح ، وخلَّى سبيلي ، فسكَّنَ وَجِيبُ قلبي وغليلي ، ووهب الجارية لي فبتنا بأنعم ليلة ، وسحبنا فيها للصَّبَا ذيله ، فلَمَّا شَمَّرَ الليل غَدَاثره ، وسلَّ الصباح بواتره ، وتجاوبت الأطيَّار بضروب الألحان ، في أعالي الأغصان ، انصرفت بالجارية إلى منزلي ، وتكامل سروري .

* * *

[المأمون والجارية]

قال بعضهم : ذكرتني حكاية أبي المغيرة هذه حكاية قرأتها في النوادر^١ لأبي علي القالي البغدادي حَدَّثَتْ في الظرف حَدْوَهَا ، وزهت في الإغراب زهوَهَا ، وهي ما أسنده عن منصور البرمكي أَنَّهُ كانت للرَّشيد جارية غُلَامِيَّة وكان المأمون يميل إليها ، وهو إذ ذاك أَمْرَد ، فوقفت تصبُّ على يد الرشيد من إبريق معها ، والمأمون [جالس] خلف الرشيد ، فأشار إليها [كَأَنَّهُ] يقبلُهَا ، فأنكرت ذلك بعينها ، وأبطأت في الصب على قدر نظرها للمأمون وإشارتها إليه ، فقال

١ انظر القصة في أمالي القالي ١ : ٢٢٢ وما بين معقنين زيادة منه .

الرشيد : ما هذا ؟ ضعي الإبريق من يدك ، ففعلت ، فقال : والله لئن لم تصدقيني لأقتلنك ، فقالت : يا سيدي ، أشار إليّ [عبد الله] كأنه يقبلني ، فأنكرت ذلك عليه ، فالتفت إلى المأمون فنظر إليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والحجل ، فرحمه وضممه إليه ، وقال : يا عبد الله ، أتحبّها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هي لك فاخلُ بها في تلك القبة ، ففعل ، ثم قال له : هل قلت في هذا الأمر شيئاً ؟ فقال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظبيٌ كَتَبْتُ بطَرْفي من الضمير إليه
قَبَلْتُهُ مِنْ بعيدٍ فاعْتَلَّ من شَفَتَيْهِ
وَرَدَّ أَخْبَثَ رَدًّا بالكسْرِ من حاجبيه
فَمَا بَرِحْتُ مكاني حتى قَدَرْتُ عليه

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء : اللَحْظُ ، يُعْرَبُ عن اللفظ ، وقال آخر : رب كناية تعني عن إيضاح ، ورب لفظ يدل على ضمير ، ونظمه الشاعر فقال :

جَعَلْنَا عِلَامَاتِ المودَّةِ بيننا دقائقَ لَحْظٍ هُنَّ أَمْضَى مِنَ السَّحْرِ
فَأَعْرِفُ منها الوصلَ في لين لحظها وَأَعْرِفُ منها الهجرَ بالنظر الشرَّ

وفي هذا قال بعض الحكماء : العين باب القلب ، فما في القلب ظَهَر في العين ، وقال الشاعر :

العينُ تُبْدي الذي في نفس صاحبها من المحبةِ أو بُغْضٍ إذا كانا
فالعينُ تنطقُ والأفواه صامتةٌ حتى تَرَى من ضمير القلب تَبَيَّانا

[ترجمة أبي المغيرة من المطمح]

وأبو المغيرة ابن حَزْم قال في حقه في المطمح ما نصّه^١ : الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم ، وبنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجتهد وحسب ، وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحده ، لا يُنعت ولا يُجد ، وهو فارس المضمار ، حامي ذلك الذمار ، وبطل الرعيل ، وأسد ذلك الغيل ، نسق المعجزات ، وسبق في العضلات الموجزات ، إذا كتب وشئ المهارق ودبج ، وركب من بحر البلاغة الشبج ، وكان هو وأبو عامر ابن شهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح^٢ ولا مقيل ، ولا يفرقان كمالك وعقيل^٣ ، وكانا بقرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامري أندية السلوة ، إلى أن اتخذ أبو عامر في حيلة الردى وعلق ، وغدا رهنة فيها قد غلق^٤ ، فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان ، واسترد من سبقه ما فاته منذ زمان ، فلم تذكر له مع أبي عامر حسنة ، ولا سرت له فقرة مستحسنة ، لتعذر ذلك وامتناعه ، بشقوف أبي عامر وامتداد باعه ، وأما شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره ، ومختلط زهره بدوره^٥ ، وقد أثبت له منها فنونا ، تجن بها الأفهام جنونا ، فمن ذلك قوله :

ظعننت وفي أحداجها من شكلها عين فضحن بحسنهن العينا

١ المطمح : ٢٢ ؛ قلت وانظر ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن حزم في الذخيرة ١/١ : ١١٠ والصلة : ٣٧٤ والمغرب ١ : ٣٥٧ والجدوة : ٢٧٣ وبغية الملتبس رقم : ١١١٠ ؛ وتوفي أبو المغيرة بطليطلة ٤٣٨ .

٢ ق ك ط ج : رواد .
٣ مالك وعقيل : نديما جذيمة بن الأبرش ويضرب بهما المثل في عدم الافتراق ، قال أبو خراش الهذلي :

الم تلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

٤ المطمح : أخذ .

٥ ك : وغلق .

٦ المطمح : ومختلط بزهره .

ما أنصفت في جنب توضيح إذ قرئت ضيف الوداد بلابلاً وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده إذ لم يجد بالرقمتين^١ قطينا
وله :

لما رأيت الهلال منطوياً في غرة الفجر قارن الزهرة
شبهته والعيان يشهد لي بصولجان أوفى^٢ لضرب كره

* * *

[ترجمة ابن شهيد من المطمح]

وأبو عامر ابن شهيد المذكور قال في حقه ما صورته^٣ :
الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي ، عالم بأقسام
البلاغة ومعانيها ، حائر قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا
ينسق ما نسق من دُرّ البيان وجُمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطُرُقها ، وأخذ
على مُتعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يُقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه
يغترف إلا من بحر ، مع انطباع ، مشى في طريقه بأمد^٤ باع ، وله الحسب
المشهور ، والمكان الذي لم يعد للظهور ، وهو من ولد الوضاح ، المتقلد تلك
المفاخر والأوضاع ، صاحب الضحك^٥ يوم المَرَج ، وراكب ذلك الهرج ،
وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ، وتبّع لا يُراش إلا من ذلك الغرب^٦ ،
وقد أثبت له ما هو بالسحر لاحق ، ولنور المحاسن ماحق ، فمن ذلك قوله^٧ :

١ ق : بالرقمتين .

٢ في الأصول : انفى ، وأثبتنا ما في الجئوة .

٣ المطمح : ١٩ .

٤ ك : الظهور .

٥ ق ك ط ج : والضحاك صاحب .

٦ ق ط ج : مع ذلك الغرب ؛ ك : من ذلك الزغب .

٧ ديوانه : ١٦٤ .

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ مَخْمَصَةٌ ۖ أَبْدَىٰ إِلَى النَّاسِ رِيًّا وَهُوَ ظَمْآنٌ
يَحْتَنِي الضَّلُوعَ عَلَى مِثْلِ اللَّظَى حُرْقًا ۖ وَالْوَجْهُ غَمَرٌ بِمَاءِ الْبِشْرِ رِيَّانٌ ۑ

وهو مأخوذ من قول الرضي ٢ :

مَا إِنْ رَأَيْتَ كَمَشَّيْرٍ صَبْرُوا ۖ عِزًّا عَلَى الْأَزَلَاتِ وَالْأَزْمِ
بَسَطُوا الْوَجْوهَ وَبَيْنَ أَضْلَعِهِمْ ۖ حَرًّا الْجَوَى وَمَا الْكَلَمِ

وله أيضاً ٣ :

كَلِفْتُ بِالْحَبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي ۖ لَمَا وَجَدْتُ لِيَطْعَمَ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمِ
كَلَا النَّدَى وَالْهَوَى قِدَمًا وَلَعْتُ بِهِ ۖ وَيَلِي مِنَ الْحَبِّ أَوْ وَيَلِي مِنَ الْكُزْمِ

وأخبرني الوزير أبو الحسين ٤ بن سراج - وهو بمنزل ابن شهيد - وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ٥ ، وكان له بباب الصبوة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يُخلّيه من نثر درره وأزهاره ، فقعدي ليلة ٢٧ من رمضان في لمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه ، وقد حققوا به ليقطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجدة بهزل ، ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزل ، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها ، من يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي منزلاً لاستغفار

١ ق ط ج : ملان .

٢ ديوان الرضي ٢ : ٤٢٢ مع اختلاف في بعض الرواية .

٣ ديوان ابن شهيد : ١٤٨ .

٤ ق ك ج ط : أبو الحسن .

٥ في طبعة ليدن أن في أصول المطمح هنا : « أن منزل أبي عامر بن شهيد كان متتلى الأعيان ومسرى البيان ، وكان كل شاعر أو كاتب منه بين صلة أو راتب ، وكانوا يحضرون مجلس شرابه ولا ينفصلون ساعة عن بابه » وهذه العبارة غير موجودة في المطمح المطبوع .

ذنبها ، وهي متنبقة ، خائفة ممن يرقبها مترقة ، وأمامها طفل لها كأنه غصن
 آس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولّت سريعة ،
 وتولت مروعة ، خيفة أن يشب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ،
 قال قولاً فصّحها به وشهرها ^١ :

دعاها إلى الله بالخير داعي	وناطرة تحت طي القناع
لوصل التبتل والانقطاع	سعت خفية تبتغي منزلاً
تُراعي ^٢ غزلاً بروض البقاع ^٣	فجاءت تهادى كمثل الرّؤوم
فحلّ الربيع بتلك البقاع	وجالت بموضعنا جولة
فحلت بوادٍ كثير السباع	أتنا تبختر في مشيها
فناديت يا هذه ^٤ لا تُراعي	وريعت حذاراً على طفلها
وتفرّع منه كمامة ^٥ المصاع	غزالك تفرق منه الليوث
على الأرض خط كظهر الشجاع	فولت وللمسك في ذيلها

انتهى المقصود منه .

[استيلاء المعتمد على قرطبة]

رجع : ومما ينخرط في سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح في ترجمة المعتمد
 ابن عباد إذ قال ^٦ : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين ^٨ بن سراج أنه حضر مع

١ انظر الديوان : ٩٤ وبدائع البداه : ٢ : ١٠٨ .

٢ دوزي : تناعي .

٣ ق ط ج : البقاع .

٤ البدائع : بأكنافه .

٥ البدائع : فقلت أيا هذه .

٦ البدائع : وتهرب منه أسود .

٧ قلائد العقيان : ١٠ .

٨ القلائد وق ط ج : أبو الحسن ؛ وفي ك : أحمد بن سراج .

الوزراء والكتاب بالزهراء في يوم قد غفَل عنه الدهر فلم يَرْمُقْهُ بطَرْفٍ ،
ولم يَطْرُقْهُ بصَرْفٍ ، أَرَّخَتْ به المسراتُ عَهْدَهَا ، وأبرزت له الأماني
خَدَّهَا^١ ، وأرشفَتْ فيه لماها ، وأباحَتْ للزائرين حِمَاها ، وما زالوا يتقلون من
قصر إلى قصر ، ويتبدلون الغصون بِجَنَى وهَصْرٍ ، ويتوقَّلون^٢ في تلك
الغُرُفات ، ويتعاطَوْنَ الكُؤُوسَ بين تلك الشُرُفات ، حتَّى استقروا بالروض
من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً ، وأوقروا^٣ بالاعتبار قطاراً ، فحلَّوا
منها في درانك ربيع مُقَوِّفَةٌ بالأزهار ، مطرزة بالجدول والأنهار ، والغصونُ
تختال في أدواحها ، وتثنى في أكفٍّ أرواحها ، وآثارُ الديار قد أشرفت عليهم
كنكالٍ يَنحُنْ على خرابها ، وانقراض أطرابها^٤ ، والوهي بمشيدها لاعب ،
وعلى كل جدارٍ غرابٌ ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها
وأفياءها ، وطلما أشرفت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شداهم وأرجت^٥ ،
أيام نزلوا خلالها ، وتنفياؤها ظلالتها ، وعمَّروا حدائقها وجنَّاتها ، ونَبَّهوا
الآمال من سيناتها ، وراعوا الليث في آجامها ، وأنجلَّوا الغيوثَ عند
انسجامها^٦ ، فأضحت ولها بالتداعي تلفُّع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا
نُؤْيٌ وأحجار ، قد وَهَتْ قِبابُها ، وهَرَمَ شِبابُها ، وقد يلين الحديد ،
ويَبْلَى على طيِّه الحديد ، فبينما هم يتعاطَوْنَها صغاراً وكباراً ، ويُدَيرونها
أنساً واعتباراً ، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب^٧ فيها :

حَسَدَ القصرُ فيكم الزهراءَ ولَعَمْرِي وعمركم ما أساءَ

١ ك : خدَّها ونهدَّها .

٢ ك : ويتنقلون .

٣ دوزي : ووقروا . وفي ك ق ط ج : ووقروا .

٤ ك : آترابها وأطرابها .

٥ ك : وتأرجت .

٦ ك : في انسجامها .

٧ مكتوب : سقطت من ك ؛ ط : فيها مكتوب .

قد طَلَعْتُمْ بِهَا شَمُوساً صَبَاحاً فَاطْلُعُوا عِنْدَنَا بُدُوراً مَسَاءً

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقصف ، وتوقدت نجومٌ مداميه ، وتأودت قدودٌ خُدماه ، وأربى على الخَوَزَنق والسَّدير ، وأبدى صفحةَ البدر من أزرار المُدير ، فأقاموا ليلتهم ما عَرَّاهم^١ نوم ، ولا عداهم عن طيب اللذات سَوم ، وكانت قرطبة منتهى أمله ، وكان رَومُ أمرها أشهى عمله ، وما زال يخطبها بمُدخالته أهليها ، ومُواصلته اليها ، إذ لم يكن في منازلها قائد ، ولم يكن لها إلا حَيْل ومكائد ، لاستمساكهم بدَعَوَةِ خلفائها ، وأنفقتهم من طُمُوس رسوم الخلافة وعقائنها ، وحين اتفق له تملكُها ، وأطلعه فلُكها ، وحصل في قطب دائرتها^٢ ، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها ، قال^٣ :

مَنْ لِلْمُلُوكِ بَشَاوُ الْأَصِيدِ الْبَطْلُ ؟ هِيَهَاتَ جَاءَتْكُمْ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ
خَطَبْتُ قَرْطِبَةَ الْحَسَاءِ إِذْ مَنَعَتْ مَنْ جَاءَ بِخَطْبِهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا فَأَصْبَحَتْ فِي سَرِيِّ الْحَلِيِّ وَالْحَلَلِ
عِرْسُ الْمُلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرْسٌ كُلُّ الْمُلُوكِ بِهَا فِي مَأْتَمِ الْوَجَلِ
فَرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ لَا أَبَا لَكُمْ هُجُومَ لَيْثٍ بِدَرْعِ الْبَاسِ مُشْتَمَلِ

ولما انتظمت في سلكه ، واتَّسَمَتْ بملكه ، أعطى ابنه الظافر زمامها ، وولاه نقضها وإبرامها ، فأفاض فيها نداءه ، وزاد على أمدّه ومداه ، وجمَّلها بكثرة حِبائِه ، واستقل بأعبائها على فتائه^٤ ، ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلاً عن المكر ساهياً ، حُسْنُ ظَنِّ بِأهلها اعتقده ، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده ،

١ القلائد : ما طرَقهم .

٢ ط ق ج : دارتها .

٣ ديوان المعتمد : ٦٥ .

٤ القلائد : واشتغل بأعبائها عن فتائه .

وهيئات كم من ملك كَفَّنُوهُ في دماثه ، ودفنوه بذمائه ، وكم من عرشٍ
 ثَلَّوْهُ^١ ، وكم من عزيز ملك أذلَّوه ، إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلاً ، وجرَّ
 إليها حرباً وويلاً ، فبرز الظافر منفرداً عن كُلماته ، عارياً من حُلماته ، وسيفه
 في يمينه ، وهاديه في الظلماء نور جبينه ، فإنه كان غلاماً كما بلله^٢ الشباب
 بأندائه ، وألحفه الحُسْنُ بردائه ، فدافعهم أكثر ليلة ، وقد منع منه تلاحق
 رجله وخيله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لَمَا ، ولا استقل منها^٣ ولا
 سعى ، فتترك ملتحفاً بالظلماء ، تحت نجوم السماء ، معفراً في وسط الحمى^٤ ،
 تحرسه الكواكب ، بعد المواكب ، ويستزده الحِنْدِسُ ، بعد السندس ، فمرَّ بمصرعه
 سَحَرًا أحد أئمة الجامع المغلسين ، فراه وقد ذهب ما كان عليه ومضى ، وهو
 أعرى من الحسام المنتصى ، فخلع رداؤه عن منكبيه ونضاه ، وستره به سترأ
 أقنع المجد به وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ، ولا يعرف فتشكر له
 يده الرفيعة ، فكان المعتمد إذا تذكر صرَّعته ، وسعَّر الحزن لوعته ، رقع
 بالعويل ندائه ، وأنشد :

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِداؤه^٥

ولمَّا كان من الغد حَزَّ رأسه ورُفِعَ على سن رمح وهو يشرق كنار على
 علم ، ويرشق نفس كل ناظر بالأم ، فلمَّا رَمَقَتْهُ الأبصار ، وتحققت الحماة
 والأنصار ، رَمَوْا أسلحتهم ، وسَوَّوْا للفرار أجنتهم ، فمنهم من اختار فراره
 وجلاه ، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه ، وشغل المعتمد عن رثائه يطلب

١ ط : فلوله .

٢ ك : قد بلله .

٣ ك : استقال منها ؛ ق : انتقل منها .

٤ ق ك ط : في الظلما ؛ ج : ملتجئاً في الظلما .

٥ تحت نجوم السما : ساقطة من القلائد .

٦ ك : وسط اكما ؛ ط : الجما .

٧ صدر بيت لأبي خراش الهذلي ، وعجزه : « على أنه قد سل عن ماجد محض » .

ثاره ، ونَصَّبَ الحبائِلَ لوقوع ابن عكاشة وعثاره ، وعدل عن تأبينه ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلا إشارته إليه في تأبين أخويه ، المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة ، والفتنة النائرة ، انتهى .

* * *

[ذكر المنتزهات في سياق التراجم]

وقد رأيت أن أزيد على ما تقدم - مما قصدت جكته في هذا الموضع - نبذة من كلام الفتح في ذكر مُنتَزهات قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ، ووصف مجالس الأنس التي كانت بها مما تشرح له الأنفس ، ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعاً ، ولا يخلو ذلك من عبرة بحال مَنْ جَعَلَ في اللهو مَصِيفاً ومُرْتَبِعاً ، ثم طواه الدهر طَيَّ السَّجَل ، ومحا آثاره التي كانت تسمو وتجِل ، وما قصدنا عليم الله غير الاعتبار ، بهذه الأخبار ، لا الحث على الحرام ، وتسهيل القصد إليه والمرام ، والأعمال بالنيات ، والله سبحانه كفيل بفضلته وكرمه ببلوغ الأمنيات ، وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات ، بالنعم الباقيات السنيّات .

* * *

[١ - من ترجمة ابن زيدون في القلائد]

قال الفتح رحمه الله تعالى في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيدون ، ما صورته^٢ : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين^٣ بن سراج رحمه الله تعالى أنه في وقت فراره أضجى ، غداة الأضحى ، وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الطبء الأوانس والآرام ، وقد كان الفطر وافاه ،

١ كانت : سقطت من ق ط ج .

٢ القلائد : ٧٢ .

٣ ق ل ج : أبو الحسن .

والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى عفاه^١ ، فلما عادته منهما ما عاد ، وأعياه ذلك النكد المعاد ، استراح إلى ذكر عهده الحسن ، وأراح جفونه المسهدة بتوهم ذلك الوسن ، وذكر معاهد كان يخرج إليها في العيد ، ويتفرج بها مع أولئك الغيد ، فقال^٢ :

فما حالُ من أمسى مشوقاً كما أضحي
أخصُّ بمحوض الهوى ذلك السقح
دواعي بثِّ تعقيب الأسف البرح
لقلبي لا يألو زناد الأسي قدحاً
فأقبل في فرط الولوع به نصحاً
نزال عتاب كان آخره الفتح
سفير خضوع بيننا أكّد الصلح
فإن لم يكن ميعاده العيد فالفصح
مُعاطاة ندّمان إذا شئت أو سبحاً
قوارير خضر خلقتها مرّدت صرّحاً
أجلتُ المعلّى في الأماني بها قدحاً
نقّصتُ تنائها مدامعه نرّحاً
فخلنا العشايا الجون أثناءها صبّحاً
فقبّتها فالكوكب الجون فالسطحاً
إذا عزّ أن يصدى الفقى فيه أو يضحي

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
وما انفك جوفي الرصافة مشعري
ويهنّاج قصر الفارسي صباية
وليس ذميماً عهد مجلس ناصح
كأني لم أشهد لدى عين شهدة
وقائع جانباها التجني فإن مشي
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته
وأصال هو في مسنة مالك
لدى راكد تضيق من صفحاته
معاهد لذات وأوطان صبوة
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح
مقاصير^٣ ملك أشرق جنباتها
يمثل قرطبيها لي الوهم جمرة
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه

١ في الأصول : أعفاه .

٢ انظر ديوان ابن زيدون : ١٥٨

٣ في الأصول : مقاصر .

٤ القلائد : الرحب .

هناك الجِمامُ الزُّرْقُ تَنَدَى حِفَافُهَا ظلالُ عَهْدَتُ الدَّهْرِ فِيهَا فَتَى سَمَحَا
تَعَوَّضْتُ ١ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلَالُهَا صَدَى فُلُواتِ قَدِّ أَطَارِ الْكَرَى صُبَحَا
وَمِنْ حَمَلِي الْكَأْسِ الْمَقْدَى مُدِيرُهَا تَقَحَّمْ أَهْوَالَ حَمَلْتُ لَهَا الرَّمَحَا
أَجَلٌ ٢ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ بَيْطَةِ ٣ لَأَقْصِرُ مِنْ لَيْلِي بَأَنَّةٍ فَالْبَطَحَا

وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها لياليَ وأياماً ، وظلَّت فيها الحوادث عنهم
نياماً ، فهاموا بشرق العقاب ، وشامُوا به برقاً يَبْدُو من نِقَاب ، ونعموا
بجَوْفِ الرُّصَافَةِ ، وطعموا عيشاً تولى الدهر جلاءه وزِفَافه ، وأبعدوا نصيح الناصح ،
وحمدوا أنس مجلس ناصح ، وعمُوا بالزهرَاء ، وصمُوا عن نبيأ صاحب
الزوراء ، حتى رحلهم الموت عنها وقوَّضهم ، وعوَّضهم منها ما عوَّضهم ،
فصاروا أحاديث وأنباء ، ولم يتزودوا منها إلاَّ حَنُوطاً وكِباء ، وغدَّت تلك
المعاهدُ تصافحها أيدي الغيَر ، وتناوحها نعبات الطير ، وراحت بعد الزينة
سُدَى ، وأمست مسرحاً للبوم وملعباً للصَّدى ، يُسْمَعُ للجنِّ بها عزيف ،
ويُضْرَعُ فيها البطلُ الباسلُ والتزيف ، وكذا الدنيا أعمالها خراب ، وآمالها ٣
آلٌ وسَرَاب ، أهلكت أصحاب الأخدود ، وأذهبت ما كان بمأرب من
حيازات وحدود ، انتهى .

وقال الفتح بعد كلام ما صورته ٤ : ولما عَصَّتْهُ نابُ الاعتقال ، ورضتْهُ
تلك النُّوبُ الثقال ، وعوَّضَ بنخشانة العيش من اللين ، وكابد قَسْوَةَ خَطْبِ
لا تَلِين ، تذكَّرَ عهد عيشه الرقيق ، ومرَّحَه بين الرُّصَافَةِ والعقيق ، وحنَّ إلى سعدٍ
زُرَّتْ عليه جُيُوبُهُ ، واستهدى نسيمَ عيشٍ طاب له هُبوبه ، وتأسَّى بمن

١ ط : تعرضت .

٢ ق ك ج : نيطه ؛ ط : ليطه .

٣ ك ط : وآمالها .

٤ القلائد : ٧٧ .

باتت له النوائب بمرصاد ، ورمته بسهام ذات إقصاد [وضميم من عهد الأحص
إلى ذات الإصَاد]^١ فقال^٢ :

الهُوى في طُلوعِ تلكِ النجومِ والمُنَى في هُبُوبِ ذاكِ التَّسيمِ
مَرَّنا عِيشُنا الرقيقِ الحواشي لو يَومُ السُّرُورِ للمستديمِ
وَطَرَّما انقَضَى إلى أن تَقْضَى زَمَنٌ ما ذِمَّامُهُ بالذَّمِّيمِ
أَيُّها المؤذني بظُلْمِ اللَّيالي ليسَ يَومِي بواحدٍ من ظُلُومِ
ما تَرى البدرَ إن تَأَمَّلْتَ والشم سَما يَكْشِفانِ دونَ النجومِ
وَهُوَ الدَّهْرُ ليسَ يَنفَكُ يَنحُو بِلِصِّصِ العَظيمِ نحوَ العَظيمِ

وقال الفتح أيضاً في شأن ابن زيدون ، ما صورته^٣ :

ولما تعذر انفكاكه^٤ ، وعُفِّرَ فرقه وسماكه ، وعادته الأوهام والفِكَرُ ،
وخانه من أبي الحزم الصارمُ الذَّكْرُ ، قال يصف ما بين مَسَرَّاتِهِ وكُروبه ،
ويذكر بَعْدَ طُلُوعِ أَمَلِهِ* من غروبه ، ويبكي لما هو فيه من التَّعْذِيرِ ، ويعذر
أبا الحزم وليس له غيره من عذير ، ويتعزى بإغناء الدهر على الأحرار ،
وإلحاحه على التمام بالسُّرَّار ، ويخاطب ولادَةً بوفاء عهده ، ويقيم لها
البراهينَ على أَرْقِهِ وسُهْنِهِ^٥ :

-
- ١ ما بين معقنين زيادة ليست في ق ك ؛ والذي ضميم في الأحص وذات الأصَاد هم بنو مرة أولاً ثم
ثأروا بقتل كليب .
٢ ديوان ابن زيدون : ٢٧٨ .
٣ القلائد : ٧٦ .
٤ القلائد : فكاهه .
٥ ك : سعده .
٦ ك : باغناء .
٧ القلائد : ٧٧ وديوان ابن زيدون : ٢٥٠ .

ما جالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ
 وَلَا اسْتَطَلْتُ ذِمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ
 فِي نَشْوَةٍ مِنْ شَبَابِ الْوَصْلِ^١ مُوهِمَةٍ
 يَا لَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلِ
 يَا لِلرَّزَايَا لَقَدْ شَافَهُتُ مِنْهَلَهَا
 لَا يَهْنُ الشَّامِتَ الْمُتَرَنِّحَ خَاطِرُهُ
 هَلِ الرِّيحُ بَنَجَمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ
 إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ لِبْدَاعِي فَلَا عَجَبَ
 وَإِنْ يُثَبِّطُ أَبَا الْحَزَمِ الرِّضَى قَدَرُ
 مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ^٢ عَلَى ثِقَةٍ
 إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذَكَرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
 إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصْرِ
 أَنْ لَا مَسَافَةَ بَيْنَ الْوَهْنِ وَالسَّحَرِ
 قَدْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ
 غَمْرًا فَمَا أَشْرَبُ الْمَكْرُوهَ بِالْغُمَرِ
 أَنْتِي مُعْتَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ
 أَمْ الْكُصُوفُ لَغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 قَدْ يُوَدِّعُ الْجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذَّكْرِ
 عَنْ كَشْفِ ضَرْيٍ فَلَاعَثَبَ عَلَى الْقَدَرِ
 وَلَمْ أَبْتَ مِنْ تَجْنِيهِ عَلَى حَدَرِ

وله يتغزل ، ويعاتب من يستعطفه ويتنزل^٣ :

يَا مُسْتَخْفَاً بِعَاشِقِيهِ وَمُسْتَغِيثاً لِنَاصِحِيهِ
 وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا حَتَّى أَطْعَمَنَا السُّلُوءَ فِيهِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدَّعِيهِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَهْزِمَ التَّسْلِي وَيَغْلِبَ الشُّوقُ مَا يَلِيهِ

وما أحسن قول ابن زيلون المذكور في قصيدته النونية الشهيرة :

١ الذخيرة والقلائد : سنات الدهر .

٢ ك : من تدانيه ؛ الديوان : تأنيه .

٣ الديوان : ١٩٠ .

غِيظُ^١ العدا من تساقينا الهوى فَدَعَوْا بأنْ نَغْصَّ فقال الدهرُ آمينا

* * *

[موشحة ابن الوكيل]

ومن أغرب^٢ ما وقفتُ عليه مُوشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز
نونية ابن زيدون ، وهي :

غدا مُنادِينا مُحَكِّمًا فينا يَقْضِي عَلَيْنَا الأسي لولا تأسينا

بَحْرُ الهوى يُغْرِقُ مَنْ فِيهِ جَهْدُهُ عامٌ
ونارُهُ تُحْرِقُ مَنْ هَمٌّ أَوْ قَدْ هَامٌ
ورُبُّمَا يُقْلِقُ فَتًى عَلَيْهِ نَامٌ

قد غَيَّرَ الأجسامَ وصَيَّرَ الأيامَ
سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضاً لِيالينا

يا صاحِبَ النَجْوَى قِفْ واسْتَمِعْ مِنِّي
إِيَّاكَ أَنْ تَهْوَى إِنَّ الهوى يُضْئِي
لا تَقْرَبِ البَلَوَى اسْمَعْ وقلْ عَنِّي

بِحارِهِ مرَّةً خُضْنَا على غِرَّةٍ
حِيناً فقامَ بها للنَّعي ناعينا

مَنْ هَامَ بالغَيْدِ لاقَى بِهِمْ هَمًّا
بَذَلْتُ مجهودي لِأَخْوَري أَلْمَى
يَهُمُّ بِالْجُودِ وَرَدَّ ما هَمًّا

١ ك : غص .

٢ ق : ومن غريب .

وعندما قدّ جاد بالوصلِ أو قد كاد أضحي التناهي بديلاً من تدانينا

بِحَقِّ ما بَيَّي
أَقَرَّرْتُكُمْ عَيْتِي
فَالْعَيْنُ بِالْبَيْنِ
وَبَيْنَكُمْ إِلَّا
فَتَجْمَعُوا الشَّمْلَا
بِفَقْدِكُمْ أَبْلَى

جديداً ما قد كان بالأهل والإخوان ومورد اللّهُ صافٍ من تصافينا

يا جيرةً بَانَتْ
لَعَهْدِهِ خَانَتْ
ما هَكَذَا كَانَتْ
عَنْ مُغْرَمٍ صَبَّ
مِنْ غَيْرِ ما ذَنْبِ
عَوَائِدُ الْعُرْبِ

لا تحسبوا البُعْدُ يُغَيِّرُ العهدا إذ طالما غيّر النأيُ المحبينا

يا نازلاً بالبان والنمل والفرقان
وسورة الرحمن
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
وَالنَّحْلِ وَالْحَجْرِ

هل حل في الأديان أن يقتل الظمان من كان صرف الهوى والود يسقينا

يا سائل القطرِ
مِنْ ساكني بدرِ
عسى صَباً تَسْرِي
عَرَجَ عَلَى الْوَادِي
وَقِفْ بِهِمِ نَادِي
لِمَغْرَمٍ صَادِي

إن شئت تحيينا بلكغ تحيينا من لو على البعد حياً كان يحيينا

واقف لنا أيام
وكان لي أعوام
كَأَنَّهَا أَعْوَامُ
كَأَنَّهَا أَعْوَامُ

تَمُرُّ كالأحلام بالوصلِ لي لَوْ دام
والكأسُ مُتَرَعَّةٌ حُثَّتْ مُشْعَشَعَةً فِينَا الشَّمُولُ وَغَتَانَا مُغْتَيْنَا

[٢ - من ترجمة بني القبطورة]

رجع إلى ما يتعلق بقرطبة : قال الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْتَة ، يخاطب
الوزير أبا الحسين بن سراج ، ويذكر لمةً من إخوانه بقرطبة ^١ :

يا سيدي وأبي هوى وجلالة	ورسول ودّي إن طلبت رسولا
عرج بقرطبة ولذذ إن جئها ^٢	بأبي الحسين وناده تمويلا ^٣
فلذا سعدت بنظرة من وجهه	فاهد السلام لكفه تقيلا
واذكر له شكري وشوقي مجملا	ولو استطعت شرحته ^٤ تفصيلا
بتحية تُهدى إليه كأنما	جرت على زهر الرياض ذيولا
وأشم منها المصحفي على النوى	نفسا ينسي السوسن المبلولا
وإلى أبي مروان منه نفحة	تهدي له نور الرئي مطلقولا
وإذا لقيت الأخطي فسقة	من صفو ودّي قرقفا وشمولا
وأبو علي سق ^٥ منها ربة	مسكا بماء غمامة محلولا
واذكر لهم زمنا يهب نسيمه	أضلا كنفت الراقيات عليلا
مولي ومولي نعمة وكرامة	وأنا إخاء مخلصا وخليلا

١ مر بعض هذه الأبيات فيما تقدم ص : ١٥٦ وانظر القلائد : ١٥٢ .

٢ ق ط ج : إن أنت بلنتها .

٣ ك : تمويلا ؛ والتحويل : أن تقول « يا مولاي » .

٤ ك : سرده .

٥ القلائد : وأبا علي بل .

بالخير ما عبت هناك غمامة إلا تضاحك إذخيراً وجليلاً
يوماً وليلاً كان ذلك كله سحراً وهذا بُكرةً وأصيلاً
لا أدركت تلك الأهلّة دهرها نقصاً ولا تلك النجومُ أفولاً

قال أبو نصر : الخير الذي ذكره هنا هو خير الزّجالي خارج باب اليهود
بقرطبة الذي يقول فيه أبو عامر بن شهيد :

لقد أطلعوا عند باب اليهود شمساً أبي الحسن أن تكسفا
تراه اليهود على بابها أميراً فتحسبهُ يوسفاً

وهذا الخير من أبداع المواضع وأجملها ، وأتمها حسناً وأكملها ، صحنه
مرمر صافي البياض ، يخترقه جدول كالحيّة التضناض ، به جابية ، كل بلحة
بها كايبة ، قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزّرت بهما جوانبه
وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت أسطاره ، وابتسمت من كرائمها أزهاره ،
ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتعطر النسيم بهوبه عليه ومسّراه ، شهدت
له ليالي وآياماً كأنما تصورت من لمحات الأحباب ، أو قدّدت من صفحات
أيام الشباب ، وكانت لأبي عامر بن شهيد به فرج وراحات ، أعطاه فيها الدهر
ما شاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء ، وكان هو وصاحب الروض المدفون
بإزائه أليف صبوة ، وحليفي نشوة ، عكفا فيه على جريالهما ، وتصرفا بين
زهوهما واختيالهما ، حتى زدّاهما الردى ، وعداهما الحيام عن ذلك المدى ،
فتجاوزا في الممات ، تجاوزهما في الحياة ، وتقلصت عنهما وارفات تلك الفيثات ،
وإلى ذلك العهد أشار ابن شهيد وبه عرض ، وبشوقه صحح وما مرض ،
حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه وأمر أن يُدْفَنَ بإزائه ويكتب

على قبره^١ :

يا صاحبي قم فقد أطلنا
فقال لي : لَنْ نقوم منها
تذكرُ كمَّ ليلةٍ نعيمنا
وكم سرورٍ همى علينا
كلُّ كأنَّ لم يكن تقضى^٢
حصَّلهُ كاتبٌ حفيظ
يا ويلنا إن تنكبتنا
يا ربَّ عفواً فأنْتَ مولى
أنحنُّ طولَ المدى هُجودُ^٣
ما دامَ من فوقنا الصَّعيد
في ظلِّها والزمان عيْد
سحابةٌ ثرةٌ تجود ؟
وشومه حاضر عتيْد
وضمهُ صادق شهيد
رحمةٌ منْ بطشهُ شديد
قصرَ في أمرِك العبيد

انتهى .

ثم قال بعد كلام^٣ : وركب أبو الحسن ابن القَبْطُرْنَة إلى سوق الدواب
بقرطبة ومعه أبو الحسين ابن سراج ، فنظر إلى أبي الحكم ابن حزم غلاماً كما
عقَّ تماثمه ، وهو يروق كأنه زهر فارق كمامته ، فسأل أبا الحسين ابن سراج
أن يقول فيه ، فأرتج عليه ، فثنى عنان القول إليه ، فقال :

رأى صاحبي عَمراً فكَلَّفَ وصفه وحمَلني من ذاك ما ليس في الطوقِ
فقلت له : عمرو كعمرو ، فقال لي : صدقت ولكن ذاك شَبَّ على الطوقِ^٤

وكان بنو القَبْطُرْنَة بالأندلس أشهرَ من نار على علَم ، وقد تصرفوا في
البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة ، ولذا قال أبو

١ القلائد : ١٥٣ والديوان : ٤٦ والنخبة ١ / ١ : ٢٨٧ .

٢ ك : فخيرهُ سرعاً تقضى .

٣ القلائد : ١٥٥ .

٤ ق ط ج : ذا أشب على الطوق .

نصر في حقهم ما صورته ^١ :

هم للمجد كالآثافي ، وما منهم إلا موفور القوادم والخوافي ، إن ظهروا ،
زَهَرُوا ، وإن تَجَمَّعُوا ، تَضَوَّعُوا ، وإن نطقوا ، صدقوا ، ماؤهم صفو ،
وكل واحد منهم لصاحبه كُفُو ، أثارَتْ بهم نجومُ المعالي وشموسُها ، ودانت
لهم أرواحُها ونفوسُها ، ولهم النظام الصافي الزجاجية ، المضمحل العجاجة ،
انتهى .

ثم قال ^٢ : وبات منهم أبو محمد مع أخويه في أيام صباه ، واستطابة ^٣ جَنُوب
الشَّباب وصباه ، بالمنية المسماة بالبديع ، وهو روض كان المتوكل يَكَلِّفُ
بموافاته ، ويتهج بحسن صفاته ، ويقطف رياحينه وزهره ، ويوقف عليه
لِغْفاءه وسهره ، ويستفزه الطرب متى ذكره ، ويتنزه فرص الأنس فيه
رَوَّحاته وبُكره ، ويدبر حُمَيَّاه على ضفة نهره ، ويخلع سره فيه لطاعة جهره ،
ومعه أخواه فطاردوا اللذات حتى أنصَبُوا ، ولبسوا برود السرور وما نَضَوُها ،
حتى صرعتهم العُفار ، وطلحتهم تلك الأوقار ، فلما همَّ رداء الفجر أن
يَنْدَى ، وجبن الصبح أن يتبدَّى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقي وافى الصباحُ بوجهٍ سَتَرَ الليلَ نوره وبهاؤه
فاضطبيحْ واغتمْ مسرةَ يومٍ لَسْتُ تدري بما يجيء مساؤه
ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال ^٤ :

يا أخي قمْ تَرِ النَّسيمَ عليلاً باكرِ الرِّوضَ والمدامَ شَمُولاً
لا تَنَمْ واغتمْ مسرةَ يومٍ إنَّ تحتَ الترابِ نوماً طويلاً

١ القلائد : ١٤٨ .

٢ القلائد : ١٥١ .

٣ القلائد : واستطابته .

٤ القلائد : ١٥١ والمغرب ١ : ٣٦٧ .

في رياضٍ تعانق الزهر فيها مثل ما عانق الخليل الخليل^١

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن ، وقد هب من غفلة الوسن^٢ ، فقال :

يا صاحبي ذرّا لومي ومعتبتي قم نصطبح خمرة من خير ما ذخرنا
وبادرّا غفلة الأيام واغتنمنا فالיום خمرٌ ويبدؤ في غدٍ خبر^٣

وساق صاحب البدائع هذه القصة فقال^٤ : وذكر الفتح ما هذا معناه أنه
خرج الوزراء بنو القبطرنة إلى المنية المسماة بالبديع ، وهو روض قد اخضرت
مسارح نباته ، واخضلت مساري هباته ، ودمعت بالطلّ عيون أزهاره ،
وذاب على زبرجده بكتور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة ، وأضحت
مقلّ الحوادث عنه مطرقة ، فخيول النسيم تركض في ميادينه فلا تكبؤ ،
ونصول السواقي تحسم أدواء الشجر فلا تنبو ، والزروع قد نقبت وجه الثرى ،
وحجبت الأرض عن العيون فما تبصر ولا تثرى ، وكان المتوكل بن الألفس
يعدّه غاية الأرب ، ويعدّه مشهداً للطرب ، ومدفعاً للكرب ، فباتوا فيه ليلتهم
بديرون لمع لهب يتمنون فيه الخلود ، ويتحسّون ذوب ذهب لا يصنهر
به ما في بطونهم والخلود ، حتى تركتهم ابنة الخابية ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ،
فلما هزم رومي الصباح زنجي الظلام ، ونادى الديك حيّ على المدام ، انتبه

١ ك : الخليل خليل .

٢ القلائد : وقد ذهب عن غفلة الوسن .

٣ هو من قول بشار :

اليوم هم ويبدؤ في غدٍ خبر .

والدهر ما بين إنعام وإيأس .

وأصله من قول امرئ القيس : اليوم خمر وغداً أمر .

٤ البدائع ٢ : ١٤٠ .

٥ البدائع : تصول لحم .

٦ البدائع : منبهة .

كبيرهم أبو محمد مستعجلاً ، وأنشد مرثجلاً « يا شقيقي ... الخ » فأنبه أخوه أبو بكر لصوته ، وتخوف لذهاب ذلك الوقت وفوته ، وأنه أخاها أبا الحسن وهو يرتجل « يا أخي قم تر النسيم ... الخ » فأنبه أخوه لكلامه ، دافعاً لذة منامه للذة قيامه ، وارثجلاً « يا صاحبي ذراً ... الخ » انتهى .

قال الفتح ^١ : ولما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القبطرنة السابق الذكر مع الوزير أبي الحسين ابن سراج بقاء ذي الوزارتين أبي الحسن ابن اليسع القائد^٢ والمشي إليه ، والتزول عليه ، تنوياً لمقدمه ^٣ ، وتنبيهاً على حظوته لديه وتقديمه ، فصارا إلى بابه ، فوجداه مقفراً من حُجَّابه ، فاستغربا خلوه من خَوْل ، وظنَّ كلُّ واحد منهما وتأوَّل ، ثم أجمعا على قرع الباب ، ورفع ذلك الارتباب ، فخرج وهو دهش ، وأشار إليهما بالتحية ويده ترتعش ، وأنزلهما خجلاً ، ومشى بين أيديهما عَجِلاً ، وأشار إلى شخص فتوارى بالحجاب ، وبارى الريح سرعة في الاحتجاب ، فقعدا ومُقَلَّة الحشف ، ترمق من خلال السجف ، فانصرفا عنه ، وعزماً أن يكتبا إليه بما فهما منه ، فكتبنا إليه :

سَمِعْنَا خَشْفَةَ الْحِشْفِ وَشِمْنَا طَرْفَةَ الطَّرْفِ
وَصَدَّقْنَا وَلَمْ نَقْطَعْ وَكَذَّبْنَا وَلَمْ نَنْفِ
وَأَغْضَيْنَا لِإِجْلَالِ لَكَ عَنْ أَكْرَمَةِ الطَّرْفِ
وَلَمْ تُنْصِفْ وَقَدْ جِئْنَا لَكَ مَا نَنْهَضُ مِنْ ضَعْفِ
وَكَانَ الْحُكْمُ أَنْ تَحْمِلَ لَوْ أَوْ تُرْدِفَ فِي الرَّدْفِ

١ انظر القلائد : ١٦٨ .

٢ أهله بنو اليسع كانوا أعيان حصن قولية من عمل بسطة ، وكان الأمير أبو الحسن يتولى مرسية للمعتمد بن عباد فتار عليه أهلها وخلصوه ، ووصفه الفتح بأنه كان صاحب بطالة وراحة (انظر ترجمته في القلائد : ١٦٧ والمغرب ٢ : ٨٧ والحلة السراء ٢ : ١٧٢) .

٣ ك : بمقدمه .

٤ دوزي : الحق .

فراجعهما في الحين^١ بقطعة منها :

أيا أسقي على حالٍ سُلِّبْتُ^٢ بها من الظرفِ
ويا لهفي على جهلي بصنفٍ كان من صنفٍ^٣

انتهى . ولأهل الأندلس في مغاني الأئس الحسان ، ما لا يفي به لسان .

* * *

[٣ - من ترجمة ابن حسداي]

وقال الفتح في ترجمة الوزير أبي الفضل بن حسداي ، بعد كلام ، ما صورته^٤ : فمنها هذه القطعة التي أطلعَها نيرةً ، وترك الألباب بها متحيرة ، في يوم كان عند المقتدر بالله مع عليّة ، قد اتخذوا المجد حليّة ، والأملُ قد سَفَر لهم عن مُحيّاه ، وعبق لهم عن ربيّاه ، فصافحه الكل منهم وحيّاه ، وشمس الراح ، دائرة على فلك الراح ، والمملك ينشر فضله ، وينثر وابلَه وطلّه ، يُسْدي العلاء ، ويهب الغنى والغناء ، فصَدَحَت الغواني ، وأفصحت المثلث والمثنائي ، بما استنزل من مرقب الوقار ، وسرى في النفوس مسرى العقار :

توريدُ خَدَكَ للأحداق لَدَاتُ عليه من عَنبر الأصداغ لاماتُ
نيرانُ هجرِكَ للعُشاق نارُ لَظَى لكنَّ وَصَلَكَ إن واصلتَ جَنَاتُ
كَأَنما الراحُ والراحاتُ تَحْمِلُها بُدُورُ تيمَّ وأيندي الشَّرْبِ هالاتُ
حُشاشة ما تركنا الماء يَقْتُلُها إلا لَتَحيا بها منا حُشاشاتُ

١ في نسخة : فراجعهما أبو الحسن .

٢ دوزي : سلكت .

٣ في ق ط : ينصف كان من نصف ؛ ج : لضيف كان من ضيف .

٤ القلائد : ١٨٣ .

قد كان في كأسها من قبلها ثِقَلٌ
عَهْدٌ لِلْبُتْنَى تَقَاضَتْهُ الْأَمَانَاتُ
يُدْنِي التَّوَهُّمُ لِلْمَشْتَاقِ مُنْتَزِحاً
تُقْضَى عِيدَاتُ إِذَا هَبَّ الْكُرَى ، وَإِذَا
زُورٌ يَعْلَلُ قَلْبُ الْمُسْتَهَامِ بِهِ
لَعْلَ عَتَبَ اللَّيَالِي أَنْ يَعُودَ إِلَى
حَتَّى نَفُوزٍ بِمَا جَادَ الْخِيَالُ بِهِ

فَخَفَّ إِذْ مُلِئَتْ مِنْهَا الرُّجَاجَاتُ
بَانَتْ وَمَا قُضِيَتْ مِنْهَا لُبَانَاتُ
مِنْ الْأُمُورِ ، وَفِي الْأَوْهَامِ رَاحَاتُ
هَبَّ النَّسِيمُ فَقَدْ تَهْدَى نَحِيَّاتُ
ذَهْرًا ، وَقَدْ بَقِيَتْ فِي النَّفْسِ حَاجَاتُ
عُتْبَى فَتُبْلَغُ أَوْطَارُ وَلَذَاتُ
فَرُبَّمَا صَدَقَتْ تِلْكَ الْمَنَامَاتُ

ولما أعرس المستعين بالله^٢ بنت الوزير الأجل أبي بكر بن عبد العزيز^٣
احتفل أبوه المؤتمن في ذلك احتفالاً شهراً ، وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره
وبهره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهر
الآلِيب ، وقطع دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ،
من دان وقاص ، ومُطِيع وعاص ، فأتوه مسرعين ، ولبّوه متبرعين ، وكان
مُدير تلك الآراء ومُديرَها ، ومنشئ مخاطباتها ومُجَبِّرها ، الوزير الكاتب
أبو الفضل ، وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها ، وبهر اقتضائها
وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر^٤ :

١ القلائد : عاد .

٢ المستعين بالله : أحمد بن محمد بن سليمان بن هود ، تولى الحكم بعد أبيه المؤتمن محمد بن المقتدر
أحمد سنة ٤٧٨ وظل في الحكم حتى سنة ٥٠١ ، ولم يكن من نزع يوسف بن تاشفين عن الحكم
من أمراء الطوائف .

٣ أبو بكر بن عبد العزيز كان وزيراً ببلنسية للمظفر عبد الملك بن المنصور عبد العزيز بن الناصر
العامري (انظر ترجمته في القلائد : ١٦٣ وأعمال الأعلام : ٢٠٢) .

٤ أبو عبد الرحمن بن طاهر ، محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر : قام بأمر مرسية حيناً حتى ثار
عليه أهلها واستغاثوا بالمعتد بن عياد فأرسل إليه ابن عمار فأخذها منه وعندئذ انجاز ابن طاهر إلى
بلنسية وظل فيها حتى توفي سنة ٥٠٧ هـ . (انظر ترجمته في القلائد : ٥٦ والخيرة - القمم
الثالث : ٨ والمغرب ٢ : ٢٤٧ وأعمال الأعلام : ٢٠١) . وفي طرج : أبا عبد الله ابن طاهر .

محلّك أعزّك الله^١ في طي^{*} الجوانح ثابت^٢ وإن نرحت الدار ، وعيانتك في أحناء
الضلوع بادٍ وإن شحطَ المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ ،
والعين نازعة إلى أن تمتع من لقائك بظقّر اللحظ ، فلا عائدة أسبغُ برّداً ،
ولا موهبة أسوّغُ ورّداً ، من تفضلك بالخفوف^٣ إلى مانسٍ يتم بمشاهدتك
الثامه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك
بأعظم الآمال ، وأنا أعزّك الله على شرف سُوددك حاكم ، وعلى مشرّع
سنائك حاثم ، وحسبي ما تتحقّقه من نزاعي وتشوّقي ، وتتيقنه من تطليعي
وتتوّقي ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الاقتراح باستحباب^٤
الصلة ، وأنت وصلّ الله سعدك بسماحة شيمك ، وبارع كرمك ، تُنشئ
للمؤانسة عهداً ، وتؤوي بالمكارمة زندياً ، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً
وحمداً ، لا زلت مهناً بالسعود المقبلة ، مُسوّغاً اجتلاء غرر الأمانى المتلهلة ،
بمنه ، انتهى .

ثم قال بعد هذا بيسير ، ما نصّه^٤ : وركب المستعين بالله يوماً نهر سرقُسطة
يريد طرادَ لذته ، وارتياذ نزهته ، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبّته ،
واجتمع له من أصحابه ، من اختصه لاستصحابه ، وفيهم أبو الفضل مشاهداً
لأنفراجهم ، سالكاً لمنهاجهم ، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه ، وأظهر
من أنواع ذلك وأجناسه ، ما راقَ مَنْ حضر ، وفاق حسنه الروض الأنضر ،
والزوارق قد حفت به ، والتفت بجوانبه ، ونغمات الأوتار تحبس السائر عن
عدّوه ، وتخرس الطائر المُقْصِص بشدّوه ، السمك تثيرها المكاييد ، وتغوص
إليها المصايد ، فتبرز منها للعين ، قُضبان درّ أو سبائك لجّين ، والراح لا

١ ق : نصرك الله .

٢ ك : بالحق .

٣ القلائد : الانزاح بارتقاب .

٤ القلائد : ١٨٥ .

يطمس لها لمع ، ولا يبخس منها بصر ولا سمع ، والدهر قد غضت صروفه ،
واقص من نكره معروفة ، فقال :

لله يومٌ أنيقٌ واضحُ الغررِ مفضَضٌ مُذهَّبُ الآصالِ والبكرِ
كأتما الدهرُ لما ساءَ أعتَبنا فيه بعُتبي وأبدي صَفحَ مُعتدِرِ
نسيرُ في زورقِ حَفِّ السفينِ به من جانيه بمنظومٍ ومُنشِئِ
مُدَّ الشراعُ بهِ نَشراً على مَلِكِ بدَّ الأوائلِ في أيامهِ الأخرِ
هو الإمامُ الهمامُ المستعينُ حوى علياءَ مؤمنٍ عن هَدْيِ مُقتدِرِ
تحوي السفينةُ مِنْهُ آيةً عَجَباً بحرٌ تَجَمَّعَ حتى صارَ في نَهَرِ
تُصاد من قَعَرِهِ النِّنانُ مُصْعَدَةً صيداً كما ظفرَ الفَوَّاصُ بالدَّرَرِ
وللتدَامي بهِ عَبٌّ ومُرْتَشَفٌ كالريقِ يَعْذُبُ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ
والشَّرْبُ في مدحِ مولَى اخلقه زَهْرٌ يَذْكُو وغرَّتْهُ أبهى من القمرِ

[٤ - من ترجمة ابن السيد]

وقال في ترجمة العلامة الكبير ، الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السيد
البطيوسي شارح أدب الكتاب^٢ وسقط الزند وغيرهما ، ما صورته^٣ : أخبرني
أنه حضر مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح إليها
المنى ، وممرآها هو المقترح والمتنى ، والمأمون قد احتجى ، وأفاض الحبا ،
والمجلسُ يروق كالشمس في أفقه ، والبدر [كالتاج]^٤ في مفرقه ، والنور
عقيق ، وعلى ماء النهر مُصْطَبِحٌ ومُغْتَبِقٌ ، والدولاب يثن كناقاة لآثر الحوار ،
أو كشكلى من حرِّ الأوار ، والحو قد عتبرته أنواؤه ، والروض قد رشته

١ القلائد : في ود مولى .

٢ ك : أدب الكاتب .

٣ القلائد : ١٩٣ .

٤ زيادة من القلائد .

أندأوه ، والأسد قد فَعَرَت أفواهها ، ومجت أمواها ، فقال :

يا مَنْظَرًا إِنَّ نَظَرْتُ بِهِجَتَهُ أَذْكَرَنِي حُسْنَ جَنَّةِ الْخُلْدِ
تُرْبَةُ مَسْكٍ ، وَجَوْ عَنَبَرَةٍ ، وَغَيْمٌ نَدَى ، وَطَشٌ مَا وَرَدِ
وَالْمَاءُ كَاللَّائِزِ وَرَدٍ قَدْ نَظَمْتُ فِيهِ اللَّالِي فَوَاعِرُ الْأَسَدِ
كَأَنَّمَا جَائِلُ الْحَبَابِ بِهِ يَلْعَبُ فِي جَانِيهِ بِالزُّرْدِ
تَرَاهُ يَزْهَوُ إِذَا يَجُلُّ بِهِ الْإِلَ مَأْمُونُ زَهْوِ الْفَتَاةِ بِالْعَقْدِ
تَخَالَهُ إِنَّ بَدَا بِهِ قَمَرًا تِمًّا بَدَا فِي مَطَالِعِ السَّعْدِ^١
كَأَنَّمَا أَلْبَسَتْ حَدَائِقَهُ مَا حَازَ مِنْ شِيْمَةٍ وَمِنْ مَجْدِ
كَأَنَّمَا جَادَهَا فَرَوَضَهَا بَوَابِلٍ مِنْ يَمِينِهِ رَغْدِ
لَا زَالَ فِي رِفْعَةٍ^٢ مُضَاعَفَةٍ مَتَمَّ الرُّفْدِ وَآرِي الزُّنْدِ

وقال في وصف هذا المجلس بعينه ، في الكتاب الذي أفردته لترجمة ابن
السَّيِّد ، ما صورته^٣ : فمن ذلك أَنَّهُ حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس
الناعورة بطُلَيْطَلَة في المنية المتناهية البهاء والإشراق ، المباهية لزُوراء العراق ،
التي يَنْفُج شَدَاها العَطِير ، وَيَكَاد من الغَضَارَةِ يُمَطِّر ، والقادر بالله رحمه
الله قد التحف الوَفَارَ وارْتَدَاه ، وَحَكَّمَ العُقَارَ في جوده وَتَدَاه ، والمجلسُ
يشرق كالشمس في الحمل ، ومن حواه^٤ يبتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر
عقيق ، وعلى ماء النهر مُصْطَبِخ ومغْتَبِق ، والدولابُ يثْنُ كَنَاقَةٍ إِثْرَ حُورٍ ،
إلى آخر ما سبق .

١ ط ج : يزهي .

٢ قبل هذا البيت في القلائد : « ومنها » .

٣ ق ط ج : في عزة .

٤ هذا التأليف الذي أفردته الفتح لابن السيد أورده المقرئ بمجلته في أزهار الرياض ٢ : ١٠٣ والنص

الوارد هنا ثابت في الأزهار ص : ١٠٧ .

٥ ط : حماه .

وقال ابن ظافر^١ في وصف هذا المجلس حاذياً حذو الفتح ، ما صورته :
 حضر الأستاذ أبو محمد ابن السيد عند المأمون ابن ذي النون في بعض منتهاته ،
 في وقت^٢ طاب نعيمه ، وسرت بالسعود نجومه ، والروض قد أجاد وشيه
 راقمه ، والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه ، وثم بركة مملوءة ، كأنها
 مرآة مجلوة ، قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غاباً ، ومجت بها من سائغ الماء
 لُعاباً ، فكأنها آساد عيّن ، أدلعت السنة من لجين ، وهي لا تزال تقذف
 الماء ولا تقتر ، وتنظم لآلي الحباب بعدما تنثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ،
 الذي تخد^٣ . إليه ركائب القلوب وتوضع ، فقال بديها^٤ « يا منظرأ... إلخ » ،
 انتهى .

ثم قال الفتح في هذا التصنيف بعد كلام في المذكور ، ما نصه : وما أبدع
 قوله في وصف الراح ، والحض على النبد للهموم والاطراح ، بمعاطاة كاسها ،
 وموالة إيناسها^٥ ، ومعاقرة دنانها ، واهتصار ثمار الفتوة وأفنانها^٥ ، والإعراض
 عن الأيام وأنكادها ، والبحري في ميدان الصبوة إلى أبعد آمادها :

سَلِّ الْمُمُومَ إِذَا نَبَا زَمَنَ . بِمِدَامَةٍ صَفْرَاءَ كَالذَّهَبِ
 مُرْجَتِ فَمَنْ دُرٌّ عَلَى ذَهَبٍ . طَافَ وَمِنْ حَبَبٍ عَلَى لَهَبٍ
 وَكَأَنَّ سَاقِيَهَا يُثِيرُ شَدَا . مِسْكَ لَدَى الْأَقْوَامِ مُنْتَهَبِ

ولله هو فقد ندب إلى المندوب ، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب ،
 وإبرائها من الآلام ، وإهدائها كل تحية وسلام ، وإيهاجها بأصال وبكر ،
 وعلاجها من هموم وفكر ، في زمن حلي عاطله ، وجلي في أحسن الصور

١ في ل ك ط ج : وقال الفضل ؛ وصوابه ما أثبت ، فهذا النص في بدائع البدائ ٢ : ٤٠ .

٢ البدائع : يوم .

٣ البدائع : تحب .

٤ أزهار الرياض : بمعاطاة كؤوسها ، وموالة تأنيبها .

٥ ل ك : من أفنانها .

باطلُهُ ، ونفقت مُحالاته ، وطبقت أرضه وسماؤه استحالاته ، فليته كأسد ،
وذنبه مُستأسد ، وحفاته تنمّر ، وبغائه قد استنسر ، فلا استراحة إلا في مُعاطاة
حُميًا ، ومواخاة وسيم المحيّا ، وقد كان ابن عمار ذهاب مذهبه ، وقضضه
بالإبداع وذهبه ، حين دخل سرقسطة ورأى غباوة أهلها ، وتكاثف جهلها ،
وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فصلاً ، وواصل من لا يعرف قطعاً ولا
وصلاً ، فأقبل على راحه يتعاطاها ، وعكف عليها ما تعدّاها ولا تخطّاها ،
حتى بلغه أنهم نعموا مُعافرتة العُقار ، وجالت ألسنتهم في توبيخه مَجالَ ذي
الفَقار ، فقال :

نقمت على الرَّاحِ أذْمنُ شربها وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مجدٍ
ومن ذا الذي قادَ الجيادَ إلى الوغى سيّوي ومن أعطى كثيراً ولم يُكْندِ ؟
فديتكم لم تفهموا السرّ ، إنّا قلّيتكم جهدي فأبعدتكم جهدي

ودعي ابن السّيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأُنس والطرب ، وقرع فيه
السُرورُ نبعه بالغرب ، ولاحت نجوم أكواسه ، وفاح نسيم رنّده وآسه ،
وأبدت صدور أباريقه أسرارها ، وضمت عليه المجالس أزرارها ، والراح
يديرها أهيف أوطف ، والأمانى تُجنّي وتُقطّف ، فقال :

يا رَبَّ لَيْلٍ قد هتكت حجابهُ بمدامة وقّادة كالكوكبِ
يسعى بها أحوى الجفون كأنّها من خدّه ورّضاب فيه الأشنبِ
بدرانٍ بدرٌ قد أمّنت غروبه يسعى ببدر جائح للمغربِ
فلإذا نيمت برشّف بدر غارب فانعم برشفة طالعٍ لم يغربِ

١ ق ك ط ج ودوزي : وأصفائه تنسر ، وفي أزهار الرياض : وأحفاشه ، وكل ذلك خطأ ؛
والحفّات تحدث عنه الجاحظ في الحيوان (٤ : ١٤٧) فقال : « وفي البادية حية يقال لها الحفّات...
ولها وعيد منكر ونفخ وإظهار للصولة وليس وراء ذلك شيء ».

حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرة ريرب في مشرب
والليل منحفز^١ يطير غرابه والصبح يطرده بياز^٢ أشهب

ثم قال الفتح ، بعد كلام كثير ، ما صورته^٣ : ودخل - يعني ابن السيد - سرقسطة أيام المستعين وهي جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف ، ملك نمير البشاشة ، كثير المشاشة ، وملك أبهج^٤ الفناء ، أريج الأرجاء ، يروق المجتلي ، ويفوق النجم المعتلي ، وحضرة مناسبة الماء ، منجاة السماء ، يبسم زهرها ، وينساب نهرها ، وتفتح خمائلها ، وتتضوع صباها وشمائلها ، والحوادث لا تعترضها ، والكوارث لا تقرضها^٥ ، ونازلها من عرس إلى موسم ، وآملها متصل بالأمانى ومُتّسم ، فتزل منها في مثل الخورنق والسدير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ، فلم يخف على المستعين احتلاله^٤ ، ولم تخف لديه خلاله ، فذكره معلماً به ومعرفاً ، وأحضره منوهاً به ومشرفاً ، وقد كان فر من ابن رزين ، فرار السرور من نفس الحزين ، وخلص من اعتقاله ، خلوص السيف من صقاله ، فقال بمدحه^٥ :

هم سلبوني حسن صبري إذ بانوا	بأقمار أطواق مطانعها بان
لئن غادروني باللوى إن مهجتي	مسايرة أظعانهم ^١ حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم	ينازعها نهر من الدمع هتان
أحبابنا هل ذلك العهد راجع	وهل لي عنكم آخر الدهر سلوان
ولي مقلّة عبّري وبين جوانحي	فؤاد ^٢ إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم	وحفت بنا من معضل الخطب ألوان

١ ك : منفجر .

٢ أزهار الرياض ٣ : ١٠٩ .

٣ ك : تقرضها .

٤ الأزهار : اختلاله ؛ ج : اجلاله .

٥ انظر القلائد أيضاً : ١٩٩ .

أَنَاخَتْ بَنَا فِي أَرْضِ شَنْتَمَرِيَّةِ
وَشِمْنَا بِرَوْقًا لِلْمَوَاعِيدِ أَتَعِبْتَ
فَسِرْنَا وَمَا نَلُوِي عَلَى مُتَعَذِّرٍ
وَلَا زَادَ إِلَّا مَا انْتَشَتْهُ مِنَ الصَّبَا
رَحَلْنَا سَوَامَ الْحَمْدِ^٢ عَنْهَا لَغِيرَهَا
إِلَى مَلِكٍ حَابَاهُ بِالْمَجْدِ يَوْسُفُ
إِلَى مُسْتَعِينٍ بِالْإِلَهِ مُؤَيَّدُ ،
جَفَّتْنَا بِلَا جَرَمٍ كَانَ مَوْدَةً^٣
وَلَوْلَمْ تُفِدْ مَنَاسِوِي الشَّعْرِ وَحْدَهُ
فَكَيْفَ وَلَمْ تَجْعَلْ بِهَا الشَّعْرَ مَكْسَبًا
وَلَا نَحْنُ مِمَّنْ يَرْضِي الشَّعْرَ خُطَّةً
وَمَنْ أَوْهَمَتْهُ غَيْرَ ذَاكَ ظَنُونُهُ
خَلِيلِي^١ مَنْ يُعَدِّي عَلَى زَمَنِ لَهُ
وَهَلْ رِيءَ مِنْ قَبْلِي غَرِيقُ مَدَامِعٍ
وَهَلْ طَرَفَتْ عَيْنَ الْمَجْدِ وَلَمْ يَكُنْ
بُوجْهِ ابْنِ هُودٍ كُلَّمَا أَعْرَضَ الْوَرَى
فَقِيَ الْمَجْدُ فِي بُرْدَيْهِ بَدْرٌ وَضِيغَمُ
مِنْ النَّفْرِ الشَّمِّ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ
لِيُوثَّ شَرِي مَا زَالَ مِنْهُمْ لَدَى الْوَعْيِ
وَهَلْ فَوْقَ مَا قَدْ شَادَ مُقْتَدِرٌ لَهُمْ
أَلَا لَيْسَ فَخْرٌ فِي الْوَرَى غَيْرَ فَخْرِهِمْ

١ ك والأزهار : هتان .

٢ ك : الحمر ؛ ط : الحمر .

٣ إشارة إلى المثل : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان .

فَيَا مُسْتَعِينًا مُسْتَعَانًا^١ لِمَنْ نَبَا بِهِ وَطَنَ يَوْمًا وَعَضَّتْهُ أَرْزَامُ
كسوتك من نظمي قلادة مَفْخَرٍ يباهي بها جِندُ الزمان^٢ وَيَزْدَانُ
وإن قَصُرَتْ عَمَّا لَبِستُ فَرُبَّمَا تَجَاوَزُ^٣ دُرِّي فِي النِّظَامِ وَمَرْجَانُ
معانٍ حَكَتْ غَنَجَ الحِسانِ كَأَنِّي بِهِنَ حَبِيبٍ أَوْ بَطْلَيْوُسُ^٤ بَغْدَانِ
إذا غَرَسْتَ كَفَّاكَ غَرَسَ مَكَارِمَ بِأَرْضِي أَجْنَتُكَ الثَّنَاءُ مِنْهُ أَغْصَانُ

وقال في وصف مجلس^٥ لأبي عيسى ابن لبون^٥ أحضر إليه ابن السيد منوهاً بقدره ، ما صورته^٦ : وأحضره^٦ إلى مجلس نام عنه الدهر وغفل ، وقام لفرط أنسه واحتفل ، قد بانت صُرُوفه ، ودنت من الزائر قطوفه ، وقال : هلم بنا إلى الاجتماع بمذهبك ، والاستمتاع بما شئت ببراءة^٧ أدبك ، فأقاموا يُعْمِلُونَ كاسهم ، ويصلون إيناسهم ، وباتوا ليلهم^٨ ما طرقتهم نوم ، ولا عداهم عن طيب اللذات سَوَمَ .

ثم قال بعد كلام كثير^٩ : وحضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذي النون مجلساً رَفَعَتْ فِيهِ الْمَنَى لَوَاءَهَا ، وَتَخَلَّتْ عَلَيْهِ^{١٠} أَضْوَاءُهَا ، وَزَقَّتْ

١ ك : مستعاناً .

٢ ك : جيد المعاني ؛ ط والأزهار : جيد المعالي .

٣ ط : تجاوز .

٤ ط ج ق : في وصفه مجلساً .

٥ أبو عيسى ابن لبون : هو لبون بن عبد العزيز بن لبون من أصحاب القادر بن ذي النون ، رأس بمربيط من أعمال بلنسية ثم تولى عنها لأبي مروان بن رزين ، وكان معدوداً في الأجواد موصوفاً بتجويد القريض (انظر ترجمته في الحلة ٢ : ١٦٧ والقلائد : ٩٩ والمغرب ٢ : ٣٧٦ والذخيرة - القسم الثالث : ٢٣) .

٦ أزهار الرياض ٣ : ١٢١ .

٧ ك : من براءة .

٨ ك : ليلتهم .

٩ أزهار الرياض ٣ : ١٢٧ .

١٠ زاد في الأزهار : الشمس .

إليه المسرات أبكارها ، وفارقت إليه الطير أوكارها ، فقال يصفه :

وَجَلَسَ جَمَّ الْمَلَاهِي أَزْهَرَا ^١	الَّذِي الْأَجْفَانُ مِنْ طَعْمِ الْكُرَى ^١
لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ وَلَا تَرَى	أَنْفَسَ فِي نَفْسِي وَأَبْهَى مَنْظَرَا
إِذَا تَرَدَّيْ وَشِيَهَ الْمَصُورَا	مِنْ حَوْكٍ صَنْعَاءَ وَحَوْكٍ عَبْقَرَا
وَنَسَجَ قَرْقُوبٌ وَنَسَجَ تُسْتَرَا ^٢	خَلَّتَ الرَّبِيعَ الطَّلُقُ فِيهِ نَوْرَا
كَأَنَّمَا الْإِبْرِيقُ حِينَ قَرْقَرَا	قَدْ أَمَّ لَمْ الْكَأْسُ حِينَ قَعَرَا
وَحَشِيَّةَ ظَلَّتْ تَنَاجِي جُوذَرَا	تُرْضِعُهُ الدَّرَّ وَيَرْنُو حَذَرَا
كَأَنَّمَا مَعَ عَقِيْقًا أَحْمَرَا	أَوْفَتْ مِنْ رِيَاءِ مِسْكَ أَذْفَرَا
أَوْ عَابِدَ الرَّحْمَنِ يَوْمًا ذُكْرَا	فَتَمَّ مِسْكَ ذِكْرُهُ وَعَتَبَرَا
الظَّافِرَ الْمَلِكَ الَّذِي مَنْ ظَفَرَا	بِقَرِيهِ نَالَ الْعَلَاءَ الْأَكْبَرَا
لَوْ أَنَّ كَسْرَى رَأَاهُ أَوْ قَيْصَرَا	هَلَّلَ إِكْبَارًا لَهُ وَكَبَّرَا
تُبْدِي سَمَاءَ الْمَلِكِ مِنْهُ قَمَرَا	إِذَا حِجَابُ الْمَجْدِ عَنْهُ سَقَرَا
يَا أَيُّهَا الْمُنْضِي الْمَطَايَا بِالسُّرَى	تَبْغِي غَمَامَ الْمَكْرَمَاتِ الْمَطَرَا

* * *

[٥ - من ترجمة ابن العطار]

وقال الفتح في ترجمة الأديب أبي القاسم ابن العطار ، ما صورته^٣ :

هو أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، العامرين لأرجاء المعارف وساحاتها ، لولا مواصلة راحاته ، وتعطيل بُكْرِهِ وَرَوَّحَاتِهِ ، ومُؤَالَاتِهِ لِلْفُرْجِ ، ومغالاته في عَرَفِ الْأَنْسِ أَوْ أَرْجِ^٤ ، لَا يُعَرِّجُ إِلَّا عَلَى ضَفَةِ نَهْرٍ ، وَلَا يُلْهَجُ^٥ إِلَّا بِقِطْعَةٍ

١ زيادة من أزهار الرياض .

٢ تستر : مدينة بخوزستان ، وقرقوب : قرية من أصعالي .

٣ القلائد : ٢٨٤ (قلت : وانظر ترجمة أبي القاسم ابن العطار في المغرب ١ : ٢٥٤) .

٤ ك : عرف الأنس والأرج .

٥ ك : ولا يبتهج .

زهر ، ولا يحفل بلام ، ولا ينتقل^١ إلا في طاعة غلام ، ناهيك من رجل مخلوع
العنان في ميدان الصبابة ، مغرم بالحسان غرام^٢ يزيد بحبابة ، لا تراه إلا في
ذمة انهماك ، ولا تلقاه إلا في لمة^٣ انهماك ، رافعاً لرايات الهوى ، فارعاً لثنيات
الجوى ، لا يقفّر فؤاده من كلف ، ولا يبيت إلا رهن تلف ، أكثر خلق
الله تعالى علاقة ، وأحضرهم لمشهد خلاقة^٤ ، مع جزالة تحرك السكون ،
وتضحك الطير في الوكون ، وقد أثبت له ما يرتجله^٥ في أوقات أنسه وساعاته ،
ويتفت^٦ به أثناء زفرائه ولوعاته ، فمن ذلك ما قاله في يوم ركب فيه النهر
على عادات انكشافه ، وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه^٧ :

عبرنا سماء النهر والجو مشرق^٨ وليس لنا إلا الحباب نجوم^٩
وقد ألبسته الأيك برّد ظلالها وللشمس في تلك البرود رقوم^{١٠}
وله فيه :

مررنا بشاطي النهر بين حدائق^{١١} بها حدق الأزهار تستوقف الحدق^{١٢}
وقد نسجت كف النسيم مفاضة عليه وما غير الحباب لها حلق^{١٣}
وله :

هبت الريح بالعشي فحاكت زرداً للغدير ناهيك جنة^{١٤}
وانجلى البدر بعد هدء فصاغت^{١٥} كفه للقتال منه أسية^{١٦}

١ القلائد : ينتقل عن المدام ، وفي ق ج ط : لم يحفل بلام ولم ينتقل إلا . . . إلخ .
٢ ج : خلافة ؛ وقد أثبتنا دوزي في ملحقات المعاجم « خلافة » عن القلائد ، وقال : كأنها تعني
(Réunion de debauchés) .

٣ هذه رواية ق ج ط والقلائد ؛ وفي ك : بما ارتجله .

٤ هذه رواية ج ط ق والقلائد ؛ وفي ك : ونفت .

٥ انظرهما أيضاً في المغرب ١ : ٢٥٤ .

٦ ق ط ج : بعد هذا فحاكت .

وقوله^١ :

لله بهجةٌ مَنْزَهٌ ضَرَبَتْ بِهِ فوقَ الغديرِ رُواقُها الأَنْشَامُ
فَمَعَ الأَصِيلُ النَّهْرُ دِرْعٌ سَابِغٌ ومعَ الضُّحَى يَلْتاحُ مِنْهُ حُسَامُ

وله :

ما كَالْعَشِيَّةِ فِي رُوءَا جَمالِها وَبُلُوغِ نَفْسِي مُنْتَهَى آمالِها
ما شِئْتُ شَمْسُ الأَرْضِ مُشْرِقةُ السَّنا وَالشَّمْسُ قَدْ شَدَّتْ مَطِيَّ رِحالِها
فِي حَيْثُ تَنْسَابُ المِياهُ أَراقِمًا وَتُعِيرُكَ الأَفْياءُ بُرْدَ ظِلالِها

وله :

لله حُسْنٌ حَدِيقَةٍ بَسَطَتْ لَنَا مِنْهَا النُّفُوسَ سِوَالِفٌ وَمَعاطِفُ
تُخْتالُ فِي حُلُلِ الرِّبيعِ وَحُلْبِهِ وَمِنْ الرِّبيعِ قَلائِدُ وَمَطارِفُ

• • •

[٦ - من ترجمة ابن عمار]

وقال الفتح في ترجمة ابن عمار^٢ : أخبرني ذو الوزارتين الأجل أبو المطرف
ابن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤمنين في يوم جادت فيه السماء بهطلها ،
وأُتِبت وبَلَّها بطَلها ، وأعْقَبَ^٣ رَعْدَها بَرَقُها ، وانسكب دِرَاقًا ودَقُها ،
والأزهار قد تجلَّت من كامِها ، وتجلَّت بدرَّ غمامِها ، والأشجار قد جُلِي
صَدائِها ، وتوشَّحت بِنَدائِها ، وأكُوسَ الرِّاح كأنَّها كواكب تتوقَّد ، تديرُها
أَناملُ نكاد من اللطافة تُعَقِّد ، إذا بفتى من فتیان المؤمنين أحرص لا يُفصح ،

١ هذه الأبيات متقدمة في القلائد على القطعتين اللتين قبلها ، وانظر المغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ القلائد : ٨٥ .

٣ ق ج ط : وارقب .

ومستعجم لا يبين ولا يوضح ، متشمر تشمر الليث ، متشمر كالبطل الفارس
 عند الغيث^١ ، وقد أفاض على نفسه درعاً ، تضيق بها الأستة ذرعاً ، وهو
 يريد استشارة المؤتمن في التوجه^٢ إلى موضع بعثه إليه ووجهه ، وكل من صده
 عنه نهره ونجته ، حتى وصل إلى مكان انقراذه ، ووقف بإزاء وساده^٣ ،
 فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده إليه ، وقربه واستدناه ، وضمه
 إليه كأنه تبناه ، وحده^٤ أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى
 والمدير ، فأمره المؤتمن بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه ، وقام
 يسقي على حكمه ورسمه ، فلما دبت فيه الحميا ، وشبت غرامه بهجة^٥
 ذلك المحيا ، واستزلته سورة العقار ، من مرقب الوقار ، قال :

وهويته يسقي المدام كأنه قمر يدور بكوكب في مجلس
 متأرجح الحركات تندى ربحه كالغصن هزته الصبا بتنفس
 يسقى بكأس في أنامل سوسن ويدير أخرى من محاجر نرجس
 يا حامل السيف الطويل نجاده ومصرف الفرس القصير المحبس
 إياك بادرة الوغى من فارس خشن القناع على عذار أملس
 جهنم وإن حسر اللثام^٦ كشف الظلام عن النهار المشمس
 يطغى ويلعب في دلال عذاره كالمهر يمرح في اللجام المجرس
 سلم فقد قصف القنا غصن النقا وسطا بليث الغاب ظبي المكنيس
 عنا بكاسيك ، قد كفتنا مقلة حوراء قائمة بسكر المجلس^٧

١ القلائد : متشمر تشمر البطل الباسل عند الغيث .

٢ القلائد : في الخروج .

٣ ق ج ط : اساده .

٤ هذه رواية القلائد : وحده ؛ وفيك : وجد ؛ وفي ق ط ج : وأشار .

٥ دوزي : القناع ؛ ج : حدر اللثام .

٦ بعض أصول القلائد : رفع . ٧ بعض أصول القلائد : الأنف .

وأورد هذه القصة صاحبُ البدائع بقوله^١ : حضر أبو المطرف ابن عبد العزيز عند المؤمن بن هود في يوم أجرى الجوُّ فيه أشقرَ برقه ، ورمى بنبل^٢ ودقه ، وتحملت^٣ الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتماليت قامات الأغصان في الحلل الخضر من أوراقها^٤ ، والرياح قد أشرفت نجومها في بروج الراح ، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفت بغيوم الأقداح ، ومديرها قد ذاب ظرفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخجل خدّها حسناً فتظلل بعرق حبابه ، إذا بقى من فتیان المؤمن قد أقبل متدرّعاً كالبلدر اجتاب سحاباً ، والحر قد اكتست حباباً^٥ ، وقد جاء يريد استشارة المؤمن في الخروج إلى موضع كان عوّل فيه عليه ، وأمره أن يتوجّه إليه ، فحين لمح ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبّه ، وبثّ سراياه في ضواحي قلبه^٦ ، جدّ في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدّلاص ، وأن يحلّي عنه سهكه كما يُجلّي الحبّ عن الخيلاص ، وأن يكون هو الساقى^٧ ، فأمره المؤمن بقبول أمره وامتناله ، واحتذاء مثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ، ورُميت شياطين النفوس من كميث المدام بشهبها ، ارتجل ابنُ عمار « وهويته ... إلخ » إلا أنّه قال إثر قوله :

١ انظر بدائع البدائه ٢ : ١٣٣ وسيرد هذا النص في الباب السابع من النفخ .

٢ البدائع : ببندق .

٣ البدائع : وحملت .

٤ زاد في البدائع والباب السابع : والأزهار قد تفتحت عيونها والكمام قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقطر (بمداوس القطر) ؛ ونشرت ما يفوق ألوان البز ، وبثت ما يعلو أرواح المطر .

٥ بعدها في البدائع والباب السابع : والطاوس انقلب حباباً ، فهو ملك حسناً إلا أنه جسد ، وغزال ليناً إلا أنه (في هيئة) الأسد .

٦ بعدها في البدائع والباب السابع : فأشار إليه وقربه واستبدع ذلك اللباس واستغربه وجد ...

٧ في البدائع والباب السابع : وأن يوفر على ذلك الوفرة نعمة جسمه ، ويكون هو الساقى على عادته القديمة ورسه .

لَيْتَاكَ بَادِرَةَ الْوَعْيِ مِنْ فَارِس

ما صورته :

يضع السنان على العذار الأملس

ولابن عمار الرائية المشهورة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد ، وهي^١ :
أدِرِ المدامة^٢ فالنسيمُ قد انبرى
والصبحُ قد أهْدَى لنا كافورة^٣
والروض كالْحَسَنَا كساه زهره^٤
أو كالْغُلَامِ زها بورْدِ خُدُودِه
رَوْضٌ كأنَّ النهرَ فيه مِعْصَمٌ^٥
وتهزه ريحُ الصَّبَا فتخاله^٦
عَبَادُ المخْضَرُ نائلُ كَفِّه
مَلِكٌ إذا ازدَحَمَ الملوكُ بمُورِدِ^٧
أندى على الأكباد من قطر الندى
يختار إذ يهبُ الخريدة كاعباً^٨
قد أحْ زَنْدِ المجدِ لا ينفك من
لا خلُقَ أقرأ من شِفَارِ حُسامه
أيقنتُ أني من ذَرَاهِ بيجنة^٩
وعلمتُ حقاً أنَّ رَبِّي مُخْصَبٌ^{١٠}
مَنْ لا تُوازِنُهُ الجبالُ إذا احتسبى
ماضٍ وصَدْرُ الرمحِ يَكْهَمُ والطُّبَا^{١١}
والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
لَمَّا اسْتَرَدَّ الليلُ مِنَّا العنبراً^{١٢}
وشياً وقَلَدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا^{١٣}
خَجَلًا وتاهَ بِأَسْهِنٍ مُعْذَرَا^{١٤}
صافٍ أَطْلَلَ على رِداءِ أَخْضَرَا^{١٥}
سَيْفُ ابنِ عَبَّادٍ يَبْدَدُ عَسْكَرَا^{١٦}
والجوُّ قد لَيْسَ الرِداءُ الْأَغْبَرَا^{١٧}
ونَحَاهُ لا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْدُرَا^{١٨}
وَأَلَذَّ في الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى^{١٩}
وَالطَّرْفِ أَجْرَدَ وَالْحَسَامِ مُجَوَّهَرَا^{٢٠}
نارِ الْوَعْيِ إِلَّا إِلَى نارِ الْقِرَى^{٢١}
إِنْ كُنْتَ شَبِهْتَ المَوَاكِبَ أَسْطُرَا^{٢٢}
لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الْكَوْثُرَا^{٢٣}
لَمَّا سَأَلْتُ^{٢٤} بِهِ الْغَمَامَ الْمُطْطِرَا^{٢٥}
مَنْ لا تُسَابِقُهُ الرِّيحُ إِذَا جَرَى^{٢٦}
تَنْبُو وَأَيْدِي الْخَيْلِ تَعَثُّ فِي الثَّرَى^{٢٧}

١ انظر القلائد : ٩٦ ومحمد بن عمار لصلاح خالص ص : ١٨٩ ولم تورد منها ج إلا بضمة

أبيات وسائرهما بياض .

٢ ج : الزجاجة .

٣ القلائد : أسال .

قَادَ الْكَتَائِبَ كَالْكَوَاكِبِ فَوْقَهُمْ
 مِنْ كُلِّ أَبْيَضٍ قَدْ ثَقَلَتْهُ أَبْيَضًا
 مَلِكٌ بِرُؤُوفِكَ خَلَقَهُ أَوْ خَلَقَهُ
 أَفْسَمْتُ بِاسْمِ الْفَضْلِ حَتَّى شِمْتُهُ
 وَجَهَلْتُ مَعْنَى الْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ
 فَاحِ الثَّرَى مُتَعَطِّرًا بِشَنَائِهِ
 وَتَوَجَّجَتْ بِالزَّهْرِ صَلْنُ هَضَابِهِ
 هَصَرْتُ بِيَدِي غَضْنَ الْغَى مِنْ كَفِّهِ
 حَسَنِي عَلَى الصَّنْعِ الَّذِي أَوْلَاهُ أَنْ
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَازَ الْعُلَا
 السِّيفُ أَفْضَحُ مِنْ زِيَادِ خُطْبَةٍ
 مَا زِلْتُ تُغْنِي مَنْ عَنَّا لَكَ رَاجِيًا
 حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ الرِّيَاسَةِ مَحْجِرًا
 شَقِيتُ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ
 أَثْمَرَتْ رُمُوحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مُلُوكِهِمْ
 وَصَبَغْتَ دَرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُفَّاتِهِمْ
 وَإِلَيْكَهَا كَالرُّوْضِ زَارَتِهِ الصَّبَا
 نَحْمَقْتُهَا وَشَيْئًا بِذِكْرِكَ مُذْهَبًا
 مِنْ ذَا يُنَافِحُنِي وَذِكْرِكَ مَنَدَلٌ
 فَلَنْ وَجَدْتُ نَسِيمَ مَدْحِي عَاطِرًا

مِنْ لَأَمِهِمْ مِثْلُ السَّحَابِ كَنُهْورًا
 عَضْبًا وَأَسْمَرَ قَدْ ثَقَلَتْهُ أَسْمَرًا
 كَالرُّوْضِ يَحْسُنُ مَنَظَرًا أَوْ مَخْبَرًا
 فَرَأَيْتُهُ فِي بُرْدَتَيْهِ مُصَوَّرًا
 فَرَأَيْتُهُ فِي رَاحَتَيْهِ مُفَسَّرًا
 حَتَّى حَسِبْنَا كُلَّ تَرْبٍ عَنَبَرًا
 حَتَّى ظَنَنَّا كُلَّ هَضْبٍ قَيْصَرًا
 وَجَنَّتْ بِهِ رَوْضُ السَّرُورِ مَنُورًا
 أَسْعَى بِجِدِّهِ أَوْ أَمُوتَ فَأَعْدَرًا
 وَحَبَاهُ مِنْهُ بِمِثْلِ حَمْدِي أَثُورًا
 فِي الْحَرْبِ إِنْ كَانَتْ يَمِينُكَ مَنِيرًا
 نَيْلًا وَتُفْنِي مَنْ عَنَّا وَتَجَبِّرًا
 رَحْبًا وَضَمَّتْ مِنْكَ طَرَفًا أَحُورًا
 إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسَمَّتْ بِرَبِّرًا
 لَمَّا رَأَيْتَ الْغَصْنَ يُعَشِّقُ مِثْمَرًا
 لَمَّا عَلِمْتَ الْحَسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرًا
 وَحَنَّا عَلَيْهِ الطَّلُّ حَتَّى نُورًا
 وَفَتَقْتُهَا مَسْكًَا بِحَمْدِكَ أَذْفَرًا
 أَوْرَدْتُهُ مِنْ نَارِ فِكْرِي مِجْمَرًا
 فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بَرِّكَ أَعْطَرًا

[٧ - من ترجمة ابن وهبون]

وقال في ترجمة عبد الجليل بن وهبُون المُرسي^١ : ركب بلشيلية زورقاً في
نهرها الذي لا تدانيه الصَّراة ، ولا يضاهيه الفُرات ، في ليلة تنقبت بظلمتها^٢ ،
ولم يبدُ وَضَحٌ في دُھْمَتها ، وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما في
الجبَّة ، وزاد في تلك البهجة ، فقال :

كَأَنَّمَا الشَّمْعَتَانِ إِذْ سَمَتَا خَدَّأَ غَلَامٍ مُحَسِّنِ الْغَيْدِ
وَفِي حَشَا النَّهْرِ مِنْ شَعَاعِمَا طَرِيقُ نَارِ الْهَوَى إِلَى كَبَدِي

وكان معه غلام البكري^٣ معاطياً للراح ، وجارياً في ميدان ذلك المراح ،
فلما جاء عبد الجليل بما جاء ، وحلتى^٤ للإبداع الجوانب والأرجاء ، حسده على
ذلك الارتجال ، وقال بين البطء والاستعجال :

أَعْجَبُ بِمَنْظَرِ لَيْلَةٍ لِيَاءٍ تُجَنِّي بِهَا اللَّذَاتُ فَوْقَ الْمَاءِ
فِي زُورْقٍ يَزْهُو بِغُرَّةٍ أَغِيدِ يَخْتَالُ مِثْلَ الْبَانَةِ الْغَيْنَاءِ
قَرَرْتُ يَدَاهُ الشَّمْعَتَيْنِ بِوَجْهِهِ كَالْبَدْرِ بَيْنَ النَّسَمِ وَالْجُوزَاءِ
وَالنَّاحِ تَحْتَ الْمَاءِ ضَوْءُ جَبِينِهِ كَالْبَرْقِ يَخْفِقُ فِي غَمَامِ سَمَاءِ

* * *

[٨ - من ترجمة ابن طاهر]

وقال الفتح رحمه الله^٥ : دُعيتُ يوماً إلى منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية ،

١ القلائد : ٢٤٢ .

٢ ق ط ك : في ظلمتها .

٣ هو أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي عبيد البكري (انظر ترجمته في الذخيرة - القسم الثاني -
٢٢٠ والقلائد : ٢٩٠ وبنية الملتبس ص : ٢٦٥ والمسالك ١١ : ٣٨١ والمغرب ١ : ٣٤٨) .

٤ ق ط ج : وحل .

٥ القلائد : ٦٨ .

وهي منتهى الجمال ، ومزهى الصَّبَا والشمال ، على وَهْي بنائها ، وسكني^١
 الحوادث برهة بفنائها^٢ ، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه ، والحسن قد شرح
 بها عَوِيصه ، وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه ، وتوشحت بالأزر
 الذهبية^٣ أثوابه ، يخترقه جدول كالحسام المسلول ، وينساب فيه انسياب الأيم
 في الطلول ، وضفائفه بالأذواح مخفوفة ، والمجلس يروق كالحريردة المزفوفة ،
 وفيه يقول عليُّ بن أحمد أحد شعرائها ، وقد حلّه مع طائفة من وزرائها :

قم سقني ، والرياضُ لابسٌ وشياً من النور حاكه القطرُ
 في مجلسٍ كالسما لآحٍ بهِ من وجهٍ من قد هويتهُ بدرُ
 والشمس قد عصفت غلائلُها والأرض تندى ثيابها الخضرُ
 والنهرُ مثلُ المجرّ حفّ بهِ من الندامى كواكبُ زهرُ

فحللت ذلك المجلس وفيه^٤ أخذان ، كأنهم الولدان ، وهم في عيش لَدَن ،
 كأنهم في جنة^٥ عَدَن ، فأنخت لديهم ركائبي وعقلتها ، وتقلدت بهم رغائبي
 واعتقلتها ، وأقمنا ننتعم بحسنه طولَ ذلك اليوم ، ووافى الليل فذُذنا عن
 الجفون طروق النوم ، وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود ، والأغصان تيمس
 كأنها قلود ، والمجرة تراءى نهراً ، والكواكب تحالها في الجوزهرأ ،
 والثريّا كأنها راحة تشير ، وعطارد لنا بالطرب بشير ، فلما كان من الغد وافيت
 الرئيس أبا عبد الرحمن زائراً ، فأفضنا في الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر

١ القلائد : وسكون .

٢ القلائد : في فنائها .

٣ القلائد : المذبة .

٤ ك والقلائد : فاسقني .

٥ تأخر هذا البيت عن الذي يليه في القلائد .

٦ ق : وفيهم .

٧ ق : جنات .

منترهنا بالأمس ، وما لقينا فيه من الأنس ، فقال لي : ما بهجة موضع قد بان
قَطينه وذهب ، وسلب الزمان بهجته وانتهب ، وباد فلم يبق إلا رسمه ، ومحاه
الحدثان فما كاد يلوح وسمه ^١ ، عهدي به عندما فرغ من تشييده ، وتُنوحي
في تنسيقه وتنضيده ، وقد استدعاني إليه المنصور في يوم ^٢ حَلَّت فيه الشمس
برج شرفها ، واكتست ^٣ الأرض بزخرفها ، فحللت به والدوخ تيمس معاطفه ،
والنور ينجله قاطفه ، والمدام تطلع به وتغرب ، وقد حلَّ به قَحْطَان وَيَعْرُب ،
وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ، ولا يحل
غير الفؤاد من مَرَبَع ، وهم يديرون رحيقاً ، خلتها في كأسها دُرّاً أو عقيقاً ،
فأقمنا والشَّهْب تغازلنا ، وكأن الأفلاك منازلنا ، ووهب المنصور في ذلك اليوم
ما يزيد على عشرين ألفاً من صِلَات متصلات ، وأقطع ضياعاً ، ثم توجع لذلك
العهد ، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد ، وقال :

سَقِيّاً لَمْتَرَلَة اللّوى وكثيها إذ لا أرى زمناً كأزماني بها

* * *

[٩ - من رسالة للفتح]

وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منترهات
الأندلس الموقنة ، ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقة ، وهو :
أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ، ومحبي الملة ، الذي حَسُنَ بَلْقِيَاهُ
العيش ، وتزين بمحياه الجيش ، وراق باسمه الملك ، وجَرَّتْ بسعده الفُلك ،
وأثار به الليل الدامس ، ولاح له الأثر الطامس ، وجرى الدهر لسلطوته خائفاً ،
وغدا السعد بعقوته طائفاً ، والزمان ببرود علياه ملتحف ، ولثغور نداه

١ ق : إلا وسمه .

٢ ك : وقت .

٣ ك : واكتست فيه .

مرتشف ، ولا زال للمجد يتملكه ، والسعد يحمله فلكه ، أما وقد وافقتني أيامه
أيده الله سبحانه وفاقاً ، ورأيت للبيان عنده نقافاً ، فلا بد أن أرسل كتابه أفواجاً ،
وأفيض من بحره أمواجاً ، وأصف ما شاهدته من اقتداره ، وعايته من حسن
إيراده وإصداره ، بمقال أفصح من شكوى المحزون ، وأملح من رياض
الحزون ، وقد كنت ، أيده الله تعالى ، كلفاً بالدول وبهاثها ، لهجاً بالبلوغ إلى
انتهائها ، لأجد دولة أرتضيها ، وحظوة علياء أقتضيها ، فكلُّ مُلكٍ فاوضته سرّاً
وجهرّاً ، وكلُّ مُلكٍ قلبته بطناً وظهراً ، والنفس تصدُّ عنه صدود الجبان عن
الحرب ، والملائكة الكرام عن الشرّب ، إلى أن حصَلْتُ لديه ، ووصلت بين
يديه ، فقلت : الآن أمكن من راحِ البغية الانتشاء ، وتمثلت ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُونَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾
(فاطر : ٢٤) وما زلتُ أسايره حيث سار ، وآخذ اليمين تارة وتارة اليسار ، وكل
ناحية تُسفر لي عن خدّ روض أزهر ، وعِذار نبتٍ أخضر ، وتبسم عن ثغر
حباب ، في نهر كالجباب ، وترِفَل من الربيع في ملابس سندسيات ، وتُهدي
إلينا نوافح مسكيات ، وتُرهمي من بهجتها بأحسن منظر ، وتتيه بجلباب أينع
من بُردِ الشباب الأنضر ، فجلنا فيها يميناً وشمالاً ، واستخبرنا عن أسرارها
صبّاً وشمالاً ، ثم مال بنا ، أيده الله تعالى ، عن هذه المسارح السنيّة ، والمنازل
البيهيّة ، إلى إحدى ضياعه الحالية ، وبقاعه العالية ، فحللناها والأيمُ قد
عَرِي من جلبابه ، واليوم قد اكتهل بعد شبابه ، فترلنا في قصور يقصر عنها
جعْفَرِيُّ جعفر^٢ ، وقصور بني الأصفر ، تهدي من لبّاتها بُرداً محبّراً ، وتُبدي
من شدّها مسكاً وعنبراً ، وقد لاحت من جوانبها نجومُ أكواس لو رآها أبو
نواس لجعلها شعاره ، ووقف على نعتها أشعاره ، ولم يتخذ سواها نُجْعة ،
ولا نبّه خَمّاره بعد هجعة ، فتعاطيناها والسعد لنا خادم ، وما غير السرور

١ هذه رواية ق ك ج ط ؛ وفي دوزي : الأخضر .

٢ يعني جعفرأ المتوكل وقصره المسمى بالجعفري .

علينا قادم ، وخلود سقاتها قد اكتسب من سناها ، وقلودهم تتهيل علينا
 بجناها ، ونحن بين سكر وصحو ، وإثبات لها ومحو ، وإصاحه إلى بسم وزير ،
 والتفاتة إلى ملك ووزير ، إلى أن ولّى النهار فحيّانا ، وأقبل الليل المميت فأحيانا ،
 فوصلنا بلهؤ وقصف ، وعيش يتجاوز كل وصف ، فكأن يومنا مقيم ، أو
 كأن ليلنا من الظلام عقيم ؛ ولما سلّ الفجر حسامه ، وأبدى لعبوس الليل
 ابتسامه ، وجاء يخال اختيالا ، ويمحو من بقايا الليل نيالا ، قمنا نتنادب للمسير ،
 وكلنا في يد النشوة أسير ، فسرنا والملك الأجل يقدمنا ، والأيام تخدمنا ، فلا
 زالت الأيام به زاهية ، وعن سواه لاهية ، ما عمر وكرأ عقاب ، وكان للشهور
 غرر وأعقاب ، انتهى .

* * *

[١٠ - من ترجمة الراضي]

وقال الفتح في ترجمة الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد بن عباد بعد
 كلام ما صورته^١ : وأخبرني المعتز^٢ بالله أن أباه المعتمد وجّهه - يعني أخاه
 الراضي - إلى شلب واليا ، وكانت ملعب شبابيه ، ومألف أحبابه ، التي عمر
 نجودها غلاما ، وتذكر عهودها أحلاما ، وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد
 توجه إليها :

ألا حيّ أوطاني بشلب أبا بكرٍ وسلهن هل عهد الوصال كما أدري
 وسلّم على قصر الشراحيب من فتى له أبدأ شوق إلى ذلك القصر

وقصر الشراحيب هذا متناه في البهاء والإشراق ، مباه لزوراء العراق ،
 ركضت فيه جياد راحاته ، وأومضت برؤق أمانيه في ساحاته ، وجرى الدهر
 مطيعا بين بكره وروحاته ، أيام لم تحل عنه تائمه ، ولا خلت من أزاهير

١ القلائد : ٣٢ .

٢ القلائد وقط : المعتد ؛ ك ج : المعتمد .

الشباب كئامه ، وكان يعتدُّها مُشْتَهَى^١ آماله ، ومنتهى أعماله ، إلى بهجة جنّياتها ، وطيب نفحاتها وهياتها ، والتفاف خمائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها ، وفيها يقول ابن اللبّانة :

أما عَلِمَ المَعْتَرَى^٢ بالله أنني بحضرتة في جنّة شقّها نهر
وما هو نهر أعشَبَ النبت حوله ولكنّه سيفُ حمائله خضُرُ

فلما صدر عنها وقد حسنت آثاره في تديرها ، وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها ، نزل المعتمد عليه مشرفاً لأوبته ، ومعرفاً بسُمُو قدره لديه ورتبته ، وأقام يومه عنده مستريحاً ، وجرى في ميدان الأنس بطلاً مُشِيحاً ، وكان واجداً على الراضي فجَلَّت الحمية أفاقه ، ومحت غيظه عليه وحنقه ، وصورت له عين حنوه ، وذكرته بَعْدَهُ فجنح إلى دنوه ، وبين ما استدعى وأوفى ، مالت بالمُعْتَمِد نَشْوَتَهُ وأغفى ، فألفاه صريعاً في منتداه ، طريحاً في منتهى مداه ، فأقام تجاهه ، يرتقب انتباهه ، وفي أثناء ذلك صنع شعراً أتقنه وجوّده ، فلما استيقظ أنشده :

أَلَا نَ تَعُودُ حَيَاةُ الْأَمَلِ وَيَدْنُو شِفَاءُ فَوَادٍ مُعَلِّ
ويُورِقُ لِلْعَزِّ غُصْنُ ذَوَى وَيَطْلُعُ لِلسَّعْدِ نَجْمٌ أَقْلُ
فَقَدْ وَعَدْتَنِي سَحَابُ الرِّضَا بِوَابِلِهَا حِينَ جَادَتْ بِطَلِّ
أَيَا مَلِكَا أَمْرُهُ نَافِذٌ فَمَنْ شَا أَعَزَّ وَمَنْ شَا أَدَلَّ
دَعَوْتُ فَطَارَ بِقَلْبِي السَّرُورُ إِلَيْكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنْكَ الْوَجَلُ
كَمَا يَسْتَطِيرُكَ حُبُّ الْوَعَى إِلَيْهَا وَفِيهَا الطُّبَا وَالْأَسَلُ
فَلَا غَرَوُ إِنْ كَانَ مِنْكَ اغْتِفَارٌ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا جَمِيعٌ زَلَلُ

١ في القلائد : مجنى ؛ وفي دوزي : عجا .

٢ في الأصول : المعتد .

فمثلك - وهو الذي لم نَجِدْه عاد^١ بحلم على من جهل^٢

* * *

[١١ - من ترجمة المتوكل]

وقال في ترجمة المتوكل على الله ابن الأفطس ، ما صورته^٣ : وأخبرني
الوزير أبو محمد بن عبدون ، أن الجذب^٤ توالى بحضرته^٥ حتى جفت^٦ مذائبها ،
واغبرت^٧ جوانبها ، وغرد المكاء في غير روضه ، وخاض اليباس^٨ بالناس
أعظم خوْضِه ، وأبدت الخماثل^٩ عبوسها ، وشكت الأرض^{١٠} للسماء بوسها ،
فأقلع المتوكل^{١١} عن الشرب واللهو ، ونزع ملابس الخيلاء والزهو ، وأظهر
الخشوع ، وأكثر السجود والركوع ، إلى أن غيَم^{١٢} الجو ، وانجم^{١٣} النو ،
وصاب الغمام ، وترنمت^{١٤} الحمام ، وسقرت^{١٥} الأنوار ، وزهت^{١٦} النجود
والأغوار ، واتفق أن وصل أبو يوسف^{١٧} المغنّي والأرض^{١٨} قد لبست^{١٩} زخارفها ،
ورقم^{٢٠} الغمام^{٢١} مطارفها ، وتدبجت^{٢٢} الغيطان والرُبى ، وأرجت^{٢٣} نَفحات
الصبا ، والمتوكل ما فض^{٢٤} لتوبته ختاماً ، ولا نفص^{٢٥} عن قلبه منها قتاماً^{٢٦} ،
فكتب إليه :

أَلَمْ أَبُ يَوْسُفَ وَالْمَطَرُ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يُنْتَظَرُ
وَلَسْتُ بِأَبٍ وَأَنْتَ الشَّهِيدُ حُضُورَ نَدِيكَ فَيَمْنُ حُضْرُ
وَلَا مَظْلَعِي وَسَطَ تِلْكَ السَّمَاءِ بَيْنَ النُّجُومِ وَبَيْنَ الْقَمَرِ

١ القلائد : لم يزل يمود .

٢ القلائد : ٤٣ .

٣ ك : أن الأرض توالى عليها الجذب بحضرته .

٤ القلائد : وغنت .

٥ في الأصول : الأزهار .

٦ هذه رواية القلائد ، وفي ق ك ط ج : وتتوجت .

٧ ك : ولا قوض ... خياماً .

وركنضي فيها جِادَ المَدَامِ مَحْثُوثَةً بِسِيَاطِ الوَتَرِ

فبعث إليه مركوباً ، وكتب معه :

بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَاحاً فَطِيرُ عَلَى خَفِيَةٍ مِنْ عِيُونِ الْبَشَرِ
عَلَى ذُلُلٍ^١ مِنْ نَتَاجِ الْبُرُوقِ وَفِي ظُلُلٍ مِنْ نَسِيجِ الشَّجَرِ
فَحَسْبِي مَعْنَى نَأَى مَنْ دَنَا وَمَنْ غَابَ كَانَ فِداً مِنْ حَضَرِ

فوصل القصبة^٢ المطلّة على البطحاء ، المزينة بمنازل الرّوحاء ، فأقام منها
حيث قال عديّ بن زيد يصف مصنعا^٣ :

فِي قَبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوَّلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْعَا

ومرّ^٤ لهم من السرور يوم^٥ ما مر لذي رُعين ، ولا تصوّر قبل عيونهم لعين .
وأخبرني أنّه سايره إلى شنترين قاصية أرض الإسلام ، السامية الذرا والأعلام ،
التي لا يروّعها صرّف ، ولا يفرّعها طرف ، لأنّها متوعرة المراقي ،
مُعَقَّرَةٌ^٦ للرّاق ، متمكّنة الرّواصي والقواعد ، من^٧ ضفة نهر استدار بها
استدارة القلب بالساعد ، قد أطلّت على خمائلها ، إطلال العروس من
منصّتها ، واقتطعت من الجوّ أكثر من حصّتها ، فمروا بالنّبش^٨ قُطِرَ سالت
به جداوله ، واختالت فيه خمائله ، فما يحول الطّرف منه إلّا في حديقة ،

١ ك : على فلك .

٢ القلائد : فوصل إلى القصبة ؛ وفي ك : فوصل القبة .

٣ البيت في اللسان (دسكر) منسوباً للأخطل ؛ والدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت اللهو والشراب .

٤ القلائد : ومضى .

٥ القلائد : معثرة .

٦ القلائد : على .

٧ في الأصول : بأنفس ؛ وألبش - كما في القلائد ودوزي - هي (Elvas) وتقع الى الغرب

من بطليوس (Badajoz)

أو بُقْعَةُ أُنَيْقَةٍ ، فَنَلَقَاهُمْ ابْنُ مِقَانَا قَاضِي حَضْرَتِهِ وَأَنْزَلَهُمْ عِنْدَهُ ، وَأُورَى لَهُم بِالْمَبْرَةِ زَنْدَهُ ، وَقَدَّمَ لَهُمْ طَعَاماً ، وَاعْتَقَدَ قَبُولَهُ مَنّاً وَإِنْعَاماً ، وَعِنْدَمَا طَعِمُوا قَعَدَ الْقَاضِي بِيَابِ الْمَجْلِسِ رَقِيباً لَا يَبْرَحُ ، وَعَيْنُ الْمُتَوَكِّلِ حَيَاءٌ مِنْهُ لَا تَجُولُ وَلَا تَمْرَحُ ، فَخَرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ وَقَدْ أَبْرَمَهُ بِثَقِيلِهِ ، وَحَرَمَهُ رَاحَةَ رِوَاحِهِ وَمَقِيلِهِ ، فَلَقِيَ ابْنَ خَيْرُونَ مَتَنَظِّراً لَهُ ، وَقَدْ أَعَدَّ لِحُلُولِهِ مَتْرَلاً ، فَسَارَ إِلَى مَجْلِسٍ قَدْ ابْتَسَمَتْ ثُغُورُ نَوَّارِهِ ، وَخَجَلَتْ خُدُودُ وَرْدِهِ مِنْ زُؤَارِهِ ، وَأَبْدَتْ صُدُورُ أُبَارِيْقِهِ أَسْرَارَهَا ، وَضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمُحَاسِنُ أَزْرَارَهَا ، وَلَمَّا حَضَرَ لَهُ وَقْتُ الْأَنْسِ وَحِينِهِ ، وَأَرَجَتْ لَهُ رِيَاحِينُهُ ، وَجَهَ مَنْ يَرْقُبُ الْمُتَوَكِّلَ حَتَّى يَقُومَ جَلِيسُهُ ، وَيَزُولَ مُوَحِّشُهُ لَا أُنَيْسُهُ ، فَأَقَامَ رَسُولُهُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ لَا يَرِيْعُهُ ، قَدْ لَازَمَهُ كَأَنَّهُ غَرِيْمُهُ ، فَمَا انْفَصَلَ ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّ عَارِضَ اللَّيْلِ قَدْ نَصَلَ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِانْفِصَالِهِ بَعَثَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ قَطِيعَ رَاحٍ^١ وَطَبَقَ وَرْدٍ ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا :

إِلَيْكُهَا فَاجْتَلِيْهَا مُنِيرَةً وَقَدْ خَبَا حَتَّى الشَّهَابُ الثَّاقِبُ
وَاقِفَةً بِالْبَابِ لَمْ يُوْذَنْ لَهَا إِلَّا وَقَدْ كَادَ يَتَنَامُ الْحَاجِبُ
فَبَعْضُهَا مِنَ الْمَخَافِ جَامِدٌ وَبَعْضُهَا مِنَ الْحَيَاءِ ذَائِبٌ

فَقَبِلَهَا مِنْهُ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَفَا عَنْهُ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ :

قَدْ وَصَلَتْ تِلْكَ الَّتِي زَفَقْتَهَا بِكِرَاءٍ وَقَدْ شَابَتْ لَهَا ذَوَائِبُ
فَهَبْ حَتَّى نَسْتَرِدَّ ذَاهِباً مِنْ أَنْسِنَا إِنْ اسْتُرِدَّ ذَاهِبُ

فَرَكِبَ إِلَيْهِ ، وَنَقَلَ مَعَهُ مَا كَانَ بِالْمَجْلِسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَبَاتَا لَيْلَتَهُمَا لَا يَرِيْمَانِ السَّهْرَ ، وَلَا يَشِيْمَانِ بَرَقاً إِلَّا الْكَاسَ وَالزَّهْرَ .

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ^٢ : وَأَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ الْفَقِيْهَ أَبُو أَيُّوبَ بْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ أَنَّهُ مَرَّ

١ القلائد : بقطيع خمر ؛ والقطيع - بلغة الأندلسيين - الزجاجة .

٢ القلائد : ٤٦ .

في بعض أيامه برّوض مُفترّ المباسم ، مُعَطَّر الرياح النواسم ، قد صَقَلَ الربيعُ
 حَوَذاًه ، وأنطق بلبله وَوَرشانه^١ ، وألحف غصونه بروداً مُحَضَّرَة ، وجعل
 إشرافه للشمس ضرة ، وأزاهيره تنبه على الكواكب ، وتختال في خِلَعِ الغمام
 السواكب ، فارتاح إلى الكون به بقيّة نهاره ، والتنعّم بينفَسَجِه وبهارة ، فلما
 حصل من أنسِه في وسط المدى ، عمَدَ إلى وَرَقَة كُرُنْبٍ قد بللها الندى ،
 وكتب فيها بطرف غصن ، يستدعي الوزير أبا طالب ابن غانم ، أحد ندمائه ،
 ونجوم سمائه :

أَقْبِلْ أبا طالب إلينا وَقَعَ وقوعَ الندى عَلَيْنَا
 فَنَحْنُ عَقْدٌ بغيرِ وَسْطَى ما لَمْ تَكُنْ حاضراً لَدِينَا

* * *

[١٢ - من ترجمة المعتصم بن صمّاح]

وقال في ترجمة المعتصم بن صمّاح ، ما صورته^٢ : وأخبرني الوزير أبو
 خالد بن بَشْتَعِير^٣ أنه حضر مجلسه بالصمّاحية في يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ،
 ونُبَهَاءُ الشعراء ، فقعّد على موضع يتداخل الماء فيه ، ويلتوي^٤ في نواحيه ،
 والمعتصم منشرح النفس ، مجتمع الأنس ، فقال :

أَنْظُرْ إلى حُسْنِ هذا الماءِ في صَبَبِهِ كأنَّهُ أَرْقَمُ قَدَّ جَدٍّ في هَرَبِهِ
 فاستبدعوه ، وتيمّموه به وأولّعوه ، فأسكب عليهم شاييب نداه ، وأغرب
 بما ظهر من بيشره وأبداه .

١ الورشان : طائر مفرد يشبه الحمام .

٢ القلائد : ٤٨ .

٣ تصحفت هذه الكلمة كثيراً في الأصول ، وفي نسخة بهامش ك : يستعير ، وعند دوزي : يشتغير .

٤ القلائد : ويتلوى .

ثم قال بعد كلام^١ : وخرج إلى بَرْجَةٍ ودَلَايَةٍ وهما نظران^٢ لم يحل^٣ في مثلهما ناظر، ولم تَدْعَ حَسَنُهُمَا الخدودُ النواضر، غصون^٤ تُشَنِّيهَا الرياح ، ومياه لها انسياح ، وحدائق تهدي الأرجَ والعَرَفَ ، ومنازل^٥ تبهجُ النفسَ وتمتع الطرف ، فأقام فيها أياماً يتدرج في مسارحها ، ويتصرف في منازلهما ، وكانت نزهة أُرَبَّتْ على نزهة هشام بدير الرُّصَافَةِ ، وأُتَافَتْ عليها أيَّ إنافة .

[١٣ - من ترجمة ابن رزّين]

وقال في ترجمة ابن رزّين ، ما ملخصه^٦ : أخبرني الوزير أبو عامر [ابن سنون]^٧ أنه اصطبح يوماً والجو سِماكِي العَوَارِفَ ، لازورديَّ المطارف ، والروض أنيقة لَبَّاتِهِ ، رقيقة هَبَّاتِهِ ، والنور مُبْتَلٍ ، والنسيم مُعْتَلٍ ، ومعه قومه ، وقد راقهم يَتَوَّمُهُ ، وصلاته تُصَافِحُ مُعْتَفِيهِمْ ، ومبرّاته تُشَافِهُ مُوَافِيهِمْ ، والراح تُشَعِّشِعُ ، وماء الأمانِي ينشع ، فكتب إلى ابن عمّار وهو ضيفه :

ضَمَانٌ عَلَى الْآيَامِ أَنْ أَبْلُغَ الْمُنَى إِذَا كُنْتُ فِي وَدِّي مُسَرّاً وَمُعَلِّناً
فَلَوْ تَسَأَلُ الْآيَامُ : مَنْ هُوَ مُفْرَدٌ بُوْدَ ابْنِ عَمَّارٍ ؟ لَقُلْتُ لَهَا : أَنَا
فَإِنْ حَالَتْ الْآيَامُ بَيْتِي وَبَيْنَهُ فَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ أَوْ يَحْسَنُ الْغِنَا^٨

فلما وصلت الرقعة إليه تأخّر عن الوصول ، واعتذر بعذر مختل المعاني

- ١ القلائد : ٥١ .
- ٢ ك : منظران .
- ٣ ك : ومنازه .
- ٤ القلائد : ٥١ .
- ٥ زيادة من القلائد .
- ٦ دوري : مسكي .
- ٧ ك : أو يحصل المنى .

والفُصُول ، فقال أحد الحاضرين : إنني لأعجب من قعود ابن عمار ، عن هذا المضمار ، مع ميّله إلى السّماع ، وكلّفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال ذو الرياستين : إن الجواب تعذر ، فلذا اعتذر ، لأنّه يُعاني قوله ويُعَلِّله ، ويُرَوِّيه ولا يرتجله ، ويقوله في المدة الممتدة ، فرأى أن الوصول بلا جواب إجحال لأدبه ، وإخلال لمنازله في الشعر ورُتبته ، فلمّا كان من الغد وردّ ابن عمار ومعه الجواب ، وهو :

هَصَرْتُ لِي الْأَمَالَ طَيِّبَةَ الْحَتَّى	وَسَوَّغْتَنِي الْأَحْوََالَ مُقْبِلَةَ الدُّنْيَا
وَالْبَسْتَنِي النَّعْمَا أَغْضَّ مِنْ النَّدَى	وَأَجْمَلْ مِنْ وَشْيِ الرَّبِيعِ وَأَحْسَنَا
وَكَمْ لَيْلَةٍ أَحْظَيْتَنِي بِحَضُورِهَا	فَبِتُ سَمِيرًا لِلْسَّنَاءِ وَلِلْسَنَا
أَعْلَلُ نَفْسِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا	وَأُذْنِي وَكَفِّي بِالْغِنَاءِ وَبِالْغِنَى
سَاقِرْنَ بِالتَّمْوِيلِ ذَكَرَكَ كَلَّمَا	تَعَاوَرَتِ الْأَسْمَاءُ غَيْرَكَ وَالْكُنَى
لَا وَسَّعْتَنِي قَوْلًا وَطَوَّلًا كَلَاهُمَا	يُطَوِّقُ أَعْنَاقًا وَيُخْرِسُ أَلْسِنَا
وَشَرَفْتَنِي مِنْ قِطْعَةِ الرُّوْضِ بِالنَّيْ	تَنَاطَرَ فِيهَا الطَّبِيعُ وَرَدَاً وَسَوَسَنَا
تَرَوْقُ بِجَيْدِ الْمَلِكِ عِقْدًا مَرْصَعًا	وَتَزْهَوُ عَلَى عِطْفِيهِ بُرْدًا مُزِينًا
قَدُمُ هَكَذَا يَا فَارِسَ الدَّسْتِ وَالْوَغَى	لِتَطْعَنَ طَوْرًا بِالكَلَامِ وَبِالْقَنَا

وأخبرني الوزير [الكاتب أبو جعفر] ^٢ ابن سعدون أنّه اصطبح ^٣ يوماً بحضرته وللرذاذ رَشٌّ ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صَقَلَ الغمامُ الأزهار حتى أذهب نَمَشَهَا ، وسقاها فأرَوَى عَطَشَهَا ، فكتب إليه :

فَدَيْنَاكَ لَا يَسْطِيعُكَ النِّظْمُ وَالتَّرُّ فَأَنْتَ مُلِكُ الْأَرْضِ ، وَاتَّصَلُ الْأُمُرُ

١ ق ط ج : وشياً معينا .

٢ زيادة من القلائد .

٣ ق ط : أصبح .

٤ القلائد : وانفصل .

مَرَيْنَا نَدَاكَ الْغَمْرُ فَانْهَلْ صَيِّبًا كَمَا سَكَبَتْ وَطْفَاءُ أَوْ سَكَبَ الْبَحْرُ^١
وَجَاءَ الرِّبْعُ الطَّلَقُ يَبْدِي غَضَارَةً فَحَيْثُكَ مِنْهُ الشَّمْسُ وَالرَّوْضُ وَالنَّهْرُ

إِلَى أَنْ قَالَ^٢ : ثُمَّ وَجَّهَ فِيهِ إِلَى رَوْضَةٍ قَدْ أُرْجَتْ نَفْحَاتُهَا ، وَتَدْبِجَتْ سَاحَاتُهَا ،
وَتَفْتَحَتْ كَمَاثِمَهَا ، وَأَفْصَحَتْ حَمَائِمَهَا^٣ ، وَجَرَدَتْ جَدَاوِلَهَا كَالْبَوَاتِرِ ،
وَرَمَقَتْ أَزْهَارَهَا كَالْعَيُونِ الْفَوَاتِرِ^٤ ، وَأَقَامُوا يُعْمِلُونَ أَكْوَأَسَهُمْ^٥ ، وَيَشْتَمِلُونَ
لَيْنَاسِهِمْ ، فَقَالَ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ^٦ :

وَرَوْضٍ كَسَاهُ الطَّلُّ وَشَيْئًا مَجْدَدًا فَأَضْحَى مُقِيمًا لِلنَّفُوسِ وَمُقْنَعِدًا
إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصُونُهُ رَوَاقِصٌ فِي خَضَرٍ مِنَ الْقُضْبِ^٧ مَبِيدًا
إِذَا مَا انْسَكَبَ الْمَاءُ عَايَنْتَ خَلَّتَهُ وَقَدْ كَسَرَتْهُ رَاحَةُ الرِّيحِ مَبِيرِدًا
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ حُسَامًا صَقِيلًا صَافِي الْمَتْنِ جَرْدًا
وَعَنَّتْ بِهِ وَرَقُ الْحَمَائِمِ بَيْنَنَا غِنَاءٌ يُنَسِّيكُ الْغَرِيضَ وَمَعْبَدًا
فَلَا تَجْفُونَ^٨ الدَّهْرَ مَا دَامَ مَسْعَدًا وَمُدَّ إِلَى مَا قَدْ حَبَاكَ بِهِ يَدَا
وَخَذَهَا مُدَامًا مِنْ غَزَالِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا سَقَى بَدْرًا تَحْمَلُ فَرْقَدًا

إِلَى أَنْ قَالَ^٩ : وَأَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ [أَبُو عَامِرٍ]^٩ ابْنُ سَنُونُ ، أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ
فِي مَنِيَةِ الْعَيُونِ ، فِي يَوْمٍ مُطَرَّرَ الْأَدِيمِ ، وَمَجْلَسَ مَعَزِزِ النَّدِيمِ ، وَالْأَنْسَ يَغَازِلُهُمْ

١ دوزي : أَوْ فَتَقَ الزَّهْرُ ؛ ق ج ط : أَوْ فَتَقَ الْبَحْرُ .

٢ القلائد : ٥٣ .

٣ القلائد : كَمَاثِمَهَا . . . حَمَائِمَهَا .

٤ القلائد : بَعِيونُ فَوَاتِرَ .

٥ القلائد : كَأَسَمِهِمْ .

٦ انْظُرْ أَيْضًا الْمَغْرِبَ ٢ : ٤٢٨ .

٧ دوزي : الْعَصْبُ ؛ وَفِي الْقَلَائِدِ : الْعَصْفُ ، خَطَأً .

٨ القلائد : ٥٥ .

٩ زِيَادَةُ مِنَ الْقَلَائِدِ .

من كل ثنية ، ويواصلهم بكل أمانة ، فسكرو أحد الحاضرين سكراً مثل له ميدان الحرب ، وسهّل عليه مستوعر الطعن والضرب ، فقلب مجلس الأنس حرباً وقتالاً ، وطلب الطعن وحده والنزالاً^١ ، فقال ذو الرياستين :

نفس الدليل تعزّ بالجيريال فيقاتل الأقران دون قتال
كم من جبان ذي افتخار باطل بالراح^٢ تحسبه من الأبطال
[كبش^٣ الندى تحمطاً وعرامة^٤ وإذا تشبّ الحرب شاة نزال^٥]

• • •

[١٤ - من ترجمة ابن طاهر]

وقال في ترجمة ابن طاهر ، ما صورته^٤ : وجئته يوماً وقد وقفت بباب الحنش ، فقال لي : من أين ؟ فأعلمته ، ووصفت له ما عايته من حسنه وتأمّلته ، فقال لي : كنت أخرج إليه في أكثر الليالي مع الوزير الأجل أبي بكر - يعني ابن عبد العزيز - إلى روضته التي ودّت الشمس أن يكون منها طلوعها ، وتغنى المسك أن تنضم عليه ضلوعها ، والزمان غلام ، والعيش أحلام ، والدنيا تحية وسلام ، والناس قد انتشروا في جوانبه ، وقعدوا على مدّانبه ، وفي ساقبته الكبرى دولا ب ين^٥ كنافه إثر حوَار ، أو ككلى من حرّ الأوار ، وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه ، بكُرتَه ورَواحِه ، ويغازل عليه حبيبِه ، ويصرف إليه تشبيهِه ، فخرجت عليه ليلة والمنتبي الجزيري^٥ واقف وأمامه ظبي آنس ، تهيم

١ من قول المتنبي :

وإذا ما خلا الحيان بأرض طلب الطعن وحده والنزال

٢ القلائد : بالحر .

٣ سقط هذا البيت من الأصول .

٤ القلائد : ٦٤ .

٥ هو أبو طالب عبد الجبار كان يلقب بالمنتبي ويعرف بالجزيري نسبة إلى جزيرة شقر (الذخيرة

٢/١ : ٤٠١) .

به المكانس ، وفي أذنيه قرطان ، كأنهما كوكبان ، وهو يتأوّد تأوّد غصن
البان ، والمتنبّي يقول :

مَعَشَرَ النَّاسِ بِيَابِ الْحَنْشِ بِدُرِّ تِمٍّ طَالِعٍ فِي غَبَشِ
عَلَّقَ الْقُرْطَ عَلَى مِسْمَعِهِ مَنْ عَلَيْهِ آفَةُ الْعَيْنِ خَشِي
فَلَمَّا رَأَى أَمْسَكَ ، وَسَبَّحَ كَأَنَّهُ قَدْ تَنَسَّكَ .

* * *

[١٥ - من ترجمة ابن عمار]

وقال في ترجمة ابن عمار ، ما صورته ^١ : وتتره بالدمشق بقرطبة ، وهو
قصر شيّده بنو أميّة بالصفّاح والعمد ، وجروا في إتقانه إلى غير أمد ،
وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته وفناؤه ، واتخذوه ميّدان مراحهم ، ومضماراً
لانشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب
المشرق ، فحلّه أبو بكر ابن عمار على أثر بوسه ، وابتسم له دهره بعد عبوسه ،
والدنيا قد أعطته عَفْوَهَا ، وسقته صَفْوَهَا ، وبات فيه مع لُئمة من أتباعه ،
ومتفئتي رباعه ، وكلهم يحبيه بكاس ، ويفديه بنفسه من كل باس ، فطابت
له ليلته في مشيده ، وأطربه الأُنس ببسيطه ونشيده ، فقال :

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدَّمَشْقِ يُذَمُّ فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَفَاحَ الْمَشْمُ
مَنْظَرُ رَائِقٍ ، وَمَاءٌ نَمِيرٌ وَثَرَى عَاطِرٌ ، وَقَصْرٌ أَشْمُ
بَيْتٌ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي عَتَبَرُ أَشْهَبُ وَمَسْكٌ أَحْمُ

وعبّر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله ^٢ : تتره ابن عمار بالدمشق
بقرطبة ، وهو قصر شيّده خلفاء بني أميّة وزخرفوه ، ودفعوا صرف الدهر

١ القلائد : ٨٤ ، وقد ورد بعض هذا النص من قبل ، انظر ما تقدم ص : ٤٧٠ .

٢ انظر بدائع البدائه ٢ : ١٣١ .

عنه وصَرَفُوهُ ، وأَجْرُوهُ على إِرَادَتِهِمْ وصَرَفُوهُ ، وَذَهَبُوا سُقْفَهُ وَفَضَّضُوهَا ،
وَرَخَّمُوا أَرْضَهُ وَرَوَّضُوهَا ، فَبَاتَ بِهِ وَالسَّعْدُ يَلْحَظُهُ بِطَرَفِهِ ، وَالرَّوْضُ يَحْيِيهِ
بِعَرَفِهِ ، فَلَمَّا اسْتَنْفَدَ كَافُورُ الصَّبَاحِ بِهِ مَسَكَ الْغَسَقُ ، وَرَصَعَ آبَنُوسُ الظَّلَامُ
نَضَارَ الشَّفَقِ ، قَالَ مَرْتَجِلًا : « كُلُّ قَصْرِ بَعْدَ الدَّمَشْقِ يُذَمُّ » . . . إلخ ،
انتهى .

* * *

[١٦ - من ترجمة ابن لبّون]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى ابن لبّون^١ : أخبرني الوزير
أبو عامر ابن الطويل أنه كان بقصر مُرْبِيطَر بالمجلس المشرف منها^٢ ، والبطحاء
قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مطرفها ، وفيها حدائق ترنو عن مُقَلِّ
نرجسها ، وتبثُّ طيب تنفّسها ، والخلتار قد لبس أردية الدماء ، وراع أفئدة
الندماء ، فقال :

قُسم يا نديم أدر عليَّ القَرْقَفَا أو ما ترى زهر الرياض مُفَوَّفا
فتخال محبوباً مُدِلًّا وردّها وتظن نرجسها محباً مُدْنَقَا
والخلتار دماء قتلى معرك والياسمين حباب ماء قد طَقَا

إلى أن قال^٣ : وشرب مع الوزراء والكتاب ببطحاء لورقة [عند أخيه ،
وابنُ اليسع غائب عنها]^٤ في عشيّة تجود بدمائها ، ويصوب عليها دمع سمائها ،
والبطحاء قد خلّج عليها سندسها ، ودنّرها نرجسها ، والشمس تنفض على الرُّبَى
زعفرانها ، والأنوار تغمض أجفانها ، فكتب إلى ابن اليسع :

١ القلائد : ٩٩ وانظر المغرب ٢ : ٣٧٦ .

٢ ج ق ط : المشرق منها .

٣ القلائد : ١٠٠ والمغرب ٢ : ٣٧٧ .

٤ زيادة من القلائد .

٥ في الأصول : ودرها .

لو كنتَ تشهد يا هذا عَشِيَّتَنَا والمزنُ تسكُبُ أحياناً وتنحدرُ
والأرض مصفرة بالشمس^١ كاسية أبصرت تبرأ عليه الدُرُّ ينتثرُ

* * *

[١٧ - من ترجمة ابن رُحيم]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر ابن رُحيم ، ما صورته^٢ : ووصل
هو وابن وضاح^٣ صهر المرتضى ، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية ، إلى إحدى
جَنَاتٍ مُرْسِيَةٍ ، فجلوا منها في قبة فوق جدول مُطَرَّد ، وتحت أدواحٍ طيرُها
غَرَدٌ ، فأقاموا يتعاطون رحيقهم ، ويعمرون في الموانسة طريقهم ، إذا بالجنَّانِ
قد وقف عليهم وقال : كان بموضعكم بالأمس ضاحب الموضع ومعه شعور
منشورة ، وخلود غير مستورة ، قد رفعت عنها البراقع ، وما منها نظرة إلا^٤
ومعها سهم واقع ، فاستدعى فحماً وكتب في إحدى زوايا القبة :

قَادَنَا وَدُّنَا إِلَيْكَ فَجَعَلْنَا بنفوس تفديك من كل بوس
فَنَزَلْنَا مَنَازِلًا لِبَدْوَر وحلكنَا مطالعاً لشموس

* * *

[١٨ - من ترجمة ابن عبدون]

وقال في ترجمة الوزير الكاتب أبي محمد ابن عبدون ، ما صورته^٥ : حلت
بِإِبْرَةِ^٥ فَأَنْزَلَنِي وَإِلَيْهَا بِقَصْرِهَا ، وَمَكَّنَنِي مِنْ جَنِّي الْأَمَانِي وَهَضْرَهَا ، فَأَقَمْتُ

١ القلائد : بالمزن .

٢ القلائد : ١١٦ .

٣ في بعض أصول القلائد : وابن صمادح .

٤ القلائد : ١٤٥ .

٥ يابرة (Evora) مدينة من كورة باجة أي هي من البرتغال ، تقع على بعد ١١٧ كيلومتراً بالسكة
الحديدية من الأشبونة (لشبونة) ؛ وفي الأصول : حلت يابرة .

ليلي ، أجزُرُّ على المجرة ذيلي ، وتتطارد في ميدان السرور خيلي ، فلمّا كان
من الغد باكرني الوزير أبو محمد مسلماً ، ومن تنكّبي عنه متألماً ، ثم عطف
على القائد عاتباً عليه ، في كوني لديه ، ثم انصرف وقد أخذني من يديه ، فحللت
عنده في رجب ، وهَمَّتْ عليّ من البرّ أمطار سحب ، في مجلس كأن الدراري
فيه مصفوفة ، أو كأن الشمس إليه مزفوفة ، فلمّا حان انصرافي ، وكثر تطلّعي
إلى مآبي واستشرافي ، ركب معي إلى حديقة نضرة ، مجاورة للحضرة ، فأثنّا
عليها أيدي عيسينا ، ولنا منها ما شئنا من تأنيسنا ، فلمّا امتطيت عزمي ، وسدّدت
إلى غرض الرحلة سهمي ، أنشدني :

سلام يُنْجِي منه زَهْرُ الرُّبَى عَرَفُ فَلَا سَمْعَ إِلَّا وَدَّ لو أَنَّهُ أَنْفُ
حَنِينِي إلى تلك السَّجَايا فَإِنَّهَا لَأَثَارُ أَعْيَانِ الْمَسَاعِي التي أَقْفُو

ثم سرّد القصيدة إلى أن قال : وله رحمه الله تعالى ١ :

سَقَاها الْحَيَا مِنْ مَعَانِ فِصَاحٍ فَكَمْ لي بها من مَعَانِ فِصَاحٍ
وَحَلَّتْ أَكَالِيلَ تِلْكَ الرُّبَى وَوَشَّى معَاطِفَ تِلْكَ الْبِطَاحِ
فَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ عَهْدِي بها وَجَرَّتْ فيها ذِيولَ الْمِرَاحِ
وَنُومِي على حَبَرَاتِ الرِّيَاضِ يُجَاذِبُ بُرْدَيَّ مَرُّ الرِّيحِ
وَلَمْ أُعْطِ أَمْرَ النُّهْيِ طَاعَةً وَلَمْ أَصْغِ سَمْعاً إلى لَحْيِ لَاحٍ ٢
وَلَيْلٍ كَرَجَعَةٍ طَرَفِ الْمُرِيبِ لَمْ أَدْرِ لَهُ شَفَقاً مِنْ صَبَاحٍ

* * *

[١٩ - من ترجمة ابن مالك]

وقال في ترجمة الوزير أبي محمد ابن مالك بعد كلام له فيه وإنشاده بيتيه

١ القلائد : ١٤٦ والمغرب ١ : ٣٧٥ .

٢ لك : سمي إلى قول لاح .

البديعين اللذين هما :

لا تَلُمْنِي بِأَنْ طَرَبْتُ لَشَجْوٍ يَبْعَثُ الْإِنْسَ الْكَرِيمُ طَرُوبُ
لَيْسَ شَقُّ الْجُيُوبِ حَقًّا عَلَيْنَا إِنَّمَا الشَّانُ ١ أَنْ تُشَقَّ الْقُلُوبُ

ما صورته ٢ : وخرجتُ من إشبيلية مشيعاً لأحد زعماء المرابطين ، فألفيته معه مسائراً له في جملة من شيعه ، فلما انصرفنا مال بنا إلى مُعَرَّس أمير المسلمين أدام الله تعالى تأييده الذي ينزله عند حلوله إشبيلية ٣ ، وهو مَوْضِعُ مُسْتَبَدَع ، كأن الحسن فيه مُودَع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام ، وروض كما وشت البرد يدُ راقم ، وزهر يحسد المسك رِيَّاه ، ويتمنى الصبح أن يَسِمَ به مُحَيَّاه ، فقطف غلام وسيم من غلمانه ثَوْرَة ومد يده إليَّ وهي في كفه ، فعزم عليَّ أن أقول بيتاً في وصفه ، فقلت :

وَبَدْرٍ بَدَا وَالطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ وَفِي كَفِّهِ مِنْ رَائِقِ النَّوْرِ كَوُكَبُ

فقال أبو محمد :

يَرُوحُ لَتَعْدِيبِ النَّفُوسِ وَيَغْتَدِي وَيَطْلُعُ فِي أَفْقِ الْجَمَالِ وَيَغْرُبُ
وَيَحْسُدُ مِنْهُ الْغَصْنُ أَيَّ مُهْفَهَفٍ يَجِيءُ عَلَى مِثْلِ الْكُتَيْبِ وَيَذْهَبُ

* * *

[٢٠ - من ترجمة ابن السقاط]

وقال في ترجمة الوزير أبي القاسم ابن السقاط بعد كلام كثير ، ما صورته ٤ :
وحملنا الوزير القاضي أبو الحسن ابن أضحى إلى إحدى ضياعه بخارج غرناطة ،

١ القلائد : إنما الحق .

٢ القلائد : ١٧١ .

٣ لك : بإشبيلية .

٤ القلائد : ١٧٤ .

ومعنا الوزيرُ أبو محمد ابن مالك ، وجماعة من أعيان تلك الممالك ^١ ، فحللنا بضِيعَةً لم يَنْحَتِ المحلُّ أثْلها ، ولم ترمقِ العيونُ مِثْلها ، وجلُّنا بها في أكتاف ، جنَّاتِ ألفاف ، فما شئت من دَوْحَةٍ لَفَاء ، وغصن يَمِيس كعِطْفِي هَيْفَاء ، وماء ينساب في جداوله ، وزهر يُضَمَّخُ بالمسك راحةً متناوله ؛ ولما قضينا من تلك الحداثق أرباباً ، وافتضضنا منها أتراباً عُرْباً ، ملنا إلى مَوْضِعِ المَقِيلِ ، وزلنا عن منازِهِ تَزْرِي بمنازه جديمة مع مالك وعَقِيلِ ، وعند وصولنا بدا لي من أحد الأصحاب تقصيرٌ في المبرَّة ، عرض لي منه تكدير لتلك العين ^٢ الثرة ، فأظهرتُ التناقلَ أكثرَ ذلك اليوم ، ثم عدلتُ عنهم إلى الاضطجاع والنوم ، فما استيقظتُ إلا والسماء قد نُسِخَ صَحْوُها ، وغِيمَ جوِّها ، والغمام منهمل ، والثرى من سقياه ثمل ، فبَسَطَني بتحفيهِ ، وأبهجني ببرِّ له لم يزل يتممه ويوفيه ، وأنشدني :

يَوْمٌ تَجْهَمُ فِيهِ الْأَفْقُ وانتثرت مَدَامِيعُ الْغَيْثِ فِي خَدِّ الثَّرَى هَمَلًا
رَأَى وَجُومَكَ فَارْبَدَّتْ ^٣ طَلَاقَتُهُ مُضَاهِيًا لَكَ فِي الْأَخْلَاقِ مُمْتَنِلًا

* * *

[٢١ - من ترجمة ابن أضحى]

وقال في ترجمة الوزير القاضي أبي الحسن ابن أضحى ، ما نصّه ^٤ : وكان لصاحب البلد الذي كان يتولّى القضاء به ابنٌ من أحسن الناس صورة ، وكانت محاسن الأفعال والأقوال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لَسَنٍ ، وصوت حسن ، وعَقَاف ، واختلاط بالبهاء ^٥ والتفاف ، فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من

١ القلائد : المسالك .

٢ دوزي : العيون .

٣ ق ل ك ج ط : فارتدت .

٤ القلائد : ٢١٧ .

٥ دوزي : بالنبهاء .

حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر ، أحسن من شاذمهر^١ ، تشقها
جداول كالصلال ، ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال ، ومعنا جملة من
أعيانها ، فأحضرنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ، ما لا
يطلق ولا يحد ، ويقصر عن بعضه العد ، وفي أثناء مقامنا بدا لي من ذلك الفتى
المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام أحقده ، وملام اعتقده^٢ ، فلمّا كان من الغد
لقيت منه اجتنابه ، ولم أر منه ما عهدته من الإنابة ، فكتبت إليه مداعباً ،
فراجعي بهذه القطعة :

أَتَنِّي أَبَا نَصْرِ نَتِيجَةً خَاطِرٍ	سَرِيعٍ كَرَجَعِ الطَّرْفِ فِي الْخَطَرَاتِ
فَأَعْرِبْتَ عَنْ وَجْدٍ كَيْنِ طَوَيْتَهُ	بَأَهْيَفَ طَاوٍ فَاتِرِ اللَّحْظَاتِ
غَزَالِ أَحْمَ الْمُقْلَتَيْنِ عَرَفْتَهُ	بِخَفِيفٍ مَنَى لِلْحَسَنِ أَوْ عَرَفَاتِ
رَمَاكَ فَأَصْمَى وَالْقُلُوبُ رَمِيَّةٌ	لِكُلِّ كَحِيلِ الطَّرْفِ ذِي فَتَكَاتِ
وظَنَّ بِأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُحْصَبٌ	فَلَبَّاکَ مِنْ عَيْنَيْهِ بِالْجَمَرَاتِ
تَقَرَّبَ بِالنِّسَاكِ فِي كُلِّ مَنْسَكٍ	وَضَحَى غَدَاةَ النَّحْرِ بِالمُهْجَاتِ
وَكَانَتْ لَهُ جَيَّانٌ مَثْوًى فَأَصْبَحَتْ	ضُلُوعُكَ مَثْوَاهُ بِكُلِّ فَلَاحِ
يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَهِيَمَ فَتَنْطَوِي	كَثِيباً عَلَى الْأَشْجَانِ وَالزَّقَرَاتِ
فَلَوْ قُبِلَتْ لِلنَّاسِ فِي الْحَبِّ فِدْيَةٌ	فَدَيْنَاكَ بِالْأَمْوَالِ وَالْبَشَرَاتِ

* * *

[٢٢ - من ترجمة ابن خفاجة]

وقال في ترجمة أديب الأندلس وشاعرها أبي إسحاق ابن خفاجة بعد كلام ،
ما صورته^٣ : وقال يندب معاهد الشباب ، ويتفجع لوفاة الإخوان والأحباب ،

١ شاذمهر : موضع نزهة بني سبور .

٢ ك : بكلام اعتقده وملام أحقده .

٣ القلائد : ٢٣٦ والديوان : ١٧٧ .

بعقب سَيْلُ أعاد الديار آثاراً ، وقضى عليها وهياً وانتثاراً :

ألا عَرَسَ ^١ الإخوانُ في ساحة البلى	وما رَفَعُوا غَيْرَ القُبُورِ قِباباً
فَدَمَعُ ^٢ كما سَحَّ الغمامُ ولَوَعَةُ ^٣	كما أَضْرَمَتْ رِيحُ الشَّمالِ شِهَاباً
إذا اسْتَوْقَفْتَنِي في الدِّيارِ عَشِيَّةُ ^٤	تَلَدَّدْتُ ^٥ فِيهَا جَيْثَةً وَذَهَاباً
أَكْرُ ^٦ بِطَرْفِي في مَعَاهِدِ فِتْنَةٍ	تَكَلَّتْهُمْ ^٧ بَيْضُ الوجوهِ شَبَاباً
فَطَالَ وَقُوفِي بَيْنَ وَجَدٍ وَفُرْقَةٍ ^٨	أُنَادِي رُسُوماً لَا تُحِيرُ جَوَاباً
وَأَمْحُو جَمِيلَ الصَّبْرِ طَوْرًا بَعْبَرَةً	أَخْطُ ^٩ بِهَا فِي صَفْحَتِي كِتَاباً
وَقَدْ دَرَسْتُ أَجْسَامَهُمْ وَدِيَارَهُمْ	فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَعْظَمًا وَيَبَاباً
وَحَسَنِي شَجَوُا أَنْ أَرَى الدَّارَ بَلَقاً	خَلَاءَ وَأَشْلَاءَ الصَّدِيقِ ثُرَاباً

ولقد أحلّتي بهذه الديار المندوبة وهي كمهدّها في جَوْدَةٍ مَبْنَاهَا ، وعودة سنّاها ، في ليلة اكتملنا ظلامها لإثمداً ، ومَحَوْنَا بها من نفوسنا كَمَدّاً ، ولم يزل ذلك الأنس ييسطه ، والسرور ينشطه ، حتى نشر لي ما طَوَاه ، وبثّ مكتوم لوعته وجَوَاه ، وأعلمني بلياليه فيها مع أترابه ، وما قضى بها من أطرايه . انتهى ما وقع عليه اختياري من كلام أبي نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى في وصف بعض منترهات الأندلس البديعة ، ورياضها المونقة المريّة .

* * *

[٢٣ - من رسالة للفتح]

وما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهتأ بعض ملوك الأندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذي أيده الله به ونصره ، وقد جَوَّدَ أوصافه ، واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عَمَرَا الزهراء والرُصافة ، ونصّها :

١ ق ك ج ط : ألا عرض .

٢ ق ك ج ط : تلذذت .

٣ القلائد : وزفرة . دوزي : وحرقة .

أدام الله تعالى أيام الأمير للأرض^١ يتملكها ، ويستدير بسعده فلكها ،
وقد استبشر الملك أيدك الله وحق له الاستبشار ، فقد أوماً إليه السعد وأشار ،
بما اتفق له من توليتك ، وخفّق عليه من ألويتك ، فلقد حُبّي منك بملك أمضى
من السهم المسدّد ، طويل نجاد السيف رَحْب المقلّد ، يتقدّم حيث يتأخّر
الذابل ، ويتكرّم إذا بخل الوابل ، ويَحْمِي الحمى كربيعة بن مُكَدَّم^٢ ،
ويسقي الظبّا نجيعاً كلون العنّدم ، فهنيئاً للأندلس فقد استردت عهد خلفائها ،
واستجدّت رسوم تلك الإمامة بعد عقائنها ، فكأن لم تمت أعاصرها ، ولم يمت
حكّمها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرصافة والزهرا ، ونكحا عقائل الروم
وما بذلا غير المشرفيّة مهراً ، والله سبحانه أسأله إظهار أيامك ، وبه أرجو
انتشار أعلامك ، حتى يكون عصرُك أجمل من عصرهم ، ونصرُك أغرب من
نصرهم ، بمَنّة وكرمه ويمنه .

* * *

[٢٤ - من ترجمة ابن عطية]

وقال رحمه الله تعالى في ترجمة الفقيه القاضي الحافظ أبي محمد عبد الحق
ابن عطية صاحب التفسير الشهير ، بعد كلام كثير ، ما صورته^٣ : ومررنا في
إحدى نُرُزِنا بمكان مُقْفِرٍ ، وعن المحاسن مُسْفِرٍ ، وفيه بكير نرجس كأنه
عيون مِرَاضٍ ، يسيل وسطه ماء رَضْرَاضٍ ، بحيث لا حس إلا للهام ، ولا أنس
إلا ما يتعرض للأوهام ، فقال :

نرجس " باكرتُ منه رَوْضَةً " لَدَّ قطع الدَّهر فيها وعدُبُ
حَثَّ الرِّيحُ بها خَمَرَ حَيًّا رَقَصَ الثَّبْتُ لها ثمَّ شَرِبَ

١ بعض النسخ : للأزمن .

٢ ق : ربيعة بن المكدم .

٣ القلائد : ٢١١ .

فَعَدَا يُسْفِرُ عَنْ وَجْنَتِهِ نَوْرُهُ الْغَضُّ وَيَهْتَزُّ طَرْبُ
خَلَّتْ لَمَعَ الشَّمْسِ فِي مَشْرِقِهِ لَهَا يَجْمَدُ مِنْهُ فِي لَهَبِ
وَبَيَاضِ الطَّلِّ فِي صُفْرَتِهِ نَقَطَ الْفَضَّةِ فِي خَطِّ الذَّهَبِ

انتهى ..

وسياتي إن شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الأندلس ومنترهاها ، وما اشتملت عليه من المحاسن ، في كلام غير واحد ممن يجري ذكره في هذا الكتاب ، وخصوصاً أديب زمانه غير مدافع ، من اعترف له أهل الشرق ، بالسبق ، وأهل المغرب ، بالإبداع المغرب ، النور أبو الحسن علي بن سعيد العنسي ، فإنه لما دخل مصر اشتاق^١ إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة ، ووصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة ، وقد أسلفنا أيضاً فيما مر من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الأندلس ، فليراجع في محله من هذا الكتاب . قلت : وماذا عسى أن نذكر من محاسن قرطبة والزاهرة والزهراء ، أو نصف من محاسن الأندلس التي تبصر بكل موضع منها ظلاً ضافياً ونهراً وزهراً ، ويرحم الله تعالى أديبها المشهور ، الذي اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور ، أبا إسحاق ابن خفاجة ، إذ قال^٢ :

يا أهلَ أندلسٍ لله دَرُكُمْ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيَّرتُ هذا كُنْتُ أختارُ
لا تحسبوا في غدٍ^٣ أن تدخلوا سقراً فليس تدخلُ بعدَ الجنةِ النارُ

ويروى مكان قوله :

ولو تخيَّرتُ هذا كُنْتُ أختارُ

١ ك : لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق ... إلخ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

٣ ك : لا تختشوا بعد ذا .

ما مثاله :

وهذه كنتُ لو خيِّرتُ أختارُ

وكذا رأيت بخط الحافظ التَّنَسِّي ، والأول رأيته بخط العلامة الوائشِريشي ،
رحمهما الله تعالى .

وحكي أن الخليلي^١ لما قدم من الأندلس رسولا إلى سلطان المغرب أبي
عنان فارس ابن السلطان أبي الحسن المريني أنشد بحضرة السلطان المذكور
أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس ، فقال السلطان أبو عنان :
كذب هذا الشاعر — يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد ، وأنه لو خير لاختارها
على ما في الآخرة — وهذا خروج من رِبْقَةِ الدين ، ولا أقلّ من الكذب والإغراق ،
وإن جرت عادة الشعراء بذلك الإطلاق ، فقال الخليلي : يا مولانا ، بل صدق
الشاعر ، لأنها موطن جهاد ، ومُقارعة للعدوِّ وجِلاد ، والنبي صلى الله عليه
وسلّم الرؤوف الودود الرحيم العطوف^٢ ، يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » ،
فاستحسن منه هذا الكلام ، ورفع عن قائل الأبيات الملام ، وأجزل صِلته ،
ورفع منزلته . ولعمري إن هذا الجواب ، بلدير بالصواب ، وهكذا ينبغي أن
تكون رسلُ الملوك في الافتنان ، رُوح الله تعالى أرواح الجميع في الجنان .

* * *

[قصائد لابن خفاجة]

وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحدَ الناس في وصف الأنهار والأزهار
والرياض والحياض والرياحين والبساتين ، وقد سبق بعضُ كلامه ، ويأتي
أيضاً منه بعضُ أثناء الكتاب ، ومن ذلك قوله^٢ :

١ هكذا في ك ؛ وفي ق : الرحيم الرؤوف يقول ...

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٦ .

وَكِمَامَةٌ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا
 فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثُغُورُ أَقَاحِهِ
 نَثَرَتْ بِحِجْرِ الْأَرْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا
 وَقَدَّارْتَدَى غُصْنُ النَّقَا، وَتَقَلَّدَتْ
 فَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةُ ضَا حَكْ
 وَالرِّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةً لَمْ الرُّبَى
 مُتَقَسِّمِ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ
 وَأَرَاكَةِ سَجَعِ الْهَدِيلِ بِفَرْعِهَا
 هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَبَّمَا
 وَقوله ١ :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسَرَحَةٍ
 سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْشِي
 يَلَهُو فُتْرَفُ الشَّيْبَةِ رَايَةً
 وَالرُّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ، وَالظَّلُّ فَر
 فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً
 وَاهْتَرَّ عِطْفُ الْغُصْنِ مِنْ طَرَبِ بِنَا
 فَكَأَنَّهُ وَالْحُسْنُ مُقْتَرِنٌ بِهِ
 فِي فَتِيَّةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدَعُ الدُّجَى
 كَرُمُوا فَلَاحِثُ السَّمَاحَةِ خَلْفُ
 مِنْ كُلِّ أَزْهَرٍ لِلنَّعِيمِ بَوَجْهِهِ
 رَيَّا تُلَاعِبُهَا الرِّيحُ فَتُلْعَبُ
 طَرَبًا وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
 فِيهِ ، وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوُكَبُ
 عٌ أَسْوَدُ ، وَالْمَاءُ ثَغْرُ أَشْنَبُ
 فَشَدَا يُغْنِيْنَا الْحَمَامُ الْمُطْرَبُ
 وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَلَالِ الْمَغْرِبُ
 طَوَّقُ عَلَى بُرْدِ الْغَمَامَةِ مُذْهَبُ
 عَنْهَا ، وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيُخَضَّبُ
 يَوْمًا ، وَلَا بَرَقُ اللَّطَافَةِ خَلْبُ
 مَاءٍ يُرَقِّقُهُ الشَّبَابُ فَيَسْكَبُ

وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم ٢ :

١ ديوانه : ٢٨٩ ؛ وفي ق : وقال .
 ٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٣ وأبو يحيى هو أبو بكر بن إبراهيم المعروف بابن تيفلويت . (- ٥١٠) =

سَمَحَ الْخِيَالُ عَلَى النَّوَى بِمَزَارِ
 فَرَقَعْتُ مِنْ نَارِي لَضِيفِ طَارِقِ
 رَكِبَ الدُّجَى أَحْسَنَ بِهِ مِنْ مَرْكَبِ
 وَأَنَاخَ حَيْثُ دَمُوعُ عَيْنِي مَسْهَلِ
 وَسَقَى فَأَرَوَى غُلَّةَ مِثْنِ نَاهِلِ
 يَكْوِي الضَّلُوعَ مِنَ الْوُلُوعِ لِحَظَرَةِ
 وَاللَّيْلُ قَدْ نَضَحَ النَّدى سِرْبَالَهُ
 مُتَرَقَّبٌ رَسُلَ الرِّيحِ عَشِيَّةً
 وَمَجَرَّ ذَيْلَ غَمَامَةٍ لَبِستُ بِهِ
 خَفَقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبُ
 وَلَوَى الْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيداً أَتْلَعَا
 بَاكَرْتُهُ وَالْغَيْمُ قِطْعَةً عَثِرَ
 وَالرِّيحُ تَلَطَّطُ فِيهِ أُرْدَافَ الرَّبَى
 وَمَتَابِرُ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا
 فِي فِتْيَةٍ جَنَّبُوا الْعَجَاجَةَ لَيْلَةً
 ثَارَ الْقِتَامُ بِهِمْ دُخَاناً وَارْتَمَى
 شَاهَدَتْ مِنْ هَيْئَاتِهِمْ وَهَبَاتِهِمْ
 مِنْ كُلِّ مُنْتَقِبٍ بَوْرْدَةٌ خَجَلَةٌ
 فِي عِمَةٍ خُلِعَتْ عَلَيْهِ لِلْمَةِ
 ضَافِي رِداءِ الْمَجْدِ طَمَاحُ الْعُلَا

والصَّبْحُ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ
 يَعْشَوُ إِلَيْهَا مِنْ خِيَالِ طَارِي
 وَطَوَى السُّرَى أَحْسَنَ بِهِ مِنْ سَارِي
 يُرَوِي، وَحَيْثُ حَشَايَ مَوْقَدُ نَارِ
 أَوْرَى بِجَانِحَتَيْهِ زَنْدَ أَوَارِ
 مِنْ شَيْمٍ بَرَقَ أَوْ شَمِيمٍ عَرَّارِ
 فَانْهَلَ دَمْعُ الطَّلِّ فَوْقَ صِدَارِ
 بِمَسَاقِطِ الْأَنْوَاءِ وَالْأَنْوَارِ
 وَشَيَّ الْحَبَابِ مَعَاطِفُ الْأَنْهَارِ
 وَارْتَجَّ رِدْفًا مَائِجُ التِّيَّارِ
 قَدْ قَبِلْتَهُ مَبَاسِمُ النُّوَارِ
 مَشْبُوبَةً وَالْبَرْقُ لَفْحَةٌ نَارِ
 لَعِبَا وَتَلَّيْمُ أَوْجُهُ الْأَزْهَارِ
 خُطْبَاءُ مُفْصِحَةٍ مِنَ الْأَطْيَارِ
 وَلَرَبَّمَا سَفَرُوا عَنْ الْأَقْمَارِ
 زَنْدُ الْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ بِشَرَارِ
 إِشْرَافَ أَطْوَادِ وَفَيْضِ بَحَارِ
 كَرَمًا وَمُشْتَمَلِ بَشُوبِ وَقَارِ
 وَذُؤَابَةِ قُرْنَتِهَا لِعِذَارِ
 طَامِي عُبَابِ الْجُودِ رَحْبِ الدَّارِ

= أحد أمراء المرابطين ، وكان والياً مدة على مرسطة وهو مدوح الفيلسوف ابن باجة . والشاعر يسأله في هذه القصيدة أن يشكر القائد الأعلى أبا عبد الله ابن عائشة لبرّ لحق ابن خفاجة من جهته .

١ الناهل : الظمان .

٢ ق ك : مائل .

جَرَّارِ أَذْيَالِ الْمَعَالِي وَالْقَنَا
طَرْدَ الْقَنْيَصِ بِكُلِّ قَيْدٍ طَرِيدَةٍ
مُتَلَفَّةٍ أَعْطَافُهُ بِحَبِيرَةٍ
يُزْمِي بِهِ الْأَمْلُ الْقَصِيَّ فَيَنْشِي
وَبِكُلِّ نَائِي الشَّوْطِ أَشْدَقِ أَخْزَرِ
يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ النَّصَالِ ٢، وَإِنَّمَا
مُسْتَقْرِيًّا أَثَرَ الْقَنْيَصِ عَلَى الصَّفَا
مِنْ كُلِّ مُسَوَّدَةٍ تَلْهَبُ طَرْفَهُ
وَمُورَّسِ السَّرْبَالِ يُخْلَعُ قَدُهُ
يَسْتَنُّ فِي سَطْرِ الطَّرِيقِ وَقَدْ عَفَا
عَطَفَ الضَّمُورُ سَرَاتَهُ فَكَأَنَّهُ
وَلَرْبَ رَوَّاعٍ هُنَالِكَ أَنْبِطُ
يَجْرِي عَلَى حَذَرٍ فَيَجْمَعُ بِسَطِّهِ
مِمْتَدَّ حَبْلُ الشَّوْءِ يَعْسِلُ رَائِغًا
مُتَرَدِّدٍ يَرْمِي بِهِ خَوْفُ الرَّدَى
وَلَرْبَ طَيَّارٍ خَفِيفٍ قَدْ جَرَى
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةِ الْخُطَا مَخَالَةً
مَخْضُوبَةً الْمِنْقَارِ تَحْسَبُ أَنَّهَا
وَلَوْ اسْتَجَارَتْ مِنْهُمَا بِحِمَى أَبِي
خَدَمَ الْقَضَاءِ مُرَادَهُ فَكَأَنَّمَا
وَعَنَا الزَّمَانُ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا
وَجَلَا الْإِمَارَةُ فِي رَفِيفِ نَضَارَةٍ

حَامِي الْحَقِيقَةِ وَالْحِمَى وَالْجَارِ
زَجَلِ الْجَنَاحِ مُورَّدِ الْأُظْفَارِ
مَكْحُولَةٍ أَجْفَانُهُ بُنْضَارِ
مَخْضُوبِ رَأْيِ الظُّفْرِ وَالْمِنْقَارِ
طَاوِي الْحِشَا حَالِي الْمَقْلَدِ ضَارِي
يَمْشِي عَلَى مِثْلِ الْقَنَا الْخَطَّارِ
وَاللَّيْلِ مُشْتَمِلٍ بِشِمْلَةٍ قَارِ
تَرْمِيكَ فَحِمَّتُهُ بِشُعْلَةٍ نَارِ
عَنْ نَجْمٍ رَجَمَ فِي سَمَاءِ غُبَارِ
قَدَمًا فَتَقْرَأُ أَحْرُفَ الْآثَارِ
وَالنَّقْعُ يَحْجُبُهُ هَلَالُ سِرَّارِ
ذَلِكِ الْمَسَامِعِ أَطْلَسِ الْأَطْمَارِ
يَهْوِي فَيَنْعُطُفُ انْعِطَافِ سِوَارِ
فِيكَادُ يُقْلِبُ أَيْدِي الْأَقْدَارِ
كَرَّةَ تَهَادَّتْهَا أَكْفُ قِفَارِ
فَشِلًّا بِجَارٍ خَلْفَهُ طَيَّارِ
مَشْيِ الْفَتَاةِ تَجُرُّ فَضْلَ إِزَارِ
كَرَعَتْ عَلَى ظِلِّهَا بِكَأْسِ عُقَارِ
يَحْيَى لِأَمْنِهَا أَعَزُّ جَوَارِ
مَلَكَتْ يَدَاهُ أَعْنَتَ الْأَقْدَارِ
أَصْغَى الزَّمَانُ بِهِ إِلَى أَمَارِ
جَلَّتِ الدُّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ

١ ك : دره ؛ والمعنى أن ظفره ومتقاربه موجان كحرف « الراء » .

٢ ق : النضار .

فِي حَيْثُ وَشَحَ لَبَّةٌ بِقِلَادَةٍ
جَذْلَانِ يَمْلَأُ مِئْخَةً وَبِشَاشَةٍ
أَرَجَ النَّدَى بِذَكَرِهِ فَكَأَنَّهُ
بَطَلَ حَوَى الْفَلَكَ الْمَحِيطَ بِسَرَجِهِ
بِإِمْنِهِ يَوْمَ الْوَعَى وَشِمَالِهِ
وَالسَّمَرُ حُمْرًا، وَالْجِيَادُ عَوَابِسُ
وَالْحَيْلُ تَعَثُّرُ فِي شَبَاشُوكِ الْقَنَا
وَالْبَيْضُ تَحْتَى فِي الطَّلَى فَكَأَنَّمَا
وَالنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَا شَمْسِ الضُّحَى
صَحَبَ الْحَسَامُ النَّصْرُ صُحْبَةَ غِبْطَةٍ
لَوْ أَنَّهُ أَوْمَى إِلَيْهِ بِنَظَرَةٍ
وَمَضَى وَقَدْ مَلَكَتْهُ هِزَّةٌ عِزَّةٍ

وقال رحمه الله تعالى ٢ :

مِنْهَا وَحَلَّى مِعْصَمًا بِسِوَارِ
أَيْدِي الْعَفَاةِ وَأَعْيُنَ الزُّوَارِ
مَتَنَفَّسٌ عَنْ رَوْضَةِ مِعْطَارِ
وَاسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ الْمِقْدَارِ
مَا شَاءَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ إِعْصَارِ
وَالْجَوْ كَاسٍ، وَالسُّيُوفُ عَوَارِي
قِصْدًا وَتَسْبِيحٌ فِي الدَّمِ الْمَوَارِ
تَلْوَى عُرَى مِنْهَا عَلَى أَرْزَارِ
فَكَأَنَّهُ صَدَأٌ عَلَى دِينَارِ
فِي كَفِّ صَوَالٍ بِهِ سَوَارِ
يَوْمًا لَثَارَ وَلَمْ يَنْمَ عَنْ نَارِ
تَحْتَ الْعِجَاجِ وَضَحْكَةِ اسْتِثْبَارِ

وَأَرَاكَةَ ضَرَبَتْ سَمَاءَ فَوْقَنَا
حَقَّتْ بِيَدِ وَحْتِهَا مَجْرَةٌ جَدُولِ
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا
زَفَّ الزَّجَاجُ بِهَا عُرُوسَ مُدَامَةٍ
فِي رَوْضَةِ جَنَحِ الدَّجَى ظِلٌّ بِهَا
غَنَاءٌ يَنْشُرُ وَشَبَّهِ الْبَرَّازُ لِي
قَامَ الْغِنَاءُ ٣ بِهَا وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى

١ ق : والشمس خمر .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٥١ .

٣ ج ط : النبار .

٤ ج : الدجى .

والماء في حللي الحباب مُقَلَّدَ زَرَّتْ عَلَيْهِ جِوْبُهَا الْأَشْجَارُ

وقال ملترماً ما لا يلزم^١ :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَإِنِّهَا لَنَضِيرَةُ حَمَلْتُ وَحَسْبُكَ بِهِجَةٌ مِنْ نَفْحَةٍ^٢
مِنْ كُلِّ وَارِسَةٍ الْقَمِيصِ كَأَنَّمَا نَجْمَتْ تَرُوقُ بِهَا نَجُومًا حَسْبُهَا^٣
وَأَتَتْكَ تَسْفِرُ عَنْ وَجْهِهِ طَلْقَةً يَتَنَدَّى بِهَا وَجْهُ النَّدَى وَلَرُبَّمَا
فَاسْتَضْحَكَتْ وَجْهَ الدَّجَى مَقْطُوعَةً

وقال أيضاً^٥ :

وَصَدْرٌ نَادٍ نَظَمْنَا فِي مَتَرٍ قَدْ سَحَبْنَا
لَهُ الْقَوَافِي عَقْدًا تَذْكُرُ بِهِ الشَّهْبُ جَمْرًا
بِظَلِّهِ الْعِزُّ بُرْدًا وَقَدْ تَأَرَّجَ نَوْرٌ
وَيَعْبِقُ اللَّيْلُ نَدَاً كَمَا تَنْفَسُ ثَغْرٌ
غَضٌّ يُخَالِطُ وَرْدًا عَذْبٌ يَقْبَلُ خَدًّا

وقال من قصيدة يصف منترماً^٦ :

١ ديوانه : ٧١ .

٢ ق ط ج : نفحة في بهجة .

٣ ق : نجوم حسنها .

٤ ك : هنالك أوجه .

٥ ديوان ابن خفاجة : ٨٠ .

٦ ديوانه : ٣٣٧ .

يا رَبُّ وضح الجبين كأنما
تُغْرَى بطلعته العيون مهابة
خلعت عليه من الصبح غلالة
فكرعت من ماء الصبا في منهل
في حيث للريح الرخاء تنفّس
ولرب غصّ الجسم مدّ بجوضه
ولقد أنخت بشاطئيه يهزني
وبكيت دجلته يضاحكني بها
تجلى من الدنيا عروس بيننا
ثم ارتحلت وللنهار ذؤابة
تلوي معاطفي الصباية والصبا

وقال ٦ :

مرّ بنا وهو بدر تم
بقامة تنثني قضيباً
يقراً والليل مدّ لهم
وربّ ليل سهرت فيه
حتى إذا الليل مال سكرأ
يسحب من ذيله سحاباً
وغرة تلظي شهاباً
لنور إجلاله كتاباً
أزجر من جنحه غراباً
وشقّ سرباله وجاباً

١ ق ك ج ط : السماء .

٢ بعد هذا البيت في الديوان « ومنها » اعتماداً على الذخيرة .

٣ الديوان : م ريخوضه ؛ ج : مرّ .

٤ الديوان : وعبرت . ج : وبكت وحلته .

٥ ق ك ج ط : والنهار .

٦ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٨ وهي في الذخيرة أيضاً ، وفي الروايتين اختلافات .

٧ ق ك ج ط : نكاباً .

وحام من سُدْفَةٍ غُرَابٌ
ازْدَدْتُ مِنْ لَوْعَتِي خَبَالاً
وما خَطَا قَادِماً فَوافِي
وَبَيْنَ جَفَّتِي بَحْرُ شَوْقٍ
قد شَبَّ فِي وَجْهِهِ شُعَاع
ورَوْضَةٍ طَلْقَةٍ حَيَاءٍ
يَنْجَابُ عَنْ نُورِهَا كَامٌ
بَاتَ بِهَا مَبْسُومُ الْأَقَاخِي
وَمِنْ خُفُوقِ الْبُرُوقِ فِيهَا
كَأَنَّهَا أُنْمَلُ وِرَادٌ
طَالَتْ بِهِ سُنَّةُ^١ فِشَابَا
فَحَثَّ مِنْ غُلَّتِي شَرَابَا
حَتَّى انشَى نَاكِصاً قَابَا
يَعْبُ فِي وَجْنَتِي عُبَابَا
وَشَبَّ عَنْ قَلْبِي التَّهَابَا
غَنَاءَ مُخَضَّرَةٍ جَنَابَا
يَحُطُّ عَنْ وَجْهِهِ نِقَابَا
يُرْشَفُ مِنْ طَلَّهَا رُضَابَا
أَلْوِيَّةٌ حُمِرَتْ خِضَابَا
تَحْصِرُ قَطَرَةَ الْحَيَا حِسَابَا

وله أيضاً^٢ :

رَحَلْتُ عَنْكُمْ وَلِي فَوَادٌ
أَجُودُ فَيَكُم بَعْلَقُ دَمْعٍ
يَشُورُ فِي وَجْنَتِي جِيْشاً
كَأَنِّي بَعْدَكُمْ شِمَالٌ
تُنْقِضُ أَضْلَاعُهُ حَنِينَا
كُنْتُ بِهِ قَبْلَكُمْ ضَنِينَا
وَكَانَ فِي جَفْنِهِ كَمِينَا
قَدْ فَارَقْتُ مِنْكُمْ يَمِينَا

وقال^٣ :

فِيَا لَشَجَا صَدْرُ^٤ مِنَ الصَّبْرِ فَارِغٍ
وَنَفْسٍ إِلَى جَوِّ الْكَنِيسَةِ صَبَّةٍ
وَيَا لَقَذَى طَرْفٍ مِنَ الدَّمْعِ مَلَانٍ
وَقَلْبٍ إِلَى أَفْقِ الْجَزِيرَةِ حَنَانٍ

١ ق : مدة .

٢ ديوانه : ٣٤٠ والذخيرة ؛ ولفظة أيضاً سقطت من ك ج ط .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٥ والذخيرة .

٤ ك : قلب .

تَعَوَّضْتُ مِنْ وَاهَاً بَاهٍ وَمِنْ هَوَاً
وَمَا كُلُّ بَيْضَاءٍ تَرُوقُ بِشَحْمَةٍ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِدَهْرِي عَطْفَةٌ
مِيَادِينَ أَوْطَارِي وَلَذَّةٌ لَدَاتِي
كَأَنْ لَمْ يَصِلْنِي فِيهِ ظَبْيٌ يَقُومُ لِي
فَسَقِيًّا لَوَادِيهِمْ وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا
فَكَمْ يَوْمٍ لَهْوٍ قَدْ أَدْرَنَّا بِأَفْقِهِ
وَالْقُضْبِ وَالْأَطْيَارِ مَلَكُهُ بِجَزَعِهِ^١
وَبِالْحَضْرَةِ الْغَرَاءِ غَيْرُ^٢ عِلْفَتِهِ
رَقِيقُ الْحَوَاشِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهِ
أَغَارَ لَحْدَيْهِ عَلَى الْوَرْدِ كُلَّمَا
وَهَبْتِي أَجْتِي وَرَدَّ خَلْدَ بِنَازِرِي
يُعَلِّلَنِي مِنْهُ بِمَوْعِدِ رَشْفَةٍ
حَبِيبَ عَلَيْهِ لِحَّةٌ مِنْ صَوَارِمِ
تَرَايَ لَنَا فِي مِثْلِ صُورَةِ يَوْسُفَ
طَوَى بُرْدُهُ مِنْهَا صَحِيفَةُ فِتْنَةٍ
مَحَبَّتُهُ دِينِي وَمَشْوَاهُ كَعْبَتِي

وَقَالَ أَيْضاً رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ٣ :

بِهُونٍ وَمِنْ إِخْوَانٍ صَدَقَ بِخَوَّانٍ
وَمَا كُلُّ مَرَعَى تَرْتَعِيهِ بِسَعْدَانٍ
فَتُجْمَعُ أَوْطَارِي عَلَيَّ وَأَوْطَانِي
وَمَنْشَأُ تَهْنِئَتِي وَمَلْعَبُ غِزْلَانِي
لَمَّا وَصُدَّ غَايَ بَرَا حِي وَرِيحَانِي
أَبَيْتُ لِدُكْرَاهِ بَغْلَةً ظَمَّانٍ
نَجُومَ كُؤُوسٍ بَيْنَ أَقْمَارِ نَدْمَانٍ
فَمَا شِئْتُ مِنْ رَقْصٍ عَلَى رَجْعِ الْخَانِ
فَأَحْبَبْتُ حُبًّا فِيهِ قُضْبَانُ نَعْمَانٍ
وَمَنْطِقِهِ مَسَلَى قُلُوبٍ وَأَذَانٍ
بَدَا وَلَعِطْفَتِهِ عَلَى غُصْنِ الْبَانِ
فَمَنْ أَيْنَ لِي مِنْهُ بِتَفْخَاحِ لُبْنَانٍ
خِيَالٌ لَهُ يُغْزِي بِمِطْلٍ وَلِيَّانٍ
عَلَاهَا حَبَابٌ مِنْ أَسِنَّةِ مُرَّانٍ
تَرَايَ لَنَا فِي مِثْلِ مُلْكِ سُلَيْمَانَ
قَرَأْنَا لَهَا مِنْ وَجْهِهِ سَطْرَ عُنْوَانٍ
وَرُؤْيَتُهُ حَجَّتِي وَذِكْرَاهُ قَرَأَتِي

حَدِيثٌ كَمَا هَبَّ النِّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ
وَأَطْيَبُ مِنْهَا مَا نَعِيدُ وَمَا نُبْدِي

وَلَيْلٍ تَعَاطَيْنَا الْمَدَامَ وَبَيْنَنَا
نُعَاوِدُهُ وَالْكَاسُ يَبْقَى نَقْحُهُ^٤

١ في بعض النسخ : بأفقه .

٢ ق : الفراء غن .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٨ .

٤ الديوان : تميق مسكة .

وَنَقَلِي أَفَاحُ الثَّغْرِ أَوْ سَوَّسَنُ الطَّلِي
إِلَى أَنْ سَرَتْ فِي جِسْمِهِ الْكَاسُ وَالْكَرَى
فَأَقْبَلْتُ أَسْتَهْدِي لِمَا بَيْنَ أَضْلُعِي
وَعَايَنْتُهُ قَدْ سُلَّ مِنْ وَشْيٍ بُرْدِهِ
لِيَانِ مَجَسَّ وَاسْتِقَامَةِ قَامَةٍ
أَغَاظِلُ مِنْهُ الْغَضْنَ فِي مَغْرَسِ النِّقَا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْهَا أَوْ تَكُنْهُ فَإِنَّهُ
تَسَافَرُ كُلُّنَا رَاحَتِي بِجِسْمِهِ
فَتَهَيِّطُ مِنْ كَشْحَيْنِهِ كَفَّ^٢ تَهَامَةٍ

وقال أيضاً^٣ :

ورداء لَيْلِ بَاتَ فِيهِ مُعَانِقِي
فَجَمَعْتُ بَيْنَ رُضَابِهِ وَشِرَابِهِ
وَلَثِمْتُ فِي ظِلْمَاءِ لَيْلَةٍ وَفَرِهِ
وَاللَّيْلِ مُشْمَطُ الذَّوَابِ كِبَرِهِ
ثُمَّ انْتَنَى وَالصَّبْحُ يَسْحَبُ فِرْعَهُ
تَنْدَى بَفِيهِ أَفْحَوَانُهُ أَجْرَعُ
وَتَمِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رِيحَانَةٌ
نَفَّاحَةٌ الْأَنْفَاسِ إِلَّا أَنَّهَا

طيفُ أَلَمٍ لَظِيئَةٍ الْوَعْشَاءِ
وَشَرِبْتُ مِنْ رَيْقٍ وَمِنْ صَهْبَاءِ
شَقَقْنَا هُنَاكَ لَوِجَنَةَ حِمْرَاءِ
خَرَفَ يَدْبُ عَلَى عَصَا الْجَوْزَاءِ
وَيَجُرُّ مِنْ طَرَبٍ فَضُولَ رَدَاءِ
قَدْ غَاظَلَتْهَا الشَّمْسُ غَبَّ سَمَاءِ
كَرَعَتْ عَلَى ظِلْمٍ بِجَدُولِ مَاءِ
حَدَرَ النَّدَى خَفَاقَةَ الْأَفْيَاءِ

١ هذه رواية الذخيرة والديوان ، وفي ق ك ج ط : الضلوع .

٢ ق ك ج ط : كفي .

٣ ديوان ابن خفاجة : ١٥٣ .

٤ في ق ك ط : بطيبة . ج : بطيبة الوعشاء .

٥ ق ج ط : الذوابة .

فلوئتُ مِعْطَقَهَا اعتناقاً حَسْبُنَا^١ فيه بقطر الدَّمع من أنواء

* * *

[قصيدتان لابن سعيد]

وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى كثيراً ما ينتاب وادي الطلح مع
رُمَيْكِيته ، وأولي أنسه ومسرته ، وهو وادٍ بشرفٍ إشبيلية مُلْتَفٍ الأشجار ،
كثير ترنم الأطيّار ، وفيه يقول نور الدين ابن سعيد :

سائل بوادي الطلح ريح الصبا	هل سُخِّرَتْ لي من زمان الصبا
كانت رسولاً فيه ما بَيْنَنَا	لَنْ نَأْمَنَ الرُّسُلَ وَلَنْ نَكْتَبَا
يا قَاتِلَ الله أناساً إذا	ما اسْتُؤْمِنُوا خَانُوا فَمَا أَعْجَبَا
هَلَا رَعَوْا أَنَا وَثِقْنَا بِهِمْ	وما اتَّخَذْنَا عَنْهُمْ مَذْهَبَا
يا قَاتِلَ الله الذي لم يَتَّبِ	من غدرهم من بعد ما جَرَّبَا
واليمُّ لا يَعْرِفُ ما طَعَّمَهُ	إِلَّا الذي وافى لأن يَشْرَبَا
دعني من ذكر الوُشاة الألى	لَمَّا يَزَلْ فكري بهم مُلْهَبَا
واذكر بوادي الطلح عهداً لنا	لله ما أحلى وما أطْيَبَا
بجانب العطف وقد مالت الـ	أَغْصَانُ والزهرُ يَبُثُّ الصَّبَا
والطيرُ مازت بين ألحانها	وليس إلا مُعْجِباً مُطْرِبَا
وخاني من لا أَسْمِيهِ مِنْ	شَحْ أخافُ الدهر أن يسلبَا
قد أترع الكأسَ وحيّا بها	وقلتُ أهلاً بالمتى مَرْحَبَا
أهلاً وسهلاً بالذي شَتَّه	يا بدرَ تِمِّ مُهْدِيَا كوكبَا
لكنني آليتُ أَسْفَى بها	أو تُودِعَنيها فغرك الأَشْنَبَا
فمَجَّ لي في الكأس من ثغره	ما حَبَّبَ الشرب وما طَيَّبَا

١ الديوان : حسبها .

٢ دوزي : في زمان .

وقال ها لثمي نَقْلًا ولا
 واقطف بخدي الورد والآس^١ والـ
 أسعفته غصناً غداً مُثْمِراً
 قد كنتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ
 ولم أصُنْ عِرْضِي في حبه
 حتى إذا ما قال لي حاسدٌ
 أرسلتُ من شعري سحرًا له
 وقال عرقه بآتي سآخُ
 فزاد في شوقي له وعده
 أمدُّ طرفي ثم أثنيه من
 أصدق الوعد وطوراً أرى
 أتى ومن سخره بعدما
 قبلتُ في الترب ولم أستطيع
 هنأتُ ربي إذ غدا هالةً
 بالله ملٍ مُعْتَنِقاً لائماً
 فقال ما ترغبُ قلتُ اتئد
 فقال لا مذهب^٢ عن ذكر ما
 وكان ما كان فوالله ما
 تشمّ إلا عرْفِي الأطيبا^٣
 نسرين لا تحفيل بزهـ الرُّبى
 ومن جنّاه ميسه قربا
 حتى تبدّى فحللتُ الحبا
 ولم أطع فيه الذي أنبا
 ترجوه والكوكب أن يغربا
 ييسرُ المرغَبَ والمطلبا
 تالُ فما أجنب المكثبا
 ولم أزل مُقْتَعِداً^٤ مَرَقِبا
 خوف أخى التنغيص أن يرقبا
 تكذيبه والحرُّ لن يكذبا
 أياسُ بطء كاد أن يُغضببا
 من حصّر اللّقا سوى مَرَحِبا
 وقلت يا من لم يَضِعْ أشعبا
 فمال كالغُصْنِ ثننته الصِّبا
 أدركتُ إذ كلمتني المَرغِبا^٥
 ترغبه قلتُ إذن مركبا
 ذكرته دهري أو أغلبا

١ بعض النسخ : الطيبا .

٢ بعض النسخ : الآس والورد .

٣ ق ك ج ط : معتقداً .

٤ ق ج ط : آيس .

٥ في نسخة : المأربا .

٦ ق ك : مرغب .

وستأتي هذه القصيدة بكمالها^١ في جملة من نظم ابن سعيد المذكور^٢.
وقال يتشوق إلى إشبيلية ، وهي حمص الأندلس :

أنَّ الخليجُ وغنت الورقاء	هل برّحاً إذ هاجت البرحاء
أنا منكما أولى بحلية عاشقٍ	أفتى وما نمت بي الصعداء
أخشى الوشاة فما أفوه بلفظةٍ	والكم عند العاشقين عناء
لولا تشوقُ أرضِ حمصٍ ما جرى	دمعي ولا شمنت بي الأعداء
لم أستطعُ كماً له فكأنني	ما كان لي كنم ولا إخفاء
والبلدُ مهما رام كماً من سرى	فيه ينم على سراه ضياء
بلدٌ متى يخطر له ذكرٌ هفا	قلبي وخان تصبرٌ وعزاء
من بعده ما الصبح يشرق نوره	عندي ، ولا تبدل الظلماء
كم لي به من ذي وفاء لم يخن	عهدي ، ويسمو بالوداد وفاء
فتراه إما مرّ ذكرى سائلاً ^٣	عنّ حالتي إن قلت الأبناء
يُسمي ويُصبح في تذكرٍ مدةٍ	يرضى بها الإصباح والإساء
مع كل مبدول الوصال ممنعٍ	من غيرنا تسمو به الخيلاء
كالظبي ، كالشمس المنيرة ، كالنقا	كالغصن يثني معطفينه رخاء
يسعى براح كالشهاب ، براحة	كالبلدر ، والوجه المنير ذكاء
ما لأن نحو الوصل حتى طال منه	الهجر واتصلت به البلواء
خير المحبة ما تأتت عن قلبي	تُدري ببؤس الفاقة النعماء
ما زلت أرقى بالقريض جنونه	حتى استكان ، وكان منه إباء
فظفرت منه بمدة لو أنها	دامت لدامت لي بها السراء

١ بكمالها : زيادة من نسخة ك .
٢ سيأتي شعر ابن سعيد في الباب الخامس من الكتاب .
٣ ط ج ق : فترى إذا ما مر ذكرى سائل .

صفوً تكدّر بالتحرك ، ليته
 إنَّ الفراق هو المنيّة ، إنّما
 لولا تذكّر لَدّة طابت لنا
 وجرى النسيمُ على الخليج مُعَطَّرًا
 ما كابدتُ نفسي أليمَ تفكّر
 يا نهرَ حمصٍ لا عدتْكَ مسرّةً
 كلُّ النفوس تهشُّ فيك كأنّما
 ودّي إليك مع الزمان مُجدّدٌ
 ولوّ اتّني لم أحيي ذكراً للذي
 ما كنتُ أطمعُ في الحياة لو أنّني
 غيري إذا ما بان حان ، وإنّما
 ما زال^١ ، لكن لا يردُّ قضاء
 أهلُ التوى ماتوا وهم أحياء
 بذراً الجزيرة حيث طاب هواء
 وتبدّدت في الدّوحة الأنداء
 ألوى به عن جفّتي الإغفاء^٢
 ماءً يسيلُ لديك أم صهّباء
 جمعتُ عليك شتاتها الأهواء
 ما إن يحولُ تذكّرٌ وعناء
 أوليتهُ ما كانَ فيّ حيّاء
 أيقنتُ أن لا يُستردّ لقاء
 أبقي حياتي ، حينَ بِنْتُ ، رجاء

وسيّأتي إن شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب ، بحسب ما
 اقتضته المناسبة ، والله تعالى المرجو في حسن المتاب ، وهو سبحانه لا إله إلا هو
 الموافق للصواب^٣ .

تم المجلد الأول

١ ق ط ج : ليه ما زلت .
 ٢ ك : الإغفاء .
 ٣ عند هذا الحد تنتهي النسخة ك ، وفي آخرها : « انتهى السفر الأول من كتاب نفح الطيب . . . الخ » .

محتويات المجلد الأول

٢٤ - ٥	مقدمة المحقق
٣٢ - ٢٥	نماذج من المخطوطات

١ - ١٢١ مقدمة المؤلف

١	خطبة الكتاب
١٣	حنين إلى الوطن
٣٣	ركوب البحر وبلوغ مصر
٣٩	زيارة مكة والمدينة
٥٤	زيارة بيت المقدس
٥٦	عود إلى مصر ثم إلى القدس
٥٨	الرحلة إلى دمشق
٦٩	ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين
٧١	اعتذار المؤلف عن تلبيةه للمطلب
٧٥	إصرار ابن شاهين على رأيه
٨٠	اعتزام المقرئ إجابته
٨١	وداع الشام
٩٩	شروعه في التصنيف بمصر
٩٩	رسالة من ابن شاهين تحثه على المضي
١٠٣	مقتطفات من رسالة ابن شاهين
١٠٦	تهنئ المؤلف لاستئناف التصنيف
١١٢	منهج الكتاب
١١٧	خاتمة المقدمة

القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار . . . [ثمانية أبواب تشمل الأجزاء ١ - ٤]

الباب الأول

٢٢٨ - ١٢٥	في وصف جزيرة الأندلس
١٢٥	مقدمات عامة في مزايا الأندلس
١٢٧	مساحتها وأبعادها
١٣٣	الأمم التي استوطنت الأندلس
١٣٦	موقع الأندلس من الأقاليم
١٣٧	رجع إلى الأمم التي استوطنتها
١٤٠	مناخها وخيراتها
١٤٤	الأندلسيون والأمم المجاورة
١٤٥	بحر المجاز
١٤٦	نبذة عن خراجها
١٤٧	خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها
١٤٧	شيء عن غرناطة وأعمالها
١٥٠	شهرة سرقسطة وبرجة ومالقة وأشبونة
١٥٣	نبذة عن قرطبة وشهرتها
١٥٦	إشبيلية وإقليمها
١٥٩	شهرة باجة وجبل طارق
١٦١	كورة طليطلة وما تشتهر به
١٦٢	مدينة المرية وما تشتهر به
١٦٤	شجرة وخواصها
١٦٤	شنش وسهيل وتدمير

١٦٥	أقاليم الأندلس وكور كل إقليم
١٦٧	الجزر البحرية
١٦٨	قرطاجنة وخواصها
١٧٠	رسالة أبي البحر في تغاير مدن الأندلس
١٧٥	عود إلى ذكر غرناطة
١٧٩	بلنسية وبعض قراها
١٨٢	متفرجات لإشبيلية
١٨٢	مومى بن سعيد يابى فراق الأندلس
١٨٤	شريس ومجبناتها
١٨٤	شلب وكورة أكشونية
١٨٦	أشعار في بطليوس وشاطبة وبرجة
١٨٦	رسالة للسان الدين في تفضيل الجهاد على الحج
١٩٠	تشبيه الأندلس بالعقاب
١٩٠	المخزومي الأعشى ونزهون الغرناطية
١٩٣	قصة من كتاب ابن الرقيق
١٩٦	قصر باديس بغرناطة
١٩٦	سرقسطة وخواصها
١٩٧	السمور بالأندلس
١٩٨	فراء القنلية
١٩٨	سائر حيواناتها وطيورها
١٩٩	أنواع الأفاويه فيها
٢٠٠	ثمارها وفواكهها
٢٠٠	معادنها وأحجارها وقرمزها
٢٠١	مصنوعاتها
٢٠٢	الأسلحة
٢٠٢	الآثار الأولية بالأندلس

٢٠٥	وصف ابن سعيد للأندلس
٢٠٦	بيلتا طليطلة
٢٠٨	عود إلى ذكر إشبيلية
٢٠٩	مقارنة ابن سعيد بين الأندلس وسواها
٢٠٩	أشعار في وصف الأندلس
٢١٠	رخاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل ^١
٢١٢	رد ابن سعيد على ابن حوقل
٢١٢	ابن سعيد يسرد تاريخ الأندلس
٢١٦	ابن سعيد يصف الخطط الأندلسية
٢١٦	١ - الوزارة
٢١٧	٢ - الكتابة
٢١٧	٣ - الخراج
٢١٧	٤ - القضاء
٢١٨	٥ - خطة الشرطة
٢١٨	٦ - الحسبة
٢١٩	٧ - خطة الطواف بالليل
٢١٩	الأندلسيون والتشريع
٢٢٠	الأندلسيون والتصوف
٢٢٠	الأندلسيون والعلوم والآداب
٢٢٢	الزري الأندلسي
٢٢٣	تدبير الأندلسيين ومروءتهم
٢٢٤	منهج كتاب المغرب
٢٢٦	خاتمة في نبذة جغرافية
٢٢٦	مقطعات في مدح الأندلس
٢٢٨	من خصائص الأندلس

الباب الثاني

٢٢٦ - ٢٢٩	في فتح الأندلس
٢٢٩	أخبار الفتح حسب مختلف الروايات
٢٤٣	خبر بيت الحكمة بالأندلس
٢٤٨	عود إلى أخبار الفتح
٢٥٠	ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائني وغيره
٢٨٠	نهاية موسى وابنه عبد العزيز
٢٨٢	عبد الرحمن الداخل
٢٨٣	مزيد بيان في نهاية موسى
٢٨٧	عود إلى ذكر التابعين بالأندلس
٢٨٨	مغانم الأندلس
٢٩٠	استيطان العرب في الأندلس
٢٩٨	ثبت بأسماء الأمراء
٣٠٠	حكّام بني أمية
٣٠٠	الحموديون
٣٠١	بقية بني أمية
٣٠١	ملوك الطوائف ومن بعدهم
٣٠٢	ترجمة جهور بن محمد من المطمح
٣٠٤	انتفاض حال الأندلس
٣٠٥	رسائل أبي المطرف ابن عميرة
٣١٣	تعريف بأبي المطرف
٣١٧	رسالة أخرى لأبي المطرف
٣١٩	رسالة غيرها لأبي المطرف
٣٢١	رسالة لسان الدين إلى ابن قلاوون

الباب الثالث

٣٢٧ — ٤٥٤

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي .

٣٢٧	عبد الرحمن الداخل .
٣٣٤	هشام بن عبد الرحمن .
٣٣٨	الحكم بن هشام .
٣٤٤	عبد الرحمن بن الحكم .
٣٥٠	محمد بن عبد الرحمن .
٣٥٢	المنذر بن محمد .
٣٥٢	عبد الله بن محمد .
٣٥٣	عبد الرحمن الناصر .
٣٥٦	هدية ابن شهيد الناصر .
٣٦٠	عود إلى أخبار الناصر .
٣٦٣	غزوات الناصر .
٣٦٤	الوفود على بلاط الناصر .
٣٧٢	ترجمة منذر بن سعيد عن المغرب .
٣٧٥	ترجمة منذر في المطمح .
٣٧٦	رجع لأخبار الناصر .
٣٨٠	ترجمة الوزير أحمد بن شهيد .
٣٨٢	الحكم المستنصر .
٣٨٨	وفود أردون على المستنصر .
٣٩٤	عود إلى سيرة الحكم .
٣٩٦ ✓	خلافة هشام بن الحكم وتسلط ابن أبي عامر .
٣٩٩	ترجمة المنصور عن ابن سعيد .
٤٠٢	الحاجب المصخفي عن المطمح .

٤٠٣	ترجمة المنصور في المطمح
٤٠٧	أخبار في سيرة المنصور
٤١٧	أخبار المنصور من كتاب الأزهار المنثورة
٤٢٠	عود إلى النقل عن المطمح
٤٢٣	عبد الملك المظفر
٤٢٤	عبد الرحمن شنجول
٤٢٦	بيعة المهدي بالله
٤٢٧	خبر الفتنة البربرية
٤٢٨	بيعة سليمان المستعين
٤٣١	بنو حمود
٤٣٥	خلافة المستظهر
٤٣٧	بيعة المستكفي والمعتد
٤٣٨	انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف
٤٣٨	ملوك الطوائف
٤٣٨	١ - بنو عباد وبنو جهور
٤٤٠	٢ - بنو ذي النون بطليطة
٤٤١	٣ - بنو هود بسرقة
٤٤٢	٤ - بنو الأفطس ببليوس
٤٤٢	اللمتونيون ثم الموحدون
٤٤٣	غزوة الأرك
٤٤٤	بين صلاح الدين ويعقوب الموحي
٤٤٥	الموحدون والأندلس
٤٤٦	العقاب والتياث أمر الموحدون
٤٤٦	ابن هود ومنافسه ابن الأحمر
٤٤٧	دولة بني الأحمر
٤٤٩	بين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر
٤٥٢	شيخ الغزاة أيام بني الأحمر

الباب الرابع

٤٥٥ - ٦٩٤

في ذكر قرطبة والزهراء والزاهرة

٤٥٥	نقول في وصف قرطبة
٤٦٦	متنزهات قرطبة
٤٨٠	نهرها وقنطرتها
٤٨١	رجع إلى قرطبة
٤٨٢	الفتنة البربرية
٤٩٠	استطرد في وصف المباني العامة
٥٠٠	البكاء على خراب العمران
٥٠٥	رجع إلى قرطبة - رسائل للسان الدين
٥١٩	رجع إلى أخبار قرطبة
٥٢٠	رجع إلى أخبار البنيان
٥٢٣	حديث عن الزهراء
٥٢٤	وصف ابن خلكان للزهراء
٥٢٦	رجع إلى بناء الزهراء
٥٢٨	قصور بني ذي النون
٥٢٩	أشعار ورسائل أندلسية في وصف المجالس
٥٣٨	قصيدة لابن خفاجة
٥٤٠	عود إلى عمران قرطبة
٥٤٢	قصيدة القرطبي والمتنزهات
٥٤٥	عود إلى مسجد قرطبة
٥٤٨	رجع إلى المنارة
٥٥٢	وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة
٥٥٥	تمام الحديث في متعلقات الجامع
٥٥٦	عمل أهل قرطبة حجة في الفقه

٥٥٨	رجع إلى وصف قرطبة ومسجدها .
٥٦٣	الزهراء
٥٧٠	بين الناصر ومنذر بن سعيد
٥٧٧	حديث ابن خلدون عن الزهراء
٥٧٨	الزاهرة
٥٨٥	المنصور وابن شهيد
٥٨٦	ترجمة الجزيري من المطمح
٥٨٨	رجع إلى المنصور
٥٩١	طرف من أخبار المنصور
٥٩٢	ترجمة المصحفي من المطمح
٥٩٥	عود وانعطاف إلى أخبار المنصور
٥٩٧	رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير
٦٠٠	رجع إلى أخبار المنصور الكبير
٦٠٥	المصحف العثماني بقرطبة .
٦١٥	شعر في قرطبة .
٦١٦	أبو المغيرة ابن حزم والجارية
٦١٨	المأمون والجارية
٦٢٠	ترجمة أبي المغيرة من المطمح
٦٢١	ترجمة ابن شهيد من المطمح
٦٢٣	استيلاء المعتمد على قرطبة
٦٢٧	ذكر المنتزهات في سياق التراجم
٦٢٧	١ - من ترجمة ابن زيدون في القلائد
٦٣٢	[موشحة ابن الوكيل]
٦٣٤	٢ - من ترجمة بني القبطورنة
٦٤٠	٣ - من ترجمة ابن حسداي
٦٤٣	٤ - من ترجمة ابن السيد
٦٥٠	٥ - من ترجمة ابن العطار

٦٥٢	٦ - من ترجمة ابن عمار
٦٥٧	٧ - من ترجمة ابن وهبون
٦٥٧	٨ - من ترجمة ابن طاهر
٦٥٩	٩ - من رسالة للفتح
٦٦١	١٠ - من ترجمة الرازي
٦٦٣	١١ - من ترجمة المتوكل
٦٦٦	١٢ - من ترجمة المتصم بن صامح
٦٦٧	١٣ - من ترجمة ابن دزين
٦٧٠	١٤ - من ترجمة ابن طاهر
٦٧١	١٥ - من ترجمة ابن عمار
٦٧٢	١٦ - من ترجمة ابن ليون
٦٧٣	١٧ - من ترجمة ابن رحيم
٦٧٣	١٨ - من ترجمة ابن عبدون
٦٧٤	١٩ - من ترجمة ابن مالك
٦٧٥	٢٠ - من ترجمة ابن السقاط
٦٧٦	٢١ - من ترجمة ابن أضحى
٦٧٧	٢٢ - من ترجمة ابن خفاجة
٦٧٨	٢٣ - من رسالة للفتح
٦٧٩	٢٤ - من ترجمة ابن عطية
٦٨١	قصائد لابن خفاجة
٦٩١	قصيدتان لابن سعيد
٦٩٥	محتويات المجلد الأول